وأصبحتُ
الكتاب
الأكثر مبيعًا
حول العالم
ميشيل
أوباما

ميشيل أوباما

وأصبحتُ

نقله عن الإنكليزية م. عبد الأحد، أ. سالم، إ. خضرا

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدر عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان.

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Miller Mobley**
تصميم الغلاف: **Christopher Brand**

متابعة النشر: **بسكال قهوجي**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-305-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-306-3

Original title
Becoming
© Michelle Obama, 2018
Published in the United States by Crown,
an imprint of the Crown Publishing Group,
a division of Penguin Random House LLC, New York

إلى كلّ الذين ساعدوني لأصبح ما أنا عليه:
الأشخاص الذين ربّوني: فرايزر، وماريان، وكريغ، وعائلتي الأوسع،
النساء القويّات من حولي اللواتي لم يتوانَين عن دعمي،
فريق عملي الوفيّ والمخلص الذي هو دومًا محطّ فخري،

إلى منابع الحبّ في حياتي:
ماليا وساشا، زهرتَيّ الغاليتين وسبب وجودي،
وأخيرًا، إلى باراك الذي لطالما وعدني برحلةٍ ممتعة.

مقدمة

آذار/مارس 2017

عندما كنت طفلة، كانت طموحاتي بسيطة. أردت اقتناء كلب. وأردت منزلًا بأدراج داخليّة – طبقتين لعائلة واحدة. ولسببٍ ما، أردت سيّارة ستايشن بأربعة أبواب، بدلًا من سيّارة البويك ذات البابين التي كانت محطّ فخر أبي وسعادته. كنت أخبر الجميع بأنّني سأصبح طبيبة أطفال عندما أكبر. لماذا؟ لأنّني أحببتُ التواجد مع الأطفال، ولأنّني سرعان ما فهمت أنّ إجابة كهذه تسرّ الكبار. «طبيبة! خيار ممتاز!» في تلك الأيّام، كنت أعقد ضفائري وأتأمّر على أخي الأكبر سنًّا، وأنال علامات الامتياز في المدرسة دائمًا ومهما حصل. كنت طموحًا، وإن لم أعرف تمامًا ما أصبو إليه. اليوم، أرى أنّ السؤال الذي يطرحه الكبار عادة على كلّ صغير – ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ – هو من الأسئلة الأكثر عبثيّة، إذ يَفترض أنّ بلوغ سنّ الرشد يرتبط بأجلٍ محدّد؛ كأنّك ستصبح يومًا ما شخصًا مهمًّا، وستكون تلك هي النهاية.

يومًا ما، كنت محاميةً. كنت نائبَ رئيس في مستشفى، ومديرة مؤسّسة لا تبتغي الربح تساعد الشباب في التأسيس لحياة مهنيّة مثمرة. كنت تلميذةً سوداء من الطبقة العاملة، في كلّية مرموقة تضمّ أكثريّةً من البيض. كنتُ المرأة الوحيدة – المرأة الأفريقيّة الأميركيّة الوحيدة – في شتّى أنواع الغرف. كنت عروسًا، وأمًّا حديثة العهد مرهقة، وابنةً مزّقها الأسى. وفي يوم

ليس ببعيد، كنتُ السيدة الأولى في الولايات المتّحدة الأميركيّة – وهي ليست وظيفة بالمعنى المتعارف عليه – لكنّها أتاحت لي منبرًا لا مثيل له. هذا المنصب دفع إليّ بالتحدّيات ودفعني إلى التواضع؛ حفّزني وقزّمني، وأحيانًا، جعلني أتعامل مع هذا كلّه في آنٍ واحد. بالكاد بدأت أستوعب الآن ما جرى خلال السنوات الأخيرة؛ منذ تلك اللحظة التي بدأ زوجي الحديث عن الترشّح للرئاسة، العام 2006، وصولًا إلى ذلك الصباح الشتوي البارد، عندما رافقتُ ميلانيا ترامب في سيّارة الليموزين، لحضور حفل تنصيب زوجها. كانت رحلةً مثيرة.

عندما تصبحين السيّدة الأولى، تتجلّى أميركا لك إلى أقصى الحدود. حضرتُ حفلات لجمع التبرّعات في منازل خاصّة بدت أشبه بالمتاحف، فيها مغاطس صُنِعَت من الأحجار الكريمة. زرتُ عائلات فقدت كلّ شيء في إعصار كاترينا، وكانت متأثّرةً وممتنّة مجرّد وجود برّادٍ يعمل أو فرنٍ يشتعل. قابلتُ أشخاصًا وجدتهم سطحيّين ومنافقين، وآخرين – أساتذة وزوجات جنود وغيرهم كُثرًا – أدهشوني بصلابتهم وشجاعتهم الراسخة. وقابلتُ أطفالًا – كثرًا منهم، في شتّى أنحاء العالم – رسموا البسمة على وجهي وملأوني أملًا، وتمكّنوا من تناسي لقبي عندما بدأنا نعبث معًا في تراب إحدى الحدائق.

منذ دخولي المتردّد إلى الحياة العامّة، نُظِرَ إليّ كأقوى امرأة في العالم، وهوجِمت باعتباري «امرأة سوداء غاضبة». أردتُ أن أسأل أولئك الذين هاجموني أيّ كلمة كانت تهمّهم أكثر: «امرأة» أم «سوداء» أو «غاضبة»؟ ابتسمتُ لدى التقاط صورٍ مع أشخاص ينعتون زوجي بأبشع الصفات على الشاشات المحليّة، لكنّهم يرغبون، مع ذلك، في صور تذكاريّة يعرضونها على رفوفهم. سمعتُ عن تلك الثرثرات القذرة على الإنترنت التي تشكّك في كلّ ما يتعلّق بي، إلى درجة التساؤل ما إذا كنتُ امرأةً أم رجلًا. سخر نائب في الكونغرس الأميركيّ من حجم مؤخّرتي. جُرحـتُ وغضبتُ. لكن غالبًا ما حاولتُ تلقّي كلّ ذلك بحسّ الدعابة.

ما زال هناك الكثير ممّا لا أعرفه عن أميركا، وعن الحياة، وعمّا

يخبّئه المستقبل. لكنّي أعرف نفسي. لقد علّمني والدي، فرايزر، أن أعمل بجهد، وأضحك غالبًا، وأفي بوعودي. وعلّمتني والدتي، ماريان، كيف أفكّر باستقلاليّة، وكيف يكون صوتي مسموعًا. معًا، في شقّتنا المزدحمة في الجزء الجنوبي من شيكاغو، ساعدني والداي على رؤية المغزى في قصّتنا، في قصّتي أنا، في قصّة بلادنا الكبرى؛ حتّى عندما لا تكون جميلة أو مثاليّة. وحتّى عندما تكون حقيقيّةً أكثر ممّا تريدها أن تكون. قصّتك هي كلّ ما لديك، وما سيكون لديك على الدوام. إنّها ملكك.

ثماني سنوات عشتها في البيت الأبيض الذي احتوى على أدراج أكثر ممّا يمكنني إحصاؤه – إضافة إلى مصاعد وصالة بولينغ ومحلّ لتنسيق الورود. نمتُ في سرير مفروش بالأغطية الإيطاليّة. أعدّ وجباتِ طعامنا فريقٌ من أمهر الطهاة في العالم، وقدّمها لنا محترفون أكثر تمرّسًا من أمهر المحترفين في خدمة المطاعم الفخمة، وفنادق الخمس نجوم. وقف رجال الأمن، بسمّاعاتهم وأسلحتهم وتعابير وجوههم الباردة المتعمَّدة، خارج أبواب غرفنا، باذلين أقصى جهودهم للبقاء خارج حياتنا العائليّة. في النهاية، اعتدنا الأمرَ، إلى حدٍّ ما – اعتدنا تلك الفخامة الغريبة في بيتنا الجديد، كما حضورَ الآخرين الدائم والصامت.

في البيت الأبيض نفسه، لعبَت ابنتانا كرة المضرب في الأروقة، وتسلّقتا الأشجار في الحديقة الجنوبيّة. هناك، سهر باراك الليالي، منكبًّا على مراجعة الملخّصات، متمعّنًا في مسودّات الخطابات داخل «غرفة المعاهدة». وهناك أيضًا كان ساني، أحد كلابنا، يترك أحيانًا فضلاتِه على البساط. كنت أقف على شرفة ترومان، وأراقب السيّاح يأخذون صور السيلفي ويحدّقون عبر السياج الحديد، محاولين التكهّن بما يدور في الداخل. مرّت أيّام شعرت فيها بالاختناق، إذ كان لا بدّ من إبقاء النوافذ مقفلة طوال الوقت لدواعٍ أمنيّة، فلم يكن في إمكاني تنشّق الهواء من دون إحداث جلبةٍ كبيرة. وفي أوقات أخرى، كنت أشعر بالذهول إزاء زهرات الماغنوليا البِيض التي تتفتّح في الخارج، والصخبِ اليوميّ للعمل الحكوميّ، وعظمة التحيّة العسكريّة. ومرّت أيّام، وأسابيع،

وأشهر كرهت فيها السياسة. وفي أوقات أخرى، غمرني جمال هذه البلاد وشعبها إلى درجة عجزي عن الكلام.

ثمّ انتهى كلّ شيء. كنت أعلم ما سيحدث، والأسابيع الأخيرة كانت مليئة بمشاعر الوداع الحانية. بقيت مجريات اليوم الأخير ضبابيّة في ذهني. يدٌ تُوضَع فوق الكتاب المقدّس، وقسمٌ يستعاد. أثاثُ رئيسٍ يُحمل إلى الخارج، وأثاثُ رئيسٍ آخر يُنقل إلى الداخل. تُفرّغ خزائنُ، ويُعاد ملؤها خلال ساعات قليلَة. وهكذا، كأنّ شيئًا لم يكن، تستلقي رؤوس جديدة على وسائد جديدة؛ أشخاص جدُدٌ، وأحلام جديدة. وعندما ينتهي كلّ شيء، عندما تخرج من باب المكان الأكثر شهرة في العالم آخر مرّة، تترَك بشتّى الطرائق لتبحث عن نفسك من جديد.

هنا، سأبدأ بحادثة بسيطة حصلت منذ وقتٍ قريب. كنت في البيت ذي القرميد الأحمر الذي انتقلت إليه عائلتي حديثًا. يقع بيتنا الجديد في شارع سكنيّ هادئ، على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا من منزلنا القديم. كنّا لا نزال في مرحلة الاستقرار. في غرفة الجلوس، وضعنا الأثاث بالطريقة نفسها التي عهدناها في البيت الأبيض. امتلأت أنحاء البيت بتذكارات تُثبت أنّ كلّ ما حصل كان حقيقيًّا: صور لعائلتنا في كامب ديفيد، وأوعية فخّار يدويّة الصنع قدَّمها لي طلّاب أميركيّون أصليّون، وكتاب وقَّعه نيلسون مانديلا. الغريب في تلك الليلة أنّ الجميع كانوا غائبين: باراك مسافر، وساشا خرجت مع صديقاتها. أمّا ماليا، فكانت تقيم في نيويورك وتعمل فيها، حيث تنقطع سنة عن الدراسة قبل دخول الجامعة. لم يكن هناك غيري، وكلبينا، في بيت ساكن وفارغ كما لم أعهده من قبل، أي منذ ثماني سنوات.

كنت جائعة. نزلت الدرج من غرفة النوم، والكلبان في أعقابي. في المطبخ، فتحت البرّاد. وجدتُ خبزًا، تناولت قطعتين، ووضعتهما في الـ«توستر». فتحت إحدى الخزانات وأخرجت صحنًا. أعرف كم يبدو كلامي هذا غريبًا: ولكن، أن أتناول صحنًا من الخزانة من دون أن يصرّ أحدٌ على القيام بذلك عوضًا عنّي، وأن أقف بمفردي أراقب الخبز في الـ«توستر» يكتسب اللون البنّي،

أشعراني بالعودة إلى حياتي القديمة. أو لعلّها حياتي الجديدة تؤذن ببدايتها.

في النهاية، لم أحضّر التوست فحسب، بل التوست بالجبنة، وقد نقلت قطعتَي الخبز المحمّصتين إلى المايكرويف لتذوب قطعة التشدر اللزجة بينهما. بعد ذلك، حملت صحني خارجًا إلى الباحة خلف المنزل. لم يكن عليّ أن أخبر أحدًا بوجهتي. ذهبت وحسب. كنت حافية القدمين، وأرتدي بنطالًا قصيرًا. كان برد الشتاء قد انحسر، وبدأت أزهار الزعفران تشقّ التراب في محاذاة جدارنا الخلفيّ. كان الجوّ يعبق بنسمات الربيع. جلست على درجات الشرفة أشعر تحت قدميّ بالدفء الذي خلّفته شمس النهار في الأرضيّة. تناهى إلى سمعي نباح كلبٍ من مكانٍ قريب، فوقف كلباي يصغيان إليه بشيء من الارتباك. أظنّ أنّ الصوت بدا صاخبًا بالنسبة إليهما، إذ لم يكن لدينا جيران في البيت الأبيض، ناهيك عن أيّ كلب. كانت تلك تجربة جديدة للكلبين. وبينما ابتعدا لاستكشاف الحديقة، رحتُ أتناول طعامي في الظلام، أستمتع بوحدتي بأفضل طريقة ممكنة. لم يكن تفكيري مشغولًا بمجموعة الحرّاس المسلّحين الجالسين في المركز المخصّص لهم داخل المرأب، على مسافة تقلّ عن مئة متر، ولا بأنّني ما زلت لا أستطيع السير في الشارع من دون تخطيط أمنيّ مسبق. لم أكن أفكّر في الرئيس الجديد، ولا حتّى في الرئيس القديم.

كنت أفكّر في كيفيّة دخولي منزلي بعد دقائق قليلة، أغسل صحني، وأذهب إلى السرير وربّما أفتح إحدى النوافذ لأشعر بنسمات الربيع. كم سيكون ذلك عظيمًا! كنت أفكّر أيضًا في أنّ السكون يعطيني الفرصة الحقيقيّة الأولى للتفكير والتأمّل. عندما كنتُ السيّدة الأولى، كنتُ كلّما بلغتُ نهاية أسبوع حافل أنسى تمامًا بدايته. لكنّ إحساسي بالوقت بدأ يصبح مختلفًا. دخلت ابنتاي البيتَ الأبيض مع مجموعة من دمى Polly Pockets، وغطاء رقيق اسمه بلانكي، ولعبة محشوّة على شكل نمر اسمها تايغر. اليوم، أصبحتا شابّتين لكلٍّ منهما مشروعاتها المستقلّة وآراؤها الخاصّة. أمّا زوجي فيتأقلم شيئًا فشيئًا مع حياته الجديدة، في

مرحلة ما بعد البيت الأبيض، محاولًا التقاط أنفاسه. وها أنا في هذا المكان الجديد الآن، ولديّ الكثير لأقوله.

وأصبحتُ أنا

1

أمضيتُ طفولتي وأنا أستمع لأصوات المثابرة. جاء ذلك على شكل موسيقى سيّئة، أو بالأحرى على وقع موسيقى يعزفها هواةٌ، فتتسرّب من الأرضيّة الخشب إلى غرفتي. توالت أصوات الضربات على مفاتيح البيانو الخاصّ بعمّة والدتي، روبي، في الطبقة السفلى، وطلّابها يتدرّبون ببطءٍ ومن دون إتقان على معزوفاتهم. سكنت عائلتي منطقة South Shore، في شيكاغو، في بيت قرميد أنيق، تعود ملكيّته للعمّة روبي وزوجها تيري. استأجر والداي شقّةً في الطبقة الثانية، بينما أقامت روبي وتيري في الطبقة الأولى. كانت روبي كريمة ومعطاء مع أمّي خلال سنين، لكنّها كانت مصدر رعبٍ لي. قادت الكورس في كنيسة محليّة بتزمّتٍ وجدّية وكانت مدرّسة البيانو المعتمدة في منطقتنا السكنيّة. انتعلت أحذية عمليّة ومريحة، واحتفظت بنظّاراتها معلّقة بسلسلة حول عنقها. كانت ابتسامتها حذقة، لكنها لم تكن تقدّر روح الدعابة مثل أمّي. كنت أسمعها أحيانًا وهي توبّخ التلامذة لإهمالهم التمارين المطلوبة، أو الأهل إذا تأخّروا في إحضار أولادهم إلى حصص البيانو.

«ليلة سعيدة!»، كانت روبي تصرخ أحيانًا في منتصف النهار، بالعصبيّة ذاتها التي قد يصرخ فيها شخصٌ آخر: «بحقّ الله!». قلائل هم مَن نجحوا في الارتقاء إلى مقاييسها الصارمة.

باتت نغمات التلامذة المواظبين على الدروس خلفيّةً موسيقيّة

لحياتنا. كانت ضربات البيانو تُسمَع بعد الظهر، كما في المساء. في بعض الأحيان، كانت مرتّلات الكنيسة يأتين للتدرّب على أناشيدهنّ، فترتجّ جدران منزلنا بأصوات التقوى والإيمان. واقتضت قواعد روبي ألّا يُسمَح لتلامذة البيانو بأن يتعلّموا أكثر من أغنيةٍ واحدة في الوقت عينه. كنت أستمع إليهم من غرفتي وهم يتعثّرون في أداء النوتات المتردّدة، ويحاولون نيل رضا روبي، فلا ينجحون في التدرّج من تعلّم أغنية Hot Cross Buns إلى تهويدة برامز، إلّا بعد جهد جهيد. ولم تكن الموسيقى مزعجةً يومًا، بل مثابرة ليس إلّا. كانت تتسلّل عبر الدرج الذي يفصل بيننا وبين روبي، وتعبر، من خلال النوافذ المفتوحة في الصيف، لتصاحب أفكاري وأنا ألعب مع دمى الـ«باربي» خاصتي، أو أبني ممالكَ صغيرة من المكعّبات الملوّنة. وكان الخلاص الوحيد هو عودة والدي من عمله في منشأة المدينة لتكرير المياه، ليتابع فريقه المفضّل في لعبة البيسبول، The Chicago Cubs، فيرفع صوت التلفزيون عاليًا، ما يتكفَّل بحجب الموسيقى.

تلك كانت حقبة نهاية الستينيّات، في الجزء الجنوبي من شيكاغو. لم يكن الـ Cubs فريقًا سيّئًا، لكنّه لم يكن فريقًا عظيمًا أيضًا. كنت أجلس في حضن والدي وأستمع له يروي كيف كان الفريق يعاني في آخر الموسم، أو كيف سدَّد بيلي ويليامز – الذي كان يسكن في جوارنا، في جادّة كونستانس – ضربةً رائعة من الجهة اليسرى. خارج أجواء الملاعب، كانت أميركا تخوض تحوّلًا هائلًا وغير واضح، حيث تعرَّض الأخوان كينيدي للاغتيال وقُتِلَ مارتن لوثر كينغ جونيور، وهو يقف على شرفة أحد مباني ممفيس، الحدث الذي انطلقت على أثره أعمال الشغب في البلاد، بما في ذلك شيكاغو. وتحوّل المؤتمر الوطنيّ الديمقراطي العام 1968، مناسبةً دمويّة عندما لاحق أفراد الشرطة المتظاهرين المحتجّين على حرب فيتنام، بالهراوات والغاز المسيّل للدموع، في غرانت بارك الذي يبعد حوالى خمسة عشر كيلومترًا شمالًا من مسكننا. في هذه الأثناء، كان البيض ينزحون من المدينة مع عائلاتهم بأعداد كبيرة، وقد جذبهم بريقُ

الضواحي، والأمل بمدارس أفضل، ومساحات أكبر، وربّما المزيد من البياض أيضًا.

لم يعلق أيٌّ من ذلك في ذهني في الواقع. كنت طفلةً تلهو بدمى الـباربي والمكعّبات الملوّنة، وتعيش مع والدين وأخٍ أكبر سنًّا ينام كلّ ليلة ورأسه على بعد سنتمرات من رأسها. كانت عائلتي عالمي، ومحورَ كلّ شيء بالنسبة إليّ. علّمتني أمي القراءة باكرًا، اصطحبتني إلى المكتبة العامّة، وجالستني وأنا أتهجّأ الكلمات. كان أبي يذهب إلى العمل كل يوم، مرتديًا الزيّ الأزرق الخاص بعمّال المدينة، ويأتي في الليل لينمّي فينا حبّ موسيقى الجاز، والحسّ الفنّيّ.

في صغره، تابع أبي دروسًا في كلّية شيكاغو للفنون، ثمّ زاول الرسم والنحت في المدرسة الثانويّة. كان سبّاحًا ماهرًا وملاكمًا أيضًا في المدرسة. من ثمّ اعتاد متابعة المباريات الرياضيّة على أنواعها على شاشة التلفزيون، من الغولف إلى الهوكي، ولطالما أحبّ رؤية الأشخاص الأقوياء يتميّزون في عملهم. عندما أبدى أخي كريغ اهتمامًا بلعبة كرة السلة، وضع أبي نقودًا معدنًا فوق إطار باب المطبخ، وراح يشجّعه على القفز نحوها.

كان كلّ ما يهمّني في الحياة يتمركز ضمن دائرةٍ تضمُّ خمسة مبانٍ: منزل جدّيَّ وأولاد أخوالي وخالاتي، الكنيسة في الزاوية التي لم نواظب على زيارة مدرستها أيّام الآحاد، محطّة الوقود التي كانت أمّي ترسلني إليها لأشتري لها سجائر Newport، ومحل المشروبات الذي كان يبيع أيضًا الخبز Wonder Bread وحبّات السكاكر الرخيصة والحليب. وفي ليالي الصيف الحارّة، كنت أغفو وكريغ على وقع هتافات مشجّعي مباريات السوفتبول في الحديقة العامّة قرب المنزل، حيث كنّا نتسلّق الأراجيح ونلعب اللقيطة مع الأولاد خلال النهار.

كان فارق السنّ بيني وبين كريغ أقلّ من سنتين. ورث أخي عينَي أبي الدّقيقتين، وروحه المتفائلة، وطباعَ أمّي الحادّة. لطالما كنّا قريبين جدًّا، وربّما يكون مردّ ذلك إلى رابط قويٍّ شعر به كريغ نحو أخته الصغيرة منذ البداية. ثمّة صورة قديمة لنا، بالأسود

والأبيض، جمعتنا نحن الأربعة جالسين على كنبة، تظهر فيها أمّي مبتسمة، وهي تضمّني إلى حضنها، بينما يبدو أبي بملامح فخور وجادّة، آخذًا كريغ في حضنه. كنّا نرتدي ثيابًا لائقة للذهاب إلى الكنيسة، أو ربّما إلى عرس. في تلك الصورة، كنت بلغت حوالى الثمانية أشهر، وبدوت بوجهٍ منتفخ ومشاكس، تضع أمّي لي حفّاظًا وتُلبسني فستانًا أبيض مكويًّا، مستعدّةً للتملّص من يدَي أمّي، وملتهمةً الكاميرا بعينيّ. بدا كريغ إلى جانبي كسيّدٍ أنيق، يضع ربطة عنق في شكل فراشة وجاكيت، وكانت نظرته تنضح بالجدّيّة. كان كريغ في عمر السنتين؛ وقد بدا عليه الشعور بالحرص والمسؤوليّة، إذ امتدّت ذراعه نحوي، والتفَّت أصابعه حول معصمي السمين.

في الفترة التي التُقِطَت تلك الصورة، كنّا نقطن في الطبقة ذاتها التي كان يسكنها جدّي وجدّتي لأبي في Parkway Gardens، وهو مشروع سكنيّ عصريّ يتّألف من مبانٍ تضمّ شققًا عدّة. شُيِّد المشروع خلال الخمسينيّات لتأمين مساكن لعائلات السود من الطبقة العاملة بعد النقص الذي برز عقب الحرب العالميّة الثانية. مع مرور السنين، رزح المشروع تحت وطأة الفقر والعنف الذي مارسته العصابات، ليصبح واحدًا من أخطر أحياء شيكاغو. ولكن قبل ذلك بكثير، عندما كنت طفلة صغيرة، وافق والداي – اللذان التقيا مراهقين، وتزوّجا في منتصف العشرينيّات من العمر – على الانتقال بضعة كيلومترات جنوبًا، إلى منطقة أجمل، للسّكن مع روبي وتيري.

في جادّة يوكليد، كنّا عائلتَين تعيشان تحت سقفٍ صغير نسبيًّا. كانت الطبقة الثانية مصمّمةً خصّيصًا لشخصٍ واحد أو شخصين، ربّما ليضمّ أهل العروس أو أهل العريس، لكنّناً تدبّرنا أمرنا لنعيش في البيت نحن الأربعة! كان والداي ينامان في غرفة النوم الوحيدة. بينما شغلتُ مع كريغ المساحة الكبرى، والتي كانت على الأرجح غرفة جلوس. لاحقًا، تولّى جدّي لأمّي، بيرنيل شيلدز – الذي كان يهوى النجارة، إن لم نقل متمرّسًا فيها – إحضار ألواح خشب رخيصة، وجعلها جدارًا يقسم الغرفة إلى

قسمين شبه مستقلّين. ثمّ أضاف بابًا من البلاستيك جرّارًا إلى كلّ منهما، ويترك مساحة مشتركة نضع فيها ألعابنا وكتبنا.

أحببت غرفتي. كانت تتّسع لسرير مزدوج، ومكتب ضيّق فحسب. احتفظت بالدمى المحشوّة على سريري، واعتدت أن أرتّبها بعناية، كلّ ليلة، حول رأسي. من الجهة الثانية، كان كريغ يعيش حياةً موازية على سريره المستند إلى الحاجز. كان الفاصل بيننا رقيقًا جدًّا، ما مكّننا من تجاذب أطراف الحديث من سريرينا خلال الليل، ومن رمي الجوارب الملفوفة على شاكلة كرة، عبرَ الفتحة العليا بين الحاجز والسقف، البالغة خمسة وعشرين سنتيمترًا تقريبًا. وقد تعاملت العمّة روبي مع الجزء الخاصّ بها من البيت كأنّه مقدّس. احتفظت بغطاءٍ بلاستيك واقٍ على الأثاث، كلن يُشعرني بالبرودة ويلتصق بساقيّ العاريتَين إذا ما تجرّأت وجلست عليه. وغصّت رفوفها بتماثيل من البورسلين لم يُسمَح لنا بلمسها قطّ. كنت أمرر يدي فوق تماثيلَ زجاج لكلابٍ بملامح جميلة – أمّ رقيقة وثلاثة جراء – ثمّ أسحبها بسرعةٍ، خوفًا من إثارة غضب روبي. وإذا ما استثنينا مواعيد حصص البيانو، كان يسود الطبقة الأولى صمت مطبق. ولم يشغّل التلفزيون ولا الراديو يومًا. ولست متأكّدة حتّى ممّا إذا كانت العمّة روبي وزوجها يتبادلان الحديث كثيرًا. كان اسم زوج روبي الكامل ويليام فيكتور تيري. لكنّنا، ولسببٍ مجهول، كنّا نناديه تيري. كان تيري أشبه بشبح؛ رجلًا أنيقًا يرتدي يوميًا بذلةً من ثلاث قطع، ولا ينبس ببنت شفة.

ترسّخت لدي قناعةٌ بوجود عالمين مختلفين في الطبقتين، السفلى والعليا، تتحكّم فيهما عقليّتان متباينتان. في الطبقة العليا، كنّا صاخبين من دون أن نشعر بحاجة إلى الاعتذار عن ذلك. كانت الكرات تطير بيني وبين كريغ، وكان يطارد بعضنا بعضًا في أنحاء الشقة كلّها. اعتدنا أن نرشّ الـ Pledge على الأرضيّة الخشب لتسهيل الانزلاق بجواربنا القطن عليها، وغالبًا ما كنّا نرتطم بالجدران. أقمنا مباريات ملاكمة في المطبخ، مستخدمَين قفّازات الملاكمة التي أهدانا إيّاها أبي في عيد الميلاد، وكانت

مرفقة بتعليمات محدّدة حول كيفية توجيه لكمة ناجحة إلى الخصم. في الليل، كنّا نلعب نحن الأربعة ألعابًا اجتماعية، ونروي القصص والنكات، ونستمع لألبومات فرقة «جاكسون 5» بجهاز الستيريو. عندما كنّا نبالغ في إحداث جلبة، كانت روبي تحرّك زرّ الإنارة عند الدرج المشترك بين الشقتين، والذي ينير أيضًا رواقنا، مرّات عدّة، وهي طريقتها المهذّبة لتطلب منّا الهدوء.

كان تيري وروبي كبيرين، وانتميا إلى حقبة مختلفة، بهمومٍ مختلفة. لقد واجها أمورًا لم يعرفها والداي. وهي أمور لم تكن لتخطر على بالنا، كريغ وأنا، في طفولتنا الصاخبة. وكان ذلك الحجة التي تستخدمها أمّي ردًّا على اعتراضنا على الصرامة القاسية الآتية من الطبقة السفلى. وعلى رغم جهلنا ظروفهما في تلك الحقبة، كان والداي يتوقّعان منّا أن نأخذ تلك الظروف في الاعتبار. كانا يقولان لنا دائمًا، أنّ كلّ شخص على الأرض يحمل تاريخًا مخفيًا، وأنّ ذلك، بحدّ ذاته، يستدعي التسامح. عرفت مثلًا، بعد سنواتٍ عدّة، أنّ روبي رفعت دعوى قضائيّة ضدّ جامعة نورث وسترن بتهمة التمييز العرقي؛ بعد أن تسجّلت في ورشة لتعلّم موسيقى الكورال العام 1943، وحُرِمَت من الإقامة في مباني السكن الجامعي المخصّصة للنساء، وطُلِبَ منها التوجّه إلى بيت جماعيّ في المدينة خُصِّصَ «للملوّنين»، وفق ما قيل لها وقتذاك. أمّا تيري، فقد عمل موظّفًا على خطّ القطارات الليليّة المتوجّهة من شيكاغو وإليها. كانت وظيفته محترمةً، إن لم نقل مجزية. واقتصرت على توظيف رجال سود ببذلات مرتّبة لا تشوبها شائبة لم تكن تمنعهم من حمل الحقائب، وتقديم وجبات الطعام، والاهتمام بحاجات ركّاب القطارات، بما في ذلك مسح الأحذية.

حتّى بعد تقاعده بسنوات، ظلّ تيري يحافظ على أناقته اليوميّة المتقنة، واستعداده الدائم للخدمة، وتجنّبه إثباتَ حضوره بأيّ وسيلة – هذا في الأقلّ ما كنت أراه. بدا أنّه تخلّى عن جزء من ذاته، في محاولةٍ منه لتدبّر أموره. كنت أراقبه وهو يجزّ العشب في حديقتنا في حرّ الصيف القائظ، منعلًا حذاءً جلدًا، ومرتديًا حمّالات، ومعتمرًا قبّعة لها طرف رفيع، فيما أكمام قميصه

الرسمي مطويّة بعناية حتّى منتصف الذّراع. كان تيري يدلّل نفسه بتدخين سيجارةٍ واحدة في اليوم، وشرب كأس واحدة من الكحول مرّة واحدة في الشهر. لكنّه، مع ذلك، لم يسمح لنفسه بالاسترخاء كما كان يفعل والداي، عند معاقرة الخمر أو جعّة الـ Schlitz بضع مرّات في الشهر. ثمّة شيء في داخلي أراد من تيري أن يتكلّم، وأن يبوح بأسراره. تخيّلت أنّه يعرف قصصًا كثيرة مسلّية عن المدن التي زارها، وعن تصرّفات الأثرياء على متن القطارات اللائقة منها وغير اللائقة.. بيد أنّ شيئًا من ذلك لم يحدث قطّ. ولسببٍ ما، لم يبح تيري بما يعرفه.

كنت في الرابعة من عمري تقريبًا، عندما قرَّرت أن أتعلَّم العزف على البيانو. كان أخي كريغ الذي دخل الصفّ الأوّل، يتجوّل ذهابًا وإيابًا إلى الطبقة الأولى، لتلقّي دروس أسبوعية على يد روبي الصارمة، ويعود سالمًا في كلّ مرّة. فظننتُ أنّني مستعدّة لذلك. وكنتُ شبه مقتنعة بأنّني قد تعلَّمت، فعليًّا، العزف على البيانو من خلال الساعات الطويلة التي أمضيتها، وأنا أرى أطفالًا آخرين يتعثّرون في أداء معزوفاتهم. كانت الموسيقى راسخة في رأسي، وكلّ ما أردته هو النزول إلى الطبقة الأولى لأثبت موهبتي الخارقة لعمّتي الصارمة، بحيث أصبح تلميذتها المفضّلة، من دون أن يتطلّب ذلك منّي جهدًا يُذكر...

كان البيانو يشغل غرفة مربّعة صغيرة بالقرب من نافذةٍ تطلّ على الباحة الخلفية للمنزل. وضعت روبي نبتة خضراء في إحدى زوايا الغرفة، وفي زاوية أخرى، طاولةً قابلة للطّيّ ليستخدمها طلّابها. خلال الدروس، كانت تجلس بظهرٍ مستقيم على كنبة منجّدة عالية، وتضبط الإيقاع بإصبعٍ واحدة، وبرأسٍ مائلٍ، مصغيةً بجوارحها كلّها، مترقّبةً أصغر هفوة. هل كنت أخاف روبي؟ لا أظنّ ذلك. ولكنّني لن أنكر أنّ ثمّة ما كان مخيفًا في تصرّفاتها؛ إذ مثَّلت نوعًا صلبًا من السلطة لم أعهده من قبل. فهي توقَّعت التميّز من كلّ طفل جلس أمامها على كرسي البيانو. رأيتها شخصًا يُمكن نيل استحسانه أو كسبه حتّى. ففي حضورها، كان عليّ دومًا أن أثبت أمرًا ما.

في درسي الأوّل، تدلّت رجلاي عن مقعد البيانو، إذ كنت أقصر من أن تبلغ رجلاي الأرض. أعطتني روبي دفتري الموسيقي الأوّل الذي أثار حماستي، وأرتني كيف أضع يدَيّ على المفاتيح، بالطريقة الصحيحة.

«انتبهي جيّدًا!»، قالت روبي، مؤنّبةً قبل أن نبدأ حتّى: «أرِيني المفتاح دو».

عندما تكون طفلًا، يبدو لك البيانو مؤلّفًا من ألف مفتاح. فسحة من الأبيض والأسود تمتدّ أبعد ممّا تطاوله اليدان الصغيرتان. لم يطل بي الأمر حتّى تعلَّمت أنّ المفتاح دو هو النقطة المحوريّة، والخّط الفاصل بين مسار اليدين اليمنى واليسرى، وبين النوتات المرتفعة والمنخفضة. وإذا استطعت وضع إبهامك على المفتاح دودو، فكلّ شيء سيأخذ مكانه الطبيعي بشكلٍ تلقائيّ. ترك الزمن أثره على مفاتيح بيانو روبي، بحيث بدت كصفٍّ من الأسنان المهمَلة. ولحسن الحظّ، فقدَ المفتاح دودو زاويةً كاملة، بحجم ظفري، ما مكّنني من التعرّف إليه بيسرٍ وسرعة في كلّ مرّة.

تبيَّنَ لي في ما بعدُ، أنّني أحببت العزف على البيانو. وبدا الجلوس أمامه أمرًا طبيعيًّا كنت مهيّأةً له. والواقع أنّ عائلتي ضمَّت كثرًا من الموسيقيّين وعشّاق الموسيقى، بخاصّةٍ من جهة أمّي؛ إذ كان لي خال يعزف في فرقة موسيقيّة محترفة. كما كانت كثيرات من خالاتي يغنّين في كورالات الكنائس، فضلًا عن العمّة روبي التي أدارت، إضافة إلى الجوقة ودروس الموسيقى، حلقةً تعليميّة، بموازنة متقشّفة، تبسّط أصولَ المسرح الغنائي للصّغار، أسمتها «Operetta Workshop». كنت أحضر صفوفها، برفقة أخي كريغ، في فترات الصباح أيّام السبت في الطبقة السفلى من الكنيسة. بيد أنّ الركن الموسيقي في عائلتي كان جدّي شيلدز، النجّار والأخ الأصغر لروبي. كان شيلدز شخصًا سمينًا وودودًا، وذا ضحكة رنّانة، ولحية خالطها الشيب. خلال طفولتي، سكن شيلدز غرب المدينة، فأسميته أنا وكريغ وست سايد. لكنّه انتقل إلى جوارنا في السنة ذاتها التي بدأت فيها أتلقّى دروس البيانو، ما حفَّزنا على تغيير اللقب إلى ساوث سايد.

انفصل ساوث سايد عن جدّتي، قبل عقود، عندما كانت أمّي في سنّ المراهقة. عاش مع خالتي كارولين – شقيقة أمّي الكبرى – ومع خالي ستيف – شقيقها الأصغر – قريبًا من بيتنا، في منزل دافئ من طبقة واحدة جهَّزها للموسيقى، من الأرض إلى السقف. وضع مكبّرات صوت في جميع الغرف، بما فيها الحمّام. وفي غرفة الجلوس، صنع ساوث سايد خزانة متقنة، تضمّ تجهيزات ستيريو جمع معظمَها من مزادات بيع الأغراض المنزلية. وكان لديه جهازا أسطوانات غير متكاملين، وآلة تسجيل قديمة ومتهالكة ببكرات كبيرة. وملأ رفوفًا عدّة بألبومات موسيقى جمعها خلال سنين.

كانت هناك أشياء كثيرة في العالم لم يكن ساوث سايد يثق فيها، إذ كان رجلًا تقليديًّا ممّن يميلون إلى تخيّل مؤامرة ما وراء كلّ شيء. لم يثق في أطبّاء الأسنان، ما أدّى إلى اختفاء أسنانه بالكامل. ولم يثق في رجال الشرطة. كما لم يثق دائمًا في البيض، لكونه حفيدًا لعبدٍ أسود من جورجيا، ولتمضيته أيّام طفولته المبكّرة في ألاباما، خلال حقبة Jim Crow، قبل النزوح شمالًا إلى شيكاغو في العشرينيات. وعندما رُزِقَ ساوث سايد أولادًا، بذل جهودًا مضنية ليضمن سلامتهم؛ فعمد إلى تخويفهم، بقصصٍ حقيقيّة أو متخيّلة، عمّا قد يحصل للأطفال السود إذا ما ارتادوا الأحياء المحظَّرة عليهم. وحثَّهم باستمرار على تجنّب الاحتكاك برجال الشرطة.

شكّلت الموسيقى وسيلة علاج لمخاوفه، ومساحةً للتّنفيس والاسترخاء. عندما كان يتلقّى أجره من عمل النجارة، كان أحيانًا يدلّل نفسه بشراء ألبوم موسيقيّ جديد. كما كان يواظب على تنظيم حفلاتٍ لأفراد العائلة، يضطر فيها الجميع إلى التحدّث بأصوات عاليةٍ لأن الموسيقى كانت دائمًا مهيمنة على المشهد. كنّا نحتفل بأهمّ المناسبات العائليّة في بيت ساوث سايد. فطوال سنوات، كنّا نفتح هدايا عيد الميلاد على أنغام إيلّا فيتزجيرالد، ونُطفئ شموعًا على إيقاع كولتراين. ووفق ما روت أمّي، حرص ساوث سايد في شبابه على تنمية عشق موسيقى الجاز في

نفوس أبنائه السبعة بإيقاظهم غالبًا، مع شروق الشمس، على أنغام ألبوماته التي تصدح بأعلى صوتٍ.

كان حبّه للموسيقى مُعدِيًا. فعندما انتقل إلى حيّنا، بدأت أمضي ساعات بعد الظهر بأكملها في بيته. أختار الألبومات من الرف عشوائيًّا، وأضعها في الستيريو. وفي كلٍّ منّها انغماسٌ في مغامرة خاصّة. ومع أنّني كنت صغيرةً في السنّ، إلّا أنّ ساوث سايد لم يمنعني من اختيار أيّ ألبوم أودّ الاستماع له. في ما بعدُ، أهداني أوّل ألبوم موسيقى في حياتي: Talking Book لستيفي ووندر، احتفظت به في بيته على رفٍّ خاصّ، حرص على وضع ألبوماتي المفضّلة عليه. وعندما كنت أشعر بالجوع، كان يصنع لي شراب الحليب المخفوق، أو يقلي لنا دجاجةً كاملة، فيما نستمع لأريتا أو مايلز أو بيلي. كان ساوث سايد بالنسبة إليّ كبيرًا كالجنّة. أمّا الجنّة – كما تخيّلتها – فكانت مكانًا مليئًا بموسيقى الجاز. في البيت، كنت أتابع العمل لأتطوّر كموسيقية. أجلس أمام بيانو روبي، وأركّز على تعلّم السلّم الموسيقيّ – كانت الموسيقى راسخة في رأسي حقًّا – وكنت أنكبّ على ملء صفحات النوتات التي أعطتني إيّاها. ولمّا لم نكن نملك بيانو خاصًّا بنا، كنت أتمرّن في بيت روبي، فأنتظر إلى حين انتهاء التلامذة الآخرين من دروسهم. وغالبًا ما طلبت من أمّي مرافقتي، والجلوس على الكرسي المنجّد للإصغاء إلى عزفي. كنت أتعلّم معزوفة تلوَ الأخرى. ولعلّي لم أكن أمهر من تلامذة روبي الآخرين، ولا أقلّ تعثّرًا منهم، إلّا أنني كنت أتّقد حماسةً. وجدت سحرًا خاصًّا في التعلّم، ومنحني ذلك شعورًا بالرضا، كوني لمست العلاقة المشجّعة بين مدّة التدريب وحجم إنجازاتي. كما لمست شعورًا، لدى روبي، أعمق من أن يُشكّل متعةً واضحة، شيئًا من السعادة يبدو عليها كلّما عزفتُ أغنيةً كاملة بلا أخطاء. وكلّما أجادت يدي اليمنى لحنًا معيّنًا، ولعبت اليسرى الكورد المناسب. كنت ألاحظ ذلك بطرف عيني، إذ كانت شفتا العمّة روبي تنفرجان قليلًا، بينما يكتسب إيقاع إصبعها بعض الحماسة.

كانت تلك، كما تبيَّن لي في ما بعد، فترة شهر العسل الوحيدة

بيننا. كان من الممكن الحفاظ على تلك المودّة والتفاهم، لو كنتُ أقلّ فضولًا، وأكثر احترامًا لأسلوب روبي في تعليم البيانو. لكنّ كتاب دروس البيانو كان كبيرًا. وتقدّمي في إتقان الأغاني القليلة الأولى كان بطيئًا، إلى حدٍّ أفقدني صبري، فبدأت أسترق النظر إلى الصفحات التالية – ولم أكتفِ بالقليل، بل توغَّلت عميقًا في صلب الكتاب، لأكتشف الألحان الأكثر تعقيدًا، محاولةً تأديتها في الوقت المخصّص للتدريب. وعندما قادني الفخر والتباهي إلى عزف واحدة من الأغاني الأكثر صعوبة أمام روبي، انفجرت في وجهي، وحطّمت إنجازي بصرختها المعهودة: «ليلة سعيدة!». لقد وبّختني كما عهدتها توبّخ كثرًا من تلامذتها على مسامعي. كلّ ما فعلته هو أنّني حاولت التعلّم أكثر، وبسرعة أكبر؛ لكنّ روبي رأت في ذلك جريمة تقارب الخيانة، ولم يساورها الإعجاب قطّ، ولا حتّى القليل منه.

لم أخضع للتّرويض ولا للإملاءات. كنت طفلةً تحبّ تلقّي الأجوبة المقنعة، وترغب في عقلنة الأمور، وإن تطلَّب ذلك جهدًا مضنيًا. كنت أميل إلى المرافعة كمحاميةٍ منذ الصغر. وبرزت عندي النزعة إلى فرض الرأي، كما يشهد كريغ الذي كان يتلقّى التوجيهات منّي أثناء اللعب في مساحتنا المشتركة. فإن اقتنعت بصوابيّة فكرةٍ ما، كنت أرفض أن يُقال لي لا. وهذا هو السبب في حدوث المواجهة بيني وبين روبي، والتي اتّسمت بالحدّة والتعنّت.

– لماذا تغضبين منّي كلّما حاولت تعلّم أغنية جديدة؟

– أنتِ لستِ جاهزة. لا نتعلّم البيانو على هذا النحو.

– بلى أنا جاهزة. لقد عزفتها للتوّ.

– الأغنية لا تُعزَف هكذا.

– لكن، لماذا؟

أخذَت دروس البيانو طابعَ الصراع المضني، نظرًا إلى رفضي الانصياع لطريقة روبي المعتمدة، وإلى رفضها تقبّل مقاربتي المتهوّرة لكتابها. تابعنا التمارين، واستمرّ الجدل على حاله، أسبوعًا تلوَ آخر، وفق ما أتذكّر. كنت عنيدةً، ولم تكن عمّتي تقلّ عنادًا. كانت لدى كلّ منا وجهة نظرها. وفي خضمّ هذه الخلافات،

واصلتُ العزف والتعلّم، وواصلتْ روبي الإنصات وإطلاق سيل الإرشادات، مصحِّحةً. كنت أتلكّأ في كيل المديح لها على فضلها في تطوّري كعازفة. وفي المقابل، كانت تبخل عليّ بكلمات الاستحسان. على الرغم من ذلك، توالت الدروس في مواعيدها المقرَّرة.

في الطبقة العليا، كان والداي وكريغ يجدون الأمر برمّته مسلّيًا للغاية. كانوا يضحكون ملء أشداقهم، حول طاولة العشاء، وأنا أروي لهم أخبار معاركي مع روبي، بينما ألتهم السباغيتّي باللحم. لم يكن لدى كريغ أيّ مشكلة مع روبي، كونه ولدًا بشوشًا يتّبع التعليمات بحذافيرها، ولا يبدي حماسة بالغة حيال دروس البيانو. أمّا والداي، فلم يُظهرا أيّ تعاطف مع محنتي، ولا مع معاناة روبي. فبشكل عام، لم يكونا من النوع الذي يتدخّل كثيرًا في أمور ولديهما خارج نطاق المدرسة، إذ توقّعا من البداية، أن أتولّى أنا وأخي أمورنا الخاصّة. وكأنّ دورهما اقتصر على الاستماع إلينا، وتزويدنا الدعم عند الحاجة داخل جدران المنزل. وفي حين كان متوقّعًا من أهلٍ آخرين أن يؤنّبوا طفلًا تصرَّف بوقاحة مع شخص أكبر سنًّا – كما فعلتُ – فإنّهما لم يتدخّلا. لقد عاشت أمّي مع روبي، على نحو متقطّع، مُذ بلغت السادسة عشرة. وعرفت، عن كثب، القواعد الصارمة التي فرضتها العمّة على من حولها. ولعلّها كانت سعيدة ضمنيًّا برؤية سلطة روبي تتعرَّض للـتّحدّي والمساءلة. وإذ أنظر الآن إلى ما حدث آنذاك، أعتقد أنّ والديّ قدَّرا جرأتي، وأنا ممتنّة لذلك. لقد رأيا شعلةً تعتمل داخلي، وأرادا لها البقاء.

كانت روبي تنظّم حفلة موسيقيّة مبهرة، مرّةً في السنة. يعزف فيها تلامذتها على البيانو أمام الجمهور. أمّا كيف أمكنها ذلك، فأنا ما زلت أجهل الوسيلة حتّى يومنا هذا: نالت روبي حقّ استعمال صالة تمرينات في جامعة روزفلت وسط مدينة شيكاغو، فنظَّمَت حفلاتها في مبنًى حجر فخم في جادّة ميشيغن، قرب المكان الذي تعزف فيه أوركسترا شيكاغو السيمفونيّة. كان مجرّد التفكير في الذهاب إلى هناك يصيبني بالتوتّر؛ إذ كانت شقّتنا، في جادّة

يوكليد، تبعد حوالى خمسة عشر كيلومترًا جنوب The Loop وسط شيكاغو الذي بدا لي أشبه بكوكب آخر، بناطحات السحاب اللامعة والأرصفة المزدحمة. لم تكن عائلتي ترتاد وسط المدينة أكثر من بضع مرّات في السنة؛ لزيارة معهد الفنون أو لمشاهدة مسرحيّة، فنجتمع نحن الأربعة كروّاد فضاء، داخل سيّارة أبي البويك.

كان أبي يتحيّن الفرص ليقود سيّارته البويك إلكترا البرونز ذات البابين، من الطراز 225. وكان شديد التعلّق بها. ويشير بفخر إليها كـ Deuce and a Quarter. كان ينظّفها ويلمّعها باستمرار. وكان دقيقًا جدًّا في الالتزام بمواعيد الصيانة، إذ كان يذهب إلى Sears لتفحّص العجلات وغيار الزيت، تمامًا كما كانت أمّي تأخذنا إلى عيادات أطبّاء الأطفال للمعاينات الدوريّة. أحببنا هذه السيارة نحن أيضًا، وأحببنا خطوطها الانسيابيّة وأضواءها الخلفيّة الضيّقة التي منحتها إطلالة جميلة وعصرية. كانت السيارة واسعة بما يكفي لتمنحنا شعورًا بأنّنا داخل بيت صغير؛ إذ كان في إمكاني الوقوف داخلها، وتمرير يديّ على سقفها المغطّى بالقماش. في تلك الأيّام، كان حزام الأمان اختياريًّا. لذا، كنت وكريغ نتمرّغ على طول المقعد الخلفي الواسع، ونجرّ جسدينا الصّغيرين فوق المقعد الأمامي إذا أردنا الحديث مع والدينا. وغالبًا ما كنت أرفع رأسي وألصق وجهي بوجه أبي، بحيث يتمتّع كلانا بالمنظر ذاته.

شكّلت السيّارة عنصرًا إضافيًّا من عناصر التقارب داخل عائلتي. إذ أتاحت لنا فرصةً للحديث والتنقّل في آنٍ واحد. عند حلول المساء، وبعد تناول العشاء، كنت وكريغ نرجو والدي أن يأخذنا في نزهة بسيّارته من دون أن تكون لنا وجهة محدّدة. وكمكافأة لنا في الأمسيات الصيفية، كنّا نتوجّه بها إلى سينما Drive-in، جنوب غرب حيّنا، نركنها عند الغروب، ونتهيّأ لنشاهد أفلام كوكب القرود... فيما توزّع أمّي طعام العشاء، من سندويشات الدجاج المقلي، ورقائق البطاطا التي أحضرتها من البيت. كنّا، كريغ وأنا، نضع الطعام في حجرينا في المقعد الخلفي، ونحرص على أن نمسح أيدينا بمناديلنا لا بالمقعد.

احتجت سنوات كثيرة لأفهم تمامًا ما كانت قيادة السيّارة تعني لأبي. كطفلة، كنت أشعر بتلك الحريّة التي يشعر بها أبي خلف المقود، والسعادة التي يستمدّها من محرّكٍ سلسٍ وعجلات متوازنة تهدر تحته. كان أبي في الثلاثينيّات من العمر، عندما أخبره الطبيب بأنّ الضعف الغريب الذي بدأ يشعر به في رجلٍ واحدة قد يكون بداية التدهور المؤلم نحو العجز الكامل. فقد ذهبت التوقّعات إلى أنّه، ذات يوم، سيعجز كلّيًّا عن المشي بسبب خلل في الخلايا العصبيّة في الدماغ والنخاع الشوكيّ. لست متّأكّدة من التواريخ، ولكن أظنّ أنّ سيّارة البويك قد دخلت حياة أبي مع بداية إصابته بداء التصلّب المتعدّد Multiple Sclerosis. وعلى رغم أنّه لم يبح بذلك قَطّ، إلّا أنّ قيادة السيّارة كانت تشكّل متنفّسًا له.

لم يكن ذلك التشخيص أمرًا يمكنه هو أو أمّي أن يحصرا تفكيرهما فيه. كانت عشرات السنين تفصلنا عمّا قد يتيحه لنا بحث بسيط على غوغل من مجموعة لا تُحصى من الجداول والإحصاءات والتفسيرات الطبّيّة التي قد تمنحك الأمل أو تفقدك إيّاه. لا أظنّ أنّ أبي كان يودّ معرفة كلّ ذلك، في الأصل. ومع أنّه تربّى على الإيمان، إلّا أنّه لم يكن ليتضرّع لله من أجل أن يُعافيه. ولم يكن ليفكّر بالبحث عن وسائل علاج بديلة، أو عن مرشدٍ روحيّ، أو ليلقي اللوم على عوامل الوراثة. لطالما اعتدنا كعائلة على التصدّي للأنباء السيّئة وعلى تجاهلها منذ اللحظة الأولى. لا نعلم كم من الوقت قد مضى على معاناة أبي قبل أن يذهب لزيارة طبيب. لكنّي أظنّ أنّ الأمر استغرق شهورًا، إن لم نقل سنوات. لم يحبّ أبي زيارة الطبيب قطّ، ولم يكن يشتكي. فهو من النوع الذي يتقبّل ما يجيء به القدر، ويمضي قُدُمًا.

الأكيد أنّ أبي كان يسير بعرجٍ بسيط في أوّل حفل موسيقي كبير لي على البيانو، فعجزت قدمه اليسرى عن اللحاق باليمنى. إنّ كلّ ذكرياتي عن أبي تتضمّن إشارةً ما إلى إعاقته، وإن لم يقرّ أحدٌ منّا بهذه التسمية. ما عرفته حينذاك، هو أنّ حركة أبي كانت أبطأ بقليل من باقي الآباء. كنت أراه أحيانًا يتردّد قبل صعود درجٍ، كمن يخطّط لكلّ خطوة يقوم بها. وعندما كنّا نذهب للتسوّق في

مجمّع تجاريّ، كان يلقي بنفسه على أحد المقاعد مكتفيًا بحراسة الأكياس، أو بقيلولة سريعة، فيما يتنقّل الجميع بين المحالّ.

في الطريق إلى الحفل الموسيقيّ، جلست في مقعد البويك الخلفي، مرتدية فستانًا أنيقًا ومنعلة حذاءً جلدًا لامعًا، وعاقدةً شعري في ضفيرتَين. يومذاك، شعرت بالتوتّر أوّل مرّة في حياتي. كنت قلقةً بشأن العرض، على رغم أنّني قد تمرّنت على معزوفتي، في بيت روبي، أكثر ممّا ينبغي. كان كريغ ببذلته الأنيقة مستعدًّا هو الآخر لعزف أغنيته، والأمر برمّته لم يقلقه البتّة؛ فقد انطرح على المقعد الخلفيّ فاغرًا فاه، مرتاحًا. هكذا، هو كريغ الذي لطالما أدهشني بهدوئه. كان آنذاك مواظبًا على لعبة كرة السلّة مع Biddy Basketball League، نهاية كلّ أسبوع، الأمر الذي ساعده، في ما يبدو، على السيطرة على انفعالاته.

في العادة، يختار أبي أقرب موقفًا للسيّارات للحدّ من المسافة التي سيحتاج إلى اجتيازها على قدميه المترنّحتين، وإن اضطر إلى سداد رسوم مضاعفة. وصلنا ذلك اليوم إلى جامعة روزفلت بلا عناء، وصعدنا إلى صالة كبيرة وفخمة، حيث ستُقام الحفلة. شعرت بصغري داخل هذه الصالة الأنيقة، بنوافذها الضخمة الممتدّة من الأرض حتّى السقف، والمطلّة على حدائق غرانت بارك الشاسعة، وأبعد من ذلك، على بحيرة ميشيغن. في الصالة، صفوف متراصّة من الكراسي الفولاذ الرماديّة، ملأها تباعًا أطفال قلقون وأهالٍ مترقّبون. في مقدّم الصالة، على خشبة المسرح، رأيت أوّل مرّة في حياتي، آلتَي بِيانو baby grand، بدتا بغطائيهما الخشب المشرَّعَين طائرَين هائلَين بأجنحة سود عملاقة. كانت روبي هناك، أيضًا، تتمختر بفستان منقوش بالورود، كأنّها جميلة الحفلة – جميلة تتمتّع بسلطة واضحة – فيما تتأكّد أنّ تلامذتها كافة وصلوا وأوراقهم بأيديهم. وعندما حان وقت بداية العرض، فرضت روبي الصمت المطبق على القاعة.

لا أذكر تعاقب العازفين في ذلك اليوم. كلّ ما أعرفه هو أنّني عندما حان دوري، قمت من مقعدي وتوجّهت في وضعيّتي الأمثل

نحو مقدّم القاعة، صعدت الدرج، واتّخذت مكاني أمام إحدى آلتي البيانو اللامعتَين. في الحقيقة، كنت في جاهزية تامة للعزف. صحيح أنّني كنت أجد روبي جافّة ومتصلّبة، إلّا أنّ سعيها المتفاني نحو الكمال والانضباط قد انطبع في ذاتي. كنت أحفظ معزوفتي عن ظهر قلب. كلّ ما كان عليّ فعله هو أن أبدأ تحريك يديّ.

في اللحظة التي وضعت أصابعي الصغيرة على البيانو، أدركت أنّ هناك مشكلة. كان البيانو الذي سأعزف عليه مذهلًا، بنظافته، ودقّته اللامتناهية، ومفاتيحه الثمانية والثمانين التي شكّلت صفًّا من الأبيض والأسود لا تشوبه شائبة. المشكلة أنّني لم أعتَد الكمال، ولا عهدته في حياتي. استقيت خبرتي في البيانو من غرفة روبي المتواضعة بنباتاتها الهزيلة، وإطلالتها على باحتنا الخلفيّة الأكثر تواضعًا. الآلة الوحيدة التي عزفتُ عليها، كانت بعيدة كلّ البعد عن الكمال بمفاتيحها المصفرّة والمتأكّلة، فضلًا عن المفتاح دو المميّز بزاويته المخلوعة. هكذا، كان البيانو بالنسبة إليّ، تمامًا كما كان حيّنا هو حيّنا، وأبي هو أبي، وحياتي هي حياتي... فهذا كلّ ما عرفته.

أمّا الآن، وقد وجدت نفسي فجأة أمام أعين الجمهور المترقّبة، فلم أكن أرى سوى المفاتيح اللامعة والمتشابهة. لم أعرف من أين أبدأ. شعرت بقلبي يخفق وبضِيق في حلقي، فنظرت إلى ناحية الجمهور في محاولة لإخفاء رعبي، باحثةً عن الاطمئنان المنشود في وجه أمّي. إلّا أنّني لمحت شخصًا في الصفّ الأوّل يقف ويتجّه نحوي. إنّها روبي التي وصلت بنا شجاراتنا إلى حدٍّ بتّ أعتبرها أقرب إلى العدوّ. ها هي الآن تظهر بجانبي كملاكٍ حارس. لعلّها فهمت سبب صدمتي. ولعلّها أدركت أنّ تباينات العالم قد تجلّت لي في المرّة الأولى. أو ربّما أرادت ببساطة تسريع الأمور بعض الشيء. مهما يكن من أمر، ومن دون أن تنبس ببنت شفة، فقد وضعت روبي إصبعها برقّة على المفتاح دو، بحيث أرى من أين أبدأ، ثم استدارت مبتعدةً، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تشجيع خفيفة.

2

ذهبتُ إلى روضة الأطفال في مدرسة Bryn Mawr الابتدائيّة، في خريف العام 1969، متمتّعة بأفضليّتين: معرفة مسبقة بقراءة كلمات أساسيّة، ووجود أخٍ أكبر سنًّا وذي شعبيّة في الصفّ الثاني. كانت المدرسة بمبناها القرميد، تتألّف من طبقات أربع وساحة أماميّة، وتبعد شارعين فحسب من بيتنا في جادّة يوكليد. أي أنّ المشي إليها من البيت لم يستغرق أكثر من دقيقتين، أو دقيقة واحدة من الركض السريع كما كان كريغ يفعل.

أحببتُ المدرسة على الفور. وأحببت معلّمتي أيضًا. امرأة بيضاء ضئيلة الحجم، اسمها مسز بوروز، بدت عجوزًا في عينيّ مع أنّها لم تتجاوز الخمسين من العمر. كانت نوافذُ صفّها كبيرة مشمسة، وفيه مجموعة دمًى، وبيت من كرتون ضخم للعب في الخلف. كوّنت أصدقاء في صفّي. وانجذبت إلى أطفالٍ بدوا مثلي، متلهّفين للذهاب إلى المدرسة. كنت واثقةً في قدرتي على القراءة؛ ففي البيت كنت أتصفّح كتب ديك وجاين بفضل بطاقة المكتبة التي تحملها أمّي. سعدت كثيرًا عندما علمت أنّ مهمّتنا الأولى هي تعلّم مجموعة جديدة من الكلمات بالتعرّف إلى شكلها. وُزّعت علينا قائمة من الألوان لدراستها، ومعرفة الكلمات لا الألوان: «أحمر»، «أزرق»، «أخضر»، «أسود»، «برتقالي»، «بنفسجي»، «أبيض». امتحنتنا مسز بوروز واحدًا تلو الآخر، رافعةً بطاقات كبيرة، طالبةً منّا قراءة الكلمة المطبوعة بأحرف سود.

راقبت ذات يوم رفاقي الجدد – صبيانًا وبناتٍ – يقفون ويركّزون على البطاقات الملوّنة، وينجحون أو يتعثّرون بدرجات متفاوتة، فيُطلَب منهم الجلوس عند فشلهم. أريدَ للأمر أن يكون بمثابة لعبة. لكنّ ثمة فرزًا كان يحصل، وشعورًا بالإهانة لدى الأطفال الذين لم يتجاوزوا كلمة «أحمر». كنّا بالطبع في العام 1969، في مدرسة حكوميّة جنوب شيكاغو، حيث لا أحد يتكلّم عن الاعتداد بالنفس أو تنمية العقول. وإذا توفَّرت للطّفل فرصة للتعلّم في البيت، كان يُكافأ في المدرسة بوصفه «ذكيًّا» أو «موهوبًا» ما يُضاعف بالتالي ثقته في نفسه. كان التلميذان الأكثر ذكاءً في صفّي: تيدي، طفل كوري أميركي، وشياكا، طفلة أفريقيّة أميركيّة. وقد تناوب كلاهما على احتلال المرتبة الأولى سنوات عدّة.

كنت مندفعة لمواكبتهما. وعندما حان دوري لقراءة الكلمات على بطاقات المعلّمة، وقفتُ وبذلت كلّ جهدي. فانطلقت الكلمات «أحمر»، و«أخضر»، و«أزرق» من فمي بسلاسة. لكنّ كلمة «بنفسجي» استغرق لفظها ثانيةً. وكانت كلمة «برتقالي» صعبة. وعند ظهور كلمة «أبيض» تجمَّدتُ تمامًا. جفّ حلقي على الفور، وتلعثمت غير قادرة على اللفظ. فيما كان عقلي يبحث بجنون عن لون الـ«أأأأ...». كدت أختنق، واصطكَّت ركبتاي. وقبل أن تتفاقم حالتي، أمرتني مسز بوروز بالجلوس في مكاني. وفي تلك اللحظة بالضبط، لمعت الكلمة في ذهني: أبيض. أبيض. الكلمة هي: «أبيض».

استلقيتُ في فراشي تلك الليلة، والدمى المحشوّة تحيط برأسي، لا أفكّر إلّا في كلمة «أبيض» وحسب. كنت أردّدها في ذهني مرارًا وتكرارًا، مقرّعةً نفسي على غبائي. كان الحرج كحِمْل كبير يصعب التخلّص منه، علمًا أن أهلي لم يكترثوا لقراءتي جميع البطاقات بالشكل الصحيح. كلّ ما أردته هو أن أنجز شيئًا. أو بالأحرى، ألّا أُعتَبر من غير القادرين على الإنجاز. كنت متأكّدة من أنّ معلّمتي صنّفتني من بين العاجزين عن القراءة، أو، وهذا أسوأ، أنّني لم أحاول. انصبّ تركيزي على النجوم الذّهب

الصغيرة التي منحَت مسز بوروز تيدي وشياكا إيّاها، في ذلك اليوم، لوضعها على الصدر، كرمز لإنجازهما، أو ربّما كعلامة على أنّهما تميّزا ببراعتهما، في حين عجز الباقون عن ذلك. لقد قرأ الاثنان البطاقات كلّها بلا تردّد.

في صباح اليوم التالي، طلبتُ أن يُسمح لي بالإعادة.

وعندما رفضت مسز بوروز الاستجابة لطلبي، قائلة بمرحٍ إنّ أمامنا مهمّات أخرى نقوم بها، أصررتُ على طلبي.

كم أُشفق على أولئك الأطفال الذين اضطرّوا إلى رؤيتي أعاند بطاقات الألوان مرّة ثانية. كنت أقرأ الكلمات بوتيرةٍ أبطأ هذه المرّة، وأتوقّف لالتقاط أنفاسي بعد لفظِ كلّ كلمة، رافضةً أن أدع توتّري يشلّ ذهني. نجحت في قراءة «أسود» و«برتقالي» و«بنفسجي»، بخاصّة «أبيض». صرخت عمليًّا بكلمة «أبيض» قبل أن أرى حروفها على البطاقة. أحبّ أن أتخيّل الآن أنّ مسز بوروز كانت فخورة بتلك الطفلة السوداء الصغيرة التي وجدت الشجاعة لتدافع عن نفسها. لا أعلم ما إذا كان تيدي وشياكا قد لاحظا ذلك. سارعت بالمطالبة بجائزتي، ومشيت إلى البيت في ذلك اليوم برأسٍ مرفوع، ونجمةٍ ذهب صغيرة معلّقة على قميصي.

في البيت، كنت أعيش في عالمٍ من الدراما والإثارة، مأخوذةً بمسلسلاتٍ متخيّلة تدور أحداثها بين ألعابي، تضمَّنَت احتفالاتٍ بأعياد الميلاد، وشجاراتٍ وخيانات، وعواطف متنوّعة تراوحت بين الحبّ والكراهية، وأحيانًا الجنس. كانت طريقتي المفضَّلة لتمضية الوقت، بعد عودتي من المدرسة وحتى حلول موعد العشاء، هي أن أستقرّ في المساحة المخصّصة للعب، خارج غرفتينا أنا وكريغ. فأبسط دمى الباربي خاصّتي على الأرض، وأتصوّر سيناريوات بدت لي واقعية من صميم الحياة. وكنت أُدخِل أحيانًا، في الحبكات، شخصيّات جي. آي. جو التي جمعها كريغ. احتفظتُ بثياب ألعابي داخل حقيبةٍ ولّاديّة بلاستيك، مغطّاة بنقش ورديّ. وأسندت إلى كلّ دمية باربي، وإلى كلّ لعبة جي. آي. جو دورًا تؤدّيه. واستعملتُ مجسّمات الأحرف القديمة التي احتفظَت بها أمّي، منذ سنين، وكانت تستخدمها لتعليمنا، ومنحتُها أسماء

وسير حياةٍ شخصيّة.

نادرًا ما كنت أختار الانضمام إلى أطفال الحيّ الذين يلعبون في الخارج بعد عودتهم من المدرسة. ولم أكن أدعو زملائي إلى زيارتي في البيت. ولعلّ ذلك يعود، في جزءٍ منه، إلى كوني طفلةً صعبة المراس. وإلى أنّني لم أرغب في أن يعبث أحدٌ بألعابي. لقد ذهبت إلى بيوت فتياتٍ أخريات. ورأيتُ سيناريوات الرعب هناك بأمّ العين: دمى الباربي منزوعة الشعر، أو وجوهُها مشوّهة بحبر التلوين. وثمّة شيء تعلّمته في المدرسة، وهو أنّ ديناميّة الأطفال قد تعتريها الفوضى. فمهما بدت مشاهد الأطفال في الملاعب لطيفةً ورقيقة، فإنّ موازين القوى والتحالفات يستبدّان بها. فهناك ملكات النحل، والمتنمّرون والمؤيّدون. لم أكن خجولًا، لكنّني كنت في غنًى عن تلك الفوضى في حياتي خارج المدرسة. بدلًا من ذلك، وظّفت طاقتي كي أكون القوّة المحرّكة الوحيدة في عالمنا الصغير – في مساحتنا المشتركة. وإن تجرّأ كريغ وحاول العبث بلعبة واحدة من ألعابي، أبدأ الصراخ. ولم أكن أتردّد في ضربه متى دعت الحاجة – لكمة سريعة مباشرة وسط الظهر عادةً. المسألة هي أنّ الدمى والألعاب احتاجت إلى مَن يدبّ فيها الحياة. وأنا فعلتُ ذلك بضمير. وفرضتُ عليها الأزمة الشخصية تلو الأخرى. وكأيّ خالق، كان دوري أن أراقبها تعاني وتكبر.

في تلك الأثناء، ومن نافذة غرفتي، كنت أراقب غالبيّة أحداث العالم الحقيقي التي تدور في حيّنا في جادّة يوكليد. وفي فترات متأخّرة من بعد الظهر، كنت أرى مستر تومسون – الرجل الأفريقي الأميركي الطويل، ومالك المبنى المؤلّف من ثلاث طبقات في الجهة المقابلة لبيتنا – يضع آلةَ الباص غيتار الكبيرة في صندوق الكاديلاك، استعدادًا لتقديم أداء موسيقيّ في نادٍ من نوادي الجاز الليليّة. كنت أراقب أفراد عائلة ميندوزا المكسيكيّة، في البيت المحاذي، وهم يصلون إلى منزلهم في شاحنتهم المحمّلة بالسلالم، بعد عودتهم من يوم طويل في دهان البيوت، وكلابهم ترحّب بهم عند السياج فتنبح بفرح.

كان حيّنا مختلطًا عرقيًّا. يضمّ عائلات من الطبقة الوسطى. وكان الأولاد يلعبون معًا، من دون أن يكون للون البشرة تأثير في ذلك. ضمّت لائحة أصدقائي فتاةً تدعى راشيل، وهي من أمٍّ بيضاء وتتحدّث بلكنة بريطانيّة، وأخرى تدعى سوزي ذات شعر أحمر مجعّد، وحفيدة عائلة ميندوزا التي كنت ألتقيها خلال زياراتها الحيّ المتقطّعة. كنّا نشكّل خليطًا متعدّد اللون يتمثّل في عائلات كانسوبانت، أبو عاصف، ياكر، روبنسون. وكنّا أصغر سنًّا من أن نلاحظ التغيّرات التي تحصل حولنا وبسرعة. ففي العام 1950، أي قبل أن ينتقل والداي إلى منطقة South Shore بخمس عشرة سنة، كان حيّنا يضمّ 96 في المئة من البيض. عندما وصلت إلى المرحلة الجامعية، أي العام 1981، أصبح يضمّ ما يُقارب الـ 96 في المئة من السود.

ترعرعت أنا وكريغ وسط هذا الخليط بتيّاراته المتنوّعة. فالشوارع المحيطة بنا، ضمَّت عائلات يهوديّة وأخرى مهاجرة، وعائلاتٍ من السود والبيض. بعضها كان ميسور الحال، والبعض الآخر لا. وبشكل عام، اهتم الناس هناك بحدائقهم، وتابعوا شؤون أطفالهم، وحرروا شيكات لروبي كي تُعلّم أولادهم العزف على البيانو. ولعلّ عائلتي انتمت، في الواقع، إلى الفئة الفقيرة. ذلك أننا كنّا ضمن قلّةٍ معدودة لم تملك منزلًا خاصًّا بها؛ إذ عشنا محشورين في الطبقة الثانية من بيت روبي وتيري. ومع أنّ الحال في حيّ South Shore لم تكن قد تدهورت آنذاك، على غرار الأحياء الأخرى – عقب نزوح الميسورين إلى الضواحي، وإغلاق المتاجر والشركات، واحدة تلوَ الأخرى، مع تفاقم الانهيار – إلّا أنّ بوادر الانحدار بدأت تظهر بوضوح.

بدأنا نشعر بآثار هذا التحوّل، لا سيّما في المدرسة؛ إذ امتلأ الصفّ الثاني بالأطفال المشاغبين. وراحت تتطاير فيه المحّايات. وهذا ما لم نختبره من قبلُ أنا أو كريغ. عُزِيَ هذا التدهور إلى معلّمةٍ لم تعرف كيف تفرض سيطرتها على الصفّ – ولم تكن محبّةً للأطفال حتّى. ولم يتّضح أصلًا ما إذا كانت حقيقة كون المعلّمة غير كفوء قد أزعجت أحدًا، وقد تذرّع الطلّاب بذلك

للمشاغبة، فيما هي لا تفكّر إلّا في السوء بنا. كنّا في نظرها صفًّا من «الأولاد السيّئين»، على الرغم من أنّنا لم نتلقَّ إرشاداتٍ أو توجيهات محدَّدة، وقد حُكِمَ علينا بالبقاء داخل غرفةٍ ذات إنارة خفيفة في الطبقة السفلى من المدرسة. بدت كلّ ساعة في ذلك الصفّ الشبيه بكابوس، تمرّ ببطء شديد. كنت أجلس ببؤسٍ على مقعدي الخشب بلون القيء الأخضر – اللون الرسميّ المُعتَمَد خلال فترة السبعينيّات – لا أتعلّم شيئًا، وأنتظر فرصة الغداء لأذهب إلى البيت، أتناول سندويشًا، وأتذمَّر لأمّي.

عندما كنت أغضب، وأنا طفلة، كنت أنفّس احتقاني، غالبًا، بالتحدّث إلى أمّي: وبينما كنت أخبرها بسخط عن معلّمتي الجديدة، كانت تستمع إليّ بهدوء، مردّدةً عبارات، مثل «حقًّا؟» و«آه، أمر لا يُصدَّق!». لم تُغذِّ غضبي يومًا، لكنّها أخذت معاناتي على محمل الجدّ. لو كانت أمّي شخصًا آخر، لربّما التزمَت مقاربة مهذّبة، وقالت لي: «اذهبي، وابذلي قصارى جهدكِ». لكنّها أدركَت الفرق. أدركت الفرق بين التذمّر والأسى الفعليّ. ذهبت أمّي إلى المدرسة، من دون علمي، وبدأت حملة الضغوطات من وراء الكواليس، دامت بضعة أسابيع، وأدّت، بالنتيجة، إلى سحبي بهدوء، برفقة تلميذين متفوّقين، من الصفّ، وإلى إخضاعنا لاختبارات عدّة، ونقلنا جميعًا – بعد حوالى أسبوع – إلى الصفّ الثالث، المنظَّم والنيّر، والذي تديره معلّمة كفوء وباسمة الوجه تتقن عملها.

كانت تلك خطوةً صغيرة، لكنّها غيّرت حياتي. لم أبالِ آنذاك بما حصل لجميع أولئك الأطفال الذين تُركوا في الطبقة السفلى، مع معلّمة لا تُجيد عملها. أدرك الآن أنّ الأطفال يعرفون، في سنٍّ مبكّرةٍ جدًّا، متى يتمّ الانتقاص من قيمتهم، ومتى يكون الراشدون غير مهتمّين بمساعدتهم في التعلّم، وغضبهم من ذلك يبدو تمرّدًا. ليس هذا الخطأ خطأهم. هم ليسوا «أطفالًا سيّئين»، بل أطفالٌ يحاولون النجاة في ظروفٍ سيّئة. كنت آنذاك سعيدة بنجاتي ليس إلّا. ولم أعرف إلّا بعد سنين أنّ أمّي، تلك المرأة الظريفة والهادئة الطبع والصريحة والمتمسّكة بالحقّ تحت

أيّ ظرف، سعَت إلى لقاء تلك المعلّمة في الصفّ الثاني، لتخبرها بألطف طريقة ممكنة، أنّ مهنة التعليم لا تلائمها، ونصحتها بالبحث عن وظيفة أخرى وراء صندوق أحد المتاجر.

مع مرور الوقت، بدأت أمّي تحثّني على الخروج من المنزل واللعب مع أولاد الحيّ. كانت تأمل بأن أتألّق اجتماعيًّا على غرار أخي كريغ الذي كان في استطاعته، كما ذكرتُ، أن يجعل أكثر الأمور صعوبة سهلةً. كان نجم كريغ بدأ يسطع في كرة السلّة. وساعده في ذلك حماسته ورشاقته وطول قامته. دفعه أبي إلى خوض أصعب المباريات، وأرسله، في ما بعد، بمفرده في كلّ أنحاء المدينة للتنافس مع الأولاد الأكثر تمرّسًا. لكنّه، حتّى ذلك الوقت، تركه يتنافس مع أولاد الحيّ الموهوبين في ساحة الملعب. كان كريغ يحمل كرته، ويعبر الشارع نحو متنزّه روزنبلوم، ويسير جانب الأراجيح والسلالم التي اعتدتُ تسلّقها، ليعبر خطًّا خفيًّا، ويختفي وسط غابة من الأشجار، حيث ملاعب كرة السلّة. تخيّلتُ ذلك المكان بأنّه كوكب آخر؛ غابة أسطوريّة مظلمة يقبع فيها السكارى وقطّاع الطرق، وتُرتَكب فيها الجرائم. لكنّ كريغ هدّأ مخاوفي بعد أن صار يتردّد إلى هناك، وطمأنني إلى أنّ الناس في هذا المكان ليسوا بذلك السوء.

بدت لعبة كرة السلّة قادرة على إزالة الحواجز كلّها من أمام كريغ؛ إذ علّمَته كيفية مقاربة الغرباء لحجز مكان للعب مباراة تلقائيّة. وعلّمته كيف يختار من الألفاظ الشعبيّة المتداولة، ما هو ودود ومحبّب لمخاطبة منافسيه، الأكبر سنًّا والأقوى، في ساحة الملعب. ساعدته اللعبة أيضًا في معرفة حقيقة الانطباعات السائدة عن طبيعة الناس وأفعالهم في أرجاء الحيّ، وعلى تأكيد الفكرة القائلة أنّ الناس كافّة طيّبون أساسًا، إذا عاملهم المرء بطريقة لائقة – وفقًا لما آمن به أبي دومًا. كنت أرى كيف تتبدّل ملامح المتسكّعين أمام دكّان المشروبات القريب، عندما يلمحون كريغ، وينادونه باسمه، ويحيّونه باليد بينما نمرّ قربهم.

«كيف تعرّفتَ إليهم أصلًا؟»، كنت أسأله مشكِّكة.

«لا أعلم، إنّهم يعرفونني»، كان كريغ يجيبني رافعًا كتفيه.

في سنّ العاشرة، نضجت بما يكفي لأبدأ الخروج من البيت، قرارٌ كان دافعُهُ الأكبر الملل، كان ذلك خلال فصل الصيف، أثناء العطلة المدرسية. اعتدتُ أنا وكريغ ركوب الحافلة إلى بحيرة ميشيغن يوميًّا، لنذهب إلى مخيّم ترفيهي، نظّمته المدينة، وأُقيم على متنزّه قرب الشاطئ. كنّا نعود إلى البيت في حلول الساعة الرابعة بعد الظهر، وتبقى أمامنا ساعات من النهار لنستفيد منها. لم تعد الدمى تثير اهتمامي كما في السابق، فضلًا عن أنّه وبغياب جهاز التكييف، كان الحرّ في شقّتنا لا يُحتمل خلال ساعات بعد الظهر، فبدأت أتعقّب كريغ في أنحاء الحيّ، فأتعرّف إلى أولاد جدد لم أقابلهم في المدرسة. في الشارع خلف منزلنا، كان هناك مشروع سكنيّ صغير يدعى Euclid Parkway، تألّف من خمسة عشر بيتًا، توسّطتها باحة خضراء كانت أقرب إلى الجنّة بغياب السيّارات، وبوجود عدد كبير من الأولاد الذين يلعبون السوفتبول، أو يقفزون على الحبال، أو يكتفون بالجلوس على العتبات. ولكن، قبل أن يُسمَح لي بالانخراط في مجموعة الفتيات اللواتي في مثل سنّي في Parkway، خضعت لاختبار تمثّل في ديدي، وهي فتاة ترتاد مدرسة كاثوليكيّة قريبة. كانت ديدي رياضيّة وجميلة، لكنّ وجهها كان دائم التجهّم، وكانت جاهزة دومًا لترمقك بنظرة هازئة. وغالبًا ما كانت تجلس على عتبة بيتها، برفقة فتاة أكثر شعبيّة تُدعى دنين.

كانت دنين لطيفة دائمًا، على عكس ديدي التي لم تُظهر الودّ نحوي أبدًا، من دون أن أعرف السبب. ففي كلّ مرّة كنت أذهب إلى Euclid Parkway، كانت تُدلي بتعليقاتٍ هادئة، إنّما جارحة، كأنّ وجودي كان كافيًا لتعكير مزاج الجميع. مع مرور أيّام الصيف، ازدادت تعليقات ديدي حدّةً، وبدأت معنويّاتي تهبط. أدركتُ أنّ أمامي خيارات عدّة: إمّا أن أبقى الفتاة الجديدة موضع التأنيب والتقريع، وإمّا أن أُقلِع عن الذّهاب كلّيًّا إلى Euclid Parkway، وأبقى في البيت مع ألعابي، أو أن أحاول نيل احترام ديدي. وقد وضعني هذا الخيار الأخير أمام خيارَين آخرَين: إمّا أن أحاول التعامل مع ديدي بشكلٍ عقلانيّ؛ أي أن أكسبَها إلى جانبي

بالكلام، أو بوجهٍ آخر من وجوه الديبلوماسيّة لدى الأطفال؛ أو أسكتها.

في المرّة التالية التي تفوَّهَت فيها ديدي بواحد من تعليقاتها، هاجمتها بلا تردّد، مستحضرةً كلّ ما علّمَني إيّاه أبي حول طريقة توجيه اللكمات الناجعة. وقعنا معًا على الأرض، كثرت اللكمات، وتدافعنا بالأيدي والأرجل. تجمَّع حولنا فجأةً الأولاد في Euclid Parkway في حلقة ضيّقة، وبدأوا يهتفون ويشجعون، مدفوعين بالحماسة والدموية المعهودتَين لدى الأطفال في المرحلة الابتدائيّة. لا أذكر من فضَّ الاشتباك بيننا آنذاك. ربّما كانت دنين أو أخي كريغ، أو أحد الأهل الذي استُدعيَ إلى المكان. ولكن، عندما انتهى كلّ شيء، حلّ علينا نوعٌ من معموديّة الصمت؛ لقد تمّ قبولي رسميًّا عضوًا في عصابة الحيّ. لم نتأذَّ أنا وديدي يومذاك، بل كنّا نلهث ملطّختَين بالأوساخ. قُدِّر لنا ألّا نكون صديقتين مقرّبتين أبدًا، لكنّني في الأقلّ كسبتُ احترامها.

بقيت سيّارة أبي البويك ملجأنا ونافذتنا إلى العالم. كنّا نستقلّها أيّام الآحاد، وفي ليالي الصيف، ونتجوّل من غير هدف. كنّا نذهب أحيانًا إلى حيّ في الجنوب، يسمّى Pill Hill، نظرًا إلى وجود عدد كبير من الأطبّاء الأفريقيّين الأميركيّين الذين يسكنونه. كان ذلك من الأحياء الجميلة والأكثر ثراءً في الجانب الجنوبيّ: سيارتان أمام كلّ منزل وممرات مزدانة بالورود الزاهية بين بيوتهم.

شابَت نظرة والدي إلى الأغنياء مسحةً من الشك، فهو لم يحبّ المغرورين، وكان حائرًا في أمره في موضوع التملّك عمومًا. فكَّر والداي، مرّة، في شراء بيت قريب من بيت روبي، وذهبا لمعاينته مع وسيط عقاري، لكنّهما عدلا عن الفكرة، في الوقت الذي كنت أؤيّدها بشدّة، إذ ظننت، آنذاك، أنّ من المهم أن تستطيع عائلتي السكن في بيت يتألّف من أكثر من طبقة واحدة. لكنّ أبي كان حذرًا بالفطرة، وواعيًا حجمَ الورطة، وحاجتنا إلى الاحتفاظ ببعض المال ليوم عصيب. «أنتم لا تريدون التحوّل فقراء بسبب بيت»، كان يقول لنا، شارحًا كيف ضحّى أشخاص بمدّخراتهم، واستدانوا الكثير من المال، لينتهوا في بيوت جميلة إنّما من دون حريّة

مطلقًا.

كان والداي يتحدّثان معنا كما لو كنّا بالغين. لم يعظانا، بل كانا مهتمَّين بالإجابة عن كلّ سؤال نطرحه مهما كان بسيطًا. كما لم يكونا يتعجّلان إنهاء النقاش معنا لأيّ سبب يتعلّق براحتهما. بل كانت أحاديثنا تمتدّ ساعات، غالبًا لأنّ كريغ وأنا استغللنا كلّ الفرص لنسألهما عن الأمور التي لا نفهمها. عندما كنّا صغارًا كنّا نسأل: «لماذا يذهب الناس إلى الحمّام؟» أو «لماذا تحتاج إلى عمل؟» ثمّ نمطرهما أسئلة استيضاحيّة. تجلّى أحد انتصاراتي الفلسفية المبكّرة، بعد طرح سؤالٍ يخدم مصلحتي الشخصية: «لماذا يتعيَّن علينا أكل البيض في الصباح؟»، ما أدّى إلى نقاش حول ضرورة الحصول على البروتين، وبالتالي دفعني إلى أن أسأل لماذا لا تُعدّ زبدة الفستق من البروتينات؟ وبعد كثير من الجدل، عدَّلت أمّي موقفها نحو البيض، الذي لم أكن أحبّه أساسًا. وخلال السنوات التسع التالية، كنت أصنع لنفسي كلّ يوم على الفطور، شطيرةً من المربّى وزبدة الفستق – أعرف أنّني أستحقّها – ولم أذق بيضة واحدة قطّ.

عندما كبرنا، بتنا نتحدّث أكثر عن المخدّرات والجنس وخيارات الحياة، وعن العِرق وعدم المساواة والسياسة. لم يتوقّع منّا والداي أن نكون قدّيسين. بل أذكر أنّ أبي أصرّ على أنّ الجنس كان دومًا، ويجب أن يبقى، أمرًا ممتعًا. كما لم يهتمّ والداي قطّ بتجميل الحقائق في ما يتعلّق بالوقائع الأليمة في الحياة. فعلى سبيل المثل، تلقّى كريغ درّاجة جديدة هديّة منهما ذات صيف. ذهب بها شرقًا نحو بحيرة ميشيغن، للتنزّه على الممر المعبَّد في منطقة Rainbow Beach، والاستمتاع بالنسيم المنعش. أوقفه شرطيّ هناك واتّهمه بسرقتها، رافضًا التصديق أنّ ولدًا أسود يمكنه الحصول على درّاجةٍ جديدةٍ بطريقة شريفة. (في النهاية، تعرَّض الشرطي الذي كان أفريقيًّا أميركيًّا هو الآخر إلى تقريعٍ عنيف من أمّي التي أجبرته على الاعتذار من كريغ). أخبرنا والداي أنّ ما حدث أمرٌ غير عادل، لكنّه شائع لسوء الحظّ. لون بشرتنا يجعلنا في موقع ضعف، الأمر الذي ينبغي علينا مراعاته

دومًا.

الأرجح أنّ أبي تعمّد اصطحابنا بالسيّارة للتجوّل في Pill Hill، في ما كان أشبه بتمرينٍ على الطموح، وكفرصة ليُرينا أسلوب العيش اللائق الذي يتوفّر لمن يحظون بتعليم جيّد. فقد أمضى والداي معظم حياتهما تقريبًا، في العيش ضمن مساحة لا تتعدّى بضعة كيلومترات مربّعة في شيكاغو، ولم يتوهّما للحظة، أنّنا سنفعل الأمر ذاته أنا وكريغ. انتسب والداي قبل الزواج إلى كلّيات محليّة، لكنّهما تخليا عن الدراسة قبل الحصول على شهادة. كانت أمّي تدرس لتصبح معلّمة، لكنّها فضّلت أن تعمل سكرتيرة. أمّا أبي، فقد نفد ماله وعجز عن تسديد الأقساط، فانخرط في السلك العسكريّ من دون أن يحظى بتوجيه من أيّ من أفراد عائلته حول ضرورة العودة إلى الدراسة، أو أن يتوفّر مثال يُحتذى في هذا المجال. أمضى سنتين في التنقّل من قاعدة عسكريّة إلى أخرى، وإن شكّل إكمالُ الدراسة في الجامعة، والعمل كفنّان، حلمًا لأبي، سرعان ما أعاد النظر في طموحاته، وخصّص جزءًا من راتبه ليساعد أخاه الأصغر في تحصيل شهادة الهندسة المعماريّة.

في أواخر الثلاثينيّات من عمره، كرّس أبي جهوده لجمع المال لولدَيه. عائلتنا لن تصبح فقيرة من أجل البيت، لأنّنا لن نمتلك بيتًا. لقد كان تفكير أبي عمليًّا، إذ أدرك أنّ الموارد محدودة. وأنّه لربّما كان الوقت محدودًا أيضًا. فعندما لم يكن يقود سيّارته، كان يستعين بعصا للتنقّل؛ تحوّلت العصا عكّازًا، قبل أن أنهي المرحلة الابتدائية، وبعد ذلك عكّازين. مهما كان ذاك الذي ينهك جسد أبي، ويوهن عضلاته ويُتعب أعصابه، كان يعتبره تحدّيًا خاصًّا به، محنةً يجب احتمالها بصمت.

أحيانًا، كنّا ندلّل أنفسنا ببعض الرفاهية. عندما كنت أنا وكريغ نُحضِر دفاتر العلامات إلى البيت، كان والداي يحتفلان بطلب البيتزا من مطعمنا المفضّل Italian Fiesta. وفي الطقس الحارّ، كنّا نختار أصناف البوظة المعبّأة باليد – نصف ليتر لكلّ منّا من الشوكولاته والبيكان والكرز الأسود – ونحتفظ بها أيّامًا في البرّاد. كلّ سنة،

في عرض Air and Water Show، كنّا نوضّب الطعام، ونذهب بالسيّارة شمالًا في محاذاة بحيرة ميشيغن، نحو شبه الجزيرة المسيّجة، حيث تقع منشأة تكرير المياه التي يعمل فيها أبي. كانت تلك من المرّات القليلة سنويًّا التي يُسمح فيها للموظّفين بإدخال عائلاتهم عبر البوّابات، والجلوس على المرج الأخضر المطلّ على البحيرة، حيث كان مشهد الطائرات الحربية بتشكيلاتها فوق المياه، يفوق ما يمكن أن تراه من داخل أيّ شقّة فخمة في Lake Shore Drive.

كان أبي يأخذ عطلة مدّة أسبوع، من عمله في منشأة المدينة لتكرير المياه، في شهر تمّوز/يوليو من كلّ سنة. يضعنا جميعًا في البويك، مع زوجة خالي وابنَيه – سبعة أشخاص في سيّارة ذات بابين ساعات – يسلك طريق Skyway للخروج من شيكاغو، متجنّبًا الطرف الجنوبي من بحيرة ميشيغن، حتّى نصل إلى منطقة White Cloud في ميشيغن، وتحديدًا إلى فندق يدعى Dukes Happy Holiday Resort. ضمّ المكان صالة ألعاب، وبرّادًا آليًّا لبيع المشروبات. والأهمّ بالنسبة إلينا، كان وجود حوض سباحة كبير في الهواء الطلق. كنّا نستأجر حجرةً مع مطبخ صغير، ونمضي أيّامنا في القفز في الحوض.

كان والداي يمضيان وقتهما في شواء اللحم، وتدخين السجائر، ولعب الورق مع زوجة خالي، وكان والدي يأخذ فترات استراحة طويلة لينضمّ إلينا في الحوض. كان والدي وسيمًا، وله شاربان كالمنجل. كانت عضلات صدره وذراعيه بارزة، مذكّرةً بالرياضيّ الذي كانَهُ يومًا. وخلال تلك الساعات الطويلة في الحوض، كان أبي يلهو ويضحك، ويلقي بأجسادنا الصغيرة في الهواء، غير قادر على الاعتماد على ساقيه الضعيفتين.

من الصعب قياس حجم التدهور، بخاصّة إذا كنتَ شاهدًا عليه. عندما كنت أعود أنا وكريغ إلى مدرسة Bryn Mawr الابتدائيّة، في شهر أيلول/سبتمبر من كلّ سنة، كنّا نلاحظ تناقص عدد الأولاد البيض في الملعب. كان بعضهم ينتقل إلى مدرسة كاثوليكيّة قريبة، بيد أنّ الكثيرين غادروا الحيّ نهائيًّا. في البداية،

بدا أنّ البيض فحسب هم الذين يغادرون، لكنّ ذلك تغيَّر أيضًا، إذ سرعان ما بدا أن كلّ من يملك القدرة على الرحيل كان يرحل. وفي كثير من الأحيان، كان الرحيل يتمّ من دون إعلان عنه أو تفسير أسبابه؛ فنرى، فجأةً، لافتةَ «للبيع» أمام منزل عائلة ياكر، أو شاحنة نقل أمام منزل تيدي، فنفهم ما سيحدث.

لعلّ الصدمة الكبرى التي أصابت أمّي كانت عندما أعلنت صديقتها، فيلما ستيوارت، أنها سدَّدت وزوجها مبلغًا من المال، دفعةً أولى لشراء بيتٍ في ضاحية Park Forest. ضمَّت عائلة ستيوارت ولدَين، وكانوا جيرانًا لنا في جادّة يوكليد. كانوا مثلنا يسكنون شقّة مستأجرة. تمتَّعـت السيدة ستيوارت بروح مرحٍ ماكرة، وضحكة مجلجلة ومُعدِية، ما جذب أمّي نحوها. فتبادلت المرأتان وصفات الطعام والزيارات، ولم تشاركا البتة في النميمة السائدة في الحيّ، على غرار باقي الأمّهات. كان ابن السيّدة ستيوارت، دوني، في سنّ كريغ، وكان رياضيًّا مثله، ما وثَّق عرى الصداقة بينهما على الفور. أمّا ابنتها باميلا، التي كانت مراهقة وقتذاك، فلم تبدِ اهتمامًا بصداقتي، في حين كنت أجد المراهقين كافّة مثيرين للاهتمام. لا أذكر الكثير عن السيّد ستيوارت سوى أنّه كان يقود شاحنة توصيل تابعة لإحدى شركات المخابز الكبيرة في المدينة، وأنّه وزوجته وولديهما كانوا يتمتعون بالبشرة السوداء الأفتح التي رأيتها في حياتي.

كيف تمكّنت عائلة ستيوارت من تحمّل كلفة بيتٍ في الضواحي؟ لا أعرف الجواب. فمنطقة Park Forest كانت واحدةً من أوّل المجمَّعات السكنيّة المنظّمة بالكامل في أميركا. لم تكن مجمّعًا سكنيًّا فحسب، بل قرية متكاملة صُمِّمَت لاستيعاب ثلاثين ألف نسمة، مع مجمّعات تجاريّة، وكنائس، ومدارس ومتنزّهات. تأسَّست المنطقة العام 1948، بهدف أن تكون – بطرائق عدّة – أنموذجًا مثاليًّا للحياة في الضواحي، ببيوتها المتشابهة وحدائقها المنمَّقة الموحَّدة. كانت هناك أيضًا نسب محدَّدة لعدد العائلات السوداء المسموح لها بسكن كلّ حيّ. إلّا أنّ هذه المحاصصة لم يعد معمولًا بها، في ما يبدو، في الوقت

الذي انتقلت عائلة ستيوارت للسكن هناك.

بعد وقت قليل من انتقالها إلى Park Forest، دعتنا عائلة ستيوارت إلى زيارتها، خلال أحد أيّام عطلة والديّ. كنّا متحمّسين جدًّا لهذه الدعوة؛ إذ رأينا فيها وجهةً جديدةً لنزهاتنا، وفرصة لاكتشاف تلك الضاحية الشهيرة. ركبنا جميعًا البويك، وتوجّهنا جنوبًا على الطريق السريع، مبتعدين من شيكاغو، ثم خرجنا من الطريق السريع، على بعد حوالى أربعين دقيقة، قرب مركز تجاريّ بدا شديد النظافة. أخذنا نسير في شبكة من الشوارع الهادئة، متّبعين إرشادات السيدة ستيوارت، وعابرين أحياء متشابهة إلى حدَّ التطابق. كانت Park Forest أنموذجًا مصغّرًا لمدينة مؤلّفة من سلسلة بيوت متشابهة، أشبه بمزارع متواضعة بسقوفها الرماديّة، وشجيراتها وشتلاتها المزروعة حديثًا في الباحات الأماميّة.

«لماذا يرغب المرء في العيش هنا، بعيدًا عن كلّ شيء؟»، سأل أبي. وافقتُه الرأي. فبقدر ما أمكنني رؤيته، لم تكن هناك أشجار كبيرة، كالسنديانة الضخمة التي تطلّ عليها غرفتي. كلّ شيء في Park Forest بدا جديدًا وواسعًا وغير مزدحم. لم يكن هناك متجرٌ للمشروبات وأشخاص نزِقون يتسكّعون أمامه. لا زمامير سيّارات ولا صفّارات إنذار، ولا موسيقى تنبعث من أحد المطابخ. بدت النوافذ، في جميع البيوت، مغلقة.

يتذكّر كريغ زيارتنا هذه على أنّها كانت رائعة، إذ أمضى اليوم بكامله يلعب بالطابة مع دوني ستيوارت ورفاقه الجدد من الضواحي، في ساحات كبيرة وفسيحة تحت سماءٍ زرقاء صافية. وانشغل أهلي في حديث ممتع مع السيّد والسيّدة ستيوارت، أمّا أنا، فلاحقتُ باميلا حول البيت، منبهرة بشعرها، ولون بشرتها الفاتح، ومجوهراتها. ثمّ تناولنا جميعًا طعام الغداء.

في المساء ودّعنا مضيفينا أخيرًا. غادرنا بيتهم مع الغروب، سائرين نحو السيّارة. كان كريغ متعرّقًا ومتعبًا، بعد الجهد الذي بذله في اللعب. كنتُ مرهقة أيضًا ومستعدّة للعودة إلى المنزل. ثمّة شيء ما في هذا المكان أزعجني. لم أكن من محبّي

الضواحي، مع أنّي لم أستطع التعبير بوضوح عن السبب.
لاحقًا، أبدت أمّي ملاحظة حول عائلة ستيوارت وحيّهم الجديد مفادها أنّ جيرانهم في الشارع، معظمهم من البيض.
«أتساءل»، قالت، «هل كان أحد هناك يعرف أنّهم عائلة سوداء قبل أن نأتي اليوم لزيارتهم؟».
فكّرَت أمّي في أنّنا بمجيئنا من جنوب شيكاغو حاملين هديّة، ببشرتنا السوداء الداكنة الواضحة، ربّما قد تسبّبنا بعزل عائلة ستيوارت، من غير قصد. الأرجح أن عائلة ستيوارت لم تتعمّد أن تُخفي انتماءها العرقيّ، إلّا أنّها من المحتمل ألّا تكون تطرّقت إلى الموضوع مع جيرانها الجدد من ذي قبل. ومهما كان المزاج السائد في حيّها، فإن عائلة ستيوارت لم تُخلّ به علانيّة، في الأقلّ إلى أن جئنا لزيارتها.
هل كان هناك أحدٌ يراقبنا، خلف إحدى النوافذ، عندما اقترب أبي من سيّارته في تلك الليلة؟ هل كان هناك ظلٌّ ما خلف ستارة، ينتظر ليرى كيف ستتطوّر الأمور؟ لن أعرف الجواب أبدًا. أذكر فحسب كيف تشنّجَ أبي عندما وصل إلى السيّارة ورأى ما حصل. ثمّة شخص خدشَ سيّارته المحبوبة، بخطٍّ طويل رفيع وبشع، امتدّ من أوّل الباب حتّى مؤخّر السيّارة؛ لقد تمّ ذلك عمدًا بوساطة مفتاح، أو حجر، ولم يكن حادثًا عرضيًّا البتّة.
ذكرتُ من قبل أنّ أبي كان شخصًا صلبًا، لا يتذمّر مهما كان حجم المشكلة، يأكل طبق الكبد إن قُدِّم له، يستمع إلى طبيب يخبره ما يشبه حكمًا بالإعدام فيواصل حياته كالعادة. هكذا، تعامل مع ما حصل للسّيارة، من دون زيادة أو نقصان. لو كانت هناك طريقة ليدافع عن نفسه، أو يطالب بحقه، أو حتى ينتقم ما كان أبي ليفعل ذلك.
«لا يُعقَل»، قال أبي قبل أن يفتح باب السيّارة.
ركبنا السيارة في تلك الليلة، عائدين إلى المدينة، من دون أن نتطرّق إلى ما حصل. لعلّ تحليل الأسباب سيكون مضنيًا. في جميع الأحوال، كنّا انتهينا من الضواحي. ترتَّب على أبي أن يقود سيّارته إلى العمل في اليوم التالي وهي تحمل ذلك الخدش،

وكنتُ متّأكّدة من أن ذلك يزعجه. لكنّ خدش السيّارة لم يدم طويلًا؛ إذ عندما وجد أبي الوقت الملائم، أخذها إلى قسم الصيانة في Sears الذي تولّى معالجته.

3

بدأ أخي المسترخي عادةً ينجرف في دوّامةٍ من المخاوف. لا أستطيع الجزم متى حدث ذلك أو لماذا، لكنّ كريغ – الصبيّ الذي يتلقّى التحيّات ويوزّعها في أنحاء الحيّ، والذي في إمكانه أن يأخذ قيلولة، ولو مدّة عشر دقائق، في أيّ مكان – صار أكثر عصبيّة وحذرًا في البيت، مقتنعًا بوجود كارثةٍ ما تلوح في الأفق. خلال فترات المساء في البيت، كان كريغ يتحضّر لمواجهة الاحتمالات كلّها، فيغرق نفسه في فرضيّات كنّا نجدها غريبة. خوفًا من فقدان البصر، راح كريغ يضع عصابة حول عينيه، ويتدرَّب على التنقّل في أنحاء الشقّة، بين غرفة الجلوس والمطبخ، متحسّسًا الأشياء. وخوفًا من فقدان السمع، راح يتعلّم لغة الإشارة. استبدّ به أيضًا الخوفُ من بتر الأعضاء، فراح يتناول وجبات الطعام ويتمّم فروضه المدرسيّة بصعوبة بعد تقييد يده اليمنى إلى الخلف، لأنّ لا أحد يعرف ما يخبّئ له الزمن.

غير أنّ خوف كريغ الأكبر بدا الأكثر واقعيّة، إذ كان يخاف النار. كانت الحرائق تحدث في البيوت باستمرار في شيكاغو. من جهةٍ، بسبب تخاذل مالكي العقارات في الأحياء الفقيرة عن إجراء التصليحات، وجشعِهم الذي تمثّل في سعيهم إلى تحصيل التعويضات من شركات التأمين عند نشوب الحرائق. ومن الجهة الثانية، بسبب غلاء أسعار أجهزة الإنذار، التي كانت حديثة العهد، وفاقت آنذاك القدرة الشرائيّة لأبناء الطبقة العاملة. في جميع

الأحوال، كانت الحرائق تحدث بصورة متكرّرة وعشوائيّة داخل أحياء مدينتنا المتراصّة، بحيث راحت تلمّ بالبيوت والقلوب معًا. انتقل جدّي – ساوث سايد – إلى حيّنا بعد نشوب حريق التهمَ بيته القديم في الجانب الغربي من المدينة، ولحسن الحظّ لم يتعرّض أحدٌ للأذى. (وفق ما روت أمّي، وقف عندذاك ساوث سايد على الرصيف خارج بيته المحترق لمناشدة رجال الإطفاء إبعاد خراطيم المياه عن ألبومات الجاز النفيسة). ومؤخّرًا، وقعت مأساة كانت أكبر بكثير من أن يستوعبها عقلي اليافع. أدّى حريق في بيت زميلي في الصفّ الخامس – طفلٍ بشوش وشَعره كثيف يدعى ليستر ماكولم، كان يسكن منزلًا قرب من شقّتنا في الشارع 74 – إلى موته، في حادثة أودت بحياة أخيه وأخته أيضًا، بعد أن حاصرتهم النيران التي شبَّت في غرف نومهم العلويّة.

كانت جنازة الأطفال الثلاثة أوّل جنازة أحضرها في حياتي: أطفال الحيّ جميعهم كانوا ينتحبون في القاعة، بينما تُعزف موسيقى لـ«جاكسون 5» بصوت خافت في الخلفيّة. بدا الكبار مذهولين وعجزوا عن الكلام؛ ما من صلاة أو عبارات متداولة قد تملأ هذا الفراغ. سُجِّيَت الجثث في ثلاثة نعوش مغلقة في مقدّم الغرفة، وقد وُضعت على كلّ منها صورةٌ لطفلٍ باسم. جلست السيدة ماكولم التي نجت من الحريق مع زوجها، بعد أن قفزا من النافذة، أمام النعوش منهارة ومحطّمة؛ فمجرّد النظر ناحيتها كان أمرًا شديد الإيلام.

ولأيّام تلَت، ظلّ هيكل بيت عائلة ماكولم المحترق يذوي ويتساقط، ويموت ببطء أكبر من الصغار الذين كانوا يقطنونه. عبقت أجواء الحيّ كلّها برائحة الدخان الكثيف طويلًا.

مع مرور الوقت، ازدادت اضطرابات كريغ حدّةً. في المدرسة، كنّا نتدرّب على طرائق الإخلاء في حالات الطوارئ تحت إشراف الأساتذة، نصغي بانتباهٍ إلى الإرشادات حول كيفيّة التوقّف والانبطاح والتدحرج. لذلك، قرَّر كريغ تعزيز إجراءات السلامة في البيت؛ فعيَّن نفسه قائد فرقة الإطفاء في العائلة. وبات جاهزًا، بمساعدتي كنائبٍ له، للتدرّب على إخلاء ممرّات الخروج،

ولتوجيه الأوامر إلى والدَيّ. لم نكن مقتنعين بأنّنا سنتعرّض لحريق، إذ كنّا نستعدّ لتجنّب ذلك. كان لا بدّ من التحضير المسبق. عائلتي لم تلتزم الوقت فحسب؛ بل كنّا دائمًا نصل قبل الوقت المحدّد، ما يجنّب أبي القلق حول إيجاد موقف قريب للسيّارة يعفيه من مشقّة المشي الطويل، أو يمكّنه من العثور على مقعد يسهل الوصول إليه في أحد المدرّجات، لحضور مباريات كرة السلّة التي يشارك فيها كريغ. كان الدرس هنا: في الحياة، تتحكّم في ما تقدر عليه.

لهذه الغاية، وكأطفالٍ، كنّا نركض عبر طرق الهروب المُحتملة. نختبر قدرتنا على القفز من النافذة إلى السنديانة في الحديقة، أو إلى سطح جار في حال نشوب حريق. كنّا نتخيّل ما يمكن أن يحصل لو اشتعلت زيوت في المطبخ، أو حصل تماس كهرباء في القبو، أو أتتنا صاعقة من السماء. لم نكن لنقلق أنا وكريغ على أمّي في حال حدوث أي طارئ؛ فهي كانت ضئيلة الحجم، ونشيطة، وقادرة ربّما على رفع سيّارة من مكانها، إنقاذًا لطفل، إذا ارتفع الأدرينالين لديها. ما صعُبَ علينا التطرّق إليه كان إعاقة أبي: فمن الواضح أنّه لم يكن في استطاعته القفز من نافذةٍ مثلنا، بخاصة أنّنا لم نره يركض منذ سنين.

في حال تأزّمت الأمور، كنّا على يقين بأن عمليّةَ إنقاذنا لن تحدث كما تُصوّرها الأفلام التي نشاهدها على شاشة التلفزيون بعد العودة من المدرسة. فالشخص الذي سيحملنا على كتفيه، بسلاسةٍ هرقليّة، ويعبر بنا إلى شاطئ الأمان لن يكون أبي. وإذا كان أحد سيفعل ذلك، فهو كريغ. ومع أنّ كريغ سيصبح أطول من أبي لاحقًا، إلّا أنّه كان آنذاك ولدًا هزيلًا بكتفين ضيّقتين، وبرجلين طويلتين نحيفتين، ولعلّه أدرك أنّ أيّ بطولة قد يصنعها تتطلّب منه مواصلة التدرّب. لهذا، بدأ كريغ يتخيّل أسوأ الاحتمالات خلال تدريباتنا العائليّة، فيأمر أبي بالتمدّد على الأرض كأنّه فَقَدَ الوعي بتأثير دخان الحريق.

«يا إلهي»، كان أبي يقول هازًّا رأسه، «هل ستفعل ذلك حقًّا؟!».

لم يكن أبي معتادًا أن يكون عاجزًا. عاش حياته متحدّيًا ذلك المفهوم بالذّات. فاعتنى بسّيارتنا بدأبٍ شديد، ودفع الفواتير في الوقت المحدّد، ولم يتحدّث قطّ عن الداء الذي ألمّ به، ولم يتغيَّب يومًا واحدًا عن عمله. على العكس، أحبّ أبي أن يكون دومًا الصخرة التي يستند إليها الآخرون. وما لم يستطع فعله جسديًّا، عوَّضه بالدعم المعنويّ؛ ما جعله يستمتع بعمله كرئيسٍ للدائرة الانتخابيّة للحزب الديمقراطيّ في المدينة. شغل هذا المنصب سنوات، خصوصًا أنّ العمل المخلص لماكينة الحزب كان متوقّعًا بشكل أو بآخر من موظّفي المدينة. حتّى لو اضطر بشكل أو بآخر إلى أداء ذلك العمل، إلّا أنّ أبي أحبّه، الأمر الذي أثار حيرة أمّي، نظرًا إلى الوقت الطويل الذي تطلَّبه. كان يقوم بزيارات، خلال عطلة الأسبوع، إلى الأحياء القريبة لتفقّد جمهور الناخبين، وغالبًا ما كنت أرافقه بتردّدٍ. كنّا نركن السيّارة ونمشي عبر شوارع تعجّ بالأكواخ المتواضعة، فنتوقّف لنخاطب أرملةً محدودبة الظهر، أو عاملًا بكرشٍ ضخم يحمل زجاجة جعّة ويراقب المارّة من خلف باب بيته. غالبًا ما كان هؤلاء الأشخاص يسعدون برؤية أبي بابتسامته العريضة، متّكئًا على عصاه.

«أهلًا يا فرايزر!»، كانوا يقولون «يا لها من مفاجأة سارّة، تفضَّل».

لم تكن هذه الدعوات خبرًا سارًّا بالنسبة إليّ، إذ كانت تعني أنّنا سندخل. وأنّ بعد ظهر يوم السبت بكامله سوف يضيع منّي على كنبةٍ عفنة، أو أمام طاولة مطبخ أشرب السفن آب، بينما يستمع والدي إلى آرائهم – أو بالأحرى شكاواهم – التي سيرفعها إلى الجهات المعنيّة. وعندما كان شخصٌ ما يعاني مشكلةً تتعلّق بجمع القمامة، أو جرف الثلج، أو يتذمّر من حفرة وسط الشارع، كان أبي يصغي باهتمام. كان هدفه جعل الناس يشعرون باهتمام الديمقراطيّين بهم، وأن ينعكس ذلك على تصويتهم في الانتخابات التالية. وما كان يسبّب استيائي، هو أنّ والدي لم يستعجل أحدًا منهم في الكلام قطّ. فالوقت، من وجهة نظر أبي، كان هديّةً ثمينة تهديها للآخرين. كان يهزّ رأسه إعجابًا أمام صور أحفادهم، ويتحمّل بصبر ثرثرتهم وتقاريرهم المفصّلة عن

مشكلاتهم الصحّيّة، ويومئ برأسه لدى سماعه شكاواهم عن الضائقة الماليّة. كان يحتضن النساء المسنّات فيما نغادر بيوتهنّ أخيرًا، مؤكّدًا أنّه سيبذل قصارى جهده ليحلّ ما يُمكن حلّه.

كان أبي مقتنعًا تمامًا بالفائدة التي يعود بها على الآخرين. وكان هذا الأمر مدعاة فخر بالنسبة إليه. لهذا، وخلال التمرينات التي كنّا نقوم بها على كيفية التصرّف في حال نشوب حريق، لم يكن يحب أن يبدو غير مجدٍ، حتّى وإن كانت الأزمة افتراضيّة. هو لم يرغب أبدًا في أن يكون عبئًا على أحد، كأن ينتهي الأمر به فاقدَ الوعي ملقًى على الأرض. لكنّه أدرك أنّ الأمر مهمّ بالنسبة إلينا، وبالنسبة إلى كريغ على وجه الخصوص. وعندما كنّا نطلب منه التمدّد على الأرض، كان يفعل ذلك ممازحًا، ينزل على ركبتيه أوّلًا، ثمّ على مؤخّرته، فيتمدّد على ظهره على سجّادة غرفة المعيشة. وكان يتبادل النظرات مع أمّي – التي وجدت الأمر مضحكًا – كأنّه يقول: «يا لهذين الولدَين الشقيَّين!».

ثمّ كان يغمض عينيه متنهّدًا، فيما بدا كريغ تمسكان به بإحكام من كتفيه لبدء عمليّة الإنقاذ. كنت وأمّي نراقب كريغ وهو يجرّ – بجهدٍ كبير وتعثّرٍ واضح – حوالى 80 كيلوغرامًا عبر الجحيم المشتعل في مخيِّلة مراهق، يبتعد من الكنبة، ويصل به أخيرًا إلى مطلع الدرج.

من هناك، تصوّر كريغ أنّ في إمكانه أن يجعل جسد أبي ينزلق على الدرج، ليصل به إلى الباب الجانبي، ومنه إلى برّ الأمان. لكنّ أبي كان يرفض دومًا السماح لكريغ بالتدرّب على هذا الجزء الأخير، فيعترض بلطفٍ، قائلًا: «يكفي هذا الآن»، ويصرّ على الوقوف على قدميه قبل أن يستهلّ كريغ مناورة الدرج. ولكن، بين الرجل الصغير والرجل الكبير، توضّحت الأمور: لن يكون ذلك سهلًا أو مريحًا أيًّا كان الأمر، ولا ضمانات طبعًا في أن ينجو أيّ منّا. إلّا أنّه وفي أسوإ الأحوال، كانت لدينا في الأقلّ خطّةٌ.

رويدًا رويدًا، كنت أتحوّل كائنًا أكثر انفتاحًا على المجتمع، وأكثر استعدادًا لمواجهة العالم الخارجي. فقد تلاشت مقاومتي العفوية للفوضى، إلى حدٍّ ما، بفضل الساعات الطويلة التي

أمضيتها برفقة أبي في جولاته، والنزهات التي قمنا بها خلال عطلات الأسبوع لزيارة عددٍ لا يُستهان به من الأقرباء، أو عندما كنّا نجلس في إحدى الباحات الخلفية وسط غيومٍ كثيفة من دخان الشواء، أو عندما نركض مع أولاد جدد في أحياء جديدة.

كانت عائلة أمي تضمّ سبعة أفراد، فيما ضمّت عائلة أبي خمسة كان هو الأكبر سنًّا بينهم. اعتاد أقارب أمّي التجمّع في بيت ساوث سايد القريب يستقطبهم إتقان جدّي فنَّ الطبخ، ومباريات لعب الورق المتواصلة، وموسيقى الجاز الصادحة. كان ساوث سايد بمثابة قوّة جاذبة لنا جميعًا. لم يثق أبدًا في العالم خارجَ عتبة بيته – شديد القلق على سلامة الجميع وصحّتهم – ما جعله لا يألو جهدًا لخلق جوٍّ نستمتع فيه جميعًا بالطعام والترفيه، آملًا بألّا نبتعد منه. ذات يوم، أهداني جدّي كلبًا لطيفًا بلون القرفة، من نوع shepherd mutt، أطلقنا عليه اسم ركس. لم تسمح أمّي لركس بالعيش في بيتنا، فكنت أزوره طوال الوقت في بيت ساوث سايد. أتمدّد على الأرض وأمرّغ وجهي في وبره الناعم، وأراقب حركة ذنبه – في تعبير عن سعادته – كلمّا مرّ ساوث سايد قربه. كان ساوث سايد يدلّل الكلب بالطريقة نفسها التي يدلِّلني فيها: بالطعام والحبّ والتسامح، في محاولة صامتة وجادّة لاستعطافنا فلا نتركه أبدًا.

أمّا عائلة أبي التي انتشرت، في هذه الأثناء، في مختلف أرجاء الجانب الجنوبي لمدينة شيكاغو، فضمّت مجموعة كبيرة من الأقرباء، إضافة إلى أنسباء بقيت صلة الدم بهم غامضة. كنّا نجوب المدينة لنزورهم جميعًا بلا استثناء. كنت أحاول أن أحدّد وجهةَ رحلتنا من خلال عدد الأشجار التي أراها في الشوارع، حيث كانت الأحياء الأكثر فقرًا تبدو خاليةً تمامًا من الأشجار. كان أبي يعتبر الجميع أقرباءه. لطالما أشرق وجهه عندما كان يلتقي بخاله كاليو، الرجل النحيل ذو الشعر المموّج، وشبيه سامي ديفيس جونيور، والذي كان ثملًا على الدوام. وكان يعشق عمّته فيرديل التي تعيش مع أولادها الثمانية في بناية تضمّ شققًا مُهمَلة قرب Dan Ryan Expressway، في حيٍّ فهمنا، كريغ وأنا، أنّ صراع

البقاء فيه كان يخضع لقوانين مختلفة.
بعد ظهر أيّام الآحاد، كنّا نذهب نحن الأربعة في رحلة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق شمالًا باتّجاه Parkway Gardens، لتناول العشاء مع والدَي أبي اللذين سمّيناهما Dandy و Grandma ومع أخويه وأخته الأصغر سنًّا، أندرو وكارلتون وفرنشيسكا، الذين ولدوا جميعًا بعد أبي بأكثر من عقد، ما جعلهم يبدون أخَين وأختًا لنا، أكثر من عمَّين وعمّة. وبدا أبي في نظري أقرب إلى الوالد لهم، أكثر منه أخًا، يقدّم لهم النصائح، ويزوّدهم بالمال عند الحاجة. كانت فرنشيسكا ذكيّة وجميلة، وسمحت لي أحيانًا بتسريح شعرها الطويل. أمّا أندرو وكارلتون، فكانا في بداية العشرينيّات من العمر، وكانا يتّبعان آخر صيحات الموضة. كانا يرتديان السراويل الواسعة فوق القدم والكنزات ذات القبّات الواقفة والضيّقة. كانا يلبسان السترات الجلد، ويخرجان مع الفتيات ويتحدّثان بأمور ذات أهميّة مثل Malcom X و soul power. أمضيت وكريغ ساعاتٍ في غرفتهما في الجهة الخلفية للشقّة، نحاول أن نستقي من عصريتهما.
كانت صحبة جدّي، واسمه أيضًا فرايزر روبنسون، بلا شكّ أقلّ مرحًا. ربّ عائلة ذو نزعة أبويّة سلطويّة يدخّن السيجار، ويجلس في كرسيّه المريح فاتحًا جريدة على حجره فيما صوت نشرة أخبار المساء يتعالى مدوّيًا من جهاز التلفزيون قربه. كان سلوكه مختلفًا جدًّا عن سلوك أبي. كلّ شيء في الحياة كان بالنسبة إلى داندي مصدر إزعاج. كان يغتاظ من عناوين اليوم، ومن حالة العالم كما يراها على شاشة التلفزيون، ومن الشباب السود – الـ«بو بوز»، كما كان يسمّيهم – الذين كان يراهم يتسكّعون، بلا فائدة، في أنحاء الحيّ، ويشوّهون في نظره صورة السود في كلّ مكان. كان يصرخ في التلفزيون، كما وفي وجه جدّتي لافون، المرأة الرقيقة واللطيفة والمسيحيّة التقيّة. (سمّاني أهلي ميشيل لافون روبنسون تكريمًا لها). خلال النهار، كانت جدّتي تدير بجدارة مكتبة مزدهرة لبيع الكتب الدينيّة، في ناحية أبعد من الجانب الجنوبي. أمّا خارج أوقات العمل، فارتضت أن تتقزّم بخنوع

أمام داندي إلى درجة وجدتُها محيّرة، حتّى بالنسبة إليّ كفتاةٍ صغيرة. كانت تُعدّ طعامه، وتتحمَّل وابل شكاواه من دون أن تنبس ببنت شفة للدفاع عن نفسها. ثمّة شيء في سكوت جدّتي وخضوعها لداندي كان يثير حفيظتي.

حسبما تذكر أمّي، كنتُ الوحيدة في العائلة التي تجرّأت على الردّ على جدّي عندما كان يصرخ. فعلتُ ذلك أكثر من مرّة، مُذ كنت صغيرة، وبعد ذلك بسنوات عدّة. من جهةٍ، لأنّ سكوت جدّتي عن حقوقها أزعجني كثيرًا، ومن الجهة الثانية، لأنّ الجميع حوله كان يصمت، وأخيرًا، لأنّني أحببت داندي بقدرِ ما كان يثير ارتباكي. فقد أقررتُ بعناده، وهو أمرٌ ورثته أنا، ولو كنتُ على ما أظنّ أقلّ حدّة. وجدتُ أيضًا جانبًا رقيقًا في داندي، كنت ألمحه في لحظات معيّنة. كان أحيانًا يفرك رقبتي بحنان عندما أجلس على طرف كرسيّه، أو يبتسم عندما يتفوّه أبي بشيء مضحك، أو عندما يزلّ لسان أحد الأولاد بكلمةٍ معقّدة خلال حوار ما. لكن، ما إن كان يزعجه شيءٌ، حتى يعاود التكلّم بغضب شديد.

«كُفَّ عن الصراخ في وجوه الجميع، يا داندي»، كنت أقول له، أو «لا تكن قاسيًا مع جدّتي»، وغالبًا ما أضيف «ما الذي يغضبك إلى هذه الدرجة؟».

كان الجواب عن هذا السؤال بسيطًا ومعقّدًا في آنٍ واحد، تركه داندي نفسه من دون إجابة. كان يهزّ كتفيه باستياء ردًّا على تدخّلي، ويعود بعد ذلك إلى قراءة جريدته. بعد عودتنا إلى البيت، كان والداي يحاولان تفسير تصرّفاته.

داندي من منطقة Low Country في ولاية كارولاينا الجنوبية، وقد نشأ في جوار مرفإ جورجتاون، حيث عمل الآلاف من العبيد في مزارع شاسعة، يحصدون محاصيل الرز والنيْلَة، ويُراكمون الثروات لمالكيهم. كان جدّي، المولود العام 1912، حفيدًا لعائلة من العبيد، وابنًا لعامل مطحنة، والابنَ الأكبر في عائلةٍ تألَّفت من عشرة أفراد. ولأنّه كان طفلًا ذكيًّا وسريع البديهة، أُطلِق عليه لقب «البروفيسور». وضع جدّي نصب عينيه مبكرًا هدف الدخول إلى الجامعة. لكنّه لم يكن أسود البشرة ومن عائلة فقيرة

فحسب، بل صادف أن ترعرع في حقبة «الكساد الكبير». بعد تخرّجه في الثانوية، ذهب داندي للعمل في معمل لتقطيع الأخشاب، إذ كان مدركًا أنّ مروحة خياراته، حتّى لو قرّر البقاء في جورجتاون، لن تتّسع أبدًا. وعندما أغلق المعمل أبوابه، خاطر جدّي بالانتقال شمالًا إلى شيكاغو، كالأفريقيّين الأميركيّين كافّة من أبناء جيله. انضمّ إلى ما بات يُعرَف بـ«الهجرة الكبرى»، حين هاجر ستّة ملايين أسود من الجنوب إلى المدن الشماليّة الكبيرة، على مدى خمسة عقود، هربًا من الاضطهاد العنصريّ، وسعيًا إلى الحصول على وظائف في القطاع الصناعيّ.

لو كانت هذه حكاية «حلم أميركي» لوَجَد داندي، الذي وصل إلى شيكاغو في بداية الثلاثينيّات، وظيفةً جيّدة وشقّ طريقه إلى الجامعة. لكنّ الواقع كان مختلفًا تمامًا، إذ تبيَّن أنّه من الصعب الحصول على وظائف، أو أنّ هذه الأخيرة كانت محدودة نظرًا إلى أنّ المديرين في المصانع الكبرى في شيكاغو كانوا يفضّلون المهاجرين الأوروبّيين على العمّال الأفريقيّين الأميركيّين. اتّجه داندي إلى ممارسة الأعمال التي استطاع الحصول عليها، فرتّب القوارير في صالة البولينغ، وغسلَ الصحون، ومارس الحِرف المتعدّدة كأجيرٍ حرّ. خفَّض داندي مستوى تطلّعاته، تدرّجًا. وتخلّى عن فكرة الدراسة في الجامعة، وفكَّر في التدرّب ليصبح كهربائيًّا عوضًا عن ذلك. لكنّ ذلك أُحبِط أيضًا، وبسرعة. فإذا أردتَ أن تصبح كهربائيًّا – أو عاملًا في مصنعٍ للفولاذ، أو نجّارًا، أو سبّاكًا – في أيٍّ من مواقع العمل الكبيرة في شيكاغو، ترتَّب عليك الحصول على بطاقة نقابيّة. وإن كنتَ رجلًا أسود، فإنّك – كالأغلبية الساحقة من السود – لن تتمكّن من الحصول عليها.

غيَّرَ هذا النوع من التمييز مصائرَ أجيال من الأفريقيّين الأميركيّين، بمن فيهم، كثرٌ من الرجال في عائلتي. فحدّ من مداخيلهم وفرصهم، بالتالي طموحاتهم. لم يُسمَح لساوث سايد، مثلًا، بالعمل نجّارًا في ورشات البناء الكبرى التي تمنح راتبًا ثابتًا، في مشروعات طويلة الأمد، إذ لم يتمكّن من الانضمام إلى نقابة العمّال. كما تخلّى العمّ تيري، زوج روبي، عن مهنته كسبّاك

للسّبب ذاته، فاضطرّ إلى العمل مُستخدَمًا في خطّ للقطارات. وكان هناك أيضًا العمّ بِيت، من جهة أمّي، الذي لم يتمكّن من التسجّل في نقابة سائقي سيّارات الأجرة، واضطرّ إلى قيادة سيّارة أجرة غير مرخَّصة، يقلّ بها الركّاب الذين يعيشون في الأجزاء الأقلّ أمانًا في الجانب الغربيّ، والتي لا تذهب إليها عادة سيّارات الأجرة المرخَّصة. كلّ هؤلاء كانوا رجالًا حادّي الذكاء، أقوياء من حيث البنية، حُرموا حقّ الحصول على وظائف ثابتة وبرواتب جيّدة، الأمر الذي منعهم من تملّك البيوت، وإرسال أولادهم إلى الجامعات، والادّخار لمرحلة التقاعد. لقد آلمهم – أعي ذلك تمامًا – أن يُلقَوا جانبًا، وأن يراوحوا أماكنهم في وظائف أدنى ممّا تسمح لهم مؤهّلاتُهم، وأن يروا رجالًا بيضًا يتجاوزونهم بأشواط في الترقية في العمل، وأن يدرّبوا موظّفين مبتدئين، قد يصبحون ذات يوم رؤساءهم. لقد ولّد ذلك داخل كلّ منهم في الأقلّ، وبدرجة كبيرةٍ، شعورًا بالنقمة وانعدام الثقة: فأنت لا تعرف كيف ينظر إليك الآخرون.

أمّا في ما يتعلّق بداندي، فالحياة لم تكن سيّئة بالكامل، إذ تعرَّف إلى جدّتي أثناء ارتياد كنيسة في الجانب الجنوبيّ من شيكاغو، وعثر على عمل، في نهاية المطاف، عبر برنامج حكوميّ فيديرالي أطلِقت عليه تسمية Works Progress Administration، وهو برنامج إغاثة أمّنَ وظائف للعمّال غير المهرة في مشروعات البناء العامّة، خلال «حقبة الكساد». لاحقًا، أمضى داندي ثلاثين سنة من عمره كعاملٍ في دائرة البريد، قبل أن يتقاعد براتب شهريّ، ما أتاح له كلّ ذلك الوقت الصراخ على الشباب السود الـ«بو بوز» في شاشة التلفزيون، وهو يجلس على كرسيّه المريح.

في النهاية، ربّى داندي خمسة أولاد أذكياء وانضباطيّين مثله، إذ حملت نوميني، الابنة الثانية في ترتيب أولاده، شهادةً من كلّيّة إدارة الأعمال من جامعة هارفارد. وعمل أندرو مراقبَ قطار، بينما أصبح كارلتون مهندسًا. أمّا فرنشيسكا فعملت مديرةً إبداعيّة في مجال الإعلانات لفترةٍ معيّنة، وتحوّلت بعد ذلك إلى

العمل مدرّسةً في المرحلة الابتدائيّة. مع ذلك، لم يتمكّن داندي من النظر إلى إنجازات أولاده كإكمال لطموحاته، بل عاش مع هواجس أحلامه المحطّمة، كما كنّا نرى كلّ يوم أحد، خلال العشاء في Parkway Gardens.

إن كانت أسئلتي قاسية على داندي والإجابة عنها صعبة، فإن أسئلة كثيرة هي كذلك. فقد بدأت أواجه في حياتي الخاصّة أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها بسهولة. جاء واحدٌ منها من فتاةٍ لا أذكر اسمها. هي إحدى النسيبات البعيدات اللواتي كنّ يلعبن معنا في الباحة الخلفيّة من كوخ عمّة والدي، الذي يقع على مسافة من منزلنا إلى الغرب. كانت تلك الفتاة من الأشخاص الكثيرين الذين كانوا يظهرون عندما يذهب أهلي للزيارة. وبينما كان الكبار يرتشفون القهوة ويضحكون في المطبخ، كنتُ وكريغ نؤدّي مشهدًا موازيًا، فنجتمع في الخارج مع الأولاد الذين رافقوهم. كان الوضع محرجًا أحيانًا، إذ ترتَّب على الجميع التعامل بزمالةٍ مفروضة، ولكن، بشكل عام، كان الإحراج يزول سريعًا. غالبًا ما كان كريغ يتوارى عن الأنظار لينخرط في مباراة لكرة السلّة. وأنضمُّ أنا إلى لعبة القفز على الحبلَين، أو أحاول المشاركة في أيّ نشاط مرح.

ذات يوم صيفيّ، عندما كنتُ في العاشرة تقريبًا، جلستُ عند مدخل مبنى، أتحدّث مع مجموعة من الفتيات في مثل سنّي. كنّا جميعًا نعقد ضفائرنا، ونرتدي السراويل القصيرة، ونجلس هناك لتمضية الوقت فحسب. عمَّ كنّا نتحدّث؟ كان من الممكن أن نتحدّث عن أيّ شيء، كالمدرسة، وإخوتنا الأكبر منّا، أو عن قرية نمل في الأرض.

مرّة، التفتت إليّ إحدى الفتيات – قريبة من الدرجة الثانية، الثالثة أو الرابعة – ورمقتني بنظرة جانبيّة، وسألتني بنبرة حادّة نوعًا ما: «لماذا تتكلّمين مثل فتاة بيضاء؟!».

كان السؤال حادًّا، والهدف من أن يأتي في شكل إهانة، أو تحدٍّ في الأقلّ. لكنّه أيضًا صدر من زاوية جدّيّة، حاملًا نواة لشيء كان مربكًا لكلينا. كانت تربطنا صلة قربى، لكنّنا كنّا آتيتان من عالمين

مختلفين.

«أنا لا أتكلّم كذلك»، قلت بنبرة ملؤها الصدمة مجرّد أنّها لمّحت إلى ذلك، في حين غمرني إحساس بالخزي من طريقة تحديق الفتيات الأخريات بي.

لكنّني فهمتُ ما كانت الفتاة ترمي إليه. لم يكن الأمر يحتمل الإنكار، وإن كنت قد أنكرته للتّو. لقد كنتُ أتكلّم فعلًا بطريقة مختلفة عن بعض أقاربي، وكذلك فعل كريغ. كان والداي رسّخا فينا أهمّيّة الالتزام بالإلقاء السليم، كأن نقول « going» بدلًا من « goin» ونقول « isn’t» لا « ain’t». علّمانا أن نستكمل لفظ كلماتنا، كما اشتريا لنا قاموسًا ومجموعة Encyclopaedia Britannica الكاملة بعناوينها المحفورة باللون الذهب، ووضعاها على أحد الرفوف عند مطلع الدرج الذي يفضي إلى شقّتنا. وكان والداي يحيلاننا إلى هذه الكتب للعثور على الجواب في كلّ مرّة نطرح فيها سؤالًا عن كلمةٍ أو مفهومٍ أو واقعة تاريخيّة. كان لداندي أيضًا تأثير فينا إذ كان يصحّح أخطاءنا اللغويّة بدقّة، ويحثّنا على اتّباع أصول اللفظ السليم، كلّما ذهبنا إلى العشاء. كانت الفكرة أن نتفوّق لنرتقي بأنفسنا. لقد خطَّط أهلي لذلك وشجّعونا عليه. لم يقتصر المطلوب منّا على أن نكون أذكياء وحسب، بل أرادوا منّا أن نمتلك ذكاءنا – أن يسكننا بفخرٍ – وقد أثّر ذلك في طريقة كلامنا.

بيد أنّ الأمر كان من الممكن أن يكون إشكاليًّا أيضًا. فالكلام بطريقة معيّنة – الطريقة «البيضاء»، كما يقول البعض – كان يُعتبَر خيانةً أو غرورًا، وبطريقة أو بأخرى إنكارًا لثقافتنا. بعد سنوات عدّة، عندما قابلت باراك وتزوّجته – الرجل الذي يراه البعض ذا بشرة فاتحة، بينما ينظر إليه البعض الآخر على أنّه ذو بشرة داكنة، والذي يتحدّث كرجلٍ أسود من هاواي درس في جامعات Ivy League المرموقة، وربّته عائلة بيضاء من الطبقة الوسطى في كانساس – كنت أرى هذا الارتباك يتجسّد على مستوى الوطن بين البيض والسود على حدٍّ سواء. كنت ألحظ تلك الحاجة الماسّة إلى موضعة الشخص ضمن إثنيّته وألمس الإحباط الحاصل نتيجة صعوبة ذلك. لقد وجَّهَت أميركا إلى باراك أوباما

الأسئلةَ ذاتها التي وجَّهَتها إليّ قريبتي تلك، في غفلة منها، ذات يوم: هل أنتِ ما تبدين عليه؟ هل في إمكاني الوثوق فيكِ؟

أمضيت ما تبقّى من ذلك اليوم أحاول أن أقلّ من كلامي مع قريبتي، بعد أن أحبطتني عدوانيّتها. لكنّني أردتها أيضًا أن ترى أنّني صادقة، وأنّني لا أحاول التبجّح بميزة ما. كان من الصعب عليّ أن أعرف ما ينبغي فعله. في هذه الأثناء، كنت أسمع أصداء الأحاديث الدائرة بين الكبار في المطبخ القريب، وأصغي إلى ضحكات أهلي تتردّد بسهولة وصخب في أنحاء الباحة، وأراقبُ أخي منهمكًا في لعبة حامية مع مجموعة من الصبيان في الشارع المجاور، وبدا لي أنّ الكلّ مندمج، ما عدايَ أنا. وها أنا أستعيد اليوم الانزعاج الذي عشته في تلك اللحظة، وأُدرك التحدّي الأكثر شموليّة في مواءَمة ما أنتَ عليه مع المكان الذي أتيتَ منه، والمكان الذي تريد الذهاب إليه. وأُدرك أيضًا أنّني كنتُ، آنذاك، غير قادرة بعد على التعبير عن نفسي.

4

في المدرسة، كنّا نأخذ ساعة كاملة استراحة غداء. وبما أنّ أمّي لم تكن تعمل، وشقّتنا قريبة جدًّا، اعتدتُ الذّهاب سيرًا كلّ يوم إلى البيت، برفقة أربع أو خمس فتيات، ونحن نتحدّث بلا توقّف، كنّا مستعدّات للتمدّد على أرض المطبخ للعب الـ Jacks، ومشاهدة البرنامج التلفزيوني All My Children، بينما توزّع أمّي السندويشات علينا. شكّل ذلك عادة سترافقني طوال حياتي وهي أن أحيط نفسي بصداقاتٍ متينة تربطني باللواتي يتمتّعن بمعنويات عالية، إذ يشكّلن ملاذًا آمنًا عمادُه الحكمة الأنثويّة. خلال استراحة الغداء هذه، كنا نحلّلُ ما جرى معنا صباح كلّ يوم في المدرسة، ونعلّقُ على ما أزعجنا من تصرّفات الأساتذة ومن بعض الفروض المملّة. في الغالب، شكّلنا آراءنا معًا كأنّنا في لجنة. كنّا معجبات بشدّة بفرقة «جاكسون 5» ومتردّدات بشأن فرقة «أوزموندز». كانت فضيحة «ووترغيت» قد حدثت، ولكن لم يفهمها أحدٌ منّا. فقد اقتصرت في نظرنا على أشخاص يتحدّثون في ميكروفونات، في واشنطن دي سي، المدينة التي كانت بالنسبة إلينا آنذاك بعيدةً ومليئة بالمباني البِيض والرجال البِيض.

في ذلك الوقت، كانت أمي سعيدة بوجودنا الذي أتاح لها نافذةً سهلة على عالمنا. ففي حين كنت ورفيقاتي نأكل ونثرثر، كانت غالبًا حولنا بهدوء وتنشغل ببعض الأعمال المنزليّة وهي تصغي إلى كلّ كلمة نقولها. في عائلتي – أربعة أشخاص محشورين في

مساحة تقلّ عن 85 مترًا مربّعًا – لم نكن نتمتّع بأيّ شكلٍ من الخصوصيّة. كان الأمر، في أحيانٍ معيّنة، مهمًّا؛ فكريغ الذي بدأ فجأة يهتمّ بالفتيات، صار يُجري مكالماته الهاتفيّة في الحمّام، فيمتدّ شريط الهاتف من المطبخ عبر الصالة.

بالنسبة إلى مدارس شيكاغو، تأرجح تصنيف Bryn Mawr بين مدرسة سيّئة ومدرسة جيّدة. فبسبب تَواصُل الفرز العرقيّ والاقتصاديّ، في منطقة South Shore خلال فترة السبعينيّات، بدأ الطلّاب يصبحون أكثر سوادًا وأكثر فقرًا كلّ عام. وفي إحدى الفترات، نشأت على مستوى المدينة، حركة دمج دعت إلى نقل الطلّاب من مدرسة إلى أخرى بغية تحقيق التوازن العرقيّ. لكنّ أهالي الطلّاب في مدرسة Bryn Mawr، حاربوا الفكرة بنجاح، بحجّة أنّ من الأفضل صرف الأموال في تحسين المدرسة. كطفلةٍ، لم أكن أملك أدنى فكرة عمّا إذا كانت المرافق متهالكة، أو كان تناقص أعداد الأطفال البيض في المدرسة يعني شيئًا. تضمّنت المدرسة الصفوف بدءًا من الروضة حتّى الصفّ الثامن. بالتالي، عندما أصل إلى الصفوف الأعلى سيكون قد انطبع في ذهني مكان كلّ زرّ إنارة، وكلّ لوح، وموقع كلّ بقعة مصدّعة في الممرّ. كنت أعرف الأساتذة جميعهم تقريبًا، وغالبية التلامذة. كانت مدرسة Bryn Mawr بالنسبة إليّ، امتدادًا لبيتي.

عندما كنت في الصف السابع، نشرت الـ Chicago Defender، وهي جريدة أسبوعيّة حقّقت شهرةً في صفوف القرّاء الأفريقيّين الأميركيّين آنذاك، مقالةَ رأيٍ لاذعة زعمَت أنّ مكانة مدرسة Bryn Mawr تدهورت خلال سنواتٍ قليلة، من كونها واحدة من أفضل المدارس الحكوميّة، إلى «حيّ متقوّض» تحكمه «عقليّة الغيتو». ردّ مدير المدرسة، الدكتور لافيتزيو، فورًا برسالة إلى المحرّر، دافع فيها عن الأهالي والتلاميذ، واعتبر أنّ المقالة المنشورة في الجريدة «كذبة فاضحة مصمَّمة خصّيصًا لتأجيج الشعور بالفشل وتعزيز الرغبة بالفرار».

كان الدكتور لافيتزيو رجلًا ممتلئًا ومبتهجًا، يبرز شعره المجعّد على جانبي رأسه الأصلع، ويمضي معظم وقته داخل مكتب قرب

المدخل الرئيسي للمبنى. كان واضحًا من رسالته إلى المحرّر أنه فَهِمَ تمامًا ما يُواجهه، فالفشل شعور إذا ما ترسّخ يتحوّل حقيقة، وهو أيضًا هشاشةٌ تتغذّى من التشكيك في النفس، وتتصاعد، بشكلٍ متعمَّد غالبًا، بفعل الخوف. كان هذا «الشعور بالفشل» الذي وصفه المدير، موجودًا في كلّ مكان في حيّنا؛ بصورة أهلٍ تعثّروا ماليًّا، أو أولاد قد بدأوا يشكّكون في أنّ حياتهم لن تكون مختلفة، أو عائلاتٍ شاهدت جيرانها ذوي الدخول العليا يغادرون إلى الضواحي، أو ينقلون أولادهم إلى مدارس كاثوليكيّة. عرفت منطقة South Shore آنذاك عددًا من سماسرة العقارات الذين كانوا يجوبونها طوال الوقت، ويهمسون في آذان مالكي البيوت بضرورة بيع عقاراتهم قبل فوات الأوان. ويعدونهم بالمساعدة، على قاعدة اخرج طالما تستطيع إلى ذلك سبيلًا. هذا الأمر أدّى إلى الاستنتاج أنّ الانهيار آتٍ، لا محالة، وأن معالمه بدأت تظهر. فإمّا أن تبقى وسط الأزمة أو أن تهرب منها. لقد استخدموا الكلمة التي خشيها الجميع: «الغيتو»، وكانت تُرمى في كلّ مكان كفتيل مشتعل.

لم تصدّق أمّي شيئًا من هذا. كانت تعيش في منطقة South Shore منذ عشر سنوات، وسوف ينتهي بها الأمر إلى أن تعيش هناك أربعين سنة إضافيّة. وهي لم تتأثّر بحملة التخويف، لكنّها ظلّت، في الوقت عينه، محصّنةً من أي ميل نحو المثاليّة قد يكون قائمًا على الأوهام. كانت أمّي واقعيّة تمامًا، تتحكّم بما تقدر عليه.

في مدرسة Bryn Mawr، أصبحت أمّي من أنشط الأعضاء في لجنة الأهل والمعلمين PTA. ساعدَت في جمع التبرّعات لتجهيزات جديدة، وفي إعداد حفلات العشاء تقديرًا للأساتذة، وسعت إلى إنشاء صفّ خاصّ يجمع الطلّاب المتفوّقين من المراحل الدراسية كافّة. كان الدكتور لافيتزيو وراء الفكرة، فهو تابع دروسًا ليليّة لنيل شهادة الدكتوراه في التربية، ودرس عن مقاربة جديدة آنذاك تقضي بتقسيم الطلّاب مجموعات، بالاستناد إلى قدراتهم الذهنيّة، لا إلى الفئات العمريّة، أي وضع الطلّاب الأذكى

معًا لتمكينهم من التعلّم بوتيرة أسرع.

كانت الفكرة مثيرة للجدل وتعرّضَت للانتقاد، على اعتبار أنّها غير ديمقراطيّة، على غرار جميع البرامج المخصّصة «للموهوبين والأذكياء». لكنّها انطلقت كنزعةٍ في أنحاء البلاد، ما مكّنَني من الاستفادة منها في السنوات الثلاث الأخيرة التي أمضيتها في Bryn Mawr، فانضممت إلى حوالى عشرين تلميذًا من صفوفٍ مختلفة. وقد تمّ جمعنا في صفّ مستقلّ عن باقي التلامذة في المدرسة. كانت لنا برامجنا الخاصّة في ما يتعلّق بفترات الاستراحة والغداء والموسيقى والنشاطات الرياضيّة. كما أُتيحت لنا فرصٌ استثنائية، بما في ذلك رحلات أسبوعيّة إلى كلّيّة محلّيّة لمتابعة ورشات عمل متقدّمة في الكتابة، أو لتشريح فأرة في مختبر الطبيعيّات. أمّا داخل الصفّ، فكنّا ننجز الكثير من الأعمال الفرديّة، محدّدين أهدافنا ومحرزين تقدّمًا بالسرعة التي تناسبنا.

عُيِّنَتْ لنا مجموعة من الأساتذة، السيّد مارتينيز أولًا ثمّ تلاه السيّد بينيت، والاثنان كانا أميركيّين أفريقيّين، لطيفين ويتمتّعان بروح مرحة، ويصبّان اهتمامهما على كلّ ما قد يتبادر إلى أذهان تلامذتهما. كان واضحًا أنّ المدرسة استثمرت فينا وهذا ما دفعنا، في ما أظنّ، إلى بذل مجهود أكبر، وأدّى إلى رفع معنويّاتنا. ساهم نظام التعليم المستقلّ هذا، في تعزيز نزعتي التنافسيّة؛ تقدّمت بسرعة، واحتفظتُ بصمتٍ بجداولَ تظهر ترتيبي بين أقراني، فيما كنّا نتطوّر في أدائنا العلميّ من القسمة المطوّلة إلى أوّليات مادّة الجبر، من كتابة فقرة واحدة إلى كتابة أوراق بحث كامل. بدا الأمر بالنسبة إليّ أشبه بلعبة. وكما يحصل عادةً في الألعاب، وكأيّ فتاة، كنتُ في غاية السعادة عندما أحلّ في الطّليعة.

كنتُ أخبر أمّي بكلّ ما يحدث في المدرسة. وكانت تعرف منّي المستجدّات في فترة الغداء تليها مستجدّات أخرى أخبرها إيّاها باقتضاب لدى عودتي بعد الظهر، وأنا ألقي حقيبتي على الأرض وأبحث عن وجبة خفيفة. لا أعرف بالضبط ما كانت أمّي تفعل

خلال الساعات التي نمضيها في المدرسة. ولعلّ السبب الأهمّ لجهلي هذا، هو ذاك السلوك الطفوليّ المتمحور حول الذّات، والذي منعني من السؤال. لا أعرف بما كانت تفكّر، وكيف كانت تشعر حيال كونها ربّة منزل تقليديّة ليس لها وظيفة أخرى. ما أعرفه هو أنّه، ومجرّد وصولي إلى المنزل، سيكون الطعام موجودًا في البرّاد. ليس لي وحدي فحسب، بل ولصديقاتي. وأعرف أيضًا أنّ أمّي تتطوّع دائمًا لمرافقتي في جميع الرحلات التي ينظّمها صفّي، وأنّها ستظهر برداء أنيق وأحمر شفاه داكن لتستقلّ الحافلة معنا إلى كلّيّة محليّة أو إلى حديقة الحيوانات.

في بيتنا، عشنا ضمن موازنة محدّدة، لكنّنا لم نتطرّق إلى الموضوع في الغالب. كانت أمّي تجد دومًا وسائل للتّعويض. راحت تعتني بأظافرها وتصبغ شعرها بنفسها (في إحدى المرّات، ومن طريق الخطأ، أصبح شعرها أخضر). لم تكن تحصل على ملابس جديدة إلّا عندما تتلقّاها من أبي، هديّة في عيد ميلادها. لم تكن أمّي ثريّة قطّ، لكنّها كانت دومًا تُحسن التدبير. فعندما كنّا يافعين، كانت تُحوّل الجوارب القديمة، بطريقةٍ سحريّة، دمًى تشبه تلك التي نراها في التلفزيون في برنامج The Muppets. وبيديها حبكت الأغطية على للمناضد، وتولّت خياطة الكثير من ثيابي، أقلّه حتى وصولي إلى المرحلة المتوسّطة، حين اكتسب الشعارُ الخاصّ بغلوريا فاندربيلت، وهو على شكل بجعة، على الجيب الأماميّ لسروال الجينز أهمّيّةً قصوى. آنذاك أصررتُ عليها لتتوقّف عن الخياطة.

بين حين وآخر، كانت أمّي تغيّر تصميم غرفة الجلوس، واضعةً غطاء جديدًا على الكنبة، وتبدّل الصور الفوتوغرافيّة والصور المطبوعة المعلّقة على جدران منزلنا. وعندما يصبح الطقس دافئًا، كانت تمارس طقوسها المعتادة في إجراء حملة تنظيف ربيعيّة شاملة؛ فتنظّف الأثاث من الغبار بالمكنسة الكهربائيّة، وتغسل الستائر، وتزيل الشبابيك من مكانها لتمسح الزجاج بمسحوق Windex، وتنظّف الحوافي، وتضع المنخل الذي يسمح لنسمات الربيع بتلطيف شقّتنا الصغيرة والخانقة. بعد ذلك، كانت

غالبًا ما تنزل إلى شقّة روبي وتيري، خصوصًا عندما كبرا في السنّ وضعفت قدرتهما، لتنظّفها أيضًا. وبفضل أمّي، ما زلت حتّى هذا اليوم، عندما أشمّ رائحة الصنوبر التي تفوح من منظِّف Pine-Sol ينتابني شعور بالتفاؤل وأرى الحياة أجمل.

في عيد الميلاد، كانت أمّي تتألّق بإبداعاتها. فذات سنة، غطّت صناديق أنابيب التدفئة بورق مقوّى طُبِع ليبدو أشبه بالقرميد الأحمر، دبّست قطع الورق ببعضها بعضًا، لتتّخذ شكل مدخنة تمتدّ من الأرض إلى السقف، تتوسّطها مدفأة مزيّفة متكاملة. كما جنّدت مواهب أبي – فنّان العائلة المقيم – ليرسم سلسلةً من ألسنة اللهب البرتقاليّة، على ورق رقيق جدًّا، يُعطي، عندما تتمّ إنارته من الخلف، صورةَ نارٍ مشتعلة تكاد تكون حقيقيّة. ولمناسبة رأس السنة، وكتقليد سنوي، كانت تشتري سلّة مقبّلات خاصّة، ذلك النوع الذي يُملأ بقطع الجبنة، والمحار المدخّن الموضّب في علب، وأنواعٍ مختلفة من السلامي. كانت تدعو شقيقة أبي، فرنشيسكا، لتلهو بالألعاب الاجتماعيّة. كنّا نطلب بيتزا للعشاء، ثمّ نتناول الوجبات الخفيفة بأناقة خلال بقيّة السهرة، إذ كانت أمّي تمرّر صواني المعجّنات والروبيان المقلي، ورقائق Ritz بالجبنة. وعند اقتراب منتصف الليل، كان كلّ منّا يشرب كأسًا صغيرة من الشمبانيا.

كانت أمّي تتمتّع بعقليّة مميّزة أراها اليوم مبهرةً، وأجد أنّه من الصعب الحذو حذوها. كأنّها تستقي حيادها من فلسفة « Zen». لديّ أصدقاء عاشت أمهاتهم تقلّبات حياتهم كأنهنّ يعشن حياتهنّ الخاصّة، وأعرف الكثير من الأطفال الذين يغرق أهاليهم في تحدّياتهم الخاصّة فيغيبون تمامًا عن يوميّات أبنائهم. كانت أمّي ببساطة متّزنة، فهي لا تتسرّع في الحُكم على الأمور ولا في التدخّل. بل بدلًا من ذلك، كانت تراقب مزاجَينا، وتلعب دور الشاهدة الخيّرة في جميع المصاعب والانتصارات التي قد تحملها الأيّام. وعندما كانت تسوء الأمور، كانت تكتفي بإظهار القليل من الشفقة. أمّا عندما كنّا ننجز شيئًا رائعًا، فكنّا نتلقّى ما يكفي من الثناء ونشعر برضاها؛ ليس الكثير منه، كي لا يغدو الثناء غايةً بحدّ

ذاته.
أمّا النصائح، إن قدّمتها أمّي، فكانت تميل إلى الرزانة والبراغماتيّة. «ليس عليك أن تكوني مثل معلّمتك»، قالت لي ذات يوم، بعد أن عدت إلى البيت وأنا أسترسل في الشكاوى من معلّمتي. وأضافت: «لكنّ تلك المرأة لديها في رأسها ما تحتاجين إليه أنتِ من الرياضيّات. ركّزي على ذلك، وتجاهلي كلّ شيء سواه».
أحبّتنا أمّي أنا وكريغ بثبات. لكنّها حرصت على عدم الإفراط في إدارة شؤوننا. كان هدفها أن تهيّئنا لننخرط في الحياة. «أنا لا أربّي طفلَين!»، كانت تقول لنا باستمرار، وتضيف: «أنا أربّي راشدَين». اكتفت هي ووالدي بتقديم التوجيهات لنا، من دون إرساء قواعد صارمة. فمثلًا، كمراهقَين، لم تكن لدينا مهلة محدّدة للعودة إلى المنزل. واكتفى والداي بسؤالنا: «متى يجب العودة إلى البيت في رأيكما؟» مبديَين ثقةً في التزامنا بكلامنا.
يروي كريغ قصّة فتاة أُعجِب بها في الصف الثامن، وجَّهَت إليه، ذات يوم، دعوة «ملغومة» للذهاب إلى بيتها، موضحةً أنّ أهلها سيغيبون عن المنزل، ما يعني أنّهما سيكونان وحدهما.
عاش أخي معاناةً حقيقية تجلّت في حيرته بشأن الذهاب من عدمه. أثارته الفرصة، لكنّه أدرك أنّها كانت أمرًا خبيثًا ومعيبًا، وأنّ والديه لن يتغاضيا أبدًا عن تصرّفٍ كهذا. لم يمنعه ذلك من مصارحة أمّي بجزء من الحقيقة ممهِّدًا، فأخبرها بأمر الفتاة، لكنّه أعرب عن رغبته في ملاقاتها في حديقة عامّة.
كبّله الشعورُ بالذنب حتّى قبل أن يفعل ذلك، بل كبّله مجرّدُ التفكير في الأمر. اعترف كريغ أخيرًا بمخطّط البقاء في البيت بمفردهما، على أمل أن تستشيط أمّي غضبًا منه وتمنعه من الذهاب. لكنّها لم تفعل شيئًا من ذلك. لم تكن لتتّخذ خطوة مماثلة. لم تكن تلك طريقتها في التصرّف.
أصغت أمّي إلى كريغ، لكنّها لم تُحرّره من وطأة الخيار. بدلًا من ذلك، أعادته إلى مضاضته بهزّة كتف بسيطةٍ، قائلةً: «تصرّف وفقًا لما تراه مناسبًا»، ثمّ استدارت لتكمل ما كانت تفعله من غسل

الصحون أو طيّ كومة ثياب.

كانت تلك دفعَةً صغيرة أخرى نحو الانخراط في الحياة. أنا على يقين تامّ أنّ أمّي، في قرارة نفسها، علمَت مُسبَقًا أنّ كريغ سيتّخذ الخيار الصحيح. وأُدرك الآن أنّ الخطوات كلّها التي اتّخذتها أمي عزّزتها ثقتها في من ربّت. كان علينا أخذ قراراتنا بنفسَينا. إنّها حياتنا وليست حياتها. ستكون دومًا كذلك.

عندما بلغتُ الرابعة عشرة، حسبت أنّني اجتزت منتصف الطريق نحو النضوج، أو ثلثيه حتّى. وما إن أتتني الدورة الشهريّة، حتّى زففت الخبر على الفور لأهل البيت، وبحماسة كبيرة ألفناها في حياتنا كأسرة. كنت قد أقلعت عن ارتداء حمّالة النهدين التدريبيّة، وبدأت ألبس حمّالة أخرى بدت أكثرَ أنوثة، ما أفرحني أيضًا. وبدلًا من المجيء إلى البيت ساعة الغداء، صرت أتناول طعامي مع زميلاتي في مكتب السّيد بينيت في المدرسة. وبدلًا من الذهاب إلى بيت ساوث سايد أيّام السبت للاستماع إلى موسيقى الجاز واللعب مع ركس، رحت أركب درّاجتي، متجّهةً شرقًا إلى منزل الشقيقتين غور في جادّة Oglesby.

كانت الشقيقتان غور صديقتيَّ المفضّلتين، وقد نظرتُ إليهما كمثالٍ يُحتذى. كانت دَيان في صفّي، أمّا بام ففي صفٍّ أدنى. كانتا جميلتَين – الأولى ذات بشرة بيضاء، والثانية ذات بشرة أغمق – تحلَّت كلّ منهما برقّة فطريّة. حتّى أختهما الأصغر ببضع سنوات، جينا، كانت تفيض أنوثة معهودة لدى فتيات عائلة غور. سكنَت هذه العائلة منزلًا يقطنه القليل من الرجال. فالأب لم يعش هناك، ونادرًا ما كنّ يأتين على ذكره. أمّا الأخ الأكبر سنًّا بكثير، فقد كان حضوره هامشيًّا. الأمّ، السيّدة غور، امرأة متفائلة وجذّابة، تعمل بدوام كامل. كانت غرفتها مليئة بأدوات التجميل المتنوّعة من مساحيق الوجه، والمراهم على أنواعها، فضلًا عن زجاجات العطور. بدت هذه الأشياء في نظري جواهر نادرة لم أرَها لدى أمّي التي احتفظت بإطلالة متواضعة وعمليّة. أحببت تمضية الوقت في بيتهما. فكنت أتحدّث مع ديان وبام، ساعات طويلة، عن الفتيان الذين حظَوا بإعجابنا. كنّا نضع ملمّع الشفاه، ونرتدي

ملابس بعضنا بعضًا، فنلاحظ فجأةً أن سراويل معيّنة تجعل أوراكنا أكثر جاذبيّة. كان خيالي الخصب يستنزف الكثير من طاقتي في تلك الأيّام. جلست وحيدةً في غرفتي أستمع للموسيقى، تراودني أحلام اليقظة برقصة حميمة مع فتًى وسيم، أو ألقي نظرة خاطفة من النافذة على أمل أن يمرّ فتى أحلامي على درّاجته. كنت محظوظة بأن وجدت صديقتَين أصبحتا بمثابة أختَين لنمضي هذه السنوات معًا.

لم يكن مسموحًا للفتيان بدخول بيت عائلة غور، لكنّهم كانوا يحومون حوله كالذّباب. كانوا يعبرون بدرّاجاتهم على الرصيف، ذهابًا وإيابًا، أو يجلسون على العتبة الأماميّة، على أمل أن تظهر ديان أو بام ليغازلوهما. كان من الممتع ترقّب احتمالات كهذه، وإن لم أكن متأكدة من أبعادها. فأينما نظرت، كانت الأجساد تتبدّل حولي. اكتسبَ الصبيةُ في المدرسة فجأةً إطلالة رجوليّة مرتبكةً، وبدوا مختلفين بتوتّرهم وأصواتهم الجشّة. فيما بدت رفيقات لي أنّهنّ في الثامنة عشرة، فكنّ يتجوّلن بالسراويل القصيرة والبلوزات التي تظهر مفاتنهنّ. كنّ يتبخترن واثقات كأنّهنّ يعرفن سرًّا ما، أو يعشنَ على كوكب آخر، بينما بدونا نحن الأخريات حائراتٍ في أمرنا في انتظار أن نُستدعَى إلى عالم الراشدين. كنّا يافعات ولم يكن ملمّعُ الشفاه، مهما أسرفنا في استعماله، ليغيّر في هذا الواقع شيئًا.

مثل فتيات كثيرات، بدأت أدرك حاجات جسدي حتّى قبل أن أبدو امرأةً ناضجة. كنت أتنقّل في أرجاء الحيّ بثقةٍ كبرى، إذ بتُّ أقل ارتباطًا بأهلي. استقللت الحافلة للذهاب إلى صفوف الرقص بعد الظهر في أكاديميّة Mayfair في الشارع 79، حيث كنت أمارس الجاز والأكروباتيك. كما كانت أمّي توكل إليّ ببعض المهمّات أحيانًا. وكان لهذه الحريّة ثمنها أيضًا. لذا، تعلّمتُ كيف أسير بثبات عندما أمرّ بمجموعة من الرجال المتحلّقين في شارع ما، متجنّبةً نظراتهم التي تحوم حول نهديَّ ورجليَّ، كما تعلّمت كيف أتجاهل صيحات الاستهجان حين أسمعها. عرفت أيًّا من الأحياء في محيطنا يُعتبَر أكثر خطورة، وأدركت أنّ عليّ ألّا أمشي وحيدةً في

الليل.

في المنزل، تعامل والداي مع فكرة أنّنا أصبحنا مراهقَين، فأعادا تصميم الشرفة وراء المطبخ وحوّلاها إلى غرفةٍ لكريغ الذي كان قد أصبح في صف الـ sophomore آنذاك. تداعى الفاصل الخشب الرديء الذي وضعه ساوث سايد قبل سنوات، وانتقلتُ إلى غرفة نوم والديّ فيما شغلا هما غرفتنا السابقة. كانت المرّة الأولى في حياتنا التي نحصل أنا وكريغ، على غرفتَين مستقلّتين. كانت غرفتي الجديدة رائعة: أغطية سرير ووسائد بِيض وزُرق منقوشة بالورود، بساط متموّج أزرق داكن، سرير أبيض يليق بأميرة مع خزانة ومصباح ملائمين. كان تصميمها نسخةً مطابقة تقريبًا لغرفة أعجبتني في كاتالوغ محالّ Sears. حظيت أنا وكريغ بتقسيم خاصّ بكلّ منّا على هاتف المنزل أيضًا. كان جهازي أزرق فاتحًا يتماشى مع ديكور غرفتي، بينما اختار كريغ جهازًا أسود رجوليًّا، فصار في إمكاننا التمتّع بنوع من الخصوصيّة.

تدبّرت الأمر لتلقّي قُبلتي الأولى عبر الهاتف. وكان ذلك مع صبيّ يدعى رونيل. لم يكن تلميذًا في مدرستي، ولم يسكن قريبًا من حيّنا، بل كان يرتّل في جوقة Chicago Childrens’ Choir مع رفيقة صفّي شياكا التي لعبت دور الوسيط بيننا. اتّسمت مكالماتنا الهاتفيّة بالحَرَج، لكنّني لم أهتمّ بذلك. راقني ذاك الشعور بأنّني أثير إعجاب أحدهم. كنت أشعر بالتوتّر عندما كان الهاتف يرنّ: هل يكون رونيل؟ لا أذكر من منّا اقترح اللقاء في الخارج ذات يوم في فترة بعد الظهر لنخوض تجربة التقبيل. ولم تكن هناك حاجة إلى التحايل اللفظيّ على ذلك، ولا للتلطيف الخجول. لم نقل أنّنا سنذهب «لتمضية الوقت معًا» أو «للتنزّه». أردنا أن نلتقي لنتبادل القبل، وكان كلانا راغبًا في ذلك.

هكذا، وجدت نفسي جالسةً على مقعد حجر، قرب الباب الجانبي لبيتنا، مقابل النوافذ المحاطة بأحواض الزهور التي اعتنَت بها عمّتي روبي، تائهةً فيما أستغرق بقبلة دافئة مع رونيل. لم تتزلزل الأرض تحت قدميّ، ولم تلهمني تلك القبلة، لكنّها كانت ممتعة. بدأت أدرك أنّ وجود الفتيان حولي كان

يروقني. لم تعد الساعات التي أمضيها في المدرّجات أشاهد كريغ وفريقه في مباريات كرة السلّة ذات طابع أخويّ وحسب. أليست مباراة كرة السلّة استعراضًا للفتيان قبل كلّ شي؟ كنت أرتدي سروال الجينز الضيّق، أضع المزيد من الأساور، وأصطحب معي أحيانًا إحدى الشقيقتَين غور، لأستقطب الأنظار في المدرّجات. ومن ثمّ، كنت أستمتع بمشهد الفتيان يتعرّقون أمام ناظريَّ: حركات القفز والهجوم، تموّج الأجسام، والزئير والنبض الذكوريّ الجامح بكامل غموضه. وعندما ابتسمَ لي أحد اللاعبين وهو يغادر الملعب ذات مساء، بادلتُه الابتسامة على الفور، إذ شعرت بأنّ مستقبلي بدأ يلوح في الأفق.

كنت أنفصل شيئًا فشيئًا عن أهلي، ولم أعد أبوح بكلّ ما يدور في رأسي. كنت أجلس بصمتٍ في مقعد البويك الخلفيّ بعد تلك المباريات، إذ باتت مشاعري أعمقَ وأكثر اضطرابًا من أن أتجرّأ على الإفصاح عنها. كنت وحيدة أستمتع بمراهقتي وقتذاك، مقتنعةً تمامًا بأنّ الراشدين حولي لم يمرّوا بلحظات مماثلة.

أحيانًا، كنت أخرج في المساء من الحمّام، بعد تنظيف أسناني، لأجد الشقّة مظلمةً وأنوار غرفة الجلوس والمطبخ مطفأة، وكل واحد منّا منزويًا في عالمه الخاصّ. أرى بصيص نورٍ منبعث من وراء باب غرفة كريغ، فأعرف أنّه يعمل على إنهاء فروضه. ألتقط وميضَ شاشة التلفزيون من غرفة والديّ، وأسمعهما يتهامسان بهدوء، ويضحكان. وكما لم أتساءل يومًا عن شعور أمي كونها ربّة منزل فحسب، فإنّي لم أتساءل قطّ بما قد تشعر به حيالَ كونها متزوّجة. لقد نظرتُ إلى الرابط الوثيق بين والديّ كأمرٍ مسلّمٍ به، إذ شكَّل الواقعة البسيطة والثابتة التي ارتكزَت عليها حياتنا نحن الأربعة.

بعد سنين عدّة، سوف تبوح لي أمّي بأمر: مع حلول فصل الربيع من كلّ عام، وعودة الدفء ليخيّم على شيكاغو، كانت تراودها أفكار بالانفصال عن أبي. لا أعلم ما إذا كانت تلك الأفكار جدّيّة أم لا. ولا أعرف ما إذا راودتها الفكرة ساعةً واحدة، أو يومًا، أو معظم أيّام الربيع، إلّا أنّ فكرة الانفصال كانت، بالنسبة إليها، نزوةً

حقيقيّة، شيئًا ما بدا صحّيًّا، ولعلّها كانت محفّزًا على التأمّل، أمرًا أشبه بطقس.

أدرك الآن أنّ حتّى الزواج الناجح قد يشوبه شعور بالانزعاج أحيانًا. وأنّه عقدٌ يُستحسنُ تجديده مرارًا وتكرارًا، ولو ضمنيًّا وبانفراد. لا أظنّ أنّ أمّي أعلمت أبي بتردّدها ومخاوفها بشكل مباشر، ولا أتوقّع أنّها أشركته في تصوّرها أيّ حياة بديلة كانت تحلم فيها خلال تلك الأوقات. هل تخيَّلت نفسها على جزيرة استوائيّة في مكان ما؟ مع رجل مختلف؟ أو في بيت مختلف؟ أو في مكتب بدلًا من العيش مع أطفال؟ لا أعرف. أفترض أنّه في استطاعتي أن أطرح السؤال على أمّي التي بلغت الثمانين من العمر الآن، لكنّي لا أظنّ أنّ ذلك يهمّ.

إن لم تمضي شتاءً واحدًا في شيكاغو، فدعيني أصفه لكِ: ستمضين مئة يوم على التوالي تحت سماءٍ رماديّة تُطبق كغطاءٍ على المدينة. رياحٌ قارسة تهبّ من جهة البحيرة. ثلجٌ يتساقط بشتّى الطرائق. جليدٌ، الكثير منه عادة، يملأ الأرصفة ولوحات الزجاج الأمامية، فيحتاج إلى إزالته. من هنا، يأتي صوت الكشط في الصباحات الباكرة حين يجهّز الناس سيّاراتهم للذهاب إلى العمل. جيرانٌ لا تكادين تتعرّفين إليهم في ألبستهم الكثيفة نظرًا إلى البرد القارس، ووجوههم المحنيّة اتّقاءً للرياح العنيفة. كاسحاتُ الثلج تهدر في الشوارع بينما يتراكم الثلج على جانبيها، ويصبح سخاميًّا فاقدًا نقاوته الأصليّة.

في النهاية، ومع ذلك، يحدث شيءٌ ما. ثمّة ارتداد بطيء يبدأ التشكّل. قد يكون غير ملحوظ في البداية: نفحة من الرطوبة في الهواء، أو انقشاع طفيف في السماء. تشعرين به بدايةً في قلبكِ، ثمّة احتمال أن يكون الشتاء قد انقضى. قد لا تثقين في شعوركِ هذا أوّل الأمر، لكنّكِ ستفعلين لاحقًا. ذلك أنّ الشمس ساطعة الآن، وهناك براعم صغيرة على الأشجار، وجيرانكِ قد خلعوا معاطفهم السميكة. ولعلّ أفكاركِ شهدت انطلاقةً جديدة في ذلك الصباح الذي قرَّرتِ فيه رفع جميع النوافذ في شقّتكِ لمسح الزجاج وتنظيف العتبات. ما يتيح لكِ التفكير والتساؤل عمّا إذا

كانت هناك احتمالات أخرى قد غفلتِ عنها عندما قرَّرتِ أن تكوني زوجة رجل، في هذا البيت، ومع هؤلاء الأولاد.

لعلّكِ أمضيتِ النهار بطوله تفكّرين في سبلٍ جديدة للعيش قبل أن تعيدي أخيرًا تركيب كلّ نافذة في مكانها، وتُفرِغي ما تبقّى من سائل Pine-Sol في الحوض. ولعلّكِ الآن بدّدتِ مخاوفكِ، إذ حلّ الربيع فعلًا. وها أنتِ تتّخذين، مرّة أخرى، القرارَ بالبقاء.

5

عادت أمّي إلى العمل أخيرًا، في الفترة التي بدأتُ فيها المرحلة الثانوية. فانتشلَت نفسها من أجواء البيت والحيّ، وتوجَّهَت إلى قلب شيكاغو المكتظّ بناطحات السحاب. هناك عثرَتْ على وظيفة مساعدةٍ تنفيذيّة في أحد المصارف. اشترَتْ ثيابًا جديدة للعمل. وبدأتْ تستقلّ الحافلة كلّ صباح، من جادّة Jeffery أو تركب مع أبي البويك، إذا تزامن توقيت بدء عملَيهما. شكَّلت الوظيفة بالنسبة إليها تغييرًا خفّف وطأة الروتين اليوميّ، وساهم في سدّ حاجة ماليّة؛ فوالداي يتولّيان تسديد أقساط كريغ في المدرسة الكاثوليكيّة، وهو يخطّط للذّهاب إلى الجامعة، كما سأفعل أنا بعده.

أصبح أخي الآن ناضجًا، وصار عملاقًا رشيقًا، تحلّى بقدرة خارقة على القفز، واعتُبِرَ واحدًا من أفضل لاعبي كرة السلّة في المدينة. في البيت، كان كريغ نهمًا، يستهلك غالونات من الحليب، ويلتهم شطائر كبيرة من البيتزا في جلسة واحدة، وغالبًا ما يتناول وجبات خفيفة بعد العشاء، قبل النوم. لكنّه استطاع، كما فعل دائمًا، الجمع بين الهدوء والتركيز في آنٍ واحد. فحافظ على صداقات كثيرة، وحرص على نيل العلامات الجيّدة، في الوقت الذي نجح أيضًا بلفت الأنظار إليه كرياضيّ في الملاعب. بدأ كريغ يسافر في أنحاء البلاد خلال الصيف، ضمن فريقٍ ضمّ لاعبين محليّين، وشمل لاعبًا ناشئًا آنذاك يدعى إيزايا توماس، تحوّل

لاحقًا إلى لاعب معروف، أدرِجَ اسمه ضمن لائحة مشاهير الـ NBA. ولدى اقتراب كريغ من بدء المرحلة الثانويّة، تلقّى اتّصالات عدّة من مدرّبي المدارس الحكوميّة الأفضل في شيكاغو، من أجل ملء الفراغ في فِرقهم. ومع أنّ هذه الفرق جذبت جماهير غفيرة، ومستطلِعي المواهب للجامعات، إلّا أنَّ والديّ أصرّا على ألّا تكون أولويّة أخي إحرازَ شهرةٍ في المرحلة الثانويّة، فيأتي ذلك على حساب مستقبله العمليّ.

شكّلت مدرسة Mount Carmel الكاثوليكية، بمنهاجها العلميّ الصارم، وفريق كرة السلّة القويّ فيها، الحلّ الأنسب وكانت جديرة بآلاف الدولارات التي تكبّدها والداي كأقساطٍ لكريغ. كان الأساتذة هناك رهبانًا يرتدون أثوابًا طويلة بنّيّة، وتُطلق عليهم تسمية «الأب». بلغت نسبة التلامذة البيض، في صفّ كريغ، حوالى الثمانين في المئة. كان كثر منهم إيرلنديّين كاثوليكيّين، جاؤوا من أحياء بعيدة، يقطنها البيضُ من أبناء الطبقة العاملة. وفي نهاية سنته ما قبل الأخيرة، بدأ كريغ يتلقّى العروض من الجامعات للعب ضمن فرق الدرجة الأولى، حتّى أنّ بعضها كان قد اقترح عليه منحة دراسيّة. وعلى رغم ذلك، أصرّ والداي على أن يُبقي كريغ خياراته مفتوحةً، ويسعى إلى أن يتمّ قبوله في أفضل جامعة متاحة، على أن يقوما بتغطية جميع المصاريف.

لحسن الحظّ، لم تكلِّف دراستي في المرحلة الثانويّة شيئًا يُذكَر، باستثناء أجرة الحافلة. كنت نجحت في اختبار الدخول إلى مدرسة Whitney M. Young الثانويّة، وهي أوّل مدرسة من نوع magnet high school في شيكاغو. شُيِّدت هذه المدرسة في منطقة كانت مهمَلة يومذاك، غرب The Loop، وتحوَّلت، بعد سنين قليلةٍ، إلى أفضل مدرسة حكوميّة في المدينة. سُمِّيت المدرسة تيمّنًا بالناشطة في مجال النضال من أجل الحقوق المدنيّة Whitney Young. وافتُتحت العام 1975، بديلًا عمليًّا عن الفكرة الداعية إلى نقل التلامذة من مدرسة إلى أخرى بغية تحقيق التوازن العرقيّ. فمن خلال موقعها على الخطّ الفاصل بين الجانبين الشماليّ والجنوبيّ لشيكاغو، وبتزويدها بأساتذة

متميّزين بأفكارهم الاستشرافية، وتجهيزها بمعدّات حديثة ومبانٍ جديدة، صُمِّمَت المدرسة كمثال يُحتذى في تأمين الفرص المتساوية، وهدَفَت إلى استقطاب التلامذة الموهوبين من مختلف الأعراق. أمّا نسب القبول فيها، فقد حدّدها الإدارة على النحو الآتي: 40 في المئة من السود، 40 في المئة من البيض و20 في المئة من الهسبانيّين وغيرهم. لكنّ الواقع كان مختلفًا، إذ بلغت نسبة التلامذة من غير البيض، في الفترة التي أمضيتها هناك، حوالى 80 في المئة.

في يومي الأوّل في الصفّ التاسع، وصلت إلى المدرسة بعد رحلة من نوع آخر استغرقت تسعين دقيقةً من التنقّل المضني من حافلة إلى أخرى. كنت غادرت السرير مرغمة في الخامسة صباحًا، وارتديتُ ثيابًا جديدة وووضعت قرطين جميلين في أذنيّ، إلّا أنّني لم أكن متأكّدة ما إذا كنت سأحافظ على الإطلالة نفسها في نهاية رحلتي هذه. تناولتُ الفطور، إذ لم أكن أعلم شيئًا عن الغداء. ودّعتُ والديّ من دون أن أعرف ما ستؤول إليه حالي في نهاية ذلك اليوم. يُفترض بالمرحلة الثانوية أن تغيّر حياة المرء. شكّلَت مدرسة Whitney Young بالنسبة إليّ مرحلة مفصلية.

كانت المدرسة بحدّ ذاتها مدهشةً وحديثة، وتختلف عن أيّ مدرسة أخرى رأيتها في حياتي. تألّفت من ثلاثة مبانٍ كبيرة. اتّصل اثنان منها بجسرٍ زجاج عصري للمشاة، يطلّ على جادّة Jackson Boulevard. اعتمدَت المدرسة مفهوم الصفوف المفتوحة، والمصمّمة بشكلٍ مدروس. وخُصّص مبنًى بأكمله للفنون، احتوى على غرفٍ خاصّة ليغنّي فيها الكورس، وأخرى لتعزف فيها فرق الموسيقى، كما خُصّصت غرف أخرى لفنّ التصوير والخزفيّات. شُيِّد المكان بأكمله ليكون مثاليًّا للتعلّم، وتدفّق الطلّاب إليه، عبر المدخل الرئيسي، ملؤهم العزيمة منذ اليوم الأوّل.

ضمَّت مدرسة Whitney Young حوالى 1900 تلميذ بدوا لي عمومًا أكبر سنًّا، وثقتهم في أنفسهم أعمق ممّا قد أصبح عليه يومًا. كانوا متيقّنين من قدراتهم التي عزّزتها مشاركاتهم الناجحة

في اختبار الأسئلة ذات الخيارات المتعددة على صعيد المدينة. نظرتُ حولي وشعرت بضعفي. لقد كنتُ واحدةً من الفتيات الأكبر سنًّا في Bryn Mawr، وها أنا الآن واحدة من الفتيات الأصغر سنًّا بين طلّاب المرحلة الثانوية. لاحظتُ، أثناء نزولي من الحافلة، أنّ فتيات لا يستهان بعددهنّ يحملنَ حقائب نسائيّة إلى جانب حقائب الكتب المدرسيّة.

إذا أمكن التعبير عن مخاوفي من المرحلة الثانويّة في قائمة واحدة، سيكون عنوانها: هل أنا قادرة؟ بقي ذلك السؤال يؤرقني طوال الشهر الأوّل، حتّى بعد أن استقرّت الأمور قليلًا، وبعد أن اعتدت على الاستيقاظ قبل طلوع الفجر، وتلمّس طريقي بين المباني بحثًا عن الصفوف. فقد قُسِّمَت مدرسة Whitney Young إلى خمسة «بيوت»، يُعتبَر كلّ منها بمثابة منزل للطلّاب المنتمين إليه، وهو ما يساعد في إضفاء جوٍّ من الحميميّة على المدرسة بأكملها. كنتُ في «البيت الذّهب» وعلى رأسه مدير مساعد يُدعى السيّد سميث. ومصادفة كان منزلُه قريبًا للغاية من بيت عائلتي في جادّة يوكليد. كنت قد ساعدتُ عائلةَ السيّد سميث في أعمال كثيرة متنوّعة خلال سنين، فقد تمّت الاستعانة بي لمجالسة الأطفال وتعليمهم العزف على البيانو، ومحاولة تدريب جروهم في مهمّة شبه مستحيلة. كان وجود السيّد سميث في المدرسة يريحني نوعًا ما، إذ شكّلَ صلة وصل بين Whitney Young والحيّ الذي أقطنه. لكن ذلك لم يخفّف كثيرًا قلقي.

ضمّت مدرسة Whitney Young قلّة من أبناء حيّي، من بينها جاري وصديقي تيري جونسون، وزميلة صفّي شياكا التي عرفتها وتنافسنا معًا ودّيًّا منذ أيّام الحضانة، إضافة إلى ولدٍ آخر أو ولدين. كان البعض منّا يستقل الحافلة نفسها ذهابًا وإيابًا. وعند الوصول إلى المدرسة، كنّا نفترق بين البيوت المختلفة، كلًّا في طريقه. كانت المرّة الأولى على الإطلاق، التي أتدبّر فيها أموري بمفردي من دون أن أعتمد كما في السابق على الرعاية التي وفّرها لي أخي الأكبر كريغ. فبهدوئه وابتسامته الواثقة لطالما مهّد الطريق أمامي. في Bryn Mawr، نجح كريغ بلطافته في كسب مودّة

الأساتذة. ونال احترام التلامذة في الملعب، فبات يُنظَر إليه كولدٍ مميّز. كان وجوده أشبهَ بدفء الشمس التي أحتمي بظلالها. عُرِفتُ دومًا، في كلّ مكان ذهبتُ إليه، شقيقة كريغ روبنسون الصغيرة.

ها أنا الآن قد أصبحتُ ميشيل روبنسون، من دون إقحام اسم كريغ. تعيَّن عليّ العمل بجهد، في Whitney Young، لأرسّخ حضوري بقوّة. تضمّنت استراتيجيّتي المبدئيّةُ الحفاظَ على هدوئي، ومراقبة زملاء صفّي عن كثب. من هم هؤلاء الأولاد أصلًا؟ كلّ ما عرفته عنهم أنّهم أذكياء. أذكياء بشكلٍ واضح، وبصورة نخبويّة. إنّهم أذكى الأولاد في المدينة، كما يبدو. ولكن، ألم أكن أنا من بينهم؟ ألم نصل جميعًا – أنا وتيري وشياكا – إلى هذا المكان، لأنّنا أذكياء مثلهم؟

الحقيقة أنّني لم أكن أعرف. ولم أملك أيّ فكرة عمّا إذا كنّا أذكياء مثلهم.

عرفتُ فقط أنّنا كنّا أفضل التلامذة الوافدين من مدرسةٍ اعتُبِرَت مقبولة، وذات أكثريّة سوداء. تقع في حيّ مقبول ذي أكثريّة سوداء أيضًا. ولكن، ماذا لو لم يكن ذلك كافيًا؟ ماذا لو كنّا الأفضل بين السيّئين فحسب؟

كان ذلك هو الشكّ الذي ساورني أثناء مرحلة التوجيه الطالبيّ، وخلال الحصص الأولى في مادّتي الطبيعيّات واللغة الإنكليزيّة، وانعكس في تعثّري في الأحاديث، أثناء التعرّف إلى رفاقٍ جدد في الكافيتيريا. «ليس كافيًا، ليس كافيًا»، شكوك تمحورت حول المكان الذي أتيتُ منه، وحول ثقتي في نفسي حتّى ذلك الحين. بدا الأمر أشبه بخليّةٍ خبيثةٍ تهدّد بالانقسام والانقسام مجدّدًا، إلى أن أجد طريقة لإيقاف ذلك.

كنت أكتشف أنّ شيكاغو أكبر بكثير ممّا تخيّلتها. تكوّن هذا الانطباع جزئيًّا، خلال الساعات الثلاث التي أمضيتها يوميًّا في الحافلة، بدءًا من الشارع 75، غارقةً في متاهة التوقّف المتكرّر، ومجبرةً على البقاء واقفةً في معظم الأحيان بسبب الازدحام الشديد.

من خلال نافذة الحافلة، كنت أستطلع مطوّلًا الجانب الجنوبي من شيكاغو بأكمله: محالّ، المطاعم المغلقة التي يلفّها نور رمادي في الصباح الباكر، ملاعب كرة السلّة وساحات اللعب الفارغة. كنّا نكمل رحلتنا شمالًا عند شارع Jeffery، ثمّ غربًا عند الشارع 67، ثمّ شمالًا من جديد، بحيث نتوقّف كلّ شارعين لاصطحاب المزيد من الركّاب. كنّا نعبر Jackson Park Highlands و Hyde Park، حيث يقع حرم جامعة شيكاغو متواريًا خلف بوّابة حديد ضخمة. وبعد مدّة، بدت أشبه بدهر، كنّا نزيد السرعة أخيرًا عند Shore Lake Drive، ونتبع الطريق في محاذاة بحيرة ميشيغن شمالًا، نحو وسط المدينة.

لا يمكن استعجال حافلة، هذا أكيد. عليك أن تصعد إليها وتتحمّل مشقّة الرحلة. ما إن كنّا نصل إلى وسط المدينة، في شارع ميشيغن، حتّى أستقلّ الحافلة المتّجهة غربًا مجتازةً شارع Van Buren فيصبح المشهد أكثر إثارة بمباني المصارف الكبيرة وأبوابها الضخمة المذهّبة، وبالفنادق الفخمة التي يقف موظّفو الاستقبال على أبوابها. كنت أراقب من خلال النافذة، رجالًا ونساءً بأزياء أنيقة – بدلاتٍ وتنانير وكعوب عالية – وهم يحملون أكواب القهوة، ويستعجلون الخطى إلى العمل باعتداد كبير بالنفس. لم أكن أعرف بعد أن أناسًا كهؤلاء يسمّون «محترفين». كما لم أعرف نوع الشهادات التي كان ينبغي الحصول عليها للدخول إلى هذه المؤسسات الضخمة المنتشرة على طول شارع Van Buren، لكنّني أُعجبت بعزيمتهم.

في ذلك الوقت، في المدرسة، كنت أجمع البيانات بهدوء، في محاولة لفهم موقعي وسط الطبقة المثقّفة من المراهقين. قبل ذلك، اقتصرت تجربتي مع الأطفال من بيئات أخرى على زيارات لأنسباء مختلفين، وعلى بضع صيفيّات أمضيتُها في مخيّمات نهاريّة، في Rainbow Beach، كان المشاركون فيها من الأطفال الآتين من مختلف أرجاء الجانب الجنوبي لشيكاغو، ولم يكن أحدٌ منهم ثريًّا. أمّا في Whitney Young، فقد قابلتُ أولادًا بيضًا يسكنون في الجانب الشماليّ، وهو جزء من شيكاغو كان،

بالنسبة إليّ، أشبه بالجزء المظلم من القمر، كوني لم أفكّر أبدًا في زيارته أو وجدت سببًا لذلك. أمّا ما لم أكن أتوقعه فهو اكتشافي المبكر وجودَ ما يُسمّى النخبة الأفريقيّة الأميركيّة، فمع أنّ رفاقي في المدرسة الثانوية الجديدة كانوا في معظمهم من السود، إلّا أنّ ذلك لم ينعكس بالضرورة – كما تبيَّن في ما بعد – اتّساقًا في تجاربنا. فكان أهالي البعض منهم محامين أو أطبّاء، وبدا أنّهم يعرف بعضهم بعضًا من خلال نادٍ اجتماعيّ أميركي أفريقي يدعى Jack and Jill. كما أنّهم اعتادوا الذّهاب في رحلاتٍ للتزلّج خلال العطلات، ورحلاتٍ أخرى تتطلّب حيازة جوازات سفر. كانوا يتحدّثون عن أشياء بدَت غريبة على مسمعي، مثل التدريبات الصيفيّة وكلّيّات السود التقليديّة. كان أحد رفاقي في الصف من السود، وهو ولدٌ مجتهد ولطيف، ابن لعائلة أسَّست شركةً كبرى لمستحضرات التجميل، ويعيش في أحد أرقى المباني الشاهقة وسط المدينة.

شكّل ذلك عالمي الجديد. لا أقول أنّ كلّ من انتسب إلى تلك المدرسة كان ثريًّا أو أسلوب حياته متطوّرًا فوق العادة، فالوضع لم يكن كذلك. كثرٌ من الأولاد الوافدين أتوا من أحياء تشبه حيّي، وقد صارعوا الحياة أكثر بكثيرٍ ممّا فعلت. لكنّ الأشهر الأولى التي أمضيتُها في Whitney Young، جعلتني ألحظ شيئًا كان خفيًّا من قبل؛ وهو آليّة التميّز والعلاقات التي بدت كشبكةٍ شبه خفيّة من السلالم والحبال المعلّقة فوق الرؤوس، والجاهزة لترفع البعض منّا – وليس الجميع – إلى السماء.

كانت علاماتي في السنة الأولى في المدرسة جيّدة جدًّا. وكذلك الأمر في السنة الثانية. وخلال سنوات الـ freshman والـ sophomore، بدأت أرسّخ الثقة ذاتها التي امتلكتُها سابقًا في Bryn Mawr. ومع كلّ إنجازٍ صغير، ومع كلّ خطإ نجحت في تلافيه في المرحلة الثانوية، كانت شكوكي في نفسي تتبدّد تدرّجًا. لقد أحببتُ أساتذتي كافة. ولم أكن خائفة من رفع يدي في الصفّ. ففي Whitney Young، كان الذكاء يصحبه شعور بالأمان؛ الجميع كان يسعى إلى دخول الجامعة. لذا، لم أجد نفسي مضطرّة إلى

إخفاء ذكائي خوفًا من أن أتَّهَم بالتحدّث كفتاةٍ بيضاء.

أحببتُ الموادّ كلّها التي ارتبطَت بالكتابة. وعملتُ بجهدٍ على مادّة الرياضيّات التمهيديّة. نلتُ علاماتٍ مقبولة في اللغة الفرنسيّة. وعلى رغم أنّ أقرانًا لي كانوا يتقدّمون عليّ دومًا خطوةً أو خطوتين، وقد بدا تفوّقهم سهلًا ولم يتطلّب منهم جهدًا، لكنّني حاولت ألّا أسمح لهذا الفارق بأن يحبطني. بدأت أستوعب أنّني إذا كنت أدرس ساعاتٍ إضافيّة، فإنّ ذلك سيساعدني غالبًا في ردم الهوّة. لم أكن تلميذةً متفوّقة بالكامل، لكنّني لم أتوانَ عن المحاولة، ولامست التفوّق في بعض الفصول.

في هذه الأثناء، دخل كريغ جامعة برِنستون مخليًا غرفته في شارع يوكليد، تاركًا فراغًا صعبًا في حياتنا اليوميّة، فراغًا بحجم مترَين، وتسعين كيلوغرامًا. أصبحت ثلّاجتنا تحتوي على كمّياتٍ أقلّ بكثير من اللحم والحليب، ولم يعد خطّ الهاتف في البيت منشغلًا بمكالمات الفتيات اللواتي أردنَ الحديث معه. تلقّى كريغ عروضًا مختلفة من جامعات كبيرة قدّمت له المنح الماليّة، وضمنت له تحقيق الشهرة في مجال لعبة كرة السلّة. لكنّه، وبتشجيع من والديّ، اختار جامعة برِنستون التي، وإن كانت تكاليفها أكبر، إلّا أنّها، كما رأياها، تعدُ بالكثير أيضًا. شعر أبي بفخرٍ كبير عندما انتسب كريغ كلاعبٍ أساسيّ، إلى فريق كرة السلّة في برِنستون لصفّ الـ sophomore. لم تمنعه قدماه المترنّحتان وعكّازاه من القيام برحلاتٍ طويلة استمتع بها. وكان قد بدَّل سيّارة البويك القديمة بأخرى جديدة، من الطراز 225، بلون كستنائي داكن ولامع. وعندما كان يحصل على إجازةٍ من منشأة تكرير المياه، كان يقود سيّارته مدّة 12 ساعة متواصلة، عبر إنديانا وأوهايو وبنسلفانيا ونيو جيرسي، ليحضر إحدى المباريات التي كان كريغ يشارك فيها.

حالَ الوقت الطويل الذي كنت أمضيه ذهابًا وإيابًا من البيت إلى Whitney Young، دون رؤية والديّ كما اعتدتُ أن أفعل. وعندما أسترجع اليوم تلك الحقبة، يساورني شكّ في أنّها كانت موحشةً لهما، أو أنّها اقتضت منهما نوعًا من التأقلم. وقد كنت، في تلك

الفترة، أغيب عن المنزل أكثر بكثير ممّا أحضر فيه. بعد أن أتعبَنا الوقوف اليوميّ على أقدامنا، مدّة تسعين دقيقة، خلال رحلة الحافلة من وإلى المدرسة، توصّلنا، أنا وتيري جونسون، إلى حلّ آخر بديل. صرنا نغادر البيت في الصباح قبل الموعد المعتاد بربع ساعة ونستقلّ حافلة سائرةً في الاتّجاه المعاكس للمدرسة، ثمّ نجتاز بضع محطّات جنوبًا نحو حيّ أقلّ ازدحامًا. هناك نقفز من الحافلة ونعبر الشارع لنستقلّ حافلتنا المعتادة المتوجّهة شمالًا، والتي كانت أقلّ ازدحامًا ممّا هي عليه عند الشارع 75، حيث اعتدنا أن نستقلّها. كنّا نحتلّ كرسيّين متلاصقين بفخر ونتحدّث أو ندرس خلال الرحلة الطويلة إلى المدرسة.

في المساء، كنت أعود متعبة، فأصل إلى البيت في السادسة أو السابعة لأتناول عشاءً سريعًا وأتحدّث مع والديّ عمّا حصل في ذلك اليوم. ولكن، بعد غسل الصحون مباشرةً، كنتُ أختفي لإعداد فروضي، آخذةً في الغالب كتبي إلى الطبقة السفلى، وأجلس في الركن المخصّص للموسوعة العلميّة – خلف الدرج المحاذي لشقّة روبي وتيري – ساعيةً إلى الاختلاء بنفسي، وناشدةً الهدوء.

لم يتحدّث والداي قطّ عن العبء الذي شكّلته الأقساط الجامعيّة. لكنّني عرفتُ ما يكفي لأقدّر حجمه. لذا، عندما أعلنَت مدرّسة اللغة الفرنسيّة أنّها ستنظّم رحلة اختياريّة إلى باريس، خلال إحدى عطلاتنا الطويلة، للطلّاب القادرين على دفع التكاليف، لم أعبأ حتّى بإثارة الموضوع في البيت. كان ذلك هو الفارق بيني وبين الأولاد الآخرين من أعضاء نادي Jack and Jill، والذين أصبح الكثيرون منهم أصدقائي المقرّبين. كنت أسكن بيتًا منظّمًا ومفعمًا بالحبّ، وأتلقّى أجرة الحافلة للتنقّل عبر المدينة إلى المدرسة، وأجد وجبةَ طعام ساخنة بانتظاري عند العودة إلى البيت في المساء. ما عدا ذلك، لم أكن مستعدّة لطلب أيّ شيء آخر من والديّ.

مع ذلك، استدعاني والداي ذات مساء، والحيرة باديةٌ عليهما. فقد علمَت أمّي من والدة تيري جونسون بأمر الرحلة الطالبيّة

إلى فرنسا.

«لماذا لم تخبرينا؟»، سألَتني.

«لأنها تُكلِّف الكثير من المال».

«القرار لا يعود إليك يا ميش»، قال أبي بلطف وببعض المهانة، «وكيف لنا أن نقرّر إن لم نعلم شيئًا؟!».

نظرتُ إليهما غير متأكّدة ممّا عليّ قوله. بادلتني أمّي النظر بعينين لطيفتين. كان أبي قد خلع بزّة العمل الرسميّة، وارتدى قميصًا أبيض نظيفًا. كان كلاهما في بداية الأربعينيّات من العمر، وقد تزوّجا منذ عشرين سنة تقريبًا. لم يسافر أيّ منهما قطّ لتمضية إجازة في أوروبا. لم يذهبا في رحلات إلى الشاطئ أو يتناولا عشاء خارج البيت. لم يمتلكا بيتًا. كنت أنا وكريغ استثمارهما الوحيد، وكلّ ما امتلكاه كانا يُنفقانه علينا.

بعد بضعة أشهر، ركبت الطائرة إلى باريس مع مدرِّستي ومجموعة من رفاق صفّي في Whitney Young. أقمنا جميعًا في نزلٍ صغير، وتجوّلنا في متحف اللوفر وزرنا برج إيفل. اشترينا «الكريب» بالجبنة من الأكشاك على الطرقات، وتمشّينا على ضفاف نهر السين. كنّا نتحدّث الفرنسيّة بلكنة طلّاب في المرحلة الثانوية من شيكاغو، لكننا تمكّنّا من التحدّث بها في الأقلّ. عندما ابتعدت الطائرة من بوّابة الإقلاع في ذلك اليوم، نظرتُ من النافذة إلى مبنى المطار، وأنا أعرف تمامًا أنّ أمّي تقف وراء الزجاج الأسود الكثيف، مرتديةً معطفها الشتويّ وملوّحةً لي بيدها. أتذكّر كيف صدمني صوت محرّك الطائرة المرتفع، ثمّ تَسارُعها على المدرّج وارتفاعها المفاجئ، والضغطُ الذي أطبق على صدري وألصقني بمقعدي برهة صعبة، قبل أن أشعر بالارتفاع أخيرًا.

على غرار طلّاب المرحلة الثانويّة كافّة في كلّ مكان، كنت ورفاقي نحبّ التسكّع. تسكّعنا بصخبٍ، خصوصًا في الأماكن العامة. كنّا نحتشد من Whitney Young إلى وسط شيكاغو، في الأيّام التي كنّا ننصرف فيها باكرًا من المدرسة أو عندما تكون الفروض قليلة، لينتهي بنا المطاف في مجمّع Water Tower Place التجاري المؤلّف من ثماني طبقات. هناك، كنّا نستخدم

السلّم الكهربائي، صعودًا ونزولًا، وننفق نقودنا على الفوشار اللذيذ من Garret، ونحتلّ الطاولات في McDonald ساعات طويلة، من دون أن نشتري كمياتٍ كبيرة من الطعام. كنّا نتفرّج على سراويل من الجينز تحمل توقيع مصمّمها ونتأمّل الحقائب في محالّ Marshall Field. غالبًا ما كان رجال الأمن يلاحقوننا بشكل خفّي، إذ لم يرُقهم مظهرنا. وكنّا، في بعض الأحيان، نذهب لمشاهدة الأفلام السينمائيّة.

كنّا سعداء، سعداء بحرّيتنا، وببعضنا بعضًا. وببريق المدينة التي كانت تلتمع في أعيننا أكثر في الأيّام التي لم نفكّر فيها بالمدرسة. كنّا نتعلّم كيف نتجوّل بحريّة في المدينة.

أمضيتُ كثيرًا من الوقت مع زميلتي في الصفّ وتدعى سانتيتا جاكسون. كانت تركب الحافلة صباحًا، في Jeffery، بعد بضع محطّات منّي. وأصبحَت واحدةً من أقرب صديقاتي في المرحلة الثانويّة. تميّزت سانتيتا بعينين سوداوين جميلتين، ووجه ممتلئ، وتصرّفت بحكمة أنثويّة، حتّى في السادسة عشرة من عمرها. في المدرسة، كانت سانتيتا تواظب على الالتحاق بصفوف متقدّمة ضمن برنامج AP class، وتتفوّق فيها جميعًا. ارتدت التنانير عندما كانت الفتيات الأخريات كافّة يرتدين الجينز. وامتلكَت صوتًا رائعًا أوصلَها بعد سنين، إلى أداء دور مغنّية مرافقة لـ Roberta Flack. تمتّعت سانتيتا بشخصيّةٍ عميقة وهذا ما جذبني إليها، فعلى نحوٍ يشابه شخصيّتي، كانت لاهيةً وعابثة أثناء وجودنا وسط مجموعة كبيرة، وجدّيةً وحادّة عندما نكون وحدنا، إذ كنّا فتاتين ميّالتين إلى فلسفة الأشياء وعقلنة شؤون الحياة، الكبيرة منها والصغيرة. أمضينا ساعاتٍ طويلة ممدّدتين على الأرض، في غرفة سانتيتا في الطبقة الثانية من بيت أهلها بلونه الأبيض من الطراز Tudor، والواقع في Jackson Park Highlands، في الجزء الأكثر ثراءً من منطقة South Shore، نتحدّث خلالها عمّا يؤرقنا وإلى أين تتّجه حياتنا، وعمّا نفهمه أو يصعب علينا فهمه من أحوال العالم. كصديقةٍ، أجادت سانتيتا فنّ الإصغاء وتحلّت برؤية ثاقبة، وحاولتُ أن أحذو حذوها.

كان والد سانتيتا شخصيّةً مشهورة، وهي الحقيقة الأهمّ التي تعذَّرَ عليها التغاضي عنها في حياتها، إذ كانت الابنة الكبرى للقسّ جيسي جاكسون، الواعظ المتّقد حماسةً، والزعيم السياسي ذي النفوذ المتنامي. عمل جاكسون من قرب مع مارتن لوثر كينغ جونيور، وبرز على المستوى الوطني في بداية السبعينيّات مؤسّسًا منظّمةً سياسيّةً حملَت اسم Operation PUSH، دعَت إلى حماية حقوق الأفريقيّين الأميركيّين المحرومين. وعندما كنّا في المرحلة الثانويّة، كان جاكسون في أوج شهرته، فقد تمتَّع بشخصيّةٍ مؤثّرة وعلاقات قويّة. كان دائم التنقّل، يجول في طول البلاد وعرضها، آسرًا الحشود بدعواته المدوّية للسّود إلى طرح صور الغيتو النمطيّة والمُذلّة جانبًا، وإلى المطالبة بدورهم السياسي الذي لطالما حُرموا منه. دعا جاكسون إلى المثابرة، مشدّدًا على أهمّية التمكين الذاتيّ. وأطلق نداءه الشهير: «فلتسقط المخدّرات! وليعش الأمل!». ودعا تلامذة المدارس إلى توقيع تعهّدات بإطفاء شاشات التلفزة، وتخصيص ساعتين كلّ ليلة لإنهاء فروضهم المدرسيّة. وحدا بالأهل إلى أن يتعهّدوا بأن يعنوا بدراسة أبنائهم. حارب جاكسون مشاعر الفشل المسيطرة على الكثير من المجتمعات الأفريقيّة الأميركيّة، وشجَّعهم على نبذ الشعور بالشفقة تجاه أنفسهم، ودعاهم إلى تحديد مصيرهم بأنفسهم. «لا أحد، لا أحد...»، كان يصرخ، «بلغ به الفقر حدّ العجز عن إطفاء التلفزيون ساعتين كلّ ليلة».

كان التسكّع في منزل سانتيتا مثيرًا. كان المكان فسيحًا وفوضويًّا إلى حدٍّ ما، بحيث ضمّ أولاد العائلة الخمسة، واكتظّ بالأثاث الفيكتوريّ والأواني الزجاج القديمة التي كانت والدة سانتيتا، جاكلين، تهوى اقتناءها. كانت السيّدة جاكسون – كما كنتُ أناديها – تتمتَّع بروح متسامحة وضحكة صاخبة. كانت ترتدي الملابس الملوّنة والفضفاضة. وكانت تعدّ وجبات الأكل على مائدة كبيرة في غرفة الطعام، مرحّبةً بكلّ من حضر، وغالبيتهم من المنتمين إلى ما كانت تُطلِق عليه اسم «الحركة». وقد ضمّت

رجال أعمال وسياسيّين وشعراء وكوكبة من الشخصيّات المشهورة، من المغنّين إلى الرياضيّين.

عندما يكون القسّ جاكسون داخل المنزل، كانت طاقة من نوع آخر تنبض فيه؛ إذ لا يعود هناك حيّزٌ للأمور الروتينيّة، وتمتدُّ الأحاديث على طاولة العشاء ساعاتٍ متقدّمة من الليل. كان المستشارون يتوافدون ذهابًا وإيابًا، كما كانت الخطط توضع باستمرار. وعلى عكس الأجواء السائدة في شقّتي في شارع يوكليد، حيث كانت الحياة تسير بوتيرة منظَّمة ومتوقّعة، وفي حين اقتصرت هواجس أهلي على الحفاظ على سعادة العائلة والسير بها على درب النجاح، كان آل جاكسون منخرطين في شيء أكبر وأكثر فوضويّة، بدا أشدّ تأثيرًا. كانت التزاماتهم تتخطّى نطاق عائلتهم؛ فمجتمعهم كان كبيرًا ورسالتهم بالغة الأهمية. نشأت سانتيتا وإخوتها على ممارسة النشاط السياسي، وعرفوا ما يقاطعون وكيف. كما شاركوا في جميع التظاهرات التي نظمّها والدهم، ورحلاته وزياراته إلى كلٍّ من إسرائيل وكوبا ونيويورك وأتلانتا. وقفوا على مسارح كبيرة أمام جماهير غفيرة، وتعلّموا القدرة على التعامل مع القلق والجدليّة في ظلّ أب – خصوصًا أبًا أسود – ينشط في الشأن العام. أحاط القسّ جاكسون نفسه بحرّاسٍ – رجال ضخام وصامتين رافقوه في جميع أسفاره. وقتذاك، لم أتنبّه تمامًا إلى أنّ هناك تهديدات تستهدف حياته.

كانت سانتيتا شغوفًا بأبيها وفخورًا بنشاطه، إلّا أنّها حاولت، في الوقت عينه، أن تعيش حياتها الخاصّة. كنت وسانتيتا نؤيّد بالكامل تقوية شخصيّات الشباب السود في أنحاء أميركا، لكن في الوقت نفسه كنّا نحتاج أيضًا إلى بلوغ Water Tower Place قبل انقضاء فترة التنزيلات لنشتريَ أحذية K-Swiss الرياضيّة. كنا نجد نفسينا دائمًا نبحث عمّن يقلّنا إلى مكان ما، أو عن سيّارة يمكننا استعارتها. ولمّا كانت لعائلتي سيّارةٌ واحدة فحسب وولدان يعملان، بدت استعارةُ سيّارةٍ أمرًا أكثر سهولة في منزل آل جاكسون، حيث اقتنت السيّدة جاكسون سيّارتين: واحدة ستايشن ذات هيكل خارجيّ مغطّى بألواح خشب، وأخرى

رياضيّة صغيرة. وفي بعض الأحيان، كنّا نتطفّل على بعض العاملين، أو الزوّار الكثر الذين يجيئون ويروحون، لاصطحابنا. ما ضحّينا به آنذاك كان إمكان التحكّم بحياتنا. وكان ذلك هو الدرس الأوّل المبكر والعفويّ الذي تعلّمته عن الحياة السياسية. فالبرامج والمخطّطات لا تبقى على حالها أبدًا. حتّى وإن كنت تقف على الجانب البعيد من الدوامة، إلّا أنّك سوف تشعر باستدارتها. غالبًا ما اضطررت أنا وسانتيتا إلى الانتظار طويلًا بسبب تأخير معيّن مرتبط بعمل والدها: اجتماع تجاوز مدّته المقرّرة، أو طائرة تجوب الأجواء بانتظار إذن لها بالهبوط، أو بسبب التأخير الناتج من تغيير وجهة السير بعد التوقّف في اللحظة الأخيرة عند عدد من المحطّات. كنّا ننوي الذهاب إلى البيت بعد المدرسة، أو نخطّط لزيارة المجمَّع التجاريّ، لينتهي بنا الأمر وسط تظاهرة سياسيّة في الجانب الغربي، أو عالقتين ساعات طويلة في مركز قيادة Operation PUSH في Hyde Park.

ذات يوم، وجدنا نفسينا نتظاهر مع مجموعة من مؤيّدي جيسي جاكسون في استعراض Bud Billiken Day Parade، والمسمّى تيمّنًا بشخصيّة خياليّة من عمود صحافي قديم. كان الاستعراض واحدًا من أعظم تقاليد الجانب الجنوبي في شيكاغو، ويُقام في شهر آب/أغسطس من كلّ سنة. وهو مهرجان كبير يضمّ فِرقًا موسيقيّة كثيرة وعربات مزيّنة، يمتدّ على مسافة ثلاثة كيلومترات عبر شارع مارتن لوثر كينغ جونيور، في قلب الحيّ الأفريقيّ الأميركيّ أُطلق عليه ذات يوم اسم «الحزام الأسود»، ليُمنَح لاحقًا اسم Bronzeville. وقد استمرّ استعراض Bud Billiken منذ العام 1929، وتمحور بالكامل حول الفخر الأفريقيّ الأميركيّ. وإذا كنتَ زعيمًا محلّيًا أو سياسيًا، فلزامٌ عليك – حتّى يومنا هذا – أن تكون في هذا الاستعراض وتسير فيه.

لم أكن أعلم آنذاك أنّ الدوّامة المحيطة بوالد سانتيتا قد بدأت تتسارع بشكلٍ ملحوظ. لقد كانت سنوات قليلة تفصل جيسي جاكسون عن بدء السباق الرسميّ للوصول إلى منصب رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، ما يعني أنّه كان، على الأرجح، قد بدأ

التفكير جدّيًّا في الموضوع، خلال الفترة التي كنّا في المرحلة الثانويّة. بالتالي، فقد تعيّن عليه جمع الكثير من المال، ونسج العلاقات اللازمة. فالترشّح لمنصب الرئيس، كما أعي اليوم، عمل يتطلّب جهدًا مضنيًا ومركّزًا من الأشخاص المعنيّين كافّة. كما تتطلَّب الحملات الناجحة الإجراءاتِ التمهيديّة، وتهيئة الظروف المواتية لها، وإرساء الأسس الضروريَّة، الأمر الذي يتطلّب سنوات من الجهد. فبقراره خوض انتخابات العام 1984، أصبح جيسي جاكسون ثاني سياسيّ أميركيّ أفريقيّ، على الإطلاق، ينظّم حملة جدّيّة وطنيّة للفوز بمنصب الرئاسة. وكانت سبقته عضو الكونغرس Shirley Chisholm التي باءت محاولتها بالفشل العام 1972. وفي ما أعتقد، فإنّ شيئًا من هذا القبيل كان يدور في ذهنه خلال الاستعراض.

ما عرفته يومذاك هو أنّني شخصيًّا لم أحبّ الوجود هناك، ملزمةً بالوقوف تحت شمس حارقة، وسط البالونات ومكبّرات الصوت وآلات النفخ الموسيقيّة وأفواج المهلّلين. صحيح أنّ الصخب كان مسلّيًا، بل ومثيرًا أيضًا، لكنّ شيئًا ما يتعلّق به، وبالسياسة بشكل عامّ، كان يشعرني بالضيق. فقد كنت دومًا أحبّ الأمور المنظّمة والمخطّط لها بشكل مسبق وبوضوح، ومن مشاهداتي، لم يكن هناك شيء منظّم في الحياة السياسيّة. لم يكن الاستعراض جزءًا من برنامجي، بحسب ما أذكر، فلم أخطّط أنا أو سانتيتا للمشاركة فيه على الإطلاق. بل جُنِّدنا في اللحظة الأخيرة، بطلبٍ من والدتها أو والدها، أو من شخص آخر في الحركة أمسك بنا قبل أن يتاح لنا المجال لمتابعة ما كنّا ننوي القيام به يومذاك. لكنّني أحببت سانتيتا بعمق، وكنت أيضًا مهذّبة، واعتدت الإصغاء إلى ما يقوله لي الأشخاص البالغون. وهذا ما فعلت. ألقيتُ بنفسي وسط الحرّ والضجيج الصاخب لاستعراض Bud Billiken Day.

وصلتُ إلى البيت في شارع يوكليد في مساء ذلك اليوم لأجد أمّي تضحك.

«لقد رأيتكِ على شاشة التلفزيون للتّو»، قالت لي.

كانت أمّي تشاهد نشرة الأخبار، ورأتني أمشي بجانب سانتيتا في المسيرة، وأنا ألوّح وأبتسم بانسجام. أظنّ أنّ سبب ضحكها هو أنّها لمسَت ضيقي، وحقيقةَ أنّني علقتُ في شيء كنت أفضّل عدم القيام به.

عندما حان الوقت للاختيار بين الجامعات، كنتُ أنا وسانتيتا مهتمّتين بجامعات الساحل الشرقيّ. فذهبَت سانتيتا لزيارة جامعة هارفارد، لكنّ أملها خاب عندما تعمَّد الموظّف في مكتب القبول استفزازَها بشأن مواقف والدها السياسيّة، في حين كان كلّ ما أرادَته أن تُعامَل بتجرّد. أمّا أنا، فأمضيت عطلة أسبوع في زيارة كريغ في برنستون، حيث بدا منسجمًا في التنسيق المُثمر بين لعب كرة السلّة، ومتابعة الصفوف، والوجود في المركز الجامعيّ المخصّص للطلّاب من الأقليّات. كان حرم الجامعة – وهي جامعة من جامعات الـ Ivy League العريقة – ضخمًا وجميلًا. وبدا لي أصدقاء كريغ على قدرٍ من اللطف. لم أفكّر في الأمر أكثر ممّا ينبغي، فأفراد عائلتي لم يمتلكوا خبرة في الجامعات. لذا، لم يكن هناك ما يمكن النقاش حوله أو اكتشافه. وكما جرت العادة، ظننتُ أنّني سأحبّ كلّ ما أحبّه كريغ، وسأُفلح في كلّ ما أفلحَ به؛ وبذلك أصبحَت برِنستون الجامعة المفضّلة لديّ.

خلال بداية سنتي الأخيرة في مدرسة Whitney Young، ذهبتُ إلى موعد إلزاميّ أوّليّ مع المرشدة الجامعيّة التي كانت تُعنى بملفّي.

لا أستطيع الاستفاضة في وصف تلك المرشدة. لأنّني تعمّدت، على الفور، محوَ تلك التجربة من ذهني. لا أذكر عمرها، أو لونها، أو كيف نظرَت إليّ عندما ظهرتُ في مدخل مكتبها، مفعمةً بالفخر كوني على وشك التخرّج ضمن العشرة في المئة الأوائل في صفّي بمدرسة Whitney Young، ولكوني انتُخِبتُ أمينةَ صندوق الصفّ الأخير، وعضوًا في جمعيّة الشرف الوطنيّ، وأزلت من تفكيري أيّ توتّر قد يلازم تلميذةً في الصفّ التاسع. لا أذكر إن كانت قد اطّلعت على ملفّي قبل أن أعلنت رغبتي في الانضمام

إلى أخي في برِنستون خلال فصل الخريف التالي، أو بعده.

لعلّ المرشدة الجامعيّة ذكرَت لي، خلال ذلك الاجتماع القصير، أمورًا إيجابيّة أو مفيدة. لكنّني لا أذكر أيًّا منها لأنّني – سواءً بوجه حقّ أم لا – توقّفت عند جملةٍ واحدة تفوَّهت بها تلك المرأة.

«لست متأكّدة ما إذا كنتِ مناسبة لبرِنستون»، قالت المرشدة، مرفقةً كلامها بابتسامة متغطرسة ومتعالية.

كان حكمها سريعًا ورافضًا، ولعلّه استند إلى حسبةٍ سريعة توصّلَت إليها، بعد أن ألقَت نظرةً خاطفة على علاماتي ونتائج اختباراتي. وربّما كان تعليقها أنموذجًا عمّا تفعَله طوال النهار، وبفاعليّة فائقة؛ أن تُخبر التلاميذ في السنة الأخيرة، عن الأمكنة التي ينتمون إليها أو لا ينتمون. أنا متّأكّدة من أنّها كانت تتصرّف بواقعيّة، لا أكثر. ولا أظنّ أنّها أعادت التفكير مليًّا بما قالته لي.

ولكن، كما قلتُ سابقًا، الفشل شعور إذا ما ترسّخ يتحوّل حقيقةً. وأنا قد شعرتُ بأنّ هذا بالضبط ما كانت المرشدة تحاول أن تزرعه في داخلي: التلويح بالفشل، قبل أن أبدأ حتّى بمحاولة النجاح. كانت تُخبرني بأنّ عليّ أن أقلّل مستوى تطلّعاتي، الأمرُ الذي يتنافى تمامًا مع ما علّمني إيّاه والداي.

لو اخترت أن أصدّقها، لأطاح ما قالته ثقتي في نفسي مرّة ثانية. ولاستعدتُ ذلك الشعور القديم: ليس كافيًا، ليس كافيًا!

لكنّ ثلاث سنوات من مواكبةِ الطلّاب الطموحين في Whitney Young، علّمتني أنّني أكثر من ذلك. لم أكن مستعدّةً للسّماح لرأي شخصٍ واحدٍ بأن يطيح كلّ ما ظننت أنّني أعرفه عن نفسي. بدلًا من ذلك، غيّرت طريقتي من دون أن أغيّر هدفي. سوف أتقدّم بطلبٍ إلى برِنستون، وإلى مجموعة أخرى من الجامعات، ولكن من دون أيّ تدخّل إضافيّ من المرشدة الجامعيّة. وبدلًا من التحدّث إليها، طلبتُ مساعدة شخصٍ يعرفني جيّدًا. لقد تنبّهَ السيّد سميث، مساعد المدير وجاري، إلى نقاط قوّتي كتلميذةٍ، فضلًا عن أنّه عهد إليّ برعاية أولاده، فوافق على كتابة رسالة توصية بي.

كنتُ محظوظةً، بما فيه الكفاية حتّى الآن في حياتي، بمقابلة

كثر من الأشخاص المميَّزين والمتفوّقين: زعماء عالميّين، مخترعين، موسيقيّين، روّاد فضاء، رياضيّين، أساتذة، رجال أعمال، فنّانين وكتّاب وأطبّاء مبدعين وباحثين مرموقين. البعضُ منهم – ولكن ليس بما يكفي – من النساء. والبعض الآخر – ولكن ليس بما يكفي أيضًا – من السود أو من الملوّنين. بعضهم وُلد فقيرًا، أو عاش حياة بدت لنا ظالمة، وتراكمت فيها الصعاب. لكنّهم مع ذلك، تصرّفوا كأنّهم امتلكوا جميع الميزات في العالم. وقد تعلّمت منهم التالي: كلّهم كانوا محاطين بمن شكَّك في قدرتهم. بعضهم ما زال محاطًا بأفواجٍ صاخبة من المنتقدين الذين يصرخون: «قلتُ لك ذلك من قبل...»، مع كلّ خطإ صغير أو عثرة عابرة. التشويش لا يهدأ، لكنّ الأشخاص الناجحين الذين أعرفهم وجدوا طريقةً للعيش معه، وللاتّكاء على الأفراد الذين يحبّونهم، وللمضيّ قُدمًا نحو أهدافهم.

عندما غادرتُ مكتب المرشدة الجامعيّة في Whitney Young ذلك اليوم، كنت أشتعل غضبًا، إذ تمّ المساس بكرامتي. وكانت الفكرة الوحيدة التي تدور في رأسي آنذاك: سوف أريك!

هدأتُ بعد تلك الحادثة، وعدتُ إلى العمل. لم أتوقَّع أنّ يكون دخول الجامعة سهلًا، لكنّني حرصت على التركيز والإيمان بمسيرتي الخاصّة. حاولتُ أن أعبّر عن هذا كلّه في مقالتي الجامعيّة. وبدلًا من التظاهر بأنّني مثقّفة للغاية، وأنّني أتمتّع بجميع المقوّمات المطلوبة لأدخل جامعة برِنستون، كتبتُ عن إصابة أبي بداء التصلّب المتعدّد، وعن وانعدام الثقافة الجامعيّة في عائلتي. لقد كنت في الواقع أحاول أن أنجز شيئًا ما. وبالنظر إلى خلفيّتي، كان الإنجاز جلّ ما استطعت القيام به.

وفي النهاية، وفيت بوعدي للمرشدة الجامعيّة، إذ بعد ستّة أو سبعة شهور، وصلَتنا إلى المنزل رسالة قبولي في جامعة برِنستون. احتفل والداي معي في ذلك اليوم بتناول البيتزا من مطعم Italian Fiesta. واتّصلت بكريغ لأزفّ إليه الخبر السارّ. في اليوم التالي، طرقتُ باب السيّد سميث لأخبره وأشكره على مساعدته. لم أتوقّف قطّ أمام باب المرشدة الجامعيّة لأخبرها بأنّها

كانت مخطئةً، فها أنا أناسب جامعة برِنستون. لم يكن ذلك ليُجدي نفعًا لأيٍّ منّا. في النهاية، لم أشعر بالحاجة إلى أن أُريها أيّ شيء، جلّ ما كنتُ أريده هو أن أثبت ذلك لنفسي.

6

في صيف 1981، قادني أبي في سيّارته إلى جامعة برِنستون عبر الطرقات السريعة التي تربط إلينوي بنيو جيرسي. لكنّ اصطحابه إيّاي كان أكثر من رحلة طريق تجمع أبًا بابنته. رافقنا صديقي ديفيد للنزهة. في الواقع، كنت ألبّي دعوةً مُسبَقة تلقّيتها من الجامعة لحضور برنامج توجيهيّ صيفيّ خاصّ، على مدى ثلاثة أسابيع، يُمنَح طلّابٌ في صفّ الـ freshman وقتًا ومساعدةً إضافيّين لتسهيل استقرارهم في الجامعة. لم تكن أسباب اختيارنا للمشاركة في ذلك البرنامج واضحة – أيّ جزء من طلبات الدخول نبَّه الجامعة إلى أنّنا قد نستفيد من بعض الدروس في قراءة المنهج الدراسيّ، أو من التمرين المسبق على طريقة التنقّل بين مباني الحرم الجامعيّ – لكن كريغ كان قد شارك في البرنامج قبل سنتين وبدت المسألة فرصةً تستحقّ المحاولة. وهكذا، حزمتُ حقائبي وودّعت أمّي – لم تدمع عينا أيّ منا ولم يكن الوداع عاطفيًّا – وركبت السيّارة.

يعود سبب حماستي لمغادرة المدينة، في جانب منه، إلى أنّني أمضيتُ الشهرين الأخيرين أعمل في خطّ تجميع في مصنع صغير لتجليد الكتب وسط شيكاغو، حيث ارتكزت مهمّتي بشكل أساسيّ على تشغيل مسدّس صمغ صناعيّ – عمل روتينيّ يمتصّ الروح، وقد كان ثماني ساعات يوميًّا على مدى خمسة أيّام في الأسبوع، ولعلّه كان العامل الوحيد الذي بقي يذكّرني

ويعزّز اقتناعي بأنّ ارتيادي الجامعة فكرة جيّدة. كانت والدة ديفيد تعمل في ذلك المصنع وقد ساعدتنا في الحصول على وظيفتين هناك، فعملنا سويًّا، جنبًا إلى جنب، طوال فصل الصيف ما ساعد في استساغة ذلك الكدح كلّه. كان ديفيد ذكيًّا ورقيقًا، وسيمًا وطويل القامة، يكبرني بسنتين، وقد بنى أوّلًا صداقةً مع كريغ، في ملعب كرة السلّة في Rosenblum Park، وذلك قبل بضع سنوات أثناء زيارته أقرباءه المقيمين في Euclid Parkway. في المحصّلة، بدأ يمضي أوقاته معي. خلال السنة الدراسيّة، كان ديفيد يتابع دروسه في جامعة تقع خارج الولاية، الأمر الذي بدا مناسبًا لي، بحيث أتاح لي التركيز على دراستي. أمّا خلال الأعياد وعطلات الصّيف فقد كان يعود للسكن مع أمّه، في الطرف الجنوبيّ الغربيّ من المدينة، وقد اعتاد المجيء بسيّارته كلّ يوم تقريبًا لاصطحابي.

كان ديفيد شخصًا هادئًا وأقربُ إلى البالغين من أيّ صديقٍ عرفته من قبل. كان يجلس على الكنبة لمشاهدة المباريات مع والدي، ويتبادل النكات مع كريغ والأحاديث المهذّبة مع أمّي. كنّا نتواعد كحبيبين، وذهبنا إلى ما اعتبرناه عشاءات فاخرة في مطعم Red Lobster، وقصدنا السينما. عبثنا سويًّا ودخّنّا الحشيشة في سيّارته. وخلال النهار في مصنع تجليد الكتب، كنا نشغّل مسدّسات الصمغ فيما نتبادل النكات والـتعليقات. في الواقع، لم يكن أيّ منا مهتمًّا بالاحتفاظ بتلك الوظيفة، وقد اقتصرت على كونها وسيلة لتوفير المال لمتابعة الدراسة. ففي أيّ حال، كنت سأغادر المدينة قريبًا، ولم تكن لديّ أيّ نيّة في العودة إلى مصنع تجليد الكتب ذاك. وبمعنى ما، كنت قد اجتزتُ نصف الرّحلة تقريبًا – كان تفكيري قد حلّقَ في اتّجاه برِنستون.

ما قصدتُ قوله أنّه، في ذلك المساء من بداية شهر آب/ أغسطس، عندما خرجت السيّارة التي أقلّتنا نحن الثلاثة، الأب والابنة والصديق، من الطّريق Route 1 ودخلت الشارع العريض المورِق المؤدّي إلى حرم الجامعة، كنتُ على أتمّ الاستعداد للمضيّ قدمًا. كنت جاهزةً لجرّ حقيبتيّ إلى مبنى المنامة

الصيفيّ، وللتعرّف إلى الطلّاب الآخرين (ومعظمهم من الأقلّيات ومن الفئات المحدودة الدخل، إضافة إلى بعض الرياضيّين). كنت مستعدّةً لتذوّق المأكولات في قاعة الطعام، وحفظ خريطة الحرم الجامعيّ، ولأتغلّب على صعوبة أيّ منهج دراسيّ قد يعترضني. لقد بلغت وجهتي. لقد وصلت. كنت في السابعة عشرة من عمري وحياتي في بدايتها.

لكن، كانت هناك مشكلة واحدة فحسب، ديفيد، الذي بدا كئيبًا نوعًا ما، حالما عبرنا حدود ولاية بنسلفانيا. وفيما كنا نفرغ صندوق سيّارة أبي من حقيبتيّ، بدا واضحًا لي شعوره بالوحدة منذ تلك اللحظة. فقد كنّا نتواعد منذ أكثر من سنة، وباح كلّ منّا بحبّه للآخر، لكنّه كان حبًّا في نطاق جادّة يوكليد، ومطعم Red Lobster، وملاعب كرة السلّة في Rosenblum Park. كان حبًّا في نطاق المكان الذي غادرته للتوّ. وبينما كان والدي يهمّ بمغادرة مقعد السائق لتثبيت نفسه على عكّازيه، وقفتُ مع ديفيد في الغسق نحدّق بصمتٍ في رقعة العشب الأخضر النظيف خارج مبنى منامتي الأشبه بقلعةٍ من حجر. أدركنا فجأة أنّ ثمّة مسائل مهمّة لم نناقشها على الأرجح، ولم نعِ تمامًا ما إذا كان هذا وداعًا موقّتًا أو انفصالًا نهائيًّا لأسباب جغرافيّة. هل سنتبادل الزيارات والرسائل الغراميّة؟ هل سنبذل أيّ جهد للحفاظ على تلك العلاقة؟

أمسك ديفيد بيدي بكلّ صدق. كان الأمر مربكًا لي. فقد عرفتُ ما أريد لكنّي لم أجد الكلمات الملائمة للتعبير عنه. كنت آمل بأن تجتاحني يومًا ما مشاعر جيّاشة تجاه رجل، وأن يصيبني ما يُشبه إعصارًا من المشاعر يقلب حياتي رأسًا على عقب. لقد بدأت قصّة حبّ والديّ في سنّ المراهقة، حتّى أنّ أبي اصطحب أمّي إلى حفلة التخرّج. عرفتُ أنّ علاقات المراهقة تكون أحيانًا حقيقيّة وطويلة الأمد، ووددتُ أن أؤمن بوجود رجل سيظهر في حياتي ويختصر العالم بالنسبة إليّ، رجل جذّاب وصلب لدرجة تدفعني إلى إعادة النظر في أولويّاتي.

هذا الرجل لم يكن الشاب الواقف أمامي في تلك اللحظة.

كسر أبي الصّمت أخيرًا بيني وبين ديفيد، قائلًا أنّ الوقت حان لنقل حاجاتي إلى مبنى المنامة. أمّا هو وديفيد، فكان أبي قد حجز لهما غرفة في فندق صغير في المدينة لقضاء ليلة واحدة، إذ قرّرا العودة في اليوم التالي إلى شيكاغو.

احتضنتُ أبي بشدّة في موقف السيّارات. كانت ذراعاه قويّتين دومًا منذ اهتمامه المبكر بالملاكمة والسباحة، واكتسبتا قوّة أكبر نظرًا إلى الجهد الذي يبذله في التنقّل بالعكّازين.

«انتبهي لنفسك، يا ميش»، قال أبي بعد أن أفلتني، ووجهه لا يشي سوى بفخرٍ كبير.

ثمّ ركب إلى سيّارته ليمنحني بعض الخصوصيّة مع ديفيد.

وقفتُ على الرصيف مع ديفيد، وكلانا يشعر بالارتباك. خفق قلبي عندما انحنى ليقبّلني – هذا الجزء كان دومًا يُشعرني بالسعادة.

ومع ذلك كنتُ أعلم أنّه، وفيما أضمّ بين ذراعيّ شابًّا طيّبًا من شيكاغو يحبّني بصدق، ثمّة أيضًا ممرّ مضاء يؤدّي إلى ساحة الكلّيّة التي ستصبح خلال دقائق عالمي الجديد. كانت فكرة العيش بعيدًا عن بيتي في المرّة الأولى، بعيدًا عن حياتي، تثير قلقي. لكنّ شيئًا ما في داخلي آثر أن يكون الانفصال سريعًا وصريحًا. في اليوم التالي، اتّصل بي ديفيد في مبنى المنامة وسألني عمّا إذا كنت أودّ لقاءه لتناول وجبة سريعة، أو للتجوّل مرّة أخيرة في المدينة قبل أن يغادر، فوجدتُ نفسي أتذرّع بانهماكي بأمور الجامعة. كان وداعنا في اللّيلة السابقة حقيقيًّا ونهائيًّا. ربّما كان عليّ أن أقول ذلك صراحةً في تلك اللحظة – لكنني جبنت، مدركةً الألم الذي قد يتسبّب فيه البوح بذلك وسماعه. تركته يذهب في طريقه.

اكتشفتُ أن هناك الكثير ممّا عليّ تعلّمه عن الحياة، أو أقلّه عن الحياة داخل حرم برِنستون في بداية الثمانينيّات. فبعد أن أمضيتُ بضعة أسابيع حافلة بالنشاط خلال الصيف مع عشرات الطلّاب الذين بدوا قريبين منّي ومألوفين لي، بدأ فصل الخريف رسميًّا وفُتحت الأبواب على مصاريعها أمام طوفان الجسم الطالبيّ

بكامله. نقلتُ أغراضي إلى غرفة جديدة، في مبنى Pyne Hall، تتّسع لثلاث، ورحت أراقب من نافذتي في الطبقة الثالثة آلاف الطلَبة، البيض في معظمهم، يتدفّقون إلى حرم الجامعة، ويجرّون أجهزة الموسيقى وأغطية الأسرّة وحمّالات الثياب. استقلّ طلّاب سيّارات ليموزين، حتّى أنّ واحدة من الطالبات وصلت بسيّارتَي ليموزين – من الحجم الكبير – لاستيعاب جميع حاجاتها.

كانت برِنستون بيضاء كثيرًا وذكوريّة جدًّا، هذه حقائق يصعب تلافيها. فعدد الشبّان في حرم الجامعة كان يفوق عدد الفتيات بحوالى الضعف. وشكّل الطلّاب السّود أقلّ من 9 في المئة في صفّ الـ freshman. وإن كنّا قد شعرنا خلال البرنامج التحضيريّ بنوعٍ من الانتماء إلى المكان، فقد أصبحنا الآن نشعر بغربتنا عنه – بتنا أشبه ببذور الخشخاش في صحنٍ من الأرزّ الأبيض. صحيح أنّ Whitney Young كانت متنوّعة عرقيًّا إلى حدٍّ ما، إلّا أنّني لم أنتمِ يومًا إلى مجموعة ذات أكثريّة بيضاء ساحقة، كما لم أتميّز قطّ بين جمعٍ أو صفٍ بسبب لون بشرتي. كان الأمر مضعضِعًا وغير مريح، في الأقلّ في البداية، كأنّني زُرعتُ فجأة في تربة غريبة وجديدة، داخل بيئة لم تكن مهيّأة لي.

مع ذلك، وكما هي الحال دومًا، يتعلّم المرء التأقلم. هناك تغييرات كانت سهلة ومريحة في الغالب. في برِنستون، لم يبدِ أحد أيّ قلق بشأن الجرائم. كان الطلّاب يتركون أبواب غرفهم غير مقفلة، ودرّاجاتهم مرميّة خارج الأبنية، وأقراطهم الذهب على المغاسل داخل الحمّامات. بدا أنّ ثقتهم في العالم لامتناهية، وتقدّمهم فيه مضمونًا بالكامل. أمّا أنا فقد احتجتُ إلى بعض الوقت كي أعتاد ذلك. فقد أمضيتُ سنوات أحمي مقتنياتي أثناء ركوبي الحافلة ذهابًا وإيّابًا إلى Whitney Young، كما اعتدتُ حمل مفتاح البيت بين إصبعيّ، موجِّهَةً طرفه إلى الجهة الخارجيّة في حال احتجته للدفاع عن نفسي وأنا في طريقي إلى بيتي في جادّة يوكليد.

أمّا في برِنستون، فالأمر الوحيد الذي كان عليّ التنبّه له والسهر عليه هو دراستي. عدا ذلك، جميع الأمور الأخرى كانت

مصمّمة لتأمين راحتنا كطلّاب. فالكافيتيريا تقدّم خمسة أنواع مختلفة من وجبات الفطور، كما كان في إمكاننا الجلوس تحت أشجار السنديان المنتشرة بوفرة، والاستمتاع في تلك المساحات الشاسعة من العشب الأخضر باللعب بصحون الـ fresbee للترويح عن أنفسنا. كانت المكتبة الرئيسيّة أشبه بكاتدرائيّة بسقوفها العالية وطاولاتها الخشب الملمَّعة التي كنّا نضع عليها كتبنا ونجلس إليها لندرس بصمت. كنّا نحظى بالحماية والرعاية والخدمة المميّزة. وما لبثتُ أن أدركتُ أنّ عددًا كبيرًا من الطّلاب قد عهد ذلك في الحياة كلّها.

ترافق كلّ ذلك مع مجموعة مفردات جديدة تعيَّن عليّ إجادتها. فما معنى كلمة توجيه مثلًا؟ وما هي حصّة القراءة؟ كما لم يشرح لي أحد معنى أغطية الفراش «البالغة الطول»، على لائحة الحاجات الجامعيّة، فانتهى بي الأمر بشراء أغطية فراش قصيرة جدًّا والنوم طوال سنة الـ freshman وقدماي ممدّدتان على الفراش المغلّف بالبلاستيك. أمّا في ما يتعلّق بفهم الرياضات المتنوّعة فقد كان ذلك شأنًا آخر. نشأتُ على ألعاب كرة القدم وكرة السلّة والبيسبول، لكن اتَّضح لي أن روّاد جامعات الساحل الشرقيّ يمارسون رياضات أخرى كاللاكروس، والفيلد هوكي، وحتّى السكواش. بالنسبة إلى طالبة من الجانب الجنوبيّ لشيكاغو، كان الأمر مربكًا قليلًا. «هل تجذّفين؟» ما معنى ذلك؟

كنتُ في برنستون أحظى بميزة واحدة فحسب، تمتّعت بها في صفوف الحضانة، ألا وهي أنّني شقيقة كريغ روبنسون الصغيرة. كان كريغ آنذاك في صفّ الـ junior، ومن أبرز لاعبي فريق كرة السلّة في الجامعة. كان الشاب المحاط بالمعجبين، على عادته، حتّى أنّ حرّاس الأمن في الحرم الجامعيّ يحيّونه باسمه. كانت لكريغ حياة خاصّة، وتمكّنْتُ إلى حدٍّ ما من التسلّل إليها فتعرّفتُ إلى أعضاء فريقه وأصدقائهم. ذات ليلة، رافقته في دعوة إلى العشاء خارج حرم الجامعة، في منزل فخم يعود لأحد داعمي فريق كرة السلّة، حيث جلستُ إلى طاولة العشاء لأجد أمامي صنفًا من الطعام تطلَّب درسًا في اللياقة على غرار الكثير من

الأمور في برِنستون – خرشوف أخضر بأكمله وُضِعَ على طبق من الخزف الأبيض.

كان كريغ قد تمكّن من تأمين مسكن لائق في تلك السنة، مجانًا، مقابل عمله ناطورًا، وشغل غرفة نوم علويّة في مركز Third World Center التابع للجامعة. على رغم الانطباع السلبيّ الذي قد يتركه اسم هذا المركز إلّا أنّ رسالته هادفة وهي مساعدة التلامذة الملونين. (بعد عشرين سنة بالكامل، أعيد النظر في تسمية المركز ليصبح «مركز كارل أ. فيلدز للمساواة والتفاهم الثقافيّ»، تيمّنًا بأوّل عميد أميركيّ أفريقيّ لجامعة برِنستون).

سرعان ما أصبح المركز، أو TWC كما كان معظمنا يسمّيه، أشبه بالمنزل بالنسبة إليّ. لقد استضاف الحفلات ومناسبات العشاء، وضمّ متطوّعين لمساعدة الطلّاب في دروسهم، وأماكن للتسلية. كنتُ قد كوّنتُ، خلال البرنامج الصيفيّ، صداقات مع بعض الطلّاب، وكان كثرٌ من مجموعتنا هذه يرتادون المركز خلال أوقات الفراغ. ومن بينهم سوزان أليل. كانت سوزان طويلة، نحيلة، ذات حاجبين عريضين وشعر أسود غزير ومتموّج ينسدل على ظهرها. لقد وُلدت في نيجيريا ونشأت في كينغستون، جامايكا، مع أنّ عائلتها انتقلت إلى ماريلاند عندما بلغت سنّ المراهقة. لعلّها بدت متفلّتة من أيّ هويّةٍ ثقافيّة محدّدة نتيجة لذلك. جذبت سوزان الناس إليها بسهولة. فقد تميّزت بابتسامتها العريضة وبلكنتها الجذّابة الخاصّة بأهل الجزر، والتي تبرز أكثر بتأثير التّعب أو الكحول. كما اتّسم سلوكها بنزعة مرح كاريبيّة، كما أراها، وخفّة ظلٍّ جعلتها تتميّز بين جموع برِنستون المولعة بالدراسة. لم تتردّد سوزان في الذهاب إلى حفلات لم تكن تعرف فيها شخصًا واحدًا. ومع أنّها كانت طالبة طبّ في سنواتها التحضيريّة، فقد حرصت على متابعة دروسٍ في الرقص وصناعة الفخّار مجرّد أنها تشعرها بالسرور.

في ما بعد وخلال سنة الـ sophomore، اتّخذت سوزان مبادرة جريئة أخرى، حيث قرّرت أن تنتمي إلى نادٍ للطعام يدعى Cap

and Gown – ولفعل «انتمى» معنى خاصّ في لغة برِنستون، حيث يرمز إلى عمليّة التدقيق الاجتماعيّ الذي تعتمدها الأندية لاختيار الأعضاء الجدد. أحببتُ سماع القصص التي كانت سوزان ترويها بعد عودتها من مآدب أندية الطعام والحفلات التي شاركت فيها، لكنّني لم أكن مهتمّة «بالانتماء». فقد كنت سعيدةً ضمن مجموعة الطلّاب السُّود واللاتينيّين الذين التقيتُ بهم في مركز TWC، وراضيةً بالبقاء على هامش المشهد الاجتماعيّ الأوسع في برِنستون. كانت مجموعتنا صغيرة إنّما متماسكة، وكنا ننظّم الحفلات ونرقص حتّى منتصف الليل. في مواعيد الأكل، كنّا نجلس، عشرة طلّاب أو أكثر حول طاولة واحدة، مسترخين ضاحكين. كانت عشاءاتنا تمتدّ ساعات – على غرار الوجبات التي كانت تجمع عائلتي في بيت ساوث سايد.

أظنّ أنّ الإداريّين في برِنستون لم يحبّوا فكرة أن يتجمّع الطلّاب الملوّنين مع بعضهم بعضًا بصورة عامّة، إذ كانوا يأملون بأن ننسجم جميعًا في بوتقة واحدة متجانسة، للارتقاء بنمط حياة الطلّاب داخل الحرم الجامعيّ، وهو لا شكّ مسعًى نبيل. أدرك أنّ، في ما يتعلّق بالتنوّع داخل الحرم الجامعيّ، الهدف هو أن ننخرط في مجموعات تبدو على غرار ما نراه في منشورات الجامعات – طلّاب يدرسون، مبتسمين مندمجين ضمن مجموعات متنوّعة عرقيًّا. ولكن حتّى اليوم، ومع استمرار تفوّق عدد الطلّاب البيض في الجامعات على عدد الطّلاب الملوّنين، فإنّ عبء الاندماج يُلقى بشكل أساسيّ على كاهل أبناء الأقلّيات. انطلاقًا من تجربتي أقول أنّ هذا عبء كبير يُطلب منهم حمله.

احتجتُ في برِنستون إلى وجود رفاقي السود، فقد كان بعضنا لبعض الراحة والسند. لقد وصل كثرٌ منّا إلى الجامعة، غير مدركين نقاط ضعفنا. واكتشفنا تدرّجًا أنّ الزملاء الجدد قد تابعوا دروسًا خصوصيّة للتحضير لامتحان الـ SAT، أو ارتادوا ثانويّة تعتمد معايير الجامعة في التدريس، أو أنّهم انخرطوا في مدارس داخليّة من قبل، بالتّالي فإنّهم لا يواجهون صعوبة العيش خارج بيوتهم أوّل مرّة. كان الأمر أشبه باعتلاء خشبة مسرح للعزف على

البيانو، في أوّل حفل موسيقيّ، أمام جمهور حيّ، لتكتشف أنّك كنتَ تتمرّن طيلة حياتك على بيانو بمفاتيح مكسورة؛ عالَمُك كلّه يتبدّل، ومع ذلك يُطلَبُ منك التأقلم والتغلّب على الأمر وعزف موسيقاك تمامًا كما يعزف الآخرون.

هذا الأمر ليس مستعصيًا – فطلّاب الأقليّات وطبقة الدخل المحدود يرتقون دائمًا إلى مستوى التحدّي – لكنّه يتطلّب جهدًا. يتطلّب جهدًا أن تكون التلميذ الأسود الوحيد في قاعة محاضرات، أو تكون واحدًا من قلّة قليلة من الطلّاب غير البيض، يشارك في تجارب الأداء لمسرحيّة أو يحاول الانضمام إلى فريق داخليّ. ويتطلّب جهدًا وجرعة أكبر من الثقة في النفس أن تتكلّم في تلك الأجواء أو أن تفرض حضورك في الغرفة. وهذا هو السبب وراء الراحة التي كنّا نجدها، أنا ورفاقي، عند الجلوس معًا كلّ ليلة على طاولة العشاء. لهذا، كنّا نمضي ساعات معًا، ونضحك قدر استطاعتنا.

زميلتاي اللتان تقاسمتُ معهما غرفة المنامة في مبنى Pyne Hall كانتا بيضاوَي البشرة وبغاية اللطف، لكنّي لم أمضِ وقتًا كافيًا في المبنى لإقامة أيّ نوع من الصداقات العميقة. وفي الواقع، لم يكن لديّ الكثير من الأصدقاء البيض قطّ. وبالعودة إلى ذلك الوقت، أعتقد أن اللَّوم كان يقع عليّ بقدر ما يقع على الآخرين. كنت حذرة ولزمتُ الجانب الذي أعرفه. يصعب التعبير عمّا تستشعره أحيانًا، عن فروقات عدم الانتماء الصامتة والقاسية – والتنبيهات السلسة التي تنصحك بألّا تجازف، وأن تجد جماعتك، وأن تلازم مكانك.

بعد سنوات عدّة، ظهر اسم إحدى زميلتَيَّ في الغرفة آنذاك، وتدعى كاثي، في نشرات الأخبار وهي تتحدّث بحرج عن أمر لم أكن أعرفه عندما كنّا نعيش سويًّا: فوالدتها، وهي مدرّسة في نيو أورلينز، ذُعِرت يومذاك عندما علمَت أنّ ابنتها تتشارك الغرفة مع فتاة سوداء، إلى درجة أنّها ألحَّت على إدارة الجامعة لفصلنا. ثمّ أجرت الأم مقابلة تلفزيونيّة أيضًا أكّدت فيها الرواية وقدّمت المزيد من التفاصيل، موضحةً أنها تربّت في بيت كانت فيها لفظة «عبد»

من المفردات المستعملة باستمرار، وأنّ جدّها كان مأمور شرطة واعتاد التفاخر بطرده السود من المدينة، وفق قولها، فأصابتها «الصدمة» من فكرة مجاورتي ابنتها.

كلّ ما عرفته آنذاك هو أنّ كاثي تركت غرفتنا التي تتّسع لثلاثة أشخاص، في منتصف سنة الـ freshman، وانتقلت إلى غرفة مستقلّة، من دون أن تكون لي أدنى فكرة عن السبب.

تطلَّبت منّي شروط المساعدة الماليّة التي حصلتُ عليها في برِنستون، العثور على عمل للمساهمة في تسديد أقساط الجامعة، وانتهى بي المطاف في وظيفة جيّدة مساعدة لمدير مركز TWC. كنت أقدّم المساعدة حوالى عشر ساعات في الأسبوع، خارج أوقات الدّراسة، جالسة إلى مكتب إلى جانب لوريتا، السكرتيرة العاملة بدوام كامل، أطبع المذكّرات، أردّ على المكالمات الهاتفيّة، وأجيب عن أسئلة الطّلاب الذين قصدوا المركز يستفسرون عن إلغاء متابعتهم إحدى الموادّ الدراسيّة، أو عن ملء طلبات الانتساب إلى تعاونيّة الطعام. احتلّ المكتب الزّاوية الأماميّة من المبنى بنوافذه الشاسعة التي يتدفّق عبرها نور الشمس، وبأثاثه غير المتناسق، ما أضفى عليه طابعًا أكثر خصوصيّة وأقلّ رسميّة. أحببت وجودي هناك، وأن يكون لديّ عمل إداريّ أنجزه. أحببتُ نفحة الرضا التي كانت تغمرني عندما أنجز عملًا بسيطًا من مهمّاتي التنظيميّة. لكنّي أحببت، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، مديرتي: تشيرني برازويل.

كانت تشيرني فتاة سوداء ذكيّة وجميلة، في بداية الثلاثين، نيويوركيّة رشيقة ونشيطة، ترتدي الجينز الواسع الساقين، وتنتعل الصنادل بكعب، وتبدو دومًا أنّ في ذهنها أربعة أو خمسة أفكار في الوقت نفسه. بالنسبة إلى الطّلاب الملوّنين في برِنستون، لعبت تشيرني دور المرشدة، والمدافِعة الرئيسة المتأنّقة والجريئة، لذلك فقد حظيَت بتقدير الجميع. في المكتب، كانت تدير نشاطات عدّة دفعة واحدة – فتعمل على إقناع إدارة الجامعة بتبنّي سياسات أكثر تسامحًا وشموليّة نحو الأقلّيّات، وتدافع عن طلّاب وتطالب بتلبية حاجاتهم، وتروّج لأفكار جديدة

تساعدنا جميعًا في تحسين أوضاعنا. كانت تشيرني تُغادر المكتب على استعجالٍ في معظم الأحيان، متأخّرةً على اللّحاق بمواعيدها، فتندفع خارجةً من المدخل الرئيسيّ، حاملةً حزمة من الأوراق في يدها، تتدلّى سيجارة مشتعلة من طرف فمها وحقيبةُ يد من كتفها، وتروح تعطينا التوجيهات لي وللوريتا بصوتٍ عالٍ أثناء خروجها. كان العمل معها تجربة مذهلة، إذ كنتُ قريبة منها، بل أقرب من أيّ وقت إلى امرأة مستقلّة تقوم بعمل تحبّه بجوارحها كلّها. كانت تشيرني أيضًا، وليس عَرَضًا، أمًّا عزباء تربّي طفلًا لطيفًا وذكيًا اسمه جوناثان، غالبًا ما كنت أجالسه.

مع أنّ خبرتي في الحياة كانت محدودة، فقد رأت تشيرني فيَّ شخصًا واعدًا، وراحت تعاملني كفتاة بالغة، وتسألني عن آرائي، وتصغي إليّ باهتمام فيما أسرد لها المخاوف المتنوّعة والتعقيدات الإداريّة التي كان يطرحها الطلّاب. بدت مصمّمة على تعزيز جرأتي. كان الكثير من أسئلتها يبدأ بعبارة: «هل سبقَ أن...؟» مثلًا، هل سبق لي أن قرأتُ أيًّا من أعمال James Cone. أو هل سبق لي أن تساءلتُ يومًا عن استثمارات جامعة برِنستون في أفريقيا الجنوبيّة، أو عن إمكان القيام بالمزيد من الجهود لقبول المزيد من الطلّاب الملوّنين؟ في أغلب الأحيان، كان الجواب من جهتي بالنّفي، ولكن مجرّد طرحها السؤال كان يثير اهتمامي على الفور.

سألتني تشيرني ذات يوم، «هل سبق لكِ أن زرتِ نيويورك يومًا؟».

كان الجواب لا، مجدّدًا، لكن تشيرني سرعان ما غيّرت ذلك. ففي صباحِ يوم سبت، ركبنا سيّارتها – أنا وجوناثان الصغير وصديق يعمل أيضًا في مركز TWC – وقادت تشيرني السيّارة باتّجاه مانهاتن، وهي تُدخِّن وتتحدّث بلا توقّفٍ طوال الطريق. مع تقدّم الرحلة، كان في إمكاننا الشعور بعبء ما يرتفع عن صدر تشيرني، كأنّ توتّرها ينحسر تدرّجًا مع انحسار مزارع الجياد ذات الأسوار البِيض المحيطة ببرِنستون وتحلّ مكانها الطرقات المزدحمة وبعدها أبراج المدينة التي ترتفع أمامنا. كانت نيويورك موطن

تشيرني، تمامًا كما كانت شيكاغو موطني. ولا يدرك المرء مدى تعلّقه بموطنه إلّا عندما يبتعد منه، ويختبر معنى الانسلاخ.

وقبل أن أدرك ذلك، كنّا وصلنا إلى وسط نيويورك المزدحم، ووجدنا أنفسنا عالقين وسط دفق من سيّارات التاكسي الصفر والزمامير الزاعقة، فيما راحت تشيرني تزيد من سرعتها بين الإشارات الضوئيّة وتضغط على المكابح في اللحظة الأخيرة وبأقصى قوّة قبل أن تغدرها الإشارة الحمراء. لا أذكر تمامًا ما فعلناه في ذلك اليوم. أذكر أنّنا تناولنا البيتزا فحسب، ورأينا مركز روكفلر، وتجوّلنا بالسيّارة عبر سنترال بارك، ولمحنا تمثال الحرّيّة بمشعله المرفوع المليء بالأمل. في الواقع، قصدنا نيويورك لأسباب عمليّة، وقد بدا أن تشيرني تستعيد معنويّاتها بتأدية مهمّات روتينيّة. كان عليها تسليم بعض الأغراض وجلب أغراض أخرى، فتروح تركن سيّارتها في منتصف الشوارع المزدحمة، وتركض داخلةً وخارجةً من الأبنية المجاورة، مثيرةً وراءها عاصفةً من الزمامير الحانقة، فيما كنّا نجلس نحن في السيّارة مكتوفي الأيدي. أذهلتني نيويورك بسرعة حركتها وصخبها نسبة إلى شيكاغو التي كان الناس فيها أكثر صبرًا. أمّا تشيرني فقد كانت تبدو مليئةً بالحياة هناك، ولم تنزعج قطّ من الفوضى التي يثيرها المشاة، ورائحة البول، وأكوام النفايات التي تفوح من الأرصفة.

كانت تشيرني على وشك ركن سيّارتها مرّة ثانية في منتصف الطريق، عندما لاحظَت في المرآة السير الكثيف الممتدّ وراءها. فجأة لمعت فكرة في ذهنها، فأومأت إليّ وطلبَت منّي أن أنزلق من مقعدي إلى مقعد السائق وأتّخذ مكانها وراء المقود.

«لديكِ رخصة قيادة، أليس كذلك؟»، سألتني. أومأتُ رأسي بالإيجاب، فقالت: «ممتاز، استلمي القيادة، ودوري بالسيّارة على مهل حول المبنى، مرّة أو اثنتين، ثمّ عودي بها إلى هنا. سأتغيّب خمس دقائق أو حتّى أقلّ، أعدكِ!».

نظرتُ إلى تشيرني، مستغربة وكأنّ مسًّا أصابها. لقد جُنَّت فعلًا لاعتقادها أنّني أستطيع القيادة في مانهاتن – كيف لي أنا المراهقة الغريبة القليلة الخبرة والكفاءة، كما رأيتُ نفسي، أن

أقود سيّارتها، مصطحبةً طفلها أيضًا، خلال الزحمة الخانقة في هذه المدينة الفوضويّة؟ لكنّ تردّدي أيقظ في تشيرني الروح النيويوركيّة – تلك النزعة العفويّة لتحدّي التفكير الضيّق. خرجَت تشيرني من نافذة السيّارة من دون أن تترك لي خيارًا آخر. تدبّري أمركِ وعيشي حياتكِ قليلًا، تلك كانت رسالتها إليّ.

كنت أتعلّم على مدار الساعة آنذاك. كنت أتعلّم بالطرائق الأكاديميّة المعتادة، محافظة على مستوايَ في الصفوف، وأدرس في غرفة هادئة في مركز TWC أو في المكتبة. كنت أتعلّم كيف أكتب بإتقان وكيف أفكرّ بطريقة نقديّة. خلال سنة الـ freshman تلك، تسجَّلت من غير قصد في صفٍّ متقدّمٍ في مادّة اللاهوت، ورحتُ أتخبّط. لم أفلح إلّا بعد بذل جهود حثيثة خلال ساعات طويلة. لم يكن الأمر ممتعًا، لكنّني وجدته في نهاية المطاف مشجّعًا، إذ صرت على ثقة في أنّني قادرة على تجاوز أيّ تحدٍّ بنجاح. مهما كانت الصعوبات التي واجهتها كتلميذة آتية من مدرسةٍ ثانويّة في أحد أحياء شيكاغو، وجدتُ نفسي قادرة على تخطّيها بتخصيص المزيد من الوقت، وطلب المساعدة عند الحاجة، وضبط إيقاعي وتجنّب المماطلة.

ومع ذلك، كان من المستحيل عليّ كطالبة سوداء في جامعة ذات أكثريّة بيضاء ألّا أشعر بوطأة «التمييز الإيجابيّ». كان في إمكانك ملاحظة النظرات المتفحّصة لبعض الطلّاب، وحتّى بعض الأساتذة، كأنّهم أرادوا القول: «نعرف لما أنتِ هنا». كان يمكن أن تكون تلك اللحظات مُحبِطة، حتّى لو أنّي كنت أتخيّل بعضها. لكنّها زرعَت في رأسي بذرة شكّ. هل أنا هنا جزء من تجربةٍ اجتماعيّة فحسب؟

مع ذلك، بدأت أفهم تدرّجًا وجود صيغٍ عدّة لنسب القبول المُعتَمَدة في الجامعة. كنّا، كأبناء أقلّيات، الأكثر بروزًا، ولكن بدا واضحًا وجود إجراءات خاصّة لتسهيل قبول طلّاب تقلّ علاماتهم أو مؤهّلاتهم عن المعايير المعتمَدة. لم يستند الاختيار دائمًا إلى الكفاءة المحض. كان هناك الرياضيّون مثلًا، وطلّاب كان آباؤهم أو أجدادهم من «نمور» برِنستون أو عائلتهم ممّن موّلوا تشييد

مبنى جامعيّ أو مبنى منامة أو مكتبة. فهمتُ أيضًا أن الثراء لا يحمي من الفشل، فقد رأيتُ طلبة حولي يفشلون فشلًا ذريعًا، من البيض كانوا أو من السود، من الأثرياء أو غيرهم. منهم من أغرته حفلات شرب الخمر، ومنهم من وضع نصب عينيه مثالًا يحتذى فحطّمه التوتّر، ومنهم من كان كسولًا ببساطة أو لم يجد نفسه في المكان المناسب فاختار الهروب. كانت مهمّتي، كما رأيتها، أن أصمد وأنال أفضل العلامات الممكنة وأن أجتاز هذه المرحلة بنجاح.

خلال سنة الـ sophomore، عندما انتقلتُ برفقة سوزان للسكن في غرفة لشخصين، كنت قد وجدتُ طريقةً لأحكم سيطرتي على الوضع. كنت قد اعتدت آنذاك على أنّني من بين قلّةٍ من الملوّنين في قاعة محاضرات مكتظّة، وحاولتُ ألّا أشعر بالرهبة عندما يسيطر الذكور على النقاشات كما يفعلون دائمًا. مجرّد الإصغاء إليهم، أدركتُ أنّهم ما كانوا يفوقوننا ذكاءً على الإطلاق، بل كانوا ببساطة يتحلّون بالجرأة، ويميلون إلى الاستعلاء، مستندين إلى أن التاريخ لم يروِ خلاف ذلك.

كان رفاق لي يشعرون بالاختلاف أكثر ممّا فعلت. فصديقي ديريك يتذكّر كيف كان الطلّاب البيض يرفضون إفساح المجال له على الرصيف. فتاة أخرى كنّا نعرفها استقبلت ستّة أصدقاء في غرفتها، للاحتفال بعيد ميلادها، فاستُدعِيَت على الفور إلى مكتب العميد، حيث قيل لها أنّ زميلتها البيضاء شعرت بالانزعاج من وجود شُبّان سود في الغرفة. أظنّ أنّه نظرًا إلى عددنا القليل جدًّا، نحن أبناء الأقلّيّات في برِنستون، كان الجميع يتنبّه لوجودنا. واعتبرت ذلك أمرًا ملزمًا لي لأتفوّق في أدائي، ولأقوم بكلّ ما في وسعي لمواكبة الطلّاب الذين يتمتّعون بامتيازات أكبر أو حتّى التفوّق عليهم. وعلى غرار ما حصل في Whitney Young، كان اندفاعي جليًّا كأنّني أقول «سوف أريكم». وفي حين شعرتُ في Whitney Young بأنّني أمثِّلُ حيّي، فقد شعرتُ الآن في برِنستون بأنّني أمثِّلُ عِرقي. وفي كلّ مرّة وجدتُ سبيلًا للتعبير عن رأيي داخل الصفّ، أو اجتزتُ امتحانًا بتفوّق، كنت آمل بأن يساهم ذلك

في تحقيق هدفي.

تبيَّن لي مع الوقت أنّ سوزان لا تسرف وقتًا في التفكير، لذا أطلقتُ عليها لقب Screwzy، بسبب الاعتباطيّة والعفويّة اللتين تسيّر بهما أمورها. كانت تستند في معظم قراراتها – مثل من تُواعد من الشباب، وأيّ من الصفوف ستتابع – إلى حجم التسلية التي قد تنعم بها. وعندما لم تكن الأمور مسلّية، كانت تُغيّر وجهتها بسرعة. وفيما انضممتُ إلى «منظّمة وحدة السود»، وبقيتُ بشكل عامّ على ارتباط وثيق بمركز TWC، راحت سوزان تمارس هواية العدو السريع، وتدير فريق الفوتبول للوزن الخفيف، مستمتعةً بوجودها بين شبّانٍ رياضيّين ووسيمين. ومن خلال أحد نوادي الطّعام، كوّنت صداقات مع طلّاب بيض وأثرياء، من بينهم مراهقٌ كان نجمًا سينمائيًّا حقيقيًّا، وطالبة أوروبّيّة أُشيع أنّها أميرة. مارس والدها بعض الضغط عليها لمتابعة دراسة الطبّ، لكنّها تخلّت عن ذلك أخيرًا بعدما وجدت أنّ الأمر يُفسد بهجتها. وفي وقتٍ من الأوقات، كان وضعها الأكاديمي حسّاسًا، لكن حتّى ذلك لم يُزعجها كثيرًا. كانت غرفتنا أشبه بساحة معركة: تقبع سوزان إلى جانب ثيابها المبعثرة وأوراقها المتناثرة، فيما أجلس أنا على سريري محافظة على الترتيب بصرامة.

«هل عليكِ فعل ذلك حقًّا؟»، كنت أقول لسوزان وأنا أشاهدها عائدة من مضمار الرّكض، متوجّهةً إلى الحمّام وهي تلقي بثيابها المتعرّقة على الأرض، حيث ستبقى مدّة أسبوع مختلطةً بالثياب النظيفة والفروض الدراسيّة غير المنجزة.

«أفعل ماذا؟»، كانت تردّ عليّ بابتسامتها العريضة.

ترتَّب عليّ أحيانًا أن أتجاهل فوضى سوزان لأتمكّن من التّفكير بشكلٍ سويّ. ورغبتُ أحيانًا في أن أصرخ بها، لكنّي لم أفعل ذلك قطّ. هكذا كانت سوزان. ولن تتغيّر. وعندما كنتُ أضيق ذرعًا، كنتُ أحمل كومة أغراضها المبعثرة وأضعها على سريرها بلا تعليق.

أرى الآن أن سوزان استفزّتني بشكلٍ إيجابيّ، إذ جعلتني أتقبّل فكرة عدم حاجة البعض للاحتفاظ بملفّاتٍ معنونة ومنظّمة حسب الترتيب الأبجديّ، وربّما عدم حاجتهم إلى ملفّاتٍ أصلًا. وبعد

سنوات، سوف أقع في حبّ رجلٍ يرصف أغراضه في أكوام ولا يهتمّ مطلقًا بطيّ ثيابه، تمامًا كما كانت تفعل سوزان، غير أنّي استطعت التعايش مع ذلك بفضلها. وما زلت أعيش مع ذلك الرجل نفسه حتّى اليوم. هذا ما يتعلّمه الراغبون دائمًا في التحكّم بسير الأمور، أمثالي، داخل العالم المغاير المصغَّر في الجامعة: ثمّة طرائق أخرى للعيش.

«هل سبق لكِ...»، سألتني تشيرني ذات يوم «أن فكّرتِ يومًا بإطلاق برنامج صغير للعناية بالأطفال بعد أوقات الدراسة؟».

لقد سألتني من باب التعاطف، في ما أظنّ. فمع الوقت، ازداد تعلّقي بابنها جوناثان، الذي كان في المدرسة الابتدائيّة آنذاك، إلى درجة أنّني كنت أمضي معه معظم فترات بعد الظهر نتنزّه في أرجاء برِنستون، أو في مركز TWC حيث كنّا نعزف سويًّا على البيانو الرديء، أو نقرأ مستلقيَين على الكنبة العتيقة. كانت تشيرني تدفع لي أجرًا مقابل مجالسة جوناثان، لكنّها على الأرجح عرفت أنّه لم يكن كافيًا.

«أنا جادّة»، قالت، «ثمّة أساتذة كثيرون يبحثون عن جليسة للأطفال بعد المدرسة. يمكنك إدارة المشروع من المركز. لمَ لا تجرّبين؟».

بفضل الدعاية الشفهيّة التي أجرتها تشيرني، لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن أكلَّف العناية بمجموعةٍ من ثلاثة أو أربعة أطفال، كانوا جميعًا أبناء إداريّين أو أساتذة سود في برِنستون – وهم أيضًا أقلّيّة ظاهرة في الجامعة ويندفعون مثلنا إلى مركز TWC. كنت أمضي مع الأطفال ساعاتِ بعد الظهر، مرّات عدّة في الأسبوع، بعد عودتهم من المدرسة الرسميّة، فأُطعمهم وجبات صحيّة، وألعبُ معهم على العشب. وإن كانت لديهم فروض مدرسيّة، كنّا ننجزها معًا.

كانت الساعات تمضي كلمح البصر. وقد كان للوقت الذي أمضيه مع الأطفال تأثير كبير في تهدئة التوتّر الناتج من ساعات الدراسة الجامعيّة، كما أجبرني على تخطّي همومي لعيش اللحظة. في صغري، أمضيتُ أيّامًا كاملة وأنا ألعب دور الأمّ مع الدُّمى، فأُلبسها

وأطعمها وأسرّح شعرها وأضع الضمّادات على ركبها البلاستيك. وها أنا الآن أفعل ذلك في الواقع، وأجد الأمر كلّه أكثر تعقيدًا، لكنّه مُرْضٍ كما تخيّلته. كنت أعود إلى غرفتي، بعد وقت طويل مع الأطفال، منهكة إنّما سعيدة.

مرّة في الأسبوع تقريبًا، عندما تسنح لي الفرصة، كنت أرفع سمّاعة الهاتف وأطلب رقم شقّتنا في جادّة يوكليد. إن كان أبي قد قصد عمله في الصباح الباكر، كنت أجده في البيت بعد الظهر وأتخيّله متمدّدًا في غرفة الجلوس، رافعًا ساقيه، ويشاهد التلفزيون بانتظار عودة أمّي من العمل. أمّا في المساء، فكانت أمّي من يردّ عادةً على الهاتف. كنت أروي يوميّات حياتي الجامعيّة بأدقّ تفاصيلها، بدءًا من استيائي من أستاذ اللّغة الفرنسيّة، مرورًا بألاعيب الأطفال في برنامج الرعاية، وصولًا إلى افتتاننا أنا وسوزان بطالب الهندسة الأفريقيّ الأميركيّ، ذي العينين الخضراوين والنظرات الساحرة، الذي لم يلحظ وجودنا حتّى، رغم إصرارنا على تتبّع كلّ حركة من حركاته.

كان أبي يضحك لدى سماع قصصي، ويقول: «أهذا صحيح؟ يا للعجب! لعلّ ذلك المهندس لا يستحقّ أيًّا منكما أصلًا!».

بعد الانتهاء من الاستماع إليّ، كان أبي يسرد لي أخبار الحيّ. داندي وجدّتي عادا إلى بيت داندي في جورجتاون، في كارولاينا الجنوبيّة، وجدّتي، بحسب قوله، كانت تشعر بالوحدة بعض الشيء. كان يخبرني كيف تعمل أمّي جاهدة للاعتناء بروبي التي أصبحَت أرملةً في السبعين من العمر وتعاني من مشكلات صحّيّة كثيرة. لم يذكر أبي قطّ صراعه الخاصّ مع المرض، مع أنّي كنتُ أعلم بوجوده. وذات يوم سبت، اشترك كريغ بمباراة لكرة السلّة، فحضر والداي بالسيّارة إلى برنستون. رأيت يومذاك التغيّر الحاصل في وضعهما – رأيت ما لم يُذكَر قطّ عبر الهاتف. بعدما دخلت السيّارة الموقف الفسيح خارج قاعة Jadwin Gym، دسّ أبي نفسه على مضض في كرسيّ متحرّك، وراحت أمّي تدفعه نحو الداخل.

كدتُ أرفض رؤية ما كان يحدث لأبي. لم أستطع تحمّل ذلك.

كنت قد أجريتُ بعض الأبحاث حول داء التصلّب المتعدّد في مكتبة برِنستون، وصوّرتُ بعض المقالات من مجلّاتٍ طبّية أرسلتها إلى أهلي. أصررت عليهما لاستشارة مختصّ، أو إجراء تمارين العلاج الفيزيائيّ لكنّهما – خصوصًا أبي – رفضا الاستماع لأيٍّ من ذلك. وخلال الساعات الطويلة التي أمضيتها معه عبر الهاتف وأنا في الجامعة، كانت صحّته هي الموضوع الوحيد الذي لم يتطرّق إليه البتّة.

وعندما كنتُ أسأله عن حاله، كان يكتفي بالقول: «أنا بخير».

كنتُ أدع صوته يبثّ فيّ الطمأنينة، صوته الذي خلت نبرته من أيّ إيحاء بالألم أو بالشفقة على النفس، بل كان محمّلًا بالدعابات والرقّة، وبنفحةٍ من الجاز. اعتدتُ سماع صوته وتمسّكت بذلك. قبل إقفال الخطّ، كان دائمًا يسألني عمّا إذا كنت أحتاج شيئًا – كالمال مثلًا – لكنّي لم أُجب يومًا بكلمة نعم.

7

مع مرور الوقت، تزايد لديّ الشعور بأنّ المنزل بات شيئًا من الماضي، كأنّه قابع في مخيّلتي وحسب. وكنت بعد دخولي الجامعة، قد احتفظتُ بصداقات عدد قليل من زملائي في الثانويّة، خصوصًا سانتيتا التي انتسبت إلى جامعة Howard في واشنطن دي سي. زرتها هناك وأمضينا نهاية أسبوع نضحك ونخوض النقاشات العميقة كما كانت العادة بيننا. كان حرم جامعة Howard في المدينة – حين مرّ جرذ ضخم بقرب غرفتها مسرعًا، مازحتها قائلة: «أنت لم تغادري حيّ السود!» – وكان طلّابها البالغ عددهم ضعفي عدد طلاب برِنستون بأكثريتهم الساحقة من السّود. حسدت سانتيتا لأنها لَا تشعر بالانعزال بسبب انتمائها العرقيّ – فلا تعاني من الاستنزاف اليومي الناتج من كونها جزءًا من أقلّية ضئيلة – ومع ذلك، سررت بالعودة إلى برِنستون بحدائقها الخضر وقناطرها الحجر، حتّى لو أنّ قلّة فحسب من طلّابها كانت تشاطرني خلفيّتي العرقيّة والاجتماعيّة.

كنت أتخصّص في علم الاجتماع وأحقّق نتائج جيّدة. بدأت أواعد لاعب كرة قدم ذكيًّا وعفويًّا ويحبّ المرح. انضمّت للسكن معنا، سوزان وأنا، فتاة نحيلة وتتحدّث بسرعة فائقة، هي أنجيلا كينيدي من واشنطن دي سي. كانت أنجيلا تتمتّع بروح مرحة، وسرعة بديهة، وظرافة نادرة تثير ضحكنا. وعلى رغم من أنّها واحدة من بنات المدن السوداوات، فقد كانت، بكنزاتها الزهر

وأحذيتها الجلد، تبدو جامعيّة ثريّة في غاية الأناقة.

كنت آتي من بيئة معيّنة، ووجدت نفسي أعيش في بيئة مختلفة تمامًا. بيئة يهتمّ فيها الناس بنتائج اختبار الدخول إلى كلّية الحقوق، وبأدائهم في مباريات السكواش. وقد سبّب لي ذلك توتّرًا لم يفارقني أبدًا. وحين كانوا يسألونني في الجامعة من أين أنا، كنت أجيب: «من شيكاغو»، موضحةً أنني لست من أبناء الضواحي الشماليّة الثرية، مثل Evanston أو Winnetka، الذين يزعمون أنّهم من شيكاغو، مضيفةً بقليل من الفخر، أو لعلّه التحدّي: «من الجانب الجنوبيّ». أدركت تمامًا أنّ تلك الكلمات قد تعكس على الأرجح الصورة النمطيّة لغيتو أسود، لما كانت تنقله وسائل الإعلام من أخبار عن معارك العصابات وحوادث العنف في الأحياء الفقيرة. لكنّي كنت أُحاول، وربما من دون أن أعي ذلك، أن أمثّل البديل عن تلك الصورة. كنتُ كغيري أنتمي إلى برِنستون، لكنّني كنت أيضًا أنتمي إلى الجانب الجنوبيّ لمدينة شيكاغو. وكان مهمًّا أن أقول ذلك على الملإ.

مثَّل الجانب الجنوبيّ لمدينة شيكاغو بالنّسبة إليّ شيئًا مختلفًا بالكامل عمّا تعرضه شاشات التلفزيون. تلك المنطقة كانت دياري. وأعني بدياري شقّتنا في جادّة يوكليد، بسجّادتها الباهتة وسقفها المنخفض، حيث يجلس أبي مسترخيًا في كرسيّه المريح. كما أعني بها باحتنا الصغيرة، وأزهار روبي المتفتّحة، والمقعد الحجر حيث قبَّلتُ ذلك الفتى رونيل، منذ ما يبدو لي الآن زمنًا سحيقًا. دياري كانت ماضيّ الذي لا تربطه بواقعي الحالي إلّا خيوط واهية جدًّا.

كانت نسيبة لنا تقيم في برِنستون، وهي أخت داندي الصغرى، عرفناها باسم العمّة سيس. كانت امرأة بسيطة وذكية تعيش في بيت بسيط عند طرف المدينة. لا أعلم ما الذي أتى بالعمّة سيس إلى برِنستون في الأصل، لكنها أمضت سنين طويلة في خدمة عائلات برِنستون، من دون أن تفقد لكنة جورجتاون التي تتأرجح بين تشدُّق ألفاظ أبناء Low Country وموسيقى الـ Gullah المرحة. وعلى غرار داندي، نشأت العمّة سيس في

جورجتاون، التي أتذكّرها لأنّني زرتها أثناء طفولتي بضع مرّات مع والديّ خلال إجازات الصيف. أتذكّر حرّ تلك المدينة، والطّحالب السّميكة الخضر التي تكسو أشجار السنديان والسّرو المرتفعة وسط المستنقعات، ومشهد الرجال المسنّين يصطادون السمك في الجداول الموحلة. كانت جورجتاون ملأى بأعداد مخيفة من الحشرات التي تطنّ وتحوّم في هواء المساء كمروحيّات صغيرة.

أثناء تلك الزّيارات، كنّا نقيم في بيت عمّ أبي توماس، شقيق داندي، وهو مدير مدرسة ثانويّة في غاية اللطف. كان يصطحبني إلى مدرسته ويسمح لي بالجلوس إلى مكتبه، ويقدّم لي زبدة الفستق على الرغم من وجود فطور عامر كانت تعدّه زوجته العمّة دوت كلّ صباح، ويتألف من اللحم المقدد والبسكويت والذرة. كنت أحبّ الذهاب إلى الجنوب وأكرهه في آن واحد، بسبب اختلافه الكبير عن كلّ ما عرفت. في الطريق إلى جورجتاون، كنا نمرّ أمام مزارع العبيد القديمة التي باتت أمرًا مسلّمًا به لم يعد يثير النقاش. وذات مرّة، سلكنا دربًا ترابًا عبر غابة لنأكل لحم غزال في كوخٍ ريفيٍّ متداعٍ يعود إلى أنسباء آخرين. وهناك، اصطحب أحدهم كريغ إلى قلب الغابة وعلّمه إطلاق النّار من مسدّس. وبعد عودتنا إلى منزل العمّ توماس، وجدت وكريغ صعوبة في النّوم ليلًا بسبب الصّمت المطبق الذي لا تقاطعه سوى أصوات الزّيزان المنتشرة على الأشجار.

لم تفارقنا صرصرة تلك الحشرات ولا صور أغصان أشجار السنديان المتلوية، حتى بعد وقتٍ طويل من عودتنا إلى الشمال، وظلّت تنبض في داخلينا كقلب ثانٍ. أدركت بشكل فطريّ، على رغم صغر سنّي، أن الجنوب منسوج في داخلي وجزء من تراثي، وكانت له مكانة خاصّة لدى أبي، بحيث دأب على زيارة أنسبائه هناك. كان ذلك الشعور قويًّا إلى درجة أنّ داندي أراد في شيخوخته العودة إلى جورجتاون، على رغم أنّه اضطرّ إلى الهرب منها في شبابه. وعندما عاد أخيرًا إلى الجنوب، لم يسكن كوخًا صغيرًا ساحرًا بجانب النهر، محاطًا بسياجٍ أبيض وحديقة جميلة، بل أقام في بيت عاديّ جدًّا قرب مركز تسوّقٍ مزدحم، كما تبيّن

لي لاحقًا حين زرته أنا وكريغ.

ليس الجنوب جنّة، لكنّه كان يعني لنا الكثير. تاريخنا مزيج من التناقضات، إنّه شعور بالإلفة قابع فوق إرثٍ أكثر عمقًا وبشاعة. كان كثيرون ممّن عرفتهم في شيكاغو، وأعني زملائي في Bryn Mawr وأصدقاء عدّة في Whitney Young، قد عرفوا ما يشابه هذا الشعور، إلّا أنّنا لم نبادر يومًا إلى مناقشته بوضوح. كان أولئك الأولاد يذهبون في بداية كلّ صيف إلى الجنوب، وأحيانًا لتمضية الفصل بأكمله للعب مع أقرباء لهم من الدرجة الثانية في جورجيا أو لويزيانا أو ميسيسيبي. من المرجَّح أنّه كان لهم أجداد أو أقارب آخرون انضمّوا إلى «الهجرة الكبرى» نحو الشمال، تمامًا كما فعل داندي من كارولاينا الجنوبيّة، وكما رحلت والدة ساوث سايد من ألاباما. كما أنّ هناك احتمالًا كبيرًا بأنّهم مثلي قد تحدّروا من عبيد.

الأمر نفسه كان صحيحًا بالنّسبة إلى كثيرين من أصدقائي في برنستون، لكنّني بدأتُ أدرك أيضًا أنّ للسود في أميركا أصولًا أخرى. فقد التقيت شبّانًا وشابّات من مدن السّاحل الشرقيّ تعود جذورهم إلى بورتوريكو أو كوبا أو الدومينيكان. أقارب تشيرني أتوا من هايتي، كما أنّ أحد أصدقائي المقرّبين، ديفيد ماينارد، وُلد لعائلة ثريّة من جزر البهاما. وهناك أيضًا، سوزان التي تحمل وثيقة ولادة نيجيريّة، فيما نسيباتها الحبيبات يعشن في جامايكا. كان الاختلاف بيننا كبيرًا، وجذورنا العائليّة شبه مدفونة أو ربّما شبه منسيّة. كما لم نكن نتحدّث عن أجدادنا. ولمَ نفعل ذلك؟ كنّا شبانًا وشابّات نركّز على المستقبل فحسب. وبالطّبع، لم نعلم شيئًا عمّا يخبّئه لنا ذلك المستقبل.

اعتادت العمّة سيس أن تدعونا أنا وكريغ، مرّة أو مرّتين في السنة إلى العشاء في بيتها الذي يقع في الجانب الآخر من برنستون. حينذاك، كانت تملأ صحنينا بضلوع اللّحم السمينة والخضر السّاخنة، وتقدّم لنا سلّة من خبز الذرة المقطّع مربّعات صغيرة متساوية، ندهنها بالزبدة. وكانت تملأ قدحينا بشايٍ شديد الحلاوة، وتلحّ علينا لملء صحنينا مرّة ثانية وثالثة. لا أتذكّر أنّنا ناقشنا مع العمّة سيس مواضيع مهمّة مطلقًا، ولا تطرّقنا خلال

زياراتنا التي كانت تدوم ساعة تقريبًا إلى ما يتجاوز المجاملات البسيطة والثرثرة العاديّة التي تصاحب الوجبات الشهيّة والساخنة من طعام كارولاينا الجنوبيّة. وكنّا ولشدة سأمنا من الطّعام الجاهز في الجامعة نلتهم تلك الوجبات بكثير من الامتنان. اعتبرتُ العمّة سيس امرأة مسنّة لطيفة المعشر فحسب، لكنّها في الواقع كانت تقدّم لنا هديّةً لم نكن ناضجين بما يكفي لنقدّر قيمتها آنذاك. فهي كانت تزرع فينا بذور الماضي – ماضينا، وماضيها، وماضي والدنا وجدنا – من غير حاجة إلى التعليق على أيّ ناحية منه، ولو مرّة واحدة. كنّا نأكل، ونساعدها في تنظيف الصّحون، ثمّ نمشي عائدَين إلى الجامعة، نحمد الله على فرصة السير لنتخلّص من الشعور بالتخمة.

سأروي الآن ذكرى، وهي كمعظم الذكريات منقوصة، وذاتيّة، ومحفوظة منذ مدّة طويلة كحصاة شاطئ منسيّة في جيب ذاكرتي. تعود هذه الذكرى إلى سنتي الثانية في الجامعة وتتعلّق بصديقي كيفن، لاعب كرة القدم.

كيفن، وهو من أوهايو، يجمع بين طول القامة والرقّة والخشونة. كان لاعب خطّ دفاع في فريق Tigers، تميّز بالسرعة والجرأة، وكان يتابع في الوقت ذاته دراساته التحضيريّة استعدادًا لدخول كليّة الطبّ. كان يسبقني بسنتين، مثله مثل كريغ، وكان على وشك التخرّج. كان كيفن يجعلني أشعر بأنّني مميَّزة، وعلى رغم انشغالاتنا الكثيرة وأصدقائنا المختلفين، كنّا نسعى لتمضية الوقت معًا، فنطلب البيتزا ونخرج لتناول الطّعام في عطلة الأسبوع. كان كيفن يستمتع بكلّ وجبة، فهو من جهة يحتاج إلى المحافظة على وزنه للعب كرة القدم، ومن الجهة الثانية يجد صعوبة في أن يجلس من دون فعل شيء. فقد كان متململًا، دائم التململ، ومتهوّرًا بطريقة أجدها ساحرة جدًّا.

«هيّا بنا نتنزّه بالسيّارة»، قال لي كيفن ذات يوم. نسيت ما إذا قال ذلك عبر الهاتف أو بعد ما تقابلنا. في أيّ حال، وجدنا نفسينا في سيّارته الصغيرة الحمراء نعبر الحرم الجامعيّ في اتّجاه ناحية بعيدة ومهمَلة من برِنستون، ثمّ سلكنا طريقًا ترابيًّا شبه مخفيّ.

كان الرّبيع قد حلّ في نيوجيرسي والسّماء صافية والجوّ دافئًا.

هل كنّا نتحادث؟ أم يمسك كلّ منّا بيد الآخر؟ لا أتذكّر. لكنّني كنت أشعر بالارتياح وعذوبة الحياة. بعد دقيقة، داس كيفن المكابح فتوقّفت بنا السيّارة في محاذاة حقلٍ واسع خلّف فيه الشتاء أعشابًا عالية ومبعثرة كالقشّ، وظهرت بينها أزهار بريّة تفتّحت باكرًا. ثمّ ترجّل كيفن وأشار إليّ بيده للّحاق به، قائلًا:

– هيّا بنا.

– ماذا سنفعل؟

نظر إليّ باستغراب، كأنّ الجواب بدهيّ، وقال:

– سنركض في الحقل.

وقد فعلنا ذلك. اجتزنا الحقل راكضين بسرعة، نلوّح بأيدينا كالأطفال، ونمزّق الصّمت بصيحات المرح، ونندفع وسط الأعشاب الجافّة ونقفز فوق الأزهار. ربّما لم يتّضح لي الأمر وقتذاك، لكنّني أجده الآن بدهيًّا. كان علينا أن نركض في ذاك الحقل! طبعًا!

عدنا إلى السيّارة وارتمينا فيها لاهثين، مذهولين، ومنتشيين بسخافة ما قمنا به.

هذا كلّ شيء. لم تكن سوى لحظة صغيرة، وغير مهمّة. لكنّها لازمتني ليس لسببٍ إلّا لسخافتها، ولأنّها انتزعَتني من مشروعي الجدّيّ الذي يتحكّم في أيّامي. كنت طالبة اجتماعيّة أشارك الآخرين أوقاتهم وطعامهم، ولا أتردّد في محاولة خطف الأضواء على حلبة الرّقص في حفلات Third World Center، ومع ذلك، لا أكاد أختلي بنفسي حتى أعود إلى التركيز بقوّة على مشروعي. فخلف صورة الطالبة الجامعيّة اللامباليّة، عشتُ كأنّي مدير تنفيذي لمشروعي أركّز بصمت، ولكن من دون هوادة على تحقيق الإنجازات، ملاحِقةً كلّ تفصيل. كانت لائحة مهمّاتي اليوميّة تلازمني حيثما أذهب. وكنت أقيّم أهدافي، وأحلّل نتائجي، وأعدّد نجاحاتي، ولا أتردّد في مجابهة أيّ عائق والتغلّب عليه. كان كلّ نجاح أحقّقه يقودني إلى آخر. تلك كانت حياة فتاةٍ لم تستطع التّوقّف عن التّساؤل، هل أنا قادرة؟ ولا تزال تُحاول البحث عن الجواب.

كان كيفن في تلك الأثناء على وشك تغيير مسار حياته – وكان يستمتع بتلك الفكرة. تخرّج وشقيقي في برِنستون في نهاية سنتي الثانية. وفيما انتقل كريغ إلى مانشيستر، في إنكلترا، ليصبح لاعب كرة سلّة محترفًا، ظننت أن كيفن سيدخل كلّيّة الطبّ، لكنه قرّر أن يترك الدّراسة ويصبح تميمة رياضيّة.

نعم، هذا صحيح. قرر كيفن الخضوع لتجربة أداء في فريق Cleveland Browns – لا كلاعبٍ، ولكن كمتنافس يسعى إلى الفوز بوظيفة دمية على شكل حيوانٍ واسع العينين، يفتح فمه، ويدعى Chomps. كان ذلك ما أراده، وهو حلم بالنسبة إليه، وحقلٌ آخر للرّكض فيه، لأنّه ما المانع في ذلك؟

حتّى أنّ كيفن غادر منزل أهله خارج كليفلاند ذلك الصيف قاصدًا شيكاغو بحجّة زيارتي. لكنّ السبب الحقيقيّ كان، وكما أعلَن بعد وصوله بقليل، أن شيكاغو هي المدينة الأنسب حيث يمكن طامحًا إلى وظيفة تميمة رياضيّة أن يجد الزيّ الملائم، والشبيه بفرو حيوان، لخوض تجربة الأداء المقبلة. أمضينا فترة بعد ظهرٍ كاملة نتنقّل بين المتاجر، ونعاين الأزياء معًا، لنرى ما إذا كان حجمها يسمح له بالقيام بحركات الشّقلبة المطلوبة. لا أتذكر ما إذا كان كيفن قد وجد فعلًا الزيّ المثاليّ يومذاك. ولستُ متأكّدة ممّا إذا نال وظيفة التميمة، إلّا أنّه أصبح في النهاية طبيبًا بارعًا، وتزوّج بإحدى زميلات صفنا في برِنستون.

أعتقد اليوم أنّني ظلمت كيفن في حكمي، بسبب تغييره مسار حياته آنذاك. لم أستطع أن أفهم لماذا قد ينتسب شخص ما إلى جامعة باهظة مثل برِنستون، ولا يستفيد بسرعة من فرصة النجاح والبروز التي تضمنها له شهادة تلك الجامعة. لماذا، عندما تستطيع أن تدخل كلّيّة الطبّ، تختار أن تكون كلبًا يتشقلب؟

لكن هذه أنا. فكما قلت، كنتُ ألاحق التفاصيل كلّها، مصرّة على أن أترجم كلّ جهد أبذله إلى نتيجة ملموسة، ولا أحيد قيد أنملة عن الطريق المرسوم، أقلّه لأنّني كنت أوّل فرد في عائلتي (باستثناء كريغ) يسلك ذلك الطريق. لم يكن عليّ تخيّل ما سيكون عليه مستقبلي، بما أنّ فكرة الانتساب إلى كلّيّة

الحقوق بدأت تراودني.

علّمتني – أو ربّما أرغمتني – الحياة في جادّة يوكليد أن أكون صارمة وعمليّة في ما يتعلّق بالوقت والمال. ولعلّ التغيير الأكبر الذي قمت به في مساري اقتصر على تمضية بداية الصيف الذي تلا سنتي الثانية في الجامعة، بالعمل – من دون مقابل تقريبًا – في مخيّم في وادي هدسون، نيويورك، للاهتمام بأولاد من أبناء المدينة الذين يتعلّمون العيش المرّة الأولى وسط الغابات. أحببت تلك الوظيفة، لكنّني خرجت منها شبه مفلسة، وأكثر اتّكالًا على والديّ ماديًّا ممّا كنت أرغب فيه. ومع أنّهما لم يتذمّرا قطّ، إلّا أنّني شعرت بالذنب طيلة سنوات.

في ذلك الصيف أيضًا، بدأ النّاس الذين أحببتهم يموتون. توفّيت روبي، عمّة أمّي وأستاذتي الصّارمة في عزف البيانو في حزيران/يونيو، وأورثَت والديّ بيتها في شارع يوكليد، ما جعلهما مالكَين المرّة الأولى في حياتهما. بعد ذلك بشهر واحد، توفّي ساوث سايد، بعدما بلغ سرطان الرئتين الذي أصابه مرحلة متقدّمة، وحال إصراره على عدم كفاءة الأطبّاء دون التدخّل لإنقاذه في الوقت المناسب. بعد جنازة ساوث سايد، تجمّع أفراد عائلة أمّي الكثر وعدد من الأصدقاء والأقارب في بيته الصغير. شعرتُ بدفء الماضي، وكآبة الغياب، وبشيء من الاضطراب بعدما اعتدت في برِنستون عالمًا منغلقًا وفَتيًّا. كان ذلك الشعور أعمق ممّا يساورني عادة في الجامعة، أي التحوّل البطيء في حياة الأجيال. اكتشفت أنّ أنسبائي الصغار أصبحوا أشخاصًا بالغين، وهرمت خالاتي، ووُلد أطفال جدد، وصاهر العائلة أزواج جدد. صدحت موسيقى الجاز من مكبّرات الصوت في غرفة الطعام، وتناولنا وجبة أعدّها الأحبّاء وجاؤوا بها، مكوّنة من اللحم المشويّ والمأكولات الساخنة وحلوى الهلام. لكن ساوث سايد نفسه قد رحل. كان ذلك مؤلمًا، إلّا أنّ الوقت مضى بنا قُدُمًا.

في ربيع كلّ عام، كان مسؤولو التوظيف في الشركات يأتون إلى برِنستون باحثين عن طلّاب على وشك التخرّج. فكنت ترى مثلًا، زميلًا (أو زميلة) ممّن اعتادوا ارتداء سراويل من الجينز

مهلهلة وقمصانًا غير مرتّبة، يعبرون الحرم الجامعيّ في بزّات مقلّمة فتُدرك أنه قُدِّر لهم، أو لهنّ، العمل في إحدى ناطحات السحاب في مانهاتن. هذا الفرز المهنيّ حدث بسرعة، فكان مصرفيّو الغد، والمحامون، والأطبّاء، والمديرون التنفيذيّون يرحلون بلمح البصر إلى وجهتهم التالية، أي إلى معهد الدراسات العليا أو برنامج تدريبٍ وظيفيّ مريح في إحدى الشركات الكبرى التي تظهر في لائحة Fortune 500. لا شكّ في أنّ ثمّة آخرين بيننا تابعوا الاختصاصات التي تستهويهم في حقول التربية أو الفنون أو العمل غير الربحيّ، أو التحقوا ببعثات Peace Corps، أو بالجيش، لكنّني لم أعرف إلّا قلّة منهم. فقد انهمكت بصعود سلّم حياتي، ذلك السلّم الصلب والعمليّ والمتّجه دائمًا إلى الأعلى.

لو أنّني توقّفتُ للتّفكير في الأمر، لربّما أدركت أنّ الجامعة أنهكتني، بما فيها من المحاضرات والدراسات والامتحانات، وأنّ القيام بأمر مختلف ربّما كان أكثر فائدة لي. لكنّني وبدلًا من ذلك، تقدّمتُ لامتحان الدخول إلى كلّيّة الحقوق، وأعددت أطروحتي للتخرّج، وهممت بصعود الدّرجة التالية من السلّم كما يُفترض بي أن أفعل، فتقدّمتُ بطلبات للانتساب إلى أفضل كلّيّات الحقوق في البلاد. رأيتُ نفسي ذكيّة وطموحًا وذات قدرة على التحليل. كما نشأتُ على خوض نقاشات صاخبة إلى مائدة العشاء مع والديّ، فكان في استطاعتي مناقشة أيّ مسألة والوصول في تحليلها إلى جوهرها، وافتخرتُ بقدرتي على عدم الانهزام مطلقًا في أيّ نزاع. أليست تلك هي الطينة التي يُجبل منها المحامون؟ هذا ما ظننتُه.

أستطيع الاعتراف الآن بأنّ دافعي لم يكن المنطق وحده، بل الرغبة في نيل رضا الآخرين. ففي طفولتي كنت أستمتع بصمت، بالتقدير الذي أشعر به كلّ مرّة أقول لأستاذٍ أو جارٍ أو صديقٍ في جوقة الكنيسة التي تديرها روبي، أنّني أريد أن أصبح طبيبة أطفال. «طبيبة! خيار ممتاز!». كانت تعابيرهم تشي بذلك، وهو ما كان يُسعدني. بعد سنوات، ظلّ الأمر على حاله. فالأساتذة والأقارب والناس الذين كنت ألتقيهم مصادفة كانوا يسألونني عن

خطوتي المقبلة، وعندما كنت أذكر عزمي على دخول كلّيّة الحقوق – كلّيّة هارفرد للحقوق كما تبيّن لاحقًا – كانوا يقابلونني بفيض من الثناء. مجرّد دخولي الكلّيّة جعلني محطّ إعجاب، مع أنّ الحقيقة هي أنّني تأهّلتُ بأعجوبة بعدما كنت على لائحة الانتظار. لكنّني دخلت الكلّيّة. ونظر الناس إليّ كأنّني تركتُ بصماتي في العالم.

لعلّ هذه هي المشكلة الأساسيّة في الاهتمام البالغ بما يظنّه الآخرون: فهو يضعكِ على الطّريق المرسوم – أي ما سبق لي نعته بالخيار الممتاز – ويُلزمكِ به وقتًا طويلًا. ولعلّه يمنعكِ من تغيير مسار حياتك أو حتّى مجرّد التّفكير في ذلك، لأنّ ما ستغامرين بخسارته من تقدير الآخرين يبدو مُكلفًا جدًّا. ولعلّكِ ستمضين ثلاث سنواتٍ في ماساتشوستس، تدرسين القانون الدستوريّ، وتناقشين المزايا النسبيّة للاتفاقات الإقصائيّة في قضايا مكافحة الاحتكار. وفي حين قد يبدو ذلك للبعض مثيرًا للاهتمام، إلّا أنّه ليس كذلك بالنسبة إليكِ. ولعلّكِ خلال تلك السنوات الثلاث سترتبطين بصداقاتٍ مع أشخاصٍ وتحبّينهم وتحترمينهم إلى الأبد، ممّن تستهويهم بصدقٍ تعقيدات القانون الجامدة، لكنّها لا تستهويك أنت. ولن تشعري بشغف حقيقيّ نحوه، لكنّكِ لن تتهاوني في عملكِ في أيّ ظرفٍ من الظّروف. ستعيشين كما عشتِ دائمًا، على قاعدة الجهد الذي يؤدّي إلى نتيجة، وستواصلين تحقيق الإنجازات إلى أن تظنّي أنّك تملكين الأجوبة عن الأسئلة كلّها – بما في ذلك السؤال الأهمّ: هل أنا قادرة؟ نعم، أنا قادرة.

ما يحدث بعد ذلك أنّ المكافآت تصبح حقيقيّة. وتستعدّين للارتقاء إلى الدرجة التالية من السلّم، وهي هذه المرّة وظيفة براتبٍ وفي شركة محاماة مرموقة في شيكاغو، تدعى Sidley & Austin. لقد عُدتِ إلى المكان الذي بدأتِ منه، وإلى المدينة التي ولدتِ فيها، غير أنّكِ الآن تعملين في الطّبقة السابعة والأربعين من مبنى وسط المدينة، له باحة داخليّة واسعة وعند مدخله منحوتة كبيرة. لقد اعتدتِ المرور قرب ذلك المبنى وأنت طفلة من

الجانب الجنوبيّ لشيكاغو تركب الحافلة في طريقها إلى المدرسة الثانوية، محدّقة بصمت من النّافذة في النّاس وهم يسيرون كالعمالقة نحو وظائفهم. ها أنتِ الآن واحدة منهم. عملتِ بجهدٍ وغادرت تلك الحافلة، لتعبري ردهة هذا المبنى وصولًا إلى مصعد يرتفع بصمتٍ شديد، فيبدو وكأنه ينزلق. لقد انضممتِ إلى القبيلة. وفي سنّ الخامسة والعشرين بات لديكِ مساعِد. وتجنين من المال أكثر ممّا جناه والداكِ طوال حياتهما. زملاؤكِ في العمل مهذّبون ومتعلّمون ومعظمهم من البيض. ترتدين بذلة من تصميم أرماني، وتستفيدين من خدمات شركة لتوصيل النّبيذ إلى المنازل. تُسدّدين الدفعات الشهريّة لقروض كلّيّة الحقوق، وتذهبين إلى النادي بعد وقت العمل لممارسة تمارين اللياقة البدنيّة. ولأنّكِ قادرة، تشترين لنفسكِ سيّارة من الطراز Saab.

هل هناك ما يدعو إلى التساؤل؟ لا يبدو الأمر كذلك. فأنتِ محامية الآن. لقد أخذتِ كلّ ما أُعطيتِ إيّاه – حبّ والديكِ، ثقة أساتذتكِ، موسيقى ساوث سايد وروبي، وجبات طعام العمّة سيس، المفردات التي لقّنك إيّاها داندي، وحَوّلتِ كلّ ذلك إلى ما أنتِ عليه الآن. لقد تسلّقتِ الجبل. وإلى جانب تحليل قضايا الملكيّة الفكريّة المجرّدة لمصلحة الشّركات الكبرى، باتت وظيفتكِ تتضمّن المساعدة على تثقيف الجيل الجديد من المحامين الشّباب الذين تفكّر المؤسّسة في توظيفهم. يسألكِ شريكٌ رئيسيّ في المؤسّسة عن استعدادكِ لرعاية متدرّب آتٍ خلال فصل الصيف، والجواب سهل: بالطّبع، أنتِ مستعدّة. لكنّك لم تدركي حينذاك أهمية كلمة «نعم» البسيطة التي تفوّهتِ بها. ولا تعلمين أنّه ولحظة وصول مذكّرة تكليفك تلك المهمّة، شيء ما قد بدأ يتصدّع في أعماق كيانك، وبدأت ركيزة متينة بالانزلاق إلى غير رجعة. وبات إلى جانب اسمكِ اسمٌ آخر، لتلميذِ حقوق لامع ومنشغل بتسلّق سلّمه الخاصّ. إنّه أسود البشرة مثلكِ ومن جامعة هارفارد. وما عدا ذلك، فأنتِ لا تعلمين شيئًا، سوى اسمه فحسب، ويا له من اسمٍ غريب!

8

تأخّر باراك أوباما بالوصول في اليوم الأوّل. جلستُ في مكتبي في الطبقة السّابعة والأربعين، أنتظره ولا أنتظره. فعلى غرار المحامين في معظمهم في سنتهم الأولى كنت مشغولة، أعمل ساعاتٍ طويلة في Sidley & Austin، وغالبًا ما أتناول وجبتَي الغداء والعشاء جالسة إلى مكتبي، أقاوم سيلًا متدفّقًا من الوثائق المكتوبة بلغة المحامين الدّقيقة والمنمّقة. كنت أقرأ مذكِّرات، وأكتب مذكِرات، وأصحّح مذكِرات الآخرين. اعتبرت آنذاك أنّني أجيدُ ثلاث لغات: لهجة جنوب شيكاغو العامّيّة، لغة جامعات Ivy League الراقية، وها أنا أتكلّمُ بلغة المحامين أيضًا. وُظّفت ضمن فريق عمل يُعنى بقضايا التّسويق والملكيّة الفكريّة في الشركة، والذي كان يُعتَبَرُ أكثر تحرّرًا وإبداعًا من سائر فرق العمل الأخرى، على ما أظنّ، لأنّنا كنّا نتولّى أحيانًا قضايا في مجال الإعلان. كان جزء من عملي يتضمّن قراءة متعمّقة في نصوص الدعايات المتلفزة والإذاعيّة للتأكّد من عدم انتهاكها معايير هيئة الاتّصالات الفيديراليّة FCC. مُنحت لاحقًا شرف متابعة الشّؤون القانونيّة لـ Barney the Dinosaur. (أجل، هذا ما يُسمّى تحرّرًا في شركة محاماة).

كانت المشكلة بالنسبة إليّ أن عملي آنذاك لم يكن يتضمّن الكثير من التعاطي الفعليّ مع الموكّلين. لأنّني من آل روبنسون، وكوني نشأتُ وسط صخب عائلتي الكبيرة، متأثّرة بحبّ أبي

الغريزيّ للناس، كنت متعطّشة إلى أيّ نوع من أنواع التفاعل مع الآخرين. للتغلّب على الشّعور بالوحدة هذا، كنتُ أمازح لورين، مساعدتي، امرأة أفريقيّة أميركيّة تتحلّى بروح الدعابة وبقدرة كبيرة على تنظيم الأمور، تكبرني بسنوات عدّة، تجلس خارج مكتبي وتجيب على مكالماتي الهاتفيّة. كانت لديّ علاقات مهنيّة ودّيّة مع محامين مخضرمين، وأتحيّن أيّ فرصةٍ للدردشة مع زملائي. لكنّ الجميع كانوا غارقين في انشغالاتهم عمومًا، وحريصين على عدم إضاعة أيّ دقيقة، ما كان يُعيدني إلى مكتبي لأجلس وحيدةً مع ملفّاتي.

إن كان لا بدّ من تمضية سبعين ساعة أسبوعيًّا في مكان ما، فإنّ مكتبي شكّل الملاذ لذلك، بكرسيّه الجلد، طاولته المصقولة من خشب الجوز، ونوافذه العريضة المطلّة على الجهة الجنوبيّة الشرقيّة. وكان في وسعي أن أرى، خلف حيّ الأعمال بأبنيته المتنوّعة من حيث الحجم والارتفاع، أمواج بحيرة ميشيغن التي تملأها القوارب الشراعيّة بألوانها الزاهية صيفًا. وإن وجّهتُ نظري من زاويةٍ معيّنة، استطعت متابعة الطريق الشاطئيّة فأرى جزءًا من الجانب الجنوبيّ لشيكاغو، بسقوفه المنخفضة وأشجاره المتفرّقة، التي كانت تبدو صغيرة وهادئة، لكنّ الواقع كان مغايرًا تمامًا في حالات كثيرة. فقد باتت أجزاء من الجانب الجنوبيّ مهجورة مع إقفال المؤسّسات التجاريّة واستمرار نزوح العائلات. وكانت مصانع الفولاذ التي وفَّرت الاستقرار الاجتماعيّ ذات يوم تستغني عن آلاف الموظّفين. كما أنّ وباء المخدّرات الذي دمّر المجتمعات الأفريقيّة الأميركيّة في أماكن مثل ديترويت ونيويورك، بدأ الوصول إلى شيكاغو حيث لم يكن أقلّ تأثيرًا. فقد تقاتلت العصابات على تقاسم حصصها من السوق، وجنّدت الفتيان لترويج المخدّرات في الشّوارع، الأمر الذي كان على رغم خطورته يغنيهم عن الذّهاب إلى المدرسة. وبدأت نسبة الجرائم في المدينة ترتفع، منذرةً بالمزيد.

كان راتبي جيّدًا في Sidley، إلّا أنّني كنتُ واقعيّة بما يكفي كي لا أسرف في الإنفاق على المسكن. فبعد تخرّجي في كلّيّة

الحقوق، عدتُ إلى السّكن في حيّي القديم، South Shore، الذي ظلّ بمنأى نسبيًّا من العصابات والمخدّرات. انتقل والداي للسّكن في منزل روبي وتيري في الطبقة الأرضيّة، ودعواني إلى الإقامة في الشّقة العليا، حيث أمضيتُ طفولتي. زيّنتها بكنبة بيضاء أنيقة وعلّقتُ على الجدران لوحات لأقمشة مرسومة بأسلوب الباتيك. وكنتُ بين الحين والآخر، أعطي والديّ مبلغًا من المال بالكاد كان يُعتبر بدل إيجار لكنّهما أصرّا على أنّه كبير. وعلى رغم وجود مدخل خاصّ لشقّتي، غالبًا ما كنت أمرّ في مطبخ الطبقة السفلى. من جهة لأنّ الباب الخلفيّ لشقتهما يؤدّي مباشرةً إلى المرأب، ومن الجهة الثانية لأنّني كنتُ وسأبقى دائمًا جزءًا من عائلة روبنسون. وعلى رغم استمتاعي بما أصبحت، أي تلك الشابّة المحترفة والمستقلّة التي ترتدي بزّة وتقود سيّارة Saab، كما حلمت دائمًا في أن أكون، إلّا أنّني لم أحبب البقاء وحيدة. كنت أحصَّن نفسي بزيارة والديّ يوميًّا. كنت قد عانقتهما صباح ذلك اليوم، أي قبل الخروج مسرعة من البيت وقيادة السيّارة تحت وابل من المطر لأصل إلى العمل. وأصل في الوقت المحدّد.

نظرتُ إلى ساعتي.

– هل من أثر لهذا الرّجل؟ سألتُ لورين.

– كلّا، أجابتني بتنهيدة مسموعة.

كان واضحًا أنّها وجدت في الأمر متعة، فهي تعلم أن التأخّر في المواعيد يثير جنوني، وأجده نوعًا من التعجرف.

كان باراك أوباما قد أثار بلبلة داخل المؤسّسة آنذاك. فهو قد أنهى حديثًا سنته الأولى في كلّيّة الحقوق، ونحن في العادة لا نستقبل للوظائف الصيفيّة إلّا طلّاب السّنة الثّانية. لكنّ الإشاعات التي راجت عنه وصفته بالشخص الاستثنائيّ. وعرفنا أنّ أستاذته في هارفارد – وهي ابنة شريك عضو في مجلس إدارة شركتنا – قالت عنه أنّه الأكثر موهبة بين طلّاب الحقوق الذين عرفتهم كافّة. كما أنّ سكرتيرات رأينه حين أتى لإجراء مقابلة العمل، ذكرن أنّه، إضافة إلى ذكائه الواضح، كان رجلًا جذّابًا.

لكنني شكّكتُ في الأمر، فقد علّمتني تجربتي أنّه يكفي أن

يرتدي رجل أسود متوسط الذكاء بزّة حتّى يصاب البيض بالجنون. لم أظنّ أن باراك يستحق كلّ هذه الجلبة. كنتُ قد رأيتُ صورته في دليل الموظّفين بطبعته الصيفيّة، فوجدتها لا تستحق كلّ هذا الثناء، صورة بإضاءة سيّئة لرجل ذي ابتسامة عريضة، يبدو عليه شيء من الرزانة، صورة لم تترك فيّ أيّ أثر. جاء في سيرته أنه مولود في هاواي، ما أضفى على رزانته بعض الجاذبيّة. وما خلا ذلك، لم يلفتني شيء. كانت المفاجأة الوحيدة قد حدثت قبل بضعة أسابيع، عندما أجريتُ مكالمة هاتفيّة إلزاميّة معه لتقديم نفسي، فأعجبني الصوت الذي سمعته على الطرف الآخر من الخطّ: صوتٌ جهير، يكاد يكون مثيرًا، لكنّه لا ينسجم مع صورته على الإطلاق.

مرّت عشر دقائق أخرى قبل وصوله إلى مكتب الاستقبال في طبقتنا. خرجت لملاقاته، فوجدته جالسًا على كنبة. باراك أوباما في بزّة داكنة ومبتلّة قليلًا من المطر. ابتسم بخجل، وصافحني وهو يعتذر عن تأخّره. كانت ابتسامته عريضة، وبدا أطول وأنحف مما تخيّلته. من الواضح أنّه لم يكن شخصًا أكولًا، كما أوحى بأنّه غير معتادٍ على ارتداء الملابس الرّسميّة إطلاقًا. لم يبد عليه أنّه يعرف أنّ صيته كفتى نابغة سبقه إلى المكتب. سرت معه عبر الممرّات نحو مكتبي، أعرّفه إلى ما تتمتّع به مكاتب المحاماة المختصّة بقوانين الشركات من وسائل التكنولوجيا كغرفة تجهيز النصوص، وسبل الترفيه، كآلة صنع القهوة، وأشرح له نظامنا في تسجيل ساعات العمل، كان هو يصغي إليّ بكثير من الاحترام والانتباه. بعد حوالى عشرين دقيقة، سلّمته إلى المحامي المخضرم الذي سيشرف فعليًّا على عمله خلال فصل الصّيف، وعدتُ بعد ذلك إلى مكتبي.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، اصطحبتُ باراك إلى الغداء في مطعمٍ فخمٍ في الطّبقة الأولى من المبنى الذي يضمّ مكاتبنا، يعجّ بمصرفيّين أنيقين ومحامين نافذين يتناولون وجبات غداء باهظة تضاهي تكلفتها تكلفة عشاء فاخر. كانت إحدى ميزات توجيه الموظّفين الصيفيّين الخروج من المكتب وتناول غداء فاخر

على حساب الشركة. بصفتي مرشدة باراك، كانت مهمّتي الأساسيّة أن أتصرّف كصلة وصل اجتماعيّة، وأحرص على أن يكون مرتاحًا في عمله، وأن أقدّم النصيحة عندما يحتاج إليها، وأُشعره بأنه جزءٌ من فريقٍ أكبر. كانت تلك بداية لعمليّة تَقَرُّب أكبر غايتها إفهامه، كما هي الحال مع المحامين المتدرّبين كافّة، أنّ الشركة قد تمنحه وظيفة بدوام كامل عندما ينال شهادته في القانون.

أدركتُ على الفور أن باراك لا يحتاج إلى الكثير من الإرشاد. كان يكبرني بثلاث سنوات، ويقترب آنذاك من سنّ الثّامنة والعشرين. وعلى عكسي، عمل سنوات عدّة بعد نيله الإجازة من جامعة كولومبيا، قبل دخوله كلّيّة الحقوق. ما لفتني هو مدى إدراكه المنحى الذي ستأخذه حياته. لم يكن يساوره أيّ شكّ، وقد كان من الصعب فهم ذلك للوهلة الأولى. ومقارنة بمسيرتي المنضبطة نحو النّجاح، ومساري المستقيم من برِنستون إلى هارفارد، ثمّ إلى مكتبي في الطّبقة السابعة والأربعين، سلك باراك مسارًا ارتجاليًّا ومتعرّجًا بين عوالم متباينة. علمتُ أثناء الغداء أنه ابن لرجلٍ كينيّ أسود وأمٍّ بيضاء من كنساس، تزوّجا في سنّ الشّباب ولم يدم زواجهما طويلًا. وُلد باراك في هونولولو ونشأ فيها، وأمضى أربع سنواتٍ من طفولته في إندونيسيّا يطلق الطّائرات الورق ويلتقط الجنادب. وبعد أن أنهى المرحلة الثانويّة، انتسب إلى Occidental College في لوس أنجلوس، حيث أمضى عامين لم يبذل خلالهما جهدًا حقيقيًّا، لينتقل بعد ذلك إلى جامعة كولومبيا، حيث كان سلوكه – وفق ما قال – أبعد ما يكون عن سلوك طالب جامعيّ يستمتع بحرّيته في مانهاتن خلال الثّمانينيّات. عاش كنسّاك الجبال في القرن السّادس عشر يقرأ مجلّدات ضخمة من الأعمال الأدبيّة والفلسفيّة في شقّةٍ قذرة في الشارع 109، ويؤلّف قصائد رديئة ويصوم أيّام الآحاد.

ضحكنا لتلك الأخبار، وراح كلّ منّا يروي للآخر قصصًا من ماضيه، وتحادثنا حول ما جذبنا إلى مجال المحاماة. كان باراك جدّيًّا، ولكن من دون اعتداد بالنفس، امتاز بأسلوبه الرقيق ورجاحة عقله. كان

ذلك خليطًا غريبًا ومثيرًا. فوجئتُ أيضًا بمعرفته الجيّدة بمدينة شيكاغو.

كان باراك أوّل شخص ألتقيه في Sidley أمضى وقتًا في أقصى الجانب الجنوبي لشيكاغو، بين دكاكين الحلّاقين والمطاعم والرعايا السوداء التي تشدّد على التبشير بالإنجيل. كما عمل قبل التحاقه بكلّيّة الحقوق مدّة ثلاث سنوات على تنظيم الشؤون الأهليّة في المدينة، براتب اثنَي عشر ألف دولار في السنة، تكفّلت به جمعيّة غير ربحيّة تضمّ ائتلافًا من الكنائس. كانت مهمّته المساعدة في إعادة إعمارِ الأحياء وخلق فرص عمل جديدة. وقد وصف ذلك العمل بأنّ «ثلثَيه مصدر للإحباط، فيما ثلثه فحسب مصدر للرضا»، فقد كان يمضي أسابيع في التخطيط للقاءٍ أهليّ، لا يأتي إليه سوى نحو عشرة أشخاص. كانت جهوده موضع سخرية من قادة النقابات، وانتقاد حادّ من السود والبيض على حدّ سواء. لكنه تمكّن تدرّجًا من تحقيق بعض الانتصارات، الأمر الذي كان محفّزًا له في ما يبدو. وشرح لي أنّه انتسب إلى كلّيّة الحقوق لأنّ العمل الاجتماعي أظهر له أنّ التّغيير الجدّيّ لا يقتصر علي جهود الناس في الميدان فحسب، بل يتطلّب إرساء سياسات أقوى وإجراءات حكوميّة كذلك.

على رغم مقاومتي الحماسة التي سبقَت وصوله، وجدتُ نفسي معجبة بباراك بسبب ثقته في نفسه وجدّيّته. كان شخصًا منعشًا وغير تقليديّ وغريبًا بأناقته. مع ذلك، لم أرغب مرّةً واحدة في مواعدته. كنتُ مرشِدته في شركة المحاماة، إضافة إلى أنّني كنت قد قرّرت ألّا أَدخل في علاقة، لانهماكي في العمل وعدم قدرتي على تخصيص الجهد المطلوب لها. كما أنّ باراك أشعل في نهاية الغداء سيجارة، ما أثار حفيظتي وقضى على أيّ اهتمام بمواعدته، هذا إن وُجِد أصلًا.

فكّرتُ في قرارة نفسي في أنّه سيكون متدرّبًا صيفيًّا جيّدًا.

على مدى الأسبوعين التاليين، دخلنا في نوع من الرّوتين: ففي نهاية بعد الظّهر، كان باراك يأتي إلى مكتبي ليسترخي على أحد الكراسي كأنّه يعرفني منذ سنين. وقد شعرتُ أحيانًا

بأنّه فعلًا يعرفني منذ سنين. كان المزاح بيننا سهلًا وعقليّتانا متقاربتين. وكنّا نتبادل نظراتٍ جانبيّة خاطفة عندما يتوتّر الأشخاص المحيطون بنا إلى درجة الهوس، أو حين يُدلي الزملاء بتعليقاتٍ تبدو متعالية أو خارج السياق. ما بدا جليًّا حتّى لو لم يتمّ التطرّق إليه هو أنّه أخ لي. ففي مكتبنا الذي يضمّ أكثر من أربعمئة محامٍ، لا يوجد سوى خمسة محامين أفريقيّين أميركيّين يعملون بدوامٍ كامل. لذلك، بدا التقارب بيننا بدهيًّا ويسهل فهمه.

لم يشبه باراك مطلقًا الصورة النمطيّة للمتدرّب الصيفيّ (كما كنت أنا قبل سنتين في Sidley) أي المندفع بشكلٍ محمومٍ لتطوير شبكة علاقات، متسائلًا بقلق عن احتمال تلقّيه عرض توظيف في شركة مرموقة. كان باراك يتجوّل بهدوء وارتياح تامّين في أرجاء المكان، وهو ما زاد جاذبيّته. تنامت سمعته داخل الشركة، وبات يُدعى إلى حضور اجتماعات على مستوًى عالٍ، ويُطلَبُ منه إبداء الرّأي حول أيّ من القضايا موضع النّقاش. وذات يومٍ في بداية الصيف، كتبَ مذكّرةً من ثلاثين صفحة، حول حوكمة الشركات، تميَّزَت بشموليّتها وقوّة حجتها، ما أكسبها شهرةً واسعة في الحال. من كان هذا الرّجل؟ حيّر ذاك السؤال الجميع.

«أحضرتُ لكِ نسخة»، قال لي باراك ذات يوم، وهو يضع المذكّرة برفقٍ على مكتبي، مبتسمًا.

«شكرًا»، أجبتُ وأنا آخذ الملفّ، «أتطلّع إلى قراءتها».

بعد مغادرته، وضعتها في الدّرج.

هل عرف أنّني لم أقرأها قطّ؟ أعتقد أنّه عرف ذلك. فهو أعطاني المذكّرة على سبيل الدعابة. فنحن كنّا في مجموعتين مختلفتين من حيث الاختصاص، ولا تتقاطع مهمّاتهما. كنت مشغولة بوثائق كثيرة خاصّة بي، ولمِ أكن بحاجةٍ إلى الانبهار بشيء. فقد بتّ وباراك صديقين، ورفيقَي سلاح. كنّا نتناول الغداء معًا مرّةً في الأسبوع في الأقلّ، وأحيانًا أكثر، على حساب Sidley & Austin طبعًا. شيئًا فشيئًا بات كلٌّ منّا يعرف أكثر عن الآخر. علم أنّني أسكن ووالديّ في البيت نفسه، وأنّ أسعد ذكرياتي في كلّيّة هارفارد للحقوق ارتبطَت بالعمل الذي قمتُ به في مكتب

المساعدة القانونيّة Legal Aid Bureau. علمتُ أنّه يقرأ مجلّدات من كتب الفلسفة السياسيّة بمتعة كأنّه يطالع على شاطئ، وأنه يُنفق كلّ ما يتبقّى في حوزته من المال على شراء الكتب. وأيضًا، علمتُ أنّ والده توفّي بحادث سير في كينيا، وأنّه سافر إلى هناك لمعرفة المزيد عنه. كذلك علمتُ أنه يحبّ كرة السلّة، وأنّه يركض ساعاتٍ طويلة في نهاية الأسبوع، وتحدّثَ إليّ بحزن عن أصدقائه وعائلته في أواهو. كما علمتُ أنّه واعدَ فتيات كثيرات في الماضي، لكنّه آنذاك لم يكن مرتبطًا.

فكّرت أنّ في استطاعتي معالجة هذا الجزء الأخير، إذ كنتُ محاطةً في شيكاغو بالنساء السوداوات الناجحات. على الرغم من ساعات عملي الماراثونيّة، كنت أحبّ الاختلاط الاجتماعيّ. كان لديّ أصدقاء في Sidley، وأصدقاء من المدرسة الثانويّة، وأصدقاء اكتسبتهم بفضل علاقاتي المهنيّة، وآخرين تعرّفتُ بهم من خلال كريغ، الذي كان حديث الزواج آنذاك، ويعمل في المدينة في الاستثمار المصرفيّ. كنّا فريقًا مرحًا من الجنسين، نجتمع عندما نستطيع في إحدى الحانات وسط المدينة ونتبادل أخبار بعضنا بعضًا، فيما نتناول وجباتٍ فاخرة في نهاية الأسبوع. كنتُ قد واعدتُ شابّين في كلّيّة الحقوق، لكنّني لم ألتقِ بشخصٍ مميَّز بعد عودتي إلى شيكاغو، كما أنّني لم أكن مهتمّة أصلًا بذلك. وأعلنتُ للجميع، بمن فيهم طالبو يدي المحتمَلين أنّ الأولوية لمهنتي. في المقابل، كانت لديّ صديقات كثيرات يبحثن عن شباب يواعدنهم.

في إحدى الأمسيات الصيفيّة، اصطحَبتُ باراك، خلال الساعات التي تكون فيها أسعار المشروبات مخفّضة، لشرب كأس في حانة وسط المدينة كانت بمثابة ملتقى شهريّ غير رسميّ لكبار موظّفي الشركات السود من الجنسين، حيث كنت ألتقي أصدقائي في أغلب الأحيان. لاحظتُ أن باراك قد بدّل ثياب العمل وارتدى سترة بيضاء من الكتّان بدت أنّها من مجموعة ملابس سلسلة Miami Vice.

ممّا لا شكّ فيه أنّ باراك كان يعتبر شريكًا مثاليًّا، على الرغم من

ذوقه الغريب في انتقاء الملابس. فقد كان وسيمًا ومتّزنًا وناجحًا، كما كان رياضيًّا ومثيرًا للاهتمام ولطيفًا. عمّا قد تبحث المرأة؟ دخلت الحانة متيقّنةً أنّني أقوم بخدمة للجميع – له وللسيّدات. وعلى الفور تقريبًا، حاصرَته امرأة جميلة من معارفي، ذات نفوذ وتعمل في الشؤون الماليّة. لاحظتُ أنها ابتهجَت بسرعة وهي تتحدّث إلى باراك. أسعدني هذا التطوّر، فطلبتُ لنفسي شرابًا واتّجهت نحو أشخاص آخرين أعرفهم بين زُبن الحانة.

بعد عشرين دقيقة، لمحتُ باراك أسيرًا لما بدا أنّه حديثٌ لا ينتهي مع المرأة، تولّت هي القسم الأكبر منه. رماني بنظرة تعني أنّه يبحث عمّن ينقذه. لكنّه كان رجلًا ناضجًا فتركته يُنقِذ نفسه بنفسه.

«هل تعلمين ماذا سألَتني؟»، قال لي في اليوم التالي، عندما أتى إلى مكتبي، وهو لا يزال مذهولًا. «سألَتني إذا كنتُ أحبّ الامتطاء، امتطاء الخيل... أعني». وقال أنّهما ناقشا أفلامهما المفضّلة، الأمر الذي لم يسِر على نحوٍ جيّدٍ أيضًا.

كان باراك عقلانيًّا، ولكن ربّما بدرجة تفوق قدرة معظم الأشخاص على مجاراته (للمناسبة، كان ذلك تقييم صديقتي له عندما تحادثنا لاحقًا). لم يكن رجلًا مناسبًا لشرب كأس خلال الساعات التي تكون فيها أسعار المشروبات مخفّضة، وربّما كان عليّ أن أدرك ذلك من قبل. كان عالمي مليئًا بأشخاصٍ متفائلين ومجتهدين في العمل، ومهووسين بارتقائهم. كانوا يملكون سيّاراتٍ جديدة ويشترون بيوتهم الأولى ويرغبون في التحدّث عن ذلك وهم يعاقرون كؤوس المارتيني بعد ساعات العمل. أمّا باراك فكان يفضّل تمضية أمسياته وحيدًا، يقرأ مقالًا حول سياسة الإسكان في المُدُن. وحين كان يهتمّ بتنظيم الشؤون الأهليّة، أمضى أسابيع وأشهرًا في الاستماع إلى أناسٍ فقراء يروون له معاناتهم. وبدأت ألاحظ أنّ إصراره على الأمل وعلى إمكان التقدّم اجتماعيًّا ينبعان من مكانٍ مختلفٍ كلّيا يصعب الوصول إليه بسهولة.

أخبرني عن وقتٍ مضى كان خلاله أكثر تحرّرًا وجموحًا. فقد

أمضى السنوات العشرين الأولى من حياته يحمل لقب «باري». وفي مراهقته، دخّنَ الحشيشة فوق سفوح الهضاب البركانيّة الخُضر في أواهو. وفي جامعة Occidental، استمع إلى موسيقى السبعينيّات، وأحبّ Hendrix والـ Stones. لكنّه في وقتٍ من الأوقات، أدرك أبعاد اسمه – باراك حسين أوباما – وهويّته المعقّدة. لقد كان رجلًا أبيض وأسود، وأفريقيًّا وأميركيًّا. كان متواضعًا وعاش بتواضع، لكنّه كان يعي تمامًا رجاحة عقله وأيّ عالم رحب من الامتيازات ستفتحه أمامه. كان واضحًا أنّه أخذ ذلك كلّه على محمل الجدّ. كان في إمكانه أن يكون مرحًا وممازحًا، لكنّه لم يحد قيد أنملة عن حسّ الالتزام الذي يسكنه. سار في رحلة بحثٍ من دون أن يعلم إلى أين ستؤدّي. كلّ ما عرفته أنّ ذلك ليس بالأمر الذي تمكن مناقشته فيما نحن نعاقر الخمر. وعندما سنحت الفرصة لشرب كأس مع الأصدقاء مرّة جديدة، تركته في المكتب.

عندما كنتُ طفلة، كان والداي يدخّنان. كانا يشعلان السجائر في الأمسيات أثناء جلوسهما في المطبخ وهما يتحادثان عن يوميّات العمل. كانا يدخّنان أثناء غسل الصحون في اللّيل، ويفتحان النافذة أحيانًا ليدخل منها الهواء النقيّ. لم يكونا مدخّنَين شرهين، لكنّهما دأبا على ذلك حتّى بعدما بيّنت الأبحاث أضرار السجائر على الصحّة.

كان الأمر برمّته يدفعني وكريغ إلى الجنون. فكنّا نتظاهر بالسعال عندما كانا يشعلان السجائر، وغالبًا ما قمنا بتخريب مخزونهما من علب التبغ. وفي طفولتنا، سحبتُ وكريغ صندوقًا جديدًا من سجائر Newport من أحد الرّفوف وأتلفنا ما فيه، مبعثرَين السجائر في حوض المطبخ. ومرّة ثانية، غمسنا أعقاب السجائر في الصلصة الحارّة وأعدناها إلى العلبة. حدّثناهما عن سرطان الرئة، وشرحنا الأهوال التي شاهدناها في الأفلام في المدرسة، وصور رئات المدخّنين الجافّة والسود كالفحم، والموت الذي ينتظر المدخنين. في المقابل أريناهما صور الرئات الزهر والسليمة وغير الملوّثة بالتدخين. كان ذلك طرحًا بسيطًا وكافيًا

لجعل سلوكهما يبدو مربكًا: التصرّف الجيّد أم التصرّف السيّئ؟ الصحّة أم المرض؟ أنتما تصنعان مستقبلكما. كان ذلك كلّ ما علّمنا إيّاه والدانا. ومع ذلك، مضت سنوات قبل أن يُقلِعا عن التّدخين.

كان باراك يدخّن كوالديّ، أي بعد الطعام، وأثناء المشي في شوارع المدينة، أو عندما يشعر بالتوتّر فيحتاج إلى فعل شيء ما بيديه. في العام 1989، كان التدخين أكثر شيوعًا ممّا هو عليه اليوم وأكثر اندماجًا في الحياة اليوميّة. وكانت الأبحاث عن تبعات التدخين السلبية جديدة نسبيًّا، والنّاس يدخّنون في المطاعم والمكاتب والمطارات. لكنّني شاهدت الأفلام. وبالنسبة إليّ وإلى أيّ شخص عاقل عرفته، كان التدخين تدميرًا ذاتيًّا صرفًا.

عرفَ باراك تمامًا رأيي في هذا الموضوع. فصداقتنا كانت مبنيّةً على الصراحة والوضوح، وأظنّ أنّ كلينا استمتع بها.

– لماذا يفعل شخصٌ ذكيّ مثلك شيئًا غبيًّا كهذا؟ سألته بعفويّة في اليوم الأوّل للقائنا، وأنا أراقبه يشعل سيجارة بعد أن انتهينا من الغداء. كان سؤالي صادقًا.

أتذكر أنّه اكتفى بهزّ كتفيه معترفًا بأنّني على حقّ. لم نتجادل، ولا تناقشنا في الأمر حتّى. التدخين كان الشيء الوحيد الذي يدفع باراك إلى التخلّي عن المنطق بالكامل.

سواء أردتُ الاعتراف بذلك أم لا، ثمّة شيءٌ بيننا بدأ يتغيّر. وإذا مرّ يوم لم تسمح لنا انشغالاتنا خلاله بأن نلتقي، أجد نفسي أتساءل عمّا يفعله. كنت أبذل جهدًا لئلّا أشعر بخيبة الأمل عندما لا يأتي إلى مكتبي، وأيضًا لئلّا أشعر بالحماسة الشّديدة حين يأتي. نمَت لديّ مشاعر نحو الرجل، لكنّها كانت مستترة ومدفونة عميقًا وراء رغبتي في المضيّ قُدُمًا بعيدًا عن أيّ دراما. كان التّقييم السنويّ لأدائي المهنيّ ممتازًا، وكنت في طريقي لأصبح شريكة مساهمة في Sidley & Austin وربّما قبل أن أصل إلى عمر الثّانية والثّلاثين. كان ذلك كلّ ما تمنّيته – أو هذا ما كنتُ أحاول إقناع نفسي به.

لعلّي تجاهلت ما كان ينمو بيننا، أمّا هو فلم يكن يتجاهله.

– أعتقد أنّ علينا أن نتواعد، قال لي باراك بعد ظهر أحد الأيّام، ونحن ننهي طعامنا.
– ماذا؟ أنتَ وأنا؟ سألته متظاهرة بالصّدمة لمجرّد تفكيره في ذلك الاحتمال. قلت لكَ أنّني لا أريد مواعدة أحد، كما أنّني مرشدتكَ.
أطلق ضحكةً ساخرة، وقال:
– هذا لا يعني شيئًا، أنتِ لستِ رئيستي، كما أنّكِ جذّابة جدًّا.
كانت ابتسامة باراك عريضة تبدو أنّها تغطّي وجهه بالكامل. كان يبدو في غاية الرقّة ومتسلّحًا بالمنطق. خلال الأيّام التالية قدّم الحجج الكافية ليثبت لي ضرورة أن نتواعد. فنحن متناغمان، وكلّ منّا يُضحك الآخر، وكلانا غير مرتبط، كما أنّنا قد اعترفنا فورًا بعدم اهتمامنا بمواعدة أيّ شخصٍ آخر التقيناه. أكّد باراك أنّ ما من أحدٍ في الشركة يبالي إذا تواعدنا، بل إنّ ذلك ربّما يُعتبر أمرًا إيجابيًّا. فقد افترض أنّهم سيطلبون منه في النّهاية أن يعمل لحسابهم، وسيعتبرون علاقته بي فرصة لترسيخ التزامه بالشركة.
– أتعني أنّني طُعم؟ سألتُه ضاحكة، وأضفت: أنت تمتدحُ نفسك كثيرًا.
خلال الصيف، نظّمت الشركة سلسلة من الفعاليات والمشروعات الترفيهيّة لموظّفيها، وطُلِب ممّن يرغبون في المشاركة أن يسجّلوا أسماءهم. إحدى تلك المناسبات كانت استعراضًا مسرحًا بعنوان Les Misérables (البؤساء) في مسرح غير بعيدٍ من المكتب. سجّلتُ اسمينا للحصول على تذكرتين، وكان ذلك تصرّفًا عاديًّا كوني مرشدته. كان يُفترض بنا أن نشارك معًا في نشاطات الشركة، واقتضت مهمّتي الحرص على أن تكون تجربته في Sidley & Austin ناجحة وإيجابيّة. تلك كانت المسألة برمّتها.
جلسنا جنبًا إلى جنب في المسرح، وكلانا مرهق بعد يوم طويل من العمل. ارتفعت الستارة وبدأ الغناء، وانبسطت أمام أعيننا صورة رماديّة وحزينة عن باريس. لعلّي كنت كئيبة، أو لعلّ السبب كان مسرحية Les Misérables نفسها، لكنّني أمضيتُ ساعة

أواجه عاجزة مشاهد عن البؤس الفرنسي، من الحشرجة والقيود، والفقر والاغتصاب، والظلم والقمع. كان الملايين في أنحاء العالم يعشقون هذه المسرحيّة الغنائيّة، لكنّني تململتُ في مقعدي، وأنا أحاول الإفلات من شعور مبهم بعذابٍ ينتابني عندما تكرّر اللّحن.

عندما أُضيئت الأنوار إيذانًا ببدء الاستراحة، ألقيتُ نظرة خاطفة على باراك. رأيته غارقًا في مقعده، متّكئًا بمرفقه الأيمن على المسند، وسبابته على جبينه، وتعابير وجهه غامضة.

– ما رأيكَ؟ سألته.

ألقى نحوي نظرة جانبيّة، وأجاب:

– رديئة جدًّا، أليس كذلك؟

ضحكتُ، وقد شعرت بالارتياح مجرّد أنّه يشاركني شعوري.

اعتدل باراك في كرسيّه، وسألني:

– ماذا لو خرجنا من هنا؟ يمكننا أن ننصرف.

في الظروف العاديّة لما أقدمت على الهروب. لم أكن من هذا النوع. كنت أولي آراء زملائي بي اهتمامًا كبيرًا، وما سيظنّون إن رأوا مقعدينا فارغين. وبشكلٍ عامّ، كنت أحرص على إنهاء ما بدأته حتّى لو كان مجرّد استعراض مثقل بالمشاعر الحزينة أفسد ليلة أربعاء جميلة. تحمّلت البؤس من أجل الحفاظ على المظاهر. لكنّني كنت حينذاك برفقة شخصٍ لا يُبالي بالمظاهر أبدًا.

تجنّبنا اللقاء بزملاء العمل الذين كانوا يتحدّثون بحماسة في الردهة، وتسلّلنا خارج المسرح إلى مساء جميل بسمائه البنفسجيّة. أطلقت تنهيدة ارتياح ظاهر دفعت باراك إلى الضّحك.

– أين نذهب الآن؟ سألتُه.

– ما رأيك في أن نشرب كأسًا؟

مشينا إلى حانة قريبة كما كنّا نفعل دائمًا، أي وأنا أتقدّمه بخطوة واحدة. كان باراك يحبّ أن يمشي متهاديًا، كما هي عادة أبناء هاواي، لا شيء يحمله على الاستعجال، خصوصًا حين يُطلب منه أن يستعجل. أمّا أنا فكنتُ أمشي بحزم حتّى في أوقات الراحة، عاجزة عن لجم سرعتي. أتذكّر أنّني أقنعت نفسي

في تلك الليلة بالتمهّل قليلًا فحسب، بما يكفي لأستطيع سماع ما كان يقول، إذ بدأ يتّضح لي أنّني مهتمّة بسماع كلّ ما يقول.

كنت حتّى ذلك الوقت قد بنيت حياتي بعناية، حريصة على الاهتمام بأدقّ التفاصيل ومعالجة جميع الأخطاء حتّى أبسطها. كأنّني أصنع قطعة من الأوريغامي مُحكمة. لقد عملتُ بجهدٍ على صنعها، وكنتُ فخورةً بها. لكنّها كانت دقيقة جدًّا، فإذا ما بقيت إحدى زواياها غير مطويّة، ربّما أكتشف أنّني قلقة ومضطربة. وإذا أفلتت زاوية أخرى من مكانها، فقد تظهر إلى العلن شكوكي في المسار المهنيّ الذي أتبعه بملء اختياري وفي الأشياء كلّها التي قلتُ لنفسي أنّني أريدها. أعتقد الآن أنّ ذلك كان سبب حرصي على تحصين نفسي، وشعوري بعدم الاستعداد لإدخاله عالمي. كان باراك أشبه بريحٍ عاتية تهدّدُ بأن تطيح بكلّ شيء.

بعد يومٍ أو يومين، سألني باراك عمّا إذا كان في إمكانه مرافقتي إلى حفلة شواء للزملاء المتدرّبين تقام نهاية ذلك الأسبوع في منزل أحد المحامين المخضرمين، في ضاحية راقية مطلّة على البحيرة شمال المدينة. أتذكّر أنّ الطقس كان صافيًا يومذاك، والبحيرة تتلألأ على طرف حديقة جُزّ عشبها بعناية. تولّت شركة مختصّة في تقديم الطعام، وصدحت الموسيقى من مكبّرات الصوت، وأثنى المدعوّون على الذوق الرفيع الذي يميّز ذلك المنزل الفخم. بدا المكان مفعمًا بالثراء ورغد العيش ويجسّد بوضوح ما يستطيع المرء تحقيقه حين ينكبّ على العمل من كلّ قلبه. كنت أعرف أن باراك يعيش صراعًا داخليًّا بشأن ما يريده في حياته وأيّ اتّجاه سيسلكه مستقبله المهنيّ. كانت علاقته مع المال مضطربة، فهو مثلي لم يحظَ بثروة أبدًا، ولا كان يطمح إليها. كانت رغبته في أن يكون شخصًا مؤثّرًا أكبر بكثير من رغبته في أن يكون غنيًّا، لكنّه كان في طور البحث عن طريقةٍ لتحقيق ذلك.

لم ندخل الحفلة كحبيبين، لكنّنا أمضينا الوقت كلّه معًا، متنقّلين بين مجموعات الزّملاء، نشرب الجعّة والليموناضة ونأكل الهمبرغر وسلطة البطاطا في صحون بلاستيك. كنّا ننفصل أحيانًا ونلتقي مجدّدًا، وبدا الأمر طبيعيًّا. كان يُغازلني بهدوء فأبادله المغازلة. بدأ

رجال يلعبون كرة السلّة، ورأيتُ باراك يسير بمشّايته في الملعب لينضمّ إليهم. كانت علاقة باراك بجميع مَن في الشركة جيّدة، واعتاد أن يخاطب السكرتيرات كافّة بأسمائهنّ كما كان يتّفق مع الجميع، من المحامين الأكبر سنًّا والرزينين إلى اليافعين الطموحين الذين كانوا يلعبون كرة السلّة يومذاك. إنّه رجل لائق، قلتُ في نفسي، وأنا أشاهده يمرّر الكرة إلى محامٍ آخر.

بعد حضوري مباريات كثيرة في كرة السلّة في المدرسة الثانويّة والجامعة، بات في وسعي تمييز اللاعبين الجيّدين، وقد نجح باراك في الامتحان فورًا. فقد لعِبَ كرة السلّة برشاقة وفنّ، محرّكًا جسمه النّحيف بسرعة ومُظهرًا قوّةً لم ألاحظها من قبل. كان سريعًا وخفيفًا حتّى وهو ينتعل مشّاية من هاواي. وقفتُ هناك أتظاهرُ بالاستماع إلى ما تقوله لي إحدى الزوجات الصالحات، لكن عينيّ لم تفارقا باراك. كنت مأخوذة به المرّة الأولى: رجل ملفت تجتمع فيه الصفات كلّها.

في طريق العودة إلى المدينة بالسيّارة مع حلول المساء، شعرتُ بالألم، نوع من الشوق الذي بدأ يخالجني. كنّا في تمّوز/ يوليو، ومن المتوقّع أن يغادر باراك الشركة خلال شهر آب/ أغسطس، إلى كلّية الحقوق وإلى ما تخبّئه الحياة له. ظاهريًّا، لم يتغيّر شيء، فقد كنّا نمزح كعادتنا ونتبادل الثرثرات التي قيلت في الحفلة. لكنّ ثمّة حرارة بدأت تسري في عمودي الفقريّ. كان إحساسي بوجوده في سيّارتي قويًّا جدًّا – مرفقه المتّكئ إلى المسند في الوسط، وركبته على مقربة من يدي. سلكنا Lake Shore Drive، ومررنا براكبي الدرّاجات وبأشخاص يركضون على ممرّات المشاة، وأنا أجادلُ نفسي بصمت. هل من طريقةٍ لفعل ذلك بشكلٍ غير جدّيّ؟ إلى أيّ مدى قد يؤثّر في وضعي المهنيّ؟ لم يكن أيّ شيء واضحًا بالنسبة إليّ – التصرّف الأنسب، مَن قد يكتشف الأمر، وإن كان يهمّ حقًّا – لكنّني أدركت أنّني لا أنوي الانتظار حتّى تتّضح الأمور.

كان باراك يسكن في Hyde Park، شقّةً استأجرها من صديقٍ له. حين وصلنا إلى ذلك الحيّ اشتدّ التوتّر بيننا، كأنّ شيئًا حتميًّا

أو مقدّرًا يوشك أخيرًا أن يتحقّق. أو هل كنتُ أتخيّل ذلك؟ لعلّي صددته مرّاتٍ عدّة. لعلّه فقد الأمل وأصبح يراني الآن مجرّد صديقة مخلصة، فتاة تقود سيّارة مكيَّفة من الطراز Saab تقلّه بها عند الحاجة.

أوقفتُ السيّارة أمام المبنى الذي يسكن فيه، والأفكار المشوشة لا تزال تتسارع في ذهني. مرّت لحظة ارتباك، وكلّ منّا ينتظر أن يبادر الآخر إلى وداعه. مال باراك برأسه ناحيتي، وسألني:

– هل نتناول بعض المثلجات؟

عرفتُ في تلك اللّحظة أن القصّة بدأت هنا، وكانت إحدى المرّات القليلة التي قرّرتُ فيها أن أتوقّف عن التّفكير وأن أعيش فحسب. كانت تلك أمسية صيفٍ دافئة في المدينة التي أُحِبّ. شعرتُ بنعومة الهواء على بشرتي. كان في المبني القريب من شقّة باراك متجر Baskin-Robbins، فاشترينا المثلّجات، وخرجنا إلى الرصيف المجاور باحثَين عم مكان نجلس فيه. جلسنا متقاربين وركبنا مرفوعة، متعبين إنما سعيدان بعد يومٍ في الهواء الطّلق، نأكل مثلجاتنا بسرعةٍ وصمتٍ، ونحاول استباق ذوبانها. لعلّ باراك قرأ ذلك على وجهي أو شعر به في وضعيّة جلوسي، أي أنّني قد بدأت استرخي وأفقد السيطرة.

كان ينظر إليّ بغرابة مبتسمًا.

– هل تسمحين لي بتقبيلكِ؟، سألَني.

آنذاك، ملتُ نحوه، وشعرتُ بأنّ كلّ شيءٍ بات واضحًا.

وأصبحنا نحن

10

بدأت ذلك الصيف كتابة مذكراتي. اشتريت دفترًا مجلّدًا بقماش أسود، رُسمت على غلافه زهور أرجوانيّة، ووضعته على الطاولة قرب سريري. كنت آخذه معي عندما أذهب في رحلات عمل لمصلحة Sidney & Austin. لم أكن أكتب كلّ يوم، ولا حتّى كلّ أسبوع: كنت أكتب فحسب عندما يسمح لي وقتي بذلك، ومتى توفّرت لديّ الطاقة لتنظيم أفكاري المشوّشة. كان في إمكاني أن أكتب بضع أفكار في أسبوع واحد، ثمّ أترك الدفتر شهرًا، وأحيانًا مدّة أطول. لم أكن في طبيعتي من النوع الاستبطانيّ. كانت تجربة تدوين أفكاري جديدةً بالكامل بالنسبة إليّ؛ عادة اكتسبتها جزئيًّا، في ما أظنّ، من باراك الذي يرى في الكتابة نوعًا من علاج يؤدّي إلى صفاء الذهن، فاعتاد أن يكتب مذكّراته من حين إلى آخر طوال سنين.

عاد باراك إلى شيكاغو من جامعة هارفارد لتمضية عطلة الصيف. لكنّه لم يستأجر منزل صديقه هذه المرّة، بل جاء مباشرة للإقامة في شقّتي في جادّة يوكليد. لم نكن نتعلّم، عمليًّا، كيف نعيش معًا كثنائيّ وحسب، بل إنّ باراك تعرّف إلى عائلتي أيضًا، بصورة أكثر حميميّة. كان يتحدّث عن الرياضة مع والدي، قبيل توجُّهه إلى عمله في منشأة تكرير المياه. وكان يساعد والدتي أحيانًا في نقل مشترياتها من المرأب. أسعدني هذا الشعور. أمّا كريغ، فقد قيّم شخصيّة باراك على طريقته، إذ جعله يشارك، في

عطلة نهاية الأسبوع، في مباراة كرة سلّة محتدمة مع مجموعة من أصدقائه، ومعظمهم من اللاعبين السابقين في الجامعة. والواقع أنّه فعل ذلك بناء على طلبي. كان رأي كريغ بباراك مهمًّا بالنسبة إليّ، وشقيقي يعرف كيف يقيّم البشر، لا سيّما خلال مباراة. نجح باراك في الاختبار. رأى شقيقي أنّه يتحرّك بسلاسة على أرض الملعب، ويعرف متى يقوم بالتمريرات الصحيحة، لكنّه أيضًا، لا يتوانى عن التصويب على السلّة عندما تسنح له الفرصة. قال كريغ: «هو ليس من النوع الذي يستأثر بالكرة، لكنّه لا يفتقر إلى الجرأة».

عمل باراك خلال الصيف في شركة محاماة وسط المدينة، قرب Sidley، لكن فترة إقامته في شيكاغو كانت قصيرة، إذ انتُخب مديرًا لمجلّة Harvard Law Review للسنة الدراسيّة التالية، ما يعني أنّه أصبح مسؤولًا عن إصدار ثمانية أعداد يضمّ كلّ منها ثلاثمئة صفحة تقريبًا، فتعيّنت عليه العودة إلى كمبريدج باكرًا لمباشرة عمله. كان اختيار مدير للمجلّة عبارةً عن منافسة شرسةٍ تحصل كلّ عام. وتنطوي على تدقيق صارم وتصويت من ثمانين طالبًا من المحرّرين فيها. وقد اعتُبِر إنجازًا هائلًا لمن يشغل هذا المنصب. وتبيَّن أنّ باراك كان أيضًا أوّل أميركيّ من أصل أفريقيّ، في تاريخ المجلّة الذي يعود إلى مئة وثلاث سنوات، يُنتخب للمنصب. وهذا حدث لا يستهان به إلى درجة أنّه ذُكِر في صحيفة نيويورك تايمز، مرفقًا بصورة لباراك وهو يبتسم مرتديًا معطفًا وشالًا.

في عبارة أخرى، كان صديقي شخصًا مهمًّا. كان في إمكانه في تلك المرحلة أن يجد عملًا براتب كبير في شركة قانونيّة. لكنّه، عوضًا عن ذلك، كان يفكّر في العمل في مجال قانون الحقوق المدنيّة بعد الحصول على شهادته، حتّى لو أدّى ذلك إلى مضاعفة المدّة التي سيتمكّن خلالها من سداد قرضه الدراسيّ. وفي الواقع، كان كلّ من حوله يشجّعه على أن يحذو حذو كثرٍ ممّن سبقوه، من محرّري المجلّة، ويتقدّم بطلب عمل في المحكمة العليا؛ فنجاحه بدا مضمونًا. لكنّ باراك لم يعِر الأمر

اهتمامًا. أراد أن يعيش في شيكاغو، وفكّر في تأليف كتاب حول مسألة العرق في أميركا، وقال أنّه يخطط للعثور على عمل ينسجم مع قِيَمه. وهو ما كان يعني على الأرجح، أنّه لن يخوض غمار العمل في مجال قانون الشركات. لقد كان يدير حياته بثقة أذهلتني.

كلّ تلك الثقة كانت محطًّا للإعجاب لا شكّ. ولكن، بصراحة، حاولوا التعايش مع ذلك. كان عليّ أن أتكيّف مع العزيمة التي امتلكها باراك – أنام معها في السرير، أجلس معها لتناول الفطور – ليس لأنّ باراك كان يحاول التباهي بها، تحديدًا، بل لأنّها كانت حاضرة بقوّة. وهذا اليقين لدى باراك، هذه الفكرة بأنّه قادر على إحداث فرق في العالم، جعلاني أشعر بشيء من الضياع مقارنةً به. كان تطلّعه نحو الهدف يشكّل نوعًا من التحدّي لتطلّعاتي.

من هنا، جاءت فكرة المذكّرات. في الصفحة الأولى من الدفتر، كتبت بالتفصيل، وبخطّ منمّق، الأسبابَ التي دعتني بداية إلى كتابة مذكّراتي:

السبب الأوّل، أشعر بالارتباك والتشويش بشأن المسار الذي أودّ أن تتّخذه حياتي. أيّ نوع من الأشخاص أرغب في أن أكون؟ كيف أريد أن أساهم في هذا العالم؟

السبب الثاني، علاقتي بباراك تأخذ منحنًى جدّيًا، وأشعر بأنّني بحاجة إلى فهم نفسي وما أريد.

ظلّ هذا الدفتر الصغير، ذو الغلاف المزيّن بالأزهار، معي عقودًا. وانتقل معي حيث انتقلت. تربّع على رفّ في غرفة ملابسي في البيت الأبيض ثماني سنوات إلى أن أخرجته أخيرًا من إحدى العلب في منزلي الجديد لأتعرّف أكثر إلى المحامية الشابّة التي كنتها ذات يوم. أقرأ تلك السطور اليوم، وأدرك تمامًا ما كنت أحاول أن أقوله لنفسي؛ وهو ما يمكن أن تقوله أيّ مرشدة حكيمة لي مباشرة. بكلّ بساطة: أوّلًا، كرهت كوني محاميةً. لم أكن مناسِبة لهذا النوع من العمل. كان يشعرني بنوع من الفراغ، على الرغم

من النجاح الذي أحرزته فيه. كان الاعتراف بذلك أمرًا محزنًا بالنظر إلى الجهد الذي بذلته والديون التي أغرقت نفسي فيها. إنّ سعيي الحثيث نحو التفوّق، الذي يعمي البصر أحيانًا، وحاجتي الملحّة إلى أن أقوم بالأمور على أكمل وجه جعلاني لا أتنبّه إلى المؤشّرات، فسلكتُ الدرب الخطأ.

ثانيًا، كنت غارقة في حبّ شخص يمكن ذكاءه الخارق وطموحه في لحظة من اللحظات أن يلتهما ذكائي وطموحي. كنت أترقّب مجيء تلك اللحظة التي بدت أشبه بتيّار جارف. لم يكن في نيّتي أن أتفادى مسارها – كنت آنذاك ملتزمةً بباراك بصدق، وكنت أحبّه بقوّة – لكنّني كنت بحاجة ماسّة إلى أن أقف بثبات على قدميّ.

كان عليّ البحث عن مهنة جديدة، في وقتٍ لم أكن أملك أدنى فكرة عمّا أرغب في القيام به. لم أتمكّن، طوال سني الدراسة، من التفكير جديًّا في اهتماماتي الخاصّة وفي طريقة استثمارها في عمل أجده ذا قيمة. لم أكن، كشابّة في مقتبل العمر، قد قمت باستكشاف أيّ شيء. أدركت أنّ نضوج باراك كان حصيلة سنوات من العمل منسّقًا في الشؤون الأهليّة، ونتاج عمله قبل ذلك، وطوال سنةٍ كانت حتمًا مخيّبة الآمالَ، باحثًا في شركة استشاريّة في مجال الأعمال، في مانهاتن، بعد تخرّجه مباشرة. كان اختبر بعض الأمور، وتعرّف إلى أناسٍ من خلفيّات مختلفة، بالتالي تمكّن من تحديد أولويّاته. أمّا أنا، فقد كنت في تلك الأثناء أخشى التعثّر. كنت أتوق إلى أن أحظى بالاحترام وأسعى جاهدة إلى إيجاد طريقة أسدّد بها فواتيري، فاتّجهت من دون تفكير إلى دراسة القانون.

خلال عام واحد، كسبت باراك وخسرت سوزان. كانت قوّة هذين الحدثين، معًا، كفيلة بجعلي أفقد توازني. أيقظ موت سوزان المفاجئ في نفسي الرغبة في إضفاء المزيد من البهجة على حياتي ومنحها أبعادًا أكبر. لم أعد أقوى على الاستمرار في العيش مع شعوري بالرضا. عزوت الفضل في ذلك إلى باراك، ولمتُه في الوقت نفسه. كتبت في مذكراتي: «لو لم يكن هناك رجل في حياتي يسألني باستمرار عن دوافعي وعمّا يسبّب لي

الألم، فهل كنت سأقوم بذلك من تلقاء نفسي؟».

فكّرت مليًا في ما يمكن فعله، وفي المهارات التي أمتلكها. هل يمكنني أن أكون مدرِّسة؟ أو مسؤولة إداريّة في جامعة؟ هل في استطاعتي إدارة برنامج نشاطات خارج الدوام المدرسيّ؟ برنامج يمثّل نسخة أكثر حِرفيّة عن ذاك الذي نظّمته بطلب من تشيرني في برِنستون؟ قد أعمل لمصلحة مؤسّسة أو جمعيّة غير ربحيّة تهتمّ بمساعدة الأطفال المحرومين. تساءلت عن فرصي بالعثور على عمل يشغل تفكيري ويترك لي، في الوقت نفسه، حيّزًا كافيًا للعمل التطوّعيّ، أو للاستمتاع بالفنّ، أو لإنجاب أطفال. كنت أرغب، بكلّ بساطة، في أن أعيش، في أن أشعر بأنّني إنسانة منسجمة مع نفسي. أعددت قائمةً بالأشياء المهمّة لي: التعليم، حمل المراهقات، شعور السود بتقدير الذات. لكنّني كنت أدرك أنّ عملًا أكثر التزامًا يعني تقاضي أجر أقلّ. أعددت قائمة ثانية عمليّة ضمّت نفقاتي الأساسيّة، أي ما يتبقّى بعد التخلّي عن نمط الحياة المرفّه الذي كان يتيحه لي الأجر الذي أحصل عليه في Sidley – أشياء مثل الاشتراك في خدمة النبيذ، وعضويّتي في النادي الرياضيّ. كنت أدفع ستمئة دولار شهريًّا لتسديد قروض الدراسة، وأربعمئة وسبعة دولارات قسطًا للسيّارة، إضافة إلى المبلغ اللازم للطعام والغاز والتأمين، وهناك أيضًا مبلغ خمسمئة دولار تقريبًا، شهريًّا، قد أحتاج إليه لاستئجار منزل إذا فكّرت في ترك منزل والدَيّ.

لم يكن الأمر مستحيلًا، لكنّه لم يكن سهلًا أيضًا. بدأت أبحث عن فرصٍ للعمل في مجال قانون أماكن الترفيه، ظنًّا منّي أنّه سيكون مجالًا مسليًّا، ولن يؤدّي إلى انخفاض كبير في مستوى دخلي. لكنّني شعرتُ، في قرارة نفسي، بقناعة تترسّخ تدرّجًا: لم أُخلق لمزاولة المحاماة. سجّلت، ذات يوم، ملاحظة حول مقال قرأته في صحيفة نيويورك تايمز يتحدّث عن مشاعر الإرهاق والتوتّر والتعاسة المنتشرة بين أوساط المحامين الأميركيّين، بخاصّة النساء. كتبتُ في مذكراتي «هذا أمر محبط حقًّا!».

أمضيتُ فترة طويلة من شهر آب/أغسطس أكدُّ داخل قاعة

اجتماعات مستأجرة، في أحد فنادق العاصمة واشنطن، إذ أرسلتني Sidley & Austin للمساعدة في إعداد دعوى قضائيّة، كان المكتب يمثّل شركة الصناعة الكيميائيّة Union Carbide العالميّة في محاكمة بشأن بيع أحد أصولها. ظللت في واشنطن ثلاثة أسابيع تقريبًا، لكنّني لم أرَ سوى جزءٍ صغير منها، لأنّني كرّست وقتي كلّه آنذاك، للجلوس في تلك القاعة مع بعض زملائي في المكتب، وفتْح صناديق الملفّات التي شُحنت من مقرّ الشركة، ومراجعة الوثائق المكتوبة على ألوف الصفحات.

لا يمكن أن يُخيَّل لأحد أنّني من الأشخاص الذين قد يجدون راحتهم النفسيّة في تعقيدات تجارة موادّ كيميائيّة من النوع urethane polyether polyol، لكنّ هذا ما حصل. كنت لا أزال أزاول المحاماة. لكنّ خصوصيّة العمل، وتغيير المشهديّة حولي شتّتا تفكيري بما يكفي لأتغاضى عن الأسئلة المهمّة التي بدأت تلمع في ذهني.

أخيرًا، سوّيت قضيّة الكيماويّات خارج المحكمة، ما يعني أنّ مراجعة وثائق كثيرة أجريت من دون جدوى. كانت تلك التسوية مخيّبة الآمالَ، لكنّها متوقّعة في مجال المحاماة؛ فمن المألوف تهيئة دعوى من أجل محاكمة لا تُعقد في نهاية الأمر. عدت مساء بالطائرة إلى شيكاغو. وقد تملّكني شعور بالرعب، إذ تذكّرت أنّني كنت على وشك العودة إلى الروتين اليوميّ، وإلى ضبابيّة الإرباك الذي يتملّكني.

استقبلتني أمّي في مطار أوهير. شعرت بالراحة مجرّد رؤيتها. كانت في مطلع الخمسينيّات، وتعمل دوامًا كاملًا مساعدة تنفيذيّة في مصرف في وسط المدينة، وصفَتهُ بأنّه مجموعة من الرجال الجالسين خلف مكاتبهم، اتّجهوا نحو هذا المجال لأنّ آباءهم كانوا مصرفيّين قَبلهم. كانت امرأةً قويّة جدّيّة، ولم تتحمّل الحماقة. كان شعرها قصيرًا على الدوام، وثيابها عملية وبسيطة. كلّ شيء حولها أوحى بالكفاءة والهدوء. لم تتدخّل في حياتنا الخاصّة، أنا وكريغ، مُذ كنّا طفلين. تجلّى حبّها في إشعارنا بإمكان الاعتماد عليها. عندما كانت تحطّ الطائرة، كانت دائمًا في انتظارنا

في المطار. ولدى شعورنا بالجوع، كان طعامها جاهزًا. هذا الطبع المتوازن اللطيف كان الملجأ بالنسبة إليّ، الملاذَ الذي أهرع إليه بحثًا عن الأمان.

بينما كنّا في السيّارة المتّجهة إلى المدينة، أطلقتُ تنهيدةً عميقة.

سألتني والدتي: «هل أنت بخير؟».

نظرت إليها في الضوء الخافت للطريق السريع، وقلت: «لا أعرف. كلّ ما في الأمر...».

هكذا، كشفت لها مشاعري كلّها. أخبرتها بأنّني لست سعيدة في عملي، أو حتّى في المهنة التي اخترتها. وقلت أنّني أشعر بالتعاسة فعلًا، نتيجة ذلك. أخبرتها بقلقي، بتوقي الشديد لإحداث تغيير جذريّ، وبخوفي من أن يؤدّي تغييرٌ كهذا إلى حرماني من جزء كبير من دخلي. كانت مشاعري حقيقيّة. أطلقتُ تنهيدة أخرى، وقلت في النهاية: «أشعر بأنّني لست سعيدة في حياتي».

أدرك الآن تمامًا مدى وقع كلامي هذا على والدتي التي كانت، وقتذاك، تعمل منذ تسع سنوات في وظيفةٍ التحقتْ بها أساسًا للمساهمة في تكاليف دراستي. ذلك بعد سنوات من انقطاعها عن العمل لتتفرّغ لخياطة ثيابي المدرسيّة، ولطهو وجباتي، ولغسيل ثياب والدي الذي كان يمضي ثماني ساعات يوميًّا في معمل تكرير المياه، لكي يعيل أسرته. لم تكن والدتي في مزاجٍ يسمح لها بأن تتفهّم الأسئلة الوجوديّة التي أطرحها، وهي التي قادت السيّارة مدّة ساعة كي تحضرني من المطار. والدتي التي تدعني أقيم في الطبقة العليا من منزلها من دون مقابل، والتي يتعيّن عليها أن تستفيق فجر كلّ صباح لكي تساعد والدي في الاستعداد للذهاب إلى عمله.

ما من شك في أنّ موضوع السعادة كان، بالنسبة إليها، مجرّد فكرة تخطر في بال الأثرياء. ولا أعتقد أنّ والدَيّ، طوال السنوات الثلاثين التي عاشاها معًا، قد بحثا في هذا الموضوع ولو مرّة واحدة.

لم تلمني والدتي على ذلك. فهي لم تكن من النوع الذي يلقي المحاضرات أو يتبجّح بالتضحيات التي بذلها. بل دعمت بصمت كلّ خيار اتّخذتُه. لكنّها، في ذلك اليوم، ألقت عليّ نظرة تهكّم جانبيّة، أضاءت الإشارة لتخرج من الطريق السريع متّجهة نحو حيّنا، ثم أطلقت ضحكة خفيفة، وقالت: «إذا سألتني رأيي، فإنّ جوابي هو اكسبي المال أوّلًا، ثمّ فكّري بسعادتك».

هناك حقائق نواجهها وحقائق نتجاهلها. أمضيت الأشهر الستّة التالية أحاول بهدوء، تمكينَ نفسي من دون القيام بأيّ تغيير مفاجئ. وفي عملي، كنت أقابل الشركاء المسؤولين عن قسمي لأطلب منهم تكليفي مهمّات إضافيّة تنطوي على تحدٍّ. حاولت التركيز على المشروعات التي اعتبرتها أكثر أهمّيّة، بما في ذلك جهودي في سبيل توظيف مجموعةٍ جديدة أكثر تنوّعًا من المحامين المتدرّبين الذين يعملون خلال عطلة الصيف. لكنّني كنت طوال الوقت، أراجع إعلانات التوظيف في الصحف. وأبذل كلّ ما في وسعي لكي أعزّز صلاتي بأشخاص كثرٍ من غير المحامين. تصوّرت أنّني، بطريقة أو بأخرى، سأتمكّن من إيجاد حلّ يشعرني بالرضا.

في منزل والدَيّ، في جادّة يوكليد، بدأت أشعر بالعجز عن مواجهة واقع جديد. بدأت قدما والدي تتورّم من دون سبب واضح، وغطّت بشرته بقع داكنة اتّخذت شكلًا غريبًا. وفي كلّ مرّة كنت أسأله عن أحواله، كان يأتيني الردّ نفسه، وبالإصرار ذاته.

كان يقول: «أحوالي جيّدة»، كأنّه لم يكن هناك من داعٍ للسؤال. ومن ثمّ يغيّر الموضوع.

كان الشتاء قد حلّ في شيكاغو. كنت أستيقظ كلّ يوم على أصوات الجيران، وهم يزيلون الجليد عن واجهات سيّاراتهم في الشارع. أخذت الرّياح تشتدّ والثلج يتراكم. كانت الشمس تبدو شاحبة واهنة. أطللت من نافذة مكتبي، في الطبقة السابعة والأربعين، على الجليد الرماديّ الذي يكسو بحيرة ميشيغان، وعلى السماء الرصاصيّة. ارتديت ثيابًا صوفًا سميكة وانتظرت ذوبان الثلج. وكما ذكرتُ سابقًا، كان الشتاء في الـ Midwest،

تمرينًا على الانتظار؛ انتظار تحسّن الطقس، انتظار تغريدة طير، انتظار أوّل زهرة أرجوانيّة تشقّ طريقها عبر طبقات الثلج. لا خيار طوال فترة الشتاء، سوى أن ترفع معنوياتك.

لم يفقد والدي مزاجه اللطيف المرح. كان كريغ يأتي أحيانًا لتناول العشاء معنا. وكنّا نجلس حول المائدة ونضحك، كما في الأيّام السابقة، الفارق الوحيد هو أنّ جانيس، زوجة كريغ، انضمّت إلينا. وهي امرأة فرحة وطموح، تعمل محلّلة في مجال الاتّصالات في وسط المدينة، وقد افتُتنت بوالدي، شأن الأشخاص كافّة الذين عرفوه. أمّا كريغ، فقد كان يجسّد شخصية من تخرّج في برِنستون لينخرط في مجال العمل في المدينة. كان يحضّر لنيل شهادة الماجستير في إدارة الأعمال، ويعمل نائبًا لمدير مصرف كونتيننتال. وتمكن مع جانيس من شراء شقّة في Hyde Park. صار كريغ يرتدي البذلات الأنيقة، ويرتاد حفلات العشاء بسيّارة بورش Turbo 944 حمراء. ولكن، ما كنت أجهله، هو لماذا لم يشعره كلّ ذلك بالسعادة. فقد كان كريغ، مثلي، يعاني أزمة تتفاعل داخله ببطء. وخلال السنوات التي تلت، كان يحاول الإجابة عن تساؤلات تتعلّق بأبعاد عمله، وعمّا إذا كانت المكاسب التي يشعر بأنّه مرغم على السعي إلى نيلها، هي المكاسب التي يحلم بها فعلًا. وبما أنّنا كنّا نعلم مدى سعادة والدي بما أنجزه ولداه، لم يتطرّق أيّ منّا، خلال وجبات العشاء، إلى مشاعر عدم الرضا التي كنا نشعر بها.

وعندما كان كريغ يودّع والدي في نهاية الزيارة، كان يرمقه بنظرةٍ قلقة. ويطرح السؤال ذاته حول صحّته، ليجيبه والدي بشيء من البهجة: «أحوالي جيّدة».

كنّا نصدّق ما يقول، لأنّ ذلك، وفق ما أعتقد، قد أوحى إلينا بالاستقرار، وكنّا نحب ذلك الشعور بالاستقرار. تمكّن والدي، خلال سنوات، من التعايش مع داء التصلّب المتعدّد وتمكّن دائمًا من أن يبدو على ما يُرام. وكنا نكتفي بذلك، حتّى وإن كان وضعه الصحّيّ يتدهور بشكلٍ واضح. كنّا مطمئنّين إلى وضعه لأنّه ما زال يستيقظ كلّ يوم ليذهب إلى العمل، كنّا مطمئنّين إلى وضعه لأنّنا

رأيناه يتناول قطعة أخرى من رغيف اللحم في ذلك اليوم، وكنّا مطمئنّين إلى وضعه بصورة خاصّة، لأنّنا لا ننعم النظر في قدميه.

أجريت أحاديث عدّة مع والدتي شابها التوتّر، وسألتها عن سبب عدم ذهاب والدي إلى طبيب. لكنّها كانت، مثلي، قد استسلمت بعد أن نبّهته إلى ذلك مرّات كثيرة، وفشلت. فبالنسبة إلى والدي، لم يحمل الأطباء يومًا أيّ خبر جيّد، بالتالي، ينبغي تجنّبهم. وعلى رغم أنّه يحبّ الكلام، إلّا أنّه كان يتفادى تمامًا الحديث عن مشكلاته. كان يعتبر ذلك تساهلًا مع نفسه. كما كان يرغب في تدبّر الأمر بطريقته الخاصّة. ولمعالجة مشكلة قدميه المتورّمتين، طلب من والدتي، وبكّل بساطة، شراء حذاء ذي مقاس أكبر ينتعله خلال العمل.

استمرّ مأزق زيارة الطبيب طوال شهر كانون الثاني/يناير، وجزءًا من شهر شباط/فبراير من ذلك العام. كان والدي خلال تلك الفترة يتحرّك ببطء وألم، مستعينًا بعكّاز رباعيّ من الألومينيوم للتجوّل في أرجاء المنزل، متوقّفًا من حين إلى آخر لالتقاط أنفاسه. بدأ يستغرق وقتًا طويلًا في الصباح للانتقال من سريره إلى الحمّام، ومن الحمّام إلى المطبخ، ثمّ إلى الباب الخلفيّ لينزل ثلاث درجات نحو المرأب، ومن ثمّ يقود سيّارته إلى مكان عمله. وعلى رغم كلّ ما كان يحدث في المنزل، إلّا أنّه أصرّ على أنّ الأمور على ما يرام في منشأة تكرير المياه. كان يستخدم زلّاجة مزوّدة محرّكًا للتنقّل بين السخّانات، ويتفاخر بأنّه لا يمكن الاستغناء عنه في العمل. فطوال ستّ وعشرين سنة، لم يتغيّب مرّة واحدة! وإذا حدث وتجاوزت درجة حرارة أحد السخّانات الحدّ المطلوب، كان والدي يدّعي أنّه واحد من قلّة قليلة من العمّال ممّن يمتلكون خبرة كافية تمكّنهم من استيعاب الكارثة بسرعة وبراعة. بل إنّه، وفي تعبير عن شعوره بالتفاؤل، أدرج اسمه أخيرًا بين المرشّحين للترقية.

حاولت، أنا ووالدتي، أن نوفّق بين ما يخبرنا به والدي، وما كنّا نراه بأمّ العين. بدأت الأمور تصعب عليه أكثر فأكثر. كان يمضي وقته كلّه تقريبًا في المنزل مساءً في مشاهدة مباريات كرة

السلّة والهوكي على شاشة التلفاز، وهو جالس على مقعده وقد استبدّ به الضعف وبدا منهكًا. فإضافة إلى قدميه، لاحظنا ظهور ورمٍ آخر في عنقه، سبَّب له حشرجة خفيفة في صوته.

وذات ليلة، قرّرنا التدخّل أخيرًا. لم يكن كريغ يستسيغ دور الشرطيّ الشرّير، أمّا والدتي فقد كانت ملتزمة بما فرضته على نفسها: تفادي المشاحنات في ما يتّصل بصحّة والدي. وفي أحاديث من هذا النوع، كان دور المحاور الصعب يقع على عاتقي. قلت لوالدي أنّه من حقّنا أن نطلب منه رؤية الطبيب، وأنّني أنوي الاتّصال بطبيبه صباحًا. وافق والدي على مضض، ووعدني بأنّه سيذهب إذا أعطاني الطبيب موعدًا. ألححت عليه كي ينام حتّى وقت متأخّر صباح اليوم التالي ليتيح لجسمه بعض الراحة.

في تلك الليلة، أوينا إلى سريرينا، أنا ووالدتي، ونحن نشعر بالراحة لأنّنا أمسكنا بزمام الأمور أخيرًا.

كانت لوالدي ولاءاتٌ متشعّبة. ورأى في الراحة نوعًا من الاستسلام. نزلت إلى الطبقة الأرضيّة صباح اليوم التالي لأجد أنّ والدتي غادرت إلى عملها. كان والدي جالسًا إلى طاولة المطبخ وعكّازه إلى جانبه، وكان قد ارتدى بزّته الزرقاء ويجاهد لانتعال حذائه. كان ذاهبًا إلى عمله.

قلت له: «أبي، ظننت أنّك سترتاح. سوف أتدبّر لك موعدًا مع الطبيب...».

هزّ كتفيه من دون اكتراث، وقال: «أعرف يا عزيزتي. لكنّني أشعر الآن بأنّي على ما يرام...». كان صوته أجشّ بسبب ذلك الشيء الغريب الذي بدأ ينمو في عنقه.

كان خلف عناده ذاك كبرياء كبيرة، ما لم يسمح لي بأن أشعر بالغضب. لم يكن هناك مجال لثنيه عن رأيه. ربّانا والدانا على أن نعالج مشكلاتنا بأنفسنا، بالتالي توجّب عليّ أن أثق فيه ليعالج مشكلاته بنفسه، حتّى في تلك اللحظة التي كان يعجز عن انتعال حذائه. تركته وشأنه. أخفيت مشاعر القلق، وقبّلته. ثمّ صعدت ثانية إلى الطبقة العليا لأستعدّ للذهاب إلى عملي. خطر لي أن أتّصل بوالدتي لاحقًا في مكان عملها لأقول لها أنّنا بحاجة

إلى وضع خطّة تمكّننا من إجبار الرجل على الراحة.
سمعت صوت إغلاق الباب الخلفيّ. بعد بضع دقائق، عدت إلى المطبخ لأجده فارغًا. كان عكّاز والدي قرب الباب. عبرت المطبخ مباشرة، ومن دون تفكير، ونظرت من العين السحريّة إلى الشرفة الخلفيّة والممرّ المؤدّي إلى المرأب للتأكّد من مغادرةِ شاحنته.
لكنّ الشاحنة كانت هناك، وكان والدي هناك أيضًا، يعتمر قبّعة ويرتدي سترة شتويّة، ويدير لي ظهره. كان قد تمكّن من بلوغ منتصف الطريق، نزولًا على الدرجات، قبل أن يشعر بالحاجة إلى الجلوس. رأيت الإرهاق على جسده المنحني، وفي تدلّي رأسه نحو الجانب، وفي الحركة البطيئة الأشبه بالانهيارِ التي حاول بها الاستناد إلى السور الخشب. لم يكن يعاني نوبةً ما بقدر ما كان يبدو منهكًا غير قادر على متابعة السير. بدا واضحًا أنّه يحاول استرجاع ما يكفيه من قوّة ليعود أدراجه ويدخل المنزل.
أدركت أنّني كنت أراقبه في لحظة الهزيمة.
مضنية هي تلك الوحدة التي عاناها على مدى أكثر من عشرين سنة اضطرّ خلالها إلى العيش مع مرض كهذا بإصرارٍ، ومن دون تذمّر بينما كان جسده يذوي ببطء لا يرحم. شعرت بألمٍ لم أشعر به من قبل عندما رأيت والدي على الشرفة الخلفيّة. خطر لي أن أركض إلى الخارج وأساعده في العودة إلى بيته الدافئ، لكنّني قاومت الفكرة لأنّني شعرت بأنّ ذلك سيشكّل ضربةً أخرى تمسّ كرامته. تنفّست عميقًا واستدرت لأبتعد من الباب.
قلت في نفسي، سوف أراه عندما يعود إلى المنزل، وأساعده في خلع حذاء العمل، وأُحضر له قليلًا من الماء، وأسنده حتى يبلغ مقعده، وسيكون بيننا تفاهم ضمنيّ صامت بأنّه صار يتعيّن عليه منذ الآن، ومن دون أيّ نقاش، القبول بالمساعدة.
عندما صعدت إلى شقّتي ثانية، جلست أصغي بانتظار لصوت إغلاق الباب الخلفيّ. انتظرت خمس دقائق، ثمّ خمس دقائق أخرى، قبل أن أنزل أخيرًا لأنظر ثانية من خلال العين السحريّة، وأتأكّد من أنّه استطاع الوقوف على قدميه. لكنّ الشرفة الخلفيّة

كانت خالية. لقد تمكّن والدي، بطريقة ما، متحدّيًا كلّ ما هو متورّم وفاقد التوازن داخل جسده، من نزول تلك الدرجات والسير عبر الممشى الذي يغطّيه الجليد لركوب شاحنته التي كانت، في الأغلب، اجتازت الآن منتصف المسافة إلى منشأة تكرير المياه. لم يكن مستعدًّا للاستسلام.

مضت شهور تجنّبنا فيها، أنا وباراك، الحديث صراحة عن فكرة الزواج. كانت علاقتنا بدأت منذ عام ونصف. وطوال تلك الفترة، ظلّت مشاعر الحبّ بيننا ثابتة. كان هو في فصله الدراسيّ الأخير في هارفارد، مستغرقًا بالكامل في عمله في مجلّة Law Review. ولكن، كان من المقرّر أن يعود إلى شيكاغو خلال فترة وجيزة، ليقدّم اختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين في ولاية إلينوي. ومن ثمّ، يبدأ البحث عن عمل. كنّا اتفقنا على أن يعود إلى جادّة يوكليد، ولكن، هذه المرّة بصورة بدت دائمة. بالنسبة إليّ، كان ذلك سببًا آخر يجعلني أشعر بأنّ فصل الشتاء قد طال أكثر ممّا ينبغي.

كنّا نتحدث بإيجاز عن رأيينا في الزواج، وغالبًا ما انتابني القلق، نظرًا إلى مدى الاختلاف في وجهتي النظر. بالنسبة إليّ، كان الزواج أمرًا بدهيًّا، أمرًا نشأت وأنا أتوقّع أن أقوم به يومًا؛ تمامًا كإنجاب الأطفال الذي لطالما كان أمرًا بدهيًّا، مسترجعةً الدلال الذي كنت أغدقه على الدمى عندما كنت طفلة. أمّا باراك، فلم يكن معارضًا فكرة الزواج، لكنّه لم يكن على عجلة من أمره في هذا الشأن. فبالنسبة إليه، أصبح حبّنا يعني كلّ شيء. أصبح يشكّل أساسًا كافيًا لحياة نعيشها معًا، وتمنحنا السعادة والاكتفاء؛ سواء وضعنا الخواتم أم لم نضعها.

كان لأسلوب تربيتنا لا شكّ أثره في تكوين شخصيّتينا. كان الزواج بالنسبة إلى باراك علاقةً قد لا تدوم طويلًا؛ إذ تزوّجت والدته مرّتين، وطلّقت مرّتين، وتمكّنت في كلّ مرّة، من مواصلة حياتها ومهنتها مع طفلين صغيرين، من دون أن تكون لذلك تبعات. أمّا والدَيّ فقد تزوّجا في مستهلّ شبابهما وأمضيا العمر كلّه معًا. بالنسبة إليهما، كان كلّ قرار اتّخذاه قرارًا مشتركًا، وكلّ جهد بذلاه

جهدًا مشتركًا. خلال السنوات الثلاثين، لم يفترقا، ولو ليلة واحدة، إلّا في ما ندر.

ماذا كنّا نريد أنا وباراك؟ كنّا نريد شراكةً عصريّة تناسب كلينا. كان يرى في الزواج علاقة نابعة من الحبّ بين شخصين، يمكنهما أن يعيشا حياتين متوازيتين من دون تضحية بأيّ حلم أو طموح خاصّ. أمّا أنا، فكان الزواج بالنسبة إليّ أشبه باندماج كامل؛ إعادة صوغ حياتين لتصبحا حياة واحدة، توضع فيها سعادة الأسرة في المقدّم. لم أكن أرغب في حياة شبيهة بحياة والدَيّ، ولم أكن أرغب في الحياة داخل المنزل عينه إلى الأبد، وأداء العمل ذاته، من غير أن أطالِب بحيّز خاصّ بي. لكنّني كنت أرغب في ذلك الثبات الذي عاشاه عامًا بعد آخر، وعقدًا بعد عقد. دوّنت في مذكّراتي: «أنا أقدّر قيمة أن تكون للأفراد اهتماماتهم وطموحاتهم وأحلامهم الخاصّة، لكنّني لا أؤمن بأنّ سعي المرء إلى تحقيق أحلامه يجب أن يكون على حساب الثنائيّ».

على الأرجح، كنّا سنتطرّق إلى الموضوع عندما يعود باراك إلى شيكاغو، عندما يصبح الطقس أكثر دفئًا، وعندما تُتاح لنا ثانيةً تمضية عطلة نهاية الأسبوع معًا. كان عليّ أن أنتظر، رغم صعوبة الانتظار. كنت أتوق إلى الاستمراريّة. ومن غرفة المعيشة في شقّتي، كان يتناهى إلى سمعي أحيانًا صوتا والدَيّ الخفيضان وهما يتبادلان الحديث في الطبقة الأرضيّة، وأسمع والدتي تضحك حين يروي لها والدي قصّة ما. أسمعهما عندما يطفئان جهاز التلفاز استعدادًا للنوم. كنت في السابعة والعشرين آنذاك، وكنت أشعر أحيانًا بأنّني في أمسّ الحاجة إلى الشعور بالتكامل. كنت أريد أن أمسك بالأشياء كلّها التي أحببتها أخيرًا، وأثبّتها إلى الأرض بلا رحمة. فقد اختبرت ما يكفيني من حالات الفقدان، حتّى صرتُ أدرك معها أنّ المزيد آتٍ، لا محالة.

كنت أنا من رتّب موعد الطبيب لوالدي، لكنّ ما حصل هو أنّ والدتي هي التي اصطحبته في نهاية المطاف إليه في سيّارة إسعاف. كانت قدماه تورّمتا وأصبحتا طريّتين إلى درجة أنّه اعترف أخيرًا بأنّ السير عليهما كان أشبه بالسير على إبر. وعندما حان

موعد الذهاب إلى الطبيب، كان لا يقوى على الوقوف مطلقًا. كنت يومذاك في العمل، لكنّ والدتي وصفت لي لاحقًا ما حدث: حمله مسعفان قويّا البنية وكان يمازحهما طوال الوقت.

نُقل مباشرةً إلى مستشفى جامعة شيكاغو. تلت ذلك سلسلةٌ من الأيّام الضائعة في سحب عيّنات الدم، وقياس النبض، وصواني الطعام التي تعود من دون أن تُمَسّ، وأفواج الأطبّاء الذين يقومون بجولاتهم. استمرّ جسم والدي ينتفخ طوال الوقت، تورّم وجهه، أصبح عنقه ثخينًا، وغدا صوته ضعيفًا. كان التشخيص الرسميّ هو متلازمة Cushing، التي قد تكون، أو لا تكون، ذات علاقة بداء التصلّب المتعدّد. وفي كلتا الحالتين، كنّا قد تجاوزنا مرحلة العلاجات الموقّتة. فغدده الصمّاء اختلّت بالكامل، وأظهر المسح وجودَ كتلة في حلقه ناميةً بحيث تكاد تسدّ الحلق.

قال والدي للأطبّاء، وقد ارتسمت على وجهه علائم حيرة حقيقيّة: «لا أدري كيف لم ألحظ كلّ ذلك!»، كأنّه لم يشعر بأيّ عارض يؤدّي إلى هذه المرحلة. وكأنّه لم يمضِ أسابيع وأشهرًا، بل سنوات، يتجاهل الألم.

تناوبنا على البقاء معه في المستشفى، والدتي وكريغ وجانيس وأنا. نذهب ونعود، بينما الأطبّاء يحقنون جسده بالأدوية. بدأت الأنابيب تظهر. وبدأت الآلات توصَل بجسمه. حاولنا فهْم ما يخبرنا به المختصّون، لكنّنا لم نفقه سوى القليل. كنّا نسوّي الوسائد حول والدي، ونتحدّث من دون انقطاع عن مباريات كرة السلّة في الجامعة، وعن الطقس في الخارج، ونحن نعرف أنّه يصغي إلينا، لكنّ إجهاده قلّل رغبته في الكلام. كنّا عائلة من المخطّطين. لكنْ، بدا كلّ شيء غير خاضع لأيّ تخطيط. كان والدي يغيب بعيدًا عنّا، رويدًا رويدًا، ويغرق في بحر خفيّ. حاولنا استرجاعه برواية الذكريات القديمة، ورأينا كيف أدّى ذلك إلى ظهور بريق في عينيه: هل تذكر سيّارة البويك القديمة؟ وكيف كنّا نتقلّب على المقعد الخلفيّ الضخم خلال نزهاتنا الصيفيّة؟ هل تذكر قفّازات الملاكمة التي أهديتنا إيّاها؟ هل تذكر بركة السباحة في Duke Happy Holiday Resort؟ وكيف كنتَ تركّب التجهيزات

لمسرحيّة روبي الغنائيّة؟ والعشاء في منزل داندي؟ هل تذكر يوم أعدّت والدتي القريدس المقليّ ليلة رأس السنة؟

ذات مساء، ذهبت لزيارته، فوجدته وحده. كانت والدتي قد ذهبت إلى المنزل لقضاء الليل، والممرّضات متجمّعات خارج الغرفة، في ردهتهنّ. خيّم الهدوء على الغرفة، بل على الطبقة بأكملها. كنّا في الأسبوع الأوّل من آذار/مارس؛ أي أنّ ثلج الشتاء بدأ يذوب، تاركًا المدينة في حالة دائمة من الرطوبة. مضت عشرة أيّام تقريبًا على وجود والدي في المستشفى. ومع أنّه لم يكن قد تجاوز الخامسة والخمسين، إلّا أنّه بدا عجوزًا، بعينيه المائلتين إلى الاصفرار، وذراعيه اللتين لم يكن يقوى على تحريكهما لشدّة ثقلهما. كان صاحيًا، لكنّه كان عاجزًا عن الكلام، بسبب الانتفاخ في حلقه، أو ربّما بسبب الانفعال، لم أعرف قَطّ.

جلستُ قرب سريره أراقبه وهو يحاول التنفّس بصعوبة. عندما وضعت يدي في يده، ضغط عليها بقوّة ما بعث في نفسي الراحة. تبادلنا النظرات بصمت. كان هناك الكثير ليقال. ولكن، بدا أنّنا قلنا كلّ شيء. بقيت حقيقةٌ واحدة فحسب. كنّا نقترب من النهاية. لن يشفى والدي أبدًا. لن يشهد السنوات الباقية من حياتي. كنت أفقد في تلك اللحظة ثباته الذي عهدته، الراحة والبهجة اللتين اعتدت أن أراهما في عينيه. شعرت بالدموع تنهمر على وجنتي.

من دون أن يشيح نظره عنّي، رفع والدي يدي إلى شفتيه، وقبّلها مرّات ومرّات. كانت تلك طريقته ليقول: «هدّئي روعك، لا تبكي». كان يعبّر عن الحزن، وعن حاجة ملحّة. ويعبّر أيضًا عن شيء أكثر هدوءًا وعمقًا، عن رسالةٍ يودّ أن يوضحها. كانت قبلاتُه تلك تقول لي أنّه يحبّني بجوارحه كلّها، وأنّه فخورٌ بالمرأة التي أصبحتُها. كان يقول أنّه يعرف أنّه توجّب عليه الذهاب إلى الطبيب قبل ذلك الوقت بكثير، كان يطلب الصفح، كان يقول وداعًا.

بقيتُ معه تلك الليلة إلى أن غلبه النوم. غادرتُ المستشفى تحت جنح الظلام، في جوّ قارس. قدت السيّارة عائدة إلى المنزل، إلى جادّة يوكليد، حيث كانت والدتي قد أطفأت الأنوار. كنّا وحيدتين في المنزل، أنا وأمّي، نترقّب ما قد يحمله لنا

المستقبل؛ فوالدي كان قد فارق الحياة قبل شروق الشمس. أصيب والدي – فريزر روبنسون الثالث – بنوبةٍ قلبيّة، وتوفّي في تلك الليلة، بعد أن منحنا كلّ شيء.

11

كم تبدو الحياة مؤلمة بعد موت شخصٍ عزيز. مؤلمة وحسب. تشعر بالألم حين تسير في ردهةٍ، حين تفتح الثلّاجة، حين تدخل رجليك في جواربك، حين تنظّف أسنانك. يفقد الطعام مذاقه. تبهت الألوان. تصبح الموسيقى مؤلمة، والذكريات أيضًا. تنظر إلى شيءٍ كان سيبدو جميلًا في ظروف مغايرة: سماء بلون الأرجوان وقت المغيب، أو ملعبًا يعجّ بالأطفال. يتعمَّق شعورك بالفقدان. يبدو الأسى موحشًا في هذه الحالة.

في اليوم الذي تلى وفاة والدي، ذهبنا بالسيّارة، أنا ووالدتي وكريغ، إلى دار الجنازات في الجانب الجنوبيّ، لانتقاء تابوت وإعداد المراسم، أو بحسب ما يُقال لإجراء الترتيبات. لا أذكر الكثير عن تلك الزيارة، سوى الذهول الذي كنّا نشعر به، وقد غرق كلّ منّا في حزنه الخاصّ. مع ذلك، وبينما كنّا نؤدّي ذلك الطقس البغيض، أي انتقاء التابوت المناسب، حصل بيني وبين كريغ الخلافُ الأوّل، والوحيد، كأخوين راشدَين.

تلخّص الأمر في الآتي: كنت أرغب في شراء أجمل تابوت وأغلاه، بكلّ ما يمكن التابوت أن يحويه من مقابض ووسائد إضافيّة. لم يكن هناك أيّ سبب منطقيّ لرغبتي هذه. كان هذا كلّ ما استطعت فعله بعدما عجزت عن القيام بأيّ شيء آخر. ولم يكن الجزءُ العمليّ البراغماتيّ من تنشئتنا ليترك لي مجالًا للاعتماد على العبارات الرقيقة، على رغم صدق نوايا قائليها. وقد

أغدق الناسُ علينا بها خلال الأيّام التي تلت الجنازة. فلم أكن أجد العزاء في القول أنّ والدي ذهب إلى مكان أفضل، أو أنّه جالسٌ مع الملائكة. كان الأمر في نظري يتلخّص بأنّ والدي يستحقّ تابوتًا لائقًا.

أمّا كريغ، فقد أصرّ على أنّ والدي كان يفضّل شيئًا بسيطًا، شيئًا متواضعًا وعمليًّا لا أكثر، يتناسب مع شخصيّته. أيّ شيء مغاير سيبدو بهرجةً أقرب إلى التفاخر.

بدأ النقاش هادئًا، ولكن، سرعان ما اشتدّ. تظاهر المسؤول عن الجنازة لياقةً بأنّه لا يسمعنا، واستغرقت والدتي في آلامها تتأمّلنا عاجزةً عن التدخّل.

كنّا نصرخ ونورد أسبابًا لا علاقة لها بالجدل الأصليّ. لم يكن أيّ منّا معنيًّا بالنتيجة. في النهاية، اتّفقنا على دفن والدي داخل تابوت شكّل حلًا وسطًا، من دون مبالغة في الزخرفة، أو مبالغة في البساطة. ولم نعد نتطرّق إلى هذا الموضوع مطلقًا. كان نقاشنا عبثيًّا وغير ملائم للموقف. ففي أعقاب موت إنسان، يبدو كلّ شيء على سطح الأرض عبثيًّا وغير ملائم.

وبعد أن عدنا بالسيّارة مع والدتي إلى جادّة يوكليد، جلسنا ثلاثتنا في الطبقة الأرضيّة إلى طاولة المطبخ. كنّا منهكين مكتئبين. فجّر منظرُ الكرسيّ الرابع الفارغ مشاعرَ الحزن من جديد، وسرعان ما بدأنا نبكي بحرقة. جلسنا ننتحب فترةً بدت لنا لا تنتهي، إلى أن نضبت دموعنا وشعرنا بالإرهاق. أخيرًا، صدرت من والدتي التي لم تكن قد تكلّمت إلّا نادرًا طوال اليوم، ملاحظةٌ.

قالت بأسفٍ: «انظروا إلينا».

كان هناك شيء من الخفّة في لهجتها. كانت، بملاحظتها تلك، تشير إلى أنّنا، نحن آل روبنسون، وصلنا إلى تلك الحالة المزرية، الحقيقيّة والتافهة، بجفوننا المتورّمة وأنوفنا السائلة، بألمنا وعجزنا، هنا، في مطبخنا. من كنّا؟ ألم نكن ندرك قبلًا؟ ألم يوضِح أبي لنا الأمر؟ كانت والدتي تُنادينا للعودة من شعورنا بالوحشة، بكلمتين بسيطتين، كما لا يمكن أحدًا سواها أن يفعل.

نظرتْ والدتي إليّ، ونظرتُ أنا إلى كريغ. فجأةً، بدت اللحظة

هزليّة حقًّا. كنّا نعرف أنّ الضحكة الأولى كانت تنطلق من الكرسيّ الخالي. بدأت الضحكات المكبوتة تتصاعد شيئًا فشيئًا، إلى أن انفجرتْ نوباتُ الضحك. أدركُ الآن أنّ ذلك قد يبدو غريبًا، لكنّنا كنّا نجيد الضحك، أكثر بكثير ممّا نجيد البكاء... كنا نعي أنّ أبي كان يفضّل ذلك، فأطلقنا العنان لضحكاتنا.

إثر فقدان والدي، تفاقم الشعور عندي بأنّه لا يوجد متّسع من الوقت للجلوس، والتفكير في الآليّة التي ينبغي لحياتي أن تسير وفقها. لم يكن والدي قد تجاوز الخامسة والخمسين. وعندما توفّيت سوزان، لم تكن قد تجاوزت السادسة والعشرين. بدا الدرس غاية في البساطة: الحياة قصيرة ويجب عدم تبديدها. فكّرت في أنّي إذا متّ، لا أريد أن يتذكّرني الناس من خلال أكوام المذكّرات القانونيّة التي كتبتها، أو من خلال العلامات التجاريّة التي ساعدت الشركات في الدفاع عنها. غمرني شعور أكيد بأنّ لديّ ما هو أكثر لأقدّمه إلى العالم. حان وقت التغيير.

وبما أنّني لم أكن واثقةً بعد من المجال الذي آمل بأن أعمل فيه، كتبت رسائل عدّة ضمّنتها مؤهّلاتي وبعثت بها إلى أشخاص في أنحاء شيكاغو كلّها. كتبتُ رسائل إلى مديري مؤسّسات، وإلى جمعيّات خيريّة اجتماعيّة، وإلى الجامعات الكبرى في المدينة. وبعثت برسائل إلى الأقسام القانونيّة تحديدًا؛ لا لأنّني كنت أرغب في العمل في المجال القانونيّ، بل لأنّني تصوّرت أنّ تلك الأقسام ستستجيب، على الأرجح، لسيرتي الذاتيّة. ولحسن الحظّ، استجاب أشخاص كثرٌ، ودعوني إلى تناول الغداء، أو إلى الاجتماع بهم، علمًا أنّه لا تتوفّر فرصة عمل لديهم. خلال فصلَي الربيع والصيف العام 1991، كنت أجتمع بأيّ شخص خُيِّل إليّ أنّ في إمكانه تقديم النصح لي. لم تكن الفكرة هنا مجرّد العثور على عمل جديد، بقدر ما كانت تعزيزَ فهمي الإمكانات، وكيفيّة تعامُل الآخرين مع ذلك. بدأت أدرك أنّ المرحلة التالية من الرحلة لن تتكشّف من تلقاء نفسها، وأنّ درجاتي الأكاديميّة الممتازة لن تقودني، بصورة آليّة، إلى ممارسة عمل مليء بالإنجازات. فالعثور على مهنة، وهذا مختلف عن العثور على

عمل، لا يأتي فحسب نتيجةَ تصفّح دليل أسماء الخرّيجين، بل يتطلّب تفكيرًا عميقًا، وبذل جهد كبير. عليّ أن أشقّ طريقي وأن أتعلّم. هكذا، بدأت أشرح معضلتي المهنيّة، مرارًا وتكرارًا، أمام الأشخاص الذين كنت أقابلهم، وأسألهم عمّا فعلوه، وعمّن يعرفون. طرحت عليهم أسئلةً جدّيّة حول نوع العمل الذي قد يتوفّر لمحامية لا ترغب، في واقع الأمر، في ممارسة المحاماة.

ذات يوم، خلال فترة بعد الظهر، زرت مكتب رجلٍ ودود يدعى آرت سوسمان، وكان يعمل مستشارًا قانونيًّا في جامعة شيكاغو. تبيَّن لاحقًا أنّ والدتي سبق أن عملت لديه سكرتيرةً مدّة سنة، كانت خلالها تكتب الرسائل التي يُمليها عليها، وتنظّم ملفّات القسم القانونيّ. حصل ذلك عندما كنتّ طالبةً في المدرسة الثانويّة، أي قبل أن تعمل في المصرف. فوجئ آرت بأنّي لم أزرها في المكتب أبدًا، وبأنّني لم أطأ، فعليًا، حرم الجامعة العريق ذا الطراز القوطيّ قبل تلك اللحظة، على رغم أنّني نشأت على بعد كيلومترات فحسب.

والحقيقة أنّه لم يكن هناك سبب يدفعني إلى زيارة حرم الجامعة، فلم تنظّم المدرسة في حيّنا رحلاتٍ ميدانيّة إليها. وفي حال كان وجود فعاليّات ثقافيّة متاحة لأهل المنطقة، في طفولتي، فإنّ عائلتي لم تكن على درايةٍ به، فنحن لم يكن لدينا أصدقاء، ولا حتّى معارف، من طلّاب الجامعة أو من خرّيجيها. كانت جامعة شيكاغو جامعة نخبويّة. وبالنسبة إلى معارفي كافّة آنذاك، كانت كلمة «نخبة» تعني: «ليست من أجلنا». كانت أبنية الجامعة، المشيّدة بأحجار رماديّة، تدير ظهرَها، بالمعنى الحرفيّ، للشوارع الموجودة حولها. وعندما كان والدي يمرّ بسيّارته أمامها، كان يرفع عينيه مستهجنًا لدى مشاهدة طلّابًا وهم يخالفون أنظمة المرور، من دون اكتراث، لدى عبورهم شارع Ellis؛ وكان يتساءل: كيف لم يتمكّن أولئك الأشخاص الأذكياء من تعلُّم كيفية عبور الشارع؟!

عائلتي، على غرار كثر من سكّان الجانب الجنوبيّ، لم تكن على دراية بما يحصل في الجامعة، على رغم أنّ والدتي عملت

هناك سنةً كاملة كانت سعيدة فيها. وعندما حان الوقت لنختار، أنا وكريغ، الجامعة التي سنرتادها لم تراودنا حتّى فكرة تقديم طلب إلى جامعة شيكاغو، فقد بدت لنا برِنستون، ولسبب غريب، مناسبة أكثر.

بعد أن سمع آرت ذلك كلّه، قال وهو يعجز عن التصديق: «ألم تأتِ إلى هنا مطلقًا؟ مطلقًا؟!».

قلت: «لا، ولا حتّى مرّة واحدة».

كانت هناك قوّة غريبة كامنة في قول هذه العبارة بصوت عالٍ. لم أكن قد فكّرت بالأمر جدّيًّا قبل تلك اللحظة. ولكن، خطر لي حينذاك، أنّني ربّما كنت سأصبح طالبةً ممتازة في جامعة شيكاغو، لولا اتّساع الهوّة بين سكّان المنطقة وطلّاب الجامعة، وهيئتها التدريسيّة، وإن كنت أعرف الجامعة، وكانت الجامعة تعرفني. شعرت، حيال التفكير في ذلك، بوخزةٍ داخليّة، بشعور مفاجئ وخفيّ باهتمام ما. مكّنتني تلك التوليفة بين المكان الذي نشأت فيه، وما أنجزته حتّى الآن بنفسي من إدراك أمر مهمّ. اكتشفت فجأةً أنّ كوني امرأة سوداء نشأت في الجانب الجنوبي لشيكاغو، ساعدني في التنبّه إلى مشكلاتٍ لم يكن رجل مثل آرت سوسمان يعرف بوجودها.

بعد سنوات عدّة، توفّرت لي فرصة العمل مع الجامعة، والالتفات مباشرةً إلى مشكلات في المجتمع المحلّيّ. أمّا في تلك اللحظة، فقد عرض عليّ آرت بلطف أن ينقل سيرتي الذاتيّة إلى المعنيّين.

قال لي: «أعتقد أنّ عليك التحدّث مع سوزان شير». تكلّم يومذاك من دون أن يدري، عن سلسلة من الفرص المتتالية. كانت سوزان تكبرني بخمس عشرة سنة تقريبًا، وكانت شريكةً في مكتب محاماة شهير، لكنّها تركت العمل في عالم الشركات، مثلما رغبتُ أنا في أن أفعل، مع أنّها ظلّت تزاول مهنة المحاماة في المجلس المحلّيّ لمدينة شيكاغو. سوزان صاحبة عينين رماديّتين، وبشرة بيضاء مثل بشرة الملكة فيكتوريا، وضحكة تنتهي دومًا بشهقة شقيّة. كانت واثقة في نفسها من دون

ادّعاء، ومتمكّنة في مجالها إلى حدّ بعيد، وأصبحت صديقتي منذ ذلك الوقت. قالت لي بعد أن اجتمعنا أخيرًا: «لو لم تخبريني للتوّ بأنّك لا ترغبين في العمل محامية، لكنت وظّفتك فورًا».

اقترحت سوزان أيضًا أن ترسل سيرتي الذاتيّة إلى إحدى زميلاتها الجدد في دار البلديّة، محامية شركات أخرى من النوع الذي يغيّر عمله باستمرار، ويتميّز بميله الشديد نحو الخدمة العامّة. كانت هذه المحامية مثلي، من سكّان الجانب الجنوبي، وقد قُدِّر لها أن تغيّر مسار حياتي، ليس مرّة واحدة، بل مرّات ومرّات. قالت سوزان: «فاليري جاريت هي الشخص الذي تحتاجين فعلًا إلى مقابلته».

كانت فاليري جاريت عُيِّنت أخيرًا نائبًا لمدير فريق عمل محافظ شيكاغو، وكانت لها علاقات داخل أوساط الأفريقيّين الأميركيّين في المدينة. وكانت، مثل سوزان، ذكيّةً إلى حدّ جعلها تحصل على عمل في إحدى الشركات الكبرى بعد تخرّجها في كلّيّة الحقوق. كما كانت تتحلّى بما يكفي من الوعي لتدرك لاحقًا أنّها ترغب في ترك الشركة. كان السبب الأهمّ لانتقالها إلى العمل في دار البلديّة هو تأثّرها بهارولد واشنطن الذي انتُخب محافظًا العام 1983، أي عندما كنتُ طالبةً جامعيّة، وهو أوّل رجل أفريقيّ أميركيّ يتبوّأ هذا المنصب. كان واشنطن سياسيًّا فصيحًا وحيويًّا، وكان والداي يحبّانه بسبب أسلوبه في صوغ خطاب شعبيّ من نوع مختلف، مضمّنًا إيّاه عبارات شكسبير، وبسبب الحماسة التي كان يلتهم بها قطع الدجاج المقليّ أثناء النشاطات الشعبيّة المحلّيّة التي نُظِّمت في الجانب الجنوبيّ. والأهمّ من ذلك كلّه، كان واشنطن يناهض آليّة العمل الجائرة المترسّخة في أوساط الحزب الديمقراطيّ، والتي حكمت شيكاغو طويلًا، إذ كانت تمنح المموّلين السياسيّين العقودَ المربحة في المدينة، وفيما كان السود في خدمة الحزب إلّا أنّهم لم يحظوا بفرصة الترشّح إلى المناصب الرسميّة إلّا في ما ندر.

فاز واشنطن بالانتخابات بفارق ضئيل بعد أن تمحورت حملته حول إصلاح المنظومة السياسيّة في المدينة، وحول توفير عناية

أفضل لأحيائها المهملة. اتّسم أسلوبه بالوقاحة، ومزاجه بالجرأة. استطاع تجريد خصومه من قوّتهم بفضل فصاحته وذكائه. رجل أسود حادّ الذكاء، خارق القوّة. وكان يصطدم باستمرار وبجرأة مع أعضاء الحرس القديم في البلديّة، ومعظمهم من البيض. وهو يُعتبر أسطورة حيّة، بخاصّة في صفوف المواطنين السود الذين كانوا يعتقدون أنّ قيادته توقد في النفوس روحًا تقدّميّة أكثر قوّة. كانت الرؤية التي يحملها تمثّل إلهامًا لباراك الذي جاء إلى شيكاغو، في العام 1985، ليعمل منسّقًا.

كانت فاليري أيضًا من المعجبات بواشنطن. وعندما انضمّت إلى فريق عمله العام 1987، أي بداية ولايته الثانية، كانت في الثلاثين من عمرها، كما كانت أيضًا أمًّا لطفلة وعلى وشك الطلاق، أي أنّها لم تكن في المرحلة المناسبة لتغيّر عملها وتنتقل إلى وظيفة بأجرٍ أقلّ، وهو ما يحصل عند ترْك شركة محاماة مرموقة، للعمل في الشأن العام. بعد بضعة أشهرٍ من التحاقها بالوظيفة الجديدة، وقعت المأساة: أصيب هارولد واشنطن فجأةً بنوبة قلبيّة، وتوفّي وهو جالس إلى طاولة مكتبه، بعد نصف ساعة من عقده مؤتمرًا صحفيًّا حول مشروعات الإسكان لذوي الدخل المحدود. في أعقاب تلك الكارثة، عيّنَ المجلس البلديّ في منصب واشنطن رجلًا أسودَ من أعضاء المجلس التشريعيّ للمدينة، لكنّه بقي في منصبه مدّة قصيرة نسبيًّا. وفي حركة اعتبرها كثرٌ من الأفريقيّين الأميركيّين عودةً سريعة محبِطة إلى أساليب البيض القديمة في إدارة سياسة شيكاغو، انتخبَ المقترعون ريتشارد م. داليه. وهو ابن ريتشارد ج. داليه، المحافظ السابق، وقد اعتبره كثرٌ الأب الروحيّ لسياسة المحسوبيّات الشهيرة في شيكاغو.

وعلى رغم تحفّظات فاليري كلّها بشأن الإدارة الجديدة، إلّا أنّها قرّرت مواصلة العمل في دار البلديّة، وانتقلت من القسم القانونيّ إلى مكتب المحافظ داليه مباشرة. كانت سعيدة بالوجود هناك بسبب اختلاف الأجواء، إضافة إلى أسباب أخرى. قالت لي أنّ انتقالها من العمل في مجال قانون الشركات إلى العمل الحكوميّ

أشعرها بالارتياح. كان أشبه بقفزةٍ مشحونة بالطاقة، من الواقع الزائف والمنمّق لمزاولة المحاماة في الطبقات العليا من ناطحات السحاب، إلى العالم الواقعيّ؛ العالم الواقعيّ فعليًّا.

البناء الذي يضمّ دار البلديّة ومجلس المقاطعة في شيكاغو، شُيّد بالغرانيت الرماديّ، له سطح علويّ منبسط، وهو مؤلّف من إحدى عشرة طبقة، ويشغل المساحة بين منطقة كلارك وشارع لاسال بأكملها، شمال Loop. ومقارنة بالأبراج الشاهقة المحيطة به، والتي تضمّ مكاتب، يبدو هذا المبنى أقلّ ضخامة، لكنّ مظهره لا يخلو من الفخامة، حيث تزدان واجهته الخارجيّة بأعمدة كورنثيّة عالية، إلى جانب الردهات الفسيحة المكسوّة في غالبيّتها رخامًا. يدير مجلس المقاطعة شؤونه من الجزء الشرقيّ من المبنى؛ أمّا دار البلديّة فتشغل الجزء الغربيّ الذي يضمّ مكاتب المحافظ وأعضاء المجلس البلديّ، إضافة إلى سكرتير العمدة. كانت دار البلديّة، وفق ما اكتشفتُ في ذلك اليوم الصيفيّ الخانق حين ذهبت لإجراء مقابلة توظيف مع فاليري، مكتظّةً بالناس على نحو مقلق، إنّما يرفع المعنويات في الوقت عينه.

كان هناك أناس يعقدون زيجاتهم، وآخرون يسجّلون أوراق سيّاراتهم. وهناك أشخاص يقدّمون شكاوى بشأن الحفر الموجودة في الطرق، وضدّ مالكي منازلهم وبخصوص المجاري في أحيائهم، وبشأن كلّ ما يمكن البلديّة إصلاحه. كان هناك أطفال رُضّع داخل عرباتهم، ومسنّون على مقاعد نقّالة. كان هناك صحافيّون وأعضاء جماعات ضغط، وأشخاص مشرّدون يحاولون الهرب من حرارة الجوّ في الخارج. وعلى الرصيف المقابل للبناء، وقفَ ناشطون يلوّحون بلافتات، وينشدون أغانيَ بصوت مرتفع، لا أتذكّر الآن السبب الذي أثار غضبهم. أتذكّر فحسب الدهشة والافتتان اللذين شعرت بهما لدى رؤية تلك الفوضى المتواصلة والمضبوطة في ذلك المكان. كانت دار البلديّة تنتمي إلى الناس، وكانت تسري في أرجائها حركةٌ سريعة جريئة لم أعهدها في مكاتب Sidley.

خصّصت فاليري عشرين دقيقة في ذلك اليوم للتحدّث معي.

ولكن، كانت النتيجة أن طال حديثنا ساعة ونصفًا. كانت سيّدة أفريقيّة أميركيّة نحيلة ذات بشرة فاتحة، ترتدي بذلة ذات تفصيل أنيق، حديثها عذبٌ ورصانتها تلفت الأنظار. كانت ترمقني بنظرة ثاقبة من عينيها البنيّتين. شعرتُ نحوها بالإعجاب، عندما لاحظتُ مدى فهمها آليّة العمل في المدينة. بدا أنّها تستمتع بعملها، لكنّها لم تحاول تجاهل المشكلات البيروقراطيّة الكامنة في العمل الحكوميّ. ثمّة شيء في شخصيّتها أشعرني بالارتياح. بعد سنوات، أخبرتني فاليري بمدى دهشتها لكوني تمكّنت في ذلك اليوم من عكْس آليّة مقابلة التوظيف المتعارَف عليها. صحيح أنّني قدّمتُ لها معلومات مفيدة أساسيّة حولي، إلّا أنّني استجوبتها أيضًا، رغبةً منّي في فهم مشاعرها آنذاك تجاه العمل الذي تؤدّيه، ومعرفة مدى تجاوب المحافظ مع موظّفيه. كنتُ أختبر مدى ملاءمة العمل بالنسبة إليّ، بقدر ما كانت هي تختبر مدى ملاءمتي للعمل.

لدى استرجاعي تلك الأحداث، أكاد أجزم أنّني حاولتُ الاستفادة ممّا بدا فرصةً نادرة لتبادل الحديث، مع امرأةٍ آتية من خلفيّة مشابهة لخلفيتي، لكنّها دخلت معترك العمل قبلي ببضع سنوات. كانت فاليري سيّدة هادئة جريئة وحكيمة على نحوٍ لم ألحظه من قبل إلّا عند أشخاص قلائل. لاحظتُ أيضًا أنّها كانت من الأشخاص الذين يمكن المرء أن يتعلّم منهم وأن يسعى إلى البقاء بقربهم.

قبل أن أغادر المكتب، عرضت عليّ فاليري عملًا، إذ دعتني إلى الانضمام إلى فريق عملها بصفة مساعدة المحافظ داليه. وقالت أنّ في إمكاني بدء العمل عندما أشعر بأنّي جاهزة. في تلك الوظيفة، لم يكن عملي في مجال القانون ولم يكن راتبي يزيد عن ستّين ألف دولار، أي نصف الراتب الذي كنت أتقاضاه آنذاك من Sidley & Austin. أخبرتني فاليري أنّ عليّ التروّي قليلًا، والتفكير في ما إذا كنت فعلًا مستعدّة للتغيير من هذا النوع. كان عليَّ أن أفكر في تلك النقلة وإن كنت مستعدة للقيام بها.

لم أكن أكنّ احترامًا كبيرًا لدار البلديّة؛ فنظرًا إلى كوني فتاة

سوداء نشأت في الجانب الجنوبيّ، لم أثق كثيرًا في العمل السياسيّ. فالسياسة تُستغَلّ تقليديًا لغير مصلحة السود. كانت وسيلةً لعزلنا وإقصائنا، ولإبقائنا في وضع تعليميّ متدنٍّ، عاطلين من العمل. وإذا عملنا، لا نحصل على أجرٍ مناسب. كابد جدّاي وجدّتاي العيشَ في ظلّ الرعب الذي شكّلته قوانين جيم كرو، كما عانوا إذلال التمييز في تأمين المساكين. بالتالي، لم يثقوا أساسًا في السلطة، أيًّا كان نوعها (كان جدّي، ساوث سايد، بحسب ما تذكرون، لا يستبعد أن يطاوله الأذى حتّى من طبيب الأسنان). أمّا والدي، الذي أمضى الجزء الأكبر من حياته موظّفًا في البلديّة، فقد كان رئيسًا للدائرة الانتخابيّة للحزبِ الديمقراطيّ لكي يتيسّرَ الأخذُ في الاعتبار ترقيته في عمله. راقَ والدي الحيّزُ الاجتماعيّ الذي تفرضه واجبات ذلك المنصب، لكنّ المحسوبيّة السائدة في البلديّة أشعرته بالإحباط على الدوام.

وها أنا أفكّر، فجأةً، في العمل في البلديّة. لا شكّ في أنّ انخفاض الدخل جعلني أنفر لحظة، لكنّ العمل أثار اهتمامي على مستوى أعمق. شعرت بوخزةٍ أخرى، بشيء ما يدفعني صوب ما يمكن أن يكون مستقبلًا مختلفًا عمّا خطّطت له. كنت شبه مستعدّة لتلك النقلة المفاجئة، لولا شخص واحد؛ فالأمر لم يعد يتعلّق بي وحدي. عندما اتّصلت بي فاليري بعد بضعة أيّام لمتابعة الموضوع، أخبرتها بأنّي ما زلت أفكّر في العرض، ثمّ طرحت عليها سؤالًا أخيرًا، وقد يكون غريبًا. قلت لها: «رجاء، هل يمكنني أن أعرفك إلى خطيبي؟».

أعتقد أنّ عليَّ أن أعود قليلًا إلى الوراء، وأسترجع أحداث قصّتنا خلال أيّام الحرّ الخانق في ذلك الصيف، في خضمّ دوّامة الارتباك والغموض التي عشت فيها أشهرًا بعد وفاة والدي. كان باراك قد عاد إلى شيكاغو ليلازمني قدر المستطاع خلال جنازة والدي، ثمّ عاد لإنهاء دراسته في هارفارد. بعد تخرّجه في شهر أيار/مايو، حزم أمتعته، وباع سيّارته الداتسون الصفراء بلون الموز، وعاد إلى شيكاغو. توجَّه إلى جنوب شارع يوكليد، الرقم 7436، ليكون بين ذراعَيّ. كنت أحبّه، وشعرت بأنّه يحبّني. وقد اجتزنا بنجاح عامَين،

كنّا خلالهما حبيبين يعيشان بعيدين من بعضهما بعضًا. وها نحن الآن، أخيرًا، حبيبان يعيشان قريبين من بعضهما بعضًا. ما يعني أنّه صار في إمكاننا العودة إلى تمضية ساعاتٍ في السرير خلال عطلة نهاية الأسبوع، نقرأ فيها الصحف، ثمّ نخرج لتناول فطور متأخّر، ولتبادل كلّ ما يخطر في بالنا من أفكار. وما يعني أيضًا، تناول العشاء خارجًا، في ليالي الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأن نتسوّق حاجات البيت، وأن نطوي الثياب المغسولة أمام التلفاز. وفي الأمسيات الكثيرة التي أشعر فيها برغبة في البكاء بسبب فقداني والدي، كان باراك موجودًا ليضمّني وليقبّل جبيني.

كان باراك مرتاحًا، إذ إنّه أنهى دراسته أخيرًا في كلّيّة الحقوق، وبات متشوّقًا إلى الخروج من العوالم النظريّة التي يفرضها العالَم الأكاديميّ، وإلى بدء عمل واقعيٍّ وممتع. وباع فكرة كتاب كان في صدد تأليفه، حول العرق والهويّة، إلى ناشر في نيويورك. وبدت الصفقة، بالنسبة إلى رجلٍ مثله يعشق الكتب، إنجازًا كبيرًا. تلقّى دفعةً مقدّمًا، ومُنِح سنةً تقريبًا لإنهاء المخطوطة.

كعادته، بدا باراك يتمتع بخيارات كثيرة. فقد كانت سمعته – الناجمة عن التقارير التي كال فيها أساتذتُه المديحَ له، وتقرير صحيفة نيويورك تايمز حول اختياره مديرًا لصحيفة Law Review – توفّر له فرصًا كثيرة. عرضت عليه جامعة شيكاغو أن ينضمّ إليها، لكن من دون راتب (Fellowship)، ووضعت في تصرّفه مكتبًا صغيرًا مدّة عام كي يؤلّف كتابه. ربّما، في نهاية الأمر، يوقّع عقدًا للتدريس في كلّيّة الحقوق، بصفته أستاذًا مساعدًا. كان زملائي في Sidley & Austin ما زالوا يأملون بأن يعمل في الشركة دوامًا كاملًا، فأمّنوا له مكتبًا يستخدمه خلال الأسابيع الثمانية المتبقيّة لتقديمه اختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين، في شهر تموز/يوليو. وكان إلى جانب كلّ ذلك، يدرس إمكان العمل لدى شركة Davis, Miner, Barnhill & Galland، وهي شركة صغيرة ناشطة في مجال المصلحة العامّة، تُعنى بقضايا الحقوق المدنية، وفرص الإسكان العادلة، إضافة إلى أنّ محاميها كانوا

ينحازون إلى الخطّ الذي يمثّله هارولد واشنطن، وهذا ما شكّل عاملًا جاذبًا مهمًا بالنسبة إلى باراك.

إن الرجل الذي يعتقد أنّه يمتلك فرصًا غير محدودة، ولا يضيع وقتًا أو طاقة في التساؤل عمّا إذا كانت تلك الفرص ستتلاشى يومًا، لديه عامل محفّز في داخله. كان باراك عمل بجدّ وبمسؤوليّة لنيل كلّ ما كان يُقدَّم له آنذاك. لكنّه لم يسجّل إنجازاته، أو يقِس تقدّمه في الحياة مقارنة بالآخرين، كما فعل أشخاص كثر من معارفي، بل كما كنت أفعلُ في بعض الأحيان. في الغالب، كان يبدو غافلًا عن السباق المحموم نحو الثروة والجاه في هذه الحياة، وعن الأشياء الماديّة كلّها التي يُفترض بأيّ محامٍ، في الثلاثينيّات من العمر، السعي إلى امتلاكها، بدءًا بسيّارة لا تسبّب إحراجًا، وصولًا إلى بيت في الضواحي يضمّ باحة خلفيّة، أو شقّة أنيقة في منطقة Loop. لاحظتُ هذه الميزة فيه سابقًا، لكنّني في الفترة التي كنّا نعيش فيها معًا، وأفكّر خلالها في القيام بأوّل تحوّل حقيقيّ في حياتي، بدأتُ أقدّرها أكثر.

باختصار، كان باراك مؤمنًا وواثقًا في نفسه في الوقت الذي تخلّى الآخرون عن الإيمان والثقة. كان على قناعة بأنّك إذا تمسّكت بمبادئك، فسوف تنجح في ما تقوم به. أمّا أنا فناقشتُ وقتذاك بدقّة وعقلانيّة أشخاصًا كثرًا في رغبتي في ترك مهنة كنت ناجحةً فيها، إذا ما استندنا إلى المعايير الخارجيّة كلّها. وكنت، مرّة إثر مرّة، ألاحظ تعابير الحذر والقلق على وجوه الكثيرين حين أتحدّث عن القروض التي ينبغي تسديدها، أو عن فشلي في تدبّر أمر شراء منزل. لم أستطع منع نفسي من التفكير في والدي، وكيف تعمّد أن يضع لنفسه أهدافًا متواضعة وتجنّب المخاطرة لكي يُشعِرنا بالاستقرار. وأينما كنت أتّجه، كانت ترنّ في أذنيّ نصيحة والدتي: اكسبي المال أوّلًا ثمّ فكّري في سعادتك. زادَت قلقي تلك اللهفةُ الكامنة في أعماقي، والتي تطغى على كلّ ما عداها من الرغبات المادّيّة: كنت أدرك أنّني أريد إنجاب أطفال في أسرع وقت ممكن. ولكن، كيف يمكن تلك الرغبة أن تتحقّق إذا بدأتُ العمل في مجال جديد بالكامل؟

عندما عاد باراك إلى شيكاغو، صار بالنسبة إليّ أشبه بالدواء المهدّئ. استوعب قلقي. كان يصغي إليّ عندما أعدِّد التزاماتي المادّيّة، ويؤكّد لي أنّه، هو أيضًا، يتلهّف لإنجاب أطفال. أقرّ باراك بأنّه لا يسعنا توقّعَ كيف سنتمكّن من تدبير الأمور، إذا ما أخذنا في الاعتبار، أنّ أيًّا منّا لم يرغب في أن يحصر نفسه في إطار الحياة المريحة التي يتمتّع بها المحامون عادةً. لكنّ المحصّلة التي خرجنا بها في النهاية، هي أنّنا لم نكن فقراء إطلاقًا، وأنّ مستقبلنا كان واعدًا. وربّما كانت الصعوبات التي تعترضنا خلال التخطيط له، هي التي تجعله واعدًا أكثر.

كان باراك الشخص الوحيد الذي يشجّعني على المُضيِّ قُدمًا، وتجاهل دواعي القلق كلِّها، والتوجّه صوب كلّ ما اعتقد أنّه سيسعدني. لم يكن هناك ضير في القفز نحو المجهول، لأنّ – وسيعتبرُ أفراد أسرتَي شيلدز وروبنسون في معظمهم، بمن فيهم داندي وساوث سايد، هذه الفكرةَ مروّعة – المجهولَ لن يقتلني.

كان باراك يقول لي: «لا تقلقي، في إمكانك القيام بذلك. سنتدبّر أمرنا».

سأتحدّث الآن قليلًا عن اختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين: إنّه واجب شاقّ لا بدّ منه لأيّ محام تخرّج لتوّه ويرغب في مزاولة المحاماة. ومع أنّ محتوى الاختبار نفسه وأسلوبَه يختلفان نسبيًّا من ولاية إلى أخرى، فإنّ تجربة التقدّم للاختبار – وهي جهدٌ يستمرّ اثنتي عشرة ساعة في اليوم، مدّة يومين كاملين، لإثبات إلمام الشخص بكلّ شيء: بدءًا بقانون التعاقد، وصولًا إلى القواعد الغامضة التي تحكم العمليات الآمنة – تُعتبر عمومًا تجربة في غاية الصعوبة. كان باراك يفكّر في التقدّم للاختبار الذي كنت قد تقدّمتُ إليه في ولاية إلينوي قبل ثلاث سنوات، أي في صيف العام الذي أنهيت فيه دراستي في هارفارد، بعدما أمضيت شهرين من العمل المضني في مكتب Sidley، والتحقتُ في الوقت نفسه بدورة تحضيريّة، وأجبرت نفسي على الغوص في كتاب سميك يتضمّن اختبارات ذات صلة.

حصل ذلك خلال الصيف الذي زُفّت فيه جانيس إلى كريغ، في مدينتها، دنفر. طلبَت منّي جانيس أن أكون إحدى وصيفاتها. اندفعتُ بسرعة ولهفة للقيام بالدور، لأسباب عدّة؛ لم يكن أقلّها أنّني كنت كددتُ في الدراسة، سبع سنوات من دون توقّف، في برِنستون وهارفارد. رحت أعبّر عن إعجابي بفساتين الزفاف، وساعدت في تنظيم حفلة العروس التي تسبق الزفاف. لم أتوانَ عن القيام بأيّ شيء لجعل ذلك اليوم المبارك أكثر بهجة. في عبارةٍ أخرى، كانت حماستي لفكرة تلاوة شقيقي نذورَ الزواج، تفوق بما لا يوصف، حماستي لمراجعة التعريف القانوني للجنحة.

في ذلك الوقت، كانت نتائج الاختبارات تصل من طريق مكتب البريد. في خريف ذلك العام، وبعد أن قدّمت الاختبار وتزوّج شقيقي، اتّصلت بوالدي من مقرّ عملي، وسألته عمّا إذا كان بين البريد مظروف يحمل اسمي. كان بالفعل هناك مظروف يحمل اسمي. هل كان يضمّ رسالة من الجهة التي تُعنى باختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين في ولاية إلينوي؟ «لماذا...؟ نعم... هذه هي الجهة المرسِلة المدوّنة على الظرف». طلبتُ منه فتحه نيابة عنّي. سمعت خشخشة أوراق، ثمّ ساد صمتٌ طويل مميت.

فشلتُ في الاختبار.

لم يسبق لي أن فشلت في حياتي في أيّ امتحان، إلّا إذا أخذنا في الاعتبار اللحظةَ التي وقفتُ فيها في روضة الأطفال عاجزةً عن قراءة الكلمة «أبيض» المكتوبة على بطاقات كبيرة. لكنّني فشلت في اختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين. شعرت بالخزي. كنت واثقةً في أنّني خذلت كلّ شخص درّسني أو شجّعني أو وظّفني. لم أكن معتادة ارتكابَ الأخطاء، بل كنت معروفة، تحديدًا، بإفراطي في التحضير للأمور، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بلحظةٍ مهمّة، أو بامتحانٍ مهمّ. لكنّني فوتُّ تلك الفرصة. وأعتقد الآن أنّ فشلي عائد إلى عدم اكتراثي خلال سنوات دراستي في كلّيّة الحقوق، وهو شعورٌ جاء نتيجة الإجهاد والإرهاق الشديدين، إذ كنت طالبةً ملّت دراسة

موضوعات لا يفهمها سوى قلّة من الناس، وبعيدةً كلّ البعد عن الحياة الواقعيّة. كنت أريد التعامل مع الناس، لا مع الكتب، وهذا ما جعل الفترة التي تطوّعت فيها للعمل في مكتب المساعدة القانونيّة التابع للكلّيّة أجمل مرحلة عشتها في كلّيّة الحقوق، حيث كنت، على سبيل المثل، أساعد في الحصول على شيكات الضمان الاجتماعيّ، أو في مواجهة صاحب مُلك يخالف القانون.

وفي المحصّلة، لم أكن أحبّ الفشل. ظلّ وخز ألمه يلازمني أشهرًا، حتّى بعد اعتراف كثر من زملائي في Sidley بأنّهم هم أيضًا رسبوا في اختبار الانتساب إلى جدول المحامين المتدرّجين في أوّل مرّة خضعوا له. في وقت لاحق من ذلك الخريف، انكببت على الدراسة كي أعيد الاختبار نفسه، ونجحتُ بسهولة. في نهاية المطاف، وإذا ما استثنينا الأمور المتعلّقة بالكبرياء، لم يكن لفشلي أيّ تأثير على الإطلاق.

بعد سنوات، كنت أسترجع ذكريات تلك الفترة فيما أراقب باراك بحشريّة يتهيّأ أيضًا للاختبار. كان يشارك في دورات تحضيرٍ، ويراجع الموادّ في كتبه الخاصّة، مع أنّه في رأيي، لم يكن يدرس فيها كما ينبغي، أيّ مثلما كنت سأتصرّف لو أنّني عرفتُ مسبقًا ما صرت أعرفه. لكنّني لم أكن أصرّ على التطرّق إلى الموضوع، أو على تذكيره برسوبي. كانت تركيبتانا، أنا وباراك، مختلفتين. كان هو يخزّن معلومات ومعطيات كثيرة في ذهنه ويستحضرها متى احتاجها. أطلقت عليه اسم « The Fact Guy» (رجل الأرقام)، لما كان يمتلكه من إحصاءات دقيقة عن أيّ موضوع قد يُتطرّق إليه. كانت ذاكرته قادرة على تخزين كلّ ما يراه تقريبًا. في الواقع، لم أكن قلقة حقًّا بشأن الاختبار، وأدركت بشيء من الانزعاج أنّه لم يكن قلقًا هو الآخر.

في اليوم الذي أنهى فيه تقديم الاختبار – في الواحد والثلاثين من شهر تموز/يوليو 1991 – احتفلنا مبكّرًا فحجزنا طاولة في مطعم وسطَ المدينة، يدعى Gordon. كان من مطاعمنا المفضّلة، مكانًا يليق بالمناسبات الخاصّة، بأجهزة إنارته الخافتة من الطراز Art Deco، وأغطية الطاولات البِيض النظيفة، ولائحة الطعام التي

تضمّ ما لذّ وطاب مثل الكافيار وفطائر الأرضي شوكي. كان الصيف بلغ ذروته، وكنّا نشعر بالسعادة.

اعتدنا، عند ذهابنا إلى مطعم غوردون، أن نطلب بسخاء. شربنا المارتيني مع المقبّلات، ثمّ اخترنا نبيذًا جيّدًا مع الطبق الرئيسيّ. كنّا نتحدّث في كلّ ما يخطر لنا ونستمتع بالوقت الذي نمضيه سويًّا. عندما انتهينا من تناول الطعام، ابتسم لي باراك وأثار موضوع الزواج. أمسك بيدي، وقال أنّه، وعلى رغم أنّه يحبّني بكلّ كيانه، ما زال فعلًا لا يرى طائلًا في ذلك. شعرت بالدماء تندفع إلى وجنتيّ. بدا أنّ أحدهم قد ضغط زرًّا ما في داخلي؛ زرًّا كبيرًا ذا وميض أحمر شبيهًا بما يمكن أن تراه في منشأة نووية، محاطًا بإشاراتِ إنذار وبخرائط لإخلاء الموقع. حقًّا! هل سنتّخذ قرارًا حول هذا الموضوع الآن؟

والواقع أنّنا كنّا في هذا الصدد. سبق لنا أن ناقشنا نظريًّا فكرة الزواج، لكنّ شيئًا لم يتغيّر: كنت إنسانةً تقليديّة، وباراك لم يكن كذلك. بدا واضحًا أنّ أحدًا منّا لن يحمل الآخر على تغيير رأيه. هذا الوضع لم يمنعنا من مناقشة الموضوع بحماسة، فنحن، في النهاية، محاميان. كنّا محاطين برجال يرتدون سترات أنيقة، ونساء في فساتين جميلة يستمتعون بوجباتهم المميّزة، فبذلت ما في وسعي لأتكلّم بصوت منخفض.

قلت له، بكلّ ما أمكنني من هدوء: «إذا كنّا نعيش علاقة ملتزمة، فلماذا لا نعطي هذا الالتزام طابعًا رسميًّا؟ وكيف قد يمسّ ذلك بكرامتنا؟».

حينذاك، طرحنا جميع التساؤلات التي كنّا تطرّقنا إليها في النقاشات السابقة. هل الزواج مهمّ؟ ولماذا هو مهمّ؟ ما هي مشكلته؟ ما هي مشكلتي؟ وما سيكون عليه مستقبلنا إذا عجزنا عن إيجاد حلّ؟ لم نكن نتشاجر، بل كنّا مختلفَيْن في رأيينا، وكنّا نعبّر عن ذلك الاختلاف كمحاميَين. نتبادل اللكمات، نستجوب بدقّة، ونحلّل كلّ شيء. ومع أنّه بدا واضحًا أنّني كنت أكثر توتّرًا منه، إلّا أنّني تولّيتُ القسط الأكبر من الحديث.

في نهاية الأمر، أتى النادل وهو يحمل طبق حلوى، كان غطاء

الطبق من الفضّة. وضعه أمامي ورفع الغطاء. كنت منزعجةً إلى درجة أنّني لم أنظر إلى الطبق. لكن، عندما نظرت، رأيت علبةً من المخمل الداكن مكان كعكة الشوكولاته. داخل العلبة، خاتم مرصّع بالماس.

نظر إليّ باراك، ممازحًا. لقد نصب لي فخًّا. كان الأمر برمّته مجرد خدعة. تلاشى غضبي في ثانية، وشعرت بالفرح يغمرني. تعمّد باراك إزعاجي لأنّها كانت المرّة الأخيرة التي ينوي فيها المدافعة عن حجّته المناهضة للزواج في حياته. رُفعت الجلسة. ركع على إحدى ركبتيه وسألني، بصدق وبصوت متهدّج من الانفعال، عمّا إذا كنت أشرّفه بقبول الزواج به. علمتُ، في وقتٍ لاحق، أنّه زار والدتي وشقيقي للحصول على موافقتهما. وعندما أجبته بالموافقة، صفّق كلّ مَن في المطعم.

بقيتُ دقيقة أو دقيقتين مذهولة أتأمّل الخاتم في إصبعي. نظرت إلى باراك لأتأكّد ممّا إذا كان الذي يحدث حقيقيًّا. كان يبتسم. لقد فاجأني تمامًا. كان كلانا رابحًا، بطريقة أو بأخرى. قال بمرح: «أعتقد أنّ هذا كفيل بإسكاتك».

وافقت على الزواج بباراك. وبعد ذلك بفترة وجيزة، قبلتُ عرض فاليري جاريت العمل في دار البلديّة. ولكن، قبل أن ألتزم نهائيًّا، حرصتُ على أن أجعلها تلتقي بباراك، فرتّبت موعدًا للعشاء.

قمتُ بهذه الخطوة لسببين. أوّلهما أنّني أحببت فاليري. فقد تركَت في نفسي انطباعًا قويًّا، وسواءً قبلت العمل أم لا، كنت أتوق إلى معرفتها بشكل أفضل. كنت أعلم أنّ باراك سوف يُعجَب بها أيضًا. والسبب الأهمّ، كنت أريده أن يسمع قصّة فاليري. فقد أمضت فاليري، شأن باراك، فترةً من حياتها في بلد مختلف – في حالتها هو إيران، حيث كان والدها طبيبًا في أحد المستشفيات – وعادت إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستها. وهذا ما منحها النظرة الثاقبة نفسها التي لاحظتها عند باراك. كان لدى باراك مخاوف تجاه عملي في دار البلديّة. على غرار فاليري، استقى باراك إلهامه من زعامة هارولد واشنطن، عندما كان محافظًا، لكنّه، من دون شكّ، لم يحبّذ النزعة التقليديّة التي يمثلها

ريتشارد م. داليه. كانت تلك روحيّة منسّق الشؤون الأهليّة التي لم تفارق باراك: فحتّى عندما كان واشنطن في منصبه، كان يضطرّ إلى شنّ معارك لا هوادة فيها، وقد تكون عبثيّة في بعض الأحيان، مع دار البلديّة للحصول على دعم، مهما كان ضئيلًا، للمشروعات الشعبيّة. ومع أنّ موقف باراك كان مشجعًا في ما يتعلّق بطبيعة عملي، إلّا أنّني أعتقد أنّه شعر بقلقٍ من أن يؤدّي بي العمل تحت إدارة داليه إلى الشعور بخيبة الأمل والعجز.

كانت فاليري الشخص المناسب لتبديد مخاوفي. فقد سبق لها أن أعادت تنظيم حياتها بكاملها كي تعمل مع واشنطن، لكنّها فقدته بعد وقت قصير. كان الفراغ الذي أحدثه موتُ واشنطن بمثابة عبرة للمستقبل، عبرة وجدتُ نفسي في نهاية المطاف، أحاول تفسيرها للناس في جميع أنحاء أميركا: في شيكاغو، ارتكبنا خطأً بربط كلّ آمالنا بالإصلاح بشخص واحد، من دون إنشاء نظام سياسيّ لدعم رؤيته. كان المقترعون، الليبراليّون والسود على وجه الخصوص، يرون في واشنطن مخلِّصًا شعبيًّا محبوبًا، ورمزًا، الرجل الذي يستطيع تغيير كلّ شيء. وقد تحمّل الرجلُ ذلك العبء على نحو يثير الإعجاب، وألهمَ أشخاصًا مثل باراك وفاليري، لترك القطاع الخاصّ، والالتفات نحو العمل المجتمعيّ والخدمة العامّة. ولكن، عندما مات واشنطن، تلاشت معه الطاقة كلّها التي ولّدها في النفوس.

تطلّب قرارُ فاليري البقاء في مكتب المحافظ بعضَ التفكير منها، وشرحت لنا سبب شعورها بأنّ قرارها كان صائبًا. فقد أحسّت بأنّ داليه يدعمها، وبأنّ وجودها كان يعود بالفائدة على المدينة. قالت أنّ ولاءها كان لمبادئ هارولد واشنطن، أكثر من كونه ولاءً للرجل نفسه. فالإلهام بحدّ ذاته لا يكفي، عليك أن تدعمه بالعمل الجادّ والمرهق. لقيت هذه الفكرة صداها في نفسي وفي نفس باراك، وشعرتُ خلال العشاء الذي تناولناه معًا، بأن شيئًا ما قد توطّد: أصبحت فاليري جاريت في تلك اللحظة جزءًا من حياتنا. ومن دون أن نضطر إلى مناقشة الفكرة، بدا أنّ ثلاثتنا اتّفقنا، بطريقة ما، على دعم بعضنا بعضًا في مسيرة النجاح الطويلة.

كان هناك أمر واحد أخير علينا فعله، بعد خطوبتنا، والتحقت بعمل جديد، والتزم باراك بالعمل مع Davis, Miner, Barnhill & Galland، شركة المحاماة المختصّة في المصلحة العامّة، والتي ظلّت تحاول استمالته فترة، أخذنا إجازة، أو بالأحرى، ذهبنا في رحلة أشبه بالحجّ. غادرنا شيكاغو في يوم أربعاء في أواخر شهر آب/أغسطس، توقفنا في مطار فرانكفورت في ألمانيا، واستقللنا الطائرة مجدّدًا في رحلة دامت ثماني ساعات، وصلنا بعدها إلى نيروبي قبل انبلاج الفجر. نزلنا من الطائرة في ضوء قمر كينيا، فبدا العالم مختلفًا بالكامل.

كان سبق لي أن زرت جامايكا وجزر البهاما، كما سافرت إلى أوروبا بضع مرّات، لكن تلك كانت المرّة الأولى التي ابتعدت فيها من الوطن إلى هذه الدرجة. شعرت على الفور بأنّ نيروبي غريبة عني – أو أنّي غريبة عنها – وهو شعور صرت أحبّه مع تعدّد أسفاري؛ الطريقة التي تكشف فيها الأماكن الجديدة نفسها مباشرةً ومن دون رياء. يكون للهواء ثقلٌ مختلف عمّا هو مألوف لديك، يحمل روائح لا يمكنك تمييزها: نفحةً خفيفة من دخان احتراق الخشب أو وقود الديزل ربّما، أو رائحة ذكيّة تفوح من الأشجار. الشمس نفسها تشرق، لكنّها تبدو مختلفة بعض الشيء عمّا عهدته.

استقبلتنا أخت باراك غير الشقيقة، أوما، في المطار، وحيّتنا بحرارة. كان الاثنان التقيا بضع مرّات فقط، منذ ستّ سنوات، عندما زارت شيكاغو، لكنّ علاقة وثيقة ربطت بينهما. كبرَت أوما باراك عامًا واحدًا. فقد كانت والدتها، غريس كيزيا، حاملًا بها عندما غادر أوباما الأب نيروبي للدراسة في هاواي العام 1959 (كان لديهما ابن أيضًا، هو أبونغو، وكان طفلًا آنذاك). بعد أن عاد باراك الأب إلى كينيا، في منتصف ستّينيّات القرن العشرين، رزق هو وكيزيا طفلين آخرين.

كانت أوما ذات بشرة سوداء داكنة، وأسنان بِيض ناصعة. وكانت تتكلّم بلكنةٍ بريطانيّة واضحة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة ودودٌ. عندما وصلتُ إلى كينيا، شعرت بالإرهاق بسبب

السفر إلى حدٍّ لم أقوَ معه على الكلام. وبينما كنت في طريقي إلى المدينة، وأنا أجلس في مقعد سيّارة أوما العتيقة الخلفيّ من الطراز فولكسفاغن Bug، لاحظتُ مدى الشبه بين ابتسامة أوما، التي ترتسم بسرعة على وجهها، وابتسامة باراك. كما تنبّهت إلى أنّ انحناءة رأسها تشبه انحناءة رأسه. وبدا واضحًا أنّ أوما ورثت الذكاء المعهود في العائلة. نشأت في كينيا، وغالبًا ما عادت إليها، لكنّها درست في إحدى جامعات ألمانيا، وكانت لا تزال تقيم هناك، حيث كانت تعدّ لرسالة دكتوراه. تكلّمت بطلاقة الإنكليزيّة والألمانيّة والسواحليّة، إضافة إلى لغة عائلتها المحلّيّة، وتسمى Luo. وصودف أن جاءت إلى كينيا في زيارة في الفترة نفسها.

كانت أوما رتّبت أمر إقامتنا في شقّة خالية لإحدى صديقاتها، وهي شقّة بسيطة، مكوّنة من غرفة نوم واحدة، في مبنى من الآجّر الخفيف المدهون بلون الورد الزاهي. خلال اليومين الأوّلين، كنّا أشبه بالمخدّرين بسبب فارق التوقيت. شعرنا بأنّنا نتحرّك بنصف سرعتنا المعتادة، أو ربما كان الأمر مرتبطًا بإيقاع الحياة في نيروبي الذي كان مختلفًا تمامًا عنه في شيكاغو؛ فقد كانت الطرق والساحات، ذات الطراز البريطاني، مكتظّة بالمشاة وراكبي الدرّاجات والسيّارات، أضف إليها حافلات matatu، وهي حافلات شعبيّة رخيصة متهالكة تنتشر في كلّ مكان، تغطّيها لوحات تزيّنها ذات ألوان زاهية، وعبارات تمجيد لله، وتتكدّس فوق سقوفها الأمتعة المربوطة بإحكام. وكانت مزدحمة إلى درجة أنّ ركّابًا تجرّأوا على ركوبها أحيانًا متمسّكين بهيكلها الخارجيّ.

كنت في أفريقيا. كان الأمر يجمع بين الإثارة والإرهاق، ويشكّل تجربة جديدة كلّيًّا لي. كانت سيّارة أوما الفولكسفاغن الزرقاء عتيقةً إلى درجة أنّها غالبًا ما احتاجت إلى الدفع ليشتغل محرّكها. كنت اشتريت حذاءً رياضيًا أبيض كي أنتعله خلال الرحلة، وتبيّن لي أنّه كان قرارًا غير صائب، إذ لم يمضِ يومان، بعد أن دفعنا السيارة مرارًا، حتّى لطّخه غبار نيروبي وتحوّل لونه بنّيًّا.

بدا باراك أكثر استرخاءً منّي في نيروبي، فقد سبقت له زيارتها

مرّةً. كنت أتحرّك بارتباك السيّاح، وأعي أنّنا نُعتبر دخلاء، على رغم لون بشرتينا الأسود. كان الناس في الشارع يتأمّلوننا أحيانًا. لم أتوقّع، بالطبع، أن أشعر بالتجانس التامّ، لكنّني ظننت، بكلّ سذاجة، أنّني سأشعر برابط عميق بقارّة لطالما اعتبرتها وطنًا أمًّا أقرب إلى الأسطورة. كأنّ الذهاب إليها كان سيمنحني، نوعًا ما، شعورًا بالاكتمال. لكنّ أفريقيا لا تدين لنا بشيء طبعًا. كم يشعر المرء بأنّه معلّق بين مكانين عندما يكون أميركيًّا من أصل أفريقيّ في زيارة أفريقيا. شعرت بحزن يصعب تفسيره، لأنّني مُنتَزَعة من جذوري في المكانين.

بعد أيّام، كنت لا أزال أشعر بذلك الانسلاخ، وكان كلانا يشكو آلامًا في الحلق. حصل شجار بيني وبين باراك لم أعد أذكر سببه بالتحديد، فإلى جانب كلّ ما شعرنا به من رهبة في كينيا، كنّا أيضًا مرهقين، وأدّى ذلك إلى جدل بيننا، وهو ما جعلنا في النهاية ننفجر غضبًا لأيّ سبب. كتبت في مذكّراتي: «أنا غاضبة من باراك. لا أشعر بأنّ هناك شيئًا مشتركًا بيننا». هدّأت الكتابة أفكاري قليلًا. ولكي أعبّر عن شعوري بالإحباط، رسمتُ خطًّا طويلًا على ما تبقّى من الصفحة.

كنّا، شأن كلّ اثنين ارتبطا حديثًا، نتعلّم كيف نتشاجر. لم نكن نتشاجر كثيرًا. ولكن، عندما كان يحدث شجار، كان يحصل لأسباب تافهة، سلسلة من المشاعر المتفاقمة المكبوتة التي عادة ما تبرز عندما يكون أحدنا أو كلانا مرهقًا، أو متوتّرًا إلى درجة لا تحتمل. لكنّنا تشاجرنا حقًّا. وأيًّا كانت النتيجة، فقد كنت أصرخ عندما أغضب. عندما يستثيرني أمر ما، قد أشعر بتشنّج في جسدي، أشبه بكرة نار تتدحرج في عمودي الفقريّ لتنفجر بقوّة، إلى درجة أنّني قد لا أذكر لاحقًا ما تفوّهت به في تلك اللحظة. أمّا باراك، فيظلّ هادئًا وعقلانيًّا، وتتدفّق كلماته بفصاحة (تثير غضبي). تطلّب الأمر بعض الوقت – سنوات – لندرك أنّ تصرّفاتنا هي نتاج تركيبتينا، وأنّ كلًّا منّا هو نتاج إرثه الجينيّ، وحصيلة أيّ شيء زرعه الوالدان أو الجدّان أو الجدّتان في كلّ منّا. توصّلنا مع مرور الوقت إلى فهم كيفيّة التعبير عن مشاعر السخط، ونوبات

الغضب التي قد تنتابنا، والتغلّب عليها. عندما نتشاجر اليوم، يكون الأمر أقلّ دراماتيكيّة وأكثر جدوى. لكنّ مشاعر الحبّ بيننا تظلّ ماثلة أمامنا، على رغم التوتّرات كلّها.

استيقظنا صباح اليوم التالي في نيروبي، لنرى السماء الزرقاء ونشعر بتجدّد طاقتنا. تراجعَ الإحساس بالخدر الناجم عن فارق التوقيت، واستعدنا ثانيةً الشعور بالسعادة وبأنفسنا. قابلنا أوما في محطّة القطار، في وسط المدينة، وركبنا قطارًا نوافذه مضلّعة للسفر خارج المدينة باتّجاه الغرب، وزيارة موطن أسلاف عائلة أوباما. جلست قرب النافذة في مقصورة مزدحمة بالكينيّين. كان بعضهم يسافر ومعه دجاج حيّ في أقفاص، وآخرون يحملون قطع أثاث ضخمة اشتروها من المدينة. خطر لي مجدّدًا مدى الغرابة التي باتت تتحكّم في حياتي، حياة فتاة من شيكاغو كانت تعمل في مكتب محاماة إلى أن ظهر هذا الرجل الجالس قربها فجأةً، باسمه الغريب وابتسامته الرومانسيّة، وقلب بذكائه المتّقد كلّ شيء رأسًا على عقب. جلستُ مسمّرةً أنظر من النافذة إلى منطقة Kibera الواسعة، أكبر حيّ عشوائي يعجّ بالفقراء في أفريقيا، تمرّ أمامي بأكواخها ذات الأسقف المنخفضة المصنوعة من القصدير المموّج، وبطرقاتها الموحلة، ومجاريرها المكشوفة، وبذلك الفقر المدقع الذي لم أصادفه في حياتي من قبل، ولم أكن لأتخيّله إلّا بصعوبة.

دامت رحلتنا في القطار ساعات. فتح باراك أخيرًا كتابًا يقرأه، وظللت أحدّق من النافذة، بينما توارت أحياء الفقراء حول نيروبي لتفسح في المجال للريف الأخضر الزاهي أن يظهر. انطلق القطار، وهو يهدر، شمالًا إلى مدينة كيسومو، حيث ترجّلنا أخيرًا منه، لتخنقنا الحرارة الاستوائيّة اللاهبة، واستقللنا، أنا وأوما وباراك، آخر حافلة matatu، عابرين حقول الذرة في طريقنا إلى قرية جدّتهما، كوغيلو.

سوف أتذكّر دائمًا التربة ذات اللون الأحمر الداكن التي كانت تغطّي الأرض في تلك البقعة من كينيا، كانت خصبةً إلى درجة بدت معها كما لو أنّها هناك منذ الأزل. ولن أنسى كيف كسا

غبارها شعور الأطفال وبشرتهم السوداء بقشرةٍ صلبة، وهم يحيّوننا في الطريق. أتذكّر أنّني كنت أتعرّق وأشعر بالظمإ بينما كنّا نجتاز المسافة القصيرة التي تفصلنا عن المجمّع الذي تعيش فيه جدّة باراك، نحو المنزل الإسمنتيّ الذي عاشت فيه منذ سنوات، تعتني بقطعة أرض صغيرة مجاورة مزروعة بالخضروات، وتربّي بضعَ بقرات. كانوا ينادونها الجدّة سارة. وهي امرأةً قصيرة القامة، متينة البنية، ذات عينين تشعّان حكمةً، يتغضّن وجهها عندما تبتسم. لم تكن تتكلّم الإنكليزيّة، بل لغة Luo فحسب. وعبّرت عن سرورها لأنّنا عبرنا كلّ تلك المسافة كي نراها. شعرتُ بأنّني فارعة الطول مقارنةً بها. تأمّلتني بفضول كبير، كأنّها تحاول تحديد المكان الذي جئتُ منه، وكيف وصلت إلى عتبة منزلها، بالتحديد. كان من بين الأسئلة الأولى التي طرحتها عليّ: «أيٌّ من والديك أبيض؟».

ضحكتُ وشرحت لها، بمساعدة أوما، أنّني سوداء بالكامل، سوداء كما يكون الأفريقيّون الأميركيّون.

اعتبرتِ الجدّة سارة الأمر مضحكًا. بدا أنّها ترى كلّ شيء مضحكًا. وكانت تمازح باراك لأنّه لا يستطيع التحدّث بلغتها. أدهشني شعورها البسيط بالفرح. عندما جاء المساء، ذبحت لنا دجاجةً وطهتها مع الخضار. وقدّمتها لنا مع عصيدة الذرة المسمّاة Ugali. وطوال الوقت، كان الجيران والأقارب يتوافدون للترحيب بنا وللتهنئة بخطبتنا. التهمتُ الطعام بامتنان، بينما كانت الشمس تغيب. حلّ الظلام على القرية التي لم تصل إليها الكهرباء بعدُ، وتلألأت النجوم في السماء. بدا وجودي في هذا المكان أشبه بمعجزة صغيرة. كنت أشارك باراك غرفة نوم لا تضمّ سوى الأساسيّات، وأسمع صوت الجداجد الرنّان الآتي من حقول الذرة المحيطة بنا ووقع قوائم حيوانات لا نراها. أتذكّر ذلك الشعور بالرهبة الذي انتابني عندما نظرت إلى اتّساع الأرض والسماء حولي، إلّا أنّني شعرت بالأمان داخل ذلك المنزل الصغير. كان لديّ عمل جديد، وخطيب، وعائلة كبيرة، بل وجدّة كينيّة أنعم ببركتها. صحيح أنّني كنت بعيدةً عن عالمي، ولكن في الوقت الحالي،

كانت الأمور تسير على ما يرام.

12

تزوّجنا، أنا وباراك، في يوم سبتٍ مشمس من شهر تشرين الأول/أكتوبر، العام 1992، في حضور أكثر من ثلاثمئة شخص من أصدقائنا وعائلتينا، في الكنيسة Trinity United Church of Christ في الجانب الجنوبيّ من شيكاغو. كان زفافًا حاشدًا، كما ينبغي له أن يكون. ولأنّنا قرّرنا إقامة حفل زفافنا في شيكاغو، لم يكن هناك مجال لاختصار قائمة المدعوّين. كانت جذوري تضرب بعيدًا هناك. فلم يكن لديّ أقرباء من الدرجة الأولى فحسب، بل أقارب أبعد منهم، وكان لهؤلاء أبناء لم أكن لأتجاهل دعوة أيّ منهم. أضاف حضورهم جميعًا رونقًا خاصًّا على الحفل.

حضر أشقّاء والدي الأصغر سنًّا، كما حضرت أسرة والدتي بكاملها. جاء أصدقاء قدامى من أيّام المدرسة، وجيران، وأشخاص عرفتهم في جامعة برِنستون، وزملاء من ثانويّة Whitney Young. ساعدتني السيّدة سميث في تنظيم حفل الزفاف، وهي زوجة مساعد المدير في مدرستي، وتسكن حيّنا في جادّة يوكليد. وعزف جارانا، السيّد والسيّدة تومبسون، وأعضاء فرقة الجاز الخاصّة بهما، في حفل الاستقبال الذي تلى الزفاف. كانت سانتيتا جاكسون إحدى وصيفات الشرف، وبدت في غاية المرح والحماسة في ثوبها الأسود بياقتِه الواسعة. كما دعوت زملائي القدامى في مكتب Sidley، وزملائي الجدد في دار البلديّة. وحضر الشركاء القانونيّون في مكتب باراك، وأصدقاؤه منذ أيّام عمله

منسّقًا. شاركت أيضًا مجموعة من أصدقاء باراك المشاكسين، منذ أيام الثانويّة في هاواي، وانسجم هؤلاء مع أقاربه الكينيّين، الذين اعتمروا قبّعات زاهية الألوان على طريقة سكّان أفريقيا الشرقيّة. كنّا، للأسف، فقدنا جدّ باراك، غرامبس، في فصل الشتاء السابق، نتيجة إصابته بالسرطان. لكنّ والدته وجدّته حضرتا من هاواي إلى شيكاغو. كذلك جاءت أوما ومايا، أختاه غير الشقيقتين، من قارّتين مختلفتين، وقد جمعهما حبّهما لباراك. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تلتقي فيها عائلتانا. كان شعورنا بالسعادة غامرًا.

أحاط بنا الحبّ من كلّ حدبٍ وصوب؛ الحبّ المتعدّد الثقافة من جانب عائلة أوباما، والحبّ الراسخ على طريقة سكّان الجانب الجنوبيّ من ناحية عائلة روبنسون، وجلس الجميع، جنبًا إلى جنب، داخل الكنيسة. رافقني كريغ إلى المذبح وتمسّكت بذراعه بقوّة. عندما بلغنا مقدّم الكنيسة، لمحتُ نظرةَ والدتي. كانت تجلس في الصفّ الأوّل. أوحى ثوبها الطويل باللونين الأسود والأبيض والمزيّن بالخرز – الذي اخترناه معًا – بالفخامة. رفعت رأسها وقد ارتسمت في عينيها نظرة فخور. لم تكن مشاعر الألم لفقدان والدي تفارقنا، لكنّنا تابعنا حياتنا كما كان يرغب.

استيقظ باراك يومذاك وهو يعاني زكامًا شديدًا، لكنّه تخلّص منه بشبه أعجوبة لحظة وصوله إلى الكنيسة. ابتسم لي بعينين لامعتين من مكانه قرب المذبح، وهو يرتدي بذلة رسميّة مستأجَرة، وينتعل حذاءً من الجلد الناعم. كان لا يزال يرى في الزواج أمرًا غامضًا أكثر منّي، لكنّه أبدى التزامًا كاملًا خلال فترة خطوبتنا التي دامت أربعة عشر شهرًا. اخترنا كلّ ما يلزم لذلك اليوم بعناية. وانتهى الأمر بباراك، الذي كان أعلن في البداية أنّه غير مهتمّ بتفاصيل الزواج، إلى إبداء رأيه بحبّ وإصرار – مثلما كان متوقعًا – وفي كلّ شيء؛ بدءًا من باقات الزهور، وصولًا إلى أنواع المقبّلات التي ستُقدَّم في الحفل المقرَّرة إقامته بعد ساعة من حفل الزفاف، في المركز الثقافيّ في South Shore. اخترنا أغنية الزفاف التي ستتألّق بأدائها سانتيتا بصوتها الأخّاذ، بمرافقة عازف

بيانو.

كانت أغنية لستيفي وُندر اسمها «You and I» (We Can Conquer the World) كنت سمعت الأغنية أوّل مرّة في صغري، في الصفّ الثالث أو الرابع، عندما أهداني جدّي ألبومَ « Talking Book»، وهو أوّل ألبوم حصلت عليه، وقد كان عزيزًا عليّ. احتفظتُ بالألبوم في بيته، وكان يسمح لي بالاستماع إليه عندما أزوره. علّمني جدّي كيف أعتني بالأسطوانات، وكيف أمسح الغبار عنها، وكيف أرفع الإبرة عن الأسطوانة وأضعها بلطف في المكان المطلوب. وكان من عادته أن يتركني وحدي مع الموسيقى، ويتوارى عمدًا كي يتيح لي الفرصة لأتعلّم بنفسي كلّ ما يمكن ألبوم الأغاني أن يعلّمه، من طريق تكرار كلمات الأغنيات بقدر ما تسعفني رئتاي الصغيرتان. يمكننا قهر العالم/ أنت وأنا عاشقان، أنت وأنا، أنت وأنا...

كنت في التاسعة من عمري يومذاك، لا أعرف شيئًا عن الحبّ أو الالتزام أو عن قهر العالم. جلّ ما استطعتُه هو استحضار الأفكار التي تتراءى لي بغموض حول الحبّ، وحول الرجل الذي قد يدخل حياتي يومًا ليؤجّج في نفسي تلك المشاعر القويّة. هل سيكون مايكل جاكسون؟ خوسيه كاردينال من فريق الـ Cubs؟ رجلًا مثل والدي؟ لم أكن حتّى بدأت رسم صورة له في خيالي، ذلك الرجل الذي سيصبح الـ«أنت» بالنسبة إليّ «أنا».

وها نحن الآن.

تمتّعت الكنيسة Trinity بسمعةٍ ممتازة، إن من حيث حيويتها أو على الصعيد الروحانيّ. بدأ باراك يتردّد إليها خلال فترة عمله منسّقًا، ثمّ أصبحنا أنا وهو عضوين رسميّين فيها، حاذيَين حذو كثر من أصدقائنا الشباب الأميركيّين من أصل أفريقيّ الذين يعيشون في المدينة. كان قسّ الكنيسة جيرميا رايت، المعروف بكونه واعظًا استثنائيًّا، والمتميّز بحرصه على العدالة الاجتماعيّة، هو من سيتولّى إجراء مراسم الزفاف. رحّب بأصدقائنا وبعائلتينا، ثم رفع خاتمَي الزواج ليراهما الجميع. تحدّث ببلاغة حول معنى الاتّحاد في الزواج، وإشهاره أمام مجموعة من المحبّين، أولئك

الذين يعرفون جوانب شخصيّة باراك كلّها، وجوانب شخصيّتي كلّها.

شعرت في تلك اللحظة بقوَّة ما كنّا نفعله، وأهمّيّة الطقس الذي كنّا نمارسه. كان أمامنا الكثير، مستقبلنا الذي لم يُرسَم بعد، والمجهول الذي ما زال مجهولًا تمامًا. أمسك كلّ منّا بيد الآخر وتلونا نذور الزواج.

مهما يكن في انتظارنا، فسوف نعيشه معًا. كنت كرّست نفسي بالكامل للتخطيط لهذا اليوم، لإضفاء طابع من الأناقة على الحدث. أدركت في تلك اللحظة أنّ الأهمّ من ذلك، وما سأتذكّره طوال عمري، كان تشابك يدينا، فقد أشعرَني بسَكينةٍ لم أختبرها من قبل. كنت واثقة في هذا الزواج، وواثقة في هذا الرجل. وكان إعلان هذه الثقة على الملإ أسهل شيء في العالم. نظرت إلى وجه باراك، وأدركت أنّ الشعور نفسه يخالجه. لم يبكِ أحدٌ منّا في ذلك اليوم، ولم يتهدّج صوت أحد، كنّا نشعر بدوار خفيف وحسب. ومن الكنيسة، انطلقنا بصحبة المئات من المدعوّين إلى حفل الاستقبال. أكلنا وشربنا ورقصنا، إلى أن استنزَفنا الفرح.

تعمّدنا أن يكون شهر عسلنا مريحًا. رحلة برّيّة بسيطة في شمال كاليفورنيا، ننعم فيها بالنبيذ والنوم وحمّامات الطين والطعام اللذيذ. في اليوم الذي أعقب حفل الزفاف، سافرنا بالطائرة إلى سان فرانسيسكو، وأمضينا أيامًا عدّة في مدينة نابا، ثمّ غادرنا عبر الطريق السريع إلى شاطئ Big Sur، حيث أمضينا الوقت نطالع الكتب، ونتأمّل زرقة مياه المحيط، ونستمتع بصفاء الذهن. كان وقتًا رائعًا مع أنّ الزكام عاود باراك، وعلى رغم حمّامات الطين التي اكتشفنا أنّها لم تساعدنا على الاسترخاء، وشعرنا بأنّها مقزّزة، إلى حدٍّ ما.

بعد عامٍ حافل، كنّا بحاجة ماسة إلى الاسترخاء. كان باراك نوى تمضية الأشهر السابقة لزفافنا في إنهاء كتابه، وفي العمل لدى شركة المحاماة الجديدة، لكنه كان قد أجّل ذلك في غالبيّته. ففي مطلع العام 1992، اتّصل به مديرو منظّمة وطنيّة غير مرتبطة بأيّ حزب سياسيّ، تدعى « Project VOTE!»، وهي منظّمة لها دورٌ

قياديٍّ في الجهود الرامية إلى تسجيل مقترعين جدد في الولايات التي تكون فيها نسبة اقتراع الأقلّيّات متدنيّة عادةً. طُلِب من باراك إدارة هذه العمليّة في ولاية إلينوي، وتأسيس مكتب ميدانيّ محلّيّ في شيكاغو، لتسجيل المقترعين السود قبل الانتخابات المقرّرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. كان العدد المقدَّر للأفريقيّين الأميركيّين، ممّن يحقّ لهم الاقتراع في الولاية لكنّهم غير مسجلّين، أربعمئة ألف شخص، معظمهم داخل شيكاغو وحولها.

كان الأجر متدنّيًا جدًّا، لكنّ العمل بدا منسجمًا مع قناعات باراك الأساسيّة. في العام 1983، أدّت حملة مماثلة لتسجيل المقترعين، في شيكاغو، إلى مساعدة هارولد واشنطن على تبوّؤ منصبه. وفي العام 1992، بدت الرهانات عالية أيضًا: كانت هناك مرشّحة أخرى أفريقيّة أميركيّة، وهي كارول موسلي براون، وقد أدهشت الجميع لدى فوزها بهامشٍ بسيط في ترشيح الديمقراطيّين لانتخابات مجلس الشيوخ الأميركيّ، وكانت تستعدّ لسباق محموم في الانتخابات العامّة. في تلك الأثناء، كان بيل كلينتون سيخوض الانتخابات الرئاسيّة في مواجهة جورج دبليو بوش، أي أنّه لم يكن الوقت المناسب لامتناع المقترعين من الأقلّيّات عن الانتخاب.

القول أنّ باراك انخرط في العمل بكيانه كلّه، يبدو استهانةً بما بذله من جهد. كان هدف مشروع Project VOTE! تسجيلَ مقترعين جدد في إلينوي بسرعة قياسيّة، أي عشرة آلاف مقترعٍ في الأسبوع. كان دور باراك شبيهًا بعمله منسّقًا في الشؤون الأهليّة: خلال فصلَي الربيع والصيف، جال مع فريقه في كنائس كثيرة، وانتقل من منزل إلى آخر، ليتحدّث مع المقترعين غير المسجّلين. كان ينسّق بانتظام مع زعماء الجماعات المحلّيّة، ويشرح مشروعه للمانحين الأثرياء بغية الحصول على مساعدتهم في تمويل إنتاج الإعلانات الإذاعيّة والكتيّبات لتوزَّع في أحياء السود وفي مشروعات الإسكان الشعبيّة. كانت رسالة المنظّمة ثابتةً وواضحة، إضافة إلى كونها انعكاسًا صادقًا لمشاعر

باراك الحقيقيّة: الاقتراع يمنح القوة. إذا أردتم التغيير، لا يمكنكم البقاء في منازلكم يوم الاقتراع.

كان باراك يعود مساء إلى منزلنا في جادّة يوكليد ويرتمي على الأريكة، تفوح منه رائحة السجائر التي يدخّنها في غيابي. كان يظهر عليه التعب، إلّا أنّه لم يكن يستسلم للإنهاك أبدًا. تابع بدقّة الأعداد المسجّلة: أصبح المعدّل الوسطيّ في منتصف الصيف سبعةَ آلاف شخص، وهو رقم يثير الإعجاب، لكنّه لم يحقّق الهدف. وضع خططًا بشأن آليّة نشر رسالة المنظّمة، وأساليب مجادلة المزيد من المتطوّعين، والطرائق المؤدِّية إلى جيوب أشخاص لم يُعثر عليهم بعد. كان يرى تلك التحدّيات أشبه بأحجية مكعب روبيك، يمكن حلّها إذا استطاع المرء تحريك القطع الصحيحة بحسب الترتيب الصحيح. أخبرني بأنّ الأشخاص الذين يصعب الوصول إليهم، هم جيل الشباب، الشريحة العمريّة بين الثمانية عشرٍ والثلاثين، ممّن كانوا، في ما يبدو، لا يثقون في الحكومة إطلاقًا.

في تلك الأثناء، انخرطتُ كليًّا في العمل الحكومي، إذ مضى عامٌ على عملي مع فاليري في مكتب المحافظ، أؤدّي دور صلة الوصل مع دوائر حكوميّة كثيرة، بما فيها دائرة الصحّة والخدمات الإنسانيّة. كان عملًا واسع النطاق، وكان الناس مؤهّلين بما يكفي للعمل بنشاط، إضافة إلى كونهم، غالبًا، مثيرين للاهتمام. وفي حين كنت أمضي، سابقًا، الوقتَ في إعداد مذكّرات الدعاوى في مكتب هادئ مفروش بالسجّاد الوثير، يطلّ على البحيرة، صرتُ أعمل في غرفةٍ بلا نوافذ في أحد الطبقات العلويّة من دار البلديّة، حيث يتوافد المواطنون طوال اليوم، محدثين ضجيجًا صاخبًا.

بدأت أتعلّم أنّ قضايا الحكومة معقّدة ولا تنتهي. كنت أتنقّل بين الاجتماعات مع رؤساء الأقسام المتعدّدين، وأعمل مع مساعدي مفوّضي الحكومة في المدينة. وأُكلَّف أحيانًا الذهاب إلى أحياء مختلفة محيطة بشيكاغو، لمتابعة الشكاوى الشخصيّة التي يتلقّاها المحافظ. ذهبت في مهمّات للكشف على أشجارٍ

سقطت تنبغي إزالتها، وتحدّثتُ مع رعاة أبرشيّات بعض الأحياء كانوا يشتكون من الحركة المروريّة أو من طريقة جمع القمامة. وفي كثير من الأحيان، كنت أمثّل مكتب المحافظ في الفعاليّات التي تقيمها الجماعات المحلّيّة. واضطررت ذات يوم إلى فضّ شجار نشب أثناء نزهة للمسنّين في الجانب الشماليّ من المدينة. لم يكن ضمن أيّ من المهمّات التي أقوم بها بما يشبه عمل المحامي في الشركات، وهنا تكمن جاذبيّتها. كنت أختبر شيكاغو كما لم أختبرها من قبل.

وفضلًا عن ذلك، كنت أتعلّم شيئًا آخر مهمًّا، خلال الوقت الطويل الذي أمضيه مع سوزان شير وفاليري جاريت. وهما سيّدتان استطاعتا – وفق ما لاحظتُ – الجمع بين منتهى الثقة في النفس ومنتهى الإنسانيّة في الوقت عينه. كانت سوزان تدير الاجتماعات بلطف هادئ لا يخلو من الصلابة. أمّا فاليري، فلم تكن تجد حرجًا في التعبير عن رأيها داخل غرفة مليئة بالرجال المتعنّتين، وهي قادرة على إقناع الناس بكلّ براعة بوجهة نظرها. كانت أشبهَ بمُذَنَّب فائق السرعة، شخصيّةً تسير على درب النجاح. قبل حفل زفافي بفترة بسيطة، رُقّيت إلى منصب المفوّض المسؤول عن التخطيط والتطوير الاقتصاديّ في المدينة، فعرضَت عليّ منصب مساعد المفوّض، وتقرّر أن أتولّى هذا المنصب فور عودتنا من شهر العسل.

كنت أجتمع بفاليري أكثر ممّا أجتمع بسوزان. لكنّني كنت أسجّل بدقّة كلّ ما تقومان به، تمامًا مثلما كنت أراقب تشيرني، مرشدتي أيّام الدراسة الجامعيّة. كانت فاليري وسوزان امرأتين تدركان قوّة التأثير التي تتمتّعان بها، ولا تخشيان استخدامها. كان في إمكانهما أن تكونا مرحتَين ومتواضعتين حين تستدعي الحاجة، لكنّهما لم تسمحا للمتغطرسين بإزعاجهما، ولم تشكّكا يومًا في صواب وجهتي نظريهما. الأمر الذي لا يقلّ أهمّيّة هو أنّهما كانتا والدتَين عاملتين. كنت أراقبهما من كثب في هذا المجال أيضًا، لأنّني أدرك أنّني أرغب في أن أكون أمًّا يومًا ما. لم تكن فاليري تتردّد في مغادرة اجتماع مهمّ عند تلقّيها مكالمة

هاتفيّة من مدرسة ابنتها. وكانت سوزان، أيضًا، تندفع خارجةً من المكتب خلال ساعات العمل، إذا أصيب أحد أولادها بحمّى، أو إذا كان يشارك في عرض موسيقيّ في مدرسته. ولم تكن السيّدتان تعتذران عن كونهما توليان أولادهما الأولوية، وإن عنى ذلك انقطاع العمل أحيانًا. لم تلجآ إلى الفصل بين العمل والحياة العائليّة، مثلما كان الشركاء الرجال في مكتب Sidley يفعلون. ولا أعتقد أنّ فصلًا من هذا النوع كان متاحًا، ولو كخيار، لفاليري وسوزان، فهما كانتا تبذلان ما في وسعيهما لتقوما بالمهمّات المطلوبة حصرًا من الأمّهات، إضافةً إلى أنّ كلتيهما مطلقة. وهذا وضع ينطوي، بحدّ ذاته، على تحدّيات عاطفيّة وماليّة خاصّة. لم تكن المرأتان تسعيان نحو الكمال، لكنّهما تمكّنتا من التفوّق في علمهما، وقد جمعت بينهما صداقةٌ وطيدة مفيدة للطرفين، وكان لذلك أثر في نفسي. أزالت المرأتان الأقنعة كلّها، وتصرّفتا على سجيّتيهما بأسلوب قويّ وتوجيهيّ رائع.

عدت أنا وباراك من شهر العسل في شمال كاليفورنيا، لنجد في انتظارنا خبرَين، أحدهما مفرح والآخر محزن. جاء الخبر المفرح مع نتائج انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر التي حملت معها ما يشبه سيلًا عارمًا من التغيير المشجّع. حقّق بيل كلينتون نجاحًا ساحقًا في إلينوي، وفي أنحاء البلاد كلّها، وأزاح الرئيس بوش من منصبه بعد ولايةٍ واحدة فقط. وأحرزت كارول موسلي براون فوزًا حاسمًا لتصبح بذلك أوّل أفريقيّة أميركيّة تشغل مقعدًا في مجلس الشيوخ. وما أثار حماسة زائدة في نفس باراك، أنّ نسبة المشاركة يوم الاقتراع جاءت ملحميّة، إذ كان مشروع Project VOTE! سجّل مئة وعشرة آلاف مقترع جديد. كما أنّ حملة المشروع الأشمل، الرامية إلى زيادة عدد المقترعين، عزّزت على الأرجح نسبة المشاركة الإجماليّة.

وكان شارك في الانتخابات، أوّل مرّة خلال عقد كامل، أكثر من نصف مليون مقترع من السود في شيكاغو، مثبتين بذلك أنّهم يمتلكون القوّة الجماعيّة للتأثير في المشهد السياسيّ برمّته. بعث ذلك برسالة واضحة إلى المشرّعين وإلى السياسيّين

المستقبليّين، وأعاد ترسيخ الشعور الذي بدا أنّه تلاشى مع وفاة هارولد واشنطن: اقتراع الأفريقيّين الأميركيّين له أهمّيّته، وسوف يكون تجاهل حاجات السود ومخاوفهم، أو إسقاطها من الاعتبار، مكلفًا سياسيًّا لكلّ من يحاول ذلك. كما تضمّن رسالةً ثانويّة إلى مجتمع السود نفسه، حيث ذكّرهم بأنّ التطوّر ممكن، وبأنّ قدرتهم على التأثير باتت تؤخذ في الاعتبار. بدا كلّ ذلك مشجّعًا لباراك، فعلى رغم كلّ التعب الذي شعر به، إلّا أنّه أحبّ عمله لما وفّره له من معلوماتٍ حول المنظومة السياسيّة المعقّدة في شيكاغو، ولأنّه قدّم له البرهان على أنّ مهاراته التنظيميّة الفطريّة يمكنها أن تنجح أيضًا في مجالات أشمل. كان باراك تعاون مع الزعماء الشعبيّين، ومع المواطنين العاديّين، ومع المسؤولين المنتخَبين، وأثمر كلّ ذلك نتائجَ أشبه بالمعجزة. لاحظَت وسائلُ إعلام عدّة التأثير الفعّال لمشروع Project VOTE!؛ إذ كتب محرّرٌ في مجلّة شيكاغو، يصف باراك بأنّه رجل «طويل القامة، دمث الأخلاق، مدمن العمل»، واقترح عليه الترشّح لمنصبٍ رسميّ يومًا ما، وهي فكرةٌ لم يكن باراك يكترث لها كثيرًا.

أمّا الخبر السيّئ، فهو أنّ الرجل الطويل القامة والدمث الأخلاق والمدمن العمل الذي تزوّجته فاتَه الموعد النهائيّ لتسليم كتابه. فقد غرق في عمليّة تسجيل المقترعين، ولم يتمكّن من تقديم سوى جزء من المخطوطة. عندما عدنا إلى بيتنا من كاليفورنيا، علمنا أنّ الناشر ألغى العقد، وبعث برسالة عبر وكيله تفيد بأنّ باراك مدين له بالدفعة الأولى، وقدرها أربعون ألف دولار.

إذا كان الذعر قد تملّك باراك، فإنّه لم يعبّر عن ذلك في حضوري. كان لديّ ما يكفيني من العمل الذي يشغلني مع انتقالي إلى وظيفتي الجديدة في دار البلديّة، والتي استوجبت مشاركتي في مزيد من الاجتماعات وفي عددٍ أقلّ من نزهات المسنّين، خلافًا لعملي السابق. ومع أنّ ساعات العمل لم تتعدَّ ساعات عملي محاميّة، إلّا أنّ الصخب اليوميّ في دار البلديّة جعلني منهكة القوى، فلم أكن مستعدة لتحمّل أي ضغط إضافيّ في المنزل، بل فضّلت تناول كأس من الخمر، التوقّف عن التفكير

والاكتفاء بمشاهدة التلفاز، وأنا جالسة على الأريكة. وإذا كنتُ قد تعلّمت شيئًا من انخراط باراك المهووس بمشروع Project VOTE!، فهو أنّ اهتمامي بهواجسه لم يكن ليفيدني بشيء، ذلك أنّني أراها منهكةً أكثر ممّا يراها هو. فالفوضى تصيبني بالتوتّر، بينما تشحن باراك طاقة. هو أشبه بلاعب السيرك الذي يجعل الصحون تدور، فإذا هدأت الأمور كثيرًا، اعتبر ذلك إشارةً إلى وجود المزيد ممّا ينبغي فعله. بدأت أدرك أنّه لا يستطيع التوقّف عن المبالغة في إرهاق نفسه بالالتزامات، فهو يوافق على المشروعات الجديدة، من دون أن يأخذ في الاعتبار المهلة الزمنيّة أو حدود طاقته، فقد وافق، مثلًا، على العمل في مجلسي إدارتي جمعيّتين خيريّتين، ووافق على التدريس دوامًا جزئيًّا في جامعة شيكاغو خلال فصل الربيع المقبل، في الوقت الذي كان يخطّط للعمل دوامًا كاملًا في شركة محاماة.

كان هناك الكتاب أيضًا. بدت وكيلة باراك واثقةً في إمكان إعادة بيع الفكرة إلى ناشر آخر، لكن يتوجّب عليه إتمام المسوّدة سريعًا. ومع اقتراب موعد التحاقه بعمله التدريسيّ، وبعد حصوله على موافقة شركة المحاماة التي انتظرته مدّة عام كي يبدأ العمل دوامًا كاملًا، خرج بحلٍّ يناسبه تمامًا: سوف يؤلّف الكتاب وهو في عزلة؛ سيبتعد من كلّ ما من شأنه أن يشتّت ذهنه، ويستأجر كوخًا صغيرًا في مكان ما، لينكبّ على العمل بجدّ. كان ذلك أشبه بقضاء ليلة كاملة لإعداد بحث يُقدَّم إلى الجامعة، مع فارق أنّ باراك كان يقدّر أنّ إنهاء الكتاب سيتطلّب منه شهرين تقريبًا. روى لي كلّ ذلك في البيت في إحدى الليالي، بعد ستّة أسابيع تقريبًا من زواجنا، قبل أن يضيف معلومة أخيرة: عثرَت له والدته على الكوخ المناسب. والواقع أنّها استأجرت الكوخ وانتهى الأمر. كان كوخًا بتكلفةٍ رخيصة، هادئًا قرب البحر، في سانور، وهي مدينة شاطئيّة في جزيرة بالي الإندونيسيّة، تبعد منّي خمسة عشر ألف كيلومتر.

كان الأمر أشبهَ بنكتةٍ سيّئة، أليس كذلك؟ ماذا يحدث عندما يتزوج رجلٌ يحبّ الانعزال والاستقلاليّة، امرأةً منطلقة تحبّ الحياة

الأسريّة ولا تطيق العزلة؟

الجواب باعتقادي، هو الجواب الأفضل عن أيّ تساؤل يُطرَح في الحياة الزوجيّة، كائنًا من كنت، وأيًّا كانت المسألة: عليك إيجاد وسيلة للتكيّف مع الوضع. لا وجود لخيارٍ ثانٍ، إذا كنت تعيش علاقةً تريد لها الاستمرار إلى الأبد.

في اختصار، في مطلع العام 1993، سافر باراك إلى بالي، وأمضى هناك خمسةَ أسابيع تقريبًا، وحيدًا مع أفكاره، يعمل على إنجاز مسوّدة كتابه Dreams from My Father. يملأ الصفحات الصفرَ المخصّصة عادةً للمستندات القانونيّة بخطّ يده المنمّق، ويصفّي ذهنه أثناء سيره متكاسلًا، كلّ يوم، وسط أشجار جوز الهند، فيما مياه المحيط تلامس الشاطئ برفق. أقمتُ خلال تلك الفترة في جادّة يوكليد، في الطبقة العليا من منزل والدتي، بينما كان شتاءٌ كئيب آخر يحلّ في شيكاغو، ويلفّ الأشجار والأرصفة بالصقيع. شغلتُ نفسي بلقاء صديقاتي، وبالذهاب إلى صالات الرياضة في الأمسيات. خلال تفاعلي الروتينيّ مع الآخرين، سواءً في مكان العمل أو في أنحاء المدينة، لاحظتُ أنّني كنت أردّد عَرَضًا كلمة جديدة، «زوجي»: أنا وزوجي نأمل بشراء منزل. زوجي كاتب يؤلّف حاليًّا كتابًا. كانت الكلمة غريبة تبعث في النفس السرور، وتستحضر ذكرياتٍ حول الرجل الذي كان غائبًا آنذاك. اشتقت إلى باراك كثيرًا، لكنّني فكرت في الوضع بعقلانيّة، إدراكًا منّي بأنّ فترة الانقطاع هذه كانت على الأرجح لمصلحتنا، وإن كنّا متزوّجَين حديثًا.

أخذ باراك كتابه غير المُنجز، وسافر ليخوض المعركة بمفرده. ربّما فعل ذلك من باب الرأفة بي، أو ربّما كانت محاولة منه لإبعاد الجلبة منّي. كان عليّ أن أذكِّر نفسي دومًا بأنّي تزوّجت رجلًا مفكّرًا صاحب رؤية مختلفة إلى الأمور، رجل يسيّر شؤونه بأسلوب يعتبره الأكثر اتّزانًا وفاعليّة، حتّى لو بدا ذلك في الظاهر، إجازة على الشاطئ؛ شهر عسل مع نفسه (لم أستطع منع نفسي من التفكير بهذه الطريقة في لحظات الوحدة) بعد شهر عسله معي.

أنت وأنا، أنت وأنا، أنت وأنا. كنّا نتعلّم كيف نتكيَّف. كيف نلتحم في صيغة متينةٍ ودائمة تضمّنا نحن. حتّى لو كنّا لا نزال الشخصين السابقين نفسيهما، الحبيبين ذاتيهما كما كنّا منذ سنوات، فقد بتنا نحمل لقبين جديدين، مجموعةً ثانية من الهويّات علينا التكيّف معها. كان زوجي. كنت زوجته. وقفنا في الكنيسة، وأعلنّا ذلك بصوت مرتفع، لكلّ منّا، وللعالم بأسره. بتّ أشعر فعلًا بأنّنا مدينان لبعضنا بعضًا بأشياء جديدة.

كلمة «زوجة» بالنسبة إلى نساء كثيرات، بمن فيهنّ أنا، زاخرة بالمعاني، فهي تحمل في طيّاتها تاريخًا. من نشأ خلال ستّينيّات القرن العشرين وسبعينيّاته مثلي، يعرف أن صورة الزوجات في تلك الفترة كانت تجسّد نوعًا خاصًّا من النساء البيضاوات، بطلات المسلسلات التلفزيونيّة: نساء مرحات مشدودات القوام بتسريحات جميلة. كنّ عادة ربات منازل منصرفات إلى العناية بالأطفال، وكان طعام العشاء جاهزًا دائمًا على مواقدهنّ. قد يُدْمِنَّ أحيانًا الشراب، أو يغازلن بائع المكانس الكهربائيّة، لكنّ الإثارة تنتهي عند هذا الحدّ. والمفارقة أنّني كنت أشاهد تلك المسلسلات في غرفة الجلوس، في منزلنا في جادّة يوكليد، في الوقت الذي تكون والدتي، ربّة المنزل، تعدّ لنا طعام العشاء من دون تذمُّر، ووالدي، الرجل بهندامه المرتّب، يرتاح بعد يوم عمل شاقّ. كان نظام حياة والدَيّ تقليديًّا تمامًا كما كنّا نرى في شاشة التلفاز. يمازحني باراك أحيانًا بالقول أنّ الجوّ الذي نشأت فيه كان النسخة السوداء من مسلسل Leave It to Beaver، حيث يبدو آل روبنسون، الآتون من منطقة South Shore، متماسكين، نضري الوجوه مثل عائلة كليفر الآتية من Mayfield في الولايات المتّحدة الأميركية، لكنّنا بالطبع النسخةُ الأفقر؛ حيث تحلّ بزّةُ عمل والدي الزرقاء محلّ بذلة السيّد كليفر. يُجري باراك هذه المقارنة بشيء من الغيرة، لأنّ طفولته كانت مختلفة تمامًا، ولكن، أيضًا، لأنّه يحاول بذلك التصدّي للصورة النمطيّة الراسخة التي تُظهِر الأفريقيّين الأميركيّين في معظمهم يعيشون داخل منازل متواضعة، كما تبدو فيها عائلاتنا عاجزة عن تحقيق حلم

الارتقاء إلى مستوى عيش الطبقة الوسطى، في الوقت الذي ينجح جيرانُنا البيض بتحقيقه.

لكنّني في طفولتي، فضّلت مسلسل The Mary Tyler Moore Show الذي كنت أشاهده بانبهار. كانت لـ Mary وظيفةٌ وثياب أنيقة وشعر رائع، وهي امرأة مستقلّة مرحة، بخلاف السيّدات الأخريات اللواتي يظهرن في شاشة التلفاز. كانت مشكلاتها مثيرة للاهتمام، ولم تدُر أحاديثها دائمًا حول الأطفال وتدبير المنزل، كما لم تسمح لـ Lou Grant بإصدار الأوامر لها. إضافة إلى أنّ العثور على زوج لم يكن هاجسها الوحيد. امرأةٌ شابّة وامرأة ناضجة في آن. وفي ذلك الزمن، قبل ظهور الإنترنت بكثير، أي عندما كانت ثلاث قنوات تلفزيونيّة هي بوّابتك الوحيدة تقريبًا إلى العالم، كانت تلك الأمور مهمّة. وفي حال كنتِ فتاةً ذكيّة تتطلّعين إلى أن تكوني أكثر من مجرد زوجة، فإنّ Mary Tyler Moore هي مثلك الأعلى.

ها أنا وقد بلغت التاسعة والعشرين، أعيش في الشقّة ذاتها التي كنت أشاهد فيها المسلسلات التلفزيونيّة كلّها، وأتناول الوجبات التي بقيت تعدّها ماريان روبنسون بصبر وودّ. كنت أملك الكثير: مستوى تعليميًّا جيّدًا، إحساسًا سليمًا بالذات، مخزونًا وافرًا من الطموح. وكنت حكيمةً بما يكفي لأعزو الفضل إلى والدتي، على نحو خاصّ، في غرس تلك الأمور في نفسي؛ فقد علّمتني كيف أقرأ قبل ذهابي إلى روضة الأطفال، وعلّمتني كيف ألفظ الكلمات وأنا أتكوّم في حجرها كالقطّة الصغيرة، وأقرأ الكتاب Dick and Jane. كانت تطهو لنا الطعام بعناية، تضع البروكولي والملفوف في أطباقنا، وتطلب منّا تناولهما، حتّى إنّها خاطت لي ثوب حفلة التخرّج! الفكرة هنا أنّها أعطت من دون حساب، وأعطت كلّ ما لديها. تركت لعائلتها مهمّة تحديد دورها. كنت قد بلغت سنًّا أدركت فيها أنّ الساعات كلّها التي كرَّسَتها لي ولكريغ كانت ساعاتٍ اختارت ألّا تكرّسها لنفسها.

أصبحت النِعم الكثيرة التي أتمتّع بها في الحياة تسبّب لي أزمة نفسيّة. فقد نشأتُ لأكون واثقةً في نفسي، نشأتُ وطموحي لا

يعرف حدودًا. اعتقدت أنّ في إمكاني السعي خلف أيّ شيء أريده، والحصول عليه. كنت أريد كلّ شيء، والسبب، كما كانت سوزان لتردد، لمَ لا؟ كنتُ أريد أن أعيش الحرّيّة والاستقلاليّة والتفاؤل التي تخبرها أيّ امرأة تولي حياتها المهنيّة اهتمامًا تمامًا كـ Mary Tyler Moore، وفي الوقت نفسه، كانت تجذبني الحياة العائليّة المستقرّة، والتي تنطوي على تضحية كبيرة، حياة أكون فيها زوجة وأمًّا. كنت أرغب في حياة مهنيّة وحياة عائليّة، لكن على ألّا تأتي إحداهما على حساب الأخرى. كنتُ آمل بأن أكون تمامًا مثل والدتي، وأن أكون مختلفة عنها في آنٍ! كان وضعًا غريبًا مربكًا. هل في إمكاني الحصول على كلّ شيء؟ هل سأحصل على كلّ شيء؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة.

في تلك الفترة، كان باراك قد عاد من بالي مسمرًّا، حاملًا معه حقيبة محشوّة بالأوراق الصفر، إذ حوّل عزلته إنجازًا أدبيًّا. أنهى الكتاب. وبعد أشهر قليلة، كانت وكيلته قد باعت الفكرة من جديد إلى ناشر آخر، ما سمح لباراك بسداد ديونه وأمّن نشر الكتاب. والأهمّ بالنسبة إليّ، هو أنّنا وفي غضون ساعات، استعدنا حياتنا السابقة. كان باراك هنا، أنهى عزلته، وعاد إلى عالمي. زوجي. كان يبتسم على الطُرَف التي أرويها، ويرغب في أخباري، ويقبّلني قبل النوم.

مرّت شهور كنّا نطهو الطعام ونعمل ونضحك ونخطّط للمستقبل. في أواخر الربيع، كنّا قد نجحنا في ترتيب أمورنا الماليّة وبتنا جاهزين لشراء شقّة. انتقلنا من جنوب جادّة يوكليد 7436، إلى شقّة جميلة في Hyde Park كانت نقطة انطلاق جديدة في حياتنا. تجرّأت ثانيةً على تغيير عملي بتشجيع من باراك. هذه المرّة، ودّعت فاليري وسوزان في دار البلديّة كي أستكشف العمل غير الربحيّ الذي لطالما استرعى اهتمامي. تبوّأت منصبًا قياديًّا يسمح لي بالتطوّر على الصعيد المهنيّ. كانت هناك أمور كثيرة لم أكتشفها بعدُ في حياتي. ظلّت المعضلة المتمثّلة في أن أجمع بين شخصيّتَي ماري وماريان في وقت واحد، من دون حلّ. كنت وضعت تلك الأفكار المهمّة جانبًا، وإن مرحليًّا، إذ كنت

على قناعة تامّة بأنّ المخاوف قد تنتظر، لأنّنا «أصبحنا» الآن. كنا سعيدين، والسعادة هي نقطة الانطلاق.

13

جعل عملي الجديد منّي امرأةً متوتّرة. فقد عُيِّنتُ مديرة تنفيذيّة للفرع المحلّيّ الجديد في شيكاغو لمنظّمة Public Allies، وكانت هي نفسها مشروعًا جديدًا نسبيًّا، أي أنّ العمل كان بمثابة بداية جديدة ضمن انطلاقةٍ جديدة، في مجال لم أكن أتمتّع فيه بخبرة مهنيّة تُذكَر. كانت المنظّمة المذكورة أُنشئت قبل عام في العاصمة واشنطن، بمبادرة من فينيسا كيرش وكاترينا براون اللتين كانتا قد تخرّجتا أخيرًا في الجامعة، ورغبتا في مساعدة مزيد من الأشخاص في العثور على عملٍ في مجال الوظائف الحكوميّة والأعمال غير الربحيّة. سبق لباراك الاجتماع بالسيّدتين في أحد المؤتمرات وأصبح عضوًا في مجلسهما، ومن ثمّ اقترح عليهما الاتّصال بي للعمل معهما.

تبنَّت Public Allies الأنموذج المُتَّبع في منظّمة Teach for America، والتي كانت هي الأخرى منظّمةً جديدة نسبيًّا آنذاك، تختار Public Allies شبّانًا موهوبين وتؤمّن لهم التدريب المكثّف والإرشاد. ومن ثمّ، تجد لهم وظائف مدفوعة الأجر مدّة عشرة أشهر في منظّمات محلّيّة وفي وكالات عامّة، على أمل تطوير مهاراتهم ودفعهم إلى تأدية دور محوريّ في المجتمع. هدفت المنظّمة بشكل عامّ، إلى تزويد أولئك الشبان – وكنّا نطلق عليهم اسم Allies (الأنصار) – فرصًا تتيح لهم اكتسابَ الخبرة والدافع الكفيلين باستمرارهم في العمل، في القطاع غير الربحيّ

أو القطاع الحكوميّ سنواتٍ مقبلة. بذلك، تساعد في إنشاء جيلٍ جديد من قادة المجتمعات المحلّيّة.

لقيت الفكرة صدًى كبيرًا في نفسي. فقد تذكّرت كيف كنتُ وكثرًا من زملائي في سنة التخرّج في جامعة برِنستون، نتقدّم إلى امتحان القبول في كلّيّة الطبّ، أو امتحان القَبول في كلّيّة الحقوق، أو نُحضَّر للمقابلات من أجل المشاركة في برامج التطوير المؤسّسيّ، من دون أن نفكر لحظة (في الأقلّ في حالتي أنا)، أو حتّى ندري، بوجود خيارات العمل الكثيرة الأخرى التي تُعنى بالشأن العامّ. كان الهدف من إنشاء منظّمة Public Allies تصحيح هذا الوضع؛ ما يعني توسيع آفاق الشباب الذين يبحثون عن مهن لهم. لكنّ الأمرَ الذي أثار إعجابي على نحو خاصّ في هذه المنظّمة، هو أنّ مؤسّسيها لا يركّزون على فرض طلّاب جامعات Ivy League على المجتمعات المدينيّة المحلّيّة، بل يفضّلون العثور على المواهب الموجودة أصلًا في تلك المجتمعات. فلم يكن يتعيّن على الشخص أن يكون حائزًا شهادة جامعيّة كي يصبح نصيرًا، كان يكفي أن يكون حائزًا شهادةَ الثانويّة أو شهادة « GED»، وأن يكون قد تجاوز السابعة عشرة ولم يبلغ الثلاثين، وأن يُظهِر قدرات قياديّة، حتّى وإن لم تكن حصلت الاستفادةُ من هذه القدرات حتّى تلك اللحظة.

كانت منظّمة Public Allies تركِّز على الجيل الواعد، العثور عليه، ورعايته، والاستفادة منه عمليًّا. وكانت مهمّتهم تقتضي البحث عن شباب يتمتّعون بمزايا ممتازة قد لا يُتنبّه إليها في ظروف مغايرة، وتوفير الفرص ليحقّقوا الإنجازات. بدا العمل هذا بالنسبة إليّ قدرًا محتومًا. فبعد تلك اللحظات كلّها التي كنت أنظر فيها بكآبةٍ إلى الجانب الجنوبيّ من شيكاغو، من نافذة مكتبي في Sidley، في الطبقة السابعة والأربعين، ها قد سنحت لي الفرصة، أخيرًا، لتطبيق ما أعرفه عمليًّا. كنت أشعر بوجود مواهب واعدة في أحياء كالحيّ الذي نشأتُ فيه. وكنت واثقةً في أنّني أعرف كيف سأعثر عليها.

بينما كنت أفكّر مليًّا في عملي الجديد، تذكّرت طفولتي، بخاصّة

ذاك الشهر الذي أمضيته وسط الجلبة والأقلام المتطايرة في الصفّ الثاني، في مدرسة Bryn Mawr الابتدائيّة، قبل أن تتدبّر والدتي أمرَ سحبي من الصفّ. آنذاك، شعرت بالسعادة لأنّني حظيت بتلك الفرصة. والآن، بعد أن حظيت بفرص كثيرة في الحياة، بدأت أفكّر في هؤلاء الأطفال العشرين الذين بقوا مُهمَلين في ذلك الصف البائس مع مدرّسةٍ لامبالية وغير مندفعة. كنت أعي أنّني لست أذكى من أيٍّ منهم، الفارق الوحيد هو أنّني محظوظة بما يكفي بوجود إنسانةٍ تدافع عن حقوقي. عندما أصبحتُ امرأةً راشدة، صارت تلك الفكرة تشغلني أكثر، لا سيّما عندما كان الناس يثنون على إنجازاتي كأنّها ليست بفعل ذلك القدر الغريب والقاسي. فقد خسر أولئك الطلّاب في الصفّ الثاني، ولسبب لا يتعلّق بهم، سنةً دراسيّة كاملة. لقد حظيت بما يكفي من الخبرة حتّى الآن لكي أدرك أنّ صغائر الأمور قد تتفاقم أيضًا.

في واشنطن العاصمة، كان مؤسّسو منظمة Public Allies شكّلوا صفًّا جديدًا، مؤلّفًا من خمسة عشر نصيرًا يعملون في منظّمات متعدّدة في المدينة. كما تمكّنوا من جمع مبلغٍ يكفي لإنشاء فرعٍ محلّيّ للمنظّمة في مدينة شيكاغو. بذلك، أصبحَت المنظّمة من المنظّمات الأولى التي تتلقّى تمويلًا فيدراليًا من خلال برنامج AmeriCorps الذي وُضِع في عهد الرئيس كلينتون. في تلك المرحلة، انضممت إليهم. كنتُ أشعر بالإثارة والقلق في آن. أثناء التفاوض حول شروط العمل، اتّضح لي ما كان ينبغي أن يكون واضحًا بالنسبة إلى عمل غير ربحيّ، لم يكن مجزيًا مادّيًّا. عُرِض عليّ بدايةً، أجرٌ ضئيل جدًّا، أدنى بكثيرٍ ممّا كنت أحصل عليه في بلديّة شيكاغو، والذي يعادل نصف أجري كمحاميّة، كان قليلًا إلى حدٍّ لم أستطع معه القبول. فهمت أمرًا آخر يتعلّق بمنظّمات غير ربحيّة – خصوصًا المشروعات الجديدة التي يسيّرها شباب مثل Public Allies – وبأشخاص كثر مندفعين وشغوفين عاملين في تلك المنظّمات. يبدو أنّ هؤلاء، وخلافًا لي، كانوا يستطيعون فعلًا العمل في المنظّمات المذكورة،

إذ كانت الامتيازات التي يحظون بها تسمح لهم بذلك، سواء أكان ذلك عدم التزامهم بتسديد قروض دراسيّة، أو وجود ميراثٍ يتطلّعون إلى الحصول عليه يومًا ما. بالتالي، لم يكونوا مضّطرين للادّخار من أجل المستقبل.

فهمت أنّني إذا كنت أرغب في الانضمام إلى المنظّمة فعليَّ أن أتفاوض معهم بشأن الراتب، علمًا أنّ ما كنت أحتاج إليه كان يفوق بكثير المبلغ الذي كانت Public Allies على استعداد لدفعه. كان وضعي يتطلّب ذلك، بكلّ بساطة؛ لم يكن هناك داعٍ للشعور بالخجل أو بالارتباك. كنت ملزمةً بدفع ستّمئة دولارٍ شهريًّا لتسديد قرض الدراسة، هذا إضافة إلى مصاريفي الاعتياديّة، كما أنّني متزوّجة برجل تثقل كاهله أعباء قرض دراسته في كليّة الحقوق. بدا مديرو المنظّمة مذهولين عندما أطلعتهم على المبلغ الذي اقترضتُه لإتمام دراستي، وتحوُّله دَيْنًا شهريًّا، لكنّهم تمكّنوا من تأمين تمويل جديد أتاح لي الانضمام إليهم.

بعد تسوية هذه المسألة، بدأت العمل تحدوني الرغبة في الاستفادة من الفرصة التي سنحت لي. كانت تلك أوّل فرصة فعليّة أتيحت لي لتأسيس شيءٍ ما من الصفر: سيترتّب على جهودي الخاصّة النجاح أو الفشل، لا على جهود مديري أو جهود أيّ شخص آخر. أمضيت ربيع العام 1993 في العمل بجهد لتجهيز مكتب ولتوظيف فريق عمل صغير يمكّننا من تشكيل صفّ من «الأنصار» بحلول الخريف. عثرنا على مكتب تكلفته رخيصة، في مبنًى في جادّة ميشيغان، واستطعنا الحصول على عددٍ كبير من المقاعد والطاولات المستعملة منحتنا إيّاها شركةٌ استشاريّة كانت تجدّد مكاتبها.

ومن الجهة الأخرى، عمدت أنا وباراك إلى الاتصال بالشخصيّات النافذة كافّة التي نعرفها في شيكاغو، سعيًا إلى إيجاد مانحين وأشخاص يستطيعون مساعدتنا في تأمين دعمٍ ماليّ طويل الأجل، وإلى العثور على أيّ شخص يعمل في مجال الوظائف الحكوميّة، ويرغب في استضافة أحد «الأنصار» في مؤسّسته خلال السنة التالية. ساعدتني فاليري جاريت في تحديد الوظائف

المناسبة لكلّ شخص في مكتب المحافظ، وفي دائرة الصحّة في المدينة حيث كان «الأنصار» سيشاركون في مشروعٍ لتلقيح الأطفال في أحد الأحياء. لجأ باراك إلى شبكة المنسّقين العاملين ضمن الجماعات المحلّيّة، لمساعدتنا في الحصول على المشورة القانونيّة، والدعم الشعبيّ، والفرص التعليميّة. وتبرّع شركاء عدّة في مكتب Sidley بالمال، وساعدونا في التعرّف إلى مانحين مهمّين.

كان الجزء الأكثر إثارة بالنسبة إليّ يتمثّل في العثور على «الأنصار». تمكنّا، بمساعدة المنظّمة الوطنيّة، من نشر الإعلانات، في الجامعات في أنحاء البلاد كلّها، لتحفيز الشباب على الانضمام إلى منظّمتنا، في الوقت الذي كنّا نبحث عن المواهب في مدينتنا. زرتُ مع فريقي الكلّيّات المحلّيّة، وثانويّات كبرى في أطراف شيكاغو، طرقنا أبواب المنازل في مشروع Cabrini-Green السكنيّ، شاركنا في لقاءات المجتمع المحلّيّ، وتواصلنا مع القائمين على البرامج التي تُعنى بالأمّهات العازبات. قابلنا كثرًا من الناس بدءًا من رعاة أبرشيّات، وصولًا إلى أساتذة جامعات ومديري مطاعم ماكدونالدز المحلّيّة، وطلبنا منهم إرشادنا إلى الشباب المتميّزين من معارفهم. مَن منهم يتمتّع بحسّ القيادة؟ مَن منهم مستعدّ لعمل مهمّ؟ هؤلاء هم الأشخاص الذين نرغب في تشجيعهم على التقدّم بطلبات الانضمام، وفي حثِّهم على أن ينسوا، ولو لحظة، العراقيل التي تقف في وجه تحقيق أهدافهم. وكنا نعِدهم بأنّنا، كمنظّمة، سوف نقدم ما في وسعنا للمساعدة في تأمين حاجاتهم، سواء أكان ذلك بطاقة لركوب الحافلات، أم مبلغًا يمكّنهم من رعاية أطفال.

في حلول الخريف، أصبح لدينا سبعة وعشرون شخصًا من «الأنصار» يعملون في أنحاء شيكاغو كلّها، يتدرّبون في كلّ مكان، من دار البلديّة، إلى وكالة مساعدة المجتمع المحلّيّ في الجانب الجنوبيّ، إلى مدرسة Latino Youth وهي ثانويّة تدرّس مناهج غير تقليديّة في Pilsen. كان «الأنصار» يشكّلون جماعةً منتقاة مفعمة بالحيويّة، مشحونة بالمثاليّات والتطلّعات، يمثّلون مختلف

الخلفيّات. كان بينهم عضو عصابةٍ سابق، وامرأةٌ لاتينية نشأت في المنطقة الجنوبيّة الغربيّة من شيكاغو ودرسَت في هارفارد، وامرأة في مطلع العشرينيّات، تعيش في مساكن Robert Taylor Homes، وتربّي طفلًا، وتحاول في الوقت نفسه ادّخار مبلغ من المال لتدرس في الجامعة، وشاب في السادسة والعشرين من منطقة Grand Boulevard، كان ترك الثانويّة، لكنّه تابع دراسته من خلال الكتب التي كان يستعيرها من المكتبات، وعاد لاحقًا إلى المدرسة للحصول على شهادة.

في كلّ يوم جمعة، كان «الأنصار» يعقدون اجتماعًا في أحد مكاتب الوكالة المضيفة. كنّا نمضي اليوم في تبادل المعلومات والتواصل، واستعراض نشاطات سلسلة من ورشات العمل التي تُعنى بالتطوير المهنيّ. كنت أحبّ تلك الأيّام أكثر من أيّ شيء آخر. كنت أحبّ الضجّة التي يثيرها «الأنصار» عندما يجتمعون في الغرفة، ويرمون حقائب الظهر في الزاوية، ويخلعون طبقات الثياب الشتويّة، ويجلسون متحلّقين. كنت أحبّ مساعدتهم في فرز المسائل التي تهمّهم وتنظيمها؛ سواء أكانت إتقان برنامج Excel، أم معرفة كيفيّة ارتداء الثياب المناسبة للعمل المكتبيّ، أو التحلّي بالشجاعة للتعبير عن أفكارهم في غرفةٍ مليئة بأشخاصٍ يتفوّقون عليهم بالتحصيل العلميّ، أو أشخاصٍ يتمتّعون بدرجةٍ أكبر من الثقة في النفس. كنت أضطر أحيانًا إلى إعطاء أحدهم إجابةً تتضمّن تقييمًا قد لا يروقه. وفي حال استلامي تقارير تفيدُ بأن بعضًا منهم يتأخّر في الذهاب إلى العمل، أو لا يقوم بعمله بالجدّيّة اللازمة، لم أكن أتردّد في أن أوضح بحزمٍ أنّنا نتوقّع منهم أفضل من ذلك. وعندما كان «الأنصار» يشعرون بالإحباط نتيجة الفوضى في تنظيم الاجتماعات مع الجماعات المحلّيّة، أو نتيجة وجود زبائن يفتعلون مشكلات في الوكالات التي يعملون فيها، كنت أنصحهم برؤية الأمور من منظورٍ صحيح، وأذكّرهم بأنّهم أشخاص محظوظون نسبيًّا.

لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه، هو أنّنا كنّا نحتفي بأيّ قدر جديد، مهما صغر، من التعلّم أو التطوّر. والواقع أنّنا احتفينا بالكثير. لم يكن

«الأنصار» كافّة يخطّطون للعمل في المجال غير الربحيّ أو في القطاع الحكوميّ، ولم يكن الكلّ قادرين على تجاوز العقبات التي تفرضها عليهم بيئاتهم المتواضعة. لكن، وبمرور الوقت، أدهشتني رؤية كثرٍ من الأعضاء الجدد وقد نجحوا في الالتزام، أمدًا طويلًا، بخدمة المصلحة العامّة. منهم مَن أصبح ضمنَ فريق العمل في منظّمة Public Allies؛ ومنهم مَن أصبح قياديًا في وكالات حكوميّة، وداخل منظّمات وطنيّة غير ربحيّة. ما زالت منظّمة Public Allies، بعد خمس وعشرين سنة على انطلاقها، تزداد قوّة، ولديها فروع محلّيّة في شيكاغو وفي مدن أخرى عدّة، وآلاف الخرّيجين في جميع أنحاء البلاد. ومجرّد التفكير في أنّني ساهمت في دورٍ صغير في تحقيق ذلك، وساعدت في تأسيس شيء تابعَ مسيرته، يثير في نفسي أقوى مشاعر الرضا التي شعرت بها في حياتي المهنيّة.

كنت أعنى بشؤون منظّمة Public Allies، وقد تملّكتني مشاعرُ الفخر المشوب بالإرهاق التي تنتاب الوالدين عندما يُرزقان طفلهما الأوّل. كنت أنام كلّ ليلة وأنا أفكّر في ما ينبغي فعله بعد. وأفتح عينيّ كلّ صباح، وقد هيّأتُ في ذهني قوائم ما يجب تنفيذه في ذلك اليوم، وذلك الأسبوع، وذلك الشهر. بعد تخريج أوّل دفعة من «الأنصار» في فصل الربيع، وكان مؤلّفًا من سبعةٍ وعشرين شخصًا، رحّبنا في الخريف بمجموعة أخرى مؤلّفة من أربعين شخصًا، وتابعنا تقدّمنا منذ تلك اللحظة. لدى استرجاع الأحداث الماضية، أعتبر ذلك العمل أفضلَ ما فعلته، بسبب تلك الحماسة التي كنت أشعر بها، وبسبب الجهد الحثيث المطلوب لتحقيق أيّ نصرٍ مهما بدا متواضعًا – سواء أكان إيجاد وظيفة مناسبة لشخص يتكلّم الإسبانيّة، أم تهدئة مخاوف شخصٍ يخشى العمل في حيٍّ غير مألوف.

شعرتُ، أوّل مرّة في حياتي، بأنّي أقوم بعمل هادف يؤثّر مباشرة في حياة الآخرين، ويُبقيني على ارتباط بمدينتي وبثقافتي. كما جعلني هذا العمل أتفهّم مشاعر باراك حين عمل منسّقًا، أو حين شارك في مشروع Project VOTE! وقد انصبّ

اهتمامه كلّيًّا على خوض هذه المعركة المحتدمة – النوع الوحيد من المعارك الذي يروقه، وسوف يروقه دائمًا – التي من شأنها أن تستنزف قوى المرء، إنّما تقدّم له كلّ ما قد يحتاج إليه.

أثناء انهماكي في العمل مع منظّمة Public Allies، كان باراك مستغرقًا – بحسب معاييره الخاصّة – في حياة رتيبة نوعًا ما تخلو من التوقّعات الكبيرة. كان يدرِّس صفًّا حول العنصريّة والقانون في كلّيّة الحقوق في جامعة شيكاغو، ويعمل في شركة محاماة متولّيًا قضايا تتعلّق غالبًا بحقوق الاقتراع والتمييز في التوظيف. وكان أحيانًا يدير ورشات حول التنظيم المجتمعيّ، ويترأّس جلساتٍ يوم الجمعة أعقدها مع مجموعتي في منظّمة Public Allies. ظاهريًّا، بدا ذلك حياة مثاليّة لمفكّر في الثلاثينيّات من العمر، يهتمّ بالمصلحة العامّة، رجل رفض بحزم خيارات كثيرة كانت ستوفّر له مزيدًا من المال والجاه، في سبيل الحفاظ على مبادئه. من وجهة نظري الشخصيّة، اعتبرت أنّ باراك حقّق النجاح الذي يستحقّ؛ فقد توصّل إلى تحقيق نوع من التوازن. كان محاميًا ومدرّسًا ومنسّقًا. وفضلًا عن ذلك، كان سيصبح مؤلّفًا كتابًا سيجد طريقه إلى الأسواق.

بعد عودته من بالي، أمضى باراك فترةً تجاوزت السنة في إعداد مسوّدة ثانية لكتابه، خارج ساعات العمل. كان يعمل إلى ساعةٍ متأخّرة من الليل في غرفة صغيرة في القسم الخلفيّ من الشقّة حوّلناها مكتبًا ومستودعًا تزدحم فيه الكتب المبعثرة في كلّ مكان، وأطلقتُ عليها تحبّبًا اسم «الجُحْر». كنت أدخل الغرفة أحيانًا، أثناء عمله، وأعبر فوق أكوام الورق، لأجلس على أريكةٍ منخفضة أمام كرسيّه، وأحاول الاستئثار باهتمامه بروايةِ طرفة أو بابتسامة. كان يتقبّل تدخّلي بكلّ ودّ، شرط ألّا أطيل الجلوس.

أدركت بمرور الوقت أن باراك يحتاج إلى مكان منعزل يلجأ إليه، موقع صغير مغلق يستطيع أن يقرأ فيه ويكتب من دون إزعاج، كوّة تفتح مباشرةً على الفضاءات الفسيحة لأفكاره. كأنّ الوقت الذي يمضيه هناك يشحنه طاقة. واحترامًا لهذه الفكرة، كنّا دائمًا نسعى إلى إيجاد نسخةٍ من تلك الغرفة المنعزلة في كلّ بيت

عشنا فيه، أيّ زاوية هادئة أو أيّ فجوة تفي بالغرض. ما زال باراك حتّى اليوم، وعندما نصل إلى منزل لنستأجره في هاواي أو في Martha's Vineyard، يذهب للبحث عن غرفةٍ خالية يمكن أن تقوم مقام الجُحر خلال الإجازة. مكان يستطيع فيه أن يقلّب صفحات الكتب الستّة أو السبعة التي يقرأها في آنٍ واحد، ويرمي بصحفه على الأرض. كان هذا المكان بالنسبة إليه موقعًا ساميًا مكرّسًا لتولد فيه الأفكار العميقة، ولينعم في رحابه بصفاء الذهن. أما بالنسبة إليّ، فقد كان مجرّد فوضى عارمة غير مريحة. كنت أشترط دائمًا أن يكون لذلك المكان، حيثما وجد، بابٌ لكي أغلقه، ولأسباب لا تُخفى بالطبع.

أخيرًا، نُشر الكتاب Dreams from My Father في صيف العام 199. كانت آراء النقّاد مشجعة، ومع ذلك لم يلقَ الكتاب رواجًا كبيرًا، لكنّنا لم نرَ في الأمر مشكلة. الأهم أنّ باراك تمكّن من أن يجمع عناصر حكايته، فهو ربط بأسلوب رشيق الأجزاء المتباينة لهويّته العائدة إلى كينيا، وإندونيسيا، وهاواي وشيكاغو، وبذلك توصّل إلى أن يشعر بالتكامل. كنت فخورة به. فمن خلال تلك السرديّة، أوجد باراك نوعًا من السلام الأدبيّ مع والده الغائب. لكنّ الجهد الذي تطلّبه ذلك بُذِل من طرف واحد، بالطبع. كان باراك وحدَه يحاول سدَّ كلّ ثغرة، وفَهْم كلّ فكرة غامضة تتعلّق بأوباما الأب. بدا هذا الأسلوب متماشيًا مع كلّ ما فعله باراك طوال حياته. فقد أدركتُ أنّه كان دائمًا، ومنذ طفولته، يحاول الاعتماد على نفسه في كلّ ما يقوم به.

بعد إنهاء الكتاب، توفّرت لدى باراك فسحة جديدة في حياته، بالتالي شعر – وهنا أيضًا تماشيًا مع طبيعته – بأنّه ملزمٌ بملء تلك الفسحة فورًا. على الصعيد الشخصيّ، تلقّى باراك خبرًا محزنًا: تبيّن أنّ والدته، آن، مصابةٌ بسرطان المبيضين، وأنّها عادت من جاكرتا إلى هونولولو لتلقّي العلاج. توفّرت لها هناك رعايةٌ طبّيّة ممتازة، كما علمنا، وكانت تتجاوب مع العلاج الكيميائيّ. كانت مايا والجدّة توت تعتنيان بها في هاواي، كما اعتاد باراك أن يزورها من حين إلى آخر. لكنّ تشخيص المرض كان أتى متأخّرًا، وكان من

الصعب التكهّن بما قد يحصل. كنت أدرك أنّ الوضع يثقل كاهل باراك.

في تلك الأثناء، بدأت حدّة النقاش السياسيّ تعلو ثانيةً في شيكاغو. كان المحافظ داليه انتُخِب لولاية ثالثة في ربيع العام 1995، وبدأ الكلّ الاستعداد لانتخابات العام 1996، حيث ستنتخب إلينوي عضوًا جديدًا يمثّلها في مجلس الشيوخ الأميركي، وسوف يحاول الرئيس بيل كلينتون الترشّح لولاية ثانية. من الجهة الأخرى، انكشفَت فضيحة في صفوف الحزب الديمقراطي، فقد كان أحد أعضاء الكونغرس، من الحزب نفسه، يخضع للتحقيق بسبب جرائم جنسيّة. وأدّى ذلك إلى شغور الموقع، وإتاحة الفرصة أمام منافسٍ ديمقراطيّ جديد في الدائرة الثانية للولاية، وهي تشمل منطقةً واسعة من الجانب الجنوبيّ لشيكاغو. وكانت أليس بالمر، وهي عضو في مجلس الولاية، قد بدأت تردّد في المجالس الخاصّة أنّها في صدد الترشُّح للمنصب، والجدير بالذكر أنّها كانت تتمتّع بشعبيّة، وتمثّل Hyde Park و South Shore، وكان باراك تعرّف إليها أثناء عمله مع Project VOTE!. ما يعني أنّ مقعدها في مجلس الولاية سيصبح شاغرًا؛ في عبارةٍ أخرى، إفساح المجال لإمكان ترشُّح باراك للمنصب.

هل كان باراك مهتمًّا بالموضوع؟ هل سيرشّح نفسه؟

لم أكن أعرف في تلك الفترة أنّ هذين السؤالين سيهيمنان على السنوات العشر التالية من حياتنا. كان إيقاعهما أشبه بقرع الطبول في خلفيّة كلّ ما نفعله. هل سيترشّح؟ هل يستطيع أن يترشّح؟ هل سيقدم على الترشُّح؟ هل ينبغي له أن يترشّح؟ ولكن، قبل كلّ ذلك، كان هناك السؤال نفسه الذي يطرحه باراك كلّما أقدم على الترشّح إلى منصب ما. كانت المرّة الأولى التي طرح فيها باراك هذا السؤال، يومَ أعلمني بشأن مقعد أليس بالمر الشاغر، وأخبرني بأنّ في إمكانه أن يصبح مشرّعًا على مستوى الولاية، إضافة إلى كونه محاميًا وأستاذًا ومنسّقًا ومؤلّفًا، فقال: «ميش، ما رأيك بذلك؟».

لم يكن من الصعب عليّ الإجابة في كلّ مرّة عن هذا السؤال.

لم أعتبر ترشّح باراك فكرةً عظيمة. صحيح أنّ الحجّة كانت تتغيّر في كلّ مرّة يُطرح فيها السؤال، لكنّ موقفي عمومًا ظلّ راسخًا مثل شجرة السيكويا المتجذّرة في الأرض، على رغم أنّ ذلك، كما تعرفون، لم يغيّر في الأمر شيئًا على الإطلاق.

في حالة الترشّح إلى مجلس الولاية في إلينوي، العام 1996، كانت حجّتي هي: لم أكن شديدةَ الإعجاب برجال السياسة، بالتالي، لم أحبّذ فكرة تحوُّل زوجي رجلًا سياسيًّا. كان جلّ ما أعرفه حول السياسة مصدرُه الصحف، ولم يكن في الصحف ما يمكن اعتباره مفيدًا أو مثمرًا على نحوٍ خاصّ. كما أنّ صداقتي لسانتيتا جاكسون ولّدت عندي الانطباعَ بأنّ عمل رجال السياسة يتطلّب ابتعادهم من بيوتهم أحيانًا كثيرة. كنت أرى المشرّعين، عمومًا، أشبه بالسلاحف بدرقاتهم الصلبة، وجلودهم السميكة، وحركاتهم البطيئة، وتقوقعهم داخل أنانيّتهم. أمّا باراك، فكان في رأيي رجلًا جدّيًّا أكثر ممّا ينبغي، وصاحب مخطّطات شجاعة أكثر ممّا ينبغي، لذا لن يستطيع التأقلم مع مشاعر الضغينة الحاقدة التي لا تعرف حدًّا، الكامنة تحت قبّة الكابيتول، في أطراف مدينة سبرينغفيلد.

كنت أؤمن ضمنًا بأنّ ثمّة طرائق أفضل تمكِّن الإنسان الشريف من إحداث تأثير. وإذا توخيتُ الصدق، كنت أعتقد أنّ باراك سوف يؤكل حيًّا هناك.

ولكن، كانت هناك حجّة معاكسة تتفاعل ببطءٍ في أعماق ذاتي. إذا كان باراك يؤمن بأنّه يستطيع إنجاز شيء ما في حقل السياسة، فمن أنا لأعيقه؟ من أنا لأقضي على الفكرة قبل أن تتاح له فرصة اختبار تبعاتها؟ ألم يكن هو الشخص الوحيد الذي شجّعني عندما أردت ترك العمل؟ والشخص الوحيد الذي دعمني عندما رغبتُ في العمل في دار البلديّة، على رغم ما كان يعتريه من مخاوف آنذاك؟ وهو يشغل وظائف عدة في وقتٍ واحد، ليعوّض ما خسرته من أجري عندما أصبحتُ فاعلةَ خير دوامًا كاملًا في منظّمة Public Allies. خلال السنوات الستّ من علاقتنا، لم يشكّك ولو مرّة في مواهبي أو في قدراتي. كانت الجملة التي لا

ينفكّ يردّدها على الدوام: لا تقلقي. في إمكانك القيام بذلك. سوف نفكّر ونجد حلًّا.

وافقت على ترشّحه للمنصب أوّل مرّة. وقلت له محذّرةً، بحرص الزوجة: «أعتقد أنّك ستصاب بالإحباط إذا انتُخبتَ، ستتولى منصبك هناك، ولن تتمكّن من تحقيق شيء، مهما حاولت جاهدًا. وسوف يدفعك ذلك إلى الجنون».

قال باراك، وهو يهزّ كتفيه: «ربّما. وربّما تمكّنت من تحقيق نتائج جيّدة. من يدري؟».

قلت، وأنا أهزّ كتفيّ أيضًا: «هذا صحيح». لم يكن يحقّ لي العبث في مشاعره المتفائلة. «فمن يدري؟».

أصبح زوجي، كما يعرف الجميع بالطبع، رجلًا سياسيًّا. إنّه رجل شريف يرغب في إحداث تأثير في العالم. وعلى رغم ما راودني من شكوك، فقد قرّرَ أنّ تلك هي الوسيلة المُثلى لتحقيق رغبته. كانت هذه قناعته الراسخة.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1996، انتُخب باراك عضوًا في مجلس الولاية في إلينوي، وأقسم اليمين بعد شهرين، أي مطلع العام التالي. ولدهشتي الشديدة، استمتعتُ بمراقبة مسار الحملة. ساهمتُ في جمع التواقيع لكي يكون اسمه ضمن قائمة المرشّحين. وفي أيّام السبت، طرقت الأبواب في الحيّ الذي كنت أعيش فيه، وأصغيت لما قاله السكّان عن الولاية وحكومتها، وعن كلّ ما يعتقدون أنّه بحاجة إلى إصلاح. وقد ذكّرني ذلك بأيّام عطلة نهاية كلّ أسبوع في طفولتي، عندما كنت أتبع والدي وهو يصعد درجات الشرفات الأماميّة، ليقوم بواجباته بصفته موظّفًا مكلّفًا التواصل مع المقترعين. لم تكن مساهمتي ضروريّة خارج ذلك الإطار، ما كان يناسبني تمامًا. كان في وسعي التعامل مع الحملة كما لو أنّها هواية؛ أمارسها حين يروقني ذلك، وأستمتع بها، ثمّ أعود إلى عملي الخاصّ.

توفّيت والدةُ باراك في هونولولو بعد فترةٍ وجيزة من إعلان ترشّحه. كان وضعها الصحّيّ قد تدهور بسرعةٍ، فلم تُتح له فرصةُ الوصول قبل رحيلها كي يودّعها. دمّره ذلك. كانت آن دنهام هي

التي عرَّفته إلى غنى الأعمال الأدبيّة، وعززت لديه قوّة النقاش الذي يعتمد على الحجج المنطقيّة. لولاها، لم يقدِّر لباراك الشعور بوابل الأمطار الموسميّة في جاكرتا، أو رؤية معابد الماء في بالي. لولاها، لما تعلّم تقدير السهولة والإثارة الكامنتين في القفز من قارّة إلى أخرى، أو في تبنّي الخارج عن المألوف. كانت امرأة مستكشِفةً، تتصرّف وفقًا لما تمليه عواطفها. لاحظتُ مدى تأثير شخصيّتها في أشياء كبيرة وصغيرة في شخصيّة باراك. انغرس ألمُ فقدانها كالنصل في روحينا، إلى جانب النصل الذي غرسه رحيل والدي.

مع حلول الشتاء، بدأت تنعقد جلسات الهيئة التشريعيّة، فلم نعد نمضي طيلة أيّام الأسبوع سويًّا. كان باراك يقود سيّارته أربع ساعاتٍ إلى سبرينغفيلد في ليالي الأحد، ويقيم في فندقٍ رخيص مع غيره من المشرّعين، ويعود غالبًا في وقت متأخّر من يوم الخميس. أُفرِد له مكتبٌ صغير في مبنى برلمان الولاية، وعُيِّن له موظّف دوامًا جزئيًّا في شيكاغو. خفّف باراك ساعات عمله في شركة المحاماة، وكي لا يؤثر ذلك في سداد ديوننا، بات يدرّس ساعات إضافية في كلّيّة الحقوق، ونظّم جدوله، بحيث يعمل في الأيّام التي لا يذهب فيها إلى سبرينغفيلد. كنّا نتحدّث هاتفيًا كلّ ليلة عندما يكون غائبًا، ونتبادل الملاحظات، ويروي كلّ منّا يوميّاته للآخر. في أيّام الجمعة، عندما يعود إلى شيكاغو، كنّا نلتقي دومًا في المساء، في وسط المدينة، في مطعم Zinfandel، بعد إنهائنا العمل.

أتذكّر الآن تلك الليالي بشغف كبير: الأضواء الخافتة الدافئة في المطعم، ووصولي إلى المكان قبله دائمًا، وهو أمرٌ متوقّع نظرًا إلى ولعي بالالتزام بدقّة المواعيد. كنت أنتظر قدوم باراك، ولكن بما أنّنا كنّا نلتقي في آخر الأسبوع بعد مواعيد العمل، ولأنّني اعتدتُ هذا الوضع، لم أكن أنزعج من وصوله متأخّرًا. كنت أعلم أنّه سيأتي في النهاية، وأنّ دقات قلبي ستتسارع، كالعادة، عندما أراه يدخل من الباب، ويسلّم معطفه إلى الموظّفة المسؤولة، قبل أن يشقّ طريقه بين الموائد ويبتسم عندما تلتقي أعيننا. كان

يقبّلني ثمّ يخلع سترته ويعلّقها على ظهر الكرسيّ، قبل أن يجلس. زوجي. كان هذا الروتين يشعرني بالراحة. كنّا نطلب الأطباق ذاتها كلّ مرّة: اللحم المحمّر، والملفوف، والبطاطس المهروسة ونلتهم كلّ شيء.

بدت تلك أيّامًا مميّزة بالنسبة إلينا، وفي النظر إلى التوازن الذي شهده زواجنا، إذ كان لكلّ منّا هدفه الخاصّ. خلال أسبوع واحد من بداية انعقاد جلسات مجلس الولاية في سبرينغفيلد، قدّم باراك سبعة عشر مشروع قانون، ويمكن اعتبار ذلك رقمًا قياسيًّا، أو في الأقلّ معيارًا لمدى حماسته لتحقيق شيءٍ ما. كان يُقَرّ بعضها في نهاية المطاف، بينما يتعرّض معظمها للاستهداف سريعًا في مجلس يسيطر عليه الجمهوريّون، فيسقط المشروع زملاؤه الجدد المدفوعون بمشاعر الولاء الحزبيّ وبنزعة سلبيّة يصفونها بالواقعيّة. ومثلما توقّعتُ، أدركتُ في تلك الأشهر الأولى كيف يمكن السياسة أن تكون معركة، معركة مرهِقة تحصل فيها مواجهات وتحدث فيها خيانات، ويشارك فيها صنّاع الصفقات القذرة، وتنتهي بمساومات تكون مؤلمة أحيانًا. لكنّني أدركتُ أنّ توقّعات باراك كانت صحيحة أيضًا. بدا باراك الرجل المناسب لخوض معركة التشريع: بهدوئه المعهود وسط الاضطرابات، باعتياده أن يُنظَر إليه كدخيل، بمواجهته الهزائم بروّية شخص من هاواي. لم يفارقه الشعور بأنّ جزءًا من الرؤية التي يحملها سوف يتحقّق ويهيمن يومًا ما، وبطريقة ما. بدأ باراك يتلقّى الضربات، لكنّه لم يكترث، كأنّه خُلِق لمواقف كهذه. غطّته الخدوش وظلّ مع ذلك لامعًا مثل قدْر نحاس قديم.

كنت أيضًا أمرّ بمرحلة انتقاليّة. فقد انضممت إلى عملٍ جديد، بعد أن اتّخذت قرارًا لم أكن أتوقّعه بترك جمعيّة Public Allies، المنظّمة التي أنشأتُها وتعهّدتها بالرعاية إلى أن نمَت. كرّست نفسي لها ثلاث سنوات بكلّ حماسة، وتحمّلت مسؤوليّة المهمّاتِ التشغيليّة فيها، الكبيرة منها والصغيرة، إلى حدّ ملء الآلة الطابعة ورقًا. وبعد أن تيقّنت من أنّ المنظّمة تحقّق نموًا مطّردًا، وأنّها ستظلّ قائمةً طوال سنوات بفضل المنح الفيديراليّة،

والدعم الماليّ المستمرّ لها، شعرت بأنّ في إمكاني التنحّي بطيبة خاطر. كانت فرصة عمل جديدة قد ظهرت من حيث لا أدري في خريف العام 1996؛ فقد اتّصل بي آرت سوسمان، المحامي الذي يعمل في جامعة شيكاغو، والذي قابلني قبل بضع سنوات، ليُعلمني بوجود منصبٍ استُحدث أخيرًا.

كانت الجامعة تبحث عن عميد مساعدٍ يصبّ تركيزه على العلاقات مع المجتمع المحلّيّ، إذ التزمتْ أخيرًا بتعزيز اندماجها بالمدينة، خصوصًا في الجانب الجنوبيّ المحيط بها، من خلال وضع برنامج خدمة مجتمعيّة لحثّ الطلّاب على التطوّع في محيطهم. وعلى غرار منصبي في منظمة Public Allies، كان هذا العمل الجديد يلامس واقعًا عشته شخصيًّا. وكما قلت للمحامي آرت قبل سنوات، لطالما بدت جامعة شيكاغو لي صعبةَ المنال، وأقلّ اكتراثًا بي من جامعات الساحل الشرقيّ ذات التكاليف الباهظة التي درستُ فيها. كانت مكانًا يدير ظهره لمحيطه. كانت فرصة أن أحاول إزالة الحواجز، وأن أجعل عددًا أكبر من الطلّاب يندمج في المدينة، وعددًا أكبر من سكّان المدينة يندمج في الجامعة، ملهمة بالنسبة إليّ.

إذا تغاضينا عن الإلهام، كانت هناك أسباب أساسيّة أخرى تدفعني إلى هذا الانتقال. فقد كانت الجامعة تؤمّن لي الثبات المؤسّسي الذي لا يمكن منظّمة غير ربحيّة حديثة العهد تأمينه. كان الأجر أفضل، وساعات العمل معقولة أكثر. وكان هناك أشخاص مهمّتهم ملء الآلة الطابعة ورقًا، وإصلاحها عندما تتعطّل. كنت قد بلغت الثانية والثلاثين، وبدأت أفكّر مليًّا في نوع العبء الذي أودّ حمله. في مواعيدنا الليليّة في مطعم Zinfandel، كنّا نعاود الحديث في موضوع سبق أن تناولناه، بشكلٍ أو بآخر، سنوات؛ نقاش حول التأثير، حول الآليّة التي يمكن من خلالها، كلًّا منّا، إحداث فرق، وحول المكان المناسب لذلك، والأسلوب الأمثل لتوزيع وقتينا وطاقتينا.

بالنسبة إليّ، بدأت أسئلة قديمة حول شخصيّتي وما أرغب في القيام به في حياتي، تعاود الظهور وتشغل الحيّز الأكبر من

تفكيري. كنت قبلتُ العمل الجديد بهدف إيجاد فسحة أكبر في حياتنا، ولأنّ مزايا الرعاية الصحّيّة فيه كانت أفضل من أيّ مزية سبق أن حصلتُ عليها. واتّضح في النهاية، أنّ ذلك كان أمرًا مهِمًّا. كان هناك أمرٌ مهمّ يعكّر صفو سعادتنا فيما كنّا نجلس ممسكين بأيدي بعضنا بعضًا على الطاولة، في ضوء الشموع، في ليالي يوم الجمعة، في مطعم Zinfandel، بعد الانتهاء من تناول اللحم المحمّر وفي انتظار الحلوى، هو الإنجاب لكن لم يُكتب لمسعانا النجاح.

تبيّن أنّه من العبث أن يحاول شخصان، وإن كانا ملتزمَين وطموحين وغارقين في الحبّ، ويتمتّعان بأخلاقٍ مهنيّة راسخة، فرْض إرادتهما في ما يتعلّق بالحمل. فالخصوبة ليست شيئًا يمكن الحصول عليه عنوة. ولا يوجد خطّ مستقيم يربط الجهد بالمكافأة. كان الأمر مفاجِئًا لنا، بقدر ما كان مخيّبًا الآمال. وعلى رغم محاولاتنا كلّها، لم يحدث حمل. ظننت، فترة، أنّ للأمر علاقةً بعدم وجودنا معًا دائمًا نظرًا إلى ذهاب باراك إلى سبرينغفيلد. فلم تكن محاولاتنا للإنجاب تُجرى بحسب المؤشّرات الهرمونيّة الشهريّة المهمّة، بل كانت تتماشى مع جدول أعمال الهيئة التشريعيّة في إلينوي. تصوّرت أنّ في إمكاننا محاولة إصلاح هذا الوضع.

لكن محاولاتنا كلّها للتكيّف مع الوضع باءت بالفشل؛ حتّى عندما كان باراك ينهب الأرض بسيّارته ليعود بسرعة من أطراف المدينة، بعد جلسة اقتراع متأخّرة، كي نتمكّن من استغلال فترة الإباضة، أو عندما يكون مجلس الولاية في عطلته الصيفيّة، وباراك يمكث في المنزل طوال الوقت. بعد سنوات من اللجوء إلى أساليب مضمونة لمنع الحمل، ها أنا الآن أقوم بمسعًى معاكس. كنت أتعامل مع الموضوع كأنّه رسالةٌ مقدّسة أقوم بها. حصل ذات مرّة أن جاءت نتيجة أحد اختبارات الحمل إيجابيّة، وجعلَنا ذلك ننسى مشاعر القلق كلّها ونحلّق من شدّة الفرح، لكنّني أجهضتُ بعد أسبوعين، وكانت النتيجة تلاشي كلّ شعور بالتفاؤل، إضافة إلى ما سبّبه لي الإجهاض من إرهاق جسديّ. عندما كنت أرى نساء

تغمرهنّ السعادة، وهنّ يسرن في الطرقات برفقة أطفالهنّ، كنت أشعر بغصّة، وبرغبة عارمة، يعقبها شعور جارح بالنقص. مصدر راحتي الوحيد آنذاك كان أنّنا كنّا نعيش قرب كريغ وزوجته اللذين رُزقا طفلين جميلين، ليسلي وأفيري. وجدت العزاء في زيارتهما لألعب معهما وأقرأ لهما القصص.

لو خطر لي يومًا أن أُعِدَّ ملفًّا حول الأمور التي لا يخبرك أحد بها إلى أن تخوض التجربة بنفسك، لبدأتُ بالإجهاض. الإجهاض حدثٌ موحش ومؤلم، يضعف المعنويّات في الصميم. عندما تمرّ المرأة بتجربة الإجهاض، فالأرجح أن يتبادر إلى ذهنها أنّ الخطأ خطأها، وهو ليس كذلك، أو يدور في خلدها أنّ في الأمر مأساة، وهو ليس كذلك، على رغم كلّ الإحباط الذي تشعر به في تلك اللحظة. وما لن يخبرك أحد به هو أنّ الإجهاض تجربة عاديّة تتكرّر دائمًا، وتختبرها أعداد من النساء لا نتوقّعها، باعتبار الصمت النسبيّ الذي يلفّ تجربة كهذه. عرفتُ كلّ ذلك بعد أن أخبرتُ صديقاتٍ لي بأنّي أجهضت، وكان ردّ فعلهنّ إغداق الحبّ والدعم عليّ، وقصصهنّ حول حالات الإجهاض التي مررن بها. لم يخفّف كلّ ذلك ألمي. لكنّ كشف صديقاتي ما مررن به من معاناة، منحني الثبات في معاناتي، وساعدني في أن أرى ما مررتُ به لا يعدو كونه أشبه بعثرة بيولوجيّة عاديّة؛ بويضة ملقّحة طُرِحت لسبب ما لا بدّ أن يكون وجيهًا.

أرشدتني إحدى الصديقات إلى مختصّ عالجها هي وزوجها. زرته أنا وباراك لإجراء فحوصات. عندما جلسنا معه، أكّد لنا أنّ أيًّا منّا لا يعاني مشكلة محدّدة، وأنّ لغز عدم تمكّني من الحمل سيبقى من دون جواب. اقترح عليّ تجربة عقار الكلوميد، وهو عقار يحرّض على إنتاج البويضات، بضعة أشهر. عندما لم يؤدِّ ذلك إلى نتيجة، أوصانا باللجوء إلى التلقيح الاصطناعيّ. وقد حالفنا الحظّ، إذ كان الضمان الصحّيّ في جامعتي يغطّي الجزء الأكبر من التكاليف.

شعرتُ بأنّي أشتري بطاقة يانصيب قد تفضي بي إلى ربح الجائزة الكبرى، بفارق وحيد هو أنّ للعلم دورًا مهمًّا في ذلك.

ولسوء الحظّ، عندما انتهت التحضيرات الطبيّة الأولى، كانت الهيئة التشريعيّة بدأت دورتها الخريفيّة، فحرمتني من رعاية زوجي ومساندته وتركتني وحيدةً أعدّ جسدي ليكون في جاهزيّة تامّة. تضمّنت تلك العمليّة حقنَ نفسي يوميًّا بمجموعة من الإبر أسابيع عدّة. وكانت الخطّة تقضي بأن أستخدم، بدايةً، عقارًا يعرقل عمل المبيضين، ثمّ عقارًا جديدًا لتحفيزهما، بهدف أن ينتجا عددًا من البويضات القابلة للحياة.

كلّ ما في تلك العملية وما تنطوي عليه من مشاعر القلق سبّب لي الحزن، لكنّني كنتُ أريد طفلًا. كانت تلك رغبةً كامنة في أعماقي طوال حياتي. عندما كنت طفلة، وبعد أن سئمت تقبيلَ الدمى المصنوعة من الفينيل، صرت أتوسّل إلى والدتي كي تنجب طفلًا آخر، طفلًا حقيقيًّا لي أنا. وعدتُها بأنّني سوف أقوم بكلّ ما يلزم. وعندما لم توافق على الخطّة، بحثتُ في درج ملابسها الداخليّة عن حبوب منع الحمل، ظنًّا منّي أنّني إذا أخفيتُ الحبوب فسوف تتحقّق النتائج المرجوّة. لم يحدث ذلك بالطبع. ما أحاول قوله هو أنّني كنت أنتظر ذلك منذ زمن طويل. كنت أرغب في تأسيس أسرة، وكان باراك أيضًا يرغب في تأسيس أسرة. وهأنذا وحدي، في حمّام الشقّة أحاول، في سبيل كلّ ما يستوجبه تحقيقُ تلك الرغبة، أن أستجمع شجاعتي لأغرز إبرةً في فخذي.

ربّما كانت تلك هي اللحظات التي شعرتُ فيها أوّل مرّة باستياء من السياسة، ومن التزام باراك الصارم بعمله. أو ربّما كنت حينذاك أشعر بالعبء الذي يشكّله كوني أنثى. وفي الحالتين، كان باراك غائبًا، وكنتُ في المنزل أتحمّل المسؤوليّة. كنت بدأت أشعر بأنّ نصيبي من التضحيّات يفوق نصيبه؛ فخلال الأسابيع التي تلت، ظلّ باراك يزاول عمله كالمعتاد، بينما كنت أذهب يوميًّا إلى جلسات التشخيص بالموجات فوق الصوتيّة لمراقبة بويضاتي. لم يخضع هو لسحب الدم منه، ولم يضطر إلى إلغاء أيّ موعد لإجراء فحص عنق الرحم. زوجي كان محبًّا وشديد الاهتمام بالأمر، يقوم بكلّ ما يمكنه القيام به. قرأ جميع المقالات الخاصّة

بالتلقيح الاصطناعيّ، وحدّثني عنها طوال الليل. كلّ ما كان عليه أن يفعله هو الذهاب إلى عيادة الطبيب لتقديم النطف، وكان في وسعه بعد ذلك، إن رغب، الذهاب لتناول كأس من المارتيني. لم يكن الذنب ذنبه، لكنّ الأمر لم يكن عادلًا. وبالنسبة إلى امرأةٍ عاشت حياتها تحمل شعار المساواة كان ذلك مربكًا بعض الشيء. فقد كنت أنا من يُفترَض بي تغيير كلّ شيء، وتأجيل هواياتي وأحلامي المهنيّة كلّها، من أجل تحقيق هذا الحلم. أعدت حساباتي. هل كنت أرغب في ذلك؟ نعم، كنت أرغب فيه كثيرًا. هنا، رفعت الإبرةَ وغرزتها في لحمي.

بعد ثمانية أسابيع تقريبًا، سمعت صوتًا محا آثار الاستياء كلّها: ضربات قلبٍ واهنة ضعيفة التقطها جهاز التشخيص آتيةً من أحشائي. كنت حاملًا. كان الأمر حقيقيًّا. فجأةً، باتت المسؤوليّة والتضحية تعنيان شيئًا مختلفًا كلّيًّا... كأنّ مشهدًا طبيعيًّا اكتسب ألوانًا جديدة، أو أثاث منزلٍ أعيد ترتيبه بالكامل ليبدو كلّ شيء في مكانه المناسب. صرت أتجوّل وأنا أحمل سرًّا في داخلي. تلك هي الميزة التي أتمتّع بها، نعمةُ كوني أنثى. كنت أشعر بالبهجة بسبب الوعد الذي يحمله الكائن الموجود داخل جسدي.

لم يفارقني هذا الشعور، على رغم أنّ الإعياء الذي عانيته خلال الشهور الثلاثة الأولى استنزف قواي، وعلى رغم استمراري في العمل، واستمرار رحلات باراك الأسبوعيّة إلى عاصمة الولاية. كانت لدينا حياةٌ في الخارج، ولكن في تلك الفترة، كان هناك شيء يحدث داخل جسدي أيضًا؛ طفل ينمو، فتاة صغيرة (بما أنّ باراك كان رجلًا يبحث عن الحقائق، وكنت إنسانةً تحبّ التخطيط، كانت معرفة جنس المولود أمرًا إلزاميًّا). لم يكن في استطاعتنا رؤيتها، لكنّها كانت هناك؛ تزداد حجمًا وتنبض حياةً مع تحوُّل الخريف شتاءً، ومن ثمّ ربيعًا. تحوّل شعوري عندما حسدتُ باراك لانفصاله عن العمليّة إلى العكس تمامًا. كان هو خارج العمليّة، بينما كنت أعيشها. كنت أنا العمليّة. لم يكن في الإمكان فصلي عن هذه الحياة الصغيرة التي تتفتح كالبرعم، والتي صارت تلكمني بمرفقها وتنخس مثانتي بكعب رجلها. لم أعد وحدي، لم

أكن أشعر بالوحدة إطلاقًا. كانت هي هناك، دائمًا؛ عندما أقود سيّارتي في طريقي إلى العمل، أو أقطّع الخضار لصنع السلطة، أو أستلقي في سريري ليلًا لأقرأ بتأنٍّ الكتاب What to Expect When You're Expecting [ماذا يجب أن تتوقّعي عندما تكونين حاملًا] المرّة التسعمئة.

أحبّ فصل الصيف في شيكاغو، أحبّ ضياء السماء المستمرّ حتّى المساء، وازدحام بحيرة ميشيغان بالقوارب الشراعيّة، وارتفاع الحرارة إلى درجة يستحيل معها تذكُّرُ المعاناة في الشتاء. أحبّ تباطؤ حركة النشاط السياسيّ في الصيف، واصطباغ الحياة بالمرح.

وعلى رغم أنّنا لم نتمكّن فعليًا من التحكُّم في أيّ شيء، بدا، في النهاية، أنّنا اخترنا الوقت المناسب تمامًا. في الرابع من تموز/ يوليو، العام 1998، شعرتُ في الصباح الباكر بآلام المخاض. ذهبنا إلى مستشفى جامعة شيكاغو، ورافقتنا مايا – التي حضرت من هاواي بالطائرة لتكون معي خلال الأسبوع الأخير من الحمل – ووالدتي، كي تقدّما لي الدعم. كان الوقت مبكّرًا؛ أي أنّه سوف تمرّ ساعاتٌ قبل أن يبدأ فحم الشواء التوهّج في أنحاء المدينة كلّها، ويبدأ الناس نشر بطانيّاتهم فوق العشب على شاطئ البحيرة، والتلويح بالأعلام في انتظار مشهد الألعاب الناريّة في المدينة، وهي تسطع وتهدر فوق الماء. ولكن، لم يكن ستُتاح لنا رؤية كلّ ذلك تلك السنة، فقد كنّا مأخوذين بوهج ساطع جديدٍ تمامًا. لم نكن نفكر في البلد، بل في الأسرة، عندما جاءت إلى هذا العالم ماليا باراك أوباما، إحدى أجمل طفلتين خُلِقتا على وجه الأرض.

14

غدتِ الأمومةُ الدافع الذي يسيّر حياتي. صارت تُملي عليّ تحرّكاتي وقراراتي وإيقاع حياتي اليوميّة. وسرعان ما انغمست بشكلٍ كامل، ومن دون تردّد، في دوري الجديد كأمّ. أنا في طبيعتي إنسانةٌ تهتمّ بالتفاصيل، وليس الرضيع إلّا مخزنًا للتفاصيل. كنت وباراك نتأمّل ماليا الصغيرة محاولَين استيعاب سرّ شفتيها الشبيهتين ببرعم الورد، وشعرها الأجعد الداكن، ونظرتَها الزائغة، والحركات المتشنّجة لأطرافها الصغيرة. كنا نحمّمها ونلبسها الحفّاظ ونضمّها إلى صدرينا طوال الوقت. كنّا نراقب طعامها وساعات نومها، وكلّ قرقرة تصدر منها، ونحلّل محتويات حفّاظها المتّسخ لعلّه يكشف لنا أسرارها.

كانت إنسانًا دقيقَ الحجم عُهد به إلينا. أشعرتني تلك المسؤوليّةُ بنشوة واستعبدَتني. كان في إمكاني تمضية ساعة كاملة أتأمّلها وهي تتنفّس. عند وجود رضيع في المنزل، يختلف الإحساس بالوقت؛ فقد نشعر بأنّ يومًا ما يمتدّ إلى ما لا نهاية، وفجأةً نكتشف أنّ ستّة أشهرٍ انقضت من غير أن ندري. كنّا، نضحك عندما نلاحظُ ما فعلته بنا الأبوّة والأمومة. وفي حين كنّا أحيانًا نتناول العشاء، ونحن نناقش تعقيدات نظام العدالة الخاصّ بالأحداث، ونقارن ما تعلّمتُه خلال عملي مع منظّمة Public Allies، بأفكار كان باراك يحاول إضافتها إلى مسوّدة قانون ينوي تقديمها إلى الهيئة التشريعيّة؛ صرنا الآن نناقش، وبصورة لا تقلّ

جدّيّة، ما إذا كانت ماليا تعلّقت بالمصّاصة أكثر ممّا ينبغي، ونقارن أساليبنا المختلفة في دفعها إلى النوم. وعلى غرار معظم الآباء والأمّهات الحديثي العهد، تحوّلنا شخصَين مهووسين ومملّين، ولم يكن هناك ما يسعدنا أكثر. صرنا نصطحب ماليا الصغيرة في عربتها إلى مطعم Zinfandel، في موعدنا مساء يوم الجمعة، ونتدارس نوع الطعام الذي سنتناوله حتّى لا يتعارض مع عودتنا سريعًا قبل أن تبدأَ التململ داخل عربتها.

بعد مضيّ بضعة أشهر على مولد ماليا، عدت إلى عملي في جامعة شيكاغو. فاوضتُ المعنيّين لكي أعمل دوامًا جزئيًّا، ظنًّا منّي أنّ هذا الترتيب سيكون مرضيًا للأطراف كلّها، فأتمكّن من أن أكون امرأةً عاملة وأمًا مثاليّة. بذلك، أحقّق التوازن بين ماري تيلر مور وماريان روبنسون، وهو ما كنت أصبو إليه دومًا. عثرنا على جليسة للطفلةٍ، اسمها غلوريا كاسابيل، وهي امرأة حنونٌ مولودة في الفيليبّين، تكبرني بحوالى عشر سنوات، وتتمتّع بخبرة في مجال رعاية الأطفال، وسبق لها أن تلقّت تدريبًا في التمريض، وربّت طفلَيها. كانت غلوريا – أو غلو – امرأةً قصيرة القامة، نشيطة، ذات شعرٍ قصير وتسريحة عمليّة ونظارات بإطار ذهب. لا يستغرقُ تغيير الحفّاظ معها أكثر من اثنتي عشرة ثانيةً فقط. تميَّزت غلوريا بكفاءةٍ عالية كممرّضة، وبطاقةٍ تساعدها في القيام بكلّ شيء. وأصبحت عنصرًا مهمًّا ومحبوبًا في عائلتنا خلال السنوات القليلة التي تلت. كان حبّها الجارف لابنتي أهمَّ ميزة فيها بالنسبة إليّ.

لكن، ما كنت أجهله – وما سوف أضيفه إلى ملفّ الأمور التي نتعلّمها بعد فوات الأوان – هو أنّ العمل دوامًا جزئيًّا، لا سيّما عندما يُراد منه أن يكون نسخةً مختزلة عن العمل الأصليّ دوامًا كاملًا، يمكن أن يكون فخًّا، أو في الأقلّ هذا ما حصل معي. في مكان العمل، لم أمتنع عن حضور الاجتماعات كلّها التي أحضرها عادةً، وحاولتُ التوفيق بين مختلف المسؤوليّات. كان الفرق الحقيقيّ الوحيد هو أنّني صرت أحصل على نصف الأجر، وأحاول تنفيذ المهمّات خلال عشرين ساعةِ عملٍ في الأسبوع. وإذا تأخّر

اجتماع ما، كان ينتهي بي الأمر، أن أقود سيّارتي بسرعة جنونيّة في طريقي إلى المنزل، لإحضار ماليا كي نصل في الوقت المحدّد (ماليا متحمّسة وسعيدة، وأنا مقطوعة الأنفاس أتصبّب عرقًا) من بعد الظهر إلى صفّ موسيقي للأطفال في استوديو يقع في الجانب الجنوبيّ. كان ذلك، بالنسبة إليّ، بمثابة مأزق قد يدفعني إلى الجنون. كنت أعاني شعورًا بالذنب، حين أتلقّى مكالماتٍ هاتفيّة تتعلّق بالعمل وأنا في المنزل، وأكابد مختلف أنواع مشاعر الذنب عندما أجلس إلى مكتبي مشتّتة الذهن، بسبب قلقي من أنّ ماليا ربّما تعاني حساسيّة من الفستق السودانيّ. كان من المفترض بالدوام الجزئيّ أن يمنحني بعض الحرّيّة، لكنّه غالبًا ما أشعرني بأنّني كنت أنفِّذ النصف من كلّ عمل، وبأنّ خطوط حياتي تداخل بعضها ببعض.

خلال تلك الفترة بالكاد تأثّر مسار مهنة باراك؛ فبعد أشهر من مولد ماليا، أُعيد انتخابه مدّة أربع سنوات أخرى في مجلس شيوخ الولاية، وحصل على تسعة وثمانين في المئة من الأصوات. كان رجلًا محبوبًا وناجحًا. ونظرًا إلى ميله إلى مزاولة أعمال عدّة في وقتٍ واحد، بدأ يفكّر في أمورٍ أكثر أهمّيّة مثل الترشّح للكونغرس، آملًا بأن يحلّ محلّ بوبي روش من الحزب الديمقراطيّ الذي كان سينهي ولايته الرابعة. هل كنت أعتقد أن ترشّحه للكونغرس كان فكرة سديدة؟ لم أكن أعتقد ذلك. خطر لي أنّه لن ينجح على الأرجح، لأنّ روش رجل مشهور على عكس باراك. لكنّ باراك كان قد أصبح رجلًا سياسيًّا له حضوره داخل الحزب الديمقراطيّ. وكان محاطًا بمستشارين وبأشخاص يدعمونه، وبعضهم يشجّعه على المحاولة. أجرى أحد هؤلاء استطلاعًا أوليًّا للآراء، وأظهرت النتائج احتمال فوز باراك بالمنصب. وأنا أعرف باراك جيّدًا: لا يمكنك أن تلوّح أمامه بفرصة، بشيءٍ يمكن أن يوفّر له مجالًا أوسع للتأثير، وتتوقّع الابتعاد منه. هذا ليس من طبيعته. هو لا يفعل ذلك.

في نهاية العام 1999، عندما بلغت ماليا السنة والنصف من عمرها، اصطحبناها خلال فترة عيد الميلاد إلى هاواي لزيارة جدّة

والدها، توت التي كانت في السبعين آنذاك، وتعيش في الشقّة العالية التي سكنتها عقودًا. كان من المقرّر أن تكون زيارة عائليّة؛ الزيارة السنويّة الوحيدة التي يمكن فيها لتوت رؤية حفيدها وابنته. كان الشتاء قد أطبق ثانيةً على شيكاغو، فجرّد الهواء من دفئه، والسماء من زرقتها. كنّا منهكَين في المنزل وفي العمل. لذلك، حجزنا غرفةً متواضعة في فندق قرب شاطئ وايكيكي، وبدأنا نعدّ الأيّام. كان باراك قد أنهى واجباته التدريسيّة في كلّيّة الحقوق لذلك الفصل، وأنا عملتُ ساعاتٍ تعوّض غيابي من العمل. لكنّ السياسة تدخلت لتعيق مسار الأمور.

كان مجلس شيوخ إلينوي مشغولًا بسجال لا ينتهي، حول بنود مشروعِ قانون جنائيّ أساسيّ. وبدل إيقاف الجلسات لمناسبة الأعياد، عُقدت جلسةٌ خاصّة بهدف التوصّل إلى إجراء اقتراع قبل حلول عيد الميلاد. اتّصل بي باراك من سبرينغفيلد، وقال أنّه مضطرّ إلى تأجيل رحلتنا بضعة أيّام. لم يكن ذلك بالخبر المفرح، لكنّي أدركت أنّ الأمر خارجٌ عن إرادته. وكلّ ما كان يعنيني آنذاك، هو أن نصل إلى هاواي في نهاية المطاف. لم أكن أرغب في أن تمضي توت عيد الميلاد وحيدةً، إضافة إلى أنّني وباراك كنّا بحاجة إلى فترة استراحة من العمل. تصوّرت أنّ الرحلة إلى هاواي سوف تبعدنا من العمل، وتمنحنا فرصةً لالتقاط أنفاسنا لا أكثر.

كان باراك قد أصبح يومذاك، مرشحًا رسميًّا للكونغرس، ما يعني أنّه لا يستطيع التوقّف عن العمل إلّا نادرًا. وفي مقابلة أجراها لاحقًا مع صحيفة محلّيّة، تبيّن أنّه، خلال الشهور الستّة التي قام فيها بحملته للوصول إلى الكونغرس، كان يمضي أقلّ من أربعة أيّام في الأسبوع في المنزل، برفقتنا أنا وماليا. تلك كانت الحقيقة المرّة. فإضافة إلى مسؤوليّاته كلّها، عاش باراك خلال تلك الفترة، يترقّب دقّات الساعة التي تذكّره، من دون توقّف، بما تبقّى على موعد الانتخابات التمهيديّة في شهر آذار/مارس. وكان الأسلوب الذي سيمضي فيه ذلك الوقت المتبقيّ سيؤثر، نظريًّا في الأقلّ، في النتيجة النهائيّة. بدأتُ أدرك أيضًا أنّ أيّ دقيقة أو ساعة يمضيها المرشّح مع أسرته، بصورة شخصيّة، كانت تُعتبر من

وجهة نظر القائمين على سير الحملة، وقتًا ضائعًا من تلك الأوقات الثمينة.

كنت اكتسبتُ من الحنكة ما جعلني أُبعِد نفسي من التقلّبات اليوميّة لهذا السباق. عبّرت عن موافقةٍ باهتة على قرار باراك الترشُّح، وتبنّيت من الموضوع برمّته موقفًا يعني ضمنيًّا «فلننتهِ من هذا الأمر». قدّرت أنّه قد يحاول الوصول إلى المجال السياسيّ الوطنيّ، ويفشل، وأنّ ذلك سوف يحفّز لديه الرغبة في تجربة شيء مختلف تمامًا. في عالم مثاليّ (عالمي المثاليّ، في أيّ حال)، كان باراك سيصبح رئيس مؤسّسة يمكنه التأثير فيها في مسائل مهمّة، ويستطيع في الوقت نفسه أن يعود إلى المنزل مساءً لتناول العشاء.

سافرنا بالطائرة إلى هاواي، في الثالث والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، بعد أن قرّرَت الهيئة التشريعيّة أخيرًا التوقّف عن العمل لمناسبة الأعياد، على الرغم من أنّها لم تكن قد تمكّنت بعد من التوصّل إلى حلّ. المهم أنّنا سافرنا، وأشعرني ذلك بالارتياح. شكّل شاطئ وايكيكي مشهديّة جديدة ومفاجئة بالنسبة إلى ماليا الصغيرة. أمضت الوقت وهي تتبختر على الشاطئ ذهابًا وإيابًا، تضرب الأمواج قدمَيها، وتلعب إلى أن يستنزَفها الفرح. أمضينا عطلةَ عيد ميلاد هادئةً بهيجة في شقّة توت فتحنا فيها الهدايا، وعبَّرنا عن إعجابنا بمدى تفاني الجدّة في تجميع قطع الـ Puzzle البالغة خمسة آلاف قطعة، والموضوعة على طاولة لعب الورق. وكما هي الحال دائمًا في أواهو، أثارت فينا مياهُها الخضراء المنسابة ببطء، وسكّانها المرحون، إحساسًا بالتحرّر من همومنا، وبالسعادة. كنّا لا نشعر سوى بالهواء الدافئ يداعب بشراتنا، وبسعادة ابنتنا بما رأته كلّه. كانت عناوين الصحف لا تفتأ تذكّرنا بأنّنا نقترب بسرعة من بداية ألفيّةٍ جديدة. وكنّا آنذاك، في مكان جميل نمضي الأيّام الأخيرة من العام 1999.

سار كلّ شيء على ما يرام إلى أن تلقّى باراك مكالمةً هاتفيّة من شخص في إلينوي، يعلمه فيها بأنّ مجلس الولاية عاد للانعقاد بصورة مفاجئةٍ، لإنهاء مسألة القانون الجنائيّ. وقال له

أنّه إذا كان ينوي التصويت، فإنّ أمامه ثمانٍ وأربعين ساعةً تقريبًا للعودة إلى سبرينغفيلد. كانت هناك ساعةٌ حاسمة أخرى تدقّ. راقبتُ باراك، وقد تملّكني شعور بالإحباط، وهو يعود بنشاط إلى عمله، ويعدّل حجوزاتِ بطاقات الطائرة كي نغادر في اليوم التالي، مُنهيًا إجازتنا. كنّا مضطرّين إلى العودة. لم يكن أمامنا خيار آخر. أعتقد أنّه كان في إمكاني البقاء هناك وحدي مع ماليا، ولكن، هل كنت سأمضي وقتًا ممتعًا؟ لم أحبّذ فكرة المغادرة، لكنّني أدركتُ ثانية أنّ تلك هي طبيعة السياسة. الاقتراع كان مهمًّا – فقد تضمّن مشروع القانون إجراءاتٍ جديدة تحدّ من انتشار السلاح، وكان باراك يدعمه بحماسة – إضافة إلى أنّه ثبتَ سابقًا أنّ غياب عضوٍ واحد فقط يُعتبر حاسمًا؛ فهو قد يعيق التصديق على مشروع القانون. كان لا بدّ من العودة إلى المنزل.

فجأةً، طرأ أمر لم يكن متوقّعًا. ارتفعت حرارة ماليا خلال الليل. فقد ظلّت حتّى المساء تعبث بمرح في مياه الأمواج المتكسّرة على الشاطئ، لكنّها، في تلك اللحظة، وبعد أقلّ من اثنتي عشرة ساعة، تكوّمت على نفسها مرهقةً ترتعش من الحمّى، في مشهد يجسّد التعاسة. كانت جامدةَ العينين، تنتحب بألم، إلّا أنّها كانت أصغر من أن تعبّر عمّا تعانيه. أعطيناها تيلينول، لكنّها لم تتحسن كثيرًا. كانت تشدّ بقوّة إحدى أذنيها، ما جعلني أشكّ في وجود عدوى جرثوميّة. بدأت تتكشّف أمامنا حقيقة ما يعني ذلك. جلسنا على السرير نراقب ماليا وهي تغطّ في نوم قلق مضطرب. بقيَت ساعاتٍ على موعد طائرتنا. لاحظتُ علامات القلق تعلو وجه باراك، فقد كان عالقًا وسط التوجُّهَيْن المتقاطعين لالتزاماته المتعارضة. كان القرار الذي سنتّخذه آنذاك يتجاوز آنيّة اللحظة.

قلت له: «من الواضح أنّها لن تستطيع السفر جوًّا».

– أعلم ذلك.

– علينا تغيير موعد الرحلة ثانيةً.

– أعلم ذلك.

ما لم نقله هو أنّ في إمكانه الذهاب بمفرده. كان يستطيع الخروج من الباب وركوب سيّارة أجرة إلى المطار، فيصل إلى

سبرينغفيلد في الوقت المحدّد للاقتراع. كان في إمكانه ترك ابنته المريضة، وزوجته التي يتأكّلها القلق وسط المحيط الهادئ ليلتحق بزملائه. كان لديه الخيار، لكنّني لم أكن أنوي لعب دور الضحيّة واقتراح هذا الخيار عليه. أعترف بأنّني شعرت بالضعف. غمرتني مشاعر القلق ممّا تعانيه ماليا. ماذا لو اشتدّت الحمّى؟ ماذا لو تطلّب الأمر نقلها إلى المستشفى؟ في تلك الأثناء، كان في العالم أشخاصٌ أكثر خوفًا وارتيابًا منّا، يهيّئون الملاجئ، ويخزّنون المال والماء، خشيةَ تحقُّق مشكلة «آفة الألفيّة» مع بداية العام 2000، وتعطُّل شبكات الاتّصالات والطاقة الكهربائيّة فتعجز الحواسيب عن تسجيل الألفيّة الجديدة. لم يكن هذا سيحدث. ولكن، هل كان فعلًا ينوي الذهاب؟

تبيّن في النهاية أنّه لن يذهب، ولم يذهب، ولم يكن ليذهب على الإطلاق.

لم أسمع ما قاله في المكالمة الهاتفيّة مع مساعده لشؤون التشريع في ذلك اليوم، حين أبلغه بأنّه لن يحضر الاقتراع على مشروع القانون الجنائيّ. لم أكن سأكترث. كان تركيزي منصبًّا على ابنتنا. وما إن أنهى المكالمة، حتّى بدأ تركيزه ينصبّ أيضًا عليها. كانت طفلتنا الصغيرة. وكنّا مدينَين لها بكلّ شيء في المقام الأوّل.

في نهاية المطاف، حلّ العام 2000 من دون أن يحدث شيء. بعد بضعة أيّام من الراحة، وبعض المضادات الحيويّة، شُفيت ماليا ممّا تبيَّن أنّه إصابة خطيرة في أذنها، وعادت طفلتنا إلى طبيعتها المرحة. استمرّت الحياة، وهذا ما يحصل دائمًا. وفي يوم صافٍ من أيّام هونولولو، ركبنا الطائرة وعدنا إلى شيكاغو، إلى صقيع الشتاء، وإلى الكارثة السياسيّة التي كانت تتشكّل في انتظار باراك.

فشل مشروع القانون الجنائيّ في الحصول على موافقة الهيئة التشريعيّة بفارق خمسة أصوات. بالنسبة إليّ، لم تكن حسبةً معقّدة: فحتّى لو عاد باراك من هاواي في ذلك اليوم، لم يكن صوته ليغيّر في النتيجة. مع ذلك، تسبّب له غيابه بالأذى؛ فقد

انتهز مناوئوه الفرصةَ ليصوّروا باراك بأنّه مشرّع يحبّ الحياةَ المرفّهة: كان في إجازة – وفي هاواي بالذات – ولم يتكرّم بالعودة إلى الاقتراع على موضوع مهمّ، مثل الحدّ من انتشار السلاح.

كان عضو الكونغرس بوبي روش فقد أحدَ أفراد عائلته في حادثة إطلاق نار في شيكاغو، قبل بضعة أشهر، ما أساء أكثر إلى صورة باراك. لم يتذكّر أحد أنّه أصلًا من هاواي، أو أنّه كان يزور جدّته الأرملة، أو أنّ ابنته مرضت. كلّ ما كان يهمّ هو الاقتراع. ظلّت الصحافة، أسابيع، لا همّ لها سوى الحديث عن هذا الموضوع. نُشِر في الافتتاحية في صحيفة شيكاغو تريبيون، انتقاد للأعضاء الذين لم يقترعوا في ذلك اليوم، ووصفتهم الصحيفة بأنّهم «مجموعة من الخراف الجبانة». لم يقصِّر خصمُ باراك الآخر، وهو عضو في مجلس شيوخ الولاية اسمه دون تروتر، في توجيه اتّهاماته؛ فصرّح أمام أحد الصحافيّين، قائلًا: «استغلال طفلة كعذرٍ لعدم الذهاب إلى العمل، من شأنه أن يعطي انطباعًا سلبيًّا عن شخصيّة الفرد».

لم أكن معتادة أمورًا من هذا النوع. لم أكن معتادة أن يكون لي خصومٌ، أو رؤيةَ شؤون أسرتي الخاصّة تتصدّر الأخبار. لم يسبق أن سمعت تشكيكًا في شخصيّة زوجي على هذا النحو. من المؤلم أن تشعر بأنّ قرارًا سليمًا وصائبًا – في رأيي – كلّفه غاليًا. دافع باراك بهدوء، في عمود كتبه في صحيفة أسبوعيّة محلّيّة عنِ قراره بالبقاء إلى جانبي وماليا في هاواي، فقال: «نسمع أحاديث كثيرة صادرة من السياسيّين حول أهمّيّة القيم العائليّة. أتوقّع منكم أن تظهروا التفهّم عندما يحاول سناتور ولايتكم تطبيق تلك القيم بأفضل الطرائق المتاحة».

كاد ألم الأذن الذي أصاب طفلتنا يمحو ثلاث سنواتٍ أمضاها باراك في العمل في مجلس شيوخ الولاية. كان ترأّس حملةً على نطاق الولاية من أجل قوانين تمويل الحملات الانتخابية أدّت إلى فرض قوانين أخلاقيّة أكثر صرامة تخصّ المسؤولين المنتخبين. ودافع عن تخفيض الضرائب، وعن تقديم الإعفاءات الضريبيّة للعمّال الفقراء. كما ركّز على مسألة تخفيض كلفة الأدوية التي

توصف للمسنّين. اكتسب باراك ثقة المشرّعين من أنحاء الولاية كلّها، الجمهوريّين والديمقراطيّين على حدٍّ سواء. لكنّ تلك الحقائق كلّها بدت لا قيمة لها في تلك الفترة. فقد تحوّل السباق سلسلةً من الضربات الخبيثة.

كان خصوم باراك وداعموهم، منذ بدء الحملة، ينشرون أفكارًا غير لائقة لبثّ الذعر وزعزعة الثقة في نفوس المقترعين الأفريقيّين الأميركيّين، ويشيعون أنّ باراك كان جزءًا من أجندة مُعَدّة سرًّا من البيض في Hyde Park – والمقصود، اليهود البيض – لفرض مرشّحهم المفضّل عن الجانب الجنوبيّ بأسلوب مخادع. قال دون تروتر لصحيفة شيكاغو ريدر: «يُعتَبر باراك، إلى حدّ ما، رجلًا أبيض بوجه أسود من مجتمعنا». وقال بوبي روش للصحيفة ذاتها: «ذهب إلى هارفارد وأصبح أحمقَ متعلّمًا. نحن لا نكنُّ الإعجاب الكبير بالأشخاص الحاصلين على شهاداتهم من جامعات النخبة شرق البلاد». في عبارة أخرى، هو ليس واحدًا منّا. لم يكن باراك رجلًا أسودَ حقيقيًّا مثلهم؛ فرجلٌ يتحدّث بهذا الشكل، ويبدو بهذا الشكل، ويقرأ هذا العدد من الكتب، لا يمكنه أبدًا أن يكون مثلهم.

لكنّ أكثر ما أزعجني هو أنّ باراك كان يمثّل كلَّ ما يقول الأهلُ أنّهم يتمنّونه لأولادهم. يمثّل كلّ ما سبق وتحدّث عنه، سنواتٍ، أشخاصٌ من أمثال بوبي روش وجيسي جاكسون، وآخرون كثر من الزعماء السود: كان رجلًا متعلّمًا، يحاول أن يخدم مجتمع الأفريقيّين الأميركيّين، بدل أن يتخلّى عنه. ما من شكّ في أنّها كانت انتخاباتٍ محتدمة، لكنّ باراك كان يتعرّض للهجوم للأسباب الخطإ. صُعِقت عندما أدركت أنّ زعماءنا كانوا يعاملونه على أنّه تهديد لنفوذهم، ويحرّضون على عدم منحه الثقة باللجوء إلى أفكارٍ متخلّفة جاهلة حول العرق والطبقة.

أشعرني ذلك بالاشمئزاز.

لم يكن للأمر على باراك وقع الصاعقة كما حصل معي؛ فقد سبق له في سبرينغفيلد أن تنبّه إلى مستوى القذارة التي يمكن السياسة أن تنحدر إليه، ولاحظ كيف كانت الحقيقة غالبًا

تُشَوَّه لخدمة الأهداف السياسيّة الشخصيّة المغرضة. وعلى رغم الأذى النفسيّ كلّه الذي تعرّض له، رفض الاستسلام، فتابع حملتَه خلال فصل الشتاء، وقام برحلاته الأسبوعيّة من سبرينغفيلد وإليها، وهو يحاول بكلّ حزم صدَّ العاصفة، على رغم تضاؤل الهِبات، وتحوُّل عدد متزايد من الأصوات المؤيّدة إلى بوبي روش. مع اقتراب موعد الانتخابات الأوّليّة، لم نعد أنا وماليا نراه إلّا نادرًا؛ كان يتّصل بنا كلّ مساء ليتمنّى لنا ليلةً سعيدة.

افتقدت تلك الأيّام القليلة المختلَسة التي أمضيناها على الشاطئ. كنت أدرك أنّ باراك، في قرارة نفسه، ينتابه الشعور ذاته؛ فهناك أمرٌ واحد لم نخسره وسط ذلك الصخب كلّه، وتلك الليالي كلّها التي أمضاها بعيدًا عنّا، وهو اهتمامه بنا. لم يكن ليستهين بذلك. وفي كلّ مرّة كان يُنهي مكالمته، كان صوته يَشي بوجودِ صراع عنيف. وبدا أنّه يضطرّ كلّ يوم إلى الإدلاء بصوته لمصلحة العائلة أو السياسة، السياسة أو العائلة.

في شهر آذار/مارس، خسر باراك الانتخابات التمهيديّة. وكان فوز بوبي روش ساحقًا.

خلال تلك الفترة، كنتُ أعانق ابنتنا طوال الوقت.

بعد ذلك، رُزقنا ابنتنا الثانية. وُلدت ناتاشا ماريان أوباما في العاشر من حزيران/يونيو العام 2001، في المركز الطبّيّ التابع لجامعة شيكاغو، بعد دورةٍ واحدة من التلقيح الاصطناعيّ. كان الحمل سهلًا وكانت الولادة من دون تعقيدات، بينما انتظرَت ماليا التي كانت قد بلغت الثالثة، في المنزل مع والدتي. كانت طفلتُنا الجديدة جميلةً ووديعة كالحمل، شعرها أسود كثيفًا، وعيناها بنيّتين لامعتين، وشكّلت الزاوية الرابعة في مربّعنا. شعرت وباراك بأنّنا بلغنا قمّة السعادة.

قرّرنا أن نناديها ساشا. وقد اخترت الاسم لوقعه الجريء؛ فلا يمكن فتاةً تُدعى ساشا إلّا أن تتحمّل مسؤوليّاتها. وعلى غرار الأهل كافّة، وجدت نفسي أسعى إلى تأمين كلّ شيء لطفلتَيّ، وأدعو الله ألّا يلحق بهما أيّ مكروه. كنت آمل بأن تتّصف الفتاتان بذكاء والدهما وحيويّته وتفاؤله، وبطموح والدتهما وقوّة عزيمتها.

والأهمّ من ذلك، أنّني أردتُ لهما أن تكونا قويّتين، تتمتّعان بالصلابة والشجاعة، ولا تكفّان عن المضيّ قُدُمًا، أيًّا كانت الظروف. لم أكن أدري ما ينتظرنا، ما سيحدث لأسرتنا: هل سيسير كلّ شيء على ما يرام، أم إنّ الأمور ستؤول إلى الأسوإ؟ أو إنّ حياتنا، شأن حياة معظم الناس، ستكون مزيجًا من الاثنين؟ تمثّلَت مهمّتي في إعدادهما جيّدًا لتكونا جاهزتَين لخوض غمار هذه الحياة.

كان عملي في الجامعة ينهكُ قواي، ولا يسمح لي بالتوفيق بين مهمّات عدّة بصورة مُرْضية، في الوقت الذي كانت تكاليف تأمين رعاية الطفلتين، خلال ساعات عملي، تستنزفنا ماديًّا. بعد مولد ساشا، بدأت تراودني فكرة عدم العودة إلى العمل نهائيًّا، وأنّ وضع عائلتي قد يكون أفضل إذا التزمت المنزل طوال الوقت. فقد عُرِض على غلو، المربيّة التي كنّا نحبّها، أن تعمل ممرّضة وبأجر أعلى، وقرّرَت مرغمةً تركَ العمل معنا. لم ألمها طبعًا، لكنّ خسارة غلو بدّلت كلّ شيء في تركيبتي كأمٍّ عاملة. فقد سمح لي عملُها لدينا بالاحتفاظ بعملي. كانت تحبّ الفتاتين كما لو كانتا ابنتَيها. بكيتُ كثيرًا ليلةَ أعلمتني بقرارها ترك العمل، فقد كنتُ أدرك مدى الصعوبة التي سنواجهها في الحفاظ على التوازن في حياتنا من دونها. وكنتُ أدرك أيضًا، كم كنّا محظوظين لأنّنا تمكنّا من توظيفها في المقام الأوّل. بعد أن ذهبَت، شعرتُ بأنّني فقدت ذراعًا.

كنت أحبّ البقاء مع ابنتَيّ، وأقدّر قيمة كلّ دقيقةٍ، وكلّ ساعة أمضيها في المنزل، خصوصًا في ظلّ عدم انتظام أوقات عمل باراك. تذكّرتُ قرار والدتي البقاء في المنزل معي ومع كريغ. ما من شكّ في أنّي لم أكن محقّة عندما أضفيتُ مسحة رومانسيّة على حياتها – كنتُ أظنّ أنّها تستمتع فعلًا بتنظيف عتبات النوافذ بالمعقّمات، وبخياطة ملابسنا – لكنّ حياتها، مقارنةً بالطريقة التي كنت أعيشها، بدَت غريبة ويمكن التحكّم فيها، وجديرةً بالمحاولة. أحببت فكرة الاضطلاع بالمسؤوليّة عن شيء واحد، لا عن شيئين معًا؛ فكرة ألّا تختلط الأمور في ذهني: المنزل والعمل.

كما أنّ وضعنا الماليّ ساعدنا في ذلك، فقد رُقّيَ باراك في عمله في كلّيّة الحقوق من منصب مساعد إلى محاضر رئيسيّ، ما أتاح لنا الاستفادة من الحسومات على رسوم المدرسة من الفئة Lab School المرتبطة بالجامعة، حيث كانت ماليا ستدخل روضة الأطفال.

في تلك المرحلة، تلقّيت اتصالًا من سوزان شير، مرشدتي السابقة وزميلتي في دار البلديّة، وقد أصبحت المستشارة القانونيّة ونائب رئيس المركز الطبّيّ التابع لجامعة شيكاغو، حيث أبصرت ساشا النور منذ فترة وجيزة. عرفتُ أنّ رئيسًا جديدًا للمركز عُيّنَ، ولقي استحسان الجميع. كانت إحدى أولويّاته الارتقاء في مجال الخدمة المجتمعيّة، وكان يسعى إلى توظيف مدير تنفيذيّ لشؤون المجتمع المحلّيّ، وهو عمل بدا أنّه أُعِدَّ خصّيصًا لي. ولكن، هل كنتُ مهتمّةً بإجراء المقابلة؟

تساءلت عن مدى استعدادي لإرسال سيرتي الذاتيّة حتّى. بدت الوظيفة فرصةً عظيمة، لكن، كنتُ أقنعتُ نفسي بأنّ وضعي – بل وضعنا جميعًا – سيكون أفضل إن التزمت المنزل. في أيّ حال، لم تكن تلك الفترة رائعة في حياتي؛ ليست الفترة التي أستطيع فيها أن أتخيّل نفسي وأنا أجفّف شعري بسرعة وأرتدي بذلة العمل. فقد كنت أستيقظ مرّات عدّة في الليل لإرضاع ساشا، وحرمني ذلك النوم مدّة كافية، بالتالي حرمني توازني. وعلى رغم هوسي بالنظافة والترتيب، شعرتُ بأنّني أخسر المعركة. فقد تبعثرت في أنحاء الشقّة كلّها، ألعابُ الطفلتَين وكتبهما ورزم المناديل المعطّرة. في كلّ مرّة كنّا نخرج من المنزل، كنّا نأخذ معنا عربة أطفال ضخمة، وحقيبة لا تمتّ إلى الأناقة بصلة مليئة بالأساسيّات: كيس صغير من الـ Cheerios، والدمى التي تلعب بها الفتاتان، وطقم إضافيّ من الثياب للجميع.

بعد أن أصبحت أمًّا حظيت بصداقات جديدة كثيرة ورائعة. فقد تعرّفتُ إلى سيّدات يعملن في مجالات مختلفة، وشكّلنا مجموعة تتبادل الأحاديث والنصائح في ما بينها. كنّ في معظمهنّ في أواخر الثلاثينيّات، ويعمَلن في مجالات شتّى: من العمل

المصرفيّ والوظائف الحكوميّة إلى العمل غير الربحيّ، وكنّا في معظمنا رُزقنا أطفالًا خلال الفترة نفسها، وكان كلّما ازداد عدد الأطفال اشتدّ قيدُنا. كنّا نجتمع في عطلةِ نهاية كلّ أسبوع تقريبًا. كما كنّا نعتني بأطفال بعضنا بعضًا، ونذهب معًا إلى حديقة الحيوانات، أو إلى العرض Disney on Ice. أحيانًا، خلال فترة بعد ظهر أيّام السبت، كنّا نترك الأطفال في غرفة اللعب في منزل إحدانا، ونعاقر الخمر.

كانت أولئك السيّدات مثقّفات، طموحات، ومتفانيات في رعاية أطفالهنّ، ويحاولن، مثلي، التوفيق بين الأمور. وفي ما يتعلّق بالعمل والأمومة فقد كانت كلّ منّا تدير شؤونها بطريقتها الخاصّة. فمنّا من كانت تعمل دوامًا كاملًا، وبعضنا دوامًا جزئيًّا، وأخريات التزمنَ منازلهنّ مع أطفالهنّ بلا عمل. منهنّ من كنّ يسمحن لأطفالهنّ بتناول النقانق ورقائق الذرة، وأخريات لا يقدّمن لهم سوى أنواع الحبوب الكاملة. كان هناك أزواج معنيّين بشكل كبير بشؤون أولادهم، وآخرون، مثل زوجي، منهمكين بعملهم، وغالبًا ما يغيبون عن المنزل. كانت صديقات لي يعشن سعيدات، وأخريات يحاولن إجراء تغييرات لتحقيق توازن ما. كانت نساء المجموعة في معظمهنّ يخضعن أنفسهنّ للتقييم المستمر لتحسين بعض جوانب حيواتهنّ على أملِ التوصّل إلى مزيد من الاستقرار.

تعلّمتُ من اجتماعاتنا أنّه لا توجد وصفة محدّدة للأمومة، ولا يمكن الحكم على نهج بعينه بأنّه صحيح أو خاطئ. فبغضّ النظر عن الطريقة التي عاشت فيها كلّ منّا وظروفها، حظي الأطفال جميعهم بالرعاية والحنان، ونمَوْا في بيئات سليمة. وفي كلّ مرّة كنّا نجتمع، كنت أشعر بالرابط الوثيق الذي كان يجمعنا وبجهودنا الحثيثة لتربية أطفالنا بالطريقة المناسبة. في نهاية الأمر، وأيًّا كانت الظروف، وقفنا معًا جنبًا إلى جنب، لكي نكون جميعًا في أحسن حال.

بعد مناقشة الموضوع بالتفصيل مع باراك وأصدقائي، قرّرتُ إجراء مقابلةِ العمل في مستشفى الجامعة، لكي أعرف، في الأقلّ،

نوع العمل. شعرت بأنّه مناسب جدًّا لي؛ فقد كنت أتمتّع بالمهارات اللازمة، وبحماسةٍ كبيرة. ولكن، إن كنت سأوافق على العمل، فيجب عليّ أن أتصرّف من مركز قوّة، وأفرض شروطًا تناسب أسرتي. كنتُ واثقة في أنّ في إمكاني النجاح إذا لم أُكَلَّف حضورَ اجتماعاتٍ لا ضرورة لها، وإذا كانت أوقات عملي مرنة، أي أن أتمكّن من العمل في المنزل عندما يتطلّب الأمر، وأن أخرج من المكتب عندما أضطرّ إلى إحضار ابنتي من دار الحضانة، أو لزيارة طبيب الأطفال.

فضلًا عن ذلك، لم أعد أرغب في العمل دوامًا جزئيًّا. فقد اكتفيت من هذا النوع من العمل. كنت أريد عملًا دوامًا كاملًا، وبراتب مجزٍ بحيث نتمكّن من توفير رعاية أفضل للفتاتين، ومن إيجاد من يساعدنا في الأعمال المنزليّة فأترك منظّفات الـ Pine-Sol، وأمضي أوقات فراغي في اللعب مع ابنتَيّ. وفي الوقت نفسه، لم أكن أرغب في محاولة إخفاء الفوضى التي تعمّ حياتي – طفلة تحتاج إلى الإرضاع، وشقيقة لها لا تتجاوز الثالثة في روضة الأطفال، وزوج له برنامجه السياسيّ المتقلّب. كنتُ فعليًّا مسؤولة عن كلّ جانب من جوانب حياتنا المنزليّة.

أوضحتُ كلّ ذلك من دون خجل، كما أعتقد، في مقابلتي مع مايكل ريوردان، الرئيس الجديد للمستشفى، بل إنّني اصطحبت معي ساشا التي لم تكن تجاوزت الثلاثة أشهر. لم أعد أذكر بالتحديد ظروف ذلك اليوم، هل عجزت عن العثور على جليسة للطفلة، أم إنّني لم أكترث للأمر، بالتالي لم أحاول؟ كانت ساشا صغيرةً ولا تزال بحاجة إلى الكثير. وكانت حقيقةً واقعة في حياتي – حقيقة جميلة لا تكفّ عن الهمهمة، ولا يمكن تجاهلها. شعرتُ بدافعٍ جعلني أضعها على الطاولة، أثناء النقاش، بالمعنى الحرفيّ للكلمة. كنت كمن يقول له، ها أنا، وها هي طفلتي أيضًا.

كان الأمر أشبه بالمعجزة أن يتفهّم رئيسي المستقبليّ ذلك. وإن كان لديه أيّ تحفّظ – فيما يسمعني أشرح ضرورةَ حصولي على دوامٍ مرِن وأنا أقوم بأرجحة ساشا في حضني، آملةً بألّا يتسرّب شيء من حفّاظها – فهو لم يعبّر عنه آنذاك. خرجتُ من

المقابلة وأنا أشعر بالرضا، وبشيء من الثقة في أنّني سأفوز بالعمل. ولكن، بغضّ النظر عمّا كانت ستؤول إليه الأمور، كنتُ أدرك أنّني، في الأقلّ، تصرّفت بشكلٍ مرضٍ عندما تحدّثتُ بوضوح عن حاجاتي. شعرتُ بأنّ مجرّد التعبير عن ذلك بصوتٍ مسموع، كان يعكس صلابتي. عدتُ مسرعة إلى المنزل، وبذهن صافٍ، ومعي طفلةٌ بدأت تتململ.

أصبحتِ الحسبة الجديدة في عائلتنا على الشكل الآتي: لدينا طفلتان، وثلاث وظائف، وسيارتان، وشقّة واحدة، ولا نملك أيّ وقت فراغ. قبلتُ المنصب الجديد في المستشفى وتابع باراك عمله في التدريس وفي التشريع. كنّا، نحن الاثنين، عضوين في مجالس إدارات منظّمات عدّة غير ربحيّة، وعلى رغم الألم الذي شعر به باراك إثر هزيمته في الانتخابات التمهيديّة لعضوية الكونغرس، فإنّه لم يتخلَّ عن فكرة الترشّح لمنصب أعلى. كان جورج دبليو بوش، آنذاك، رئيسًا للجمهورية. تكبّدنا، كدولةٍ فداحةَ الصدمة والمأساة الناتجة من الهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كانت هناك حرب مشتعلة في أفغانستان، وكانت الولايات المتّحدة وضعت نظامًا جديدًا في ما يتعلّق بالتهديدات الإرهابيّة يعتمد ألوانًا مرمَّزة، وكان أسامة بن لادن، في ما يبدو، يختبئ داخل كهف في مكان ما. أمّا باراك، فكان كعادته مستغرقًا في سماع الأخبار في أدقّ تفاصيلها، ويمارس عمله الاعتياديّ فيما يكوّن آراءه الخاصّة بهدوء حول كلّ ما يحدث.

لا أذكر بالتحديد متى ذكر باراك أوّل مرّة احتمال ترشّحه لمقعدٍ في مجلس الشيوخ الأميركيّ. وعلى رغم أنّ الفكرة كانت حديثة العهد وقتذاك، وأنّ القرار الفعليّ سوف يُتَّخذ بعد شهور عدّة، إلّا أنّها استحوذت على تفكيره. أتذكّر ردّ فعلي يومذاك: نظرتُ إليه غير مصدّقة، وكأنّني أقول: «ألا تعتقد أنّنا مشغولان بما يكفي؟».

تعاظم نفوري من السياسة. ليس بسبب ما حدث في سبرينغفيلد أو في واشنطن دي سي فحسب، بل، وهو الأهمّ، لأنّني لم أعد أحتمل جدول أعمال باراك المثْقل خلال السنوات

الخمس التي أمضاها في منصبه، عضوًا في مجلس شيوخ الولاية. ساشا وماليا تكبران، وإيقاع الحياة يتسارع، والمهمّات المطلوب إنجازها تزداد. ذلك كلّه جعلني أشعر بأنّني في سباق محموم مع الزمن. بذلت وباراك ما في وسعنا لإبقاء حياة الفتاتين هادئةً وسلسة. وظّفنا جليسةَ أطفال جديدة تساعدنا أيضًا في الأعمال المنزليّة. وكانت ماليا سعيدةً في مدرستها التابعة لجامعة شيكاغو، وقد كوّنت صداقات كثيرة هناك، وملأت برنامجها الصغير بحفلات أعياد ميلاد، وبدروس السباحة في عطلة نهاية كلّ أسبوع. كانت ساشا آنذاك قد أكملت عامها الأوّل تقريبًا، وبدأت تمشي متهادية ببطءٍ على قدميها، وتنطق ببعض الكلمات، وتُفاجِئنا من حين إلى آخر بابتسامةٍ مشرقة. كانت طفلة فضوليّة إلى حدّ كبير، ومصمّمةً على مجاراة ماليا وأصدقائها الذين يبلغون الرابعة. سار عملي في المستشفى على نحوٍ جيّد، على رغم أنّني اكتشفت أنّ أفضل طريقة للسيطرة على الوضع، كانت في انتزاع نفسي من السرير في الساعة الخامسة كلّ صباح، والعمل بضع ساعات على الحاسوب قبل أن يستيقظ أحد.

مع حلول المساء كنت منهكة بالكامل، ما سبّب لي بعض التوتّر مع زوجي الذي كان يعود من سبرينغفيلد أيّام الخميس مساء، مرحًا نسبيًّا، وراغبًا في الانغماس في حياتنا العائليّة من دون هوادة، ليعوّض الوقت الضائع. كان الوقت قد أصبح مشكلة جدّيّة في حياتنا. وإذا كان استخفاف باراك به سابقًا أمرًا قد أمازحه بشأنه أحيانًا، فإنّه شكّل في تلك المرحلة أزمة تتفاقم بصورة حقيقيّة. كنت أدرك أنّ أيّام الخميس تسعده. كنت ألاحظ الحماسَة في صوته عندما يتّصل ليخبرني بأنّه أنهى عمله أخيرًا، وأنّه متوجِّه إلى المنزل. وكنت أعي أنّ النوايا الحسنة هي التي تدفعه إلى القول: «أنا في الطريق»، أو «كدت أصل إلى المنزل». ظللتُ فترة أصدّق تلك الكلمات. كنت أُنهي الحمّام المسائيّ للطفلتين، وأُؤجّل وقت نومهما لكي تستقبلا والدَهما بالعناق، أو أجعلهما تتناولان العشاء وتأويان إلى الفراش، ثمّ أضيء الشموع في أنحاء المنزل متطلّعةً بشوق لأتناول وجبة العشاء معه.

ثمّ أنتظر. كنت أنتظر طويلًا إلى أن تصبح الفتاتان عاجزتَين عن إبقاء عيونهما مفتوحة من شدّة النعاس، فأحملهما إلى الفراش، أو كنت أنتظرُ وحيدةً، جائعة، والمرارة تتعاظم في نفسي، ومن ثمّ يُثقل النعاس جفنيّ، ويتراكم الشمع الذائب على الطاولة. أدركت أنّ عبارة «أنا في الطريق» كانت نتاجًا لتفاؤل باراك الأبديّ، إشارةً إلى توقه إلى بلوغ البيت، وهي لا تشير إلى الوقت الذي سيصل فيه تحديدًا. لم تكن عبارة «كدت أصل إلى المنزل» تحدِّد موقعًا جغرافيًّا، بل كانت حالةً ذهنيّة. قد يكون أحيانًا في طريقه إلى المنزل، لكنّه مضطرّ إلى التوقّف وإجراء محادثةٍ أخيرة مع زميلٍ له، مدّة خمسٍ وأربعين دقيقة، قبل أن يستقلّ السيّارة. وأحيانًا أخرى، ربّما يكون على وشك الوصول إلى المنزل، لكنّه ينسى أن يخبرني بأنّه سيمرّ أوّلًا على النادي الرياضيّ لأداء بعض التمارين بسرعة.

قبل أن نرزق أطفالًا، كنتُ أتقبّل خيبات أمل من هذا النوع. لكن، وفي ظلّ ظروفي الراهنة كأمّ موظّفة دوامًا كاملًا، زوجها غائب نصف الوقت، وعملها يبدأ قبل الفجر، شعرت بأنّ صبري بدأ ينفد. وعندما كان باراك يصل إلى المنزل كان يجدني ساخطةً، أو لا يجدني في انتظاره، بعد أن أكون قد أطفأت أضواء المنزل وأويت إلى الفراش معكّرة المزاج.

نحن غالبًا ما نميل إلى العيش وفق الأنماط التي ألفناها في الحياة. في طفولة باراك، اختفى والده، وكانت والدته تحضر ثمّ تغيب. كانت مولعةً به لكنّها لم تحاول تقييد حركته، ولم يكن يجد أيّ سوءٍ في تلك المقاربة. كانت لديه الهضاب والشواطئ وأفكاره الخاصّة لتؤنس وحدته. عنَت الاستقلاليّة، وسوف تبقى تعني الكثير في عالم باراك. أمّا أنا، فقد نشأت ضمن النسيج العائليّ المتين لأسرتي، داخل شقّة مكوّنة من غرف عدّة، في الجانب الجنوبيّ من شيكاغو. كان جدّاي وجدّتاي وأقربائي وقريباتي يعيشون حولنا، وكنّا نجلس إلى مائدةٍ واحدة لتناول وجبات ليلة الأحد المعتادة. بعد مضي ثلاث عشرة سنة على بداية قصّة حبّنا، توجّب علينا التفكير بعمقٍ في أبعاد هذا الاختلاف.

تجلّى تأثير هذا الاختلاف حين شعرتُ بالضعف في غيابه. ليس لأنّه لم يكرّس نفسه لزواجنا – لأنّ ذلك كان، وسيبقى يقينًا لا لبس فيه في حياتي – بل لأنّني، وبحكم نشأتي في أسرة أفرادها حاضرون دائمًا، كنتُ أشعر بخذلانٍ عميق إن غاب أحدهم. كنت مهيّأة نفسيًّا للإحساس بالوحدة، وتفاقم هذا الإحساس عندما وجدتُ نفسي مسؤولةً عن حاجات الطفلتين. كنّا نرغب في وجوده قريبًا منّا، ونشتاق إليه عندما يغيب. وكنت أخشى ألّا يعي ذلك. خشيتُ أن يؤدّي المسار الذي اختاره لنفسه – والذي ما زال عازمًا على اتّباعه – إلى تجاهل حاجاتنا، في نهاية المطاف. عندما استشارني، قبل سنوات، بشأن الترشّح لمنصب عضوِ مجلس شيوخ الولاية، لم يكن هناك من نقلق بشأنه سوانا نحن الاثنين، ولم يكن لديّ أيّ تصوُّر عمّا قد تعنيه الموافقة على دخوله المعترك السياسيّ بالنسبة إلينا في ما بعد، أي عندما تُضاف طفلتان إلى العائلة. لكنّني عرفتُ حينذاك ما يكفي من الأمور لكي أدرك أنّ السياسة لم تكن ترحم العائلات. لمست ذلك أثناء مرحلة الدراسة الثانويّة، من خلال صداقتي مع سانتيتا جاكسون، ومرّة ثانية، عندما استغلّ خصوم باراك قراره البقاء معي ومع ماليا في هاواي، حين كانت الطفلة مريضةً.

أحيانًا، عندما أشاهد الأخبار أو أقرأ الصحف، أجد نفسي أتأمّل صور الأشخاص الذين كرّسوا أنفسهم للحياة السياسيّة – آل كلينتون، آل غور، آل بوش، والصور القديمة لآل كينيدي – وأتساءل عن القصص الكامنة في الخلفيّات. هل كان أولئك الأشخاص كافّة عاديّين؟ هل كانوا سعداء؟ هل كانت ابتساماتهم حقيقيّة؟

بدأت مشاعر الإحباط داخل المنزل تبرز وبشدّة، غالبية الأحيان. ربطَني بباراك حبٌّ عميق، لكنّ عقدةً عجزنا عن حلّها برزَت فجأةً في علاقتنا. بلغت الثامنة والثلاثين، وشهدت زيجات تنهار من دون توقّع، بطرائق دفعتني إلى الشعور بأنّ عليّ حماية زواجنا. رأيت صديقاتٍ حميمات يعانين انهيارًا مدمّرًا لزيجاتهنّ نتيجةَ مشكلات صغيرة تُرِكت من دون حلّ، أو هفوات في التواصل أدّت في النهاية إلى صدوع يتعذّر رأبُها. وكان شقيقي، كريغ، انتقل قبل عامين

إلى الإقامة موقّتًا في الشقّة العليا التي عشتُ فيها، فوق منزل والدتي، بعد انهيار زواجه ببطءٍ وبطريقة مؤلمة.

رفض باراك في البداية الاستعانةَ بمستشار زواج. فقد اعتاد تركيزَ أفكاره على المشكلات المعقّدة ومحاولة حلّها بطريقة عقلانيّة بأسلوبه الخاص. بدت له فكرةُ الجلوس أمام شخصٍ غريب أمرًا مزعجًا، إن لم نقل أشبه بالدراما. ألا يمكنه الذهاب إلى بوردرز وشراء بعض الكتب حول الموضوع؟ ألا يمكننا إجراء بعض المناقشات بأنفسنا؟ لكنّني كنت أرغب في أن أتحدّث فعلًا، وأن أصغي فعلًا، لا أن أتحدّث وأصغي في وقتٍ متأخّر من الليل أو خلال الساعات التي نمضيها مع الطفلتين. أخبرني أشخاص أعرفهم، جرّبوا اللجوء إلى مستشار زواج، وتحدّثوا عن تجربتهم بصراحة، أنّ التجربة أفادتهم بطريقةٍ ما. هكذا، أخذت موعدًا مع طبيب نفسيّ في وسط المدينة، اقترحَت اسمه إحدى صديقاتي، وذهبت وباراك لاستشارته بضع مرّات.

كان المستشار – ولنسمِّه الدكتور وودتشيرش – رجلًا أبيضَ، حديثه عذبٌ، درس في جامعات مرموقة، ويرتدي دائمًا ثيابًا باللون الخاكي. كنت أتصوّر أنّه سيصغي إلى ما نقوله، ومن ثمّ يؤيّد شكواي فورًا، لأنّ كلّ شكوى شعرتُ بها أخيرًا كانت، باعتقادي، صحيحةً تمامًا. وأظنّ أنّ باراك، ربّما، كان يراوده الشعور ذاته بشأن شكواه.

لكنّ تلك التجربة جعلتني أكتشف شيئًا مهمًّا حول الاستشارة: لم يحدث أيّ تأييد. لم يدعم الطبيبُ موقفَ أيٍّ منّا. وعندما شرحنا نقاط الخلاف، لم يكن الدكتور وودتشيرش، أبدًا، هو الصوت المرجِّح. بل كان حازمًا ومستمعًا صبورًا، قاد كلًّا منّا بلطف عبر متاهة مشاعره، وهو يفصلُ الأسباب عن النتائج. كان يحذّرنا عندما نبالغ في الحديث بأسلوب المحامين، ويطرح أسئلةً محدّدة يسعى من ورائها إلى دفْعِنا إلى التفكير مليًّا في الأسباب التي تثير فينا تلك المشاعر. بعد ساعات من الحديث، بدأت العقدة تنحلّ ببطء، وفي كلّ مرّة كنّا نغادر عيادتَه، كنّا نشعر بأنّنا أكثر تقاربًا.

بدأت أشعر بأنّ ثمّة طرائق يمكنني بوساطتها أن أكون أكثر سعادة، وأنّ تلك الطرائق لا ترتبط بالضرورة بهجرِ باراك السياسة، ليعمل في مؤسّسة ما، من التاسعة صباحًا حتّى السادسة مساء (بل إنّ جلسات الاستشارة أظهرَت لي أنّ توقّعي ذاك كان غير واقعي). بدأت أدرك أنّني كنت أغذّي الجوانب السلبيّة في ذاتي، وقد سيطرَت عليّ فكرةٌ مفادها أنّ كلّ شيء حولي ظالم. وعليه، انكببتُ بدأبٍ، شأنَ أيّ محام تدرّب في هارفارد، على جمعِ الأدلّة المؤيّدة تلك الفرضيّة. حاولت تبنّي فرضيّةً جديدة: الأرجح أنّ مسؤوليّةَ سعادتي ملقاة على عاتقي أكثر ممّا ظننت. على سبيل المثل، شغلتني مشاعرُ الاستياء من باراك – لأنّه تمكّن من تخصيص بعض الوقت للتمارين الرياضيّة بما يلائم جدول أعماله – أكثر ممّا شغلني التفكيرُ في إمكاني أن أتمرّن أنا. أمضيتُ وقتًا طويلًا أخشى ألّا يتمكّن باراك من بلوغ المنزل وقت العشاء، بحيث فقدَت وجباتُ العشاء لذّتَها، معه أو من دونه.

كانت تلك هي نقطة التحوّل. وكما يفعل أيُّ متسلّق جبال على وشك الانزلاق من أعلى قمّة مكسوة ثلجًا، ضربتُ فأسي في الأرض. لا يعني ذلك أنّ باراك لم يُجرِ تعديلات، فقد ساعدَته الاستشارةُ في رؤية الثغرات في التواصل بيننا، وعمل جاهدًا لتحسين الوضع. كما قمت أنا أيضًا بتغييرات. ساعدني ذلك، ومن ثمّ ساعدَنا جميعًا. بدايةً، استعدتُ التزامي باتّباع نمط حياة صحيّ. كنت وباراك مسجّلَين في نادي رياضيّ يديره مدرّبٌ مرح ومتحمّس، يدعى كورنيل ماك كليلان. سبق أن تدرّبت مع كورنيل بضع سنوات، لكنّ ولادة الطفلتين كان من شأنها تغيير برنامجي اليوميّ. تكفّلت والدتي بالحلّ، على الرغم أنّها كانت لا تزال تعمل دوامًا كاملًا. تبرّعَت بالقدوم إلى منزلنا في الرابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، أيّامًا عدّة في الأسبوع، كي أتمكّن من الذهاب إلى النادي والانضمام إلى إحدى صديقاتي للقيام بتماريني الرياضيّة، ومن ثمّ العودة إلى المنزل في السادسة والنصف، لإيقاظ الطفلتين وتجهيزهما. غيّر هذا النظام الجديد كلّ شيء: استعدتُ الهدوء والقوّة اللذين خشيت أن أكون قد

فقدتهما.

أمّا في ما يتعلّق بمعضلةِ القدوم المجيء إلى المنزل وقت العشاء، فقد رسمتُ حدودًا جديدة تناسبني وتناسب الطفلتين بصورةٍ أفضل. وضعنا برنامجنا والتزمناه: يقدّمُ العشاء في الساعة السادسة والنصف من كلّ مساء، الحمّام اليوميّ في السابعة، تتلوه فترةُ قراءة الكتب والتدليل، ثمّ تطفأ أنوار المنزل في تمام الثامنة مساء. كان برنامجًا صارمًا، حمَّل باراك مسؤوليّة الوصول أو عدم الوصول إلى المنزل وقت العشاء. بالنسبة إليّ، كان هذا الترتيب منطقيًّا أكثر من تأجيل وقت العشاء، أو دفع الفتاتين إلى الانتظار وهما تغالبان النعاس، لكي تعانقا والدهما. وهذا يعيدنا إلى ما كنت أتمنّاه للفتاتين، من أن تكونا شخصيّتين قويّتين وأن تشكّلا محور حياتيهما، فلا تسعيان إلى التكيّف مع أيّ صيغة من صيَغ النظام الأبويّ القديم: لم أرغب مطلقًا في أن تنشأ ابنتاي على الاعتقاد أنّ الحياة تبدأ عندما يدخل ربُّ العائلة المنزل. لم نعد ننتظر الوالد. بات عليه هو التكيّف مع النظام الجديد.

15

في شارع Clybourn في شيكاغو، شمال وسط المدينة، مكانٌ رائع وغريب، كأنّه أنشئ خصّيصًا للوالدَين العاملَين، ولي أنا بشكل خاصّ: مركز تسوّق أميركيّ أنموذجيّ بامتياز، يحوي كلّ شيء: محال BabyGap, Best Buy, Gymboree وصيدليّة، إضافة إلى محالّ عدّة، كبيرة وصغيرة، تؤمّن الحاجات الملحّة لأيّ مستهلك، سواء كانت أداةً لتنظيف المراحيض، أو ثمرة أفوكادو ناضجة، أو قبّعة سباحة للأطفال. وكان وجود المتجر Container Store، والمطعم Chipotle المكسيكي قرب المركز المذكور يسهّل الأمور أيضًا. كنت أعتبر ذلك المكان مقرًّا لي. فقد كان في إمكاني، وخلال ستّين دقيقة فقط، إيقاف سيّارتي والتوجّه سريعًا إلى محلّين أو ثلاثة، كما تقتضي الحاجة، ثمّ شراء وجبة بوريتو، والعودة إلى سيّارتي. والواقع أنّي برعتُ في تلك الزيارات الخاطفة خلال استراحة الغداء، لأشتري جوارب لطفلتيّ أو هديّة لطفلٍ في الخامسة يحتفل بعيد ميلاده يوم السبت، أو علب عصيرٍ وكومبوت التفّاح بكمّيّات كبيرة.

كانت ساشا وماليا قد أصبحتا آنذاك في الثالثة والسادسة من العمر. فتاتان مشاكستان ذكيّتان تنموان بسرعة. كانت الطاقة التي تتمتّعان بها ترهقني، وهذا ما جعل مركز التسوّق أكثرَ جاذبيّة. مرّت أوقات كنت أجلس فيها في سيّارتي المركونة في المرأب، وأتناول وجبةً سريعة وحدي وأنا أستمع إلى الراديو. في

لحظات كهذه، كان يغمرني شعور بالارتياح والرضا عندما أفكّر في ما تمكّنت من إنجازه. تلك هي نوعيّة الحياة مع الأطفال. وهذا ما قد يبدو إنجازًا في بعض الأحيان: اشتريتُ كومبوت التفّاح، كنت أتناول وجبة سريعة، وكان الكلّ في قيد الحياة.

في تلك اللحظات، غالبًا ما كانت تتملكّني الرغبة في مخاطبة جمهورٍ غير موجود: انظروا كيف أتمكّن من تدبير الأمور، هل يلاحظ الجميع كيف أنجح في ما أقوم به؟

هذا ما أصبحتُ عليه في الأربعين من عمري؛ مزيجًا من شخصيّة جون كليفر وشخصيّة ماري تيلر مور. في بعض الأحيان، كنت أهنِّئ نفسي لتمكّني من إنجاز ذلك. كنتُ توصّلت إلى نوع من التوازن، في الأقل في الظاهر. تبيّن أنّ العمل في المستشفى كان يناسبني، إذ يحفّزني، ويشعرني بالرضا، ويتماشى مع الأفكار التي أؤمن بها. والواقع أنّني دُهِشت لرؤية مؤسّسة كبيرة محترمة، مركزٍ طبّيّ جامعيّ يضمّ تسعة آلاف وخمسمئة موظّف، يعمل بأسلوب تقليديّ؛ يتولّى إدارته بصورة أساسيّة أكاديميّون قاموا بأبحاث ووضعوا دراسات، لكنّهم بقوا عمومًا يعتقدون أنّ الحيّ المحيط بهم مخيف، إلى درجة أنّهم لا يجرؤون على عبور شارع خارج حرم الجامعة. بالنسبة إليّ، كان هذا الخوف مصدرَ حماسة كبيرة، والسبب الذي ينتزعني من فراشي كلّ صباح.

أمضيتُ غالبيّة أيّام حياتي أعيش جنبًا إلى جنب مع تلك الحواجز؛ ألاحظ توتّر البيض في الحيّ، والأساليب البارعة التي كان الأشخاص الذين يتمتّعون بنفوذ – من أيّ نوع – يلجأون إليها للابتعاد من الحيّ الذي أعيش فيه، ويشكّلون تجمّعات ثريّة في مواقع كانت تزداد بعدًا من الحيّ. كان عملي الآن يتيح لي إزالة تلك الحواجز حيث أستطيع، من طريق تشجيع الناس على التعرّف إلى بعضهم بعضًا، بصورة أساسيّة. كان مديري الجديد يدعمني بشدّة في هذا المسعى، ومنحني كامل الحرّيّة لوضع برنامجي الخاصّ، ولتوطيد أواصر العلاقة بين المستشفى والمجتمع المحلّيّ المجاور له. بدأتُ العمل مع مساعِد واحد،

لكنّني لاحقًا، ترأستُ فريقًا يضمّ اثنين وعشرين شخصًا. نظّمت برامج شجّعت فيها موظّفي المستشفى والأمناء على الخروج إلى الأحياء المحيطة في الجانب الجنوبيّ، وزيارة مراكز المجتمع المحلّيّ ومدارسه، وتوقيع عقود ليصبحوا مشرفين ومرشدين وحكّامًا في مسابقات الإنجازات العلميّة، بل أقنعتهم بارتياد المطاعم هناك. أحضرنا أطفالًا من سكّان تلك الأحياء ليراقبوا موظّفي المستشفى أثناء عملهم، ونظّمنا برنامجًا نزيد من خلاله عدد سكان الحيّ الذين يتطوّعون للعمل في المستشفى، كما نظّمنا دورات صيفيّة، من خلال كلّيّة الطبّ، لتشجيع طلّاب الحيّ على التفكير في الطبّ كمهنة. وبعد أن أدركتُ أنّ نظام المستشفى يمكن أن يستفيد من خدمات المؤسّسات التي تديرها نساء أو أفراد من الأقليّات من أجل تنفيذ أعمال محددة، ساعدتُ أيضًا في إنشاء «مكتب تنويع الأعمال» Office of Business Diversity.

أخيرًا، كانت هناك قضيّة الأشخاص الذين هم بحاجة ماسّة إلى الرعاية الصحّيّة. فقد كان الجانب الجنوبيّ يضمّ أكثر من مليون نسمة، ويعاني نقصًا في الأشخاص الذين يوفّرون الرعاية الصحّيّة، فضلًا عن النسبة المرتفعة من السكّان المصابين بالأمراض المزمنة التي يُبتلى بها الفقراء عادة، كالربو والسكّري وارتفاع الضغط وأمراض القلب. وفي النظر إلى العدد الكبير من الأشخاص الذين ليس لديهم تأمينٌ، وإلى الآخرين الذين يعتمدون على برنامج Medicaid، كان المرضى يتجمّعون بأعدادٍ كبيرة في غرفة الإسعاف في مستشفى الجامعة، يحاولون الحصول على علاج روتينيّ لا علاقة له بالإسعاف، أو على علاج بات ضروريًّا لأنّهم لم يحظوا منذ مدّة طويلة برعاية صحّيّة وقائيّة. كانت المشكلة واضحةً للعيان، ومكلِفة، ولا تتوفّر لها الكفاءات اللازمة، ومقلقة بالنسبة إلى كلّ من يعنيه الأمر. لم تفلح زيارات غرفة الإسعاف كثيرًا في تحسين الظرف الصحّيّ أمدًا طويلًا، لأيّ كان. وأصبحت محاولة حلّ هذه المشكلة شغلي الشاغل. بدأنا، إلى جانب إجراءات أخرى، توظيف أشخاص وتدريبهم – كانوا عمومًا من

سكّان الحيّ، أشخاصًا لطفاء يرغبون في المساعدة – للعمل في مجال دعم المرضى، أي ليجالسوهم في غرفة الإسعاف، ويساعدوهم في الحصول على مواعيد لمتابعة العلاج في المراكز الصحّيّة المحلّيّة، وليشرحوا لهم إلى أين ينبغي عليهم التوجّه للحصول على رعاية صحّيّة لائقة ومنتظمة بكلفة مقبولة.

كان عملي ممتعًا ومجزيًا. لكن، تعيّن عليّ التزام الحذر كي لا يستنزفني. شعرتُ بأنّني مدينةٌ بذلك للفتاتين. فقد أدى قرارنا السماح لحياة باراك المهنيّة بأن تتابع تطوّرها كما ينبغي – أي منحه الحرّيّة لصوغ أحلامه والسعي إلى تحقيقها – إلى جعلي أختصر جهودي في العمل. قلّلت نوعًا ما، وعن عمد، اندفاعي إلى تحقيق طموحي، فصرت ألجم نفسي بدلًا من المُضيّ قُدُمًا. لا أعتقد أنّ أحدًا من المحيطين بي كان يمكنه القول أنّني لم أكن أقوم بعملي على ما يرام، لكنّني كنت دائمًا أعي كلّ ما كان يمكنني متابعته ولم أفعل. كانت هناك مشروعات بسيطة اخترت ألّا أشارك فيها. وكان هناك موظّفون شباب كان في مقدرتي إرشادهم بطريقة أفضل. لا بدّ أنّ الجميع يسمع ما يتردّد دائمًا حول التسويات التي تحصل، عندما تكون المرأة أمًّا عاملة. تلك هي التسويات التي قمتُ بها. وإذا كنتُ سابقًا من النوع الذي يندفع كليًّا إلى أداء مهمّة، فقد غدوتُ آنذاك أكثر حذرًا، حريصة على وقتي لأنّني كنت أدرك أنّ عليّ الاحتفاظ بالطاقة الكافية لحياتي العائليّة.

كانت أهدافي تتلخّص، أساسًا، في تأمين حياة طبيعيّة ومستقرّة، لأنّ هذين الهدفين لا يمكن أن يكونا ضمن أهداف باراك. كنّا قد نضجنا بحيث بتنا نتفهّم هذا الواقع ونتقبّله. كان أحدنا يمثّل الـ Yin، والآخر يمثّل الـ Yang. كنتُ أرغب في الروتين والنظام، بينما لم يكن يرغب في ذلك. كان في إمكانه العيش وسط المحيط، وكنت بحاجة إلى القارب. في الوقت الذي كان يمضيه في المنزل، كان لحضوره وقع كبير؛ يجلس على الأرض ليلاعب الفتاتين، ويقرأ لهما كتاب هاري بوتر قبل النوم، ويضحك على الطُرَف التي أرويها ويعانقني. بذلك، كان يذكّرنا بحبّه

وثباته، قبل أن يختفي مجدّدًا نصف أسبوع أو أكثر. كنّا نحاول تجاوز الثغرات الناجمة عن جدول أعماله بأفضل الطرائق الممكنة: نتناول الوجبات معًا، ونلتقي بالأصدقاء. كان يجاريني (أحيانًا) بأن يشاهد معي Sex and the City، وكنت أجاريه (أحيانًا) بأن أشاهد معه Soprano. أقنعتُ نفسي بأنّ غيابه كان جزءًا من عمله. لم يرضِني ذلك بالطبع، لكنّني، في الغالب، توقّفت عن الصراع مع ذلك الواقع. كان في إمكان باراك إنهاء يومه في غرفة فندق بعيد، بكلّ هناء، على رغم شتّى أنواع المعارك السياسيّة المتنامية، والمشكلات التي لم يوجد لها حلّ. في المقابل، كنت أعيش من أجل ما يمثّله البيت من دفءٍ وحماية؛ من أجل الشعور بالاكتمال الذي يساورني كلّ ليلة، عندما تكون ساشا وماليا في سريريهما غارقتين في النوم، وهمهمة جلّاية الصحون تُسمَع من المطبخ.

في أيّ حال، لم يكن أمامي خيار سوى التكيّف مع فترات غياب باراك، لأنّها لم تكن في وارد الانتهاء. فإضافة إلى عمله الاعتياديّ، بدأ ثانيةً تنظيم حملة، ولكن هذه المرّة من أجل الفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأميركيّ، وذلك قبل انتخابات خريف العام 2004.

بدأ شعوره بالقلق في سبرينغفيلد يتنامى ببطء. فقد أدّى الإيقاعُ المضطرب لعمل حكومة الولاية إلى إشعاره بالإحباط، وتكوّنت لديه قناعة بأنّ في وسعه تحقيق إنجازات أكثر وأفضل، في واشنطن. وبما أنّه كان يدرك أنّ لديّ أسبابًا كثيرة تدفعني إلى معارضة فكرة الترشّح لمجلس الشيوخ الأميركيّ، وبما أنّني كنت أعرف أنّ لديه حجّةً مضادّة يمكنه تقديمها، عقدنا في منتصف العام 2002 اجتماعًا غير رسميّ، يضمّ بعض أصدقائنا المقربين، جلسنا خلاله إلى مائدة فاليري جاريت، على أملِ معالجة الموضوع بصراحةٍ، واستمزاج آراء الآخرين.

كانت فاليري تسكن في مبنًى عالٍ لا يبعد كثيرًا من منزلنا في هايد بارك. وكانت شقّتها نظيفة وعصريّة، جدرانها بِيض وأثاثها أبيض، توزّعت فيها أزهار الأوركيد المنسّقة بألوانها المتألّقة. في تلك الفترة، كانت فاليري تعمل نائبًا للمدير التنفيذيّ لشركة عقاريّة، وتشغل منصب أحد أمناء المركز الصحّيّ في جامعة

شيكاغو. وكانت قد ساندتني في جهودي، عندما عملتُ مع منظّمة Public Allies، وساعدتني في جمع التبرّعات من أجل حملات باراك الكثيرة، مجنّدةً شبكة معارفها الواسعة لتعزيز أيّ مسعى نقوم به. لذلك، وبسبب تصرّفاتها الحكيمة والودود، شغلت فاليري موقعًا لافتًا في حياتنا. اتّسمت صداقتنا بطابعٍ شخصيّ ومهنيّ في آن. كانت صديقتي وصديقة باراك. وبحسب خبرتي، هذا أمر نادر في حياة زوجين. كنت أنعم بصداقة مجموعة من الأمّهات الديناميكيّات، وكان باراك يمضي وقت الفراغ القليل الذي يتبقّى له، في لعب كرة السلّة مع مجموعة من أصدقائه. كان لدينا أصدقاء رائعون، أزواجًا وزوجات، كان أطفالهم أصدقاء لابنتينا، عائلات كنّا نحبّ قضاء الإجازات معها. لكنّ فاليري كانت مختلفة. هي بمثابة أخت كبيرة لكلّ منّا على حدة، تساعدنا في تجاهل عواطفنا برهة، وإجراء تقييم للمعضلات التي نواجهها. كانت تفهمنا بوضوح، وتفهم أهدافنا بوضوح، كما كانت تحمينا كلينا.

وكانت قد أسرّت لي، قبل يوم الاجتماع، أنّها لم تكن مقتنعة بترشّح باراك لمجلس الشيوخ الأميركيّ. بالتالي، توجَّهت إلى منزلها في ذلك الصباح وأنا على قناعة بأنّ في جعبتي حجّة متكاملة.

لكنّني كنت على خطإ.

شرح لنا باراك، في ذلك اليوم، أنّ السباق إلى مجلس الشيوخ الأميركيّ يشكّل بالنسبة إليه فرصةً فريدة. قال أنّه يشعر بأنّ لديه حظوظًا حقيقيّة؛ فقد كان شاغل المنصب آنذاك، بيتر فيتزجيرالد الذي كان جمهوريًّا محافظًا في ولاية تزداد فيها نسبة الديمقراطيّين، ويواجه مشكلات في الحفاظ على دعم حزبه. كان من المرجّح أن يشارك مرشحين عدّة في الانتخابات الأوّليّة، ما يعني أنّه كان يترتّب على باراك الحصول على عدد من الأصوات يفوق ما يحصل عليه الآخرون، لكي يفوز بترشيح الحزب الديمقراطيّ. وفي ما يتعلّق بالتمويل، أكّد لي أنّنا لن نحتاج إلى اللجوء إلى أموالنا الخاصّة. وعندما سألته كيف سنتدبر أمر تكاليف

المعيشة إذا كنّا سننفق على منزلين، واحدٍ في واشنطن العاصمة وآخر في شيكاغو، أجاب: «سوف أؤلّف كتابًا آخر، وسوف يكون كتابًا ناجحًا يؤمّن لنا المال».

أضحكتني كلماتُه. كان باراك الشخص الوحيد، بين معارفي، الذي يتمتّع بهذا النوع من الإيمان، الشخص الوحيد الذي يعتقد أنّ في إمكان كتاب حلّ أيّ مشكلة. كنت أمازحه بالقول أنّه يشبه الصبيّ في قصة «جاك وساق الفاصولياء» الذي قايض أسباب رزق عائلته بحفنةٍ من حبوب الفاصولياء، واثقًا في أنّ الحبوب سوف تُنتج شيئًا ما، حتّى لو لم يشاركه أحدٌ ثقته تلك.

على صعيد الجبهات الأخرى كلّها، بدا منطق باراك سليمًا إلى حدّ كبير. راقبتُ وجهَ فاليري أثناء حديثه، وأدركتُ أنّه يفوز بتقديرها بسرعة، وأنّ لديه الردَّ على كلّ سؤالٍ طرحناه عليه يبدأ بعبارة: «ولكن ماذا بشأن...؟». كنت أعلم أنّ ثمّة منطقًا سليمًا في ما يقوله، حتّى وأنا أصارع الرغبة في حساب الساعات الإضافيّة التي سيمضيها بعيدًا عنّا منذ تلك اللحظة، ناهيك عن شبح الانتقال إلى واشنطن العاصمة. وعلى رغم أنّنا تناقشنا مرارًا بشأن عبء عمله السياسيّ على حياتنا العائليّة، كنت أحبّ باراك وأثق فيه. كان رجلًا مسؤولًا عن عائلتين، إذ توزّع اهتمامه بيني أنا والفتاتين، وبين جمهوره الانتخابيّ في الجانب الجنوبيّ، والذي يبلغ عدده مئتي ألف شخصٍ تقريبًا. إذًا، ماذا سيختلف إذا شاركتني به ولاية إلينوي؟ لم أستطع اتّخاذ قرار، لكنّني أيضًا لم أستطع حمل نفسي على الوقوف في وجهِ تحقيق حلمه. فقد كان الأمل يحدوه دائمًا بتحقيق المزيد.

توصّلنا يومذاك إلى اتّفاق. وافقت فاليري على أن تكون المدير الماليّ لحملة باراك في انتخابات مجلس الشيوخ الأميركيّ. ووافق عددٌ من الأصدقاء على تقديم الوقت والمال لهذا الجهد. وافقتُ على ذلك كلّه، ولكن مع تحذيرٍ واضح ومهمّ، كرّرتُه بصوتٍ مرتفع ليسمعه الجميع: «إذا خسر الانتخابات، فسوف ينسحب من المجال السياسيّ برمّته، ويجد لنفسه عملًا مختلفًا. إذا لم تسر الأمور على ما يرام يوم الانتخابات، فسوف تكون النهاية».

ستكون تلك هي النهاية، حقيقةً وفعلًا.
لكنّ ما حصل مع باراك بعد ذلك هو أن ابتسم الحظّ له. أوّلًا، قرّر بيتر فيتزجيرالد عدم الترشّح لإعادة انتخابه، وبذلك أخلى الساحة لمجموعة من الخصوم وللآتين الجدد، نسبيًّا، مثل زوجي. بعد ذلك، وفي تتابعٍ غريب للأحداث، غرق المرشّح الديمقراطيّ الذي يتصدّر الانتخاباتِ الأوّليّة، والمرشّح الجمهوريّ التالي، في لجّة فضائح تتعلّق بزوجتَيهما السابقتَين. لم يبقَ في مواجهة باراك، قبل أشهرٍ قليلة فحسب من الانتخابات، منافس جمهوريّ واحد.

ما من شكّ في أنّ باراك أدار حملةً ناجحة. فقد تعلّم الكثير من ترشّحه السابق الفاشل. فاز على سبعةٍ من خصومه في الانتخابات الأوّليّة، ونال أكثر من نصف الأصوات اللازمة لترشّحه. وخلال سفره في أنحاء الولاية، وتفاعله مع الناخبين المحتملين، بدا الرجل نفسه الذي أعرفه في المنزل؛ مرحًا وساحرًا، رجلًا ذكيًّا أعدّ لكلّ شيء عدّتَه. كانت إجاباته المفصّلة بإسهاب عن الأسئلة التي طُرحت عليه في المنتديات التي نظِّمت في دار البلديّة، وأثناء المناقشات التي دارت حول الحملة، تؤكّد أنّه يستحقّ الوصول إلى مجلس الشيوخ. ومن دون الانتقاص من قيمة الجهود التي بُذِلت، بدت درب باراك إلى مجلس الشيوخ الأميركي معبّدة بالحظّ السعيد.

حصل كلّ ذلك قبل أن يدعوه جون كيري إلى إلقاء خطاب في المؤتمر الوطنيّ للحزب الديمقراطيّ، العام 2004، والذي عُقد في بوسطن. كان كيري آنذاك عضوًا في مجلس الشيوخ عن ولاية ماساتشوستس، وكان يتنافس مع جورج دبليو بوش على رئاسة الجمهوريّة.

في خضمّ تلك الأحداث، كان زوجي إنسانًا مغمورًا تمامًا؛ مشرّعًا متواضعًا، لم يسبق له أن وقف في مواجهة جمهور يزيد عدده على خمسة عشر ألف شخص سوف يتجمّعون في بوسطن. لم يكن قد سبق له استخدام الملقّن الآليّ، أو الظهور في إرسال تلفزيونيّ حيّ في فترة الذروة. كان مبتدئًا، رجلًا أسود في مجال هو حكر على البيض تاريخيًّا، يظهر بغتةً من مكان مبهم

باسمه الغريب وخلفيّته المحيّرة ويأمل بأن يلقى قبولًا لدى الإنسان الديمقراطيّ العاديّ. كان اختيار باراك أوباما لإلقاء خطاب أمام جمهورٍ يبلغ تعداده الملايين، كما اعترف نقّاد الشبكة في ما بعد، مقامرةً خطرة.

مع ذلك، بدا باراك، في أسلوبه الغريب غير المباشر، أنّه خُلِقَ لمثل هذه اللحظة. عرفت ذلك لأنّني لاحظت سابقًا، من كثب، كيف يظلّ عقله متوقّدًا باستمرار. كنت أراقبه، طوال سنوات، وهو يلتهم الكتب والصحف والأفكار، ويشعر بالحماسة عندما يقدّم له شخص أدنى خبرةٍ جديدة أو معلومة، وكان يختزن كلّ ذرّة منها. أدركت آنذاك أنّه كان يؤسِّس لرؤيةٍ، وهي ليست بسيطة. كانت تلك الرؤية أوّل أمرٍ توجّب عليّ تخصيص موقعٍ له في حياتنا المشتركة، والتعايش معه وإن لم أكن راغبةً في ذلك. كانت تلك الرؤية أحيانًا تستثير غضبي إلى حدّ كبير، لكنّها كانت أيضًا جزءًا من باراك، لا أستطيع التنصّل منه. فقد كان منذ تعارفِنا يعمل من أجلها، بهدوءٍ ورويّة. في تلك اللحظة، ربّما كان عديد الجمهور الذي سيواجهه يتماشى، أخيرًا، مع الهدف الذي كان يؤمن بأنّه يمكنه تحقيقه. كان جاهزًا لذلك النداء. لم يكن يتوجّب عليه سوى الكلام.

في أعقاب تلك الليلة – في السابع والعشرين من تموز/يوليو 200، غدَت العبارةُ التي لا أنفكّ أردّدها هي: «خطاب رائع بالفعل»، كانت أشبهَ بطرفةٍ نضحك عليها أنا وباراك، وكنت غالبًا ما أردّدها بشيءٍ من التهكم.

تركت الطفلتَين يومذاك مع والدتي في المنزل، وسافرت بالطائرة إلى بوسطن كي أكون معه يوم إلقاء الخطاب. وقفتُ في كواليس المركز الذي عُقِد فيه المؤتمر، بينما كان باراك يعتلي المنصّة ويواجه وهج أضواء المسرح وأنظار الملايين. كان يشعر بشيءٍ من التوتّر، وكذلك أنا، على رغم أنّنا كنّا عازمَين على ألّا نُظهِر توتّرنا. والواقع أنّ ذلك كان أسلوب باراك في التعامل مع الأمور. كان كلّما اشتدّت الضغوط، بدا أكثر هدوءًا. كان أمضى الأسبوعَين السابقين في كتابة ملحوظاته، وفي تعديلها، خلال

الفترات الفاصلة بين جلسات مجلس الولاية في إلينوي. حفظ خطابه عن ظهر قلب، وتدرّب عليه بعناية، إلى درجة أنه كان يستطيع الاستغناء عن الملقّن الآليّ، لولا الخشية من أن تخونه أعصابه ويخلو ذهنه من كلّ ما أعدّه سلفًا. لكنّ ذلك لم يحصل. نظر باراك إلى جمهوره وإلى أجهزة التصوير التلفزيونيّة، ثم ابتسم وبدأ، كمن يُطلق محرّكًا في داخله، يتحدّث بسلاسة وإيقاع.

دامَ خطابه تلك الليلة سبع عشرة دقيقة، قدَّم خلالها نفسَه ووضَّح أصوله، جدّه الذي كان جنديًّا في جيش باتون، وجدّته التي عملت على خطّ تجميع خلال الحرب، ووالده الذي نشأ وهو يرعى الماعز في كينيا، وعلاقة الحبّ غير الاعتياديّة التي ربطت والديه، وإيمانهما بما يمكن التعليم الجيد أن يؤمّن لابنهما الذي لم يولد ثريًّا أو مرتبطًا بعلاقات مع شخصيّات نافذة. قدَّم نفسه، بكلّ جدّيّة ومهارة؛ لا كإنسانٍ غريب، بل كتجسيد دقيق للحكاية الأميركيّة. ذكَّر الحاضرين بأنّه لا يمكن بلدًا أن يُقَسَّم، بكلّ بساطة، بين الأحمر والأزرق، وأنّنا مرتبطون بإنسانيّة مشتركة، وملزمون رعاية المجتمع ككلّ. دعا إلى تغليب الأمل على التشكيك. كان يتحدّث بأمل، ويُشِعّ أملًا. وبدا فعليًّا أنّه ينشد هذا الأمل.

كانت سبع عشرة دقيقة تلاعب فيها باراك بالكلمات ببراعةٍ وسلاسة. سبع عشرة دقيقة عرض فيها تفاؤله العميق الرائع. عندما اختتم خطابه بكلمةٍ أخيرة عبّر فيها عن دعمه لجون كيري، والمرشّح معه لمنصب نائب الرئيس، جون إدواردز، وقف أفراد الجمهور وهم يهدرون، وعلا صوت التصفيق. دخلتُ المسرح لأواجهَ الأضواء الباهرة وأنا أنتعل حذاءً بكعب عال وبذلة بيضاء، عانقتُ باراك مهنّئةً قبل أن أستدير لنحيّي معًا الجمهور الذي استثيرت مشاعره.

كانت الطاقة التي تشعّ في القاعة مثيرة، والصوت يصمّ الآذان. لم يعد سرًّا أنّ باراك رجل مستقيمٌ، راجح العقل، يحمل إيمانًا صادقًا بالديمقراطيّة. كنت فخورة بإنجازه، على رغم أنّني لم أستغرب ذلك. كان ذاك هو الرجل الذي تزوّجته. كنت أدرك ما يتمتّع به من إمكانات مُذ تعرّفت إليه. عندما أعود بتفكيري إلى

الوراء، يتبادر إلى ذهني أنّ تلك اللحظةَ كانت اللحظة التي بدأتُ فيها، بكلّ هدوء، أتخلّى عن فكرة إمكان تراجع باراك عن مساره. وعن فكرة أنّ باراك سيغدو يومًا حكرًا عليّ وعلى الطفلتين. كدتُ أسمع ذلك في نبض التصفيق. نريد المزيد، نريد المزيد، نريد المزيد.

اتّسم ردّ الفعل الإعلاميّ على خطاب باراك بالغلوّ. صرّح كريس ماثيوز أمام زملائه المراسلين في قناة NBC: «رأيت للتوّ أوّل رئيس جمهوريّة أسود». وكان العنوان الرئيسيّ على الصفحة الأولى من صحيفة شيكاغو تريبيون، في اليوم التالي، لا يتجاوز كلمةً واحدة هي: «الظاهرة». لم يتوقّف هاتفه الجوّال عن الرنين. وصفه نقّاد محطّات الكابل بأنّه «نجم شعبيّ متميّز»، ووصفوا ما حدث بأنّه «نجاح بين يوم وليلة»، كأنّ باراك لم يُمضِ سنوات في التحضير لتلك اللحظة على المسرح، أو أنّ الخطاب هو الذي خلق باراك، وليس العكس. مع ذلك، مثّل الخطاب فاتحةَ شيء جديد، ليس بالنسبة إليه فحسب، بل بالنسبة إلى أفراد أسرتنا كافّة. فقد انكشفت حياتنا أمام أنظار الآخرين، وجرفنا التيّار السريع الذي تشكّله توقعاتهم.

بدا الأمر برمّته سورياليًّا. كلّ ما كان في إمكاني فعله هو تناول ما حصل بالمزاح.

عندما بدأ الناس يوقفون باراك في الشارع، للحصول على توقيعه أو للتعبير عن إعجابهم بما قال، كنتُ أهزّ كتفيّ وأقول: «خطاب رائع بالفعل». وعندما خرجنا ذات يوم من مطعم في شيكاغو، لنجد أنّ حشدًا من الناس تجمهر على الرصيف بانتظاره، قلت: «خطاب رائع بالفعل». كرّرت الجملة مجدّدًا، عندما شرع الصحافيّون يسألون باراك عن رأيه حول قضايا وطنيّة مهمّة، وعندما بدأ كبار الاستراتيجيّين السياسيّين يحومون حوله، وعندما أعيد نشر كتابه Dreams from My Father الذي كان صدر قبل تسع سنوات، من دون أن يلقى نجاحًا يُذكر، ووجد لنفسه أخيرًا مكانًا في قائمة الكتب الأكثر رواجًا في صحيفة نيويورك تايمز.

عندما حضرت أوبرا وينفري، بكلّ نشاطها وإشراقها، إلى منزلنا

لتمضية يومٍ، ولإجراء مقابلة معه، قلت: «خطاب رائع بالفعل».

ما الذي كان يحصل لنا؟ لم أعد أستطيع مواكبة الأحداث. في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، انتُخب باراك عضوًا في مجلس الشيوخ الأميركيّ، وكسب سبعين في المئة من الأصوات في أنحاء الولاية كلّها. مثّلَ ذلك أعلى هامش في تاريخ إلينوي، وأكبر نجاحٍ في انتخابات مجلس الشيوخ الأميركيّ في ذلك العام. فاز بأغلبيّةٍ كبيرة في صفوف السود والبيض واللاتينيّين؛ رجالًا ونساء؛ فقراء وأغنياء؛ سكّان مدنٍ وضواحٍ وأرياف. ذهبنا ذات يوم إلى أريزونا فترة استجمام قصيرة، فتجمهر الناس حوله يتمنّون له الحظّ السعيد. مثّل ذلك لي معيارًا صادقًا ومحيّرًا لشهرته: فحتّى الأشخاص البيض صاروا يعرفونه أيضًا.

احتفظت بما تبقّى لي من حياتي المعتادة وتمسّكت به. لدى وجودنا في المنزل، ظلّ كلّ شيء على حاله. وعند وجودنا مع أصدقائنا وأفراد عائلتينا، ظلّ كلّ شيء على حاله. ومع الفتاتين، ظلّ كلّ شيء على حاله. أمّا في الخارج، فقد أخذت الأمور منحًى مختلفًا. صار باراك يسافر إلى العاصمة واشنطن طوال الوقت. كان لديه مكتب في مجلس الشيوخ، وشقّة في مبنًى متواضعٍ في حيّ كابيتول هيل، شقّة من غرفة نوم واحدة صغيرة، تبعثرت فيها الكتب والأوراق، كانت بمثابة المخبإ الذي يلوذ به عندما يكون بعيدًا عن المنزل. وفي كلّ مرّة كنت أزوره بصحبة الفتاتين، لم نكن حتّى لنتظاهر بأنّنا نرغب في الإقامة هناك، بل كنّا نحجز غرفة في فندق لنا نحن الأربعة.

حافظت على حياتي الاعتياديّة في شيكاغو. النادي الرياضيّ، العمل، المنزل. الأطباق في الجلّاية، دروس السباحة، كرة القدم، ودروس الباليه، حافظت على تواتر الأمور قدر استطاعتي. صارت لدى باراك حياة في واشنطن. أصبح يتصرّف بالوقار الذي يستوجبه منصبُ عضوٍ في مجلس الشيوخ، أمّا أنا فلم أتغيّر، تابعت حياتي الاعتياديّة. كنت ذات يوم في سيّارتي في مرأب مركز التسوّق في شارع Clybourn، أتناول وجبةً من مطعم Chipotle، وأنفرد بنفسي قليلًا بعد جولة سريعة في متجر

BabyGap، عندما اتّصلت بي سكرتيرتي في العمل على هاتفي الجوّال، وسألتني عمّا إذا كان في إمكانها تحويل مكالمة لي. كانت المكالمة من سيّدة في العاصمة واشنطن لم أكن أعرفها، زوجة أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وقد سبق لها أن حاولت الاتّصال بي مرّات عدّة.

قلت لسكرتيرتي: «بالطبع، حوّلي المكالمة».

سمعت صوتَ زوجة السناتور، صوتًا لطيفًا وديًّا. قالت: «مرحبًا. يسعدني أن أتحدث معك أخيرًا».

أجبتها بأنّني مسرورة أيضًا بالحديث معها.

قالت: «اتّصلت لأرحّب بك، ولأخبرك بأنّه تسرّنا دعوتك إلى الانضمام إلى مجموعةٍ خاصّة جدًّا».

اتّصلت لتطلب منّي الانضمام إلى جمعيّة خاصّة. إلى نادٍ، كما فهمت، يضمّ بشكل أساسيّ زوجات الرجال المهمّين في واشنطن. كانت الزوجات يجتمعنَ بصورةٍ منتظمة لتناول الغداء، ولمناقشة القضايا الراهنة. قالت لي: «وهذه طريقة لطيفة للالتقاء بالناس. أنا أعرف أنّ هذا ليس بالأمر السهل عندما تكونين حديثةَ العهد في المدينة».

لم يسبق لي في حياتي أن طُلِب إليّ الانضمام إلى نادٍ. كنت أراقب أصدقائي وصديقاتي في المدرسة الثانويّة وهم يذهبون في مجموعات مختلطة للتزلّج. وفي جامعة برنستون، كنت أحيانًا أنتظر عودة سوزان، وهي متّقدة حماسةً وتطلق ضحكات هادئة، من حفلات نوادي الأكل. وكان نصف المحامين في مكتب Sidley، في ما يبدو، أعضاء في نوادي الضواحي. زرت الكثير منها، بمرورِ الوقت، لجمع تبرّعات لمنظّمة Public Allies، وتبرّعاتٍ لحملات باراك، وسرعان ما أدركت أنّ النوادي، عمومًا، مشبعة بالمال. كان الانتماء إليها يعني أكثر من مجرّد انتماء.

كان العرض الذي قدّمته السيّدة لطيفًا وصادقًا، مع ذلك، رفضته بسرور.

قلت لها: «شكرًا! كان لطفًا منك أن تفكّري في دعوتي. لكنّنا في الواقع اتّخذنا قرارًا بأنّني لن أنتقل إلى واشنطن». أخبرتها بأنّ

لدينا فتاتين صغيرتين في المدرسة في شيكاغو، وبأنّني شديدة الارتباط بعملي. وشرحت لها أنّ باراك كان مستقرًّا في الحياة في واشنطن، وأنّه يأتي إلى المنزل كلّما سنحت له الفرصة. لكنّني لم أخبرها بأنّنا ملتزمون الحياة في شيكاغو، وأنّنا نأمل بشراء منزلٍ جديد بالمال الذي بدأنا نجنيه نتيجةَ ارتفاع مبيعات كتاب باراك الأوّل، وأنّه تلقّى عرضًا سخيًّا لتأليف كتابٍ جديد؛ وكان ذلك كلّه هو الحصاد المفاجئ لحبّات الفاصولياء السحريّة التي استثمر فيها باراك.

صمتت زوجة السناتور برهة بكلّ لباقة، ثمّ عاودت الكلام بصوت لطيف: «لا شكّ في أنّك تعرفين أنّ وضعًا كهذا قد يكون صعبًا بالنسبة إلى الزواج. فالعائلات تتفكّك».

في تلك اللحظة، شعرت بوقع كلماتها، فقد عاشت في واشنطن سنوات عدّة. كانت تلمّح إلى أنّها رأت كيف تسوء الأحوال، عندما يظلّ أحد الزوجين في الموطن الأصليّ، وأنّني كنت أتّخذ خيارًا خطيرًا، إذ لا يوجد سوى أسلوبٍ صحيح واحد لتكوني زوجةَ عضوٍ في مجلس الشيوخ، وأنا كنت أختار الأسلوب الخاطئ.

شكرتها ثانيةً. أغلقت الخطّ ثمّ تنهّدت. لم يكن كلّ ذلك خياري، في المقامِ الأوّل. لم يكن كلّ ذلك خياري إطلاقًا. كنت آنذاك، مثلها، زوجةَ عضو في مجلس الشيوخ الأميركيّ – السيّدة أوباما، هذا ما كانت تناديني به طوال الحديث – لكنّ ذلك لا يعني أنّني مضطرّة إلى ترك كلّ شيء كي أدعمه. والحقيقة أنّني لم أكن أرغب في ترك أيّ شيء.

كنت أعلم أنّ هناك أعضاء آخرين في مجلس الشيوخ اختارت زوجاتهم البقاء في مدنهنّ الأصليّة بدل المجيء إلى واشنطن. كنت أعلم أنّ مجلس الشيوخ الأميركي، وفي وجود أربع عشرة سيّدة بين أعضائه المئة، لم يعد مؤسّسة قديمة الطراز، كما كان سابقًا. مع ذلك، اعتبرت أنّه من الوقاحة أن تحكم عليّ امرأة أخرى بأنّني مخطئة، لرغبتي في إبقاء ابنتيّ في المدرسة، ومواصلة العمل في وظيفتي. بعد الانتخابات ببضعة أسابيع،

ذهبت برفقة باراك إلى واشنطن للمشاركة في جولة تعريفٍ يومًا واحدًا، مخصّصة لأعضاء مجلس الشيوخ المنتخبين حديثًا، وزوجاتهم وأزواجهنّ. لم يحضر في ذلك العام سوى عدد ضئيل. بعد التعريف الذي لم يطُل، ذهب السياسيّون في جهة، بينما ذهب الأزواج والزوجات إلى غرفة أخرى. كنت قد هيّأت بعض الأسئلة، فقد عرفت أنّه من المتوقّع من السياسيّين وأفراد عائلاتهم التزام سياسات أخلاقيّة فيديراليّة صارمة تحدّد كلّ شيء؛ بدءًا بمَن يمكن تلقّي الهدايا منهم، وصولًا إلى كيفيّة دفع تكاليف سفرهم، من واشنطن وإليها. ظننتُ أنّنا سنناقش كيفيّة التعامل مع أعضاء جماعات الضغط في ظروف اجتماعيّة محدّدة، أو نناقش الطرائق القانونيّة المتاحة لجمع التبرّعات لحملة مستقبليّة.

ولكن، كلّ ما حصلنا عليه كان خطبةً مفصّلة عن تاريخ مبنى الكابيتول وأسلوب عمارته! كما شاهدنا أشكال الأواني الخزف الرسميّة المصنوعة خصّيصًا لمجلس الشيوخ. أعقبت ذلك وليمةُ غداء تبادلنا خلالها أحاديث عاديّة بسيطة. استمرّ ذلك ساعات. ربّما كان الأمر سيبدو مسليًّا لو لم أكن أخذتُ إجازة من عملي، وتركت الفتاتين مع والدتي كي آتي إلى واشنطن. إذا كنت سأصبح زوجة رجل سياسيّ، فإنّي أريد التعامل مع الوضع بجدّيّة. لم تكن السياسة بحدّ ذاتها تهمّني. لكنّني أيضًا، لم أكن أرغب في إفساد الأمور.

والواقع أنّ واشنطن كانت تثير ارتباكي بما فيها من تقاليد محافِظة وتركيز على الذات، وبغلبة البيض فيها وبذكوريّتها، وبسيّداتها اللواتي يتناولنَ الغداء على حدة. وفي شعوري بالارتباك هذا، ثمة خوف ما، لأنّني، وإن لم أختر الانخراط فيها، شعرتُ بأنّها تجرفني. كنت أُدعى السيّدة أوباما طوال السنوات الاثنتي عشرة الماضيّة، لكن هذا الاسم بدأ يكتسب معنًى جديدًا. ففي بعض الأجواء، في الأقلّ، أصبحت السيّدة أوباما بطريقة تحمل الانتقاص من القدر، زوجةً تُعرَّف من خلال زوجها. كنت زوجة باراك أوباما، النجم السياسيّ، والعضو الأسود الوحيد

في مجلس الشيوخ، الرجل الذي تحدّث بأسلوب مؤثّر وقويّ حول الأمل والتسامح، إلى درجةٍ أنّ التوقّعات أثارت الجلبة حوله.

كان زوجي عضوًا في مجلس الشيوخ، ولكن بدا أنّ الناس يتوقّعون منه المزيد. كان الجميع يتوقون لمعرفة ما إذا كان سيترشّح لمنصب رئاسة الجمهورية العام 2008. لم يكن هناك سبيل لتجنُّب هذا السؤال. فقد كان كلّ صحافيّ يطرحه، بل كلّ شخص يقترب منه في الشارع. كان زملائي في المستشفى يقفون عند باب مكتبي ويطرحون السؤال عَرَضًا، في محاولة لتسقُّط أيّ خبرٍ جديد. حتّى ماليا، التي كانت قد بلغت السادسة والنصف من عمرها، يومَ ارتدت ثوبًا مخملًا بلون الزّهر، ووقفت قرب باراك عندما أقسم اليمين للانضمام إلى مجلس الشيوخ الأميركيّ، أمام ديك تشيني، كانت ترغب في معرفة الإجابة عن ذلك السؤال. لكنّ ابنتنا، الطالبة في الصفّ الأوّل، وخلافًا لأشخاص كثر، كان عندها من الحكمة بحيث أدركت أنّ الفكرة بكاملها سابقةٌ لأوانها.

سألَت والدها: «أبي، هل ستحاول أن تصبح رئيسًا للجمهورية؟ ألا تعتقد أنّ عليك أن تكون أوّلًا، نائبًا للرئيس، أو شخصيّة من هذا النوع؟».

كنت أشاطر ماليا الرأي. فأنا براغماتيّة، وأنصح دائمًا مَن حولي بمقاربة أيّ مسألة بتأنٍّ، وبإتمام أيّ مهمّة بأسلوب منهجيّ. كنت أؤيد بالفطرة فكرة الانتظار الطويل الحكيم. وكنت أشعر بالارتياح كلّ مرّة أسمع باراك يصدّ كلّ من يحاول سؤاله، بتواضع خجولٍ، ويغيّر مباشرة موضوع الرئاسة بالقول أنّ مخطّطه الوحيد آنذاك يقضي بتجنيد طاقاته والعمل بدأب في مجلس الشيوخ الأميركيّ. كان يذكّر الناس دائمًا بأنّه مجرّد عضو متواضع المكانة في حزب الأقلّيّة، لاعب ثانويّ، إن صحّ التعبير. وقد يضيف أحيانًا أنّ لديه طفلتين ينبغي عليه تنشئتهما.

لكنّ الطبول كانت قد بدأت تُقرع، وبات من الصعب إسكاتها. كان باراك قد شرع كتاب The Audacity of Hope، وراح يدرس معتقداته ورؤيته الخاصّة للبلاد بدقّة، ويصوغها على الورق في وقت متأخّر

من الليل. قال لي أنّه كان سعيدًا حيث هو، يراكم نفوذه بمرور الوقت، وينتظر دوره للكلام في خضمّ ضجّة الأصوات المتنافرة داخل مجلس الشيوخ، ثمّ هبّت العاصفة.

اجتاح إعصار كاترينا المناطق المشرفة على خليج المكسيك في الولايات المتحدة، أواخر آب/أغسطس العام 2005. فأغرقت السدود في نيو أورلينز، وغمرت المياه المناطق المنخفضة. ما دفع الناس – ومعظمهم من السود – إلى الالتجاء إلى أسطح منازلهم المدمّرة. تكشَّفت النتائج المرعبة في أعقاب الإعصار؛ فقد أظهرت تقاريرُ وسائل الإعلام المستشفياتِ الخاليةَ من منظومة كهربائيّة احتياطيّة، والعائلات التي أجبرها الإعصار على التوجّه إلى الملعب الكبير Superdome، وطواقم الإسعاف العاجزة عن العمل بسبب عدم توفُّر الموادّ الضروريّة. هلك في تلك الكارثة ألف وثمنمئة شخص، وتشرّد أكثر من نصف مليون آخرين، وأدّى الأسلوب غير الكفوء الذي واجهت به الحكومة تلك الكارثة إلى تفاقم الوضع. كانت فضيحةً مؤلمة أظهرت مدى الانقسامات البنيويّة في بلدنا، كما أظهرَت الانكشاف غير المتناسب للأفريقيّين الأميركيّين، وللفقراء من الأعراق كلّها، في وجه المصاعب.

أين كان الأمل تلك اللحظة؟

كنت أتابع التغطية الإعلاميّة لإعصار كاترينا وأنا أشعر بتشنّج في معدتي، مدركةً أنّه في حال حدوث كارثةٍ مماثلة في شيكاغو، فسوف يواجهُ كثرٌ من أنسبائي وجيراني مصيرًا مماثلًا. لم يكن ردّ فعل باراك أقلّ تأثّرًا. بعد أسبوع على انقضاء الإعصار، سافر إلى هيوستن للانضمام إلى رئيس الجمهوريّة الأسبق جورج دبليو بوش، وبيل وهيلاري كلينتون التي كانت، آنذاك، زميلته في مجلس الشيوخ. وأمضى بعض الوقت مع عشرات الآلاف من السكّان الذين أُجْلُوا من نيو أورلينز، ولجأوا إلى الملعب الكبير في هيوستن Astrodome. حرّكت تلك الكارثة مشاعر باراك، وأثارت الشعور الذي لا يفارقه بأنّه لم يكن يقوم بما يكفي.

كانت تلك الفكرة التي عاودتني بعد عامٍ أو أكثر قليلًا، عندما علا

قرع الطبول فعليًّا، وأصبح الضغط على كلينا هائلًا. كنّا نمضي في حياتنا كالمعتاد، لكنّ السؤال المتعلّق بترشُّح باراك للرئاسة كان يعكّر صفونا. هل يستطيع أن يترشّح؟ هل سيقدم على الترشُّح؟ هل ينبغي له أن يترشّح؟ في صيف العام 2006، أظهرت نتائجُ استطلاعات الرأي أنّ المشاركين وضعوا اسمه كشخصٍ محتمل للرئاسة، على الرغم من أنّ هيلاري كلينتون كانت هي الخيار الأول. في حلول الخريف، بدأت أسهم باراك ترتفع، ويعود الفضل جزئيًّا إلى نشر الكتاب The Audacity of Hope، وإلى عددٍ لا يستهان به من فرص الظهور الإعلاميّ التي وفّرتها جولة الترويج للكتاب. فجأةً، بدأت حظوظه في استطلاعات الرأي تصبح مساويةً، أو أعلى من حظوظ آل غور وجون كيري، المرشحين السابقين للحزب الديمقراطيّ. كنت أعي أنّه يُجري مناقشاتٍ خاصّة مع أصدقائه ومستشاريه والمانحين المحتملين، ما يشير إلى أنّه يدرس الفكرة بتنعّم. لكنّ المناقشة الوحيدة التي تفادى خوضها، كانت معي.

كان يدرك رأيي بالطبع. فقد سبقت لنا مناقشةُ الموضوع مواربةً، على هامش موضوعات أخرى. وقد عشنا طويلًا مع توقّعات الآخرين بما يكفي لغرس تلك التوقّعات في كلّ حديث نجريه. كان احتمال ترشّح باراك يرافق أسرَتنا خلال تناول العشاء. كان يرافق الفتاتين في الطريق إلى المدرسة، ويرافقني في طريقي إلى عملي. كان موجودًا حتّى في الأوقات التي لم نكن نرغب في وجوده، يضفي طاقةً غريبة على كلّ شيء. وفي رأيي، كان زوجي يقوم بالكثير في ما يتّصل بهذه الفكرة. وحتّى في حال تفكيره في الترشّح لرئاسة الجمهوريّة، كنت آمل بأن يتعقّل ويهيّئ للأمر برويّة، وأن يصبر إلى حين انتهاء فترة ولايته في مجلس الشيوخ، وأن ينتظر إلى أن تكبر الفتاتان، ربّما إلى العام 2016.

منذ أن تعرّفت إلى باراك، أدركتُ أنّه كان يصبو دائمًا إلى آفاق بعيدة، إلى تحقيق فكرته عمّا ينبغي للعالم أن يكون عليه. كنت أريده أن يكون، ولو مرّة واحدة، مقتنعًا بحياته كما هي. لم أكن

أفهم كيف يمكنه النظر إلى ساشا وماليا، وقد بلغتا الخامسة والثامنة من العمر، بشعريهما المربوطين، وإلى حيويّتهما وضحكاتهما، ويتطلّع إلى أي شيء آخر. كان يؤلمني ذلك أحيانًا.

صرنا كمن يركب أرجوحةً، الزوج من جهة والزوجة من الجهة الأخرى. كنّا قد انتقلنا إلى منزلٍ جميل مبنيّ من القرميد على الطراز الجيورجي، في حيّ هادئ في كينوود، له شرفة أماميّة واسعة، وأشجارًا عالية في الباحة. إنّه بيتٌ يشبه تمامًا البيوت التي كنّا أنا وكريغ، نشهق إعجابًا عندما نراها أثناء نزهاتنا أيّام السبت، في البويك التي يقودها والدي. كنت غالبًا ما أفكّر في والدي وكيف استثمر فينا. تمنّيت لحظتذاك لو أنّه كان على قيد الحياة ليرى ما آلت إليه الأمور. كان كريغ سعيدًا في تلك الفترة، فقد أحدث تحوّلًا في حياته، وترك مجال الأعمال المصرفيّة الاستثماريّة، وعاد إلى التركيز على حبّه الأوّل: كرة السلّة. فبعد بضع سنوات عمل فيها مساعدًا في جامعة نورث وسترن، أصبح المدرّب الرئيسيّ في جامعة براون، في رود آيلاند. وكان يفكّر في الزواج ثانيةً بسيّدة تُدعى كيلي ماك كروم، وهي امرأةٌ جميلة عمليّة من الشاطئِ الشرقيّ، تعمل رئيسةَ قسمِ القبول. كبر ولداه، وأصبحا طويلَي القامة، قويَّي الشخصية، مثلين نابضَين بالحياة لما يمكن الجيل التالي أن يحقّقه.

كنتُ زوجة عضو في مجلس الشيوخ. وإضافة إلى ذلك، وهو الأهمّ، كانت لديّ مهنة أحبّها. وقد نلتُ ترقيةً في الربيع، وأصبحت نائب رئيس المركز الطبّيّ في جامعة شيكاغو. وأمضيتُ العامين السابقين في الإشراف على تطوير برنامج يدعى South Side Health Collaborative الذي سبق ووجّه أكثر من ألفٍ وخمسمئة مريض، جاؤوا إلى قسم الإسعاف، إلى التواصل مع جهات تستطيع تقديم الرعاية الصحّيّة لهم على نحو منتظم، بغض النظر عمّا إذا كان في إمكانهم الدفع أم لا. كنت أتعاطى مع عملي كأنّه موضوع شخصيّ؛ فقد شاهدتُ أشخاصًا سودًا يتدفّقون على غرفة الإسعاف، وهم يعانون عوارض أُهمِلت منذ زمن طويل – على سبيل المثل، مرضى سكّري عانوا مشكلات ظلّت من دون

علاج ليصل الأمر بهم إلى حدّ ضرورة بتر سيقانهم – فلم أستطع منع نفسي من التفكير في المواعيد الطبّيّة كلّها التي لم يحصل عليها والدي، وفي جميع أعراض داء التصلّب المتعدّد التي كان يقلّل شأنها، كي لا يثير جلبةً، أو يكلّف أحدهم مالًا، أو يضطرّ إلى إعداد الأوراق الرسميّة، أو لتفادي الشعور بأنّ طبيبًا أبيض ثريًّا يعامله باستخفاف.

كنت أحبّ عملي، وأحبّ حياتي، على رغم أنّها ليست كاملة. ومع قرب التحاق ساشا بالمدرسة الابتدائيّة، شعرت بأنّني على أعتاب مرحلةٍ جديدة في حياتي، على وشك استنهاض طموحي ثانيةً والتفكير في مجموعة أخرى من الأهداف. ماذا ستفعل حملة انتخابيّة رئاسيّة؟ سوف تطيح كلّ ذلك. كنت أعرف ما يكفي لكي أفهم ذلك مسبقًا. فقد سبق لنا، أنا وباراك، أن نظّمنا خمسَ حملات خلال إحدى عشرة سنة، وكانت كلٌّ من تلك الحملات تدفعني إلى خوض صراعٍ عنيف للتمسّك بأولويّاتي الخاصّة. تركت كلّ حملة خدشًا صغيرًا في روحي، وفي زواجنا أيضًا. كنت أخشى أن يدمّرنا الترشُّح للرئاسة. سوف يغيب عنّا باراك فتراتٍ أطول ممّا كان يغيبها خلال عمله في سبرينغفيلد أو في واشنطن؛ فهو لن يغيب نصف أسبوع بل أسابيع بكاملها، ولن يغيب فتراتٍ قد تمتدّ أربعة أسابيع أو ثمانية، مع فتراتِ عطلة بينها، بل سيغيب كلّ مرّة أشهرًا. ماذا سيفعل ذلك بأسرتنا؟ ماذا ستفعل الشهرة بالفتاتين؟

بذلت ما في وسعي لتجاهل الدوّامة المحيطة بباراك، على رغم علمي بأنّها لن تهدأ. كان كبار المحلّلين على شاشات التلفزة يتجادلون بشأن احتمالات نجاحه، بل إنّ ديفيد بروكس، وهو محرّر عمود محافظ في صحيفة نيويورك تايمز، نشر مناشدة مفاجئة تحثّ باراك على الترشّح، بعنوان «ترشَّح يا باراك، ترشَّح». أصبح باراك معروفًا في كلّ مكان يذهب إليه، لكنّني كنتُ لا أزال أحظى بنعمة الاختفاء. في أحد أيّام شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر، فيما كنت أقف في الصفّ أنتظر دوري أمام أحد محالّ البقالة، لمحتُ غلاف مجلّة Time فاضطررت إلى إدارة وجهي إلى

الناحية الأخرى؛ كان على الغلاف صورة مقرّبة لوجه زوجي، وعنوان يتصدّره: «لماذا يمكن باراك أن يصبح الرئيس التالي».

كنت آمل بأن يضع باراك بنفسه، في لحظة ما، حدًّا للتكّهنات، وإعلان أنّه لن يشارك في المنافسة، وأن يوجّه أنظار الإعلام صوبَ مكان آخر، لكنّه لم يفعل، ولم يكن ينوي أن يفعل ذلك. كان يريد الترشّح. كان راغبًا في ذلك، ولم أكن أنا راغبة فيه.

وفي كلّ مرّة يسأله صحافي عمّا إذا كان سيشارك في السباق الرئاسيّ، كان باراك يتظاهر بالخجل، ثمّ يقول ببساطة: «ما زلت أفكر في الموضوع. هذا قرار عائلي»، كانت تلك صيغة مرمّزة للقول: «إذا وافقت ميشيل فحسب».

كنت أستلقي على سريري في الليالي التي يمضيها باراك في واشنطن، وأشعر بأنّني أواجه العالم. كنت أريده لعائلتنا فحسب، في حين بدا الآخرون، جميعًا، أنّهم يريدونه للبلد. أصبح لديه مجلس مستشارين: ديفيد أكسيلرود وروبرت جيبس، وهما مخطِّطان لاستراتيجيّات الحملات، وقد كان لهما دورٌ حاسم في فوزه بمقعدٍ في مجلس الشيوخ الأميركيّ؛ وديفيد بلوف، وهو مستشار آخر من شركة أكسيلرود؛ وبيت راوز، رئيس أركان فريقه؛ وفاليري. كانوا جميعًا يدعمونه بحذرٍ. لكنّهم أوضحوا له أنّه لا يمكن القيام بنصف حملة رئاسيّة. كان ينبغي أن نتشارك أنا وباراك مشاركةً كاملة. وكانت قائمة الأعباء التي سيتحمّلها تفوق الخيال. فقد كان عليه، ومن دون الإخلال بأيٍّ من واجباته في مجلس الشيوخ، أن يقوم بنشاطات تتعلّق بالحملة، وتشمل أنحاء البلاد كلّها، وأن يستمرّ في تلك النشاطات. كما كان عليه وضعُ برنامج سياسيّ، وجمعُ تبرّعات بمبالغ طائلة. أمّا دوري، فلم يقتصر على مجرّد الدعم الضمنيّ للحملة، بل كان يتطلّب مني المشاركة فيها أيضًا. كان يُنتظَر منّي ومن الفتاتين البقاء تحت الأنظار، والابتسام تعبيرًا عن موافقتنا، ومصافحة كثر من الأشخاص. أدركت أنّ كلّ شيء سوف يتمحور حوله منذ تلك اللحظة في سبيل دعم هذه القضيّة المهمّة.

لم ينجُ شقيقي كريغ حتّى، وهو الذي لم يتوقّف عن دعمي

منذ يوم مولدي، من الانجراف وراء جوّ الإثارة الذي يمثّله احتمال الترشّح. اتّصل بي ذات مساء، وكان من الواضح أنّه يحاول تشجيعي. قال لي، وهو يتحدّث كعادته، بأسلوب مدرّب كرة السلّة: «ميش، اسمعي. أنا أدرك أنّك قلقة بشأن هذه المسألة، ولكن إذا توفّرت الفرصة لباراك، فعليه انتهازها. أنت تعرفين ذلك بالطبع، أليس كذلك؟».

كان الأمر إذًا منوطًا بي. كان كلّ شيء منوطًا بي. هل كنت خائفةً أم متعبة فحسب؟

في السرّاء والضرّاء، أحببتُ رجلًا يحمل رؤيةً، رجلًا متفائلًا من دون أن يكون ساذجًا. لا يرهبه الصراع، بل يأسر اهتمامَه تعقيدُ العالم. والغريب أنّ عبء الجهد الذي يتوجّب عليه بذلُه لم يكن ليخيفه. قال أنّ فكرة تركي مع الفتاتين فتراتٍ طويلة تقلقه من دون شكّ، لكنّه ظلّ يذكّرني بمدى رسوخ حبّنا. ذات ليلة، وبينما كنّا جالسَين في مكتبه في الطبقة العليا، نتحدّث أخيرًا حول الموضوع بصورة فعليّة، قال لي، وهو يمسك بيدي: «سوف نتمكّن من التعامل مع الأمر، أليس كذلك؟ نحن شخصان قويّان وذكيّان، وكذلك ابنتانا. سوف نكون على ما يرام. يمكننا تحمّل أعباء ذلك».

ما عناه هو أنّ الحملة سوف تكون، فعلًا، مكلفة. سوف نضطرّ إلى التخلّي عن بعض الأشياء: الوقت، بقائنا معًا، خصوصيّتنا. كان الوقت مبكرًا على التنبّؤ بما هو مطلوب بدقّة، لكنّ الأكيد هو أنّ المطلوب كان أمورًا كثيرة. بدا الأمر بالنسبة إليّ كمن ينفق النقود من دون أن يعرف مقدار رصيده في المصرف. ما مدى المرونة التي نتمتّع بها؟ ما حدود تحمُّلنا؟ ما الذي سيتبقّى لنا في النهاية؟ كانت تلك التساؤلات كلّها، بحدّ ذاتها، أشبه بالتهديد، شيء يمكنه إغراقنا. فقد نشأتُ في عائلة تؤمن بالتروّي ودراسة العواقب، عائلة تُجري تدريبات على حوادث الحريق داخل المنزل، وتذهب دائمًا إلى مواعيدها باكرًا. كما أنّ الحياة في ظلّ عائلة من الطبقة العاملة يعاني الوالد فيها إعاقةً، قد علّمتني أنّ التخطيط واليقظة أمران في غاية الأهميّة؛ إذ يمكن أن يعني ذلك الفرقَ بين الاستقرار والفقر. فالهوامش كانت ضيّقة على الدوام. وقد

يؤدّي تأخّر شيك الأجر إلى الحرمان من الطاقة الكهربائيّة، أو قد يؤدّي عدم القيام بالفروض إلى التأخّر عن البرنامج الدراسيّ، وربّما أدّى إلى الطرد من الجامعة.

وبما أنّني فقدت إحدى زميلاتي في الصفّ الخامس، نتيجةَ حريق شبّ في منزلها، وشاهدتُ سوزان تفارق الحياة قبل أن تُتاح لها فرصة النضوج، فقد تعلّمت أيضًا أنّ العالم يمكن أن يكون قاسيًا وعشوائيًّا، وأنّ العمل الدؤوب لا يضمن دائمًا نتائج مرضيةً. تنامى هذا الشعور لاحقًا، لكنّني في تلك الفترة، وعندما كنت أجلس في بيتنا الهادئ، في شارعنا الهادئ، لم أكن أستطيع مقاومة الرغبة في حماية ما لدينا، في رعاية ابنتَيّ ونسيانِ كلّ ما عداهما، في الأقلّ إلى أن تكبرا قليلًا.

مع ذلك، كان هناك منظار آخر للأمور. كنت وباراك ندرك ذلك جيّدًا. فقد رأينا مشاهد الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا من مسافة آمنةٍ أتاحتها لنا امتيازاتنا. شاهدنا آباءَ وأمّهات يرفعون أطفالهم الرضّع فوق مستوى مياه الفيضان. وشاهدنا عائلاتٍ من الأفريقيّين الأميركيّين وهي تحاول التماسك في وجه الحرمان المذِلّ للإنسانيّة، والذي كان ماثلًا في الملعب الكبير. كما أنّ الوظائف الكثيرة التي عملت فيها – من دار البلديّة، إلى منظّمة Public Allies، إلى الجامعة – ساعدتني في إدراك مدى الصعوبة التي يواجهها بعضهم في تأمين أشياء كالرعاية الصحّيّة والسكن. لاحظت الخطّ الرفيع الفاصل بين تدبّر أمرِ العيش على الكفاف وبين الموت. كما أنّ باراك أيضًا، أمضى وقتًا طويلًا يصغي إلى شكاوى عمّال المصانع المسرّحين، والمحاربين السابقين الشباب الذين يحاولون تدبير أمور العيش بإعاقاتٍ دائمة، والأمّهات اللواتي مللن إرسال أولادهنّ إلى مدارس لا توفّر لهم التعليم اللائق. في عبارةٍ أخرى، أدركنا كم كنّا محظوظين، وشعرنا بأنّنا ملزمَان ألّا نركن إلى الرضا.

بعد أن أخذت ذلك كلّه في الحسبان، لم يبقَ أمامي من خيار سوى دراسة الفكرة جدّيًّا. أخيرًا، تقبّلت احتمال حدوث ذلك. ناقشت وباراك الفكرة بعمقٍ، ومرّات عدّة، حتّى أثناء إجازة عيد

الميلاد التي أمضيناها في هاواي، في ضيافة توت. اتّسمت بعضُ مناقشاتنا بالغضب وذُرفت فيها الدموع، وغلبَ على بعضها الآخر الحماسة والتفاؤل. كانت تلك المناقشات امتدادًا لحوارٍ بدأناه منذ سبع عشرة سنة: من نحن؟ ما الأمور المهمّة بالنسبة إلينا؟ ماذا في وسعنا أن نفعل؟

في النهاية، استقرّ الأمر على ما يأتي: وافقت لأنّني كنت أؤمن بأنّ باراك قادرٌ على أن يكون رئيسًا عظيمًا، فقد كان واثقًا في نفسه على نحو نادر. كان يتمتّع بالذكاء والانضباط المطلوبَين لهذا العمل، وبطبعٍ يمكّنه من تحمّل الصعوبات التي قد تعترضه في هذا المنصب. كما كان يتمتّع بإحساس نادر بمشاعر الآخرين، يجعله على تناغمٍ دقيق ودائم مع حاجات البلد. وفضلًا عن ذلك، كان محاطًا بأشخاص شرفاء وأذكياء مستعدّين لمؤازرته. من أنا لأحاول كبح مسيرته؟ كيف لي أن أقدّم حاجاتي، وحتّى حاجات ابنتَينا، على احتمال أن يكون باراك الرئيس الذي يساعد في تحسين ظروف حياة ملايين البشر؟

وافقت لأنّني كنت أحبّه وأثق في مقدراته.

وافقت على رغم أنّني كنت في قرارة نفسي أخفي أحيانًا فكرةً مؤلمة، فكرة لم أكن مستعدّة لأن أكشفها لأحد: صحيح أنّني دعمته في حملته، لكنّني كنت متأكّدة من أنّه لن ينجح في نهاية المطاف. كان غالبًا ما يتكلّم بحماسة عن إيجاد الحلّ للانقسامات في بلدنا، وكان يستعين بمجموعةٍ من المثل العليا التي يعتقد أنّها متجذّرة في نفوس معظم الناس. لكنّني سبق أن رأيتُ ما يكفي من الانقسامات كي لا أعلّق الكثير من الآمال. ففي النهاية، كان باراك رجلًا أسود يعيش في أميركا. لم أكن أعتقد فعلًا أنّه سينجح.

16

تحوّل باراك، منذ لحظة اتّفاقنا على ترشُّحه، كائنًا مشوَّشًا، صورة غير واضحة عن الرجل الذي أعرفه – رجل وجدَ نفسه فجأة مضطرًّا إلى التواجد في كلّ مكانٍ في وقت واحد، بفضل قوّة الجهود الجماعيّة المبذولة لأجله، وبدَفْعٍ منها. كانت أقلّ من سنة تفصلنا عن بداية المنافسات الانتخابيّة، بدءًا من ولاية آيوا. توجّب على باراك البدء سريعًا بتعيين طاقم مساعديه، وبالتقرّب من المانحين الأثرياء، وبالتفكير في آليّة لتسليط الضوء على ترشّحه. كان الهدف أن يصبح محطّ اهتمام الناس ويبقى كذلك إلى أن يحين يوم الانتخابات. فالحملات قد تربح وقد تخسر منذ اللحظات الأولى من انطلاقها.

تقرَّر أن يشرف على العمليّة برمّتها رجلان معروفان بكفاءتهما، وهما ديفيد أكسيلرود وديفيد بلوف. كان أكس، كما يدعوه الجميع، رجلًا دمثًا، صوته منخفضًا، وذا شارب كثيف. سبق له العمل صحافيًّا في شيكاغو تريبيون قبل أن يصبح مستشارًا سياسيًّا. أنيطت به مهمّة التواصل والظهور الإعلامي لباراك. أمّا بلوف الذي كان في التاسعة والثلاثين، فكان ذا ابتسامة صبيانيّة، ومعروفًا عنه حبّه العميق للأرقام وللاستراتيجيّات، فقد عُهد إليه الإشراف على شؤون الحملة بمجملها. نما الفريق بسرعةٍ، وانضمّ إليه أشخاص ذوو خبرة عُيّنوا للاهتمام بالشؤون الماليّة وبالتخطيط المسبق للفعاليّات التي سيُجرى تنظيمها.

اقتُرِح على باراك أن يعلن ترشّحَه رسميًّا في سبرينغفيلد. وافق الجميع، معتبرين أنّها ستشكّل خلفيّةً مناسبة للحملة التي كنّا نأمل بأن تكون ذات طابع مختلف؛ حملة تُدار انطلاقًا من القاعدة ومن ثمّ تتصاعد، يتولّاها آتون جدد إلى المعترك السياسيّ. وكان هؤلاء يمثّلون الركن الأساسيّ الذي استندت إليه آمال باراك. فقد أظهرت له السنواتُ التي عمل خلالها منسّقًا في المجتمع المدنيّ وجودَ أشخاص كثرٍ يشعرون بالإهمال والحرمان، في ظلّ ديمقراطيّتنا. كما ساعده عمله في برنامج Project VOTE! في تصوُّر ما يمكن أن يحدث إذا حصل تمكينُ هؤلاء الأشخاص ودفعهم إلى المشاركة. وكان من شأن ترشُّحه للرئاسة أن يمثّل اختبارًا مهمًّا لهذه الفكرة. ولكن، هل ستنجح هذه الرسالة عند مستوى أشمل؟ هل ستأتي أعدادٌ كافية من الأشخاص لتقديم المساعدة؟ كان باراك يعلم أنّه مرشّح غير عاديّ. وكان يرغب في حملة غير عاديّة.

اقتضت الخطّة أن يعلن باراك ترشّحه على درجات مبنى Old State Capitol، وهو معلم أثريّ سيجذب الأنظار لا شكّ، أكثر من أيّ مركزِ مؤتمرات أو ساحة. لكنّها كانت تعني أيضًا وقوف باراك في الهواء الطلق وسط إلينوي، في منتصف شهر شباط/فبراير، في درجة حرارة متدنيّة دون الصفر. وجدتُ القرار غير عمليّ إجمالًا، على رغم ما ينطوي عليه من نوايا حسنة، بل إنّه جعلني أتردّد في الشعور بالثقة في أعضاء فريق الحملة الذين باتوا يديرون حياتنا إلى حدّ ما. لم أكن راضية. تخيّلت نفسي واقفةً مع الفتاتين نحاول الابتسام تحت ندف الثلج أو الرياح الباردة، بينما يحاول باراك أن يبدو نشيطًا، وليس على وشك التجمُّد. تخيّلت الأشخاص كافّة الذين سيقرّرون البقاء في منازلهم، بدل الوقوف في الهواء طوال ساعاتٍ في برد قارس. كنت من سكّان الـ Midwest، أي أنّني أعرف أنّ من الممكن أن يطيح الطقس كلّ شيء. وكنت أعي أيضًا أنّه لا يمكن باراك المخاطرةُ بالقيام بخطوةٍ غير محسوبة، في هذا الوقت المبكّر.

قبل شهر تقريبًا، كانت هيلاري كلينتون أعلنت ترشّحها بكلّ

ثقة. كما أنّ جون إدواردز، الذي كان مرشّح كارولاينا الشمالية السابق إلى جانب كيري، أطلق حملته قبل شهر أيضًا، متحدّثًا من أمام منزل في نيو أورلينز دمّره إعصار كاترينا. في الإجمال، كان سيشارك في السباق تسعة مرشّحين ديمقراطيّين. ما يعني أنّ الحلبة كانت مزدحمة، والمنافسةُ شرسةً.

كان فريق باراك يغامر بفكرة الإعلان عن الترشّح في الهواء الطلق. لم أكن في موقع يتيح لي توجيه الانتقادات أو التساؤلات، لكنّني أصررت على أن يجهّز الفريق، في الأقلّ، المنصّة التي سيقف عليها باراك بمدفأة، كي لا يبدو عليه الانزعاج عندما يظهر في وسائل الإعلام الوطنيّة. في ما عدا ذلك، التزمتُ الصمت. لم يعد في وسعي التحكّم في كثيرٍ من الأمور. وُضِعت خطط التجمّعات الجماهيريّة، ورُسِمت الاستراتيجيّات، وجُنِّد المتطوّعون. بدأ مسار الحملة، ولم يعد في الإمكان الانسحاب منها.

تحوّل تفكيري، في محاولة لاواعية لحماية الذات، أمرًا ما زال ضمن نطاق صلاحيّاتي، وهو العثور على قبّعتين مناسبتَين لماليا وساشا من أجل يوم إعلان الترشّح. وكنت قد ابتعت لهما معطفين جديدين، لكنّني نسيتُ القبّعتين إلى أن دهمني الوقت.

مع اقتراب يوم الإعلان، بدأت أذهب في جولاتٍ سريعة، بعد انتهاء عملي، إلى مراكز التسوّق في Water Tower Place أنقّب خلالها في ما تبقّى من الثياب الشتويّة، وأبحث بين بضائع التصفية، من دون جدوى. بعد فترة وجيزة، تخلّيت عن حرصي على أن تظهر ماليا وساشا بمظهر بنتي رئيس الجمهوريّة المستقبليّ، وبدأت أسعى إلى أن تظهرا بمظهرِ ابنتين لهما أمّ ترعاهما، في الأقلّ. أخيرًا، وفي جولتي الثالثة، وجدتُ ما أبحث عنه: قبّعتين من الصوف، واحدة بيضاء لماليا والثانية زهر لساشا. كانت القبّعتان بقياس نسائيّ صغير، ناسبَت الأولى رأسَ ماليا، بينما تدلّت الثانية حول وجه ساشا الصغير ذات السنوات الخمس. لم تكن القبّعتان على قدرٍ كبير من الأناقة، لكنّهما جميلتان بما يكفي، والأهمّ أنّهما ستبعثان الدفء في أوصال الفتاتين، مهما

خبّأ لنا شتاء إلينوي. كان ذلك نصرًا بسيطًا، لكنّه كان نصرًا، نصري أنا.

حلّ يوم الإعلان، في العاشر من شباط/فبراير 2007، وكان يوم سبت شتويّ مشرق، يبدو أكثر دفئًا ممّا هو عليه فعلًا. استقرّت حرارة الجوّ عند الدرجة العاشرة تحت الصفر، مع هبوب نسمات خفيفة. كنّا وصلنا نحن الأربعة إلى سبرينغفيلد في اليوم السابق، وأقمنا في جناح يضمّ ثلاث غرف في فندق يقع في وسط المدينة، في طبقة استأجرها القائمون على الحملة كي يكفي للعشرات من أفراد عائلاتنا وأصدقائنا الذين رافقونا من شيكاغو.

كنّا بدأنا نشعر بضغوط الحملة على المستوى الوطنيّ. فقد تحدّد يوم إعلان ترشّح باراك، سهوًا، في اليوم الذي سيقام منتدى State of the Black Union. وهو منتدًى ينظّمه تافيس سمايلي، الشخصيّة الإذاعيّة المشهورة، والذي استاء من الموضوع. عبّر عن سخطه بوضوح لفريق الحملة، قائلًا أنّ هذه الحركة تنمّ عن استخفاف بمجتمع الأفريقيّين الأميركيّين، وأنّ من شأنها إلحاق الضرر بترشيح باراك. شعرت بالاستغراب لأنّ الطلقات الأولى التي أصابتنا جاءتنا من داخل المجتمع الأسود. بعد ذلك، وقبل يوم فحسب من الإعلان، نشرت مجلة Rolling Stone مقالة حول باراك تضمّنت وصفًا لزيارةٍ قام بها الصحافيّ إلى كنيسة Trinity Church في شيكاغو. كنّا لا نزال عضوين في الكنيسة، على رغم أنّنا لم نعد نتردّد إليها كثيرًا بعد أن رُزقنا الفتاتين. ورد في المقالة اقتباسٌ من موعظةٍ غاضبة تلهب المشاعر، ألقاها القسّ جيرميا رايت قبل سنوات عدّة، وتتعلّق بمعاملة السود في بلدنا، ولمّح فيها إلى أنّ الأميركيّين يحرصون على الحفاظ على تفوّق البيض أكثر ممّا يهتمّون بالله.

ومع أنّ الصورةَ العامة كانت إيجابيّة، فقد كان العنوان الذي تصدّر الغلاف: «الأصول الراديكاليّة لباراك أوباما». أدركنا أنّ وسائل الإعلام المحافظة سوف تستغلّ ذلك بسرعةٍ كسلاح ضدّنا. ما يعني أنّ كارثةً كانت في طور التشكّل، خصوصًا عشيّة إطلاق

الحملة، وخصوصًا لأنّ القسّ جيرميا رايت كان سيترأس الصلاة الجماعيّة التي تسبق خطاب باراك. اضطرّ باراك إلى إجراء مكالمة هاتفيّة محرجةٍ، سأل فيها القس ما إذا كان مستعدًّا للتواري عن الأنظار، والاكتفاء بمنحنا بركته خلف المنصّة. أخبرني باراك بأنّ القسّ انزعج، لكنّه بدا متفهّمًا أهمّيّة الموقف، فاستنتجنا أنّه سيدعمنا على رغم خيبة الأمل التي شعر بها.

في صباح ذلك اليوم، دهمني شعورٌ مباغت بأنّنا بلغنا نقطة اللّاعودة. فقد كنّا نعرضُ أسرتنا، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، أمام أنظار الشعب الأميركيّ. كان المقصود أن يمثّل ذلك اليوم حفلَ إطلاقٍ مهيب للحملة، حفلًا أمضى الجميع أسابيع عدّة في التحضير له. لم أتمكّن، شأن أيّ مضيفة يتملّكها قلقٌ دائم، من التخلّص من مخاوفي في ألّا يحضر أحدٌ عندما يحين الوقت. فقد كنت، خلافًا لباراك، مسكونةً بالشكّ أحيانًا، أعاني مخاوفَ لم أستطع التخلّص منها منذ طفولتي. ماذا إذا لم نكن نصلح تمامًا لهذا الموقع؟ ربّما كان كلّ ما قيل لنا مجرّد مبالغات. ربّما كان باراك أقلّ شعبيّةً ممّا يعتقد مؤيّدوه. ربّما لم يحن وقته بعد. حاولت التخلّص من تلك الشكوك كلّها، ونحن نلج بابًا خلفيًّا إلى قاعة الانتظار داخل مبنى الكابيتول القديم، من دون أن أتمكّن من رؤية ما يحصل خارجًا. ذهبت لكي أطّلع على تقييمٍ للوضع من طاقم الحملة، بعد أن عهدت بساشا وماليا إلى والدتي، وإلى كيه ويلسون – «ماما كاي» – وهي مرشدةٌ سابقة لباراك، أصبحت في السنوات الأخيرة بمثابة جدّة للفتاتين.

قيل لي أنّ الحشد كان كبيرًا، حتّى إنّ الناس كانوا قد بدأوا يتجمّعون قبل انبلاج الفجر. كان من المخطّط أن يخرج باراك إلى المنصّة أوّلًا، ثمّ ننضمّ إليه أنا والفتاتان بعد دقائق، لنحيّي الجمهور. وكنتُ أوضحت مسبقًا أنّني والفتاتين لن نبقى على المنصّة طوال الدقائق العشرين التي سيستغرقها الخطاب. لم يكن من المنطق أن نطلب من طفلتين الجلوس من دون حراك، والتظاهر بأنّهما تستمتعان بما يحصل. فلن يفيدَ قضيّةَ باراك في شيء إذا بدا عليهما الضجر، أو عطست إحداهما أو بدأت تتململ.

كان الشيء ذاته ينطبق عليّ أيضًا. فقد كنت أعرف الدور النمطيّ الذي يُفترض بي تأديته، الزوجة الأشبه بالدمية المتأنّقة، ذات الابتسامة المرسومة بعناية، وهي تتأمّل زوجها بعينين متألّقتين كأنّها تثني على كلّ كلمةٍ ينطقها. لم يكن ذلك من طبيعتي، ولن يصبح كذلك إطلاقًا. يمكنني أن أكون الزوجة التي تدعم زوجها، لكنّني لن أتحوّل إنسانًا آليًّا.

بعد اجتماع موجز مع فريق الحملة، وصلاةٍ قصيرة مع القسّ رايت، خرج باراك ليحيّي الجمهور الذي قابله بترحابٍ مدوٍّ، استطعتُ سماعه وأنا داخل مبنى الكابيتول. عدت لأصطحب ماليا وساشا، وبدأت أشعر بتوتّر كبير. سألت الفتاتين: «هل أنتما مستعدّتان؟».

قالت ساشا وهي ترفع قبّعتها الزهر عن رأسها: «أمّي، أشعر بالحرّ».

أمسكت القبّعة ووضعتها على رأسها ثانيةً، وأنا أقول: «حبيبتي، يجب أن تعتمريها. فالطقس شديد البرودة في الخارج».

قالت ساشا: «لكنّنا لسنا في الخارج. نحن في الداخل».

كانت تلك طبيعة ساشا. لم أجادلها، بدل ذلك، نظرتُ إلى إحدى الشابّات في فريق الحملة – والأرجح أنّها لم تكن رُزقت أطفالًا لتفهم معاناتي – كأنّني سأقول: إن لم نبدأ الآن، فسوف أفقد السيطرة على هاتين الفتاتين.

أومأت الشابّة برأسها، رأفةً بي، ثمّ أشارت إلينا لنتوجّه صوب المدخل. لقد حان الوقت.

كنت آنذاك قد حضرتُ عددًا لا بأس به من الفعاليّات السياسيّة الخاصّة بباراك، وشاهدته مرّات عدّة يتفاعل مع مجموعات كبيرة من جمهوره الانتخابيّ. حضرت حفلات إطلاق حملات، واجتماعات لجمع التبرّعات، وحفلات تعداد أصوات المقترعين. وشاهدتُ حشودًا يشارك فيها أصدقاء وداعمون قدامى. لكنّ ما حصل في سبرينغفيلد كان شيئًا مختلفًا تمامًا.

خانتني أعصابي لحظةَ صعودنا المنصّة. ركّزت كلّ اهتمامي على ساشا لأتأكّد من أنّها تبتسم، ولن تتعثّر. قلت وأنا أمسك

بيدها: «ارفعي رأسك حبيبتي، ابتسمي!». كانت ماليا قد سبقتنا وهي ترفع ذقنها وتبتسم ابتسامةً عريضة. لحقت بوالدها ولوّحت بيدها للجمهور. لم أتمكّن من رؤية الجمهور، أو في الأقلّ محاولة رؤيته، إلّا بعدما صعدنا الدرجات. كان الصخب هائلًا. تبيّن أنّ أكثر من خمسة عشر ألف شخصٍ حضروا في ذلك اليوم. كان الناس منتشرين على مدّ النظر، يتجاوزون حدود مبنى الكابيتول، ويغمروننا بالحماسة.

لم أكن في حياتي من هؤلاء الذين يختارون تمضية يوم السبت في تجمّع سياسيّ جماهيريّ. فلم أكن مهتمّة بالوقوف في صالة رياضيّة، أو في قاعة احتفالات مدرسيّة، لكي أستمع إلى وعود متغطرسةٍ وإلى بدهيّات. تساءلتُ في نفسي لماذا حضر كلّ أولئك الأشخاص؟ ما الذي دفعهم إلى ارتداء جواربَ إضافيّة كي يقفوا ساعاتٍ في هذا الطقس البارد؟ كان في إمكاني أن أتخيّل أشخاصًا يرتدون ثيابًا سميكةً لانتظار سماع فرقة موسيقيّة حفظوا كلمات أغنياتها عن ظهر قلب، أو يتحمّلون حضور مباراة بطولة فرق كرة القدم الوطنيّة، في يوم مثلجٍ، لكي يشاهدوا فريقًا يتسقّطون أخباره منذ الطفولة. ولكنْ، من أجل السياسة؟ كان ذلك مختلفًا عن كلّ ما اختبرته من قبل.

بدأت أعي أنّ الفرقة الموسيقيّة، في تلك اللحظة، كانت نحن. كنّا الفريق الذي يوشك على النزول إلى الملعب. غمرني شعورٌ مفاجئ بالمسؤوليّة تجاوز مشاعري الأخرى كلّها. شعرتُ بأنّنا مدينون لكلّ شخص من ذلك الحشد. كنّا نطلب منهم استثمار ثقتهم فينا، وها قد حانت اللحظة التي يتوجّب علينا، فيها، الوفاءُ بالتزاماتنا مقابل ما قدّموه لنا؛ أي الاستمرار في تلك الحماسة عشرين شهرًا، وعبر خمسين ولاية، وصولًا إلى البيت الأبيض. لم أكن أعتقد أنّ ذلك ممكن، لكنّني شعرت لحظتذاك بأنّه قد يكون كذلك. أدركتُ أنّ هذا هو جوهر الديمقراطيّة، عقد يُبرم مع كلّ شخص. تحضرون من أجلنا ونحضر لأجلكم. كان لديّ في تلك اللحظة خمسة عشر ألف سبب إضافيّ لكي أرغب في فوز باراك في الانتخابات.

أصبحت حينذاك ملتزمةً بصورة كاملة. أصبحت أسرتنا ملتزمة، وإن كان ذلك يثير بعضًا من الخوف. لم أكن قد بدأت أتصوّر ما ينتظرنا في المستقبل. لكنّنا كنّا هناك – في الخارج – نقف نحن الأربعة بمواجهة الحشود والآلات، لا يسترنا سوى المعاطف على أجسادنا، وقبّعةٍ زهر أكبر قليلًا من الرأس الصغير الذي تغطّيه.

كانت هيلاري كلينتون خصمًا جدّيًّا صعبًا. ففي استطلاع تلوَ آخر، حظيَت بالأفضليّة في صفوف المقترعين المحتمَلين في الانتخابات التمهيديّة للحزب الديمقراطيّ؛ حيث تأخّر عنها باراك بعشر نقاط أو بعشرين، في حين تجاوز إدواردز بعشر نقاط. كان المقترعون الديمقراطيّون يعرفون آل كلينتون، كما كانوا متشوّقين لكسب الانتخابات، في حين أنّ قلّة فحسب من الناس كانت تعرف كيف تلفظ اسم زوجي. أدركنا جميعًا – أنا وباراك وكلّ فريق الحملة – قبل يوم الإعلان بفترةٍ طويلة، أنّ رجلًا أسود يدعى باراك حسين أوباما، وعلى رغم كلّ مواهبه السياسيّة، لن يكون ترشّحه سهلًا.

كانت تلك عقبة واجهناها داخل المجتمع الأسود أيضًا. فقد شعر كثر من السود، كما شعرتُ أنا في البداية بشأن ترشّح باراك، بأنّهم لا يستطيعون التصديق بأنّ زوجي يتمتّع بفرصة حقيقيّة للفوز. كان على كثرٍ منهم أن يقتنعوا أيضًا بأنّ رجلًا أسود يستطيع الفوز في الانتخابات داخل مناطق تقطنها غالبيّة بيضاء. ما عنى أنّهم سيلجأون غالبًا إلى رهاناتٍ أكثر أمانًا، ثاني أفضل مرشّح. تمثّل أحدُ جوانب التحدّي بالنسبة إلى باراك، في تحويل المقترعين السود عن ولائهم القديم لبيل كلينتون الذي أظهر سلاسةً غير معهودة إزاء مجتمع الأفريقيّين الأميركيّين، بالتالي نسجَ علاقاتٍ عدّة في أوساطه. وكان باراك تمكّن من تكوين علاقات ودّيّةٍ مع أفراد من جمهوره الانتخابيّ، من شتّى المجالات، في أنحاء إلينوي كلّها، بما في ذلك مناطق المزارع الريفيّة، جنوب الولاية، ذات الصبغة البيضاء. كما أثبت أنّ في إمكانه الوصول إلى فئات المجتمع كلّها، لكنّ كثرًا لم يكونوا أدركوا هذه الحقيقة بشأنه.

كان باراك تحت المجهر. كنّا ندرك أنّ مرشحًا أسود لا يستطيع تحمُّل تبعات أيّ زلّة، وأنّه سيضطر إلى بذل جهدٍ مضاعف. بالنسبة إلى باراك وكلّ مرشّح لا يحمل اسم كلينتون، كان الأملُ الوحيد لكسب الترشّح يكمن في جمع تبرّعات سخيّة، والبدء بإنفاقها بسرعة، على أمل أن يمنح الأداء الجيّد في أولى مراحل الانتخابات التمهيديّة زخمًا كافيًا للحملة يمكّنها من التقدّم وتجاوز الماكينة الانتخابيّة لكلينتون.

تركّزت آمالنا على ولاية آيوا. كان علينا أن نكسبها أو ننسحب. وتُعتبر آيوا، الولاية التي تحمل طابعًا ريفيًّا وتبلغ نسبة السكّان البيض فيها تسعين في المئة، ولايةً ذات طبيعة خاصّة، ولا يمكن اعتبارها مؤشّرًا سياسيًّا وطنيًّا. كما أنّها ليست بالموقع الأمثل الذي يحاول فيه رجلٌ أسود يقيم في شيكاغو، التعريف بنفسه. ولكن، كان ذلك واقعنا. كانت آيوا، ومنذ العام 1972، الولاية الأولى التي تنطلق منها الانتخابات الرئاسيّة الأوّليّة. وقد اعتاد أعضاءُ كلا الحزبين الإدلاءَ بأصواتهم في اجتماعات يعقدها ممثّلو الحزب المحلّيّون لتسجيل مرشّحيهم المفضّلين في فصل الشتاء. وكانت الأمّة بأسرها تراقب ما يحدث هناك. فإذا تمكنتَ من لفت الأنظار في دي موان ودوبوك، يكتسب ترشّحُك، على الفور، أهمّيّة في أورلاندو وفي لوس أنجليس. كنّا ندرك، أيضًا، أنّه إذا كان أداؤنا جيّدًا في آيوا، فسوف يبعث ذلك برسالة إلى المقترعين السود على المستوى الوطني: أن يبدأوا تصديق إمكان فوز باراك. كان موقع باراك، بصفته عضوًا سابقًا في مجلس الولاية في إلينوي المجاورة – وهو ما جعل اسمه معروفًا إلى حدّ ما، ومكّنه من الإلمام الجيّد بالقضايا الكبرى في المنطقة – قد أقنع ديفيد بلوف بأنّنا نتمتّع بأفضليّة، ولو ضئيلة، في آيوا، أفضليّة سنحاول استغلالها.

عنى ذلك أنّني سأضطرّ إلى زيارة آيوا أسبوعيًّا تقريبًا – بعد أن أستقلّ طائرة خطوط United Airlines في الصباح الباكر، من مطار أوهير – حيث تكون لي ثلاث أو أربع محطّات في اليوم، للقيام بنشاطات خاصّة بالحملة. كنت اتّفقت مع بلوف منذ البداية،

وعلى رغم السعادة التي أشعر بها للمشاركة في الحملة، أنّ عليه أن يتعهّد إعادتي إلى شيكاغو في الوقت المناسب لأكون مع الفتاتين عندما تأويان إلى سريريهما ليلًا. وافقت والدتي على تخفيض ساعاتِ عملها كي تبقى مع الفتاتين عندما أسافر. كان على باراك أيضًا تخصيص ساعاتٍ كثيرة يكون في آيوا، ومع ذلك نادرًا ما نكون هناك – أو في أيّ مكان – معًا. أصبحتُ، كما وصفوني، بديلًا من المرشّح؛ أستطيع الاجتماعَ بالمقترعين في مركزٍ محلّيّ في آيوا سيتي، في الوقت الذي يكون باراك يجول في سيدار فولز، أو يجمع التبرّعات في نيويورك خدمةً للحملة. لم يكن القائمون على الحملة يجمعوننا في غرفة واحدة إلّا عند الضرورة القصوى.

صار باراك يسافر بصحبةِ مجموعة من المساعدين اليقظين، وخُصِّص لي مبلغٌ لتوظيف فريق خاصّ بي مؤلّف من شخصين. بدا ذلك مبالغًا فيه بالنسبة إليّ، لأنّني كنتُ أنوي المشاركة في الحملة يومين أو ثلاثة فقط في الأسبوع. لم أملك أدنى فكرة عن مدى الدعم الذي أحتاج إليه. أوصى منظّم برامج باراك بتوظيف ميليسا وينتر التي كانت أوّل موظّفة في فريقي، وترأّست الفريق لاحقًا. كانت ميليسا عملت في مكتب السيناتور جو ليبرمان في مبنى الكونغرس، كما شاركت في حملته الانتخابيّة، لمنصب نائب الرئيس، العام 2000. أجريت مقابلةً مع ميليسا – وهي امرأة شقراء تضع نظّارات طبّيّة، في أواخر الثلاثينيّات – في غرفة الجلوس في منزلنا في شيكاغو، وأُعجبت بذكائها الجريء وروحها المرحة، وبهوسِها بالتفاصيل، وهي صفةٌ ظهرت أهمّيّتها عندما بدأتُ أحاول دمج نشاطات الحملة ضمن جدول أعمالي – المتخم أساسًا – داخل المستشفى. ميليسا إنسانة دقيقةً كفوء، سريعة الحركة. كما أنّها عاشت أجواء السياسة بما يكفي لجعلها لا تتأثّر بصعوبتها وسرعة إيقاعها. وبما أنّها لا تصغرني سوى بسنواتٍ قليلة، فقد تعاملت معي من موقع الندّ والنصير، أكثر من باقي أعضاء فريق الحملة الذين قابلتهم. شعرت بأنّني سأثق فيها – وما زلت حتّى اليوم – في جوانب حياتي كلّها، بالمعنى

الحرفيّ للكلمة.
اكتمل الثلاثيُّ الصغير بانضمام كايتي ماك كورميك ليليفيلد إلينا، لتعمل مديرة الإعلام والتواصل. وكانت كايتي، التي لم تبلغ الثلاثين، قد سبقت لها المشاركة في حملة انتخابات رئاسيّة. كما عملت مع هيلاري كلينتون حين كانت السيّدة الأولى، وهو ما ضاعف أهمّيّة خبرتها بالنسبة إليّ. كايتي سيّدة شجاعة ذكيّة وأنيقة على الدوام، تولّت التعامل مع الصحافيّين وأطقم المحطّات التلفزيونيّة، والتأكّد من تغطية الفعاليّات كلّها التي ننظّمها، ومن أنّ مظهري لن يتأثر أثناء التنقّل على عجلةٍ من أمرنا بين الطائرات والفعاليّات الكثيرة – وذلك بفضل الحقيبة الجلد التي كانت تحملها، والمملوءة بمزيلات البقع، ومعطِّرات الفم، وبعدّة خياطة، وبزوج إضافيّ من الجوارب.

رأيتُ مرارًا في نشرات الأخبار مرشّحين للرئاسة يقومون بجولاتهم في آيوا، ويقاطعون مواطنين بسطاء في المطاعم يرتشفون القهوة، أو يقفون بسخافةٍ لكي تُلتقط لهم صور أمام بقرة مصنوعة من الزبدة، أو يتناولون المقالي في مهرجانات الولاية. لم أستطع أن أتبيّن بالضبط التصرّفات التي تخدم المقترعين فعلًا، والتصرّفات التي يقوم بها المرشّحون لمجرّد التباهي!

حاول مستشارو باراك توضيح وضع آيوا لي. قالوا أنّ مهمّتي تقتضي عمومًا تمضية الوقت مع الديمقراطيّين في أرجاء الولاية، والتوجّه إلى المجموعات الصغيرة، وتشجيع المتطوّعين، ومحاولة كسب قادة المجتمع المحلّيّ. وأضافوا أنّ سكّان آيوا كانوا يأخذون دورَهم في تحديد التوجّهات السياسيّة على محمل الجدّ، ويعدّون أنفسهم بشكلٍ جيّد لمقابلة المرشّحين، ويطرحون عليهم أسئلة مهمّة حول برامجهم. وبما أنّهم معتادون على أن يتقرّب السياسيّون منهم، لم يكن في الإمكان كسب ودّهم بابتسامةٍ ومصافحة فحسب. كما قيل لي أنّ سكّان آيوا يمكنهم أن يصمدوا شهورًا بانتظار إجراء حديث مع كلّ مرشّح، وجهًا لوجه، قبل أن يقرّروا التزام تأييد أحدهم. لكنّ ما فات المستشارين

توضيحُه هو طبيعة مهمّتي في آيوا. لم يعطوني أيّ خطّة عمل، ولا أفكارًا للمناقشة، أو حتّى مجرّد نصيحة. أدركت أنّ عليّ إعداد كلّ ذلك بنفسي.

كان أوّل نشاط قمت به وحدي في سياق الحملة، في بداية شهر نيسان/أبريل، داخل بيت متواضع في دي موان. توزّع عشراتُ الأشخاص، في غرفة الجلوس، على الأرائك وعلى كراسٍ قابلة للطّيّ أُحضِرت خصّيصًا للمناسبة، وجلس آخرون القرفصاء على الأرض. بينما كنت أجول بنظري في الغرفة وأنا أتهيّأ للكلام، شاهدتُ شيئًا أشعرني ببعضٍ من الدهشة، على رغم أنّه لم يكن ينبغي أن يدهشني. رأيت الطاولات الصغيرة الموضوعة أمام الأرائك، مغطاةً بمفارش بيضٍ مشغولة بالإبرة، كانت تشبه المفارش التي كانت جدّتي، من آل شيلدز، تضعها في منزلها، ولاحظت وجود تماثيل خزف صغيرة شبيهة تمامًا بالتماثيل التي كانت روبي تبعدها من متناول أيدينا، وتضعها على الأرفف، في الطبقة الأرضيّة، في شارع يوكليد. كان هناك رجل يجلس في الصف الأوّل يبتسم لي بمودّة. كنتُ في آيوا، ولكن تملّكني شعور قويٌّ بأنّني في بيتي. بدأت أدرك أنّ سكّان آيوا كانوا شبيهين بآل شيلدز وآل روبنسون، لا يطيقون الحمقى، ولا يثقون في المتكبّرين، في إمكانهم كشف الإنسان المخادع من بُعد.

عرفت في تلك اللحظة أنّ مهمّتي هي أن أكون على سجيّتي، وأن أتحدّث على طبيعتي. وهذا ما فعلته.

> سأحدّثكم عن نفسي. اسمي ميشيل أوباما. نشأت في الجانب الجنوبيّ من شيكاغو، في شقّة صغيرة، في الطبقة العليا من منزل بطبقتين يشبه هذا المنزل. كان والدي يعمل في منشأة لتكرير المياه في المدينة. أمّا والدتي فقد التزمت المنزل لتربيتنا أنا وشقيقي».

حدّثتهم عن كلّ شيء؛ عن شقيقي وعن القيم التي نشأنا عليها، عن المحامي البارع الذي قابلتُه في مكان عملي، الرجل

الذي استولى على عواطفي بسعة خبرته وحنكته، والرؤية التي يحملها للعالم، الرجل الذي ترك جواربه موزّعة في أنحاء المنزل ذات صباح، والذي يشخر أحيانًا أثناء نومه. أخبرتهم كيف كنت أحتفظ بعملي في المستشفى، وكيف كانت أمّي تُحضِر الفتاتين من المدرسة.

لم أحاول إخفاء عواطفي تجاه السياسة. قلت لهم أنّ عالم السياسة لم يكن المكان المناسب للأشخاص الصالحين. وشرحت الصراع الذي عشته بشأن قرار ترشّح باراك، والقلق الذي انتابني بسبب ما يمكن أن تتعرّض له أسرتُنا نتيجةَ تسليط الأضواء عليها. قلت لهم أنّني أقف أمامهم لأنّني أثق في زوجي وفي ما يمكنه إنجازه، لأنّني أعرف مدى ولعه بالمطالعة، ومدى عمق تفكيره في الأمور. وأضفت أنّ زوجي يمثّل تمامًا نوع الرئيس الذكيّ اللائق الذي يمكن أن أختاره لهذا البلد، على رغم أنّني، وعلى الصعيد الشخصيّ الأنانيّ، أفضّل بقاءه قريبًا من المنزل خلال تلك السنوات.

بمرور الأسابيع، كرّرت الرواية ذاتها – في دافينبورت، وسيدار رابيدس، وكاونسل بلافس، وفي سيوكس سيتي، ومارشال تاون، وموسكاتين – في المكتبات، وفي قاعات النقابات، وفي مأوًى لقدامى المحاربين المسنّين، وعندما أضحى الطقس أكثر دفئًا، على الشرفاتِ الأماميّة للمنازل وفي الحدائق العامّة. كلّما رددتُ الحكاية، استعاد صوتي نبرته الطبيعيّة. أحببتُ حكايتي. شعرت بالارتياح أثناء روايتها. وكنت أرويها أمام أشخاص يذكّرونني بعائلتي، على رغم اختلاف لون البشرة؛ أمام موظّفي بريد يحملون آمالًا كبيرة، تشبه أحلام داندي؛ ومدرّسات عزف على البيانو حريصاتٍ على المصلحة العامّة، مثل روبي؛ وأمّهات وربّات منازل ناشطاتٍ في جمعيّة الأهل والمدرّسين، مثل والدتي؛ وعمّال مهنٍ يدويّة لا يدّخرون جهدًا في سبيل إسعاد أسرهم، مثل والدي. لم أكن بحاجة إلى التدرّب أو تسجيل ملاحظات. كنت أقول ما أشعر به بصدقٍ.

طوال ذلك الوقت، كان الصحافيّون، وحتّى بعض المعارف،

يطرحون عليّ سؤالًا واحدًا، وإن بأشكال مختلفة: كيف تشعرين، كونَك امرأة سوداء يبلغ طولها مترًا وثمانين سنتيمترًا، وخريجة إحدى جامعات Ivy League، بتحدّثك في غرفة إلى أشخاص معظمهم من البيض؟ هل تشعرين بغرابة الموقف؟

لم أحبّ هذا السؤال إطلاقًا. فقد كان دومًا يترافق بشبهِ ابتسامة مرتبكة، وبلهجةٍ ملتوية، تقول ضمنًا: «لا تفهمي سؤالي على نحو خاطئ»، يلجأ إليها الناس عند مقاربتهم موضوع العِرق. كنت أشعر بأنّ تلك الفكرة تستهين بنا، وتفترض أنّ الاختلاف هو كلّ ما يلاحظه الناس.

كان السؤال يستفزّني لأنّه يناقض كلّ ما كنت أختبره آنذاك، وكلّ ما كان يختبره، في ما يبدو، الأشخاص الذين أقابلهم: الرجل الذي نُقِش شعار بذور الذرة على جيب قميصه، وطالب الجامعة الذي يرتدي كنزةً صوفًا سوداء وبلون الذهب، والمرأة التي أحضرت معها علبة مثلّجات فارغة ملأتها كعكاتٍ صغيرة زيّنتها بشمسٍ تبزغ – وهو شعار حملتنا. كان أولئك الأشخاص يقتربون منّي بعد إنهاء حديثي، توّاقين إلى التحدّث حول الأمور المشتركة؛ ليقولوا أنّ والدِيهم أيضًا يعانون داء التصلّب المتعدّد، أو كان لديهم أجداد وجدّات شبيهون بجدّي وجدّتي. قال كثر منهم أنّه لم يسبق لهم الانخراط في مجال السياسة، لكنّ شيئًا ما في حملتنا جعلهم يعتقدون أنّ الأمر يستحقّ المحاولة، وأنّهم يخطّطون للتطوّع في المكتب المحلّيّ للحملة، وأنّهم سيحاولون إقناع شركاء حياتهم، أو أحدًا من جيرانهم، لكي يأتي إلى الاجتماعات أيضًا.

بدت تلك التفاعلات طبيعيّة وحقيقيّة. كنت أعانق أولئك الأشخاص تلقائيًّا، وكانوا أيضًا يعانقونني بحرارة.

خلال تلك الفترة، اصطحبتُ ماليا إلى طبيب الأطفال الذي يشرف على الفتاتين، للاطمئنان على صحّتها، وهي زيارة نقوم بها كلّ ثلاثة أشهر وستّة، لمتابعة وضع مرض الربو الذي أصيبت به منذ أن كانت رضيعةً. أخبرني الطبيب بأنّ وضعها جيّد في ما يتعلّق بالربو، لكنّه حذرني من شيء آخر؛ قال أنّ مؤشّر كتلة الجسم لديها، وهو معيار يأخذ في الاعتبار الطول والوزن والعمر،

بدأ يرتفع تدرّجًا، وأضاف أنّ ذلك لا يشكّل أزمةً بحدّ ذاته، لكنّه مسار ينبغي عدم الاستهانة به. أكّد أنّنا إن لم نغيّر بعض عاداتنا، فسوف يتحوّل الأمر بمرور الوقت مشكلةً حقيقيّة، حيث سيزداد احتمال إصابتها بارتفاع ضغط الدم وبالسكّري من النوع الثاني. عندما لاحظ الطبيبُ علامات الفزع ترتسم على وجهي، طمأنني بالقول أنّ تلك المشكلة شائعةٌ وحلّها ممكن. فقد كان معدّل بدانة الأطفال يرتفع في أنحاء البلاد كلّها. وأردف أنّه عرف أمثلة كثيرة عن ذلك في مهنته، والتي أمضى معظمَها في أوساط الطبقة العاملة من الأفريقيّين الأميركيّين.

كان للأمر وقع الصاعقة. فقد كنت لا أدّخر جهدًا كي تكون الفتاتان سعيدتين وفي صحّة جيّدة. أين أخطأتُ؟ أيّ نوع من الأمّهات أنا، إن لم ألاحظ التغيير؟

بعد تبادل الحديث مع الطبيب، تكشَّفت أمامي الصورة العامّة للوضع الذي كنّا نعيشه. فبما أنّ باراك كان خارج المنزل أغلب الوقت، كانت السهولة والراحة هما العاملان المهمّان، والوحيدان، اللذان يحكمان خياراتي في المنزل. كنّا نأكل أغلب الأحيان خارج البيت. وفي النظر إلى عدم توفّر الوقت الكافي للطهو، كنت أشتري طعامًا جاهزًا في طريق العودة من العمل. وفي الصباح، كنت أملأ علبَ غداء الفتاتين بوجبات خفيفةٍ جاهزة وبعصائر محلّاة. أمّا في عطلة نهاية الأسبوع، فكنّا نمرّ بمطعم ماكدونالدز، بعد دروس الباليه وقبل كرة القدم. قال الطبيب أنّ أيًّا من الأمور التي ذكرتها لم يكن خارجًا عن المألوف، أو حتّى مروّعًا بحدّ ذاته، لكنّ المشكلة تكمن في الإفراط في الأمر.

من الواضح أنّ تغييرًا ما كان مطلوبًا، لكنّني كنت مشوّشة الأفكار بشأن كيفيّة إجراء التغيير. أيّ حلٍّ للمشكلة يتطلّب مزيدًا من الوقت: في محلّ البقالة، في المطبخ، في تقطيع الخضار أو في إزالة الجلد عن صدر دجاجة، كلّ ذلك كان خلال فترة كنتُ بأمس الحاجة إلى الوقت.

تذكّرت حديثًا دار قبل بضعة أسابيع بيني وبين صديقة قديمة لي التقيتها مصادفة على متن طائرة. ذكرَت فيه أنّها وزوجها وظّفا

شابًا يدعى سام كاس ليطهو لهما وجباتٍ صحّيّة في منزلهما على نحو منتظم. وللمصادفة، تذكّرتُ أنّني اجتمعت أنا وباراك بِسَام قبل سنوات، من طريق مجموعة أصدقاء لنا.

لم أتخيّل يومًا أن أوّظف شخصًا ليأتي إلى بيتي، ويُعدّ الوجبات لعائلتي. كان الأمر يبدو، نوعًا ما، تشبّهًا بالنساء المرفّهات، تصرّفًا من شأنه دفع أقاربي الذين يعيشون في الجانب الجنوبيّ من شيكاغو، إلى توجيه نظراتٍ جانبيّة تحمل في طيّاتها الارتياب. أمّا باراك، صاحب السيّارة الداتسون ذات الأرضيّة المثقوبة، فلم يتحمّس كثيرًا للفكرة؛ فهي لم تكن تتناسب مع ميل المنسّق المجتمعيّ فيه نحو التقشّف، ولا تتماشى مع الصورة التي يودّ الترويج لها عن نفسه كمرشّح رئاسيّ. أمّا أنا، فبدت الفكرة الخيار الوحيد المعقول عندي. كان شيء ما على وشك الانهيار. لم يكن في مقدور أحدٍ غيري إدارة برامجي في المستشفى. ولم يكن أحد غيري يستطيع مشاركة باراك الحملة بصفة زوجتِه. ولم يكن هناك أحد يستطيع الحلول محلّي والدة لِماليا وساشا حين يحين موعد نومهما. لكن، في إمكان سام كاس أن يطهو لنا بعض وجبات العشاء.

بدأ سام يأتي إلى منزلنا مرّتين في الأسبوع، ويطهو لنا وجبةً نتناولها مساء، وأخرى أستطيع إخراجها من الثلّاجة وتسخينها في اليوم التالي. بدا منظر سام غريبًا في منزل آل أوباما؛ رجل أبيض في السادسة والعشرين، برأس حليق لامع ولحية خشنة على الدوام، لكنّ الفتاتين اعتادتا النكاتَ المستهلكة التي كان يرويها بالسرعة ذاتها التي اعتادتا فيها الطعام الذي يعدّه. علّمهما كيفيّة تقطيع الجزر، وكيف تُسلَق الخضر. لم تعد عائلتنا تعتمد على الخضار المعروضة تحت الأنوار الساطعة في مخزن البقالة، بل رحنا نتبع إيقاع الفصول. فقد كان يحتفي بظهور البازلاء في فصل الربيع، أو باللحظة التي تنضجُ فيها ثمار توت العليق في شهر حزيران/يونيو. كان ينتظر ثمار الخوخ والدرّاق إلى أن تصبح وفيرة ومكتنزة، قبل تقديمها للفتاتين، وهو يدرك أنّها بذلك يمكن أن تقوم مقام الحلوى. وفضلًا عن ذلك، كان سام يمتلك وجهةَ نظر

تنمّ عن ثقافة في ما يتعلّق بمسائل الطعام والصحّة؛ بمعنى الأساليب التي تلجأ إليها شركات صناعة الأغذية لتسويق الأطعمة المصنّعة للعائلات بحجّة السهولة والراحة، والتداعيات الخطيرة لتلك الأساليب في ما يتّصل بالصحّة العامّة. أثار ذلك اهتمامي، فقد أدركت أنّه يتطابق مع بعض ملاحظاتي خلال عملي في المستشفى، ومع المساومات التي قمتُ بها شخصيًّا، بوصفي أمًّا عاملة تحاول تغذية أسرتها.

ذات مساء، أمضيتُ بعض الوقت أتحدّث إلى سام في مطبخي. تبادلنا الأفكار حول ما يمكن أن أستفيد منه في دوري كسيّدة أولى، في حال فوز باراك بالرئاسة، للتعامل مع القضايا المذكورة. كانت كلّ فكرة تقودنا إلى فكرة أخرى. ماذا لو زرعنا خضارًا في البيت الأبيض للمساعدة في الدعوات إلى تناول الأطعمة الطازجة؟ ماذا لو انطلقنا من تلك الفكرة، وجعلناها أساسًا لمشروع أكبر؛ مبادرةً كاملة تتعلّق بصحّة الأطفال، يمكن أن تساعد الأهل في تفادي المآزق التي وقعتُ فيها؟

تحدّثنا مطوّلًا. ثمّ نظرت إلى سام وتنهّدت، قلت له: «المشكلة أنّ رجلنا متخلّفٌ بثلاثين نقطة في الاستطلاعات». بدأنا نضحك، ثمّ أضفت: «لن يربح الانتخابات مطلقًا».

كان حلمًا، لكنّني أحببت ذلك الحلم.

وعلى صعيد الحملة، بدا كلّ يوم أشبه بماراثون جديد. كنت لا أزال أحاول الحفاظ على الاستقرار وعلى حياة طبيعيّة، نوعًا ما، ليس من أجل الفتاتين وحسب، بل من أجلي أنا أيضًا. كنت أحمل هاتفين من النوع بلاك بيري، واحدًا للعمل، والآخر لحياتي الشخصيّة وللالتزامات السياسيّة، مع أنّ المجالين، وعلى رغم المحاولات كلّها، تشابكا بشكلٍ وثيق. غدت مكالماتي اليوميّة مع باراك قصيرةً تقتصر على بعض الأسئلة: أين أنت؟ كيف تسير الأمور؟ ما أخبار الفتاتين؟ اعتدنا ألّا نتطرّق إلى الحديث عن التعب أو عن حاجاتنا الخاصّة. فقد بدا ذلك ضربًا من العبث، لأنّنا لم نعد نملك رفاهيّة الالتفات إلى تلك الحاجات. تحوّلت حياتنا آنذاك سباقًا محمومًا مع الوقت.

في المستشفى، كنتُ أبذل ما في وسعي لمتابعة مجريات الأمور، فأتحدّث أحيانًا مع فريق العمل، من المقعد الخلفي المليء بالأغراض المبعثرة للسيّارة تويوتا كورولا تعود إلى طالبٍ يدرس علم الإنسان تبرّع للمساعدة في آيوا، أو من زاويةٍ هادئة لمطعم بيرغر كينغ، في بليموث، في نيو هامبشير. وقد قرّرتُ بعد أشهر عدّة من إعلان باراك ترشّحه في سبرينغفيلد، وبدعمٍ من زملائي، تخفيضَ عدد ساعات دوامي بحيث أعمل دوامًا جزئيًّا، إدراكًا منّي أنّ تلك هي الطريقة العملية الوحيدة لأتمكّن من الاستمرار. أصبحنا، أنا وميليسا وكايتي، بعد السفر معًا يومين أو ثلاثة في كلّ أسبوع، أشبهَ بأسرةٍ نشيطة، نتقابل صباحًا في المطار، وننهي الإجراءات الأمنيّة بسرعة، إذ كان الحرّاس جميعهم يعرفون اسمي. صرت معروفة أكثر بين الناس، ومعظمهم من النساء الأفريقيّات الأميركيّات اللواتي كنّ ينادينني باسمي وأنا أمرّ بهنّ في طريقي إلى البوّابة.

تغيّرت الأمور تدرّجًا في البداية بحيث بدا من الصعب متابعتها. صرت أشعر أحيانًا، بأنّني أطفو في كونٍ غريب. ألوّح لأشخاص غرباء يتصرّفون كأنّهم يعرفونني. أركب طائراتٍ تنتزعني من عالمي المألوف. كنت أتحوّل شخصيّة معروفة، معروفة لأنّني زوجةُ رجل ما، ولأنّني شخصيّة منخرطة في العمل السياسيّ، وهو ما زاد غرابة الموقف.

اكتشفتُ أنّ التواصل مع الناس من وراء الحبل المخمل، خلال فعاليّات الحملة، كان أشبه بمحاولة الوقوف بثباتٍ في مهبّ إعصار؛ إذ يقف خلف الحبل أشخاصٌ غرباء متحمّسون طيّبون يمدّون أيديهم لمصافحتي وليلمسوا شعري. أشخاص يحاولون، من دون إنذار، إعطائي أقلامًا وآلاتِ تصوير وأطفالًا رضّعًا. كنت أبتسم لهم وأصافحهم، وأصغي إلى قصصهم وأنا أحاول المضي في سيري. ينتهي بي الأمر وقد غطّت وجنتَيّ آثار أحمر شفاه نساء أخريات، وارتسمت على قميصي طبعات الأيدي، كأنّني خرجت للتوّ من نفق هوائيّ.

بدأت أخشى في قرارة نفسي – مع أنّي لم أكن أملك الكثير

من الوقت للتفكير في الأمر – أنّ مع تنامي شهرتي كزوجة باراك أوباما، بدأت أجزاء أخرى من شخصيّتي تتلاشى. في أحاديثي مع الصحافيّين، ندر أن وجّهوا إليّ سؤالًا حول عملي. كانوا يصفونني بعبارة «خرّيجة هارفارد»، من دون أن يزيدوا على ذلك حرفًا. نشرَت مصادر إخباريّة قصصًا عنّي زعمَت فيها أنّني نلت ترقيةً في المستشفى الذي أعمل فيه بسبب تعاظم مكانة زوجي السياسيّة، لا نتيجة دأبي في العمل وجدارتي. آلمتني قراءة تلك المقالة. وفي أحد أيّام شهر نيسان/أبريل، اتّصلت بي ميليسا في المنزل لتخبرني عن عمودٍ فيه عبارات لاذعةً منشور في نيويورك تايمز، بقلم الصحافيّة مورين داود. أشارت إليّ الصحافيّة في المقال بعبارة «أميرة جنوب شيكاغو»، وقالت أنّني أشوّه صورة باراك عندما أتحدّث علنًا عن أنّه يترك جواربه مبعثرة في المنزل، أو أنّه لا يعيد الزبدة إلى الثلّاجة. بالنسبة إليّ، كان المهمّ أن يرى الناس في باراك إنسانًا عاديًّا، لا مخلّصًا آتيًا من عالم آخر. أعتقد أنّ مورين داود كانت، في ما يبدو، تفضّل التزام صورة الابتسامة المرسومة بعناية، ونظرات الهيام التي أرمق بها زوجي. شعرت بأنّ من الغريب والمحزن أن يصدر ذلك النقدُ اللاذع من امرأةٍ مهنيّة أخرى، امرأة لم تكلّف نفسها عناء التعرّف إليّ، بل حاولت صوغ قصّتي بأسلوبٍ ساخر.

حاولت ألّا أعتبر أمورًا من هذا النوع هجومًا شخصيًّا. ولكن، كان من الصعب أحيانًا أن أفعل.

مع كلّ فعاليّة كنّا ننظّمها في سياق الحملة، وكلّ مقالة تُنشر، وكلّ إشارة تدلّ على أنّنا نرسّخ وضعنا، كنّا نصبح أكثر انكشافًا للأنظار، وأكثر عرضةً للهجوم. بدأت الإشاعات المخبولة تطوّق باراك من كلّ حدب وصوب: قيل أنّه تلقّى علمه في مدرسة دينيّة إسلاميّة راديكاليّة، وأنّه أدّى قسم اليمين في مجلس الشيوخ على المصحف. وقيل أنّه كان يرفض تلاوة عهد الولاء، وأنّه لا يضع يده على قلبه عند عزف النشيد الوطني، وأنّ لديه صديقًا حميمًا، وهو إرهابيّ محلّيّ، منذ سبعينيّات القرن العشرين. وعلى رغم أنّ المصادر الإخباريّة المحترمة كانت تفضح زيف تلك الأكاذيب،

فقد ظلّت تنتشر عبر رسائل إلكترونيّة متسلسلة مجهولة المصدر، لا يرسلها إلّا بعضٌ من أصحاب نظريّة المؤامرة الغريبي الأطوار، بل أيضًا الأقارب والزملاء والجيران الذين لم يتمكّنوا من فصل الحقائق عن الأكاذيب في ما يُنشر على شبكة الإنترنت.

كانت سلامةُ باراك موضوعًا أتفادى التفكير فيه، ناهيك عن مناقشته. فقد نشأ كثر منّا وهم يسمعون ويرون قصص الاغتيالات في الأخبار المسائيّة. اغتيل الأخَوان كينيدي. واغتيل مارتن لوثر كينغ الابن. وأُطلقت النار على رونالد ريغان. واغتيل جون لينون. إذا أثارَ المرء انفعالاتٍ أكثر ممّا ينبغي، يصبح معرّضًا للخطر بشكلٍ ما. ولكن، إذا فكّرنا مليًّا، باراك كان رجلًا أسود، والخطر بالنسبة إليه لم يكن بالأمر الجديد. عندما كان الناس يثيرون مسألة السلامة، كنت أحيانًا أحاولُ تذكيرهم بأنّ باراك «يمكن أن يتعرّض لإطلاق النار وهو ذاهب إلى محطّة الوقود».

في بداية شهر أيّار/مايو، خُصِّصت لباراك حمايةٌ أمنيّة. وكانت تلك المرّةَ الأولى التي تُخصَّص حماية لمرشّح رئاسيّ باكرًا إلى هذا الحدّ، إذ لن يتمكّن من أن يصبح رئيسًا منتخبًا قبل عام ونصف. وفي ذلك، دليلٌ على طبيعة التهديدات التي كان يتعرّض لها ومدى خطورتها. صار باراك يتنقّل في السيّارة SUV السوداء الأنيقة التي خصّصتها له الحكومة، محاطًا بفريق من الرجال والنساء الذين يرتدون بذلاتٍ رسميّة، ومجهّزين بسماعات وبمسدّسات. كما كان أحد رجال الأمن يقف حارسًا على شرفتنا الأماميّة.

كنت نادرًا ما أشعر بأنّني مهدّدة. ومع استمرار تنقّلاتي، صرت أجتذب المزيد من الحشود. وإذا كنتُ في البداية أقابل عشرين شخصًا في حفلات منزليّة بسيطة، فقد صرت أتحدّث أمام مئات الأشخاص المتجمّعين داخل صالات رياضيّة في مدارس ثانويّة. وذكر القائمون على الحملة في آيوا أنّ أحاديثي كانت تجلب وعودًا كثيرة بالدعم (وكان ذلك يُقاس بعدد «بطاقات الدعم» الموقَّعة التي كان القائمون على الحملة يجمعونها ومن ثمّ يعودون إلى مراجعتها بدقّة). جاء وقتٌ بدأ القائمون على الحملة

يدعونني « The Closer» (المسؤولة عن إبرام الصفقات)، نظرًا إلى الأسلوب الذي ساعدت فيه الأشخاص على التوصّل إلى قرار.

في كلّ يومٍ كنت أتعلّم درسًا جديدًا حول كيفية التحرّك بفاعليّة أكبر، وفي تفادي التباطؤ بسبب المرض، أو بسبب مأزق من هذا النوع. فبعد أن قُدِّم لي طعامٌ لم أطمئنّ إلى جودته في أحد المطاعم الصغيرة والجميلة القائمة على جوانب الطرق، صرت أقدّر طعم التشيزبرغر الذي أتناوله في ماكدونالدز. وفي الطرق المليئة بالمطبّات بين المدن الصغيرة، تعلّمت كيف أحمي ثيابي بتناول وجبات خفيفة لا تتفتّت ولا تتسرّب منها السوائل، إذ لا يمكن أن أسمح بأن تُلتقط لي صورةٌ بوجود بقعة صغيرة من الحمّص المتبّل على ثيابي. عوّدت نفسي عدم الإسراف في شرب الماء، فقد لا يسمح الوقت أثناء تنقّلاتنا بدخول حمّام. تعلّمت أن أنام على رغم أصوات الشاحنات الكبيرة التي تنطلق بسرعة بعد منتصف الليل على الطريق السريع في آيوا، وتعلّمت (كما حصل في فندق كانت جدرانه رقيقة) تجاهُل عروسين كانا يحتفلان بليلةِ زفافهما في الغرفة المجاورة.

وعلى الرغم من كلّ ما عانيته أحيانًا من تقلّبات المزاج، إلّا أنّ العام الأوّل من الحملة حفلَ بذكريات دافئة، وبلحظات كنّا ننفجر فيها ضاحكين. كنت أصطحب ساشا وماليا عندما تسنح لي الفرصة. وقد أظهرت الفتاتان أنّهما تتحمّلان مشقّة السفر، وتسعدان به. في أحد الأيّام، كنّا في مهرجانٍ أقيم في الهواء الطلق في نيو هامبشير، اضطررتُ إلى ترك الفتاتين لتوجيه بعض الملحوظات ومصافحة المقترعين. عهدت بهما إلى أحد أعضاء فريق الحملة لتقوما بجولة لزيارةِ الأكشاك، وتجربة الألعاب قبل أن نعود إلى التجمّع من أجل التقاط بعض الصور لإحدى المجلّات. بعد مضي ساعة تقريبًا، لمحت ساشا وتملّكني الفزع. كانت وجنتاها وأنفها وجبهتها مغطاةً تمامًا بدهان أبيض ودهان أسود، بشكل وجهٍ مرسوم بدقّة. تحوّلَت دبّ باندا، وبدت بالغة الحماسة بذلك. قفزَت أفكاري بسرعةٍ إلى طاقم المجلّة الذي ينتظرنا، وإلى

جدول الأعمال الذي سيتأخّر. ثمّ نظرت ثانية إلى وجه الباندا الصغير وتنهّدت. كانت ابنتي تبدو فاتنةً وسعيدة. لم يكن في وسعي سوى الضحك، والذهاب إلى أقرب حمّام وإزالة الدهان عن وجهها.

أحيانًا، كنّا نسافر معًا، كعائلةٍ. استأجر القائمون على الحملة سيّارة كارافان لنا، بضعة أيّام في آيوا، لكي نقوم بجولاتٍ نزور فيها البلدات الصغيرة، وكنّا نلعب الـ Uno لدى الانتقال من محطة إلى أخرى. أمضينا بعد ظهر أحد الأيّام في مهرجان ولاية آيوا. ركبنا السيّارات المتصادمة، وصوّبنا مسدّسات ماء على الأهداف، لكي نكسب دمًى، بينما كان المصوّرون يحتشدون لاتّخاذ مواقعهم وتوجيه عدساتهم إلى وجوهنا. لكنّ التسلية الحقيقيّة بدأت عندما ذهب باراك إلى وجهته التالية، فتركني مع الفتاتَين ننعم بالحرّيّة بعيدًا عن إعصار الصحافة ورجال الأمن وفريق الحملة الذين يرافقونه. ما إن غادر باراك حتّى ذهبنا لاستكشاف منطقة الألعاب من دون أن يرافقنا أحد. كان الهواء يهبّ حولنا بسرعة، بينما كنّا ننحدر على الزلّاقة الصفراء الضخمة فوق أكياس الخيش.

كنت أعود إلى آيوا، أسبوعًا تلوَ آخر. أرقب تغيّر الفصول من نافذة الطائرة، عندما تكتسي الأرض اللون الأخضر تدرّجًا، وتنمو محاصيل فول الصويا والذرة في خطوط مستقيمة. كنت أحبّ ذلك الترتيب الهندسيّ في تلك الحقوِل، وظهور بقعِ لونٍ مفاجئة يتبيّن لاحقًا أنّها مخازن حبوب، والطرق السريعة المنبسطة التي تتّجه مباشرة نحو الأفق. بدأت أحبّ الولاية، مع أنّنا، وعلى رغم كلّ ما بذلناه من جهد، قد لا نتمكّن من الفوز فيها.

مضى ما يقارب العام وباراك وفريقه ينفقان الأموال من دون حساب في آيوا، لكنّ غالبيّة استطلاعات الرأي كانت تشير إلى أنّه ما زال يشغل المرتبة الثانية أو الثالثة بعد هيلاري وجون إدواردز. كان السباق محمومًا، لكنّ باراك كان يخسر. على الصعيد الوطنيّ، بدت الصورة أكثر قتامة: باراك لا يزال متخلّفًا عن هيلاري بخمس عشرة أو بعشرين نقطة. كنت أصطدم بتلك الحقيقة عندما أمرّ بشاشة تلفزيون إخباريّة في المطارات، أو في مطعم

نرتاح فيه خلال سير الحملة.

قبل أشهر من تلك الفترة، تملّكني الملل من التعليقات المغرضة التي كانت تُبَثّ باستمرار في قنوات CNN و MSNBC و Fox News، إلى حدٍّ دفعني إلى مقاطعة تلك القنوات، والتحوّل إلى أخرى تريح الأعصاب، مثل E! و HGTV. وهنا أودّ أن أؤكّد أنّه، وفي نهاية يوم حافل بالعمل، ليس ثمّة ما يريح المرء أكثر من مشاهدة شابٍّ وشابّة يعثران على منزل أحلامهما في ناشفيل، أو شابّة مقبلة على الزواج تختار ثوب زفافها.

والواقع أنّني لم أكن أثق في المحلّلين ولا في استطلاعات الرأي. كنتُ في قرارة نفسي على قناعة بأنّهم جميعًا على خطإ. فالجوّ الذي كانت تصفه استوديوات المدن، المعتزلة الواقع، لم يكن يماثل الجوّ الذي أجده في قاعات الكنائس وفي مراكز الترفيه في آيوا. لم يجتمع أولئك المحلّلون بفرق المدارس الثانويّة « Barack Stars» (نجوم باراك) الذين تبرّعوا بالعمل بعد تدريبات كرة القدم أو نادي التمثيل. وهم لم يصافحوا الجدّة البيضاء التي كانت تتخيّل مستقبلًا أفضل لأحفادها المختلطي العرق. ولا هم كانوا، في ما يبدو، واعين بوجود ماكينة عملاقة وهي مجموعة منظّماتنا العاملة على الأرض. فقد كنّا في صدد إنشاء شبكةٍ ضخمة للحملة على المستوى الشعبيّ – من مئتي شخص في سبعةٍ وثلاثين مكتبًا – هي الأكبر في تاريخ آيوا.

كان الشباب في صفّنا. فقد كانت مثاليةُ الشباب وطاقتهم، من عمر الثانية والعشرين إلى الخامسة والعشرين، هي المحرّك لمنظّمتنا، وقد تركوا كلّ شيءٍ وجاؤوا إلى آيوا للانضمام إلى الحملة، كلٌّ منهم يحمل شكلًا من أشكال الجينات التي دفعت باراك إلى تبنّي العمل التنظيميّ في شيكاغو، طوال السنوات الماضية. كانوا يتمتّعون بشجاعةٍ وبمهارات لم تؤخذ حتّى الآن في الاعتبار في استطلاعات الرأي. وفي كلّ مرّة قمت بزيارتهم، شعرتُ بفيض الأمل الذي ينتج من التعامل مع أشخاصٍ يحملون مشاعر صادقةً. أشخاص يمضون أربع ساعات أو خمسًا كلّ مساء، يقرعون الأبواب ويزورون المقترعين، وينظّمون شبكات

الداعمين في المدن الصغيرة والمحافظة، ويحفظون عن ظهر قلب تفاصيل موقف زوجي بشأن أماكن تربية الخنازير أو خطّته لإصلاح نظام الهجرة.

بالنسبة إليّ، كان الشباب الذين يديرون مكاتبنا الفرعيّة يمثّلون الجيل التالي من القادة. فهم لم يكونوا مرهقين، بالتالي شُحنوا حماسةً واتّحدوا. كانوا على علاقة مباشرة مع المقترعين، سواء عبر المكتب الفرعيّ الموجود في الشارع، أو عبر موقع إلكترونيّ نظّموا من خلاله اجتماعاتهم أو من خلال مجموعة الهواتف التي في حوزتهم. غالبًا ما قال باراك أنّ ما كنّا نفعله لم يكن يتعلّق بالانتخابات فحسب؛ بل يتعلّق بتحسين أسلوب العمل السياسيّ من أجل المستقبل، أي جعل السياسة أقلّ ارتهانًا للمال، وأسهل منالًا، وفي نهاية المطاف، مفعمةً بالأمل. وحتّى ولو لم نفز في الانتخابات، فقد كنّا نحرز تقدّمًا مهمًّا، أي أنّ عمل أولئك الشباب سوف يكون له، بطريقة ما، تأثيرٌ مهمّ.

مع اقتراب فصل الشتاء، أدرك باراك أنّ لديه فرصةً أخيرة لتغيير مسار السباق في آيوا، وذلك من طريق الحضور بقوّة في مأدبة عشاء جيفرسون-جاكسون، وهو تقليد سنويّ يقوم به الديمقراطيّون في كلّ ولاية. في آيوا، كانت المأدبة تقام أثناء الانتخابات الرئاسيّة، في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل ثمانية أسابيع من اجتماع ممثّلي الحزب المحلّيين في كانون الثاني/يناير، وكانت تغطّيها وسائل الإعلام الوطنيّة. كان من المقرّر أن يلقي كلّ مرشّح خطابًا – من دون أن تكون أمامه ملاحظاتٌ مكتوبة، أو ملقِّنٌ آليّ – وأن يحضر معه أكبر عدد ممكن من المؤيّدين. كانت المأدبة، عمومًا، بمثابة تجمّع حماسيّ تنافسيّ ضخم.

ظلّ معلّقو الأخبار في شاشات التلفزة، أشهرًا عدّة، يشكّكون في دعم سكّان آيوا باراك عندما سيحلّ موعد اجتماع الممثّلين المحلّيين. ولمّحوا إلى أنّ باراك، وعلى رغم كونه مرشّحًا ديناميكيًّا يتمتّع بشخصيّة استثنائيّة، لن يتمكّن من تحويل الحماسة أصواتًا. كان جوابنا هو الحشد الذي حضر إلى مأدبة

جيفرسون- جاكسون، إذ جاء ما يقارب الثلاثة آلاف من مؤيّدينا من أنحاء الولاية كلّها، وأظهر ذلك أنّنا منظّمون ونشيطون، وأقوى ممّا يعتقد الجميع.

في تلك الليلة، وجّه جون إدواردز، من على المنصّة، سيلًا من الانتقادات إلى هيلاري كلينتون، وتحدّث بتعابير مبطّنة عن أهمّيّة الإخلاص والجدارة بالثقة. اعترف جو بايدن مبتسمًا، بالحضور الصاخب والمؤثّر لمؤيّدي أوباما بعبارة تهكّميّة: «مرحبًا شيكاغو!». أمّا هيلاري التي كانت مصابة بالزكام، فقد استغلّت الفرصة للتهجّم على باراك. قالت: «التغيير يظلّ مجرّد كلمة، إذا لم نمتلك القوّة والخبرة اللازمتين لتحقيقه».

كان باراك آخر الخطباء. ألقى خطابًا مثيرًا المشاعر، دافع فيه عن رسالته الأساسيّة؛ وهي أنّ البلاد بلغت مرحلةً حاسمة، وهذه فرصةٌ لاتّخاذ خطوةٍ لا نتجاوز بها الخوف والفشل اللذين وسما إدارة بوش وحسب، بل نتجاوز أيضًا الأسلوب الاستقطابيّ الذي كانت تُمارَس به السياسة سابقًا، بما في ذلك طبعًا مرحلة إدارة كلينتون. قال باراك: «لا أريد أن أمضي العام المقبل، أو الأعوام الأربعة التالية، أخوض المعارك ذاتها التي خضناها خلال تسعينيّات القرن العشرين. أنا لا أريد تحريض أميركا الحمراء ضدّ أميركا الزرقاء. أريد أن أكون رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة».

ضجّت القاعة بالتصفيق، راقبته من الصفّ الأوّل، وكان الفخر يملأني.

ردّد: «أميركا، الآن لحظتنا. الآن لحظتنا».

في تلك الليلة، قدّم أداؤه إلى الحملة ما كانت بحاجة إليه بالضبط، وتقدّم موقعُه في السباق بسرعةٍ فائقة. فقد تقدّم في نصف الاستطلاعات التي أُجريت في آيوا. ولدى اقتراب موعد اجتماع الممثّلين المحليّين للحزب، كانت مكانته قد بدأت تقوى وتترسّخ.

خلال الأيّام التي أعقبت عيد الميلاد، أي قبل أسبوعٍ تقريبًا من انتهاء حملة آيوا، بدا أنّ نصف سكّان الجانب الجنوبيّ من شيكاغو جاء إلى صقيع دي موان. جاءَت والدتي وماما كاي، وحضر

شقيقي وكيلي وولديهما. سام كاس كان هناك أيضًا، وكذلك فاليري التي انضمّت إلى الحملة بداية الخريف بصفة مستشارةٍ لباراك. وأتت سوزان ومجموعةٌ من صديقاتي وأزواجهنّ وأطفالهنّ. شعرت بالتأثّر لمجيء زملائي في المستشفى، والأصدقاء في مكتب Sidley & Austin، وأساتذة القانون الذين درّسوا مع باراك. وتماشيًا مع مبادئ الحملة التي تسعى إلى استغلال كلّ لحظةٍ، التحق هؤلاء كافّة بالحملة للمساهمة في الترويج خلال المرحلة النهائيّة، وقدّموا التقارير بهذا الشأن إلى المكتب الفرعيّ المحلّيّ. قرعوا أبواب المنازل في طقس هبطت درجة الحرارة إلى الصفر، وعدّدوا مزايا باراك، وذكّروا الناس بوجوب حضور اجتماع الممثّلين المحليّين. اكتسبَت الحملة قوّة إضافيّة بانضمام مئاتٍ آخرين جاؤوا إلى آيوا من أنحاء البلاد كلّها، للمساهمة في نشاطات الأسبوع الأخير. كانوا يبيتون في غرف النوم الإضافيّة في منازل المؤيّدين المحليّين، ويتوجّهون كلّ يوم إلى البلدات الصغيرة، سائرين على طرق بعيدة مرصوفة بالحصى.

نادرًا ما كنت أذهب إلى دي موان، لأنّني كنت مضطرّةً آنذاك إلى المشاركة في خمس فعاليّات أو ستّ في اليوم، ما يعني السفر جيئةً وذهابًا عبر الولاية، داخل عربةٍ مغلقة مستأجرة، مع ميليسا وكايتي، تقودها مجموعةٌ من المتطوّعين بالتناوب. كان باراك أيضًا يقوم بنشاطات مماثلة، وقد بدأ صوته يصبح أجشّ.

مهما بلغت المسافات التي تعيّن عليّ اجتيازها، كنت أحرص كلّ ليلة على العودة إلى الفندق الذي اتّخذناه مقرًا، وهو ريزيدنس إن، الكائن غرب دي موان، في الساعة الثامنة، أي في موعد نوم ماليا وساشا. لم تكن الفتاتان، بالطبع، تلاحظان غيابي إلّا نادرًا، حيث كانتا تمضيان يومهما محاطتين بالأقارب والأصدقاء وجليسات الأطفال، وتتسليّان باللعب في غرفة الفندق، وتجولان في المدينة. في إحدى الليالي، فتحتُ الباب، وأنا أحلم في الارتماء على السرير لأنعمَ بلحظة هدوء، لأجد أواني المطبخ مبعثرة في الغرفة. كان هناك عددٌ من أدوات رقّ العجين فوق أغطية الأسرّة، وألواح تقطيع قذرة فوق الطاولة الصغيرة وسط

الغرفة، ومقصّ المطبخ على الأرض. أمّا المصابيح وشاشة التلفاز، فقد غطّتها طبقةٌ ناعمة مِن... هل كان دقيقًا؟

قالت ماليا: «علّمَنا سام صناعة الباستا! أعتقد أنّنا بالغنا قليلًا».

ضحكتُ. كان القلق يساورني خلال تلك الفترة، بشأن شعور الفتاتين في أوّل عيد ميلاد تمضيانه بعيدًا عن جدّة والدهما في هاواي. ولكن، ولله الحمد، بدا أن كيسًا من الدقيق في دي موان يشكّل بديلًا رائعًا من منشفة الشاطئ في وايكيكي.

بعد بضعة أيّام، حلّ موعد اجتماع الممثّلين، وكان يوم خميس. مررت وباراك بمطعمٍ صغير وسط مدينة دي موان لتناول الغداء. ثم زرنا مواقع عدّة لاجتماع أعضاء الحزب، لنحيّيَ أكبر عدد ممكن من المقترعين. مساء ذلك اليوم، انضممنا إلى مجموعةٍ من الأصدقاء وأفراد العائلة لتناول العشاء. شكرناهم جميعًا على ما قدّموه لنا من دعم خلال الأشهر الأحد عشر الجنونيّة، منذ أن أعلن باراك ترشّحه في سبرينغفيلد. غادرت المكان باكرًا لأعود إلى غرفتي في الفندق، استعدادًا للخطاب الذي سيلقيه باراك في وقت لاحقٍ من تلك الليلة، سواء ربحنا أم خسرنا. بعد لحظات، اندفعت كايتي وميليسا إلى الغرفة كالإعصار، تحملان آخر الأخبار من غرفة إدارة الحملة: «فزنا!».

غمرنا شعورٌ جامح بالفرح. ظللنا نصرخ إلى أن طرق رجال الأمن الباب ليتأكّدوا من أنّنا بخير.

في واحدة من أشدّ الليالي برودة من ذلك العام، انتشر عددٌ قياسيّ من سكّان آيوا في مراكز الاجتماع المحلّيّة، كان العدد ضعفَ عدد الحضور قبل أربع سنوات. فاز باراك في أوساط البيض والسود والشباب. لم يكن أكثر من نصف الحضور شارك قَطّ في أيٍّ من الاجتماعات السابقة. وقد ساعدت تلك المجموعة، على الأرجح، في ضمان فوز باراك. أخيرًا، توافد مذيعو الأخبار في محطّات التلفزة إلى آيوا، وبدأوا تمجيد ذلك العبقريّ السياسيّ الذي أحرز انتصارًا بهامشٍ مريح، على الماكينة الانتخابيّة لكلينتون، وعلى مرشّح سابقٍ لنيابة الرئاسة.

في تلك الليلة، وأثناء حفل إلقاء باراك خطابَ الفوز، وبينما كنّا

نحن الأربعة – باراك وأنا وماليا وساشا – نقف على المنصّة في قاعة Hy-Vee، غمرني شعورٌ رائع لم يخلُ من الندم. قلت في سرّي، كان كلّ ما تحدّث عنه باراك طوال سنوات، ممكنًا فعلًا. في المرّات كلّها التي ذهب فيها إلى سبرينغفيلد، مشاعر الإحباط كلّها التي شعر بها لأنّه لا يستطيع إحداث التأثير الكبير الذي يحلم فيه، أفكاره المثاليّة كلّها، إيمانه الغريب والمتّقد حماسةً بأنّ تجاوزَ الناس المظاهرَ التي تقسّمهم أمرٌ ممكن، وأنّه يمكن السياسة أن تؤتي ثمارها في نهاية المطاف؛ ربّما كان محقًّا طوال الوقت.

ما أنجزناه كان حدثًا تاريخيًّا، شيئًا عظيمًا؛ لم يكن إنجازًا تحقّق بفضل باراك فحسب، أو بفضلي فحسب، بل تحقّق بفضل ميليسا وكايتي، وبلوف وأكسيلرود وفاليري، وكلّ عضو من فريق عمل الحملة، وكلّ متطوّع، وكلّ مدرّس ومزارع ومتقاعد وطالب مدرسة ثانويّة، ممّن دعموا، في تلك الليلة، أفكارًا ما زالت جديدة.

عندما ذهبت وباراك إلى المطار لمغادرة آيوا، مدركين أنّنا لن نعود إليها قبل مضي أشهر، كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل. ذهبتُ مع الفتاتين إلى منزلنا في شيكاغو. عدتُ إلى العمل وعادت الفتاتان إلى المدرسة. سافر باراك إلى نيو هامبشير، حيث تقرّر أن تُجرى الانتخابات التمهيديّة خلال أقلّ من أسبوع.

أحدثَت آيوا تغييرًا في نفوسنا جميعًا. منحتني آيوا، أنا بالتحديد، إيمانًا حقيقيًّا. أصبحَت الرسالة التي نحملها هي إشراك البلد بأسره في ذلك الإيمان. خلال الأيّام التالية، ذهب منظّمو حملتنا المحلّيون في آيوا إلى ولايات أخرى – إلى نيفادا وكارولاينا الجنوبية، وإلى نيو مكسيكو ومينيسوتا وكاليفورنيا – لمتابعة نشر الرسالة التي ثبتت صحّتها، والقائلة أنّ التغيير كان ممكنًا بالفعل.

17

عندما كنتُ في الصفّ الأوّل، وبينما كنّا نصطف استعدادًا للذهاب لتناول الغداء، ونناقش أمورًا لا تهمّ سوى أطفال في السادسة أو السابعة من العمر – من نوع، من يركض أسرع من الجميع، أو لماذا تحمل أقلام التلوين أسماء غريبة – تلقّيت لكمة مفاجئة على وجهي. لكمني أحد زملائي في الصفّ، ولسبب ما زلت أجهله تمامًا. نسيت اسم الصبيّ، لكنّني لم أنسَ كيف نظرت إليه مشدوهة وقد شعرتُ بألم شديد. تورّمت شفتي السفلى فورًا وامتلأت عيناي دموعًا حارقة. ركضت إلى المنزل، حيث والدتي، مصدومةً إلى حدّ فاتني الشعور بالغضب.

وبّخت المدرِّسة الصبيّ. ذهبت والدتي إلى المدرسة لكي ترى الطفل، وتقيّم خطورة الوضع. ثارت ثائرة ساوث سايد، الذي كان في زيارتنا يومذاك، وتحرّكت مشاعره كجدّ فأصرّ على مرافقة والدتي إلى المدرسة. لم يطلعني أحد على تفاصيل ما حصل، ولكن دار حديث بين الكبار. عوقب الصبيّ، على نحو ما، واعتذر لي وهو يشعر بالخزي، وقيل لي ألّا أقلق بشأنه بعد تلك الحادثة.

في وقت لاحق، وبينما كانت والدتي تُعدّ طعام العشاء، قالت لي: «هذا الصبيّ يشعر بخوف وغضب نتيجة أمور لا دخل لك بها». ثمّ هزّت رأسها كأنّها توحي بأنّها تعرف أكثر ممّا ترغب في قوله، وأضافت: «الصبيّ يواجه مشكلات عدّة تخصّه وحده».

تلك كانت الطريقة التي عالجنا بها مشكلة التنمّر. عندما كنت

طفلة، كان من السهل عليّ فهْم الفكرة: الأولاد المتنمّرون هم أشخاص خائفون داخل أشخاص مخيفين. لاحظت ذلك في شخصيّة ديدي، الفتاة العنيفة التي تعيش في جوارنا، وحتّى في شخصيّة داندي، الذي كان يتصرّف أحيانًا بقسوة وعدوانيّة مع جدّتي. المتنمّرون يلجأون إلى الضرب والرفس نتيجة شعورهم بفقدان السيطرة على حياتهم. وأنت إمّا أن تتفاداهم، إن استطعت، أو تواجههم، إذا اضطررت. بالنسبة إلى والدتي التي كانت ترغب على الأرجح في أن تُنقش على شاهدة قبرها عبارة بمعنى «عِش ودعْ غيرك يعِش»، كانت الفكرة الأساسيّة هي عدم السماح، إطلاقًا، لإهانات المتنمّرين أو لتصرّفاتهم العدوانيّة بالتأثير فينا على الصعيد الشخصيّ.

وإن فعلنا ذلك، فقد يلحق بنا أذًى حقيقيّ.

لم تتحوّل هذه الحقيقة إلى تحدٍّ حقيقيّ إلّا في مرحلة لاحقة من حياتي. فلم أسترجع أحداث ذلك اليوم إلّا بعدما تجاوزت الأربعين من العمر وفيما كنت أحاول مساعدة زوجي في النجاح في انتخابات الرئاسة، إذ تذكّرت الإرباك الكبير الذي يشعر به المرء عندما يتعرّض لهجوم مباغت، والألم الذي يعانيه عندما يتلقّى لكمة من دون سابق إنذار.

أمضيت الشطر الأكبر من العام 2008، أحاول ألّا أقلق بشأن التعرُّض للّكمات.

سأنتقل بداية إلى حادثة مفرحة حصلت في العام نفسه، وهناك ذكريات كثيرة فيها سعادة. زرنا مدينة بوت، في مونتانا، في الرابع من تموز/يوليو الذي يصادف عيد ميلاد ماليا العاشر، أي قبل أربعة أشهر من الانتخابات العامّة. بوت مدينة صلبة عُرِفت عبر التاريخ بمناجم النحاس المنتشرة فيها، تقع على الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من مونتانا، تظهر منها من بعد قمم جبال روكي القاتمة. لم ترجّح في المدينة، كما في الولاية، كفّة الديمقراطيّين ولا كفّة الجمهوريّين، فكان القائمون على الحملة يجدون هناك فرصة للفوز. كانت مونتانا صوّتت لبوش في الانتخابات الأخيرة، لكنّها أيضًا انتخبت محافظًا ديمقراطيًّا. بدت المكان المناسب ليزوره

باراك.
كانت كلّ دقيقة من وقت باراك تحتسب بدقّة، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى. وكانت تصرّفاته تخضع للمراقبة والتقيّيم المستمرَّين. صار الناس يلاحظون الولايات التي زارها، والمطعم الذي تناول فيه وجبة الفطور، ونوع اللحم الذي طلبه مع البَيض. آنذاك، كان ما يقارب خمسة وعشرين صحافيًّا يرافقونه باستمرار، يملأون المقاعد الخلفيّة من طائرة الحملة، ويحتشدون في الممرّات وقاعات الفطور في فنادق المدن الصغيرة، ويتعقّبونه خطوة خطوة، فيما تدوِّن أقلامهم كلّ شيء. إن أصيب مرشّح بالزكام، كان الخبر يجِد طريقه إلى وسائل الإعلام، وإن دفع أحدهم مبلغًا كبيرًا لقاء قَصّة شعر، أو طلب خردل ديجون في مطعم تابع للسلسلة TGI Friday (كما فعل باراك، بسذاجة، قبل سنوات واستحقّ بذلك عنوانًا رئيسيًّا في الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز)، كان الخبر يُنشر ومن ثمّ يُحلّل بمئات الأساليب في شبكة الإنترنت. هل كان المرشح ضعيفًا؟ هل كان متباهيًا؟ هل كان مخادعًا؟ هل كان أميركيًّا حقيقيًّا؟
أدركنا أنّ ذلك كان جزءًا من اللعبة - اختبارًا لتبيّن ما إذا كان الشخص قادرًا على أن يكون زعيمًا ورمزًا للبلاد في آن. كان ذلك أشبه بتعريض الروح للتصوير بالأشعّة يوميًّا بحثًا عن أيّ إشارة قد تدلّ على قابليّة المرشّح لارتكاب الأخطاء. فلا يُمكن انتخاب شخص ما لم تتفحّصه نظرات الأميركيّين التي تراجع تاريخه بالكامل، بما في ذلك ارتباطاته الاجتماعيّة وخياراته المهنيّة وإقراراته الضريبيّة. ويمكن القول أنّ تلك النظرات كانت حادّة وقابلة للتلاعب بها أكثر من أيّ وقت مضى. كنّا ندخل عصرًا تُعدّ فيه النقرات وتحتسب قيمتها الماديّة. كان فايسبوك قد بدأ ينتشر، وتويتر جديدًا نسبيًّا. وكان الأميركيّون الراشدون، في معظمهم، يمتلكون هواتف خلويّة التي تضمّ، في غالبيّتها، آلات تصوير. كنّا ندخل في حقبة جديدة لا أظنّ أنّنا كنّا نفهم تداعياتها.
لم يعد باراك يحاول كسب دعم المقترعين الديمقراطيّين فحسب، بل صار يسعى إلى كسب المقترعين في أنحاء أميركا

كلّها. عقب اجتماعات ممثّلي الأحزاب المحلّيّين في آيوا، وهي مرحلة كانت أحيانًا قاسية وبغيضة، بقدر ما كانت مشجّعة وحاسمة أحيانًا أخرى، تنافس باراك وهيلاري كلينتون شتاء العام 2 وربيعه على العمل بدأب في كلّ ولاية وفي كلّ منطقة، وبذل كلّ منهما جهودًا مضنية لكسب الأصوات وكان كلّ منهما يأمل بأن يتمكّن من تحطيم المقاييس. (في حلول نهاية كانون الثاني/يناير، كان جون إدواردز وجو بايدن، والمنافسون الآخرون تراجعوا). اختبر كلّ من باراك وهيلاري كلينتون إمكانات الآخر بشراسة، وفي منتصف شهر شباط/فبراير، تمكّن باراك من إحراز تقدّم طفيف ثبت في النهاية أنّه كان حاسمًا. أحيانًا، كانت ماليا تسألني خلال الشهور التي تلت، عندما نقف على منصّة ما، بينما يصدح صوت الموسيقى الاحتفاليّة حولنا: «هل أصبح رئيساً الآن؟»، كان منطقها الطفوليّ عاجزًا عن استيعاب أيّ شيء عدا الهدف الأكبر.

«والآن، هل أصبح رئيسًا؟».

«كلا، يا عزيزتي، ليس بعد».

في شهر حزيران/يونيو، أقرّت هيلاري أخيرًا أنّها لا تملك العدد الكافي من الأصوات في أوساط الحزب، لكنّ تأخّرُها في إعلان ذلك كان قد تسبّب في خسارة جزء لا يستهان به من الموارد التي كانت مخصّصة للحملة، ما منَع باراك من إعادة توجيه معركته باتّجاه خصمه الجمهوريّ، جون ماكين. كان السيناتور المخضرم عن ولاية أريزونا قد أصبح المرشح المحتمل للحزب الجمهوريّ في شهر آذار/مارس، وأدار حملته بصفته بطل حرب، وصاحب مسار مستقلّ، له تاريخه في مجال التعاون بين الحزبين وخبرة عميقة في الأمن القوميّ، ما يعني ضمنًا أنّه سيتبنّى نهجًا في قيادة البلاد مختلفًا عن نهج جورج دبليو بوش.

ذهبنا إلى مدينة بوت في الرابع من تموز/يوليو لهدفين، فقد أضحى كلّ شيء وقتذاك بهدفين. كان باراك أمضى الأيّام الأربعة السابقة يشارك في الحملة في ولايات ميسوري وأوهايو وكولورادو وداكوتا الشماليّة. لم يعد هناك متّسع من الوقت كي يتمكّن من المجيء للاحتفال بعيد ميلاد ماليا، كما أنّه لم يكن

ليستطيع التسلّل بعيدًا عن أنظار المقترعين في اليوم الذي يحمل الرمزيّة الكبرى في البلاد. عوضًا عن ذلك، استقللنا الطائرة متّجهين إليه، في محاولة للتسوية بين أمرين – أي يومًا عائليًّا نمضي الجزء الأكبر منه تحت أنظار الناس. رافقتنا مايا، أخت باراك غير الشقيقة، وزوجها كونراد وابنتهما سهيلة، وهي طفلة جميلة في الرابعة من عمرها.

ما من شكّ في أنّ الأهل الذين يرزقون طفلًا في يوم عيد وطنيّ يدركون أهمّيّة خلق توازن بين الاحتفال الشخصيّ والاحتفالات الوطنيّة. ويبدو أن سكّان بوت اللطفاء يعون ذلك. فقد ألصقوا عبارة «عيد ميلاد سعيدًا ماليا!»، على واجهات المحالّ كلّها على طول شارع Main. وكان الواقفون إلى جوانب الطرقات يمطرونها بالأمنيات الطيّبة وهم يصرخون لتُسمع أصواتهم فوق قرع الطبول وعزف آلات الفلوت لحنَ Yankee Doodle، بينما كنّا، كأسرة، جالسين في مقاعدنا نشاهد مرور موكب الرابع من تموز/يوليو في المدينة. كان الأشخاص الذين نقابلهم لطيفين مع الفتاتين ويعاملوننا نحن باحترام، حتى حين كانوا يعترفون بأنّ الاقتراع لمصلحة أيّ مرشّح ديمقراطيّ سيكون تخلّيًا عن التقاليد.

نظّم القائمون على الحملة في ذلك اليوم حفل غداء في حقل يُطلّ على الجبال التي تحدّد خطّ تقسيم المياه بين الأميركتين. كان يُراد منه أن يشكّل تجمّعًا جماهيريًّا يضمّ مئات عدّة من مؤيّدينا على الصعيد المحلّيّ واحتفالًا عفويًّا بعيد ميلاد ماليا. تأثّرت عندما رأيت أعداد الناس الذين حضروا لمقابلتنا، وفي الوقت نفسه، شعرت بشيء أكثر حميميّة وأهمّيّة لا علاقة له بالمكان الذي كنّا فيه. آنذاك، دهمني فجأة شعور بالحنان الممزوج بالذهول الذي يشعر به الأهل عندما يكتشفون فجأة أنّ أطفالهم الصغار أوشكوا على النضوج، وأنّ تلك الأطراف القصيرة المكتنزة طالت وأصبحت نحيلة، وأنّ الحكمة قد بدأت تلمع في العيون.

كان يوم الرابع من تموز/يوليو العام 2008، بالنسبة إليّ، المرحلة المفصليّة الأهم في حياتنا: فقبل عشر سنوات، دخلت وباراك طبقة الولادة في المستشفى، ونحن نعتقد أنّنا نعرف الكثير عن

العالم، لكنّني اكتشفت أنّنا لم نكن، فعليًّا، نعرف أيّ شيء.
كنت قد أمضيت القسم الأكبر من السنوات العشر السابقة أحاول إحداث توازن بين عائلتي وعملي، وأسعى إلى إيجاد طريقة تمكّنني من أن أكون أمًّا محبّة حاضرة على الدوام لماليا وساشا، وإنسانة لائقة في عملي. لكنّ توازن الأمور اختلّ: تحوّل اهتمامي محاولةَ إيجاد توازن بين واجباتي كأمّ وشيء مختلف تمامًا وأكثر إرباكًا – السياسة، أميركا، سعي باراك إلى إنجاز أمر مهمّ. كانت الأمور حولي تتطوّر بوتيرة سريعة: أهمّيّة ما يحصل في حياة باراك، تزايد متطلّبات الحملة والأضواء المسلّطة على عائلتنا. قررت، بعد انتهاء اجتماعات ممثلّي الأحزاب المحلّيّين في آيوا، الحصول على إجازة غير مدفوعة الأجر من عملي في المستشفى، حيث أدركت أنّني لن أتمكّن من البقاء في وظيفتي والعمل بفاعليّة. كانت الحملة تستحوذ تدرّجًا على كلّ شيء. فقد كنت مشغولة بعد زيارة آيوا إلى حدٍّ عجزت معه عن الذهاب إلى المستشفى لجمع أغراضي أو لوداع زملائي على نحو لائق. أصبحت أمًّا وزوجة دوامًا كاملًا، ولو أنّني كنت زوجة أحمل قضيّة وأمًّا ترغب في حماية ابنتيها من الانجراف وراء تلك القضيّة. أحسست بالغصّة لترك العمل، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر: كانت عائلتي بحاجة إليّ، وهو الأهمّ.
هأنذا في حفل غداء نظّمه القائمون على الحملة في مونتانا، أتصدّر مجموعة من الأشخاص، غرباء في معظمهم، لأغنّي معهم «عيد ميلاد سعيدًا» لماليا التي كانت تجلس مبتسمة على العشب تتناول الهمبرغر. كنت أعلم أنّ المقترعين يرون في ماليا وساشا فتاتين حلوتين، وفي ترابط أسرتنا شيئًا محبّبًا. لكنّني غالبًا ما تساءلت عن رأي الفتاتين في ذلك كلّه، وعن نظرتيهما إلى العالم الخارجيّ. حاولت تخفيف وطأة شعوري بالذنب. فقد كان من المقرّر إقامة حفل عيد ميلاد حقيقيّ خلال عطلة نهاية الأسبوع المقبلة، حفل يضمّ مجموعة كبيرة من صديقات ماليا تمضي الليل في منزلنا بشيكاغو، بعيدًا عن السياسة. وفي ذلك المساء، كنّا سنقيم حفلًا أكثر خصوصيّة في الفندق. مع ذلك،

وخلال بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كانت الفتاتان تركضان في أرجاء الحقل، وأنا وباراك نصافح المقترعين المحتملين ونعانقهم، تساءلت في سرّي عمّا إذا كانت الفتاتان ستستعيدان ذكرى هذه النزهة بوصفها يومًا ممتعًا.

كنت أراقب ماليا وساشا، خلال تلك الأيّام، بينما تخالجني مشاعر جديدة حادّة. فقد غدت الفتاتان، مثلي، عرضة لأن يناديهما غرباء باسميهما، ولأن يرغب الناس في لمسهما والتقاط صور بصحبتهما. وكانت الحكومة قرّرت، خلال فصل الشتاء، أنّني أصبحت، والفتاتين، عرضة للخطر وخصّصت لنا حماية أمنيّة. فكانت ساشا وماليا تتوجّهان إلى المدرسة أو إلى المخيّم الصيفيّ النهاريّ، عادة مع والدتي بسيّارتها، وتتبعهما سيّارة رجال الأمن.

خلال حفل الغداء هذا، كان كلّ منّا يسير برفقة رجل الأمن المولج حمايته، الذي يجول بنظره بين الجموع بحثًا عن أيّ إشارة تنبئ بوجود تهديد، ويتدخّل بلباقة إذا بالغ أحد الأشخاص، بحسن نيّة، في إبداء حماسته وحاول الإمساك بنا. ولحسن الحظّ، لم تكن الفتاتان تعتبران رجال الأمن حرّاسًا بل أصدقاء راشدين، أشخاصًا إضافيّين ضمن المجموعة المتنامية من الناس الودودين الذين نسافر بصحبتهم، لا يميّزهم سوى سماعات الأذن واليقظة الهادئة التي يتصرّفون بها. كانت ساشا تسمّيهم «الأشخاص السرّيّين».

حوّل وجودُ الفتاتين الحملةَ فترةَ أكثر استرخاء، لأنّهما لم تكونا تعيران النتيجة اهتمامًا كبيرًا. كان وجودهما يثير ارتياحي أنا وباراك، لأنّه يذكّرنا بأنّ عائلتنا، في نهاية المطاف، أهمّ من حساب عدد المؤيّدين أو من التخبّط في نتائج استطلاعات الرأي. لم تُبدِ أيٌّ من الفتاتين اهتمامًا بذلك الصخب كلّه المحيط بوالدها. ولم يكن تفكيرهما منصبًّا على نشر ديمقراطيّة أفضل، أو على الوصول إلى البيت الأبيض. كلّ ما كانتا ترغبان فيه فعلًا (فعلًا، فعلًا) هو الحصول على كلب صغير. كانتا تحبّان تمضية الأوقات التي يسودها الهدوء في اللهو أو لعب الورق مع موظّفي الحملة.

المهمّ بالنسبة إليهما كان العثور على محلّ لبيع المثلّجات في كلّ مكان جديد تزورانه. كلّ ما تبقّى مجرّد تفاصيل.

ما زلت وماليا حتّى اليوم نضحك عندما نستذكر قصّة حصلت عندما كانت في الثامنة من عمرها. فانطلاقًا من شعوره بالمسؤوليّة، طرح عليها باراك في إحدى الليالي وهو يضعها في فراشها سؤالًا: «ما رأيك إن رشّح والدك نفسه لرئاسة الجمهورية؟ هل ترينها فكرة صائبة؟».

أجابت، وهي تطبع قبلة سريعة على وجنته: «طبعًا يا أبي». كان قراره الترشّح، في تلك اللحظة، سيقلب حياتها رأسًا على عقب، ولكن كيف لها أن تعلم؟

انقلبت على جنبها الآخر، واستغرقت في نوم عميق.

خلال اليوم الذي أمضيناه في مدينة بوت، زرنا متحف النحاس، وخضنا معركة بمسدّسات الماء، وركلنا الكرة فوق العشب. ألقى باراك خطابًا موجزًا كما في كلّ مكان يزوره، وصافح العدد المألوف من الأيدي، لكنّه عاد ليلوذ بأسرته. كانت ساشا وماليا تلاعبانه وهما تضحكان وتثيران البهجة في نفسه بأفكارهما. رأيت ابتسامته المشرقة، وشعرت بالإعجاب لقدرته على تجنّب العوامل الخارجيّة التي قد تشتّت انتباهه كي يكون فحسب أبًا عندما تتاح له الفرصة. راح يتجاذب أطراف الحديث مع مايا وكونراد ويحيطني بذراعه ونحن نسير من مكان إلى آخر.

لم يتَح لنا وقت ننفرد فيه ببعضنا بعضًا. كنّا محاطين على الدوام بالموظّفين والحرّاس الأمنيّين والصحافيّين الذين ينتظرون إجراء مقابلة معنا، وحشد من الناس يلتقط لنا صورًا من بُعد. أصبح ذلك الوضع الطبيعيّ بالنسبة إلينا. فخلال الحملة، صارت أيّام حياتنا مبرمجة إلى درجة أنّه لم يعد لدينا أيّ خصوصيّة أو استقلاليّة. سلّمنا جوانب حياتنا كلّها، تقريبًا، إلى مجموعة من شبّان وشابّات لم يتجاوزوا العشرينيّات من العمر يتمتّعون بالذكاء الحادّ والكفاءة العالية، لكنّهم لم يكونوا يدركون مدى الألم الذي يتسبّب فيه عدم الإمساك بزمام الأمور في حياتك. إذا احتجت إلى شيء من المتجر، كنت أضطرّ إلى الطلب من أحدهم إحضاره. وإذا رغبت

في الحديث مع باراك، عادة ما كنت أضطرّ إلى إرسال طلب من طريق أحد أفراد طاقمه. أحيانًا، كانت تبرز في برنامج مواعيدي فعاليّات ونشاطات لا أعرف عنها شيئًا.

تعلّمنا تدرّجًا أن نعيش حياتنا بصورة علنيّة، وأن نتقبّل هذا الواقع.

قبل انتهاء بعد ظهر ذلك اليوم في بوت، أُجريَت معنا نحن الأربعة – أنا وباراك والفتاتان – مقابلة تلفزيونية، وهو أمر لم يسبق لنا القيام به. كنّا في العادة نحرص على إبعاد الصحافيّين من طفلتينا، ولا نسمح سوى بتصويرهما، وفي الفعاليّات العامّة التي تُنظَّم في إطار الحملة فحسب. لا أدري ما الذي دفعنا إلى الموافقة في تلك المرّة. وأذكر يومذاك أن موظّفي الحملة ارتأوا أنّ تقديم لمحات عن باراك كأب، من كثب، إلى الجمهور، سوف يكون له وقع لطيف، وخيّل إليّ لحظتذاك أنّ لا ضير في ذلك. فباراك يحبّ ابنتينا، وهو يحبّ الأطفال كافّة، وهذا بالضبط ما سيجعل منه رئيسًا عظيمًا.

بقينا خمس عشرة دقيقة تقريبًا مع ماريا مينونوس، مقدّمة برنامج Access Hollywood، نتحدّث ونحن نجلس سويًّا على مقعد في إحدى الحدائق زُيّن بقطعة من القماش. كان شعر ماليا مضفورًا وارتدت ساشا ثوبًا أحمر من دون أكمام. بدت الفتاتان، كعادتهما، ساحرتي الجمال. كانت مينونوس مهذّبة، وحافظت على الجوّ اللطيف للمقابلة بينما راحت ماليا، الأستاذة الصغيرة في عائلتنا، تفكّر بعمق في كلّ سؤال. قالت أنّ والدها يحرجها أحيانًا عندما يحاول مصافحة صديقاتها وأنّه يضايقنا جميعًا عندما يترك أمتعته الخاصّة بالحملة في المنزل أمام الباب تسدّ الطريق. بذلت ساشا ما في وسعها لتجلس بهدوء وتحافظ على تركيزها، قطعت مسار المقابلة مرّة واحدة حين التفتت إليّ وسألتني: «متى سنشتري مثلّجات؟». وما عدا ذلك، فقد أصغت ساشا إلى شقيقتها، وتدخّلت أحيانًا في الحديث لتدلي بتفاصيل خطرت لها من دون أن تكون مرتبطة بالموضوع. قالت في نهاية المقابلة، كأنّها تفشي سرًّا: «كان والدي يصفّف شعره بتسريحة أفريقيّة»،

وهو ما أثار ضحكنا جميعًا.

أُذيعت المقابلة، بعد بضعة أيّام، على أربعة أجزاء في قناة ABC، وأثارت حماسةً كبيرة، ثمّ غطّتها بقيّة الوسائل الإعلاميّة الإخباريّة مع عناوين مبالغ فيها، مثل «إزاحة الستار عن ابنتي أوباما في مقابلة تلفزيونية»، و«ابنتا أوباما الصغيرتان تكشفان كلّ شيء». فجأة، بدأت الصحف في أنحاء العالم كلّه تجمع الملاحظات الطفوليّة التي قالتها ماليا وساشا.

سرعان ما شعرت أنا وباراك بالندم لما فعلناه. لم تكن المقابلة تتضمّن ما يسيء، ولم يُطرَح أيّ سؤال يمكن استغلاله، ولم يدلِ أيّ منّا بتفصيل خاصّ يكشف أمرًا ما. على رغم ذلك، شعرنا بأنّنا اتّخذنا قرارًا خاطئًا، جعلنا الفتاتين تتحدّثان علنًا قبل أن تدركا فعلًا ما يعني ذلك. لم تتضمّن المقابلة ما من شأنه إيذاء ساشا أو ماليا، لكنّ ما قالتاه انتشر في العالم، وسوف يظلّ إلى الأبد في شبكة الإنترنت. ما فعلناه هو أنّنا أخذنا طفلتين لم تختارا هذا النوع من الحياة، ومن دون أيّ تفكير في العواقب، ووضعناهما في فم الذئب.

في تلك الفترة، كنت عرفت أمورًا عن فم الذئب. كنّا نعيش تحت المجهر. أضفى ذلك طاقة غريبة على كلّ شيء. بعثت إليّ أوبرا وينفري برسائل مشجّعة. وبدأ ستيفي وندر، النجم الذي أحببته كثيرًا في طفولتي، حضور الفعاليّات التي تنظّمها الحملة ليعزف ويروي النوادر ويناديني باسمي الأول كأنّنا يعرف بعضُنا بعضًا منذ وقت طويل. كان ذلك الاهتمام كلّه مربكًا، لا سيّما لأنّني شعرت بأنّنا، في الواقع، لم نفعل الكثير لنكون جديرين به. ما من شكّ في أنّ قوّة الرسالة التي يقدّمها باراك جعلتنا نتبوّأ تلك المكانة، هذا فضلًا عمّا تنطوي عليه اللحظة من وعد ورمزيّة. إذا انتخبت أميركا أوّل رئيس جمهوريّة أسود لها، فلهذا الأمر دلالات لا تقتصر على باراك فحسب، بل تتعدّاه إلى البلد بأسره. وكان ذلك يعني الكثير بالنسبة إلى كثر من الأشخاص، ولأسباب متعدّدة.

تحمّل باراك، بالطبع، القسط الأكبر من ذلك – مجاملة الناس ونظرات التدقيق الدائمة التي تتبعه. كلّما ازدادت شعبيّتك، ازداد

كارهوك. ويبدو ذلك تقريبًا قاعدة متعارفًا عليها، بخاصّة في السياسة، حيث يستثمر الخصوم المال في التنقيب داخل حياة معارضيهم – فيعيّنون التحرّيين للتسلّل إلى كواليس حياة المرشّح في جوانبها كلّها بحثًا عن أيّ شيء قد يشي بالقذارة.

نتّسم أنا وزوجي بطبيعتين مختلفتين، وهذا ما جعل أحدنا يختار السياسة والآخر يحجم عن ذلك. كان باراك يعي تمامًا انتشار الإشاعات والانطباعات الخاطئة التي كانت تسمّم أجواء الحملة، لكنّه نادرًا ما كان يسمح لذلك بتعكير صفوه. فقد سبق له أن تجاوز المصاعب التي اعترت الحملات الأخرى. كما أنّه درس التاريخ السياسيّ وهيّأ نفسه لما قد تمليه السياسة. باراك، عمومًا، ليس بالشخص الذي يسمح لأمور غير ملموسة، كالشكّ أو الأذى، بأن تضايقه أو أن تصرف انتباهه عن المسار الذي اخطّته لنفسه.

في المقابل، كنت أنا لا أزال في طور اكتشاف الحياة العامّة. ومع أنّني كنت أعتبر نفسي امرأة ناجحة جديرة بالثّقة، فإنّني كنت أيضًا الطفلة التي ردّدت لمن حولها أنّها ستصبح طبيبة أطفال وواظبت على الدراسة. في عبارة أخرى، أنا أقيم وزنًا لرأي الناس. أمضيت فترة شبابي أسعى إلى الفوز باستحسان مَن حولي، أجمع النجوم الذهب وأتفادى المواقف الاجتماعيّة المربكة والصعبة. تعلّمت بمرور الوقت ألّا أقيّم احترامي لنفسي على أساس معايير مقولبة وإنجازات محدّدة، لكنّني ظللت أميل إلى الاعتقاد أنّني إذا عملت بدأب وصدق، فسوف أتفادى المتنمّرين وسوف يراني الناس دائمًا على ما أنا عليه.

كنت على وشك أن أغيّر قناعتي هذه.

بعد فوز باراك في آيوا، أصبحت الحماسة التي أبديها خلال الحملة أكبر، حماسة تليق بالأشخاص الذين كانوا يحضرون التجمّعات الشعبيّة. فقد ازداد عدد الأشخاص الذين يشاركون في الفعاليّات التي أشارك فيها من بضع مئة إلى ألف شخص أو أكثر. أذكر أنّني وصلت ذات يوم مع ميليسا إلى مقرّ فعاليّة كنّا ننظّمها، في ديلاوير، ورأيت طابورًا طويلًا من الناس يحيط بالمبنى في

انتظار دخول القاعة التي كانت مزدحمة أصلًا. أذهلني المشهد وأشعرني بالسعادة في آن واحد. اعتدت أن أعبّر أمام كلّ حشد قابلته عن مدى امتناني لما يضيفه الناس إلى حملة باراك من حماسة ومشاركة كثيفة، ولمدى الثقة التي أولونا إيّاها من دون حساب، ولكلّ ما يقومون به لمساعدة باراك في الفوز في الانتخابات.

كنت ألقي كلمةً موجزة في كلّ مكان أزوره، وقد وضعت خطوطًا عريضة لها وتركت المجال لعفويّتي التي عُرِفتُ بها في آيوا، فلم أكن أستعين بالملقّن الآليّ أو أشعر بالقلق إن خرجت قليلًا عن الموضوع. لم تكن كلماتي منمّقة، ولم أكن أتمتّع ببلاغة زوجي، لكنّني تكلّمت بصدق. شرحت كيف تلاشت مخاوفي من السياسة تدرّجًا بمرور الأسابيع، وكيف حلّت محلّها مشاعر مشجِّعة تبعث الأمل. بدأتُ أدرك أنّ كثرًا منّا عاشوا الصراعات نفسها، وراودتهم مشاعر القلق نفسها بشأن أطفالهم ومستقبلهم. بالتالي، كان أشخاص كثيرون يؤمنون، مثلما أؤمن أنا، بأنّ باراك هو المرشّح الوحيد القادر على إحداث تغيير حقيقيّ.

كان باراك يرغب في سحب القوات الأميركيّة من العراق، وكان يريد التراجع عن التخفيضات الضريبيّة التي نجح جورج دبليو بوش في إقرارها لمصلحة الأثرياء، كما كان يودّ تأمين رعاية صحّيّة للأميركيّين كافّة. ما من شكّ في أنّ برنامجًا كهذا يُعتبر طموحًا، لكنّني في كلّ مرّة دخلت قاعة يحتشد فيها المؤيّدون المتحمّسون، كنت أشعر بأنّنا، كأمّة، جاهزون لتجاوز اختلافاتنا وتحقيق ذلك البرنامج. ملأ الفخر تلك القاعات، وغمرها شعور بالاتّحاد بغضّ النظر عن اختلاف لون البشرة. كان التفاؤل كبيرًا وشحنني طاقة، ودفعني إلى المُضيّ قُدُمًا. وفي كلّ محطّة وقفت فيها، قلت للناس: «نحن نستعيد الأمل!».

في أحد أيّام شهر شباط/فبراير، وكنت في ويسكونسن، تلقّت كايتي مكالمة من أحد العاملين في فريق التواصل الخاصّ بباراك يقول فيها أنّ ثمّة مشكلة حصلت: يبدو أنّني تفوّهت بكلمات مثيرة الجدل في خطاب ألقيته في ميلووكي قبل بضع ساعات.

ارتبكت كايتي وكذلك أنا. لم يكن ما قلته في ميلووكي يختلف كثيرًا عمّا أنهيت قوله للتوّ أمام حشد في ماديسون، الذي لم يختلف أيضًا عمّا ردّدته طوال أشهر أمام كلّ حشد قابلته. لم تكن هناك أيّ مشكلة في السابق. فلماذا الآن؟

في وقت لاحق من ذلك اليوم، فهمنا ما كانت المشكلة. كان أحدهم قد صوّر خطابي الذي استغرق قرابة الأربعين دقيقة وحرّره واختزله إلى نسخة من عشر ثوان، مجرّدًا الخطاب من سياقه ومركّزًا على كلمات محدّدة.

فجأة، بدأت تنتشر مقتطفات من كلمتي في ميلووكي وماديسون، تركِّز على الجزء الذي أقول فيه أنّني أشعر بالفخر والارتياح. وقد جاء في كلمتي يومذاك: «اكتشفنا خلال هذا العام أنّنا نستعيد الأمل! دعوني أقُلْ لكم أمرًا، المرّة الأولى في حياتي كراشدة، أشعر فعلًا بأنّني فخورة ببلدي. ليس بسبب النجاح الذي يحرزه باراك فحسب، بل لأنّني أعتقد أنّ الناس يتوقون إلى التغيير. كنت أتحرّق شوقًا لرؤية بلدنا يسير في هذا الاتّجاه، وللإحساس بأنّني لست وحدي من تشعر بالإحباط وبخيبة الأمل. اجتمعت بأشخاص يتوقون للتوحُّد حول قضايا أساسيّة مشتركة، وهو ما يشعرني بالفخر. إنّني محظوظة كوني أشهد ذلك».

انتُزع كلّ ذلك من كلامي، بما فيه إشارتي إلى الأمل والوحدة ومدى تأثّري بهما. أزيلت ظلال المعاني كلّها وتمّ التركيز على شيء واحد. ما تضمّنته المقتطفات – التي قيل لنا أنّها تتسرّب بسرعة وتنتشر عبر البرامج الحواريّة التلفزيونيّة والإذاعيّة المحافظة – هو الآتي: «المرّة الأولى في حياتي كراشدة، أشعر فعلًا بأنّني فخورة ببلدي».

لم أكن بحاجة إلى سماع الأخبار لأعرف ما يتمّ تداوله. إنّها تفتقر إلى الشعور الوطنيّ. لطالما كرهت أميركا. تلك هي حقيقتها. وما تبقّى لا يعدو كونه تظاهرًا.

جاءت اللكمة الأولى. بدا أنّني تسبّبت فيها. فقد فاتني، في محاولتي التكلّم بعفويّة، إدراك مدى أهمّيّة كلّ عبارة مهما صغرت. قدّمت للكارهين، من دون أن أعي، وليمة حافلة من أربع

عشرة كلمة. وكما حصل معي في الصفّ الأوّل، لم أتنبّه للكمة وهي تُوجَّه إليّ.

عدت في تلك الليلة إلى شيكاغو، يملأني الشعور بالذنب والإحباط. كنت أعرف أنّ ميليسا وكايتي رصدتا الأنباء المزعجة، بهدوء، عبر هاتفيهما البلاك بيري، لكنّهما حرصتا على ألّا تبلغ مسامعي كيلا تتفاقم الأمور. كنّا ثلاثتنا، آنذاك، عملنا سويًّا طوال الشطر الأكبر من العام، سافرنا كيلومترات لا نستطيع إحصاءها، نسابق الزمن طوال الوقت كي أعود إلى المنزل مساء من أجل الفتاتين. تنقّلنا بصعوبة بين قاعات متفرّقة في أنحاء البلاد كلّها، وتناولنا وجبات سريعة أكثر ممّا نرغب، وذهبنا إلى حفلات باذخة لجمع التبرّعات في منازل تبدو عليها مظاهر الثراء إلى درجة أنّنا كنّا نبذل جهدًا كيلا نحملق حولنا ببلاهة. وفي حين كان باراك وفريق حملته يسافران في طائرات خاصّة مستأجرة وفي حافلات مريحة، كنّا ثلاثتنا نخلع أحذيتنا ونحن واقفات في طابور طويل بطيء ننتظر دورنا لإنهاء الإجراءات الأمنيّة في أحد المطارات، ونسافر في الدرجة السياحيّة على متن رحلات United و Southwest، ونعتمد على المتطوّعين في نقلنا من الفعاليّات التي كنّا ننظّمها وإليها، والتي كانت تفصلها أحيانًا مئات الكيلومترات.

كنت أشعر بأنّنا، عمومًا، نقوم بعملنا على أكمل وجه. فقد رأيت كايتي وهي تقف على كرسيّ وتعطي مصوّرين يكبرونها سنًّا حوالى الضعف تعليمات صارمة، وتؤنّب الصحافيّين الذي يطرحون أسئلة خارجة عن السياق. كما راقبت ميليسا وهي تنظّم جدول أعمالي بتفاصيله كلّه، وتنسّق بمهارة فعاليّات للحملة تُقام في يوم واحد، رأيتها وهي تجهد هاتفها البلاك بيري بمكالمات لا تنتهي لتفادي مشكلة، وتحول دون غيابي عن مسرحيّة مدرسيّة أو عيد ميلاد صديقة قديمة، أو تمنحني فرصة للذهاب إلى النادي الرياضيّ. لم تألُ المرأتان أيّ جهد، وضحّتا بالكثير من جوانب حياتيهما الخاصّة لكي أحظى أنا بما يشبه حياة خاصّة.

جلست في الطائرة يتأكّلني القلق من أن أكون قد تسبّبت في فشل الحملة – بسبب الأربع عشرة كلمة اللعينة.

عندما وصلت إلى المنزل، اتّصلت بباراك على هاتفه الجوال، بعد أن أوت الفتاتان إلى فراشيهما، وعادت والدتي إلى منزلها في جادّة يوكليد لتحظى بقسط من الراحة. حصل ذلك عشيّة الانتخابات التمهيديّة في ويسكنسون، وأظهرت استطلاعات الرّأي أنّ السباق كان محمومًا. كان باراك قد سجّل تقدّمًا بسيطًا إنّما متصاعدًا، لكنّ هيلاري كانت تهاجم باراك وتنتقد كلّ ما يصدر منه، بدءًا بخطّته للرعاية الصحّيّة وصولًا إلى رفضه إجراء مناظرات إضافيّة معها. بدا الوضع خطرًا. ولم يكن في وسع حملة باراك المجازفة بالتعرّض لخذلان من أيّ نوع. اعتذرت لباراك عمّا تسبّب فيه خطابي، فقلت له: «لم أدرك أنّني كنت أرتكب خطأ، فقد سبق ورددّت تلك الكلمات أشهرًا».

كان باراك سيسافر تلك الليلة من ويسكنسون إلى تكساس. كدت أراه يهزّ كتفيه من دون اكتراث في الجانب الآخر من الخطّ. قال: «اسمعي، هذا لأنّ الجموع التي تستمع إلى خطاباتك كبيرة جدًّا، ولقد أصبحتِ تمثّلين نقطة قوّة في الحملة، ما يعني أنّ الناس سيسعون إلى إلحاق الأذى بك. هذه هي طبيعة الأمور».

شكرني، كعادته عندما نتحدّث، لأجل الوقت الذي أمضيه في العمل للحملة، وعبّر عن أسفه لأنّني أضطرّ أحيانًا إلى التعامل مع تداعيات من هذا النوع. قال لي قبل أن ينهي المكالمة: «أحبّك. أعرف أنّ الموقف صعب، لكنّ الضجّة ستخمد من تلقاء نفسها. هذا ما يحدث دائمًا».

كان باراك مصيبًا ومخطئًا بهذا الشأن في آن. في التاسع عشر من شباط/فبراير العام 2008، فاز باراك في الانتخابات التمهيديّة في ويسكنسون بهامش جيّد، فبدا أنّني لم أسبّب له أيّ ضرر في تلك الولاية. ولكن، وفي اليوم نفسه، استهدفتني سيندي ماكين بملحوظة عرضيّة لئيمة أثناء إلقاء خطاب في أحد التجمّعات الشعبيّة، حيث قالت: «أنا فخورة ببلدي. لا أدري إذا كنتم كذلك، أو إذا كنتم سمعتم هذه الكلمات سابقًا – أنا شديدة الفخر ببلدي». وصفت قناة CNN كلامنا عن الوطنيّة بأنّه «مزايدة بالحسّ الوطنيّ»، وأطلق المدوّنون العنان لأنفسهم. ولكن بعد

مضي أسبوع تقريبًا، هدأت العاصفة نسبيًا. أدلينا أنا وباراك بأحاديث للصحافة، أوضحنا فيها أنّني شعرت بالفخر لدى رؤيتي كثرًا من الأميركيّين يجرون المكالمات لمصلحة الحملة، ويحاولون إقناع جيرانهم، ويكتسبون ثقة في أهمّيّة دورهم ضمن ديمقراطيّتنا، ما اعتبرته سابقة. هكذا تابعنا مسيرتنا. صرت أحرص في الخطابات التي ألقيها على التزام الحذر في انتقاء كلماتي، ولكن من دون أن أغيّر في المضمون. كنت لا أزال أشعر بالفخر والارتياح. لم يتغيّر شيء.

ولكن، كانت بذرة خبيثة قد غُرِست – بدوت إنسانة غاضبة وعدائيّة إلى حدٍّ ما، إنسانة لا تمتلك الرقيّ الذي يُنتظَر من سيّدة أولى. لم نستطع معرفة المصدر. هل كان من خصوم باراك السياسيّين، أم جهات أخرى؟ تلك الإشاعات والتعليقات المتحاملة كانت غالبًا تحمل تلميحات حول العرق وترمي إلى استثارة أعمق مشاعر الخوف وأكثرها قبحًا في نفوس المقترعين. لا تسمحوا للسود بالاستيلاء على البلد. هم ليسوا مثلكم. لهم رؤية مختلفة عن رؤيتكم.

زاد الأمر سوءًا، قيام قناة ABC News بالتنقيب بعناية في تسع وعشرين ساعة من مواعظ القسّ جيرميا رايت، وإعداد فيلم صادم يُظهر رايت في نوبات غضب متصلّبة يهاجم فيها البيض في أميركا، كأنّهم مسؤولون عن جميع المصائب. شعرت أنا وباراك بالذعر لرؤية الفيلم، فقد سلّط الضوء على أسوإ الجوانب وأكثرها ارتيابًا في شخصيّة الرجل الذي احتفل بمراسم زواجنا وبعمادة طفلتينا. نشأ كلّ منّا في أسرة كانت مسألة العِرق تثير مشاعر القلق وعدم الثقة في نفوس أفرادها. فقد عايشتُ مشاعر السخط لدى داندي خلال عقود نتيجة عدم تمكّنه من إحراز تقدّم مهنيّ بسبب لون بشرته، ومشاعر القلق لدى ساوث سايد على سلامة أحفاده في أحياء يقطنها بِيضٌ. وسمع باراك توت، جدّته البيضاء، وهي تتفوّه بعموميّات ذات طابع عرقيّ، بل وتعترف أمام حفيدها الأسود بخوفها عند مصادفتها رجلًا أسود في الشارع. عايشنا التعصّب لدى بعض أجدادنا، سنوات، منطلقين

من أنّ لا وجود لإنسان كامل، بخاصّة في أوساط أولئك الذين نشأوا في حقبة التمييز العنصريّ. ربّما كان ذلك هو ما جعلنا نغفل العبارات العبثيّة في مواعظ القسّ رايت الغاضبة، وإن لم نحضر أيًّا منها. ولكن، عندما بُثّت انتقاداته اللاذعة المفرطة في تطرّفها في البرامج الإخباريّة، تملّكَنا الهلع. ذكّرنا الحدث بأكمله بأنّ الأحكام المسبقة التي تسود البلد في ما يتصل بمسألة العرق، موجودة لدى الطرفين.

في تلك الأثناء، كان أحدهم يبحث عن أطروحة التخرّج التي قدّمتُها في جامعة برِنستون وعثر عليها. كنت كتبتها قبل أكثر من عشرين سنة، وهي مسح يستطلع آراء الخرّيجات الأفريقيّات الأميركيّات حول العرق والهويّة، بعد إنهاء دراستهنّ في برِنستون. كانت وسائل الإعلام المحافِظة، ولأسباب أجهلها حتّى الآن، تتعامل مع الأطروحة كأنّها بيان سرّيّ تحريضيّ صادر من منظّمة ما. وكأنّني، وأنا في الحادية والعشرين من عمري، وبدل محاولة الحصول على علامة عالية في علم الاجتماع وتأمين مقعد لي في كلّيّة الحقوق في هارفارد، كنت أحيك مؤامرة ما، شبيهة بخطّة نات تيرنر لإطاحة الأغلبيّة البيضاء، وها قد سنحت لي الفرصة أخيرًا لتنفيذ تلك المؤامرة، من خلال زوجي. نُشِر في شبكة الإنترنت، عمود يحمل عنوانًا فرعيًّا، بقلم الكاتب كريستوفر هيتشنز، وكان العنوان «هل تُعتبر ميشيل أوباما مسؤولة عن فشل جيرميا رايت؟». وجّه الكاتب انتقادات لاذعة إليّ كطالبة، قائلًا أنّني تأثّرت إلى حدّ التطرّف بالمفكرين الراديكاليّين السود، إضافة إلى كوني كاتبة فاشلة. وقال في مقالته: «من الخطإ وصف الأطروحة بأنّها صعبة القراءة. الأطروحة لا تمكن 'قراءتها' إطلاقًا، بالمعنى الدقيق للكلمة. لأنّها لم تُكتب بلغة معروفة».

لم يقتصر الأمر على وصفي بأنّي دخيلة، بل كنت من طبيعة «أخرى» تمامًا، غريبة إلى حدّ يصعب معه التعرُّف إلى لغتي. ما من شكّ في أنّ ما قيل كان إهانة سخيفة تنمّ عن تعصّب، لكنّ سخريّته من مقدرتي الفكريّة، وتهميشي كطالبة شابّة كانا ينطويان على رغبة أقوى بنبذي. كنت وباراك قد أمسينا معروفين

إلى درجة يصعب معها تجاهلنا. ولكن، إذا بدأ الناس يعتبروننا غريبين ودخيلين، فقد يستنفد ذلك قوّتنا وفاعليتنا. كانت الرسالة غالبًا ما تعبّر عن فكرة موجزة، وإن بطريقة غير مباشرة: هذان الشخصان لا ينتميان إلى البلد. نُشرت على Drudge Report صورة لباراك معتمرًا عمامة ومرتديًا زيًّا صوماليًّا تقليديًّا، كان قد أُهدي إليه خلال زيارة رسميّة قام بها إلى كينيا بصفته سيناتورًا، لتعيد إلى الأذهان الإشاعات القديمة القائلة أنّه مسلم في السرّ. بعد بضعة أشهر، برزت في شبكة الإنترنت إشاعة أخرى كاذبة ومجهولة المصدر، وكانت هذه المرّة تشكّك في مواطنة باراك، حيث انتشرت فكرة مفادها أنّه لم يولد في هاواي، بل في كينيا، ما يجعله غير مؤهّل ليكون رئيسًا.

استمرّت الحملة في أوهايو وتكساس، وفي فيرمونت وميسيسيبي، واستمررت أتحدّث عن التفاؤل والوحدة، فقد شعرت بالإيجابيّة التي تحلّى بها الناس في فعاليّات الحملة، أولئك الذين كانت تجمعهم فكرة التغيير. لكنّ الرواية المضادّة التي تظهرني بشكل مسيء لم تتوقّف طوال الوقت، بل واكتسبت رواجًا. فقد دار نقاش في قناة Fox News، حول «شعوري العدواني بالغضب». وملأت شبكة الإنترنت إشاعاتٌ حول وجود فيلم أشير فيه إلى البيض بلفظ مسيء « Whitey»، وهي إشاعات غريبة وكاذبة من دون ريب. في شهر حزيران/يونيو، وبعد أن ضمن باراك ترشيحه من الديمقراطيّين، حيّيته بضرب قبضتي بقبضته ونحن على المنصّة في إحدى الفعاليّات في مينيسوتا. في اليوم التالي، كانت تلك الحركة موضوع العناوين الرئيسيّة للصحف، وقد فسّرها أحد معلّقي شبكة Fox بأنّها «ضربة بقبضة إرهابيّة»، في إيحاء جديد بأنّنا شخصين خطرين. كما انتشرت في الأخبار على الشبكة نفسها عبارة تشير إليّ كـ « Obama’s Baby Mama» وهي تستحضر إلى الأذهان الأفكار المألوفة المبتذلة حول حياة السود في الغيتو، إضافة إلى أنّها تنطوي على إشارة ضمنيّة فيها إساءة لزواجي.

بدأت أشعر بالانهيار، لم يكن انهيارًا جسديًّا بل عاطفيًّا. اللكمات

تؤلم، وإن كنت أدرك أنّها لا تمتّ بصلة إلى حقيقتي كإنسانة. شعرت بأنّ هناك نسخة كريكاتوريّة عنّي تحدث ضررًا، امرأة أسمع عنها ولا أعرفها – زوجة رجل سياسيّ، فارعة الطول، فائقة القوّة أشبه بمسخ متوحّش على وشك الانقضاض، تدعى ميشيل أوباما. والمؤلم أنّ أصدقائي كانوا يتّصلون بي أحيانًا ليعبّروا عن قلقهم وليمطروني بوابل من النصائح ظنًّا منهم أنّني سأنقلها إلى مدير حملة باراك، أو ليطلبوا منّي طمأنَتهم بعد سماعهم أخبارًا مسيئة تمسّني أو تمسّ باراك، أو تمسّ وضع الحملة. عندما ظهر للعيان ما قيل أنّه الفيلم الذي أسيء فيه إلى البيض، اتّصلت بي صديقة عزيزة، تعرف طبيعتي جيّدًا، وبدت قلقة من أن تكون تلك الكذبة حقيقيّة. بقيت ما يقارب النصف ساعة في محاولة إقناعها بأنّني لم أتحوّل إنسانة عنصريّة. بعد انتهاء المكالمة، شعرت بأنّ معنويّاتي هبطت إلى الحضيض.

راودني شعور بأنّني لا أستطيع الفوز، وبأنّني لا أستطيع، مهما امتلكت من قناعة ومهما بذلت من جهد، أن أتجاوز من يحاولون الحطّ من قدري، وأن أواجه محاولاتهم لإضعافي. كنت امرأة سوداء قويّة، وبالنسبة إلى أشخاص ذوي ذهنيّة معيّنة، لا تعني هذه التوليفة سوى «غاضبة». كانت كلمة مبتذلة مدمّرة أخرى، وكانت تُستَغلّ دومًا لدفع نساء الأقلّيّات إلى مواقع خلفيّة، وهذه إشارة لاواعية إلى رفض الإصغاء لما نودّ قوله.

بدأت الآن أشعر حقًّا بشيء من الغضب، ما زاد الأمور سوءًا. كنت كمن يؤكّد ما كان يزعمه خصومي، كمن يستسلم. غريب كيف يصبح تصنيف كهذا بمثابة فخّ. فكم علقتْ «نساء سوداوات غاضبات» في دوّامة نتيجة هذه العبارة. عندما لا يصغي أحد إلى ما تقولين، لماذا لا ترفعين صوتك؟ إذا أُلغِيَ وجودك لأنّك غاضبة أو منفعلة، ألا يؤدّي ذلك إلى مزيد من الغضب والانفعال؟

كنت منهكة القوى بسبب تلك الدناءة، تائهة بسبب المسحة الشخصيّة التي بدأت تتّسم بها الأمور، إلى جانب شعوري بأنّ لا سبيل إلى الخروج من المأزق. في شهر أيار/مايو، نشر الحزب الجمهوريّ في تنيسي في شبكة الإنترنت الفيلم الذي يتضمّن

ما أدليت به في ويسكنسون، ويقارن ما فيه بمقتطفات تُظهر مقترعين يقولون عبارات من نوع «أنا أفخر بكوني أميركيًّا منذ طفولتي». ونشر موقع إذاعة NPR مقالة بعنوان: «ميشيل أوباما: محفِّز أم عائق؟» وتحت هذا العنوان كُتبت بخطّ ثخين الأفكار التي ستُنَاقَش حولي: «هل هي صادقة إلى حدّ يثير الإعجاب أم مباشرة إلى حدّ المبالغة؟»، «مظهرها: هل هو مهيب أم مريب؟».

لا أخفيكم، كلمات من هذا النوع، تؤلم.

كنت أحيانًا ألقي باللوم على حملة باراك. بما أنّني كنت أكثر نشاطًا من زوجات كثر من المرشّحين، كنت أكثر عرضةً للهجوم. كانت غريزتي تدفع بي إلى الدفاع عن نفسي، إلى فضح الأكاذيب والتعميمات الظالمة، أو إلى الطلب من باراك أن يعلّق عليها، لكنّ أفراد فريق الحملة كانوا ينصحونني باستمرار ألّا أردّ، وأن أتابع مسيرتي وأتلقّى الضربات. كانت العبارة التي ما انفكّوا يردّدونها هي «هذه مجرّد أساليب سياسيّة»، كأنّنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا بهذا الشأن، وكأنّنا انتقلنا جميعًا إلى مدينة جديدة على كوكب جديد اسمه السياسة، حيث لا تُطبَّق أيٌّ من القواعد الطبيعيّة.

في كلّ مرّة شعرت بأنّني أفقد تماسكي، كنت أعاقب نفسي أكثر بأفكار تحبط الهمّة: أنا لم أختر ذلك. أنا لم أحبّ السياسة في حياتي. تركت عملي وتخلّيت عن هويّتي من أجل هذه الحملة، والآن أتحوّل عائقًا؟ أين ذهبت قوّتي؟

ذات يوم، وبينما كنت وباراك جالسَيْن في مطبخنا بشيكاغو، مساء يوم أحد كان يمضيه باراك معنا، عبّرت له عن شعوري بالإحباط.

قلت له: «لست مضطرّة للقيام بذلك. وإن كنت أسبّب الأذى للحملة، فلماذا أشارك فيها؟».

شرحت له أنّ حجم متطلّبات وسائل الإعلام كان أكبر ممّا أقوى أنا وميليسا وكايتي على تحمّله، وأخبرته بمدى الجهد المبذول للسفر ضمن حدود الموازنة المتواضعة المخصّصة لنا. قلت أنّني لا

أريد تعقيد الأمور وأنّني أرغب في دعم الحملة، لكنّنا نفتقر إلى الوقت وإلى الموارد اللازمة لكي نقوم بأكثر من مجرّد الاستجابة في اللحظة الراهنة. وفي ما يتصل بتزايد المراقبة الدقيقة لكلّ ما أقوم به، قلت أنّني مللت كوني عاجزة عن الدفاع عن نفسي، واعتباري شخصيّة مختلفة تمامًا عن طبيعتي. أنهيت كلامي بالقول: «في إمكاني البقاء في المنزل ورعاية الطفلتين إذا كان ذلك أفضل. سأكون زوجة عاديّة تظهر في الفعاليّات الكبرى فحسب، وتبتسم. فقد يكون ذلك أسهل للجميع».

استمع باراك إليّ بكلّ تعاطف. لاحظت أنّ التعب قد نال منه، وأنّه يتشوّق للصعود إلى الطبقة العليا لتعويض ما فاته من ساعات النوم. كنت أحيانًا أكره التداخل بين حياتنا العائليّة وحياتنا السياسيّة. كانت حياته حافلة بمواقف يتعيّن عليه فيها حلّ المشكلات ببرهة، وبمئات المواقف التي ينبغي له التفاعل معها، لم أشأ أن أتحوّل مشكلةً جديدةً يتوجّب عليه حلّها، لكنّ حياتي كانت مرتبطة بحياته بالكامل.

قال لي والانزعاج بادٍ على وجهه: «ميشيل، عليك أن تعلمي أنّك محفِّز أكثر منك عائقًا. ولكن، إذا شئت التوقّف أو تخفيف مشاركتك، فأنا أتفهّم ذلك تمامًا. في وسعك أن تفعلي ما يحلو لك».

طلب منّي ألّا أشعر، أبدًا، بأنّني مَدينة له أو للماكينة الانتخابيّة في الحملة. وأضاف أنّه في حال رغبت في الاستمرار، ولكنّني أشعر بأنّني بحاجة إلى مزيد من الدعم والموارد، فسوف يفكّر في طريقة تمكّنه من توفير ما أحتاج إليه.

ارتحت قليلًا لما قاله. لكنّني كنت لا أزال أشعر الشعور ذاته الذي تملّكني وأنا طفلة في الصفّ الأوّل أقف في انتظار دوري للذهاب إلى الغداء، عندما تلقّيت لكمة عنيفة.

أنهينا الحديث هنا، تناسينا السياسة وأوينا إلى فراشنا مرهقين.

بعد فترة وجيزة، ذهبت إلى مكتب ديفيد أكسيلرود في شيكاغو، وجلست معه ومع فاليري لمشاهدة فيلم حول بعض

المناسبات العامّة التي شاركت فيها. كانت الجلسة، وفق ما أدرك الآن، نوعًا من التدرّب، محاولة لتعريفي ببعض التفاصيل الصغيرة التي يمكنني التحكّم فيها خلال الحملة. أطرى الاثنان على الجهود الكبيرة التي أبذلها وعلى مدى نجاحي في حشد مؤيّدين لباراك. ثمّ أعاد أكس عرض الكلمة الموجزة التي ألقيها عادة، من دون صوت، لكي نتفحّص بدقّة لغة جسدي، وتعابير وجهي بشكل خاصّ.

ماذا رأيت؟ رأيت نفسي أتكلم بحدّة وبإيمان راسخ، من دون هوادة. كنت غالبًا ما أتطرّق إلى الأوقات الصعبة التي يواجهها كثرٌ من الأميركيّين، وإلى مكامن الظلم في مدارسنا وفي نظام الرعاية الصحّيّة لدينا. كان وجهي يعكس مدى جدّيّة الأمور التي اعتبرتُها على المحكّ، ومدى أهمّيّة الخيار الماثل أمام شعبنا.

لكنّني بدوت مفرطة في الجدّيّة، شديدة القسوة، في الأقل قياسًا بما اعتاد الناس أن يتوقّعوه من امرأة. راقبت تعابير وجهي كما يمكن شخصًا غريبًا أن يراها، خصوصًا في وجود تلك الرسائل المسيئة التي تحاصرني. استوعبت في تلك اللحظة كيف استطاعت المعارضة تجزئة تلك الصور وتقديمها للناس، بحيث أبدو امرأة جشعة ومستاءة. كان ذلك، بالطبع، تصنيفًا آخر، فخًّا آخر. لأنّ أسهل طريقة للاستخفاف بصوت امرأة ما، هي تقديمها بصورة المرأة الغاضبة.

لم يكن هناك من ينتقد باراك بسبب مبالغته في الجدّيّة، أو لندرة ابتساماته. كنت أنا زوجة ولم أكن مرشّحة، بالطبع، بالتالي كان الدور المتوقّعِ منّي هو إضفاء جوّ أكثر لطفًا وإشراقًا. مع ذلك، ولمعرفة كيف يُنظَر إلى النساء في كوكب السياسة، فما علينا سوى النظر إلى نانسي بيلوسي، رئيسة مجلس النوّاب، المرأة الذكيّة النشطة التي قُدِّمت بصورة المرأة الشرسة؛ أو إلى معاناة هيلاري كلينتون نتيجة تشريح كلّ حركة قامت بها في الحملة من الصحافيّين والمحلّلين في الشاشات. استُغلّت هيلاري بصفتها امرأة في غير مصلحتها من دون هوادة، باستحضار أسوإ التصنيفات. وُصِفت بأنّها متسلّطة، مصدر إزعاج لا ينتهي، عاهرة.

قيل عن صوتها أنّه زعيق؛ وعن ضحكتها أنّها تشبه قرقرة الدجاج. كانت هيلاري خصمًا لباراك، ما يعني أنّني في تلك اللحظة لم أكن لأميل إلى التعاطف معها، لكنّني لم أملك سوى الإعجاب بقدرتها على الصمود ومتابعة الكفاح وسط مشاعر الكراهيّة للنساء.

بعد مشاهدتي الفيلم مع أكس وفاليري في ذلك اليوم، اغرورقت عيناي بدموع حارّة. شعرت باضطراب. عرفت في تلك اللحظة أن للسياسة جانبًا يعتمد على الأداء، جانبًا لم أتمكّن منه تمامًا. وكنت قد أمضيت أكثر من عام في جولات ألقيت خلالها الخطب. شعرت بأنّني تواصلت مع الناس بصورة أفضل في الأماكن الصغيرة، كالأماكن التي زرتها في آيوا. فمن الصعب نشر الدفء في الصالات الفسيحة، لأنّ الحشود الكبيرة تتطلّب تعابير وجه واضحة، وهو أمر كان ينبغي أن أتدرّب عليه. خشيت أن يكون الوقت قد فات.

مدّت فاليري، صديقتي منذ أكثر من خمس عشرة سنة، يدها وضغطت على يدي.

سألتها: «لماذا لم تتحدّثوا معي بهذا الشأن سابقًا؟ لماذا لم يحاول أحد منكم مساعدتي؟».

كان الجواب أنّه لم يكن أحد يولي هذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا، ويبدو أنّ الانطباع السائد بين أفراد طاقم حملة باراك هو أنّني كنت أتصرّف بالأسلوب المناسب، إلى أن تبيّن العكس. في تلك اللحظة فحسب، وبعد أن صرت أشكّل مشكلة، استُدعيتُ إلى مكتب أليكس.

كانت تلك نقطة تحوّل بالنسبة إليّ. اكتشفت أن الطاقم المكلّف إدارة الحملة موجود لخدمة المرشح فحسب، لا لخدمة الزوجة أو الأسرة. وعلى رغم كلّ ما كان مساعدو باراك يكنّونه لي من احترام وتقدير لمساهمتي في الحملة، لم يزوّدني أحد منهم إرشادات كثيرة. فحتّى تلك اللحظة، لم يكلّف أحدهم نفسه عناء السفر معي أو حضور أيّ من الفعاليّات التي كنت أنظّمها. ولم أكن في حياتي تلقّيت تدريبًا إعلاميًّا أو تهيّأت لإلقاء الخطب.

أدركت أنّه لن يهتمّ أحد بشؤوني ما لم أطالب أنا بذلك.
وبما أنّنا كنّا نعلم أن حدّة النظرات سوف تزداد في الأشهر الستة الأخيرة قبل الانتخابات، فقد اتفقنا أخيرًا على أنّني بحاجة إلى مساعدة جدّيّة. فإذا كنت سأواصل المشاركة في الحملة كأنّني مرشّح، لا بدّ أن أحصل على الدعم كأيّ مرشّح. قرّرتُ حماية نفسي من خلال تنظيم شؤوني بشكل أفضل، والإصرار على الحصول على الموارد اللازمة للقيام بالعمل على النحو الأمثل. خلال الأسابيع الأخيرة من الانتخابات الأوّليّة، زاد القائمون على حملة باراك عدد الفريق العامل معي، بحيث أصبح يضمّ مساعِدة شخصيّة ومنظِّمة جدولٍ أعمال – وهي كريستن جارفيس، امرأة طيّبة عملت سابقًا ضمن فريق مساعدي باراك في مكتبه في مجلس الشيوخ الأميركيّ، وكان سلوكها الهادئ كفيلًا بالحفاظ على استقراري في لحظات التوتّر الشديد – إضافة إلى مختصّة في شؤون الإعلام والتواصل، وهي سيّدة محترمة تتمتّع بحنكة سياسيّة، تدعى ستيفاني كاتر. ساعدتني ستيفاني، بمشاركة كايتي وميليسا، على تحسين طريقة تعبيريّ عن رسالتي وأسلوب عرضيّ للأمور استعدادًا لخطاب مهمّ كان مقرّرًا أن ألقيه في فصل الصيف خلال المؤتمر الوطنيّ للحزب الديمقراطيّ. كما أتيح لنا في نهاية المطاف استخدام إحدى الطائرات المخصّصة للحملة، ما سمح لي بالتحرّك بمزيد من الفاعليّة. صار في إمكاني إجراء مقابلات إعلاميّة أثناء رحلات الطيران، أو تسريح شعري ووضع مكياجي أثناء ذهابي إلى فعاليّة ما، أو اصطحاب ساشا وماليا من دون كلفة إضافيّة.
كلّ هذا أشعرني بالارتياح، وساعدني في الابتسام مجدّدًا، وفي أن أكون أقلّ ترقّبًا.
بينما كنّا نخطّط لظهوري المقبل، نصحتني ستيفاني بأن أركّز على نقاط القوّة لديّ، وبأن أتذكّر دائمًا الأمور التي أحبّ الحديث عنها، لا سيّما حبّي لزوجي وابنتَيّ، وتعاطفي مع الأمّهات العاملات، وجذوري في شيكاغو التي أفخر بها. كانت ستيفاني تعلم أنّني أحبّ إلقاء الطرف وطلبت منّي ألّا أكبح حسّ الفكاهة

لديّ. في عبارة أخرى، لا ضير في أن أكون على سجيّتي. بعد انتهاء الانتخابات التمهيديّة بفترة وجيزة، دعيت إلى المشاركة في حلقة من برنامج The View. أمضيت ساعة ممتعة ومرحة مع ووبي غولدبيرغ وباربرا والترز والضيوف الآخرين، في حضور الجمهور الموجود في الاستوديو. تحدّثت عن الهجمات التي تعرّضتُ لها، لكنّني ضحكت أيضًا على قصص ابنتيّ وضرب القبضتين وانزعاجي من الجوارب الطويلة. كنت أشعر بالارتياح وقد استعدت صوتي من جديد. بعد بثّ البرنامج، جاءت التعليقات إيجابيّة. كنت قد ارتديت ثوبًا أبيض وأسود، سعره 148 دولارًا، فتدافعت النساء لشراء مثله.

كنت أُحْدِث تأثيرًا وأستمتع بوقتي في آن واحد، شعرت بمزيد من الانفتاح والتفاؤل. كما كنت أحاول أن أتعلّم من الأميركيّين الذين أقابلهم في أنحاء البلد كلّها، وأعقد ندوات طاولة مستديرة للتركيز على مسألة التوازن بين العمل والأسرة، وهو الموضوع الذي يثير اهتمامي الشديد. وكانت لقاءاتي بالأوساط العسكريّة التي ضمّت في غالبيّتها نساء على رغم وجود بعض الرجال، وأتاحت لي فرصة التعرّف إلى زوجات الجنود.

كنت أطلب منهنّ الحديث عن حيواتهنّ. ومن ثمّ أستمع، بينما تبدأ نساء يضعن أطفالًا رضّعًا في أحضانهنّ، منهنّ لم يتجاوزن سنّ المراهقة، برواية قصصهنّ. وصفت نساء منهنّ كيفيّة نقلهنّ بين القواعد العسكريّة ثماني مرّات أو أكثر خلال ثماني سنوات، وفي كلّ مرّة كنّ يضطررن للبدء من جديد بتسجيل أطفالهنّ في نشاطات مثل دروس الموسيقى أو برامج تنمية المواهب. كما عبّرت النساء عن مدى صعوبة الحفاظ على عمل بسبب تلك التنقّلات: أخبرتني إحدى المدرِّسات، مثلًا، أنّها لم تتمكّن من إيجاد عمل لأنّ الولاية الجديدة التي انتقلت إليها لم تعترف بشهادة التعليم الصادرة من الولاية السابقة؛ كما كانت العاملات في العناية بالأظفار والمعالجة الفيزيائيّة يواجهن مشكلات مماثلة تتعلّق بالتراخيص. واعترضت كثرًا من الآباء والأمّهات الشباب صعوبة في تأمين رعاية نهاريّة لأطفالهم بكلفة مقبولة. ولكن،

بالطبع، كانت المشكلات كلّها تهون أمام الأعباء اللوجيستيّة والعاطفيّة الناجمة عن إرسال شخص عزيز، مدّة سنة أو أكثر، إلى أماكن مثل كابول أو الموصل، أو إلى حاملة طائرات في بحر الصين الجنوبيّ. بعد لقائي أولئك الزوجات، مباشرة، صرت أرى مشاعري من منظور آخر. كانت تضحيات أولئك النسوة تتعدّى تضحياتي بأشواط. كنت أجلس في تلك الاجتماعات وأنا شبه مصدومة لأنّني لا أعرف سوى القليل عن حياة العسكريّين. عاهدت نفسي على إيجاد طريقة ما لدعم تلك العائلات بصورة أفضل، إذا حالف الحظّ باراك وقُدِّر له أن يُنتخب رئيسًا.

مدّني ذلك كلّه بالقوّة كي أساعد في القيام بالجهود النهائيّة الحاسمة من أجل باراك وجو بايدن، السيناتور اللّطيف عن ولاية ديلاوير، الذي كان سيتمّ الإعلان عن ترشّحه إلى جانب باراك خلال فترة وجيزة. شجّعني ذلك على العودة إلى التصرّف على طبيعتي، فقد كنت محاطة بأشخاص لا يتردّدون في دعمي. ركّزت على إقامة علاقات شخصيّة مع الأشخاص الذين أقابلهم، خلال الاجتماعات الصغيرة، وضمن الحشود التي تضمّ ألوف الأشخاص، وفي كواليس المسارح، وخلف الحبال المخمل الفاصلة. عندما يراني المقترعون شخصيًّا، يدركون أنّ الصور الساخرة المنشورة عنّي مجرّد كذبة. تعلمت أنّ من الصعب كره إنسان تراه من قرب.

أمضيت صيف العام 2008 أبذل جهودًا أكبر، وفي وتيرة أسرع، فقد ولدت لديّ قناعة بأنّني قادرة على إحداث فرق إيجابيّ لمصلحة باراك. ومع اقتراب موعد المؤتمر الوطنيّ، استعنت بكاتبة خطابات، لأوّل مرّة، وكانت شابّة موهوبة تدعى سارة هيرفتز، ساعدتني في صوغ أفكاري في خطاب مُحكم يدوم سبع عشرة دقيقة. بعد أسابيع من الاستعداد بكلّ عناية ودقّة، وفي أواخر شهر آب/أغسطس، سرت إلى المنصّة في مركز بيبسي في دنفر، ووقفت أمام جمهور يبلغ عدده عشرين ألف شخص وجمهور آخر عبر التلفاز يبلغ تعداده الملايين، وأنا على أتمّ الاستعداد لأُظهِر أمام العالم شخصيّتي الحقيقيّة.

قدّمني شقيقي كريغ في تلك الليلة. كانت والدتي تبدو مشدوهة إزاء المنحى الذي اتّخذته حياتنا. تحدّثتُ عن والدي، عن تواضعه ومرونته، وكيف ساهم ذلك في صوغ شخصيّتي وشخصيّة كريغ. حاولت أن أقدّم للأميركيّين، قدر المستطاع، الصورة الأدقّ عن باراك وعن قلبه النبيل. عندما أنهيت الخطاب، صفّق الناس طويلًا، وغمرتني موجة عارمة من الارتياح، فقد أدركت أنّني ربّما تمكنت، أخيرًا، من القيام بشيء يغيّر صورتي في أذهان الناس.

ما من شكّ في أنّها كانت لحظة مهمّة – عظيمة وجماهريّة – لا تزال حتّى اليوم موجودة على يوتيوب. ولكن، في الحقيقة، وللأسباب ذاتها تحديدًا، كانت أيضًا لحظة بسيطة وغريبة نوعًا ما. فقد كان منظوري للأمور ينقلب، مثلما نقلب كنزة ببطء. المنصّات، الجماهير، الأضواء، التصفيق، أصبح ذلك كلّه عاديًّا أكثر ممّا كنت أتوقّع. وغدا ما أعيش لأجله هو اللحظات العفويّة، غير المصوَّرة، وفي كواليس الأحداث، حيث لا أحد يؤدّي دورًا محدّدًا، ولا أحد يُصدر أحكامًا، وتكون المفاجأة الحقيقيّة لا تزال ممكنة – عندما يحدث أحيانًا أن يشعر الإنسان، من دون سابق إنذار، بأنّ شيئًا ما يقفز في قلبه.

وهنا علينا العودة إلى بوت، في مونتانا، في الرابع من تموز/ يوليو. انتهى يومنا هناك، وبدأت الشمس تغيب خلف الجبال الغربيّة، وانطلقت أصوات المفرقعات الناريّة من مسافة بعيدة. كنّا سنمضي الليلة في الفندق Holiday Inn Express، قرب الطريق السريع، وكان باراك سيغادر في اليوم التالي إلى ميسوري ونتوجّه أنا والفتاتان إلى شيكاغو. كنّا جميعًا مرهقين. فقد ذهبنا إلى الاستعراض وإلى الغداء في الهواء الطلق، وتحدّثنا مع كلّ شخص تقريبًا في مدينة بوت. أخيرًا، كنّا عائدين لنقيم حفلًا صغيرًا لماليا.

لو أنّني سئلت يومذاك لأجبت أنّنا قصّرنا في حقّ ماليا – وأنّ عيد ميلادها بدا ثانويًّا في دوّامة الحملة. اجتمعنا في قاعة مؤتمرات الفندق، وحضر الحفل كونراد ومايا وسهيلة، إضافة إلى

أعضاء في فريق عمل الحملة المقرّبين من ماليا، وبالطبع، رجال الأمن، الذين لم يكونوا يفارقوننا أيًّا كانت الظروف. كنّا أحضرنا بعض البالونات وكعكة جاهزة وعشر شمعات وعلبة كبيرة من المثلّجات. وكانت هناك هدايا اشتراها أحدهم، ولم أكن أنا، وغلّفها على عجل. لم يكن جوّ الحفلة كئيبًا، لكنّه لم يكن مبهجًا أيضًا. فقد كان اليوم طويلًا. تبادلت وباراك نظرة كئيبة وأدركنا أنّنا فشلنا.

كان الأمر، شأن أيّ موضوع آخر، مرتبطًا بالزاوية التي نراه منها – بالطريقة التي نقرّر أن ننظر بها إلى ما يحدث أمامنا. كنت أنا وباراك نركّز فحسب على أخطائنا ومكامن تقصيرنا، التي انعكست في تلك القاعة الكئيبة وفي الحفل العشوائيّ. لكنّ ماليا كانت تبحث عن شيء مختلف، وعثرت عليه. شاهدتْ وجوهًا ودودة، أشخاصًا يحبّونها، كعكة مغطاة بالكريمة، أختًا صغيرة وابنة عمّة صغيرة إلى جانبها، عامًا جديدًا في انتظارها. أمضت يومها في الهواء الطلق. حضرت استعراضًا. وغدًا ستسافر بالطائرة.

سارت إلى حيث جلس باراك وألقت بنفسها في حضنه، وقالت: «هذا أجمل عيد ميلاد في حياتي».

لم تلاحظ ماليا الدموع التي ترقرقت في عيني والديها، ولم تلاحظ أنّ نصف الحاضرين في القاعة حبس دموعه، لأنّها كانت على حقّ. فجأة، رأينا جميعًا ما رأته ماليا. كانت يومذاك ستتمّ السنة العاشرة من عمرها، وكان كلّ شيء على ما يرام.

18

بعد مضي أربعة أشهر، أي في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر العام 2008، أدليت بصوتي لباراك. ذهبنا يومذاك في الصباح الباكر إلى مركز إحصاء أصوات المقترعين الخاصّ بحملتنا، وكان مقرّه الصالة الرياضيّة لمدرسة Beulah Shoesmith الإعداديّة التي لا تبعد كثيرًا من منزلنا في شيكاغو. اصطحبنا ساشا وماليا وكانتا جاهزتين للذهاب إلى المدرسة. فقد خيّل إليّ أنّ الذهاب إلى المدرسة، حتّى يوم الانتخابات – خصوصًا يوم الانتخابات – فكرة صائبة. فالمدرسة تمثّل النشاط اليوميّ المعتاد، تمثّل الراحة. وبينما كنّا نمرّ بأفواج المصوّرين وآلات التصوير التلفزيونيّة، في طريقنا نحو الصالة الرياضيّة، وبينما كان الجميع من حولنا يتحدث عن الأهمّيّة التاريخيّة لكلّ ما يحدث، كنت أشعر بالسعادة لأنّني جهّزت للفتاتين وجبة لكلّ منهما تحملها معها.

كيف سيكون اليوم الذي ننتظره؟ سيكون يومًا طويلًا. عدا ذلك، لم يكن أحد منّا يعرف أيّ شيء.

كان باراك، كعادته في لحظات التوتّر الشديد، أكثر هدوءًا من المعتاد. حيّا العاملين في المركز، أخذ ورقة الاقتراع، صافح كلّ من قابله، بدا مسترخيًا. أعتقد أنّ موقفه آنذاك كان منطقيًّا. فقد كان الأمر برمّته على وشك الخروج عن نطاق سيطرته.

وقفنا جنبًا إلى جنب أمام آلة الاقتراع بينما انحنت الفتاتان لتراقبا من كثب ما كنّا نفعله.

كان قد سبق لي الاقتراع لباراك مرّات عدّة، في الانتخابات التمهيديّة والانتخابات العامّة، على مستوى الولاية وعلى مستوى الوطن، ولم تكن هذه المرّة مختلفة. كان الاقتراع بالنسبة إليّ عادة، واجبًا تنبغي تأديته بضمير حيّ، وعندما تسنح الفرصة. عندما كنت طفلة، كان والداي يصطحبانني إلى مراكز الاقتراع، واعتدت أنا اصطحاب ساشا وماليا عندما أستطيع، لكي تترسّخ لديهما فكرة سهولة الاقتراع وأهمّيّته.

أتاحت لي مهنة زوجي أن أشهد من كثب مكائد السياسة والنفوذ. كما لاحظت كيف يمكن بضعة أصوات في كلّ دائرة انتخابية أن تتسبّب في إحداث فرق، ليس بين مرشح وآخر فحسب، بل بين منظومة قيم وأخرى. فإذا لازم بضعة أشخاص لا أكثر، من كلّ حيّ، بيوتهم يوم الاقتراع، فسوف يحدّد ذلك ما سيتعلّمه أولادنا في المدرسة، أو خيارات الرعاية الصحّيّة التي قد تتوفّر لنا، أو ما إذا كنّا سنرسل جنودنا إلى الحرب، أم لا. الاقتراع أمر بسيط بحدّ ذاته، لكنّ تداعياته لا تصدَّق.

تأمّلت يومذاك، بضعَ ثوان، المستطيل الصغير الموضوع قرب اسم زوجي على الشاشة، حيث عبارة رئيس الولايات المتّحدة. بعد واحد وعشرين شهرًا، تقريبًا، من العمل في الحملة والتعرُّض للهجمات والإرهاق، هأنذا الآن هنا – أقوم بآخر ما يتوجّب عليّ القيام به.

رمقني باراك بنظرة، ثمّ ضحك وسألني: «أما زلت تحاولين اتّخاذ قرار؟ هل تحتاجين إلى مزيد من الوقت؟».

لولا الشعور بالتوتّر الذي يرافق يوم الانتخابات، لكان في الإمكان اعتباره يوم إجازة قصيرة، فترةُ توقّفٍ سورياليّة بين كلّ ما حدث، وكلّ ما سيحدث لاحقًا، أيًّا كانت طبيعته. هي حالة أشبه بمن قفز في الهواء ولمّا يحطّ على الأرض. لا تستطيع في لحظات كهذه أن تعرف ما سيكون عليه المستقبل. بعد شهور تعاقبت أحداثها بسرعة جنونيّة، ها هو الزمن يتباطأ ويبدأ الزحف كأنّه يتعمّد تعذيبنا. عندما عدنا إلى المنزل، قمت بدور المضيفة للأهل وللأصدقاء الذين أتوا ليخفّفوا عنّا وطأة الانتظار.

ذهب باراك ذاك الصباح ليلعب مباراة في كرة السلّة برفقة كريغ وبعض أصدقائه في نادٍ رياضيّ قريب، فقد تحوّلت كرة السلّة شبهَ عادة يمارسها يوم الانتخابات، حيث لم يكن يهدّئ أعصاب باراك أكثر من مباراة عنيفة تنطوي على منافسة شرسة.

قلت لكريغ وهما يغادران المنزل: «لا تدع أحدًا يكسر أنفه. أنت تعلم طبعًا أنّه مضطرّ إلى الظهور في التلفاز لاحقًا».

ردّ كريغ، كما قد يفعل أيّ أخ: «أهذا يعني أنّني أتحمّل مسؤوليّة ذلك؟»، ثمّ غادر الاثنان.

بدا باراك مهيّأً للفوز، وفق ما أشارت استطلاعات الرأي، لكنّني كنت أعرف أنّه أعدَّ خطابين لذاك المساء – واحدًا للفوز، وآخر للتسليم بالفشل. كنّا آنذاك عرفنا عن السياسة واستطلاعات الرأي ما يكفي لجعْلنا لا نسلّم بشيء. كنّا نعرف الظاهرة المسمّاة «تأثير برادلي»، وهو اسم مرشّح أفريقيّ أميركيّ، يُدعى توم برادلي، ترشّح لمنصب حاكم كاليفورنيا مطلع ثمانينيّات القرن العشرين. وعلى رغم أنّ استطلاعات الرأي أظهرت باستمرار تقدّم برادلي؛ إلّا أنّه خسر الانتخابات، ما أدهش الجميع وقدّم للعالم درسًا مهمًّا حول التعصّب. وقد تكرّر ذلك خلال السنوات التي تلت في انتخابات مختلفة حظيت بتغطية إعلاميّة واسعة، شارك فيها مرشّحون سود من أنحاء البلاد كلّها. الواقع هو أنّ المقترعين، حين يتعلّق الأمر بمرشّحين من الأقلّيّات، يخفون مشاعر التحامل عندما يُجرى استطلاع آرائهم، ولا يعبّرون عنها إلّا في خلوة الاقتراع.

كنت طوال أشهر الحملة لا أنفكّ أتساءل عمّا إذا كانت أميركا قد غدت فعلًا جاهزة لانتخاب رئيس أسود، وإن كانت البلاد قادرة على تجاوز مسألة العرق ومشاعر التحامل. أخيرًا، كنّا على وشك معرفة الإجابة.

كانت معركة الانتخابات العامّة، عمومًا، أقلّ إرهاقًا من معركة الانتخابات التمهيديّة المضنية. فلم يوفَّق جون ماكين في اختيار سارة بالين، حاكم آلاسكا، لتكون شريكته في الترشّح. لأنّها سرعان ما تحوّلت، نظرًا إلى افتقارها إلى الخبرة والإعداد

الكافيين، اسمًا مثيرًا للسخرية على المستوى الوطنيّ. في منتصف شهر أيلول/سبتمبر، كانت الأخبار كارثيّة، فقد بدأ اقتصاد الولايات المتحدة ينهار بسرعة جهنميّة، وذلك مع انهيار مصرف ليمان براذرز فجأة، وهو أحد أكبر المصارف في البلاد.

كان باراك هو الرجل المناسب لتلك اللحظة التاريخيّة، لمنصبٍ لم يكن في الأصل سهلًا، وتنامت صعوبته بسرعة بسبب الأزمة الماليّة. كنت طوال عام ونصف أردّد هذه الفكرة علنًا في أنحاء أميركا كلّها: زوجي رجل هادئ الأعصاب وهو مهيّأ لمنصب من هذا النوع. إنسان لا يرهبه التعقيد، يتمتّع بذكاء يمكّنه من حلّ أيّ تعقيد. ما من شكّ في أنّي كنت منحازة إلى صفّه. شخصيًّا، كنت سأقنع بخسارة الانتخابات واستعادة حياتنا السابقة، لكنّني شعرت أيضًا بأنّنا، كبلد، كنّا بحاجة فعليّة إلى مساعدته. حان الوقت كي نتوقّف عن التفكير في شيء اعتباطيّ كلون البشرة. في لحظة كهذه، كان لا بدّ من أن ننصّبه رئيسًا، علمًا أنّه سيرث الفوضى.

مع اقتراب المساء، بدأت أشعر بخدر في أصابعي، وبتشنّج في جسمي كلّه. لم أتمكّن من تناول الطعام. لم أعد أحتمل تبادل الحديث مع والدتي أو مع الأصدقاء الذين أتوا لزيارتنا. صعدت إلى الطبقة العليا لأنفرد بنفسي قليلًا.

اكتشفت أنّ باراك انسحب أيضًا إلى الطبقة العليا، كان بالطبع بحاجة إلى الانفراد بنفسه.

وجدته جالسًا إلى طاولته يراجع خطاب النصر في غرفة المكتب الصغيرة المليئة كتبًا متناثرة، والمجاورة غرفةَ نومنا – الملاذ الذي يلجأ إليه. اقتربت منه وبدأت أدلّك كتفيه.

سألته: «هل أنت بخير؟».

قال: «نعم».

سألته: «مرهق؟».

قال: «كلّا». ابتسم لي ليثبت صدق ما يقول. كنّا تلقّينا في اليوم السابق خبرًا يفيد بأنّ جدّة باراك، توت، البالغة ستّة وثمانين من العمر، قد توفّيت في هاواي بعد معاناتها أشهرًا مرض السرطان.

حرص باراك على زيارة توت، لأنّه لم يحظَ بفرصة وداع والدته. فقد ذهبنا مع الفتاتين لزيارتها في أواخر الصيف، ثمّ زارها وحده ثانية قبل عشرة أيّام. ترك مهمّات الحملة يومًا كاملًا كي يجلس إلى جانبها وليمسك بيدها. فكّرت في مدى مأسويّة اللحظة. فَقَدَ باراك والدته في بداية عمله السياسيّ، بعد شهرين من إعلان ترشّحه لمجلس شيوخ الولاية. والآن، وقد بلغ ذروة النجاح، لن تكون جدّته حاضرة لتشهد اللحظة. رحل الأشخاص الذين ربّوه.

قلت له: «أنا فخورة بك أيًّا كانت النتيجة، فقد أبليتَ حسنًا».

نهض من مقعده وعانقني، ثمّ قال وهو يضمّني بين ذراعيه: «وأنت أيضًا. كلانا أنجز مهمّاته على أكمل وجه».

لم أفكّر في تلك اللحظة سوى بما كان ينتظره كلّه.

بعد أن تناولنا عشاءً عائليًّا في المنزل، ارتدينا ثيابًا أنيقة وتوجّهنا إلى وسط المدينة للاطلاع على تقارير نتائج الانتخابات مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء وأفراد العائلة. كان القائمون على الحملة قد استأجروا لنا جناحًا في فندق حياة ريجنسي، واجتمع فريق الحملة في مكان آخر من الفندق ليتيح لنا بعض الخصوصيّة. كان جو وجيل بايدن يشغلان جناحًا آخر في مواجهة جناحنا مع بعض أصدقائهما وأفراد عائلتهما.

وردَت أولى النتائج في الساعة السادسة تقريبًا من بعد الظهر، في التوقيت المركزيّ، حيث صوّتت كنتاكي لمصلحة ماكين وفيرمونت لمصلحة باراك. ثمّ صوّتت فيرجينيا الغربيّة لمصلحة ماكين وتبعتها كارولاينا الجنوبيّة. بدأت ثقتي تهتزّ قليلًا، على رغم أنّ النتائج لم تكن مفاجئة. فوفقًا لما قاله أكس وبلوف – اللذان كانا يدخلان ويخرجان من الغرفة وإليها لينقلا كلّ خبر يصلهما – كان كلّ شيء يسير كما هو متوقّع. وعلى رغم أنّ المعلومات المستجدّة بدت عمومًا إيجابيّة، فإنّني لم أجد القدرة على الإصغاء إلى التحليلات السياسيّة. لم نعد نستطيع التحكّم في ما يحصل، في أيّ حال، ما الفائدة إذًا من سماع تلك التحليلات؟ كنّا قفزنا قفزة كبيرة، والآن لم يعد أمامنا سوى أن نحطّ بأفضل طريقة ممكنة. شاهدنا في شاشة التلفاز ألوف الأشخاص بدأوا

يتجمّعون في حديقة غرانت بارك، التي لا تبعد سوى بضع كيلومترات من بحيرة شيكاغو، وحيث كانت تُبَثّ التغطية الإعلاميّة للانتخابات عبر شاشات عملاقة، وكان من المقرّر أن يظهر باراك هناك لإلقاء أحد خطابيه. كان رجال الشرطة منتشرين عند كلّ زاوية، وكانت قوارب خفر السواحل تقوم بدوريات تجوب فيها البحيرة، فيما طائرات الهليكوبتر تحلّق فوق الرؤوس. بدا أنّ شيكاغو كلّها تحبس أنفاسها، ترقّبًا للأخبار.

صوّتت كونيكتيكت لمصلحة باراك، ثمّ تبعتها نيو هامبشير، ثمّ ماساتشوستس وماين وديلاوير وواشنطن العاصمة. عندما أُعلِن أنّ ألينوي صوّتت لمصلحة باراك، سمعنا زعيق أبواق السيّارات وصيحات الحماسة في الشوارع. وجدت كرسيًّا قرب باب الجناح وجلست وحيدة أراقب المشهد حولي. ساد السكون الغرفة، وحلَّ محلّ التوتّر الذي سيطر على الطاقم السياسيّ فيما يوافينا بآخر المستجدّات، هدوءٌ مترقّب رصين. جلست الفتاتان إلى يميني على أريكة بثوبيهما باللونين الأحمر والأسود، وجلس باراك إلى يساري، وقد علّق سترته في مكان ما في الغرفة، على أريكة أخرى قرب والدتي التي كانت ترتدي ثوبًا أسود أنيقًا وتضع في أذنيها قرطين فضّيّين.

سمعت باراك يطرح عليها السؤال: «هل أنت مستعدّة لما سيحصل، أيّتها الجدّة؟».

نظرت إليه والدتي التي لم تكن تظهر مشاعرها عادةً، نظرة جانبيّة وهزّت كتفيها، وابتسم كلاهما. قالت لي لاحقًا أنّها شعرت لحظتذاك بالتأثّر، فقد أدركتْ، مثلي، مدى خطورة الموقف. كانت أميركا ترى في باراك رجلًا قويًّا واثقًا في نفسه، لكنّ والدتي أدركت صعوبة المرحلة الانتقاليّة، والوحشة الكامنة في المنصب الذي ينتظره. في تلك اللحظة، كان أمامها رجل فَقَدَ والده ووالدته، وعلى وشك أن يُنتخَب زعيمًا للعالم الحرّ.

عندما نظرتُ إليهما ثانية، كان أحدهما يمسك بيد الآخر.

في حلول الساعة العاشرة، بدأت شبكات التلفزة تبثّ صورة زوجي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، معلنة أنّ باراك

حسين أوباما سيصبح الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتّحدة الأميركيّة. قفزنا جميعًا من أماكننا وبدأنا تلقائيًّا الهتاف. توافد أفراد فريق الحملة إلى الغرفة، وجاء بايدن وزوجته، وبدأ الجميع يعانق الجميع. كان موقفًا سورياليًّا. شعرت بأنني غادرتُ جسدي ووقفتُ من بعيد أراقب ردّ فعلي.

نجح باراك في مسعاه. نجحنا جميعًا. بدا الأمر مستحيلًا، لكنّ النصر جاء ساحقًا.

شعرت بأنّه دُفِع بنا بقوّة نحو كوكب غريب تحت الماء. باتت الأشياء بطيئة منسابة، بل ومشوّهة قليلًا، على رغم أنّنا كنّا نتحرّك بسرعة وبدقّة وفقًا لإرشادات رجال الأمن. أشاروا إلينا بالتوجّه نحو مصعد البضائع، ومن ثمّ الاندفاع مسرعين من باب خلفي للفندق لنستقلّ سيّارة SUV كانت في انتظارنا. هل كنت أتنفّس عندما غادرنا الفندق؟ هل شكرت الرجل الذي فتح لنا الباب أثناء خروجنا؟ هل كنت أبتسم؟ لا أدري! كنت كمن يحاول أن يطفو على سطح الواقع. أعتقد أنّ الإرهاق أدّى دورًا في ذلك كلّه. كان يومًا طويلًا جدًّا، كما توقّعنا. رأيت التعب على وجهَي الفتاتين، وكنت قد هيَّأتهما للنصف الثاني من تلك الليلة، وشرحت لهما أنّنا، سواء فاز والدهما أم لم يفز، فسوف نشهد احتفالًا كبيرًا في الحديقة.

انطلقت السيّارة في شارع Lake Shore Drive محاطة بموكب ترافقه درّاجات الشرطة، متّجهة بسرعة جنوبًا في اتّجاه غرانت بارك. كنت مررت في هذا الشارع مئات المرّات، في الحافلة التي كانت تقلّني من مدرسة Whitney Young، وفي سيّارتي عندما كنت أذهب إلى النادي الرياضيّ قبل الفجر. كانت هذه مدينتي، مدينة مألوفة، بقدر ما يمكن المكان أن يكون مألوفًا، لكنّ الشارع بدا مختلفًا تلك الليلة. تحوّل شارعًا يسكنه هدوء غريب. شعرت بأنّ الزمان والمكان معلّقان، كأنّ ما يحصل مجرّد حلم.

كانت ماليا تنظر من نافذة السيّارة في محاولة لاستيعاب ما يحصل حولها.

قالت بلهجة أقرب إلى الاعتذار: «أبي، لا يوجد أحد في الشارع.

لا أعتقد أنّه سيحضر أحد الاحتفال».
تبادلنا النظرات أنا وباراك، ثمّ ضحكنا، أدركت لحظتذاك أنّ سيّارات موكبنا كانت هي السيّارات الوحيدة في الشارع. كان باراك في تلك اللحظة أضحى الرئيس المنتخب. أخلى رجال الأمن الشارع من كلّ شيء، أغلقوا قسمًا كاملًا من Lake Shore Drive، وأقاموا حواجز في جميع التقاطعات على امتداد مسار الموكب – وهو إجراء وقائيّ معتمد للرؤساء كافّة، وفق ما علمنا لاحقًا. ولكن بالنسبة إلينا، كان شيئًا جديدًا.
بدا كلّ شيء جديدًا.
عانقتُ ماليا. قلت لها: «الناس أصبحوا هناك يا حبيبتي. لا تقلقي، إنّهم في انتظارنا».
وكانوا فعلًا في انتظارنا. احتشد أكثر من مئتي ألف شخص في الحديقة كي يرونا. كنّا نسمع أصواتهم المترقّبة فيما كنّا نترجّل من السيّارة. سرنا عبر خيام بِيضٍ نُصبت عند مدخل الحديقة بشكل نفق يؤدّي إلى المنصّة. تجمّع بعض الأصدقاء وأفراد العائلة لتحيّتنا، لكنهم، ووفقًا لإملاءات حرّاس الأمن، وقفوا خلف الحبل المخمل الفاصل. وضع باراك يده حول كتفي، كأنّه يتأكّد من وجودي إلى جانبه.
صعدنا المنصّة بعد بضع دقائق، كنت أمسك بيد ماليا وكان باراك ممسكًا بيد ساشا. لمحت أشياء عدّة في نظرة واحدة. رأيت جدارًا من الزجاج السميك المقاوم للرصاص يحيط بالمنصّة. رأيت حشدًا هائلًا من الناس يحمل أعلامًا أميركيّة صغيرة يلوّح بها. عجز ذهني عن تحليل أيّ شيء. شعرت بأنّ كلّ ما يحيط بي كان هائلًا.
لا أتذكّر الكثير من خطاب باراك في تلك الليلة. راقبناه أنا وساشا وماليا من كواليس المنصّة وهو يلقيه، محاطًا بالحاجز الزجاج وبمدينتنا وبالارتياح الذي سهر عليه أكثر من تسعة وستين مليون صوت. ما أذكره تمامًا هو الشعور بالطمأنينة وبهدوء غير اعتياديّ في تلك الليلة الدافئة من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، قرب بحيرة شيكاغو. بعد شهور عدّة من الذهاب إلى تجمّعات جماهيريّة

مشحونة، حيث تحصل استثارة الجماهير ودفعها إلى الهتاف والغناء بحماسة ملتهبة، كان الجوّ في غرانت بارك مختلفًا تمامًا. كنّا نقف أمام تجمّع هائل من الأميركيّين الذين تغمرهم البهجة، من دون أن تفقدهم تركيزهم ورزانتهم. ما سمعته كان أشبه بالصمت نوعًا ما. شعرت بأنّني أرى كلّ وجه من وجوه الحشد. كانت الدموع تترقرق في بعض العيون.

ربّما كان الهدوء من نسج خيالي، وربّما كان بالنسبة إلينا جميعًا نتيجة تأخّر الوقت، فقد حلّ منتصف الليل. كان الجميع ينتظر، وكنّا نحن أيضًا قد انتظرنا وقتًا طويلًا.

وأصبحنا أكثر

19

لا يوجد أيّ كتيّب إرشادات يساعد المرأة التي تصبح السيّدة الأولى في الولايات المتّحدة الأميركيّة على القيام بدورها الجديد. فهو ليس بوظيفة بالمعنى المتعارف عليه، ولا لقبًا سلطويًا رسميًّا، ولا يعود على صاحبته براتب، ولا واجبات محدّدة له. ولا يسعني تشبيهه إلّا بكرسيّ جانبيّ مُلحق بكرسيّ الرئيس، وقد سبق لأكثر من ثلاث وأربعين امرأة مختلفة أن جلسن فيه قبلي، وكلّ منهنّ قامت بذلك على طريقتها الخاصّة.

كانت معرفتي بسيطة بتاريخ أولئك السيدات ومقاربتهنّ لهذا المنصب. فكنت أعلم مثلًا أنّ جاكي كينيدي اهتمّت بتغيير ديكور البيت الأبيض، وأتذكّر أنّ روزالين كارتر شاركت في الاجتماعات الحكوميّة، وأنّ نانسي ريغن واجهت بعض المتاعب حين قبلت فساتين قدّمها إليها مصمّمو الأزياء مجانًا، وأنّ هيلاري كلينتون تعرّضت للسخرية بسبب ممارستها دور واضعة سياسات في حكومة زوجها. قبل عامين من وصولي إلى البيت الأبيض، شاركتُ في غداء لزوجات أعضاء في مجلس الشيوخ الأميركي. بمزيج من الشعور بالصدمة والرهبة، شاهدتُ لورا بوش تقف يومذاك رصينة، باسمة، لتُلتقط لها صور رسميّة مع نحو مئة شخص، من دون أن تفقد ثباتها للحظة أو تطلب الاستراحة ولو لمرّة واحدة. كانت صور زوجات الرؤساء الأميركيين تظهر في الإعلام وهنّ يشربن الشاي مع زوجات كبار القادة الأجانب، كما كنّ يرسلن بطاقات المعايدة

الرسميّة في الأعياد ويلبسن فساتين جميلة إلى حفلات العشاء الرسميّة. كنت أعلم أيضًا أنّهنّ يخترن بعض القضايا الاجتماعية ليناصرنها.

أدركت أنّ المعايير التي ستُستخدَم للحكم عليّ ستختلف، لأنّ مجرّد كوني السيدة الأميركية الأولى السوداء الوحيدة التي دخلت البيت الأبيض حتّى تاريخه، يجعل منّي «مختلفة» حُكمًا. وإذا كانت الكياسة صفة مفترضة تلازم بالضرورة كلّ زوجات الرؤساء البيضاوات اللواتي جئن قبلي، فقد علمتُ أنّ الأمر سيختلف بالنسبة إليّ. علّمتني هفوات الحملة الانتخابيّة أنّ عليّ أن أكون أسرع وأذكى وأقوى من أيّ وقت مضى، وأنّ الكياسة صفة عليّ أن أبذل جهدًا لاكتسابها. قلقتُ لأنّ أميركيّات كثيرات لا يرين فيّ انعكاسًا لصورتهنّ، أو يجدن في رحلة حياتي ما يشبههنّ. لم أكن أملك ترف تأجيل الحكم عليّ بانتظار أن أتعوّد دوري الجديد شيئًا فشيئًا. وجدتُ أنني لا أزال ضعيفة وسريعة التأثر جدًّا بالمخاوف التي لا أساس لها، وبالأفكار العنصريّة النمطية والمترسّخة في الوعي العامّ، والجاهزة للظهور إلى العلن مع أوّل شائعة أو تلميح.

غمرني شعور بالتهيّب والإثارة لأنني سأصبح السيّدة الأولى، لكنّني لم أخل للحظة أنه سيكون دورًا سهلًا ومحاطًا بالأضواء المتألّقة. فهذا ليس متاحًا لأيّ شخص أسود قُدِّر له أن يكون «الأوّل» في أيّ دور. كنت واقفة عند أسفل الجبل مدركة أنّ عليّ أن أتسلّقه لكي أفوز بمحبّة الناس.

أيقظ لديّ هذا الوضع ردّ فعل قديمًا يعود إلى الفترة التي ارتدت فيها ثانويّة Whitney Young لأجد نفسي فجأة فريسة للشكّ. آنذاك تعلّمت أنّ على الإنسان أن يستمدّ الثقة من ذاته أحيانًا. كلمات قليلة قلتها لنفسي مرّات كثيرة في أثناء تسلّقي الجبال:

هل أنت قادرة؟ نعم، قادرة.

كانت الأيّام الستّة والسبعون الفاصلة بين الانتخاب واحتفال التنصيب فترة حسّاسة جدًّا يجب أن أبدأ خلالها برسم صورة السيّدة الأولى التي أردتها لنفسي. بعد كلّ ما بذلته لأترك

عملي كمحامية في قطاع الأعمال وأمارس نشاطًا أغنى بمعانيه ويهدف إلى خدمة المجتمع، عرفت أنّني سأشعر بسعادة أكبر إذا ما استطعت الانخراط بشكل فعّال في العمل الاجتماعيّ وبذل الجهد لتحقيق نتائج ملموسة. أردت أن أفي بوعودي لزوجات العسكريّين اللواتي التقيتهنّ في خلال الحملة الانتخابية، وأن أساعد على نشر قصصهنّ وأن أجد سبلًا لمساعدتهنّ. كما كنت أطمح إلى إقامة بستان للفاكهة والخضر، وتحسين صحّة الأطفال ومستوى التغذية على نطاق أوسع.

لم أشأ أن أمرّ على تلك القضايا مرور الكرام. فنيّتي كانت الوصول إلى البيت الأبيض باستراتيجيّة مدروسة بعناية ومع فريق عمل قويّ يساندني. إذا كنت قد تعلّمت شيئًا من بشاعة الحملة الانتخابيّة، ومن الطرق الكثيرة التي لجأ إليها البعض لتشويه سمعتي بحجّة أنّني سريعة الغضب وغير مناسبة لدور زوجة الرئيس، وهو أنّ أحكام الرأي العامّ تسدّ بسرعة أيّ فراغ ناتج عن غياب المواقف. فإذا لم يهبّ الشخص ليحدّد موقفه، فلن يلبث الآخرون أن يحدّدوا هم موقفه وعلى نحو غير صحيح. لم أشأ تحجيم نفسي بدور سلبيّ، في انتظار أن يحدّد لي فريق باراك الاتجاه الذي عليّ السير به. بعد الاختبار القاسي الذي خضته السنة الماضية، علمت أنّني لن أسمح لنفسي أبدًا بأن أتعرّض مجدّدًا لما تعرّضت له.

كان عليّ أن أفكّر بسرعة لإنجاز كلّ ما يجب القيام به. لم يكن بوسعي التخطيط سلفًا لهذا الانتقال لئلّا يُفَسَّر استباق الأمور غرورًا. فكان صعبًا على امرأة تهوى التخطيط مثلي أن تلجم نفسها لفترة. لذلك توجّب علينا بعد الحملة أن نعمل بطاقة مضاعفة. كان الاهتمام بساشا وماليا على رأس لائحة أولويّاتي آنذاك، فقد أردتهما أن تستقرّا بأسرع ما يمكن وحرصت على راحتهما، ما يعني أنّ عليّ التدقيق في كلّ تفاصيل انتقالنا إلى البيت الأبيض، والعثور على مدرسة جديدة لهما في واشنطن، تشعران فيها بالسعادة.

بعد الانتخابات بستّة أيّام، سافرت إلى واشنطن بعدما حُدِّدت

لي مواعيد للاجتماع بمديري بعض المدارس. لو كان الظرف طبيعيًّا لانحصر اهتمامي بالمستوى الأكاديميّ والثقافيّ لكلّ من تلك المدارس. لكنّ الظرف كان مختلفًا فهناك عوامل جديدة ومعقّدة يجب التفكير فيها ومناقشتها، مثل إجراءات العمل الخاصّة بجهاز الحماية، وخطط الإجلاء في الحالات الطارئة، واستراتيجيّات حماية خصوصيّة ابنتينا بعدما باتتا محطّ أنظار البلد كلّه. أصبحت الأمور البسيطة والعاديّة شديدة التعقيد، وتستوجب اطلاع عدد أكبر من الأشخاص عليها، وبات علينا إجراء محادثات طويلة قبل اتّخاذ أصغر القرارات.

استطعت، والحمد لله، أن أقنع المجموعة الأساسيّة ضمن فريق عملي في الحملة الانتخابيّة – وأعني ميليسا وكايتي وكريستن – بالبقاء معي في هذه الفترة الانتقاليّة. وفي الحال بدأنا التفكير في الترتيبات اللوجستية لانتقال العائلة، وتوظيف فريق يشمل مسؤولين عن تحديد المواعيد، وخبراء سياسات، واختصاصيّي تواصل، للعمل في مكتبي في الجناح الشرقيّ للبيت الأبيض. كذلك بدأنا إجراء مقابلات لإيجاد موظّفين للعمل في مقرّ الإقامة العائليّ. كانت جوسلين فراي بين أوّل مَن قمت بتوظيفهم، وهي صديقة قديمة من كلية الحقوق صاحبة قدرة مدهشة على التحليل، واتفقنا على تعيينها مستشارتي السياسية لمساعدتي في الإشراف على المبادرات التي أنوي إطلاقها.

في هذا الوقت كان باراك يعمل على اختيار وزرائه، ويلتقي خبراء عدّة للتباحث في سبل إنقاذ الاقتصاد. كان نحو عشرة ملايين أميركيّ يعانون البطالة آنذاك، وصناعة السيارات تشهد تدهورًا خطيرًا جدًّا. بمجرّد أن أرى ملامح زوجي بعد تلك الاجتماعات، وفكّيه المتشنّجين، كنت أستشفّ أنّ الوضع أسوأ بكثير مما يدركه معظم الأميركيين. كذلك بدأ باراك يتلقّى تقارير استخباريّة يوميّة مكتوبة، بعدما بات فجأة مخوّلًا الاطّلاع على أخطر الأسرار الوطنيّة، كالتهديدات الخفية، والتحالفات غير المعلنة، والعمليات السرية.

ولمّا كان جهاز الحماية السريّ سيتولّى حمايتنا للسنوات المقبلة، اختيرت لنا أسماء سرية رسمية. وهكذا بات باراك « Renegade»، وأنا « Renaissance». وسُمح لابنتينا باختيار اسميهما من لائحة معدّة سلفًا تتضمّن أسماءً متشابهة في اللفظ. فباتت ماليا « Radiance» فيما اختارت ساشا « Rosebud». ولاحقًا حظيت والدتي باسمها السريّ غير الرسميّ، وهو « Raindance».

عند مخاطبتي، كان أفراد جهاز الحماية ينادونني على نحو شبه دائم بلقب « Ma'am» (سيّدتي)، كما في عبارات «من هنا يا سيّدتي»، أو «أرجو أن تعودي إلى الخلف يا سيّدتي»، أو «سيّدتي، سيارتك لن تلبث أن تصل».

في البداية، رغبت في أن أسألهم: «من هي Ma'am؟» إذ بدا لي أنّهم يخاطبون امرأة عجوزًا، رزينة، تحمل حقيبة يد وتنتعل حذاءً مريحًا من دون كعب، ربّما كانت تجلس في مكان قريب.

لكنّ « Ma'am» كانت أنا. وليس اللقب إلّا جزءًا من هذه المرحلة الانتقالية المجنونة التي نمرّ بها.

كنت أفكّر في ذلك كلّه يوم سافرت إلى واشنطن لزيارة المدارس. بعد أحد اجتماعاتي، عدت إلى مطار Reagan National Airport للقاء باراك، المتوقّع وصوله من شيكاغو. كان الرئيس والسيّدة بوش قد دعوانا لزيارة البيت الأبيض، وفقًا للبروتوكول الخاصّ بالرئيس المنتخب، ورتّبنا لكي تتمّ تلك الزيارة تزامنًا مع رحلتي إلى واشنطن بحثًا عن مدرسة لابنتيّ. وقفت في مبنى الركّاب الخاصّ أنتظر هبوط طائرة باراك، وبجانبي كورنليوس ساوثول، أحد العملاء المسؤولين عن قيادة المجموعة المولجة بالحفاظ على سلامتي الشخصيّة.

كان كورنليوس لاعب كرة قدم سابق عريض الكتفين، عمل في فريق الأمن الخاصّ بالرئيس بوش. وككلّ رجال الأمن المولجون بأمني الخاصّ، كان ذكيًّا ومدرّبًا على أن يبقى يقظًا دائمًا، وأشبه بجهاز استشعار بشريّ. يومذاك، وفيما كنّا نشاهد طائرة باراك تتوقّف على مسافة عشرين مترًا منّا، سبقني إلى الإحساس

بشيء ما.

«Ma’am »، قال لي فيما كان يصغي إلى معلومة جديدة تصله عبر سمّاعته، «حياتك ستتغيّر إلى الأبد».

حين نظرت إليه نظرة تساؤل، تابع يقول: «انتظري وحسب».

ثمّ أشار ناحية اليمين، فالتفتّ لأرى. وفي اللحظة عينها، ظهر عند أحد المنعطفات جيش ضخم من العربات يتقدّم كأفعى تتلوّى، يشمل رتلًا من السيّارات والدرّاجات الناريّة الخاصّة بالشرطة، ومجموعة من السيّارات الرباعية الدفع السوداء الضخمة، وسيّارتي ليموزين مصفّحتين رُفعت عليهما الأعلام الأميركيّة، وشاحنة تجهيزات للتخفيف من آثار انفجار الموادّ الخطرة، وفرقة قتالية سيّارة يحمل أفرادها أسلحة رشّاشة ظاهرة، وسيّارة إسعاف، وشاحنة إشارة مجهّزة لاكتشاف القذائف قبل وصولها، وعدّة باصات صغيرة للركّاب، ومجموعة مواكبة أخرى تابعة للشرطة. اقترب موكب الرئيس، المؤلف من عشرين عربة على الأقلّ تتحرّك في تشكيل منسّق، سيّارة بعد سيّارة بعد سيّارة، إلى أن توقّفت بهدوء تامّ، فيما واصلت سيّارتا الليموزين تقدّمهما لتتوقّفا مباشرة أمام طائرة باراك.

التفتّ إلى كورنليوس وسألته: «هل إحدى سيّارتَي الليموزين للتمويه؟ أبهذا الشكل سيتنقّل الرئيس من الآن فصاعدًا؟»

ابتسم وأجاب: «نعم، كلّ يوم، طوال فترة رئاسته. هذا ما سيكون الأمر عليه كلّ مرّة».

استوعبت المشهد: آلاف الكيلوغرامات من المعدن، وفرقة من الكوماندوس، وعربات مصفّحة بالكامل. يومذاك لم أدرك أنّني لم أرَ من ترتيبات حماية باراك إلّا نصفها، وأنّ مروحيّة قريبة ترافقه دائمًا لإجلائه عند الضرورة، وأنّ جنودًا من القنّاصة يتمركزون فوق سطوح الأبنية على طول الطرقات التي يسلكها، وأنّ طبيبًا شخصيًّا يرافقه دائمًا تحسّبًا لأيّ طارئ صحّي، وأنّ السيّارة التي يركبها تحتوي دائمًا على مخزون دم من فئة دمه الخاصّة تحسّبًا لاحتمال حاجته إلى نقل دم. بعد أسابيع قليلة، وقبيل احتفال تنصيب باراك، أُدخلت في الخدمة سيّارة ليموزين رئاسيّة من

طراز جديد – تحمل لقبًا يليق بها: «الوحش» – وهي عبارة عن دبّابة وزنها سبعة أطنان مموّهة بشكل سيّارة فخمة، ومزوّدة بمدافع خفيّة لإطلاق الغاز المسيّل للدموع، وإطارات مقاومة للتمزّق، ونظام تهوئة مقفل يتيح للرئيس التنفّس بحال وقوع هجوم بيولوجيّ أو كيميائيّ.

كنت زوجة أحد الرجال المحاطين بأشدّ ترتيبات الحراسة في العالم. وكان هذا الأمر مصدر ارتياح وتوتّر في الوقت عينه.

نظرت إلى كورنليوس الذي أشار إليّ بأن أتقدّم إلى سيّارة الليموزين، قائلًا:

«يمكنك أن تتقدّمي الآن يا سيّدتي».

لم يسبق لي أن دخلت البيت الأبيض إلّا مرّة واحدة، قبل عامين. تولّى مكتب باراك في مجلس الشيوخ تسجيلي مع ماليا وساشا للقيام بجولة خاصّة على البيت الأبيض خلال إحدى زياراتنا إلى واشنطن، بهدف الترفيه. في العادة، يتجوّل الزوّار في مقرّ الرئاسة الأميركيّة من دون دليل، لكنّ جولتنا قادها أحد القيّمين على البيت الأبيض، ورافق مجموعةً صغيرة كنّا ضمنها في أروقته الفخمة وقاعاته العامّة.

حدّقنا في الثريات المصنوعة من الزجاج المزخرف والمتدلية من سقف الصالون الشرقيّ المرتفع، حيث أقيمت تاريخيًّا الحفلات الراقصة وحفلات الاستقبال الفخمة، ونظرنا إلى خدَّي جورج واشنطن الأحمرين ورصانة تعابيره في اللوحة الضخمة ذات الإطار الذهبيّ المعلّقة على أحد الجدران. كما أخبرنا دليلنا أنّ السيّدة الأولى أبيغايل أدامز استخدمت هذا المكان الواسع في أواخر القرن الثامن عشر لتعليق ملابسها المغسولة، وأنّ الجنود الاتحاديّين أقاموا في هذا المكان إبّان الحرب الأهلية. وفي ذلك الصالون الشرقي احتُفل بزفاف عدد من بنات الرؤساء، وعُرض نعشا أبراهام لينكولن وجون كينيدي لإلقاء النظرة الأخيرة عليهما.

مرّ ببالي حينذاك رؤساء الولايات المتحدة المختلفون، وحاولت المقارنة بين ما تعلّمته في دروس التاريخ وما رأته العائلات التي سارت في تلك القاعات. أكثر ما أثار دهشة ماليا، التي كانت في

الثامنة من عمرها يومذاك، ضخامة المكان، أما ساشا، وكان عمرها خمسة أعوام، فكانت تبذل قصارى جهدها لئلّا تلمس الأشياء الكثيرة التي لا يُفترض بنا لمسها. وبصعوبة تمكّنت من ضبط نفسها بعدما انتقلنا من الصالون الشرقي إلى الصالون الأخضر ذي الجدران المكسوّة بالحرير الفخم الزمرّديّ اللون، وحيث تُروى قصّة جايمس ماديسون وحرب العام 1812، كما حين دلفنا إلى الصالون الأزرق بأثاثه الفرنسيّ، حيث تُروى قصّة زفاف غروفر كليفلاند. ولكن حين دعانا دليلنا لنسير معه إلى الصالون الأحمر، رفعت ساشا بصرها إليّ وقالت بصوت مضطرب: «لا! لا أريد أن أدخل صالونًا آخر!»، فهدّأتُ من روعها بسرعة ونظرت إليها نظرة أم لا تريد أن تحرجها ابنتها.

ولكن حقًّا، مَن يمكنه لومها؟ فالبيت الأبيض قصر ضخم، فيه 132 غرفة و35 مرحاضًا و28 مدفأة موزّعة على طوابقه الستّة، وفيه من التاريخ ما لا يمكن أبدًا لجولة سياحيّة واحدة أن ترويه. كان من الصعب بصراحة أن يتخيّل المرء أنّ حياة حقيقيّة دارت فصولها هنا. وفي مكان ما من الطابق الواقع تحتنا، كان الموظّفون الحكوميّون يدخلون ويخرجون، بينما في مكان ما فوقنا، يعيش الرئيس وزوجته ومعهما كلابهما الترييير السكوتلندية في مقرّ الإقامة العائليّ. لكنّنا كنّا نقف في جزء مختلف من المنزل، في بقعة تشبه متحفًا، حيث الزمن تجمّد، والرمزيّة لا تزال حيّة وذات أهمّية، وماضي بلادنا معروض أمام الجميع.

بعد عامين، وصلتُ إلى المكان عينه من جديد، ولكن هذه المرّة عبر باب مختلف، ومع باراك. أتينا لنرى المكان الذي سيصبح منزلنا عمّا قريب.

استقبلنا الرئيس والسيّدة بوش في قاعة الاستقبالات الدبلوماسيّة، خلف الحديقة الجنوبيّة. شدّت السيّدة الأولى على يدي بحرارة، وقالت لي: «ناديني لورا، رجاءً». لم يكن استقبال زوجها لنا أقلّ حفاوة، فالروح السمحة التي يتمتّع بها أبناء تكساس تغلّبت على مشاعر الحنق السياسيّة. كان باراك قد وجّه طوال الحملة الانتخابيّة نقدًا شديدًا ودقيقًا إلى أسلوب

الرئيس في القيادة، واعدًا الناخبين بأنّه سيغيّر الأمور الكثيرة التي يعتبرها أخطاء. من الطبيعيّ أنّ بوش الجمهوريّ قد دعم المرشّح جون ماكين، لكنّه تعهّد أيضًا بأن تكون هذه الفترة الانتقالية بين الرئاستين الأكثر سلاسة في التاريخ، ووجّه تعليماته إلى كلّ الوزارات بإعداد ملفّات وافية لشرح كلّ الأوضاع للإدارة الجديدة. كذلك كان فريق عمل السيّدة الأولى يعدّ لوائح اتّصالات ورزنامات ونماذج مراسلات لمساعدتي على تدبّر أمري في الواجبات الاجتماعية التي ينبغي على السيدة الأولى القيام بها. كان ذلك كلّه يجري بلطف، ومدفوعًا بحبّ حقيقيّ لبلادنا سيكون دائمًا محطّ تقديري وإعجابي.

برغم أنّ الرئيس بوش لم يثر الموضوع بصورة مباشرة، أكاد أجزم أنّني رأيت يومذاك أولى علامات الارتياح على وجهه لمعرفته أنّ ولايته تشارف على الانتهاء، وأنّه أدّى واجبه وبات بوسعه العودة قريبًا إلى دياره في تكساس. لقد آن الأوان ليدخل الرئيس المقبل عبر الباب.

فيما سار زوجانا إلى المكتب البيضاويّ ليتحادثا، قادتني لورا إلى المصعد الخاصّ ذي الجدران المكسوّة بالخشب والمخصّص لعائلة الرئيس، والذي يتولّى تشغيله رجل أفريقيّ أسود يرتدي التوكسيدو ويتصرّف بمنتهى اللباقة.

فيما ارتفع بنا المصعد إلى الطابق الثاني حيث مقرّ إقامة العائلة، سألتني لورا عن حال ساشا وماليا. كان لها من العمر حينذاك اثنان وستّون عامًا، وربّت ابنتين كانتا أكبر سنًّا حين عاشتا في البيت الأبيض. عملت لورا في السابق مدرّسة وأمينة مكتبة، وقد استفادت من موقعها كسيّدة أولى لتعزيز القطاع التربوي والدفاع عن حقوق المعلّمين. نظرت إليّ تتفحّصني بعينين زرقاوين دافئتين، وسألتني:

«كيف حالك؟»

«مشغولة جدًّا»، اعترفت لها.

«أعرف. صدّقيني، أعرف»، أجابتني بابتسامة عكست تعاطفًا حقيقيًّا.

لم أكن قادرة حينذاك على أن أستوعب تمامًا معنى ما قالته، لكنّني غالبًا ما تذكّرته لاحقًا. كنت وباراك ننضمّ إلى مجتمع صغير وغريب جدًّا يتألّف من عائلة كلينتون، وعائلة كارتر، وعائلتي بوش الأب والابن، ونانسي ريغن، وبيتي فورد. إنّهم الوحيدون في العالم الذين كانوا يعرفون ما ينتظرنا، باراك وأنا، وقد اختبروا عن كثب ملذّات الحياة ومصاعبها الفريدة من نوعها في البيت الأبيض. برغم الاختلاف بيننا، فقد كان هذا رابطًا سيجمعنا على الدوام.

سارت بي لورا في المقرّ العائليّ، تريني الغرف واحدة تلوَ الأخرى. يمتدّ الجناح الخاصّ في البيت الأبيض على مساحة حوالى ألف وتسع مئة متر مربّع، في الطابقين الأخيرين من المبنى التاريخيّ الأساسيّ ذي الأعمدة البيضاء الشهيرة، والذي يظهر في الصور. رأيت غرفة الطعام الخاصة بعائلات الرؤساء، كما دخلت المطبخ الفائق التنظيم، حيث كان فريق الطهاة يعدّ العشاء. رأيت أيضًا غرف الضيوف في الطابق الأخير، وتفقّدتها لعلّي أجد فيها ما يناسب والدتي، إذا ما استطعنا إقناعها بالانتقال للسكن معنا. (في المقرّ الرئاسي أيضًا نادٍ رياضيّ صغير، كان أكثر ما أثار حماسة باراك والرئيس بوش حين قاما بالجولة التفقّدية نفسها.) تركّز اهتمامي على غرفتَي النوم اللتين وجدتهما الأنسب لساشا وماليا، وغير البعيدتين من غرفة النوم الرئيسية.

كان أساسيًّا بالنسبة إليّ أن تشعر الفتاتان بالارتياح وبأنّهما في منزلهما. إذا ما استثنينا الأبهة والظرف، وأعني بذلك الانتقال الشبيه بالقصص الخيالية إلى منزل كبير فيه طهاة وصالة للبولينغ وحوض سباحة، فإنّ ما أفعله وباراك ليس أمرًا قد يرغب أيّ والد أو والدة في فعله، أي اقتلاع ابنتينا في منتصف العام الدراسيّ من مدرسة تحبّانها، وإبعادهما عن أصدقائهما، ونقلهما إلى منزل جديد ومدرسة جديدة من دون تهيئتهما لذلك على نحو كافٍ. تلك الفكرة شغلت بالي، ولكنّني ارتحت إلى معرفة أنّ أمّهات وأولادًا آخرين فعلوا ذلك قبلي، ونجحوا به.

قادتني لورا إلى غرفة جميلة مشرقة بجانب غرفة النوم

الرئيسيّة، تُستخدم تقليديًّا غرفة ملابس خاصّة بالسيّدة الأولى. ومن هناك دلّتني عبر النافذة إلى حديقة الورود والمكتب البيضويّ، وأضافت أنّها تشعر بالارتياح حين تنظر إلى الخارج، وبأهمّية ما يقوم به زوجها. وأضافت أنّ هيلاري كلينتون دعتها لترى المنظر عينه أثناء زيارتها الأولى للبيت الأبيض قبل ثماني سنوات. وقبل ذلك بثماني سنوات أيضًا، كانت حماتها، باربرا بوش، تدعو هيلاري لمشاهدة المنظر عينه. نظرتُ عبر النافذة وأدركتُ أنّني جزء من استمراريّة في خدمة الأمّة.

في الشهرين التاليين، شعرت برابط قويّ يجمعني بأولئك النساء. بكثير من اللياقة، أطلعتني هيلاري عبر الهاتف على تجربتها الخاصة في اختيار مدرسة لتشيلسي. كما عقدتُ اجتماعًا مع روزالين كارتر، وأجريت اتّصالًا هاتفيًّا بنانسي ريغن، فأحاطتني كلتاهما بالدفء وعرضتا عليّ الدعم. دعتني لورا أيضًا للعودة مع ساشا وماليا بعد أسابيع، حين تكون ابنتاها جينا وباربرا في البيت الأبيض، لتعرّفا ابنتيّ إلى «الأجزاء المسلّية» من المنزل، بدءًا من المقاعد الوثيرة في صالة السينما الخاصّة، وصولًا إلى التزحلق في ممرّات الطابق الأعلى.

كان ذلك يملأ قلبي فرحًا، وبدأتُ أتطلّع إلى اليوم الذي أنقل فيه تجربتي إلى السيّدة الأولى المقبلة.

انتقلنا إلى واشنطن بعد إجازة عيد الميلاد التي اعتدنا قضاءها في هاواي، حتّى تستطيع ساشا وماليا أن تبدآ الدراسة مع عودة رفاقهما الجدد من الإجازة الشتوية. أسابيع ثلاثة كانت لا تزال تفصلنا عن حفل التنصيب، مما يعني أنّه علينا القيام بترتيبات مؤقّتة، واستئجار غرف في الطابق الأعلى من فندق هاي آدامز في وسط المدينة. كانت غرفنا تشرف على La Fayette Square والحديقة الشماليّة للبيت الأبيض، حيث رأينا أعمال بناء المنصّة الكبرى والمدرّجات المعدنيّة استعدادًا لاستعراض التنصيب. كان أحدهم قد علّق لافتة ضخمة على المبنى المقابل للفندق، كُتب عليها: «أهلًا بماليا وساشا»، جعلتني رؤيتها أغصّ قليلًا.

بعد كثير من البحث، وزيارتين، ومحادثات عدّة، قرّرنا تسجيل ابنتينا في Sidwell Friends وهي مدرسة خاصّة تابعة لـ«الكويكر» وذات سمعة ممتازة. كان على ساشا طالبة الصفّ الثاني الذهاب إلى المدرسة الأساسية في ضاحية بيتيسدا، ماريلاند. أمّا ماليا، طالبة الصفّ الخامس، فستكون في المبنى الرئيس للمدرسة، الكائن في حيّ هادئ يبعد كيلومترات قليلة إلى الشمال من البيت الأبيض. كانت رحلة الذهاب والإياب من وإلى المدرسة على عاتق الموكب الرئاسيّ، على أن ترافق كلًّا من الفتاتين مجموعة مسلّحة من جهاز الحماية، يبقى بعض أفرادها خارج باب الصفّ ويتبعونهما حيثما ذهبتا، إلى الاستراحات، أو إلى الملعب، أو إلى قاعة الرياضة.

بتنا نعيش في ما يشبه الفقاعة، معزولين عن العالم، جزئيًّا على الأقلّ. لم أعد أتذكّر متى كانت آخر مرّة خرجت فيها بمفردي للتسوّق أو للتنزّه في حديقة عامّة. كانت كلّ حركة نقوم بها تتطلّب تنسيقًا مسبقًا يتعلّق ببرنامجها وأمنها. كانت تلك الفقاعة قد بدأت تتشكّل حولنا ببطء في خلال الحملة الانتخابيّة مع ازدياد شهرة باراك وبروز الحاجة إلى وضع حدود بيننا وبين الجمهور، وفي بعض الأحيان، بيننا وبين أصدقائنا وأفراد عائلاتنا. كان شعوري بأنّني في تلك الفقاعة غريبًا وغير ممتع، لكنّني أدركت أيضًا أنّه لمصلحتنا. لم تعد سيّاراتنا التي باتت الشرطة تواكبها تتوقّف عند إشارات المرور. ونادرًا ما كنّا ندخل مبنى أو نغادره عبر بابه الرئيسيّ، بل عبر مدخل الخدمة أو باحة تحميل البضائع في شارع جانبيّ. كان جهاز الحماية يرى أنّ من الأفضل لنا أن نقلّل من نسبة ظهورنا للعيان قدر استطاعتنا.

تشبّثت بأمل أن تكون فقّاعة ساشا وماليا مختلفة، وأن يكون بالإمكان الحفاظ على أمنهما من دون التضييق عليهما كثيرًا، فيُفسح لهما مجال للحركة أوسع ممّا هو متاح لنا. أردتهما أن تكوّنا صداقات حقيقية، وأن تجدا أولادًا يحبّونهما لأسباب لا تتعلّق بكونهما ابنتي باراك أوباما. أردتهما أن تتعلّما، وتخوضا المغامرات، وترتكبا أخطاء، وتنهضا. رجوت أن تكون المدرسة بمثابة ملجأ لهما،

ومكان تتصرّفان فيه على طبيعتهما. أعجبتنا Sidwell Friends لأسباب كثيرة، ومنها أنّها المدرسة التي ارتادتها تشيلسي كلينتون حين كان والدها رئيسًا. كما كان موظّفوها يعرفون كيف يحافظون على خصوصيّة طلّابهم من أبناء الشخصيّات الرفيعة، وقد أعدّوا الإنشاءات الأمنيّة التي تحتاج إليها ماليا وساشا، ما يعني أنّنا لن نشكّل عبئًا ماليًّا كبيرًا على المدرسة. وفوق كلّ ذلك، شعرت بارتياح إلى المكان، لأنّ فلسفة «الكويكر» تتمحور حول المجتمع، وفكرة عدم تفضيل فرد على آخر، وهو ما بدا لي بمثابة تعويض مفيد لهما عن الهالة الكبيرة التي باتت تحيط بوالدهما.

في اليوم الأوّل من المدرسة، تناولت وباراك فطورًا مبكرًا في جناحنا في الفندق مع ماليا وساشا قبل أن نساعدهما على ارتداء معطفيهما الشتويين. لم يستطع باراك منع نفسه من تقديم النصح إليهما حول كيفيّة قضاء اليوم الأوّل في مدرسة جديدة: «حافظا على ابتسامتيكما، كونا لطيفتين، أصغيا إلى أساتذتكما»، ليضيف أخيرًا فيما كانت الفتاتان تحملان حقيبتَي الظهر البنفسجيّتين: «وإيّاكما أن تنقرا أنفيكما!». انضمّت إلينا أمّي في الرواق، واستقلّينا المصعد.

كان جهاز الحماية قد أقام خارج الفندق خيمة تبعدنا عن أنظار الصحافيين وطواقم التلفزة الذين لازموا مدخل الفندق طمعًا بالتقاط صور لعائلتنا في الفترة الانتقاليّة. كان باراك الذي وصل من شيكاغو ليلًا، يأمل أن يرافق الفتاتين إلى المدرسة، لكنّه علم أنّ ذلك سيسبّب جلبة كبرى لأن الموكب الرئاسيّ ضخم جدًّا. رأيت الحزن في وجهه حين عانقته ساشا وماليا قبل خروجهما.

رافقت ووالدتي الفتاتين في «حافلتهما المدرسية» الجديدة، وأعني سيارة رباعية الدفع سوداء ذات نوافذ غامقة اللون من الزجاج المقاوم للرصاص. حاولت في ذلك الصباح أن أتظاهر بالثقة، وأبتسم لابنتيّ وأمازحهما. إلّا أنّ التوتّر الشديد استبدّ بي، وراودني ذلك الشعور بأنّني أعيش في خطر داهم. وصلنا في البداية إلى المدرسة الابتدائية، حيث مررت وماليا بين صفّين

من كاميرات التلفزة لندخل المبنى، يحيط بنا أفراد جهاز الحماية. بعدما سلّمتُ ماليا إلى معلّمتها الجديدة، قادنا الموكب الرئاسيّ إلى بيتيسدا، حيث كرّرت الأمر نفسه مع ساشا الصغيرة، وتركتها في صفّ جميل فيه طاولات خفيضة ونوافذ عريضة، وهو ما رجوت أن يكون مكانًا آمنًا وسعيدًا.

عاد بي الموكب الرئاسيّ إلى فندق هاي آدامز، وأنا مستكينة في فقّاعتي. كان يوم حافل بالمواعيد ينتظرني، لكنّ ابنتيّ لم تفارقا تفكيري. كيف تعيشان يومهما؟ ماذا تأكلان؟ هل يحدّق الآخرون فيهما كنجمتين أم يُشعرونهما وكأنّهما في منزلهما؟ لاحقًا رأيت في الصحف صورة لساشا، وهي في طريقها إلى المدرسة صباحًا، جعلتني أبكي. أظنّها التُقطت وأنا أوصل ماليا إلى صفّها، فيما مكثت ساشا ووالدتي تنتظرانني في السيّارة. ألصقت وجهها المستدير الصغير بزجاج السيارة وراحت تحملق في الخارج بعينين واسعتين مسترسلة في التفكير، ومحدّقة بالمصوّرين والمتفرّجين. كان من المستحيل معرفة ما تفكّر فيه بتلك اللحظة، غير أنّ تعابير وجهها بدت هادئة ورصينة.

كنّا نطلب منهما الكثير. لازمتني تلك الفكرة، ليس فقط طوال ذلك اليوم، بل لشهور وسنوات تلت.

كانت وتيرة العمل تتسارع خلال المرحلة الانتقاليّة، وكان عليّ اتّخاذ مئات القرارات الملحّة. كان يُفترض بي أن أختار كلّ شيء للمقرّ العائليّ، بدءًا من مناشف الحمّام ومعجون الأسنان وصولًا إلى سائل تنظيف الصحون والبيرة، وأن أنتقي ما سأرتديه في احتفال التنصيب والحفلات الراقصة الفخمة التي ستليه، والتفكير في الأمور اللوجستيّة المتعلّقة بأصدقائنا وأقربائنا البالغ عددهم نحو مئة وخمسين شخصًا، والآتين من خارج واشنطن ليكونوا ضيوفنا في الاحتفال. فوّضت ميليسا وأفرادًا آخرين من الفريق بما أمكنني تفويضه. كذلك وظّفنا مايكل سميث، وهو مهندس ديكور موهوب وجده لنا أحد أصدقائنا من شيكاغو، لمساعدتنا على تغيير ديكور المقرّ العائليّ والمكتب البيضويّ وأثاثهما.

علمت أنّ للرئيس المنتخب الحقّ في مئة ألف دولار لتغطية

نفقات انتقاله إلى البيت الأبيض وتغيير الديكور، لكنّ باراك أصرّ على أن ندفع كلّ شيء من حسابنا الخاصّ، مستخدمين عائدات كتابه. كان هذا عهدي به منذ عرفته: شديد اليقظة في كلّ ما يتعلّق بالمال والأخلاقيّات، ويلزم نفسه بمعايير أعلى ممّا يحدّده القانون حتّى. يتناقل السود حكمة شعبيّة تقول: «على المرء أن يكون أفضل بمرّتين ممّن سبقوه ليبلغ نصف ما بلغوه». وبما أنّنا العائلة الأفريقيّة الأميركيّة الأولى التي تصل إلى البيت الأبيض كان يُنظر إلينا على أنّنا نمثّل عرقنا الأسود. وكنّا نعلم أنّ أيّ هفوة أو خطأ في الحكم، سيتمّ تضخيمه جدًّا ويُعطى حجمًا أكبر بكثير ممّا هو عليه.

عمومًا، لم أكن مهتمّة بتغيير الديكور والتخطيط لاحتفال التنصيب بقدر اهتمامي بالتفكير في ما يمكنني القيام به من خلال دوري الجديد. في الواقع، لم أكن ملزمة بالقيام بشيء، فغياب أيّ توصيف لدوري يعني أنّني لم أكن مقيّدة بشروط محدّدة، وهذا ما منحني الحريّة لاختيار أجندتي. أردت التأكّد من أنّ أيّ مجهود أقوم به سيساعد على تحقيق الأهداف الكبرى للإدارة الجديدة.

شعرت بارتياح كبير حين عادت كلتا ابنتينا سعيدتين بعد اليوم الأوّل في المدرسة، والثاني، والثالث. باتت ساشا تُكلَّف بالقيام بواجبات مدرسيّة، وهو ما كان جديدًا تمامًا بالنسبة إليها. وسُجّل اسم ماليا للغناء في احتفال موسيقيّ تحييه جوقة المدرسة. قالتا لنا إنّ طلّاب الصفوف الأخرى كانوا ينظرون إليهما بدهشة أحيانًا، غير أنّ الجميع كانوا لطفاء. بعد ذلك بدأت رحلة الموكب الرئاسيّ من المدرسة وإليها تأخذ طابعًا روتينيًّا أكثر فأكثر. وبعد نحو أسبوع شعرت الفتاتان بقدر كاف من الارتياح يغنيهما عن مرافقتي إيّاهما إلى المدرسة، فحلّت أمّي مكاني في هذه المهمّة اليوميّة، ممّا سهّل من تعقيدات إجراءات الذهاب والإياب، وقلّل من أعداد أفراد جهاز الحماية والسيّارات والأسلحة.

لم تشأ أمّي أن تأتي معنا إلى واشنطن، لكنّني ضغطت عليها لإقناعها. فالفتاتان كانتا بحاجة إليها، وكذلك أنا. وأحببت أن أصدّق

أنّها كانت بحاجة إلينا أيضًا. فخلال السنوات القليلة الماضية كان حضورها شبه يوميّ في حياتنا، ومثّلت أفكارها العمليّة حلًّا لهموم الجميع. إلّا أنّها، وطوال سنواتها الإحدى والسبعين، لم تُقم خارج شيكاغو قطّ، فتردّدت في مغادرة الجانب الجنوبي لشيكاغو ومنزلها في جادّة يوكليد. وقد قالت لأحد الصحافيّين بعد الانتخابات بصريح العبارة: «أحبّ هؤلاء الأشخاص، لكنّني أحبّ منزلي. البيت الأبيض يذكّرني بمتحف. كيف يمكن للمرء أن ينام في متحف؟».

حاولت أن أشرح لها أنّها بانتقالها إلى واشنطن ستلتقي كثيرًا من الأشخاص المثيرين للاهتمام، ولن يكون عليها أن تطهو أو تنظّف المنزل بمفردها، كما ستخصَّص لها في الطابق الأعلى من البيت الأبيض مساحة أكبر ممّا كان لها في منزلها. لكنّ ذلك كلّه لم يعنِ شيئًا لتلك الامرأة المنيعة في وجه كلّ أشكال الرخاء والشهرة. في النهاية، اتّصلتُ بكريغ وقلت له: «عليك أن تكلّم أمّي بالنيابة عنّي وتقنعها بمرافقتنا». ونجح الأمر، فكريغ كان بارعًا في الإقناع عند الحاجة.

أقامت والدتي معنا في واشنطن ثماني سنوات، لكنّها زعمت في البداية أنّ انتقالها مؤقّت، وأنّها ستبقى فقط إلى أن تستقرّ حفيدتاها في حياتهما الجديدة. رفضت كذلك أن تُحبس في فقّاعة، فتنازلت عن خدمات جهاز الحماية، وتجنّبت وسائل الإعلام لتظلّ بعيدة عن الأضواء ويبقى حضورها خفيفًا. كما أثارت إعجاب خدم البيت الأبيض بإصرارها على غسل ملابسها بنفسها، وظلّت طوال سنوات تدخل إلى المقرّ العائلي وتغادره كما تشاء، فتخرج عبر البوابات قاصدة أقرب صيدليّة أو متجر حين تحتاج إلى شيء ما، وتكوّن لنفسها صداقات مع أشخاص جدد وتلتقيهم إلى الغداء بصورة منتظمة. وكلّما قال لها شخص غريب إنّها تشبه والدة ميشيل أوباما كثيرًا، كانت تهزّ كتفيها بأدب وتردّ: «نعم، كثيرًا ما أسمع هذا التعليق»، ثمّ تمضي لشأنها. كانت أمّي، وكعادتها، تقوم بالأمور على طريقتها الخاصّة.

حضر إلى احتفال التنصيب أفراد عائلتي كلّهم: أعمامي

وعمّاتي، أخوالي وخالاتي، وأولادهم. كما أتى أصدقاؤنا من هايد بارك، وصديقاتي وأزواجهنّ، وأحضر الجميع أولادهم. أعددنا احتفالات خاصّة بالكبار وأخرى خاصّة بالصغار في أسبوع التنصيب، ومن بينها حفلة موسيقيّة عشيّة التنصيب، وغداء خاصًّا بجانب الغداء التقليديّ في الكابيتول بعد قسم اليمين، ولعبة بحث عن أشياء مخبّأة وحفلة للأولاد في البيت الأبيض تقامان في أثناء حضورنا الحفلات الراقصة.

من أجمل المفاجآت في خلال الأشهر الأخيرة من الحملة الانتخابيّة، لقاؤنا بعائلة جو بايدن. فبرغم أنّ باراك وجو كانا خصمين سياسيّين قبل أشهر قليلة فقط، إلّا أنّ صلة طبيعيّة جمعت بينهما، واستطاع كلاهما التنقّل بسلاسة بين الجدّية في عملهما وخفّة الحياة العائليّة.

سرعان ما أحببت جيل، زوجة جو، وأعجبت بشجاعتها ورقّتها وأخلاقيّاتها في العمل. كانت قد تزوّجت جو في العام 1977 لتصبح زوجة أب لولديه، بعد خمس سنوات على مقتل زوجته الأولى وطفلته في حادث سير مأساويّ. ولاحقًا أنجبا ابنة. نالت جيل مؤخّرًا شهادة دكتوراه في التربية، ودرّست اللغة الإنكليزية في مدرسة حكوميّة في ديلاوير أثناء السنوات التي كان فيها جو سناتورًا، كما إبّان حملتيه الرئاسيّتين. وكانت مثلي تهتمّ بإيجاد طرق جديدة لدعم عائلات العسكريّين، ولكن كانت لها صلة عاطفية مباشرة شخصيّة بالأمر. فقد كان بو بايدن، ابن جو البكر، جنديًّا يخدم في العراق ضمن قوات الحراس الوطني، وقد مُنح إجازة قصيرة للسفر إلى واشنطن ومشاهدة أبيه يقسم اليمين ليصبح نائبًا للرئيس.

كان لجو خمسة أحفاد يتّصفون كلّهم بالودّ والتواضع، تمامًا مثل جو وجيل. حين أتوا إلى المؤتمر الوطنيّ للحزب الديمقراطيّ في دنفر، أحبّت ساشا وماليا حيويّتهم ونشاطهم، ولبّتا دعوتهم لحفلة في ثياب النوم في جناح جدّيهما في الفندق. لم يُبالِ أحد من الأطفال بكلّ الصخب السياسيّ حولهم، وانصبّ اهتمامهم على تكوين صداقات جديدة. ولطالما شعرنا بالامتنان لوجود أحفاد

بايدن بالقرب منّا.

كان البرد يوم التنصيب قارسًا جدًّا، لم تتجاوز فيه درجة الحرارة الصفر قطّ، لا بل أنّ شدّة الرياح جعلتنا نشعر بأنّها دون الصفر بكثير. في ذلك الصباح، قصدت وباراك الكنيسة مع الفتاتين، وأمّي، وكريغ وكيلي، ومايا وكونراد، وماما كاي. كنّا طوال الوقت نسمع حركة الناس وهم يتجمّعون في حديقة National Mall قبل الفجر بانتظار بداية الاحتفالات. صحيح أنّني شعرتُ بالبرد يومذاك، لكنّني لن أنسى أبدًا العدد الضخم من الناس الذين قضوا ساعات طويلة في العراء غير آبهين بالزمهرير في سبيل أن يشاهدوا الاحتفال. علمنا لاحقًا أنّ ما يقارب المليوني شخص تدفّقوا إلى الحديقة آتين من كلّ أنحاء البلاد. كانوا بحرًا من التنوّع والطاقة والأمل يمتدّ مسافة تزيد عن 1500 متر من مبنى الكابيتول وتجاوز نصب جورج واشنطن التذكاري.

بعد الصلاة في الكنيسة، ذهبت وباراك إلى البيت الأبيض لنلتقي جو وجيل، والرئيس بوش ونائبه ديك تشيني وزوجتيهما، وتناولنا القهوة والشاي قبل الذهاب معًا بالموكب الرئاسيّ إلى الكابيتول لقسم اليمين. كان باراك قد تسلّم قبل ذلك الرموز السريّة التي تسمح له بالدخول إلى ترسانة البلاد النوويّة واطّلع على بروتوكول استخدامها. واعتبارًا من تلك اللحظة بات على معاونٍ عسكريّ أن يلازم الرئيس كظلّه حيثما ذهب، حاملًا حقيبة تزن نحو عشرين كيلوغرامًا تحتوي الرموز السريّة وأجهزة اتّصالات معقّدة، يُشار إليها غالبًا بعبارة «الفوتبول النووي».

كان احتفال التنصيب بالنسبة إليّ إحدى تلك التجارب الغريبة التي يشعر خلالها المرء بأنّ الزمن يتباطأ لدرجة أنّني عجزت عن استيعاب كلّ ما جرى. دخلنا قبل بدء المراسم غرفة خاصّة في الكابيتول لتأكل الفتاتان وجبة خفيفة، ويتمرّن باراك معي لدقائق على أن يضع يده على الكتاب المقدّس الأحمر الصغير الذي كان ملكًا لأبراهام لينكولن قبل 150 عامًا. في هذا الوقت، كان الكثيرون من أصدقائنا وأقربائنا وزملائنا يستقرون في مقاعدهم على المنصّة في الخارج. لاحقًا خطر ببالي أنّ هذه قد تكون المرّة

الأولى في التاريخ التي يجلس فيها هذا العدد من الأشخاص الملوّنين، بصفتهم من الشخصيّات المهمّة، أمام الجمهور ومشاهدي قنوات التلفزة في احتفال تنصيب رئيس أميركيّ.

كنت وباراك نعرف ما يمثّله هذا اليوم بالنسبة إلى كثير من الأميركيّين، خصوصًا الذين شاركوا في حركة الحقوق المدنيّة. وقد حرص على أن يدعو إلى الاحتفال فريق Tuskegee Airmen الجويّ، أي الطيّارين والفنّيين الأفريقيّين الأميركيين الذين صنعوا التاريخ بمشاركتهم في الحرب العالمية الثانية. كذلك دعا مجموعة Little Rock Nine، أي الطلّاب السود التسعة الذين كانوا من بين أوّل الذين اختبروا في العام 1957 حكم المحكمة العليا في دعوى براون ضد مجلس التربية (الحكم الذي أقرّ لادستوريّة إنشاء مدارس حكوميّة خاصّة بالبيض وأخرى خاصّة بالسود). تسجّل أولئك التسعة في مدارس للبيض في أركنساس وتحمّلوا، باسم مبدأ المساواة السامي القسوة والإساءة على مدى شهور عدة. بلغوا كلّهم سنّ الشيخوخة اليوم، وخطّ الشيب شعرهم وقوّست الأعوام أكتافهم، أو ربّما تحت وطأة ما تحمّلوه في سبيل الأجيال المقبلة. غالبًا ما قال باراك أنّه يطمح إلى تسلّق درجات البيت الأبيض لأنّ أولئك التسعة تجرّأوا على تسلّق درجات مدرسة Central High School. لعلّ هذا الإرث كان الأهمّ بين كلّ ما نستمرّ بحمله إلى المستقبل.

عند الثانية عشرة ظهرًا يومذاك، وقفنا وابنتينا أمام بلدنا كلّه. الحقيقة أنّني لا أتذكّر سوى الأمور الصغيرة: نور الشمس الساطع الذي أضاء جبين باراك في تلك اللحظة، والصمت الجليل الذي خيّم على الجمهور حين بدأ القاضي الأول في المحكمة العليا جون روبرتس بإجراءات التنصيب. أتذكّر أيضًا أنّ ساشا، التي كادت قامتها الصغيرة تضيع وسط البحر المترامي من الأشخاص البالغين، وقفت بفخر على كرسيّ لتبقى ظاهرة للعيان. أتذكّر أن الهواء كان جافًّا. رفعت الكتاب المقدّس، ووضع باراك يده اليسرى عليه، وأقسم على حماية دستور الولايات المتّحدة، متعهّدًا بجملتين قصيرتين بأن يتصدّى لكلّ هموم الوطن. قال ذلك بمزيج

من الرزانة والفرح انعكس في خطاب التنصيب الذي ألقاه بعد قسم اليمين.

قال: «نجتمع في هذا اليوم لأنّنا فضّلنا الأمل على الخوف، ووحدة الهدف على الصراع والخلاف».

مرارًا وتكرارًا، رأيت انعكاس تلك الحقيقة في وجوه الأشخاص الذين وقفوا مرتجفين بردًا ليكونوا شهودًا على ما يجري. أحاطت بنا حشود كبيرة من الناس ملأت حديقة National Mall والطريق الذي سيسير عليه الموكب. شعرت في تلك اللحظة بأنّ عائلتنا تعانقهم. كنّا، نحن وهم، نتعاهد: نحن معكم وأنتم معنا.

كانت ماليا وساشا تتعلّمان بسرعة ما معنى أن تكونا محطّ الأنظار. أدركت ذلك حين صعدنا إلى سيّارة الليموزين الرئاسيّة، لتبدأ الرحلة ببطء إلى البيت الأبيض، على رأس استعراض التنصيب. كنت وباراك قد ألقينا تحيّة الوداع على جورج ولورا بوش، ولوّحنا لهما فيما أقلّتهما مروحيّة تابعة للمارينز من ساحة الكابيتول. كما كنّا قد تناولنا الغداء في قاعة رسميّة مكسوّة بالرخام بداخل الكابيتول، حيث قُدّمت لنا وجبة من لحم البطّ. شاركَنا الغداء نحو مئتي ضيف بمن فيهم الوزراء الجدد وأعضاء من الكونغرس وقضاة المحكمة العليا، فيما استمتعت ابنتانا بما تحبّانه، أي أصابع الدجاج والتشيزبرغر من ماكدونالد، مع أحفاد بايدن وعدد من الأنسباء في قاعة قريبة.

أدهشتني رصانة ابنتينا طوال احتفال التنصيب، فلم تستسلما للملل أو للتعب، كما لم تنسيا أن تبقيا مبتسمتين. ظلّ الآلاف يشاهدوننا على الطريق وعلى شاشات التلفزيون فيما كان الموكب الرئاسيّ يشقّ طريقه عبر جادّة بنسلفانيا، برغم أنّ النوافذ الغامقة كانت تمنعهم من رؤية ما بداخل السيّارة. حين خرجت وباراك لنسير مسافة قصيرة ونحيّي الجمهور، لم ترافقنا ماليا وساشا وفضّلتا دفء السيارة، مدركتين ربّما أنّهما باتتا بعيدتين عن الأنظار نسبيًّا.

حين عدت وباراك إلى السيّارة، كانت الفتاتان تلهوان وتضحكان، وقد تحرّرتا من الوقار الذي فرضته عليهما أجواء الاحتفال. فنزعتا

قبّعتيهما، وراحت كلّ منهما تبعثر شعر الأخرى وتدغدغها. وبعدما نال منهما التعب افترشتا مقاعد السيّارة وأكملتا الرحلة معنا مرفوعتَي القدمين، تصغيان إلى بيونسيه عبر ستيريو السيّارة كما في أيّ يوم عاديّ آخر.

في تلك اللحظة، شعرت وباراك بالارتياح اللذيذ. لقد أصبحنا العائلة الأميركيّة الأولى، ومع ذلك فنحن لم نتغيّر.

مع اقتراب الشمس من الغياب، تدنّت درجات الحرارة أكثر. أمضيت وباراك، وبجانبنا جو بايدن الذي لا يعرف التعب، ساعتين على منصة الاستعراض أمام البيت الأبيض، نتفرّج على فرق موسيقيّة من الولايات الخمسين تمرّ أمامنا في جادّة بنسلفانيا. لم أعد أشعر بأصابع قدميّ، حتّى بعدما أعطاني أحدهم غطاء لألفّه حولهما. بعد ذلك، راح ضيوفنا الجالسون على المنصّة ينسحبون استعدادًا لحفلات المساء الراقصة.

كانت الساعة تقارب السابعة مساء حين مرّت الفرقة الموسيقيّة الأخيرة. سرت وباراك في الظلام ودخلنا البيت الأبيض بصفتنا ساكنيه للمرّة الأولى. في فترة بعد الظهر، كان الموظّفون قد قاموا بتبديل الديكور بصورة مدهشة، فأخرجوا مقتنيات عائلة بوش، وأدخلوا مقتنياتنا. وخلال خمس ساعات، تمّ تنظيف السجّاد بالبخار تفاديًا لإصابة ماليا بنوبات حساسية، بسبب آثار كلاب الرئيس السابق. جُلب الأثاث وتمّ ترتيبه، ووُضعت باقات الأزهار المنسّقة. حين ركبنا المصعد إلى طابقنا، كانت ملابسنا قد عُلّقت في الخزائن بعناية، ومُلئت خزائن المطبخ بأطعمتنا المفضّلة. كان خدم البيت الأبيض، ومعظمهم من الأفريقيّين الأميركيّين في مثل سنّنا أو أكبر، على أتمّ استعداد لمساعدتنا في كلّ ما نحتاج إليه.

حينذاك كان البرد شديدًا جدًّا لدرجة أنّني كدت ألّا أرى شيئًا من الديكور الجديد. كما كان علينا أن نذهب بعد أقلّ من ساعة إلى الحفلة الراقصة الأولى من بين عشر حفلات خاصّة بالتنصيب. رأيت في الطابق الأعلى، إضافة إلى الخدم، عددًا قليلًا جدًّا من الأشخاص الذين لم أكن أعرفهم. في الواقع أتذكّر أنّني شعرت

بشيء من الوحدة وأنا أسير في رواق طويل رأيت على جانبيه عددًا من الأبواب المغلقة. كنت قد قضيتُ العامين الأخيرين محاطة بالناس على نحو دائم، وكانت ميليسا وكايتي وكريستن إلى جانبي دائمًا. لكنني شعرت حينذاك فجأة بأنّني وحيدة: فالأولاد قد ذهبوا إلى ناحية أخرى من المنزل ليبدأوا السهرة الخاصّة بهم، كما أنّ أمّي وكريغ ومايا الذين قرروا السكن معنا، كانوا آنذاك في طريقهم إلى الاحتفالات الليليّة. دخلت غرفتي لأجد مصفّف شعر في انتظاري، ورأيت فستاني معلّقًا. فيما ذهب باراك ليستحمّ ويرتدي بزّته التوكسيدو.

كان يومًا مدهشًا ورمزيًّا لعائلتنا، ولبلدنا ككلّ كما كنت أرجو، ولكنّه كان أيضًا بمثابة ماراثون كبير. لم يكن لديّ سوى خمس دقائق تقريبًا لآخذ حمّامًا ساخنًا وأجدّد طاقتي استعدادًا لبقية السهرة. بعد ذلك تناولت شيئًا من شرائح اللحم والبطاطا التي أعدّها لي سام كاس. وحين انتهى تصفيف شعري ووُضِعَت اللمسات الأخيرة على ماكياجي، ارتديت الفستان الحريريّ العاجيّ اللون الذي اخترته لهذه الليلة، وقد ابتكره خصيصًا لي مصمّم شابّ يدعى جايسون وو. كان لذلك الفستان رباط كتف واحد، وخيطت فيه أزهار جميلة من الأورغانزا في وسط كلّ منها حبّة كريستال صغيرة، وانسدل جزؤه السفليّ الأنيق كالشلّال حتّى الأرض.

لم أرتدِ في حياتي إلّا عددًا قليلًا من الفساتين. لكنّ تصميم وو كان له وقع المعجزة، فجعلني أشعر بأنّني عدتُ رقيقة وجميلة ومنفتحة على العالم من جديد، وذلك بعدما راودني الشعور بأنّه لم يبقَ منّي ما أُظهره للآخرين. بعث هذا الفستان مجدّدًا إحساسي بالطابع الخياليّ للتحوّل الذي تمرّ به عائلتي، والوعد الذي تبشّر به هذه التجربة بكاملها. صحيح أنّ هذه التجربة لن تحوّلني إلى نجمة حقيقيّة من نجمات قاعات الرقص، لكنّها ستجعلني على الأقلّ امرأة قادرة على الارتقاء إلى مرحلة أعلى. لقد كنت في تلك اللحظة السيّدة الأميركيّة الأولى، زوجة الرئيس الأميركيّ باراك أوباما. وقد حان الوقت للاحتفال.

في تلك الليلة، ذهبت وباراك إلى حفلة Neighborhood Ball الراقصة، وهي أوّل حفلة لمناسبة تنصيب رئيس أميركيّ متاحة للجمهور. غنّت فيها بيونسيه – بلحمها ودمها – بصوتها الرائع والجهوريّ أغنية فريق R&B الكلاسيكية «At Last»، والتي اخترناها لتكون أغنية رقصتنا الأولى. ومن هناك ذهبنا إلى حفلة Home States Ball، ومنها إلى حفلة Commander in Chief Ball، فحفلة Youth Ball، ثمّ إلى ستّ حفلات أخرى. كان مرورنا على كلّ تلك الحفلات وجيزًا ومتشابهًا. تقوم فرقة موسيقيّة بعزف لحن النشيد الرئاسيّ «Hail to the Chief»، ثمّ يدلي باراك ببعض الملاحظات، ونبدي تقديرنا لمن يأتون، وأمام عيون الجميع نرقص من جديد على ألحان أغنية «At Last».

في تلك الحفلات كلّها لم أفارق زوجي قطّ، فعيناي كانتا تستمدّان الهدوء من عينيه. منذ عشرين عامًا كنّا ولا نزال الرجل والمرأة المتناغمين دائمًا، وحتّى اليوم، لا تزال مشاعر الحبّ الوثيقة والعميقة تجمعنا. ولطالما أسعدني أن أظهر هذا الأمر للعلن.

مع تقدّم الوقت، بدأ التعب يدركني. لكنّ الجزء الأفضل من السهرة هو ما تُرك للنهاية: حفلة خاصّة تُقام لنحو مئتين من أصدقائنا في البيت الأبيض. هناك يمكننا أخيرًا أن نستريح، ونشرب بعض الشمبانيا، ونكفّ عن الاهتمام بصورتنا أمام الآخرين، وطبعًا، سيمكنني أن أخلع حذائي.

حين عدنا إلى البيت الأبيض، كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا. سرتُ وباراك فوق الأرضيّات الرخاميّة المؤدّية إلى الصالون الشرقيّ لأجد الحفلة في ذروتها، والمشروبات تتدفّق، والرجال والنساء يرقصون بملابسهم الأنيقة تحت الثريّات المتألّقة. كان وينتون مارساليس وفرقته يعزفون الجاز على منصّة صغيرة في آخر القاعة. شاهدتُ أصدقاء لي من كلّ مراحل حياتي تقريبًا: من برِنستون، وهارفارد، وشيكاغو، والكثير من أفراد عائلتَي روبنسون وشيلدز. هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أن أضحك معهم، وأن أقول «كيف وصلنا إلى هنا؟».

لكنّ الإرهاق كان قد نال منّي. كذلك كنت أفكّر في أنّ علينا في الصباح التالي، أي بعد ساعات قليلة فقط، الذهاب إلى الاجتماع الوطنيّ للصلاة، يلي ذلك وقوفنا للترحيب بمئتين من أفراد الشعب يأتون لزيارة البيت الأبيض. نظر إليّ باراك وقرأ أفكاري، فقال لي: «لست مضطرّة إلى البقاء». أجبته: «لا بأس».

إتّجه المحتفلون نحوي يتوقون لمحادثتي، فهنا أحد المتبرّعين، وهنا عمدة مدينة كبرى. كان بعضهم يناديني: «ميشيل! ميشيل!» أمّا أنا، فمن شدّة الإرهاق، شعرت بأنّني سأبدأ بالبكاء.

اجتاز باراك عتبة القاعة واختلط بالمدعوّين، لكنّني لبثت متجمّدة في مكاني للحظة، ثمّ درت على عقبيّ ولذت بالفرار. لم يبق لي من الطاقة ما يكفي لأقدّم اعتذارًا يليق بسيّدة أولى، أو حتّى لألوّح لأصدقائي. سرت مبتعدة على السجادة الحمراء السميكة، لا أبالي بأفراد جهاز الحماية الذين تبعوني، ولا بأيّ شيء آخر، حتّى وجدت المصعد فاستقلّيته إلى جناحنا، ثمّ سرت عبر رواق غير مألوف ودخلت غرفة غير مألوفة، وهناك خلعت حذائي وفستاني ورقدت في سريرنا الجديد الغريب.

20

يسألني الناس عن الحياة في البيت الأبيض، فأجيب أحيانًا أنّها شبيهة بالعيش في فندق فخم، غير أنّه فندق لا نزلاء فيه إلّا أنا وعائلتي. تملأه الأزهار النضرة، ويؤتى بأزهار جديدة إليه كلّ يوم تقريبًا. يوحي مبنى البيت الأبيض بالقدم والرهبة. كما أنّ جدرانه سميكة جدًّا وألواح الأرضيّات صلبة جدًّا لدرجة أنّ الصوت يتلاشى فيه بسرعة. نوافذه الكبيرة والمرتفعة مزوّدة بزجاج مقاوم للرصاص ومقفلة دائمًا لأسباب أمنيّة، وهو ما يضفي على المكان هدوءًا أكبر. تولى النظافة في البيت الأبيض أهمية فائقة، وفيه فريق عمل من الحجّاب والطهاة والخدم ومنسّقي الزهور، وأيضًا من الكهربائيّين والدهّانين والسمكريّين، وكلّهم يتحركون بأدب وهدوء، باذلين قصارى جهدهم لعدم إزعاجنا. فهم مثلًا ينتظرون خروجنا من الغرف قبل الدخول لتغيير المناشف أو وضع زهرة غاردينيا جديدة في إناء صغير بجانب السرير.

كلّ غرف البيت الأبيض كبيرة. حتّى المراحيض وحجرات الملابس مبنية بقياس يختلف عن كلّ ما عرفته. تعجّبتُ وباراك لكمّية الأثاث التي كان علينا اختيارها لكي نضفي على كل غرفة طابعًا عائليًّا. فغرفتنا مثلًا تحتوي، إضافة إلى السرير المزدوج الكبير ذي الأعمدة الأربعة والظلّة القماشيّة القمحيّة اللون، مدفأة ومكانًا للجلوس مؤلّفًا من أريكة وطاولة للقهوة وكرسيّين منجّدين. كان لكلّ منّا نحن الخمسة المقيمين في المقرّ العائليّ مرحاضه

الخاصّ، تُضاف إلى ذلك عشرة مراحيض أخرى. وبجانب خزانتي غرفة واسعة لتبديل الملابس، وهي الغرفة نفسها التي قادتني إليها لورا بوش لأرى حديقة الورود. مع الوقت، أصبحت هذه الغرفة مكتبي الخاصّ، حيث يمكنني الجلوس بهدوء للقراءة أو العمل أو مشاهدة التلفزيون، وأنا أرتدي تي شيرت وسروالًا خفيفًا، أستمتع بنعمة الابتعاد عن أنظار الجميع.

عرفت كم كنّا محظوظين بأن نعيش على هذا النحو. فالجناح المخصّص للزوجين في المقرّ العائليّ وحده أكبر من الشقّة حيث عشت وعائلتي في جادّة يوكليد أثناء طفولتي. كانت خارج باب غرفة نومي لوحة لمونيه، وفي غرفة طعامنا منحوتة برونزيّة لدوغا. وهأنذا، تلك الطفلة التي نشأت في الجانب الجنوبي لشيكاغو، أربّي ابنتين تنامان في غرفتين صمّم ديكورهما أحد كبار المصمّمين، وبوسعهما طلب الفطور الذي يحلو لهما من طاهٍ خاصّ.

كانت تلك الأفكار تراودني أحيانًا، وتصيبني بالدوار. حاولت التخفيف من صرامة البروتوكول في البيت الأبيض على طريقتي. أوضحت لفريق الخدم أنّ ابنتيّ سترتّبان سريرهما كلّ صباح، كما كانتا تفعلان في شيكاغو. كذلك أعطيت تعليماتي لماليا وساشا بأن لا تغيّرا شيئًا من تصرّفاتهما، وتحافظا على الأدب والرقّة، ولا تطلبا ما ليس ضروريًّا أو ما تستطيعان الحصول بنفسهما عليه. من جهة أخرى، كان مهمًّا بالنسبة لي أن تتحرّرا من الشكليّات التي تقتضيها الإقامة في البيت الأبيض. فكنت أقول لهما: «نعم، يمكنكما رمي الكرات في الرواق»، «نعم، يمكنكما البحث في المطبخ عن وجبات خفيفة لكما». كما حرصت على ألّا تكونا مضطرّتين إلى طلب الإذن للّعب في الخارج. وقد امتلأ قلبي فرحًا في أحد الأيّام المثلجة، حين شاهدتهما عبر النافذة في الخارج تتزحلقان على منحدرات الحديقة الجنوبيّة وهما تستخدمان صواني بلاستيكيّة أعطاهما إيّاها موظّفو المطبخ.

الحقيقة أنّني والفتاتين كنا نؤدّي دورًا ثانويًّا في حياة باراك، نستفيد من أشكال الترف المختلفة التي يتمتّع بها. لكنّه كان

أيضًا دورًا مهمًّا لمجرّد أنّ سعادته مرتبطة بسعادتنا، وكنّا نحظى بالحماية لسبب واحد، وهو أنّه إذا ما تعرّضنا للخطر، فذلك سيؤثّر في قدرته على التفكير بوضوح وقيادة الأمّة. تعلّمت أنّ البيت الأبيض يعمل لهدف واضح، وهو توفير الرفاهية لشخص الرئيس، بما يتيح له ممارسة سلطته بفعالية تامّة. بات باراك الآن محاطًا بأشخاص وظيفتهم معاملته وكأنّه جوهرة نادرة. بدا الأمر أحيانًا كالعودة إلى حقبة غابرة، حين كانت الحياة المنزلية تتمحور فقط حول حاجات الرجل، وكان ذلك مناقضًا تمامًا لما أردت لابنتيّ. كان باراك أيضًا يشعر بالانزعاج بسبب هذا الاهتمام الزائد، مع أنّه لم يكن يستطيع أن يغيّر فيه الكثير.

بات لديه نحو خمسين موظّفًا يقرأون رسائله ويجيبون عليها، وطيّارون من المارينز على أهبة الاستعداد لنقله حيثما أراد الذهاب، وفريق من ستّة أشخاص يعدّون تقارير ضخمة تبقيه مطّلعًا على كل الأوضاع وتساعده على اتّخاذ قرارات مدروسة. كما كان لديه فريق من الطهاة يهتمّون بتغذيته، وعدد من متسوّقي البقالة يذهبون كأشخاص عاديّين لا يلفتون الانتباه إلى مختلف المتاجر لشراء المؤن، وذلك لحمايتنا من أيّ عمل إرهابيّ يستهدف طعامنا.

منذ عرفته، لم يجد باراك لذّة قط في التسوّق أو الطهو أو أيّ نوع من أنواع الصيانة المنزليّة. وهو ليس ممّن يحتفظون بصندوق للعدّة، أو يستمتعون بإعداد الطعام أو تشذيب الأزهار والنباتات. فرأى في هذه الفرصة للتخلّص من كلّ الواجبات والهموم المنزلية مصدر سعادة كبيرة، أقلّه لأنّ ذلك يساعده على أن يريح ذهنه والتفكير بحريّة في هموم أكبر، وهي لم تكن بالقليلة.

الطريف أنّه بات لديه ثلاثة حجّاب عسكريّين، من مهامّهم الاهتمام بخزانة ملابسه، والحرص على بقاء أحذيته ملمّعة، وقمصانه مكويّة، وملابسه الرياضيّة مغسولة دائمًا ومطويّة. كانت الحياة في البيت الأبيض مختلفة جدًّا عن الحياة في «الحفرة».

«أرأيت كم أنا أنيق الآن؟»، قال لي باراك في أحد الأيّام بعينين تشعّان فرحًا ونحن نجلس لتناول الفطور، «هل نظرت إلى

خزانتي؟».

«نعم»، أجبته مبتسمة، «ولا فضل لك في ذلك أبدًا».

في الشهر الأول لتوليه الرئاسة، وقّع باراك قانون Lilly Ledbetter للأجور العادلة، الذي يساعد على حماية العمّال من التمييز في الأجور بسبب الجنس أو العرق أو العمر. وأمر بوضع حدّ لاستخدام التعذيب في التحقيقات، وبذل جهدًا (لم يؤدِّ إلى نتيجة) لإقفال معتقل غوانتانامو في خلال عام. كما أنّه أعاد تحديد القواعد الأخلاقيّة التي تنظّم علاقة موظّفي البيت الأبيض بأعضاء اللوبيات المختلفة، والأهمّ أنّه نجح في إقرار قانون مهمّ لتحفيز الاقتصاد في الكونغرس، برغم أنّ أيّ نائب جمهوريّ لم يصوّت لذلك القانون. بالنسبة إليّ، بدأت الأمور تسير بشكل طبيعيّ، وها هو التغيير الذي وعد به يصبح حقيقة.

علاوة على ذلك، بات يعود إلى المنزل في موعد العشاء.

بالنسبة إليّ وللفتاتين، فإنّ هذا التغيير المثير والسارّ جاء نتيجة لإقامتنا في البيت الأبيض مع رئيس الولايات المتّحدة، بعدما كنّا نعيش في شيكاغو مع أب موجود دائمًا في مجلس شيوخ يبعد كثيرًا عنّا، ويخوض الحملات دائمًا لبلوغ منصب أعلى. بعد طول انتظار، بات بوسعنا أن نكون مع «بابا»، الذي باتت حياته أكثر انتظامًا. صحيح أنّه ظلّ وكعادته يعمل لساعات لا تحصى، ولكنّه في تمام السادسة والنصف بات يستقلّ المصعد ليأتي إلينا ويتناول العشاء معنا، حتى ولو اضطرّ غالبًا إلى العودة إلى المكتب البيضويّ. كانت أمّي تنضمّ إلينا أحيانًا، على رغم أنّه بات لها روتينها الخاصّ. كانت تنزل صباحًا لإلقاء التحيّة علينا قبل مرافقة ماليا وساشا إلى المدرسة، ولكنّها كانت تفضّل في المساء أن تتناول عشاءها في الغرفة الزجاجيّة المحاذية لغرفتها في الطابق الأعلى، وهي تشاهد برنامج Jeopardy!. وحتّى حين كنّا نطلب منها البقاء، كانت تصرفنا قائلة: «كلّكم بحاجة إلى وقتكم الخاصّ».

في خلال الأشهر القليلة الأولى من إقامتنا في البيت الأبيض، شعرت بالحاجة إلى أن أتوخّى الحرص في كلّ شيء. فمن

الدروس الأولى التي تعلّمتها أنّ العيش في ذلك المكان قد يكون مكلفًا نسبيًّا. صحيح أنّنا كنّا نقيم هناك من دون أن ندفع بدل إيجار، أو نفقات الكهرباء والماء والهاتف، أو أجور الموظّفين، إلّا أنّنا كنّا ندفع من حسابنا الخاصّ كلّ نفقاتنا الأخرى، التي بدا أنّها تتراكم بسرعة، خصوصًا وأنّنا كنّا نحظى بنوعيّة خدمات تليق بأفخم الفنادق. كانت فاتورة مفصّلة تصلنا كلّ شهر بكلّ ما نشتريه بدءًا من المأكولات وحتّى ورق المراحيض. كما كنّا ندفع نفقة إقامة كلّ ضيف يأتي لقضاء الليل، أو يشاركنا الطعام. وبوجود فريق طهاة يتمتّع بمعايير جودة عالميّة، وشديد الرغبة في إرضاء الرئيس، كان عليّ مراقبة ما يتمّ تقديمه. وحين كان باراك يلمّح صدفة إلى نوع فاكهة استوائية يرغب فيها لفطوره، أو السوشي لعشائه، كان فريق المطبخ يسجّل ذلك ويدرجه في لائحة الطعام الدوريّة. ولم نكن نعلم إلّا حين ندقّق في الفاتورة لاحقًا أنّ بعض هذه الأطعمة كانت تُستَقدم من الخارج بالطائرة بتكلفة مرتفعة.

لكنّ معظم اهتمامي انصبّ في الأشهر القليلة الأولى على ماليا وساشا. كنت أراقب مزاجهما، وأسألهما عن مشاعرهما وعلاقاتهما بالأولاد الآخرين. وكلّما ذكرت إحداهما لي أنّها تعرّفت بصديق جديد، كنت أحاول كتمان فرحتي الكبيرة. أدركت حينذاك أنّه ما من وسيلة مباشرة لترتيب مواعيد للّعب في البيت الأبيض، أو مشاوير لابنتيّ إلى خارجه، لكنّنا كنّا شيئًا فشيئًا نبحث عن طريقة لتحقيق ذلك.

سُمح لي باستخدام جهاز بلاكبيري شخصيّ في البيت الأبيض، ونُصِحت بأن تقتصر اتّصالاتي بواسطته على نحو عشرة من أقرب أصدقائي، أي الأشخاص الذين يحبّونني ويدعمونني من دون أيّ غاية شخصيّة. كانت معظم اتّصالاتي تتمّ عبر ميليسا، التي باتت مساعِدة رئيس فريق موظّفيّ، وتعرف جوانب حياتي أفضل من أيّ شخص آخر. احتفظت ميليسا بأرقام كلّ أنسبائي وأصدقائي من الجامعة. وكنّا نعطي الآخرين رقم هاتفها وعنوان بريدها الإلكترونيّ، لا هاتفي وبريدي، ويتمّ تحويل كلّ الطلبات والاتّصالات إليها. من أسباب ذلك ظهور عدد كبير من معارفنا

القدامى والأنسباء البعيدين وسيل طلباتهم: هل يستطيع باراك أن يلقي خطابًا في حفل تخرّج أحدهم؟ هل يمكنني أن ألقي خطابًا في جمعيّة لا تبتغي الربح؟ هل يمكننا أن نأتي إلى هذه الحفلة، أو إلى تلك الحملة لجمع التبرّعات؟ كان معظم الطلبات ينبثق من نيّة حسنة، لكنّها كانت أكثر من أن أتمكّن من استيعابها دفعة واحدة.

أما في ما يتعلّق بحياة ابنتينا اليومية، فغالبًا ما كان عليّ الاعتماد على الشبّان بين أفراد فريق عملي للاهتمام بالأمور اللوجستيّة، وهم لم يتأخّروا في مقابلة أساتذة المدرسة ومديريها، فسجّلوا تواريخ المناسبات المدرسية المهمّة، وعالجوا طلبات وسائل الإعلام، وأجابوا على أسئلة الأساتذة حول المواضيع التي يمكن الحديث عنها في الصفّ والمتعلّقة بالسياسة أو بالأخبار اليوميّة. وحين بدأت ابنتاي بالمشاركة في لقاءات اجتماعيّة خارج المدرسة، باتت مساعِدتي الشخصيّة محور الاتصالات، فجمعت أرقام هواتف أهل الأطفال الآخرين، ونظّمت رحلات إحضار الرفاق وإعادتهم. وكعادتي في شيكاغو، حرصت على التعرّف بذوي أصدقاء ابنتيّ الجدد، ودعوة والداتهم إلى الغداء، وتقديم نفسي للأخريات في المناسبات المدرسيّة. أعترف بأنّ هذا الاختلاط الاجتماعيّ قد يكون غريبًا. وأدرك أنّ معارفي الجدد لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من دقيقة واحدة حتّى يتخلّوا عن كلّ الأفكار التي كوّنوها عنّي أو عن باراك من خلال التلفزيونات أو نشرات الأخبار، وينظرون إليّ ببساطة على أنّني والدة ماليا أو ساشا.

كان غريبًا أن نشرح للأشخاص أنّه وقبل أن تستطيع ساشا الذهاب إلى حفلة عيد مولد جوليا الصغيرة، على أفراد فريق الحماية زيارة منزل الفتاة والقيام بعمليّة مسح أمنيّ. كذلك كان غريبًا أن نطلب رقم الضمان الاجتماعيّ الخاصّ بكلّ أب أو أمّ أو أيّ شخص سيوصل طفلًا إلى منزلنا للّعب. كلّ ذلك كان غريبًا ولكن ضروريًّا. لم يستهوِني الحاجز الغريب الصغير الذي عليّ تجاوزه كلّما تعرّفت بشخص جديد، لكنّني ارتحت لمعرفة أنّ الأمر ليس

كذلك أبدًا بالنسبة إلى ساشا أو ماليا، اللتين كانتا تندفعان إلى الخارج للترحيب بأصدقائهما حين يتمّ إيصالهم إلى غرفة الاستقبالات الدبلوماسيّة، فتمسكان بأيديهم ويعودون إلى الداخل ضاحكين. تبيّن أنّ الأطفال لم يكونوا يبالون بالشهرة إلّا لدقائق قليلة، وبعدها يريدون فقط أن يتسلّوا.

تعلّمت بسرعة أنّ عليّ التنسيق مع فريق عملي للتخطيط لسلسلة من الحفلات ودعوات العشاء التقليديّة، أقربها كانت حفلة Governor’s Ball، وهي حفلة رسميّة تُقام في شباط/ فبراير من كلّ عام في الغرفة الشرقيّة. وكذلك Easter Egg Roll وهو احتفال عائليّ سنوي في الهواء الطلق بدأ إحياؤه في العام 1 ويشارك فيه آلاف الأشخاص. وهناك أيضًا دعوات الغداء في فصل الربيع التي أحضرها على شرف زوجات أعضاء مجلسَي النوّاب والشيوخ، كتلك الدعوة التي رأيتُ خلالها لورا بوش تبتسم برصانة فيما كانت الصور الرسميّة تُلتقط لها مع كلّ من المدعوّات.

شعرتُ أحيانًا بأنّ تلك المناسبات الاجتماعيّة تلهيني عن الأعمال الأهمّ والتي كنت أرجو القيام بها، لكنّني بدأت أفكّر في أمور قد أضيفها إلى تلك المناسبات أو على الأقلّ في تحديث بعضها لكسر حاجز التقاليد ولو قليلًا. رأيت أنّ بوسعنا جعل الحياة في البيت الأبيض مثيرة من دون أن نتخلّى عن تاريخه وتقاليده العريقة. رحتُ وباراك نقوم بخطوات في هذا الاتجاه شيئًا فشيئًا، فعلّقنا مثلًا مزيدًا من اللوحات التجريديّة والأعمال الفنيّة التي تحمل توقيع فنّانين أفارقة أميركيّين، ومزجنا قطع الأثاث المعاصرة بالقديمة. وفي المكتب البيضويّ، أزال باراك تمثالًا نصفيًّا لونستون تشرشل ليضع مكانه آخر لمارتن لوثر كينغ جونيور. كما أتحنا لخدم البيت الأبيض الذين كانوا ملزمين بارتداء التوكسيدو حرّية العمل بملابس عاديّة في الأيّام التي لا تُقام فيها مناسبات عامّة، فاخترنا السروال الكاكي وقميص بولو.

كنّا ندرك، باراك وأنا، أننا نريد إضفاء طابع ديمقراطي على البيت الأبيض، وجعله أقلّ إيحاء بالنخبويّة وأكثر انفتاحًا. أردت حضور عدد أكبر من الناس العاديّين إلى المناسبات التي ندعو إليها، لا فقط

أولئك الذين اعتادوا الملابس الرسميّة. أردت حضور عدد أكبر من الأطفال، لأنّ الأطفال يجعلون كلّ شيء أفضل. وددتُ لو تصبح مناسبة Easter Egg Roll مفتوحة أمام عدد أكبر من الأشخاص، كطلّاب المدارس وعائلات الجنود، ليتمتّعوا بما يتمتّع به أبناء أعضاء الكونغرس وكبار الشخصيّات وأحفادهم. وفكّرتُ: ما دمت سأتناول طعام الغداء مع زوجات أعضاء مجلسَي النوّاب والشيوخ، ألا يمكنني أيضًا دعوتهنّ إلى العمل معي لتحقيق مشروع للخدمة الاجتماعيّة؟

كنت أعرف ما يهمّني. لم أرد أن أكون قطعة من الزينة بملابس أنيقة تأتي إلى الحفلات والمناسبات الرسمية، بل أن أحقّق أهدافًا حقيقية وتدوم طويلًا. وقرّرت أن أكرّس مجهودي الحقيقيّ الأوّل لزرع بستان.

لم أكن بستانيّة في حياتي قطّ. ولكن بفضل سام كاس وجهود عائلتنا لتحسين نوعيّة طعامنا في المنزل، تعلّمت أنّ الفراولة في حزيران/يونيو هي الأشهى، وأنّ الخسّ الغامق يحتوي على مغذّيات أكثر، وأنّه لم يكن من الصعب إعداد رقائق الكرنب في الفرن. رأيت ابنتيّ تأكلان سلطة البازلّاء الربيعيّة، وغراتان بالقنّبيط، وأدركت أنّ معظم ما نعرفه عن الطعام كان مصدره، حتّى وقت قريب، دعايات شركات الأطعمة المعلّبة، أو المجمّدة، أو المعالَجة، أكانت سواء على شكل إعلانات تلفزيونية للماركات الشهيرة، أو غلافات ذكيّة مصمّمة للفت نظر الأهالي المرهقين الذين يسيرون على عجل بين أجنحة متاجر الأطعمة لشراء حاجياتهم بعد يوم طويل من العمل. فلا أحد قدّم دعاية للطعام الطازج والصحيّ، ولا تغنّى بالقرمشة اللذيذة للجزر الطازج، أو بالحلاوة التي لا تضاهى لحبّات الطماطم المقطوفة حديثًا.

ردّي على تلك المشكلة كان بزرع بستان في البيت الأبيض، على أمل أن يكون ذلك بداية لمشروع أكبر. ركّزت إدارة باراك جهودها على توفير العناية الصحية غير الباهظة التكلفة لجميع المواطنين. ومن جانبي، كان البستان وسيلة لأبعث برسالة تتعلق بالعيش الصحي. اعتبرت ذلك اختبارًا أوّليًا قد يساعدني

على إدراك ما بوسعي تحقيقه كسيّدة أولى، وطريقة «لأرسّخ جذوري» بالمعنى الحرفيّ للتعبير في عملي الجديد هذا. كان البستان بالنسبة إليّ بمثابة صفّ مدرسي في الهواء الطلق، يقوم الأطفال بزيارته ليتعلّموا كيف يُزرع الطعام. في ظاهر الأمر، بدا البستان مشروعًا بسيطًا وغير سياسيّ ولا يسبّب الأذى، تقوم به سيّدة تحمل رفشًا، أرضى مستشاري باراك في الجناح الغربيّ القلقين دائمًا بشأن ما دعوها «الصورة أمام الرأي العامّ»، أي رؤية الجمهور لكلّ شيء.

لكنّ المشروع كانت له أبعاد أخرى. فقد خطّطتُ للاستفادة ممّا قمنا به في البستان لإطلاق حوار وطنيّ حول التغذية، وخصوصًا في المدارس وبين الأهالي، على أمل أن يؤدّي إلى نقاشات حول الأطعمة وكيفية إنتاجها، وما يُكتب على غلافاتها، وتسويقها، وتأثيرها في الصحّة العامّة. كانت إثارة هذه المواضيع من داخلِ البيت الأبيض بمثابة تحدّ ضمنيّ للشركات العملاقة في مجالَي الأطعمة والمشروبات ولأسلوبها في ممارسة أعمالها منذ عقود.

الحقيقة أنّني لم أكن أعرف كيف ستسير الأمور. لكنّني، وحين طلبت من سام، الذي انضمّ إلى فريق موظّفي البيت الأبيض، أن يبدأ باتّخاذ الخطوات لإقامة الحديقة، علمتُ أنّني مستعدّة لذلك.

أمر واحد أثّر في التفاؤل الذي شعرت به في الأشهر الأولى، وهو السياسة. فقد أصبحنا نعيش في واشنطن، على مسافة قريبة من التجاذب السياسيّ البشع بين الديمقراطيين والجمهوريين، والذي حاولت لسنوات أن أتجنّبه، حتّى حين اختار باراك أن يكون جزءًا منه. أمّا الآن وقد أصبح رئيسًا فقد باتت هذه القوى تؤثّر في عمله اليوميّ. قبل أسابيع من احتفال التنصيب، أعلن مقدّم البرامج الإذاعيّة المحافظ راش ليمباو بكلّ جرأة: «آمل أن يفشل أوباما». تابعت بأسى دأب الأعضاء الجمهوريّين في الكونغرس على تحقيق ذلك، ومحاربة كلّ جهد يقوم به باراك للتخفيف من حدّة الأزمة الاقتصاديّة، ورفضهم لدعم التدابير التي تؤدّي إلى خفض الضرائب وإنقاذ أو خلق ملايين الوظائف. وقد

ذكرت بعض المؤشّرات أنّ الاقتصاد الأميركيّ كان، يوم تسلّم باراك منصبه، يتدهور بسرعة توازي (أو تفوق) ما شهدته البلاد مع بداية الانهيار الاقتصاديّ الكبير في ثلاثينيات القرن الماضي. فقد خسر نحو 750 ألف أميركيّ وظائفهم في ذلك الشهر وحده. وفيما كان شعار حملة باراك أنّه بالإمكان التوصل إلى توافق بين الأحزاب، وأنّ الأميركيّين في حقيقتهم متّفقون أكثر ممّا هم مختلفون، كان الحزب الجمهوريّ يبذل جهدًا متعمّدًا، في وقت تمرّ به البلاد بحالة طوارئ حقيقيّة، لإثبات خطأ شعار باراك.

هذا ما فكّرتُ فيه مساء الرابع والعشرين من شباط/فبراير، حين ألقى باراك خطابًا في جلسة مشتركة لمجلسَي النواب والشيوخ. هذا الخطاب، الذي على كلّ رئيس حديث التنصيب أن يلقيه، كان بمثابة خطاب بديل عن خطاب «حال الاتّحاد» الذي يلقيه الرؤساء سنويًّا، وفرصة لرسم الخطوط العريضة لأهدافه للسنة التالية، في كلمة تُبثّ مباشرة عبر قنوات التلفزة خلال إحدى ساعات الذروة، ويلقيها في قاعة مجلس النوّاب، بحضور قضاة المحكمة العليا، والوزراء، والقادة العسكريّين، وأعضاء الكونغرس. كذلك يمثّل هذا الخطاب فرصة للاستعراض حيث يعبّر المشرّعون بصورة دراماتيكيّة إمّا عن موافقتهم على أفكار الرئيس بالوقوف مرّات عدّة والتصفيق طويلًا، أو عن معارضتهم إيّاها بالبقاء صامتين في مقاعدهم.

في ذلك المساء، جلست على شرفة القاعة بين فتاة في الرابعة عشرة من عمرها كتبت رسالة من القلب إلى الرئيس، وأحد قدامى جنودنا في العراق، وكان رجلًا يتحلّى بقدر كبير من اللباقة، ومكثنا جميعنا ننتظر وصول زوجي. من مقعدي، كنت أرى القسم الأكبر من القاعة تحتي: مشهد غريب نوعًا ما لقادة بلدنا، بحر من الرجال البيض الذين يرتدون بزّات سوداء. كان غياب التنوّع فاقعًا – وبصراحة، محرجًا – بالنسبة إلى بلد حديث ذي تعدّدية ثقافيّة. وغياب التنوّع هذا كان أشدّ وضوحًا في صفوف الجمهوريّين. آنذاك كان في الكونغرس فقط سبعة من الجمهوريين غير البيض: لا أحد منهم أفريقيّ أميركيّ، وامرأة واحدة فقط.

وبشكل عامّ، كان ثمانون بالمئة من أعضاء الكونغرس رجالًا.

بعد دقائق قليلة، بدأ المشهد بقرع مطرقة تلاه نداء حاجب يدعو إلى الوقوف. وقف الحضور وراحوا يصفّقون لأكثر من خمس دقائق فيما كان القادة المنتخبون يتدافعون في الممرّات. وفي وسط تلك العاصفة ظهر باراك، محاطًا بحلقة من أفراد جهاز الحماية ومصوّر فيديو يسير القهقرى أمامه. كان مشرق الوجه، يشقّ طريقه ببطء في القاعة متّجهًا إلى المنصّة، ومصافحًا مَن حوله.

سبق لي أن رأيتُ عبر التلفزيون رؤساء آخرين كثيرين يسيرون لإلقاء هذا الخطاب. لكنّ رؤية زوجي وسط هذا الجمع جعلتني أدرك فجأة جسامة المهمّة الملقاة على عاتقه، وحاجته إلى الفوز بموافقة أكثر من نصف أعضاء الكونغرس لإنجاز أي شيء.

في تلك الليلة، ألقى باراك خطابًا واضحًا تطرّق فيه إلى كلّ التفاصيل، فاعترف بالوضع السيّئ للاقتصاد، والحروب الدائرة، والخطر الداهم لوقوع هجمات إرهابيّة، وغضب الكثير من الأميركيّين الذين شعروا أنّ الحكومة، بدعمها للمصارف، إنّما تمارس سياسة غير عادلة وتدعم الجهات المسؤولة عن الأزمة الماليّة. حرص على أن يكون واقعيًّا، ولكنّه بعث بإشارات أمل، مذكّرًا المستمعين بقدرة أمّتنا على التغلّب على الأزمات، والنهوض من المصاعب.

شاهدت من شرفتي أعضاء الكونغرس الجمهوريّين يلازمون مقاعدهم طوال مدة الخطاب، وقد بدت عليهم علامات العناد والغضب، فكتفوا أذرعهم وتعمّدوا العبوس كأطفال لم ينالوا ما يريدونه. أدركت أنّهم مستعدّون لمقاومة كلّ ما يفعله باراك، سواء أكان لخير البلد أم لم يكن. وكأنّهم نسوا أنّ مَن قادنا إلى هذا المأزق كان رئيسًا جمهوريًّا. وبدا خصوصًا أنّهم يريدون لباراك أن يفشل. أعترف أنّني حين رأيتهم في تلك اللحظة، ساورتني الشكوك حول إمكانية وجود مَخرج من هذه الورطة.

راودتني في طفولتي أفكار مبهمة تخيّلت فيها لنفسي حياة أفضل. كنت أذهب للّعب في منزل الشقيقتين غور، وأحسدهما على رحابة المكان، وعلى أنّ عائلتهما تملك منزلًا مستقلًّا.

وظننت أنّ من المهمّ أن تمتلك عائلتي سيّارة أجمل. كما كنت ألاحظ أنّ بين صديقاتي مَن تمتلك أساور أو دمى أكثر منّي، أو تشتري ملابسها من المركز التجاريّ، بدلًا من أن يكون لها أمّ تخيط الملابس الرخيصة في المنزل. الأطفال في البداية يقارنون ما يملكونه بما يملكه غيرهم، وذلك قبل أن يفهموا حجم الأشياء أو قيمتها الحقيقية. وإذا حالفهم الحظّ لاحقًا، يدركون أنّ تلك النظرة إلى الأمور كانت خاطئة جدًّا.

لكنّنا انتقلنا للعيش في البيت الأبيض. ومع الوقت، بدأت أشعر بأنّه مألوف، ليس لأنّني اعتدت رحابته أو الحياة المترفة، بل لأنّه بات المكان حيث تنام عائلتي وتأكل وتضحك وتعيش. وضعنا في غرفتَي الفتاتين مجموعات الهدايا المتزايدة التي اعتاد باراك أن يعود بها من رحلاته المختلفة، ككرات ندف الثلج لساشا، أو علّاقات المفاتيح لماليا. كما بدأنا بإدخال تغييرات طفيفة على مقرّ إقامتنا، فأضفنا إلى الثريّات التقليديّة والشموع المعطّرة إضاءة حديثة جعلت البيت الأبيض يبدو أقرب إلى منزل عائليّ. لم أكن أعتبر أبدًا أنّ ما ننعم به من حسن الحظّ أو رغد العيش قد أصبح من المسلّمات، برغم أنّني قد بدأت أقدّر على نحو أكبر الطابع الإنسانيّ للبيت الأبيض.

حتّى والدتي التي اعتبرت البيت الأبيض أشبه بالمتحف، لم تلبث أن أدركت أنّ فيه أمورًا أخرى يجب أخذها بالاعتبار. فهو مليء بأشخاص لا يختلفون عنّا أبدًا. كان عدد من الخدم قد قضى في البيت الأبيض سنوات كثيرة، في خدمة عائلات الرؤساء الذين تعاقبوا عليه، وكان وقارهم الصامت يذكّرني بالعمّ تيري، الذي عاش في الطابق السفليّ من منزلنا في جادّة يوكليد، وكان يجزّ عشب حديقتنا مرتديًا سروالًا مشدودًا بحمّالتين ومنتعلًا حذاء بطرف مستدقّ. حاولت أن أجعل علاقتنا بالموظّفين تتّسم بالاحترام والتقدير، وحرصت على ألّا يشعروا أبدًا بأنّهم غير مرئيّين. لعلّ الخدم كانوا يهتمّون بالسياسة، أو يدينون بالولاء لهذا الحزب أو ذاك، إلّا أنّهم تكتّموا على ذلك، وكانوا حريصين على احترام خصوصيّتنا، وأحاطونا دائمًا بالودّ والحفاوة، وشيئًا فشيئًا

نشأ بيننا تقارب. كان حدسهم ينبئهم متى عليهم أن يتركوني وشأني، أو متى يمكنني تحمّل بعض المناكفة الرقيقة. كنت أجلس صباحًا في المطبخ لأستعرض عناوين الجرائد، وأسمعهم يتمازحون بشأن الفرق الرياضيّة التي يشجّعها كلّ منهم، أو يروون عليّ آخر شائعات موظّفي البيت الأبيض أو إنجازات أحفادهم. كان باراك ينضمّ إليهم أحيانًا لمشاهدة جزء من مباريات كرة السلّة الجامعيّة على شاشة التلفزيون. أحبّت ساشا وماليا ذاك الودّ السائد في المطبخ، واعتادتا التسلّل إليه بعد عودتهما من المدرسة لإعداد عصير الفاكهة أو الفوشار. كما نشأت علاقة حبّ وتقدير بين والدتي وبعض الموظّفين، فكانوا يمرّون بها في الغرفة الزجاجيّة لتبادل آخر الأخبار.

احتجتُ بعض الوقت لأتعرّف إلى أصوات مختلف عاملي الهاتف في البيت الأبيض الّذين يوقظونني في الصباح، أو يصلونني بمكاتب الجناح الشرقيّ. ولكنّ الودّ والألفة سرعان ما حلّا بيننا، فكنّا ندردش في أحوال الطقس، أو أمازحهم حول حاجتي غالبًا إلى أن أنهض قبل باراك بساعات لتصفيف شعري استعدادًا للمناسبات العامّة. كانت تلك الأحاديث مقتضبة، لكنّها أضفت ذلك الشعور بأنّنا نعيش حياة طبيعيّة.

كان أحد الخدم المخضرمين، ويدعى جايمس رامسي، رجلًا أسود خطّ الشيب شعره، ويعمل في البيت الأبيض منذ عهد كارتر. كان بين الحين والآخر يعطيني آخر نسخة من مجلّة Jet، ويقول لي مبتسمًا: «سرّك محفوظ عندي سيّدة أوباما».

تكون الحياة أفضل حين نستطيع تقدير الدفء المحيط بنا.

ظننت أنّ منزلنا الجديد كبير وفخم على نحوٍ مبالغ فيه إلى أن قمت، في الأوّل من نيسان/أبريل، بزيارة إلى إنكلترا والتقيت جلالة الملكة.

تلك كانت الرحلة الخارجيّة الأولى التي أقوم وباراك بها بعد الانتخابات الرئاسيّة. سافرنا على متن الطائرة الرئاسيّة Air Force One ليشارك زوجي في قمّة لمجموعة العشرين، التي تتألّف من قادة الدول الأقوى اقتصاديًّا في العالم. كان ذلك

الاجتماع يُعقد في وقت دقيق جدًّا، فأزمة الولايات المتّحدة خلّفت تردّدات مدمّرة في أنحاء العالم كلّه، واضطرابات في الأسواق الماليّة. مثّلت تلك القمّة أيضًا الظهور الأوّل لباراك كرئيس على الساحة العالميّة. وكما بات مألوفًا في الأشهر الأولى التي تلت تسلّمه منصبه، كان عليه العمل على إزالة آثار الفوضى التي حدثت من قبل. في تلك القمّة كان عليه أن يستوعب شعور قادة العالم الآخرين بالإحباط لأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة فوّتت على نفسها فرصًا مهمّة لتنظيم عمل بعض أصحاب المصارف المتهوّرين، والحؤول دون وقوع كارثة طالت شظاياها الجميع.

كنت قد ارتحت إلى أنّ ساشا وماليا تكيّفتا مع روتينهما اليوميّ في المدرسة، وهذا ما طمأنني إلى فكرة أن أعهد بهما إلى والدتي في خلال رحلتي إلى الخارج التي ستستغرق أيّامًا، رغم أنني أدركت بأنّها ستتساهل فورًا في تطبيق تعليماتي كلّها المتعلّقة بالنوم باكرًا، وبأكل الخضر التي تُقدَّم أثناء العشاء. كانت والدتي تستمتع بدور الجدّة، وخصوصًا حين تتمكّن من تجاهل قواعدي الصارمة واستبدالها بأسلوبها الأكثر تساهلًا. لا شكّ بأنّها كجدّة كانت أشدّ ليونة بكثير منها كأم، حين كنت وكريغ طفلين نحظى برعايتها. فكانت الفتاتان تفضّلان أن تتولّى أمّي زمام الأمور.

كان غوردون براون رئيس الوزراء البريطانيّ يستضيف قمّة العشرين التي تضمّنت يومًا بكامله من اللقاءات الاقتصاديّة في مركز للمؤتمرات في لندن. ولكن، وكما هي العادة حين يأتي القادة العالميّون إلى العاصمة البريطانيّة للمشاركة في المناسبات الرسميّة، دعتنا الملكة إليزابيث إلى زيارة قصر باكينغهام للترحيب بنا. وبسبب العلاقة الوثيقة التي تجمع أميركا ببريطانيا العظمى، وأيضًا بسبب كوننا حديثي العهد على مسرح السياسة الدوليّة كما أظنّ، دُعيت وباراك لعقد خلوة خاصّة مع الملكة في القصر قبل وصول الآخرين إلى حفلة الاستقبال.

لا داعي إلى القول أنّني لم ألتق ملوكًا من قبل. قيل لي إنّ بوسعي إلقاء التحيّة على الملكة إليزابيث إمّا بالانحناء أو

بمصافحتها، وإنّ عليّ مخاطبتها بلقب «صاحبة الجلالة»، ومخاطبة زوجها الأمير فيليب دوق إدنبره بلقب «صاحب السموّ الملكيّ». وما خلا ذلك لم أكن أعلم ما ينتظرني حين اجتاز موكبنا الرئاسيّ البوابات الحديديّة المرتفعة عند مدخل القصر، ومررنا بمتفرّجين عند السياج، ومجموعة من الحرّاس، وعازف بوق من الفرقة الموسيقية الملكيّة. عبرت بنا السيّارة قنطرة داخليّة لتتوقّف في باحة القصر حيث خرج مدير التشريفات للترحيب بنا.

تبيّن لي أنّ قصر باكينغهام كبير، لدرجة تكاد معها الكلمات تعجز عن وصفه، فمساحته تبلغ خمسة عشر ضعف مساحة البيت الأبيض وفيه 775 غرفة. حالفني وباراك الحظّ في السنوات التالية بأن نعود إلى هناك بضع مرّات بصفتنا مدعوَّين. فكنّا ننام في زياراتنا تلك في جناح فخم في الطابق الأرضيّ، ويتولّى الاهتمام بنا رجال ونساء من خدم القصر يرتدون الأزياء الإنكليزيّة الرسميّة. كما كنّا نأكل بالسكاكين والشوك المطليّة بالذهب خلال مشاركتنا في الولائم الرسميّة بقاعة الحفلات الراقصة. وذات مرّة، كنّا نقوم بجولة على أرجاء القصر، فقال لنا دليلنا: «هذا هو صالوننا الأزرق»، وأشار إلى قاعة رحبة لها خمسة أضعاف مساحة صالوننا الأزرق في البيت الأبيض. وفي أحد الأيّام، قامت الخادمة الرئيسيّة للملكة بمرافقتي وأمّي وابنتيّ في جولة على حديقة الورود والتي تغطّي مساحة أربعة آلاف متر مربّع تقريبًا، وتنمو فيها آلاف الزهور المتفتّحة والمشذّبة بعناية كبيرة. بالمقارنة مع تلك الحديقة، كانت شجيرات الورد القليلة التي نتباهى بها أمام المكتب البيضويّ باهتة وأقلّ إثارة للإعجاب. بدا لي قصر باكينغهام مكانًا يخطف الأنفاس وعصيًّا على الفهم في الوقت عينه.

في الزيارة الأولى، رافقنا مدير التشريفات إلى قاعة استقبال في جناح الملكة الخاصّ، حيث وقفت إليزابيث الثانية والأمير فيليب لاستقبالنا. كانت الملكة، ابنة الأعوام الاثنين والثمانين، امرأة قصيرة القامة توحي بالودّ، وتتميّز بابتسامة رقيقة، وذات تصفيفة شعر ملكيّة تكشف عن جبينها. ارتدَت فستانًا ورديًّا غير

فاقع زيّنَته بعقد من اللآلئ، وحملت، معلّقةً على إحدى ذراعيها، حقيبة يد سوداء. تصافحنا ووقفنا لالتقاط الصور. سألتنا الملكة بأدب عمّا إذا كان فارق الوقت الناتج عن السفر يؤرقنا، ودعتنا للجلوس. لا أتذكّر تمامًا ما تحادثنا بشأنه بعد ذلك. تطرّقنا قليلًا إلى موضوع الاقتصاد وحال الأعمال في إنكلترا، والاجتماعات المختلفة التي يعقدها باراك.

كلّ لقاء يتمّ ترتيبه بصورة رسميّة يكتنفه شيء من الغرابة، لكنّني تعلّمتُ أنّ عليّ التركيز على إنجاحه. كان عليّ أن أرغم نفسي على عدم التفكير في هيبة المكان، أو الاستسلام للشلل الذي أحسست به وأنا أقابل أيقونة حقيقية وجهًا لوجه. سبق لي أن رأيت وجه صاحبة الجلالة عشرات المرّات، في كتب التاريخ، وعلى شاشة التلفزيون وأوراق العملة. لكنّها آنذاك كانت أمامي بلحمها ودمها، تنظر إليّ باهتمام وتطرح عليّ الأسئلة بودّ ولباقة حرصتُ على أن أبادلها إيّاهما. كانت الملكة رمزًا حيًّا، وقد برعت في تقديم نفسها على هذه الصورة، لكنّها كانت بشرًا مثلنا جميعًا، وقد أُعجبتُ بها في الحال.

بعد ظهر ذلك اليوم، تنقّلت وباراك بين المدعوّين إلى حفل الاستقبال، وأكلنا المقبّلات مع قادة الدول العشرين الآخرين وزوجاتهم. تبادلت أطراف الحديث مع المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، والرئيس الفرنسيّ نيكولا ساركوزي، كما التقيت الملك السعوديّ والرئيس الأرجنتينيّ ورئيسَي وزراء اليابان وأثيوبيا. بذلت جهدي لأتذكّر البلدان التي يأتون منها، ومَن هي زوجة كلٍّ منهم، وحرصت على ألّا أتكلّم كثيرًا لئلّا أرتكب خطأ. عمومًا، كان حفل الاستقبال ذاك مناسبة مهيبة وودّية في الوقت عينه، ذكّرتني أنّ قادة الدول قادرون أيضًا على التحدّث عن أولادهم وإطلاق الدعابات حول الطقس في بريطانيا.

مع اقتراب الحفلة من نهايتها، التفتّ لأرى الملكة إليزابيث خلفي. كنّا فجأة وحيدتين معًا في الغرفة التي تعجّ بالحاضرين، وقد وضعت في يديها قفّازين أبيضين جديدين، وبدت بكامل نشاطها، تمامًا مثلما كانت قبل ساعات حين التقينا. رفعت رأسها

نحوي وقالت مبتسمة:
«أنت طويلة القامة.»
«في الحقيقة»، قلت لها بضحكة صغيرة، «كعب حذائي يجعلني أطول بسنتيمترات قليلة. ولكن نعم، أنا طويلة القامة».
فنظرت الملكة إلى حذائي الأسود من ماركة Jimmy Choos، وهزّت رأسها.
«حذائي غير جميل، أليس كذلك؟»، سألتني وهي تشير محبطة إلى حذائها الخفيض.
اعترفتُ للملكة بأنّ قدميّ تؤلمانني، فاعترفتْ لي بدورها بأنّ قدميها تؤلمانها أيضًا. نظرت كلّ منّا إلى الأخرى، وعلى وجهينا تعبير واحد، كأنّنا نقول: «متى سينتهي أخيرًا وقوفنا بجانب قادة العالم؟»، وضحكت الملكة ضحكة ساحرة حقًّا.
لننسَ أنّها كانت تضع أحيانًا على رأسها تاجًا من الماس، وأنّني أتيت إلى لندن على متن طائرة الرئاسة الأميركية. كنّا مجرّد سيّدتين متعبتين ننتعل حذاءين ضيّقين. آنذاك قمت بما أقوم به بصورة غريزيّة كلّما شعرت بأنّ صلة نشأت بيني وبين شخص جديد، وهو التعبير بصراحة عن شعوري، فوضعت يدي برقّة على كتف الملكة.
لم أكن أعلم آنذاك أنني ارتكبت هفوة كبيرة جدًّا. لامستُ ملكة إنكلترا، وسرعان ما عرفت أنّه أمر لا يجوز القيام به. التقطت الكاميرا الحدث، وفي الأيّام القليلة التالية بثّت وسائل الإعلام الصور في كلّ أنحاء العالم، مرفقة بالتعليقات: «خرق للبروتوكول!»، «ميشيل تجرؤ على معانقة الملكة!». عادت بي الذاكرة إلى تعليقات الحملة الانتخابيّة التي صوّرتني بصورة امرأة خشنة تفتقر إلى ما يجب أن تتحلّى به السيّدة الأولى من لياقة، وساورني بعض القلق من أنّني ربّما حوّلت الانتباه عن جهود باراك في الخارج. لكنّني حاولت ألّا أدع الانتقاد ينال منّي. لعلّي لم أقم بما هو مناسب في قصر باكينغهام، لكنّه على الأقلّ كان أمرًا إنسانيًّا. وأجرؤ على القول أنّ الملكة لم تبالِ بذلك، لأنّها اقتربت منّي حين لامستُها، ووضعت يدها برفق على ظهري.

في اليوم التالي، وفيما ذهب باراك إلى سلسلة ماراتونيّة من الاجتماعات الاقتصادية، قمتُ بزيارة مدرسة للفتيات. كانت تلك المدرسة التي تحظى بتمويل حكوميّ تقع في إيسلنغتون بداخل لندن، ولا تبعد كثيرًا عن عدد من المشاريع السكنية الحكوميّة. أكثر من 90 بالمئة من الطالبات التسعمئة كنّ سوداوات أو من أقليّات إثنيّة، ونحو 20 بالمئة كنّ بنات مهاجرين أو طالبي لجوء سياسيّ. جذبتني تلك المدرسة لأنّها كانت تعددية وذات موارد مالية محدودة، ومع ذلك تميّزت من الناحية الأكاديمية. أردت الحرص أيضًا على أن تكون زيارتي إلى أيّ مكان بصفتي سيّدة أولى زيارة حقيقيّة، أي أن تتسنّى لي فرصة لقاء الفتيات اللواتي يتعلّمن هناك، لا فقط لقاء المشرفين عليهنّ. أتيحت لي في رحلاتي إلى الخارج فرص لم تُتح لباراك. فقد كان بوسعي أن أتخلّص من الاجتماعات المتعدّدة الأطراف ذات الأجندة المعدّة مسبقًا مع القادة، وأجد طرقًا جديدة لإضفاء بعض الدفء الإنسانيّ على تلك الزيارات المملّة في طبيعتها. وقد قرّرت أن أقوم بذلك في كلّ زياراتي إلى الخارج، بدءًا بإنكلترا.

لكنّني لم أكن مستعدّة تمامًا لأشعر بما شعرت به حين وطئت قدماي مدرسة Elizabeth Garrett Anderson، واتّجهت نحو مسرح اجتمعت فيه نحو مئتي طالبة ليشاهدن عرضًا قدّمته بعض رفيقاتهنّ أمامي ويستمعن إلى كلمتي. كانت المدرسة تحمل اسم طبيبة رائدة أصبحت أوّل امرأة تُنتخب عمدة في إنكلترا. لم يكن المبنى مميّزًا، فهو أشبه بصندوق حجريّ في شارع عاديّ. ولكن، حين جلستُ في كرسيّ على المسرح وبدأتُ بمشاهدة العرض، الذي تضمّن أحد مشاهد مسرحيّات شكسبير، ورقصة حديثة، وأغنية لويتني هيوستون قدّمتها ببراعة جوقة من الفتيات، شعرتُ باضطراب حقيقيّ، وبأنّني أكاد أعود إلى ماضيّ.

نظرة واحدة إلى وجوه الفتيات في تلك القاعة كانت كافية ليدرك المرء أنّ عليهنّ بذل جهد كبير ليخرجن إلى الضوء، برغم كلّ ما يملكن من قوّة. منهنّ من كنّ محجّبات، ومنهنّ من كانت الإنكليزيّة لغتهنّ الثانية، وبشراتهنّ تتراوح بين السمراء والسوداء.

عرفت أنّ عليهنّ مقاومة الأفكار النمطيّة والأحكام المسبقة الراسخة بشأنهنّ، وذلك قبل أن تتسنّى لهنّ فرصة إثبات أنفسهنّ. كان عليهنّ أن يحاربن قدَر البقاء مغمورات لمجرّد أنّهنّ إناث وفقيرات وملوّنات. عليهنّ بذل جهد كبير للتعبير عن آرائهنّ، ولئلّا يُنتقص من قدرهنّ، وللحؤول دون تعرّضهنّ للهزيمة. عليهنّ أن يعملن لكي يتعلّمن.

لكنّ وجوههنّ كانت مفعمة بالأمل، وهو ما انعكس في وجهي. وأدركتُ حقيقة غريبة وصامتة: هؤلاء الفتيات هنّ أنا كما كنتُ في ماضيّ، وأنا هنّ كما يمكنهنّ أن يصبحن. الطاقة التي شعرتُ بهديرها في تلك المدرسة لم يكن لها شأن بالعوائق، بل كانت قوّة تسعمئة فتاة يناضلن.

حين انتهى العرض وذهبت إلى المنبر لألقي كلمتي، كنت عاجزة عن حبس مشاعري. ألقيت نظرة على الورقة المعدّة مسبقًا أمامي، ولكنّي سرعان ما تجاهلتها. نظرت إلى الفتيات وبدأت أتكلّم، وشرحت لهنّ أنّني وبرغم قدومي من مكان بعيد، وحملي لقبًا غريبًا، «السيّدة الأميركيّة الأولى»، فقد كنت أشبههنّ أكثر ممّا قد يخطر ببالهنّ. قلت لهنّ إنّني آتي مثلهنّ من حيّ تقطنه الطبقة العاملة، ونشأت في عائلة متواضعة الحال ومُحبّة، وإنّني أدركت في سنّ مبكرة أنّ المدرسة هي المكان الأفضل لأثبت نفسي، وإنّ التعليم يستحقّ الجهد الذي نبذله لأجله، وإنّه سيساعد في دفعهنّ قُدُمًا في العالم.

يومذاك، كان شهران قد انقضيا على حصولي على لقب السيّدة الأولى. شعرت في أوقات مختلفة بأنّ وتيرة تلك الحياة تسبقني، أو أنّني لا أستحقّ كلّ تلك الأضواء، أو بالقلق على ابنتيّ، أو بالشكّ في أهدافي. في الحياة العامّة نواحٍ قد يضطرّ المرء فيها أحيانًا إلى التخلّي عن خصوصيّته ليصبح رمزاً حيًّا لأمّة، لا بل قد يبدو أنّ تلك النواحي مصمّمة خصيصًا لتجريد المرء من بعض هويّته. ولكنّني حين وقفت هناك لمخاطبة أولئك الفتيات، شعرت بشيء مختلف وواضح جدًّا: الانسجام بين ذاتي القديمة ودوري الجديد. هل أنتنّ قادرات؟ نعم، قادرات، كلّكنّ قادرات. قلت

لطالبات مدرسة Elizabeth Garrett Anderson إنهنّ أثّرن فيّ، ووصفتهنّ بأنّهنّ مهمّات جدًّا لأنّي رأيتهنّ كذلك فعلًا. وبعد أن اختتمت كلمتي، فعلت ما كان أمرًا غريزيًّا، وهو أنّني عانقت بحرارة كلّ فتاة استطعت الوصول إليها.

حين عدت من رحلتي، كان الربيع قد حلّ في واشنطن، وباتت الشمس تشرق باكرًا وتتأخّر في المغيب. كنت أشاهد الحديقة الجنوبيّة تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى منبسط أخضر رائع وغنيّ، وأرى من نافذة مقرّ إقامتنا أزهار التوليب الحمراء والخزامى التي تحيط بنافورة الماء أسفل الهضبة. كنت وفريق عملي قد أمضينا شهرين نعمل على تحويل فكرتي لإنشاء بستان إلى واقع، وهو ما لم يكن سهلًا. فقد كان علينا أوّلًا أن نقنع إدارة حديقة National Park وفريق العناية بأراضي البيت الأبيض باقتطاع جزء من إحدى أشهر حدائق العالم. لكنّ اقتراحنا جوبه بالمعارضة منذ البداية. فقد انقضت عقود على قيام إليانور روزفلت بزرع حديقة أطلقت عليها اسم «حديقة النصر» في البيت الأبيض، ويبدو أنّ أحدًا لم يُظهر اهتمامًا بتكرار التجربة. حتّى أنّ سام كاس قال لي في إحدى المرّات: «إنّهم يظنّوننا مجانين».

ومع ذلك، حالفنا النجاح. مُنحنا في البداية رقعة صغيرة من الأرض خلف ملعب التنيس، بالقرب من كوخ للعدّة. لكنّ سام ناضل من أجل الحصول على قطعة أرض أفضل، فمُنح في النهاية جزء من الحديقة الجنوبيّة تغمره الشمس، تبلغ مساحته نحو مئة متر مربّع، ويمتدّ بشكل حرف « L»، ولا يبعد كثيرًا عن المكتب البيضويّ وعن الأرجوحة التي وضعناها مؤخّرًا للفتاتين. كما نسّقنا مع جهاز الحماية لئلّا تعرقل حراثتنا الأرض عمل أجهزة الاستشعار أو المجالات البصريّة التي يحتاجون إليها لحماية أراضي البيت الأبيض. وأجرينا اختبارات لنقرّر ما إذا كانت التربة تتمتّع بما يكفي من المغذّيات ولا تحتوي موادّ سامّة كالرصاص أو الزئبق.

بعد ذلك، بات بوسعنا الشروع في العمل.

بعد أيّام من عودتي من أوروبا، استضفت مجموعة طلّاب من

مدرسة Bancroft الابتدائية، وهي مدرسة تقدّم التعليم بلغتين في الناحية الشمالية الغربية للمدينة. كنّا قبل ذلك بأسابيع قد استعملنا رفوشًا ومعاول لقلب التربة، وقد عاد الطلّاب أنفسهم لمساعدتي على زرع الشتول والبزور. لم يكن بستاننا بعيدًا من السياج الجنوبيّ للبيت الأبيض، بمحاذاة شارع E Street، حيث يتجمّع السيّاح غالبًا ليتفرّجوا على البيت الأبيض. وفرحت لأنهم سيشاهدون بستاننا.

أقلّه كنت أرجو أن أفرح، لأنّ أحدًا لا يعرف ما قد يحدث أو لا يحدث في بستان، أو ما إذا كان الزرع سينمو فعلًا. دعونا وسائل الإعلام لتغطية عمليّة الزرع، وكلّ طهاة البيت الأبيض لمساعدتنا، وكذلك طوم فيلساك وزير الزراعة. طلبنا من الجميع أن يشاهدوا ما نفعله، وبات علينا أن ننتظر النتائج. وقد قلت لسام صباح ذلك اليوم: «بصراحة، من مصلحتنا أن ينجح هذا الأمر».

يومذاك، ركعت أرضًا مع مجموعة من طلّاب الصفّ الخامس، وزرعنا البزور في الأرض بعناية، ورصصنا التراب حول الشتول الضعيفة. بعدما كانت وسائل الإعلام قد فصّلت كلّ ما ارتديته في أوروبا – وقد ارتديت للقاء الملكة سترة غير رسميّة، وهو ما اعتُبر فضيحة لا تقلّ عن ملامستي إيّاها – شعرت بالارتياح لكوني راكعة على التراب بسترة خفيفة وسروال عاديّ. طرح عليّ الطلّاب أسئلة تتعلّق بالخضر وما نفعله، وكذلك أسئلة من قبيل «أين الرئيس؟»، و«لماذا لا يأتي لمساعدتنا؟»، لكنّهم سرعان ما فقدوا اهتمامهم بي لينصبّ على قفّازاتهم وملاءمتها لأيديهم، وعلى الديدان في التربة. كنت أحبّ أن أكون مع الأطفال. لقد كان ذلك، وظلّ طوال فترة إقامتي في البيت الأبيض، بلسمًا لروحي ووسيلة لأهرب مؤقّتًا من همومي كسيّدة أولى، وإدراكي بأنّني موضع حكم دائم. كان الأولاد يُشعرونني بأنّني أعود لأكون نفسي من جديد. لم أكن مشهدًا يتفرّجون عليه، بل سيّدة لطيفة وطويلة القامة.

تقدّم الصباح، وغرسنا الخسّ والسبانخ والشمّر والبروكولي، وكذلك الجزر والكرنب والبصل والبازلّاء والتوت وكثيرًا من الأعشاب.

ما الذي كنّا سنجنيه من ذلك؟ لم أكن أعلم، تمامًا مثلما لم أكن أعلم ما ينتظرنا في البيت الأبيض، أو ما ينتظر بلدنا أو أيًّا من هؤلاء الأطفال اللطفاء الذين أحاطوا بي. رجوت فقط أنّه، وبفضل الشمس والمطر والوقت، سيخرج من التراب محصول مقبول.

21

مساء يوم سبت في نهاية شهر أيّار/مايو، اصطحبني باراك في موعد. في الأشهر الأربعة التي تلت تنصيبه رئيسًا، كان يمضي أيّامه محاولًا الوفاء بالوعود المختلفة التي قطعها للناخبين خلال الحملة، وبات عليه أن يفي بوعد قطعه لي. فقررنا الذهاب إلى نيويورك لنتناول العشاء ونشاهد عرضًا فنيًّا.

طوال سنوات إقامتنا في شيكاغو، كانت ليلة اللقاء الغراميّ بيننا جزءًا مقدّسًا من كلّ أسبوع، وفسحة رومنسيّة أوجدناها في حياتنا وحرصنا بشدّة على التمسّك بها. أحبّ أن أحادث زوجي ونحن جالسان إلى طاولة صغيرة في قاعة أنوارها خفيفة. لطالما كنت كذلك، وأظنّني سأبقى دائمًا كذلك. باراك رجل يجيد الإصغاء، وهو صبور ومراعٍ للمشاعر. أحبّ طريقته في إرجاع رأسه إلى الوراء حين يضحك، وأحبّ خفّة الروح التي تنعكس في عينيه، واللطف المتأصّل في جوهره. لطالما شكّل لقاؤنا لشرب كأس معًا وتناول وجبة طعام بهدوء، وسيلتنا لاسترجاع بدايات علاقتنا، ذلك الصيف الحارّ الأوّل حين كانت كلّ نظرة بيننا، وكلّ كلمة، محمّلة بشحنة كهربائيّة.

استعدادًا لموعدنا في نيويورك، ارتديت فستان سهرة أسود ووضعت أحمر شفاه، واخترت لشعري تصفيفة أنيقة. كان قلبي يخفق بحماسة لأنني سأتمكّن من الهروب لأمضي وقتًا بمفردي مع زوجي. كنّا في الأشهر القليلة الماضية قد استضفنا مدعوين

إلى العشاء، وذهبنا معًا لحضور عروض مسرحيّة في مركز كينيدي، لكن غالبًا ما كان ذلك بصفة رسميّة، وبحضور الكثير من الأشخاص. لكنّ الليلة التي تنتظرني كانت بمثابة إجازة حقيقيّة.

ارتدى باراك بزّة سوداء، ولم يعقد ربطة عنق. ودّعنا الفتاتين وأمّي في بداية المساء، ثمّ سرنا يدًا بيد في الحديقة الجنوبيّة، وركبنا Marine One، المروحيّة الرئاسيّة التي أقلّتنا إلى قاعدة أندروز الجويّة. ركبنا بعد ذلك طائرة صغيرة تابعة لسلاح الجوّ أقلّتنا إلى مطار جون كينيدي، ثمّ انتقلنا بالمروحيّة إلى مانهاتن. كان المسؤولون عن برامجنا وجهاز الحماية قد خطّطوا لرحلتنا مسبقًا وبدقّة لضمان نجاحها التامّ كالعادة.

كان باراك قد اختار بمساعدة سام كاس مطعمًا بالقرب من حديقة واشنطن سكواير، أدرك أنّني سأحبّه لأنّه يركّز على استخدام الخضر المزروعة محلّيًا، وهو مكان صغير بمنأى عن أنظار المارّة يدعى Blue Hill. فيما انطلق بنا الموكب الرئاسيّ في الجزء الأخير من رحلتنا، من مهبط المروحيّات في جنوب مانهاتن إلى غرينويتش فيلاج، لاحظت أضواء سيّارات الشرطة التي استُخدمت لإقفال الطرق، واعتراني شيء من الشعور بالذنب لأنّ مجرّد وجودنا في المدينة قد عرقل الحركة مساء يوم سبت. لطالما أيقظت نيويورك بداخلي شعورًا بالرهبة، فضخامتها وازدحامها كافيان ليشعر أيّ إنسان بضآلته أمامها. تذكّرت دهشتي حين سافرت للمرّة الأولى إلى هناك منذ عقود برفقة تشيرني. وعرفت أيضًا أنّ ما يشعر به باراك كان أعمق من شعوري حتّى. فالطاقة الهائلة والتنوّع اللذان يطبعان المدينة جعلا منها أرضًا خصبة تفتّح فيها تفكيره وخياله حين كان طالبًا في جامعة كولومبيا.

قادنا النادل إلى طاولة في زاوية هادئة، والناس حولنا يبذلون جهدًا لئلّا يحملقوا فينا بدهشة. لكنّ إخفاء وصولنا هو ضرب من المستحيلات. كان على كلّ من يدخل المطعم بعدنا أن يخضع لتدقيق بآلة لكشف المعادن، يتولّاه فريق من جهاز الحماية. ومع أنّ ذلك الإجراء كان سريعًا إلّا أنّه بقي مصدر إزعاج، فراودني

الشعور بالضيق من جديد.

طلبنا كأسَي مارتيني، وتبادلنا حديثًا خفيفًا. كانت أشهر أربعة قد انقضت على دخولنا البيت الأبيض بصفتنا رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة والسيدة الأميركيّة الأولى، ومع ذلك كنّا يومذاك نعود إلى الوراء ونحاول أن نفهم كيف انسجمت شخصيّتانا، وما تأثير ذلك في زواجنا. آنذاك لم يكن هناك جانب واحد من حياة باراك المعقّدة لم يؤثر في حياتي بشكل أو بآخر، ما يعني أنّ ثمّة مسائل مشتركة كثيرة بوسعنا أن نناقشها، كقرار فريقه برمجة رحلة خارجيّة له في خلال إجازة الفتاتين الصيفيّة، على سبيل المثال، أو ما إذا كان يتمّ الإصغاء بشكل كافٍ إلى مداخلة رئيسة فريق عملي خلال الاجتماعات الصباحيّة في الجناح الغربيّ. لكنّني عمومًا حاولت تجنّب ذلك، ليس تلك الليلة فقط، بل كلّ ليلة. أمّا اعتراضاتي حول هذا القرار أو ذاك في الجناح الغربيّ، فقد اعتدت أن أدع فريق عملي ينقلها إلى فريق عمل باراك. وبذلت كلّ ما بوسعي لإبعاد مسائل البيت الأبيض عن لقاءاتنا الشخصية.

كان باراك يرغب أحيانًا في أن يتكلّم عن الأعمال، برغم محاولاته الكثيرة لتجنّب ذلك. فجزء كبير من عمله كان منهِكًا للغاية، والصعوبات الملقاة على عاتقه هائلة، وغالبًا ما يبدو تذليلها مستحيلًا. كانت شركة General Motors تنوي إعلان إفلاسها بعد أيّام، أما كوريا الشماليّة فأجرت اختبارًا نوويًّا، وهو – أي باراك – على وشك السفر إلى مصر لإلقاء خطاب مهمّ يريد من خلاله مدّ اليد إلى مسلمي العالم. بدا أنّ الأرض حوله لا تتوقّف عن الاهتزاز أبدًا.

كان أصدقاؤنا القدامى، كلّما أتوا لزيارتنا في البيت الأبيض، يستغربون الاهتمام الذي أبديه وباراك في الاستفسار عن أعمالهم، وأولادهم، وهواياتهم، وكلّ ما يخصّهم. فلم نكن نبالي بالحديث عن تعقيدات حياتنا الجديدة، بل بمعرفة آخر الأقاويل واستقاء أخبار شيكاغو اليومية. بدا أن كلينا كان متعطشًا لمعرفة ما يجري في الحياة العادية.

ذلك المساء في نيويورك، أكلنا وشربنا وتحادثنا على ضوء الشموع، يغمرنا شعور، ولو وهميًّا، بالسعادة لأنّنا سرقنا وقتًا ضئيلًا لنا. البيت الأبيض مكان جميل ومريح جدًّا، وأشبه بقلعة في قناع منزل. ولعلّ أفراد جهاز الحماية المولجون بأمننا كانوا يفضّلون ألّا نغادره أبدًا. وحتّى بداخله، كانوا يفضّلون أن نركب المصعد لا أن نصعد الدرج، للحدّ من خطر تعثّرنا وسقوطنا. أمّا إذا عقدنا – باراك أو أنا – اجتماعًا في مبنى الضيوف الرئاسيّ Blair House، الكائن قبالة البيت الأبيض في جزء مقفل من جادة بنسلفانيا، فكانوا يطلبون منّا أحيانًا الانتقال إليه بواسطة الموكب الرئاسيّ بدلًا من السير في الهواء الطلق. كنّا نحترم يقظتهم، لكنّ الأمر بدا أشبه بالاحتجاز. عشت أحيانًا صراعًا لمحاولة التوفيق بين حاجاتي وما يناسب الآخرين. فإذا أراد أيّ فرد من عائلتنا الخروج إلى شرفة ترومان، وهي الشرفة نصف الدائريّة الجميلة المشرفة على الحديقة الجنوبيّة، والتي تشكّل المتنفّس الوحيد المتاح لنا في البيت الأبيض، كان علينا أن نبلّغ أوّلًا جهاز الحماية لإقفال جزء من شارع E Street تظهر منه الشرفة، وإبعاد السيّاح المتجمهرين في الخارج في كلّ ساعات النهار والليل. خطر ببالي مرارًا أن أخرج للجلوس على تلك الشرفة، ثمّ عدلت عن الأمر بعد تفكيري بكل الجهد الذي سيكون على الآخرين بذله، فضلًا عن مقاطعة إجازات الناس، وكلّ ذلك لأجل فنجان شاي على تلك الشرفة.

بسبب تقييد حركتنا، باراك وأنا، تراجع عدد الخطوات التي نسيرها كلّ يوم، فبتنا أكثر اعتمادًا على النادي الرياضيّ الصغير الموجود في الطابق الأعلى من مقرّ إقامتنا. كان باراك يسير على آلة المشي نحو ساعة كلّ يوم، محاولًا بذلك إشباع حاجته الدائمة إلى الحركة. وكنت أمارس التمارين الرياضيّة كلّ صباح أيضًا، في الغالب مع كورنيل، مدرّبنا في شيكاغو، والذي أتى للإقامة بصورة جزئيّة في واشنطن من أجلنا، وبات يقصدنا مرّات عدّة في الأسبوع لتحفيزنا على رفع الأوزان وشدّ العضلات.

إذا ما استثنينا القضايا الوطنية، كنا – باراك وأنا – نجد دائمًا مواضيع نناقشها. تحادثنا خلال العشاء في تلك الليلة عن دروس

المزمار التي تأخذها ماليا، وعن تمسّك ساشا الدائم بغطائها «بلانكي»، الذي بات مهلهلًا وممزّقًا لدرجة أنه بات خطرًا على صحّتها، ومع ذلك بقيت تصرّ على أن ترفعه ليغطّي رأسها حين تنام. كما رويت له قصّة طريفة عن قيام خبير تجميل مؤخّرًا بمحاولة وضع رموش اصطناعيّة على عينَي أمّي قبل جلسة تصوير فوتوغرافيّة، وفشله في ذلك. أرجع باراك رأسه إلى الوراء واستغرق في الضحك، تمامًا كما توقّعت منه أن يفعل. كذلك تحدّثنا عن كائن جديد ومسلّ عمره سبعة أشهر دخل المنزل مؤخّرًا، وهو كلب ماء برتغاليّ مشاكس دعوناه بو، أهداه إلى عائلتنا السناتور تيد كينيدي، وفاء لوعد قطعناه لابنتينا أثناء الحملة. اعتادت الفتاتان أن تلعبا معه في الحديقة الجنوبية، فتختبئان خلف الأشجار وتناديانه، ويقفز فوق المنبسطات العشبية في أثر صوتيهما. كنّا كلّنا نحبّ بو.

حين أنهينا وجبة الطعام ووقفنا لننصرف، هبّ زبائن المطعم واقفين وصفّقوا لنا، في بادرة وجدتُها لطيفة وغير ضروريّة في آنٍ معًا. ربّما لأنّ بعضهم شعر بالسرور لرؤيتنا ننصرف.

حيثما ذهبتُ وباراك، كنّا مصدرًا للإزعاج وعائقًا يعترض سير الحياة العادية. لكن لم يكن باستطاعتنا تفادي ذلك. شعرنا بالأمر مجدّدًا حين عبر بنا الموكب الرئاسيّ الجادّة السادسة متّجهًا إلى ساحة تايمز، حيث كانت الشرطة قد أقفلت منطقة بكاملها أمام المسرح منذ ساعات، ووقف الروّاد في صفّ طويل ينتظرون المرور بين أجهزة كشف المعادن التي اقتضى حضورنا استعمالها. كما كان على الممثلين الانتظار خمسًا وأربعين دقيقة إضافيّة قبل البدء بالعرض بسبب التدقيق الأمنيّ.

أخيرًا بدأ العرض، وكان رائعًا. مسرحيّة دراميّة لأوغست ويلسون تدور أحداثها في أحد فنادق بيتسبورغ أثناء الهجرة الكبرى، حين غادر ملايين الأفريقيّين الأميركيّين الجنوب وتدفّقوا على وسط غرب البلاد، تمامًا مثلما فعل أفراد عائلتَي أبي وأمّي. جلست في الظلام بجانب باراك مأخوذة بالعرض، تغلبني عواطفي، ونسيت نفسي لبعض الوقت وسط روعة ذاك الأداء المسرحيّ

والشعور بالرضا الذي رافق هذه النزهة، بعيدًا عن جوّ العمل والواجبات.

في رحلة عودتنا إلى واشنطن بالطائرة في ساعة متأخّرة من تلك الليلة، كنت أعلم أنّ وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن نفعل أمرًا كهذا من جديد. فخصوم باراك السياسيّون سينتقدونه لأنّه اصطحبني إلى نيويورك لأشاهد عرضًا مسرحيًّا. والحزب الجمهوريّ سينشر بيانًا صحفيًّا حتّى قبل أن نعود إلى المنزل، يقول فيه إنّ موعدنا كان بذخًا باهظ الكلفة بالنسبة إلى دافعي الضرائب، وهو ما سيثير نقاشًا في نشرات الأخبار المتلفزة. أمّا فريق باراك فسيؤيّد ذلك الموقف بشكل غير معلن، ويحثّنا على أن نحاول تجنّب الوقوع في أخطاء سياسيّة، ويجعلني أشعر بالذنب والأنانيّة لأنّني سرقت لحظة نادرة لأخرج فيها بمفردي مع زوجي.

لكنّ الأمر لم يتوقّف هنا، فالنقّاد كانوا لنا بالمرصاد دائمًا، والجمهوريّون لم يتراجعوا قطّ. وما يُسمّى بـ«الصورة أمام الرأي العامّ» سيتحكّم بحياتنا دائمًا.

هذا الموعد الذي خرجت فيه مع باراك شكّل اختبارًا لنظرية ما ونجح في إثبات الناحيتين الجيدة والسيئة، لأمر كان منذ البداية مثار شكّ بالنسبة إلينا. فمن جهة، استطعنا فعلًا الخروج لقضاء أمسية رومانسيّة كما كنّا نفعل منذ سنوات، قبل أن تجتاح السياسة حياة زوجي، واستطعنا، ولو بصفتنا «رئيسًا وسيّدة أولى»، أن نمضي أمسية حميمة معًا، ونستمتع بوجبة طعام وعرض مسرحيّ في مدينة يحبّها كلانا. ومن جهة أخرى، أدركنا أنّ ذلك الاختيار اتّسم بالأنانيّة، لأنه تطلّب ساعات من الاجتماعات المسبقة بين جهاز الحماية والشرطة المحلية، وعملًا إضافيًّا لموظّفينا، وموظّفي المسرح، والنُّدُل في المطعم، وسبّب إزعاجًا للأشخاص الذين مُنعت سياراتهم من سلوك طريق الجانب الغربي، ولأفراد الشرطة في الشارع. كان ذلك جزءًا من العبء الجديد الذي بات يسكن معنا. ذلك الموعد تطلّب عمل أشخاص كثيرين، وأثّر في كثيرين، وكلّ ذلك لأجل أن نقضي وقتًا

ممتعًا.

كانت شرفة ترومان تطلّ على بستاننا الغنيّ والنابض حياةً في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من حديقة البيت الأبيض. غمرني هذا المشهد بالرضا، فقد كنت كمن يرى نسخة مصغّرة من جنّة عدن وهي تتكوّن، مؤلّفة من العروق اللولبيّة المعترشة، والفروع نصف النامية، وسيقان نبتات الجزر والبصل وهي في بداية ظهورها، وأوراق السبانخ الخضراء الكثيفة، وعلى أطرافها أزهار حمراء وصفراء زاهية. لقد كنّا نزرع طعامًا حقيقيًّا.

في أواخر حزيران/يونيو، انضمّ إليّ فريق البستانيّين الصغار من مدرسة Bancroft الابتدائية لنجني المحصول الأوّل. ركعنا كلّنا على التراب فنزعنا أوراق الخسّ وقطفنا البازلّاء. شاركَنا في المرح كلبنا بو الذي تبيّن أنّه عاشق للبستان، فكان يدور حول الأشجار قافزًا ثمّ يفترش التراب على ظهره تحت الشمس.

ذهب سام والطلّاب إلى المطبخ بعد القطاف، حيث أعدّوا سلطة من الخسّ والبازلّاء المقطوفة، فأكلناها مع الدجاج المشويّ في الفرن، لننهي غداءنا بحلوى الكابكيك التي زُيّنت كلّ منها بحبّة توت. لقد أنتج البستان لنا في عشرة أسابيع أكثر من 45 كيلوغرامًا من الخضر، بكلفة لم تتجاوز 200 دولار دفعناها ثمنًا للبزور والسماد.

كان بستاننا يرمز إلى الصحّة والتغذية السليمة، وأحبّه الناس. لكنّني علمتُ أنّ البعض لن يعتبروا ذلك كافيًا. وأدركت أنّني تحت المجهر، وأنّ هناك مَن يتوقّع منّي شيئًا ما، وخصوصًا النساء في المهن الإداريّة المختلفة، اللواتي كنّ يتساءلن عمّا إذا كنت سأدفن خبرتي في التربية والإدارة لأتقوقع في دور السيّدة الأولى، في منزل فخم مزيّن بالبياضات الورديّة اللون. بدا أنّ الناس يخشون ألّا أُظهر طاقاتي كاملة.

علمت أنّني ومهما فعلت، لا بدّ من أن أتسبّب بخيبة أمل أحدهم. علّمتني الحملة الانتخابيّة أنّ كلّ حركة أقوم بها وكلّ تعبير يظهر على وجهي سيجدان عشرة تفسيرات مختلفة. فالبعض رأى أنّني اقتحاميّة وشديدة الطموح، أو غاضبة، فيما رأى

آخرون في بستاني والرسائل التي أبعث بها حول الأكل الصحيّ مصدر خيبة للحركة النسويّة، أو افتقارًا إلى قوة الشخصيّة. قبل أشهر من انتخاب باراك رئيسًا، قلت في مقابلة مع إحدى المجلّات إنّ هدفي الأساسيّ في البيت الأبيض سيكون مواصلة دوري كـ«أمّ قائدة» في عائلتنا. قلت ذلك بشكل عرضيّ، لكنّ العبارة علقت في الأذهان، وضخّمتها الصحافة. بدا أنّ بعض الأميركيّين تقبّلوها مدركين تمامًا مقدار التنظيم والجهد المطلوبين لتربية الأولاد، فيما وجدها آخرون مثيرة للاستهجان، وفسّروها بأنّ نشاطي كسيّدة أولى، سيقتصر على اللعب مع ابنتيّ.

الحقيقة أنّ نيّتي كانت أن أقوم بكلّ شيء، أي أن أعمل لهدف وأن أؤدي دور الأمّ بعناية، مثلما فعلت دائمًا. الفرق الوحيد الآن هو أنّني صرت محطّ أنظار الكثيرين.

كنت أفضّل العمل بصمت، أقلّه في المرحلة الأولى. أردت أن أكون منهجيّة في وضع خطّة كبرى، والانتظار حتّى أمتلك ثقة تامّة في ما أقوم به قبل مفاتحة الجمهور بالأمر. وقلت لفريق عملي إنّني حين أنوي معالجة أيّة مسألة، أفضّل التعمّق في دراستها على الاستفاضة في الحديث عنها. شعرت أحيانًا وكأنّني إوزّة في بحيرة، وأنّ جزءًا من عملي هو أن أنساب موحية بالهدوء، شرط ألّا تكفّ ساقاي عن التجذيف تحت الماء. كما أنّ الحماسة والاهتمام اللذين أثارهما البستان، والتغطية الصحفيّة الإيجابيّة، والرسائل التي انصبّت عليّ من كلّ أنحاء البلاد، أكّدت لي أنّ بوسعي أن أحيط الأفكار الجيّدة بالضجيج والاهتمام. فبات عليّ تسليط الضوء على قضيّة أكبر والدفع لتحقيق نتائج أكثر.

حين تولّى باراك منصبه، كان نحو ثلث الأطفال الأميركيّين يعانون زيادة في الوزن أو البدانة. كما ارتفعت بثلاثة أضعاف نسب بدانة الأطفال خلال العقود الثلاثة الأخيرة. وسجّلت حالات الإصابة بارتفاع ضغط الدم ومرض السكّري من الفئة الثانية لدى الأطفال معدّلات قياسيّة. حتّى القادة العسكريّون ذكروا أنّ البدانة كانت من أولى أسباب عدم الأهلية للخدمة العسكريّة.

كانت تلك المشكلة تطال كلّ جوانب الحياة العائليّة، من الأسعار المرتفعة للفواكه الطازجة، وصولًا إلى التخفيض الواسع النطاق لتمويل البرامج الرياضية والترفيهيّة في المدارس الحكوميّة. وتنافست أجهزة التلفزيون والكومبيوتر وألعاب الفيديو على الاستئثار بأوقات الأطفال، وفي بعض الأحياء بدا البقاء بداخل المنزل خيارًا أكثر أمانًا من خيار الخروج للّعب، كما كنت وكريغ نفعل في طفولتنا. كانت الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى تفتقر إلى متاجر بقالة. وفي مناطق شاسعة من البلاد كان المتسوّقون الريفيّون لا يستطيعون الوصول إلى المنتجات الطازجة. في هذا الوقت كان حجم الحصص الغذائية في المطاعم يتزايد، وشعارات إعلانات الحبوب المحلّاة، والوجبات القابلة للتسخين بأفران الميكرويف، والأطعمة ذات الحجم الضخم، تدخل مباشرة إلى عقول الأطفال وهم يشاهدون برامج الكرتون.

لكنّ محاولة تحسين ولو جزء واحد من النظام الغذائي قد تثير الكثير من ردود الفعل الغاضبة. رأيتُ أنّني إذا أعلنتُ الحرب على مشروبات الأطفال المشبعة بالسكّر، فقد تقف في وجهي شركات المشروبات الكبرى بل كذلك مزارعو الذرة المستخدمة في صناعة الكثير من الموادّ المُحلّية. وإذا دعوت إلى تقديم وجبات مدرسيّة صحّية أكثر، فسأصطدم بمجموعات الضغط المؤلّفة من الشركات الكبرى التي تقرّر ما هو الطعام الذي يقدَّم للأطفال في المدارس. ظلّ خبراء الصحّة العامّة ومناصرو قضيّتها عاجزين لسنوات أمام شركات الأطعمة والمشروبات الأفضل تنظيمًا وتمويلًا. فوجبات الغذاء المدرسيّة في الولايات المتّحدة تمثّل قطاعًا قيمته 6 مليارات دولار سنويًّا.

ومع ذلك، شعرت بأنّ الوقت حان للدفع باتّجاه التغيير. لم أكن الشخص الأوّل ولا الوحيد الذي تجذبه هذه القضايا. فأميركا تشهد نشوء حركة للمطالبة بالطعام الصحّي، وهذه الحركة تزداد قوّة. وقد بدأ البعض بممارسة الزراعة في كلّ المدن الأميركيّة. حاول الجمهوريّون والديمقراطيّون على حدّ سواء معالجة المشكلة على مستوى الولايات كما على المستوى المحليّ، فاستثمروا

في مشاريع تسمح بالعيش الصحي والسليم، كبناء المزيد من الأرصفة للمشاة والحدائق العامّة. كان ذلك بمثابة برهان لي على وجود أرضيّة سياسيّة مشتركة أوسع يمكن استكشافها.

في أواسط العام 2009، بدأت وفريقي الصغير بالتنسيق مع واضعي السياسات في الجناح الغربيّ وبالاجتماع مع الخبراء داخل الحكومة وخارجها، للوصول إلى خطّة. قرّرنا أن نركّز في عملنا على الأطفال، لأنّ حمل البالغين على تغيير عاداتهم أمر شاقّ وصعب من الناحية السياسيّة. وشعرنا بأنّ فرصتنا في النجاح ستكون أكبر إذا حاولنا مساعدة الأطفال على التفكير بطريقة مختلفة في ما يتعلّق بالطعام والتمارين في سنّ مبكرة. مَن يمكنه أن يعارضنا إذا كنّا نهتمّ بالأطفال بصدق؟

آنذاك، كانت إجازة ابنتيّ الصيفيّة قد بدأت. ألزمت نفسي بالقيام بدور السيّدة الأولى ثلاثة أيّام أسبوعيًّا، وتخصيص سائر أيّام الأسبوع لعائلتي. وبدلًا من إرسال ابنتيّ إلى مخيّمات نهاريّة، قرّرت إدارة ما أسميته «مخيّم أوباما». فكنت أدعو بعض الأصدقاء لنقوم برحلات محليّة ونتعرّف إلى المنطقة التي نعيش فيها. زرنا مونتيتشيلو وجبل فرنون واستكشفنا مغاور في وادي شيناندوا. كما زرنا مكتب النقش والطباعة (Bureau of Engraving and Printing) لنرى كيف تتمّ صناعة الدولار، وقمنا بجولة على منزل فردريك دوغلاس في الجزء الجنوبي الشرقي من واشنطن، وتعلّمنا كيف تمكّن عبد من أن يتحوّل إلى رجل علم وبطل. وبعد كلّ زيارة كنت أطلب من ابنتيّ كتابة تقرير صغير تصفان فيه ما تعلّمتاه، لكنّهما بدأتا تحتجّان بعد فترة، فأهملت الفكرة.

حاولنا قدر المستطاع أن نبرمج تلك الرحلات في الصباح الباكر أو في المساء للإفساح في المجال أمام أفراد جهاز الحماية كي يتمكّنوا من إخلاء المنطقة أو إغلاقها من دون إثارة الكثير من الجلبة. بقينا مصدرًا للإزعاج، لكنّ ذهابنا من دون باراك كان يسبّب إزعاجًا أقلّ. كنت أحاول أن أحرّر نفسي من الشعور بالذنب حين يتعلّق الأمر بابنتيّ، فقد أردت أن تتمكّنا من التنقّل بالحريّة التي يتمتّع بها سائر الأولاد.

في وقت سابق من ذلك العام، وقع بيني وبين جهاز الحماية خلاف حين دُعيت ماليا للانضمام إلى مجموعة من رفيقاتها قرّرن فجأة الذهاب لتناول المثلّجات. نظرًا إلى أنّ الأسباب الأمنية تمنعها من الركوب في سيّارة عائلة أخرى، وإلى أنّ برنامجينا اليوميّين، باراك وأنا، كانا حافلين ومحضّرين قبل أسابيع، قيل لماليا إنّ عليها الانتظار ساعة حتّى يتمّ استدعاء قائد المجموعة الأمنية المولجة بحمايتها من ضواحي العاصمة، الأمر الذي تطلّب منّا القيام بعدد من الاتّصالات الهاتفيّة للاعتذار، وسبّب تأخيرًا للجميع.

هذا العبء هو تمامًا ما لم أُرد لابنتيّ أن تعانياه. لم أستطع احتواء غضبي، فالأمر لم يكن منطقيًّا بالنسبة إليّ. كان أفراد جهاز الحماية يملأون أروقة البيت الأبيض، وأرى من النافذة سيّاراتهم مركونة في الطريق الدائريّ. لكنّ ابنتي لم تستطع الحصول على إذني للذهاب مع أصدقائها، لأنّها لا تستطيع القيام بشيء من دون قائد المجموعة الأمنية المولجة بحمايتها.

قلت لأفراد جهاز الحماية: «لا العائلات تسير هكذا، ولا شراء المثلّجات يتمّ هكذا! إذا أردتم حماية طفل، فعليكم التحرّك كطفل!» وأصررت على أن يراجع جهاز الحماية إجراءاته حتّى تستطيع ساشا وماليا في المستقبل أن تغادرا البيت الأبيض بأمان، ومن دون بذل جهود ضخمة للتخطيط مسبقًا. كان ذلك بالنسبة إليّ بمثابة اختبار صغير آخر للحدود التي يمكنني بلوغها. وكنت وباراك قد تخلّينا عن فكرة التصرّف بعفويّة، واقتنعنا بأننا لا نملك أيّ مساحة للارتجال أو للنزوات في حياتنا، لكنّنا أردنا أن نكافح لإبقاء هذه المساحة متوفّرة لابنتينا.

خلال الحملة الانتخابية بدأ الناس يعيرون ثيابي انتباهًا. أقلّه، كانت وسائل الإعلام هي التي تعيرها انتباهًا، وهو ما جعل كتّاب مدوّنات الأزياء يلتفتون إلى ثيابي، ما أطلق سيلًا من التعليقات عبر الإنترنت. أجهل سبب حدوث ذلك تحديدًا. ربّما لأنّني طويلة القامة ولا أخشى ارتداء أزياء جريئة. لكن هذا ما حدث.

كان مجرّد انتعالي حذاءً بدون كعب يرد في نشرات الأخبار، أمّا

لآلئي، وأحزمتي، وكنزاتي الخفيفة المفتوحة، وفساتيني المشتراة في محالّ J. Crew، وخياري الجريء للفستان الأبيض في احتفال التنصيب... كلّ ذلك أطلق سيلًا من الآراء والتعليقات الفورية. ارتديت فستانًا بنفسجيًّا غامقًا بدون كمّين لحضور خطاب باراك في الكونغرس، وفستانًا أسود ضيّقًا بلا كمّين لالتقاط صورة رسميّة لي في البيت الأبيض، فتصدّر الحديث عن ذراعيّ عناوين الأخبار فجأة. في أواخر صيف عام 2009، ذهبنا في رحلة عائليّة إلى غراند كانيون، فالتُقطت لي صورة وأنا أترجّل من طائرة الرئاسة مرتدية سروالًا قصيرًا. عرّضتني تلك الصورة للانتقاد بذريعة إهمالي للحشمة والوقار برغم أنّ الحرارة بلغت يومذاك 41 درجة مئوية.

بدا أنّ ملابسي تثير اهتمامًا أكثر من أيّ شيء أقوله. وفي لندن، حين غادرت المسرح بعد لقائي المؤثّر بطالبات مدرسة Elizabeth Garrett Anderson، علمت أنّ أوّل سؤال وجّهته مراسلة تغطّي الحدث إلى إحدى مساعداتي كان: «مَن صمّم فستانها؟».

كان ذلك الأمر يُشعرني بالإحباط، لكنّني حاولت اعتباره فرصة لأتعلّم وأستخدم في تلك الظروف المفروضة عليّ كلّ ما أملك من نفوذ. فإذا كان الهدف الأول لأحدهم من تصفّح المجلّات رؤية ما أرتديه من ملابس، كنت أرجو أن يرى أيضًا زوجة الجنديّ الواقفة بجانبي، ويقرأ ما قلته حول صحّة الأطفال. حين عرضت مجلّة Vogue وضع صورتي على غلافها بُعيد انتخاب باراك، تناقش أفراد فريقي حول ما إذا كان ذلك سيجعلني أبدو كامرأة طائشة لامبالية أو نخبويّة في فترة توتّر اقتصاديّ. لكنّنا قرّرنا في النهاية القبول بذلك لأنّ ظهور النساء الملوّنات على غلاف المجلّات أمر في غاية الأهمية. كذلك أصررت على اختيار ملابسي الخاصّة لجلسة التصوير، وارتديت فساتين من تصميم جايسون وو ونارسيزو رودريغز، المصمّم اللاتيني الموهوب.

كانت معرفتي بعالم الأزياء متواضعة، فكوني أمًّا عاملة لم يسمح لي بالتفكير كثيرًا في ما أرتديه. خلال الحملة الانتخابيّة،

اشتريت معظم حاجاتي من محلّ ألبسة في شيكاغو، حيث حالفني الحظّ بأن ألتقي مسؤولة شابّة عن المبيعات، تدعى ميريديث كوب. كانت ميريديث التي نشأت في سانت لويس صاحبة نظرة ثاقبة ومعرفة كبيرة بأعمال المصمّمين المختلفين، وكانت تجيد اختيار الألوان والأنسجة المرحة. بعد انتخاب باراك، استطعتُ إقناعها بالانتقال إلى واشنطن للعمل بصفة مساعِدة شخصيّة ومسؤولة عن ملابسي، وسرعان ما أصبحت صديقة موثوقة.

كانت ميريديث تستقدم مرّتين في الشهر كمّيات كبيرة من الملابس إلى مقرّ إقامتنا في البيت الأبيض، فنمضي ساعة أو اثنتين في تجربتها، ونقوم باختيار الملابس وفقًا للمناسبات المقرّرة للأسابيع التالية. كنت أدفع ثمن كلّ ملابسي وأكسسواراتي باستثناء الفساتين التي تحمل تواقيع المصممين والتي أرتديها للمناسبات الرسميّة، والتي يعيرني إيّاها المصمّمون ليتمّ التبرّع بها لاحقًا إلى دائرة الأرشيف الوطنيّ، وفقًا للقواعد الأخلاقيّة الخاصّة بالبيت الأبيض. أمّا ما أختاره من ملابس فكنت أهدف من خلاله إلى إحداث مفاجأة لأمنع الآخرين من استنتاج رسائل معيّنة من خلال ثيابي. كان عليّ أن أقيم توازنًا دقيقًا، فأتميّز بملابسي من دون أن أحجب ملابس الأخريات، وأن أختلط بهنّ لا أن أذوب بينهنّ. ولمجرّد أنّني امرأة سوداء علمتُ أنّني سأتعرّض للانتقاد سواء ارتديت ما يُعتبر ملابس باهظة الثمن قد توحي بالتباهي، أو ارتديت ملابس عاديّة جدًّا. فجمعت بين الناحيتين، وصرت أرتدي تنّورة فخمة من تصميم مايكل كورس مع تي شيرت من Gap، وأختار يومًا ملابس من Target، لأعود في اليوم التالي وأرتدي أحد تصاميم دايان فون فورستنبرغ. أردت لفت الانتباه إلى المصمّمين الأميركيّين وتكريمهم، وخصوصًا أولئك الأقلّ شهرة، حتّى ولو سبّب ذلك إحباطًا للمصمّمين المشهورين، ومن بينهم أوسكار دو لارنتا، الذي عبّر عن استيائه من عدم ارتدائي تصاميمه. لم يكن خياري إلّا طريقة لاستخدام نظرة الجمهور إليّ لإبراز عدد من المصمّمين الشباب الواعدين.

كانت «الصورة أمام الرأي العامّ» تتحكّم بكلّ شيء تقريبًا في عالم السياسة، فاستغللت هذا الواقع في كل ما اخترت أن أرتديه. وقد تطلّب الأمر وقتًا وتفكيرًا ومالًا أكثر من كلّ ما أنفقته على ملابسي في الماضي. كذلك تطلّب بحثًا دقيقًا تقوم به ميريديث، وخصوصًا في ما يخصّ رحلاتي الخارجيّة. فغالبًا ما كانت تمضي ساعات في التأكّد من أنّ مَن نختارهم من المصمّمين وما نقرره من الألوان والأزياء لا يشكّل إساءة إلى الشعوب والبلدان التي نزورها. كانت ميريديث تقوم أيضًا بشراء الملابس لساشا وماليا قبل المناسبات الرسميّة، وهو ما يعني زيادة في النفقات، ولكنّ العيون كانت شاخصة إليهما أيضًا. كنت أتنهّد أحيانًا حين أرى باراك يُخرج البزّة الغامقة ذاتها من خزانته ويمضي إلى العمل من دون أن يحتاج حتّى إلى تمشيط شعره. أمّا في المناسبات العامّة فقد اقتصر همّه على الاختيار بين خلع السترة أو إبقائها، أو بين عقد ربطة العنق أو الذهاب من دونها.

لكنّني كنت وميريديث حريصتين دائمًا على البقاء مستعدّات. وحين أجرّب فستانًا جديدًا في غرفة ملابسي، كنت أجلس القرفصاء، وأدفع نفسي بقوّة إلى الأمام، وأحرّك ذراعيّ بشكل دائريّ للتأكّد من أنّني قادرة على الحركة. كنت أرفض كلّ ما يقيّد حركتي. وفي الرحلات كنت آخذ معي ملابس احتياطيّة تحسّبًا للتغيّرات في أحوال الطقس أو في المواعيد، ناهيك عن السيناريوهات المرعبة كسقوط مشروبات أو تعطّل سحّاب. كذلك تعلّمت أن أهيّئ دائمًا فستانًا يليق بالمآتم، لأنّ باراك كان يضطرّ أحيانًا إلى السفر بسرعة لحضور جنازات جنود أو أعضاء من الكونغرس أو قادة عالميّين.

بتّ أعتمد كثيرًا على ميريديث، وكذلك على جوني رايت، مصفّف شعري الذي يتحدّث بسرعة ملفتة ويضحك ضحكة مجلجلة، وكارل راي، خبير الماكياج الرقيق والدقيق جدًّا في عمله. كانت تلك المجموعة الصغيرة – التي أطلق عليها فريقي الكبير لقب «The trifecta» (أي ثلاثيّ الكمال) – تمنحني الثقة التي أحتاج إليها للخروج إلى العلن كلّ يوم، فقد أدركنا كلّنا أنّ أيّة

هفوة ستطلق العنان لفورة من التعليقات السخيفة والبشعة. لم أتخيّل قطّ أنني قد أوظّف أشخاصًا للمحافظة على صورتي، وقد أحرجتني الفكرة في البداية. لكنّني سرعان ما اكتشفت حقيقة لا أحد يتكلّم عنها، وهي أنّ كلّ النساء البارزات في الحياة العامّة اليوم كالسياسيّات أو النجمات، يعتمدن على مساعدين مثل ميريديث وجوني وكارل. فالأمر بات مطلبًا ضروريًّا، وضريبة أساسيّة علينا دفعها للمحافظة على مستوانا الاجتماعيّ الراقي.

كيف واجهت زوجات الرؤساء الأخريات التحدّيات التي فرضها الاهتمام بشعرهنّ وماكياجهنّ وملابسهنّ؟ لا أعلم. في العام الأوّل الذي قضيته في البيت الأبيض، وجدتني مرارًا أحمل كتبًا ألّفتها زوجات رؤساء سابقات، أو كُتِبت عنهنّ، ولكنّني كنت سرعان ما أضعها من يدي. لم أرد أن أعرف أوجه الشبه أو الاختلاف بيننا.

في أيلول/سبتمبر، استضفت هيلاري كلينتون لنتناول في غرفة الطعام بمقرّ إقامتنا غداء ممتعًا طال انتظاره. فاجأني باراك بُعيد انتخابه باختيار هيلاري وزيرة لخارجيته، بعدما استطاعا نسيان جروح المعركة القديمة التي خلّفتها الحملة الانتخابيّة التمهيديّة، وإقامة علاقة عمل بنّاءة. صارحتني بخطأها في تقدير استعداد أميركا للقبول بامرأة مبادِرة تأتي من عالم الأعمال لتكون السيّدة الأولى. بعد انتخاب زوجها حاكمًا على أركنساس، حافظت هيلاري على عملها في شركة محاماة، وساهمت في جهود زوجها لتحسين الرعاية الصحية والتربية. ولكنّها حين وصلت إلى واشنطن مفعمة بالرغبة والطاقة للعمل، جوبهت بشدّة وتعرّضت للانتقاد الشديد بسبب قيامها بدور في سياسات البيت الأبيض ضمن جهوده لإصلاح قطاع الرعاية الصحية. وتلقّت رسالة مدوية شديدة القسوة مفادها أنّ الناخبين صوّتوا لزوجها وليس لها. لا مكان لزوجات الرؤساء في الجناح الغربيّ. يبدو أنّها استعجلت تحقيق الكثير، فاصطدمت بجدار شاهق.

حاولتُ أن أتجنّب ذلك الجدار، وأستخلص العبر من تجارب زوجات

الرؤساء الأخريات. فحرصت على ألّا أتدخّل مباشرة أو علنًا في شؤون الجناح الغربيّ، بل اعتمدت على فريقي للتواصل يوميًّا مع فريق باراك، وتبادل النصح، وتنسيق برامج مواعيدنا، ومراجعة كلّ خطّة. كنت أرى أنّ مستشاري الرئيس يشدّدون على المظهر الخارجيّ. فحين قرّرت بعد سنوات أن أسدل خصلات شعري فوق جبيني، شعر أفراد فريقي بالحاجة إلى استشارة فريق باراك أوّلًا، حرصًا على عدم إثارة أيّة مشكلة.

نظرًا إلى الوضع الاقتصاديّ السيئ، كان فريق باراك يتحفّظ دائمًا على خروج أيّة صورة من البيت الأبيض قد توحي بالطيش أو بالخفّة في تلك المرحلة العصيبة. لكنّ ذلك الأمر لم يناسبني دائمًا. علّمتني التجربة أنّه حتّى خلال الفترات العصيبة – وخصوصًا خلال تلك الفترات – لا بأس بأن يستمرّ المرء بالضحك. ومن أجل مصلحة الأولاد تحديدًا، كان يجب إيجاد طرق للتسلية. وهنا اصطدم فريقي بفريق التواصل الخاصّ بباراك بشأن عزمي على استضافة حفلة هالووين للأولاد في البيت الأبيض. فقد ظنّ الجناح الغربيّ، وخصوصًا دايفيد أكسلرود، الذي أصبح المستشار الأوّل في الإدارة الجديدة، ووزير الإعلام روبرت غيبس، أنّ هذه الحفلة ستُعتبر استعراضًا مبالغًا به وباهظ الكلفة، وقد تؤدّي إلى إحداث شرخ بين باراك والجمهور. وعبّروا عن ذلك بقولهم إنّ الصورة أمام الرأي العامّ ستبدو سيّئة جدًّا. لكنّي خالفتهم الرأي، وأصررت على أنّ حفلة هالووين لأولاد المدينة وعائلات الجنود – الذين لم يروا البيت الأبيض قطّ – تمثّل استخدامًا في محلّه لجزء يسير من ميزانية الترفيه الخاصة بمكتب الشؤون الاجتماعيّة.

لم يوافق أكسلرود وغيبس على الفكرة لكنّهما توقّفا عن محاربتنا بشأنها. وكم كانت سعادتي كبيرة في نهاية شهر تشرين الأوّل/أكتوبر، برؤية يقطينة هائلة تزن ألف رطل في حديقة البيت الأبيض. عزفت فرقة متنكّرة بأشكال هياكل عظميّة موسيقى الجاز، فيما تدلّت عنكبوت عملاقة سوداء من جدار المدخل الشماليّ. وقفتُ أمام البيت الأبيض متنكّرة بزيّ نمر أرقط يتألّف من سروال أسود وكنزة مرقّطة وأذني نمر معلّقين حول

عصابة للرأس. أمّا باراك الذي لم يكن يحبّ التنكّر قطّ حتّى قبل أن تصبح الصورة أمام الرأي العام أمرًا يجب أخذه في الحسبان، فقد وقف بجانبي مرتديًا كنزة عاديّة جدًّا. لا يمكنني هنا ألّا أشيد بغيبس الذي أتى متنكّرًا بزيّ دارث فايدر، وكان على أتمّ الاستعداد للمرح. قدّمنا ليلتذاك أكياسًا من البسكويت والفاكهة المجففة وشوكولا M&M في علب تحمل ختم الرئاسة. وقد أتى إلى حديقة البيت الأبيض أكثر من ألفي طفل متنكّرين بأزياء أميرات، و Grim Reaper، وقراصنة، وأبطال خارقين، وأشباح، ولاعبي الفوتبول. بالنسبة إليّ كانت الصورة التي ظهرت أمام الرأي العامّ ناجحة تمامًا هذه المرّة.

كان البستان ينبض بالحياة من موسم إلى آخر، ويعلّمنا أمورًا كثيرة: فقد زرعنا شمّامًا لكنّه كان باهتًا وبلا طعم، وعانينا أمطارًا غزيرة جرفت الطبقات العليا من التربة. كما كانت الطيور تأتي لتأكل توتنا، وغزت الخنافس الخِيار. لكنّنا وكلّما وقعت مشكلة ما، كنّا نجري بعض التعديلات الطفيفة بمساعدة جيم أدامس، بستانيّ حديقة National Park والمسؤول عن البستنة في البيت الأبيض، ودايل هاناي، المشرف على أراضي البيت الأبيض، ثمّ نمضي قدمًا في مشروعنا، ونستمتع بوفرة الإنتاج. باتت وجبات عشائنا في مقرّ الإقامة تتضمّن البروكولي والجزر واللفت المزروعة في الحديقة الجنوبيّة. وبدأنا نتبرّع بجزء من كلّ محصول لجمعيّة Miriam’s Kitchen الخيرية المحلية لرعاية المشرّدين. كذلك رحنا نقطف الخضر ونقدّمها كهدايا إلى الشخصيّات التي تزورنا، إضافة إلي أوعية العسل من قفراننا الجديدة. بات البستان مصدر فخر لموظّفينا، وما لبث معارضوه في البداية أن أصبحوا من أشدّ المعجبين به. بالنسبة إليّ، كان البستان بسيطًا وغنيًّا وصحيًّا، ورمزًا للجهد والإيمان. كان جميلًا وقويًّا في آنٍ واحد، كما أبهج الناس.

في خلال الأشهر القليلة المنصرمة، كنت وفريقي في الجناح الشرقيّ قد تناقشنا مع خبراء صحّة الأطفال ومناصري قضيّتنا، لمساعدتنا على وضع الأسس التي سنبني عليها مجهودنا

الكبير. أردنا أن نقدّم للأهالي معلومات أفضل لمساعدتهم على اتخاذ قرارات صحية تتعلّق بعائلاتهم، والعمل على إنشاء مدارس تهتمّ بالصحّة على نحو أفضل، وتحسين إمكانيّة الحصول على الطعام المغذّي، وإيجاد وسائل أكثر لتنشيط الحركة الجسديّة لدى شريحة الشباب. أدركت أيضًا أنّ طريقة إطلاع الجمهور على عملنا هي مسألة بالغة الأهمية. لذلك لجأت مجدّدًا إلى خدمات ستيفاني كاتر، التي أتت في البداية بصفة استشاريّة لمساعدة سام وجوسلين فراي على رسم إطار للمبادرة. وكُلّف فريق التواصل الخاص بي بمهمة رسم وجه طريف للحملة يروق الجمهور. أثناء ذلك يبدو أنّ مبادرتي أقلقت الجناح الغربيّ، الذي خشي أن أجسّد صورة الدولة الحاضنة التي تتدخّل في الحياة الشخصيّة للأفراد، في الوقت الذي بات الأميركيّون شديدي الحذر من كلّ ما يبدو تدخّلًا حكوميًّا، بعد الدعم المثير للجدل الذي قدّمته الإدارة للبنوك وشركات تصنيع السيّارات.

غير أنّ هدفي كان أن أجعل من القضيّة أكثر من مجرّد مشروع حكوميّ. وأملت أن أتعلّم ممّا أطلعتني عليه هيلاري حول تجربتها الخاصّة، وأن أدع السياسة لباراك وأركّز جهودي في نطاق آخر. فضّلتُ أن تحمل مخاطبتنا رؤساء شركات المشروبات الغازيّة وشركات تزويد المدارس بالطعام طابع المناشدة الإنسانيّة لا طابعًا قانونيًّا تنظيميًّا، وأن نتعاون معهم لا أن نثير المشاكل. أما في ما يتعلّق بالعائلات وبأسلوبها في العيش، فأردت أن أخاطب مباشرة الأمّهات والآباء، وخصوصًا الأولاد.

لم أكن مهتمّة باتّباع مبادئ عالم السياسة أو بالظهور في نشرات الأخبار صباح يوم الأحد. لكنّني في المقابل أجريت مقابلات مع مجلّات الصحّة التي تهتمّ بالأهالي والأولا، ورقصت الهولا هوب في الحديقة الجنوبيّة للبيت الأبيض لأُظهر أنّ التمارين الرياضيّة قد تكون مسلّية. كما استضافني برنامج Sesame Street للحديث عن الخضر مع Elmo و Big Bird. وكلّما وقفت في حديقة البيت الأبيض للإجابة عن أسئلة الصحافيين، كنت أذكر أنّ أميركيّين كثيرين يجدون صعوبة في الحصول على منتجات غذائيّة

طازجة في مناطقهم، وأحاول لفت الانتباه إلى تكاليف الرعاية الصحية المتعلّقة بارتفاع معدّلات البدانة. كما أردت التأكّد من إشراك كلّ مَن نحتاج إليه لإنجاح المبادرة، واستباق أيّة اعتراضات قد تتمّ إثارتها. ولذلك أمضينا أسابيع طويلة نعقد خلالها اجتماعات بعيدًا عن الإعلام مع الشركات ومناصري مشاريع الغذاء الصحي، كما مع أعضاء من الكونغرس. طلبنا من مجموعات صغيرة تقييم وقع الشعار الذي اخترناه للمشروع، ورحّبنا بالمساعدة المجانية التي قدّمها لنا اختصاصيّو العلاقات العامّة للارتقاء بالرسالة التي نودّ أن نبعث بها إلى الجمهور.

في شباط/فبراير 2010، بتّ مستعدّة أخيرًا لكشف النقاب عن رؤيتي. بعد ظهر يوم ثلثاء بارد، وفيما كانت العاصمة تنهض من عاصفة ثلجيّة لم تشهد مثيلًا لها، وقفت على منبر في غرفة الطعام الرسميّة في البيت الأبيض، يحيط بي أطفال، ووزراء، ونجوم رياضيّون، وعُمَد مدن أميركيّة، وشخصيّات بارزة في حقول الطبّ والتربية وإنتاج الأطعمة، وحشد من وسائل الإعلام، لأعلن بفخر عن مبادرتنا الجديدة، والتي قرّرنا تسميتها Let’s Move! (هيّا بنا نتحرّك!). كانت تلك المبادرة تركّز على هدف أساسيّ وهو التوصّل في جيل واحد إلى وضع حدّ لوباء بدانة الأطفال.

كان مهمًّا بالنسبة إليّ ألّا يكون ما نعلن عنه مجرّد أمنيات مستحيلة التحقيق. فالجهد حقيقيّ والعمل يسير على قدم وساق. وقد وقّع باراك في وقت سابق من ذلك اليوم مذكّرة لتشكيل فريق عمل فدراليّ – هو الأوّل من نوعه – لمحاربة بدانة الأطفال. كما أنّ الشركات الكبرى الثلاث التي تزوّد المدارس بوجبات الطعام أعلنت أنّها ستخفّض من كمّيات الملح والسكّر والدهون في الوجبات التي تقدمّها. وتعهّدت الجمعيّة الأميركيّة للمشروبات بطباعة قوائم المكوّنات بصورة أوضح على منتجاتها. وطلبنا من الأكاديميّة الأميركيّة لطبّ الأطفال تشجيع الأطبّاء على جعل قياس مؤشّر كتلة الجسد إجراء معياريًّا متّبعًا في عيادات طبّ الأطفال. كما أقنعنا قنوات Disney و NBC و Warner Bros ببثّ إعلانات مجانيّة، والاستثمار في إعداد برامج خاصّة

تشجّع الأطفال على اختيار نمط عيش صحيّ. كذلك وافق قادة اثني عشر اتّحادًا رياضيًّا احترافيًّا مختلفًا على الترويج لحملة «60 دقيقة من اللعب يوميًّا» للمساعدة على تعزيز الحركة لدى الأطفال.

ولم تكن تلك سوى البداية. كانت لدينا خطط للمساعدة على جلب محالّ البقالة والخضر إلى أحياء المدن والمناطق الريفيّة المعروفة بـ«صحاري الطعام»، وأيضًا للدفع نحو طباعة المزيد من المعلومات الدقيقة المتعلّقة بالتغذية على غلافات عبوات الأطعمة، وإعادة رسم هرم الطعام اليومي، والذي بات قديم العهد، ليصبح الالتزام به أمرًا أسهل، وجعله متناسبًا مع أبحاثنا الحالية حول التغذية. وقرّرنا العمل على تحميل الشركات مسؤوليّة قراراتها في المسائل التي تؤثّر في صحّة الأطفال.

علمت أنّ تحقيق ذلك يتطلّب التزامًا وتنظيمًا، لكنّ ذلك الأسلوب في العمل هو تمامًا ما أحببته. صحيح أنّنا تصدّينا لمشكلة كبرى، لكنّني كنت أملك ميزة العمل من موقع رفيع. بدأت أدرك أنّ كلّ ما بدا لي غريبًا بشأن حياتي الجديدة، أي الشهرة المبهمة، والاهتمام الكبير والدقيق بصورتي، ودوري الغامض كسيّدة أولى، أمور يمكن توجيهها لخدمة أهداف حقيقيّة. كنتُ مفعمة بالطاقة، فقد وجدتُ أخيرًا طريقة لأُظهر كلّ ما أملك من طاقات.

22

صباح أحد أيّام فصل الربيع، طُلب منّي النزول مع باراك وابنتيّ إلى الحديقة الجنوبيّة. وهناك كان في انتظارنا رجل لم يسبق لي أن رأيته قطّ، ذو وجه يوحي بالودّ، وشاربين خطّهما الشيب فأكسباه وقارًا. عرّف الرجل عن نفسه باسم لويد، وقال لنا:

«سيّدي الرئيس، سيّدة أوباما، فكّرنا أنّكما والفتاتين قد ترغبون في أن تُضفوا على حياتكم بعض التغيير، فأعددنا لكم حديقة حيوانات.» ثمّ أضاف مبتسمًا: «لم يسبق قطّ لعائلة أيّ رئيس أميركيّ أن شاركت في أمر كهذا».

أشار الرجل إلى يساره، فرأينا في ظلال أشجار الأرز، على مسافة نحو ثلاثين مترًا منّا، أربعة هررة كبيرة: أسد، ونمر، وفهد أسود ذو فرو لمّاع، وفهد صيّاد أرقط نحيل. لكنّني لم أرَ سياجًا يحيط بها ولا سلاسل تقيّدها، فاستغربت. كان ذلك أمرًا غير مألوف بلا شكّ.

«شكرًا لاهتمامك بنا»، قلتُ بنبرة أملت أن تبدو لبقة. «ولكن يا لويد – اسمك لويد، صحّ؟ – ألا سياج يحيط بها؟ ألا يشكّل هذا خطرًا على الأولاد؟».

«بالطبع، فكّرنا في ذلك»، أجاب لويد. «ورأينا أنّ أفراد عائلتك سيجدون متعة أكبر في رؤية الحيوانات حرّة وكأنّها في الغابة. لذلك خدّرناها لضمان سلامتكم». وأضاف مشيرًا إلينا بحركة مطمئنة: «لا خطر عليكم أبدًا. اقتربوا منها، واستمتعوا!».

أمسكت وباراك بيدَي ماليا وساشا وسرنا فوق عشب الحديقة الجنوبيّة والندى لم يجفّ فوقه بعد. كانت تلك الحيوانات أطول ممّا توقّعتُ، ونحيلة الجسم وخاملة. حين رأتنا نقترب بدأت تهزّ ذيولها. لم يسبق لي قطّ أن رأيت هررة متوحشّة توحي بهذا القدر من الألفة والودّ. مع اقترابنا أكثر تحرّك الأسد قليلًا، ورأيت عينَي الفهد الأسود تترصّدنا، وأذنَي النمر تنبسطان قليلًا. ثمّ فجأة، ومن دون سابق إنذار، وثب الفهد الصياد من الظلّ واندفع نحونا بسرعة البرق.

أصابني الذعر، فأمسكت بذراع ساشا وركضتُ معها عبر الحديقة عائدتين إلى المنزل، واثقة في أنّ باراك وماليا قد حذوا حذونا. وعرفتُ حين سمعت اشتداد الضجيج أنّ الهررة الأخرى قد قفزت، وشرعت بمطاردتنا.

لكنّ لويد وقف أمام الباب من دون أن يرفّ له جفن.

«قلت لي إنّها مخدّرة!»، صحت به.

«لا تقلقي يا سيّدتي»، أجاب، «أعددنا خطّة بديلة لهذا الاحتمال بالذات!»

ثمّ انتحى جانبًا فيما خرج أفراد جهاز الحماية من الباب حاملين بنادق مزوّدة بسهام مخدّرة. في تلك اللحظة شعرت بأنّ ساشا أفلتت من قبضتي. التفتّ نحو الحديقة وقد أصابني الذعر حين رأيت عائلتي تفرّ أمام حيوانات مفترسة، فيما أفراد جهاز الحماية يطاردون تلك الحيوانات بدورهم ويطلقون عليها السهام لتخديرها.

«هل هذه هي خطّتك؟»، صرخت به، «هل تمازحني؟».

في تلك اللحظة تحديدًا، زمجر الفهد الصيّاد ووثب نحو ساشا منشبًا براثنه. بدا لي وكأنّه يطير. أطلق عليه أحد أفراد جهاز الحماية سهمًا فأخطأه. لكنّ الفهد خاف فغيّر مساره وعاد على أعقابه. شعرت بالارتياح لبرهة، إلّا أنني سرعان ما رأيت سهمًا مخدّرًا أبيض وبرتقاليًّا وقد استقرّ في ذراع ساشا اليمنى.

أفقت من النوم مذعورة وجلست في سريري، وقلبي يخفق، والعرق يتصبّب من كلّ جسدي. نظرت إلى زوجي فرأيته يغطّ في نوم هانئ بالقرب مني. ما شاهدتُه كان كابوسًا.

لم يفارقني الشعور بأنّنا نهوي، وأنّ عائلتنا في مهبّ الريح. كنت أثق في ترتيبات الحماية التي يؤمّنها لنا البيت الأبيض، ومع ذلك ظللت أشعر بأنّني ضعيفة، وأنّ كلّ شيء في حياتي تقريبًا، من تأمين سلامة ابنتينا وصولًا إلى وضع برنامج أعمالي وتحرّكاتي اليوميّة، هو في عهدة أشخاص آخرين، معظمهم يصغرونني سنًّا بعشرين عامًا على الأقلّ. تعلّمت أثناء طفولتي في جادّة يوكليد أنّ الاكتفاء الذاتيّ هو الأساس، ونشأت على قاعدة أن أهتمّ بشؤوني الخاصّة. ولكنّ هذا يبدو الآن مستحيلًا، فهناك من يهتمّ بشؤوني نيابةً عنّي. قبل انتقالي إلى أيّ مكان، يقوم أفراد جهاز الحماية بدراسة الطرقات التي سأسلكها، ويحتسبون المدّة التي أحتاج إليها بالدقيقة، ويبرمجون أوقات دخولي المرحاض مسبقًا. كان أفراد جهاز الحماية يقودون ابنتيّ لتلعبا مع أصدقائهما، وخدم المنزل يجمعون ملابسنا الوسخة لغسلها. لم أعد أقود سيّارة أو أحمل مالًا أو مفتاح المنزل. وكان مساعديّ يتلقّون الاتّصالات الهاتفيّة، ويحضرون الاجتماعات ويكتبون التصاريح نيابةً عنّي.

كان كلّ ذلك رائعًا ومفيدًا، فقد حرّرني للتركيز على الأشياء التي أعتبرها الأهمّ. لكنّني كنت امرأة تولي التفاصيل اهتمامًا كبيرًا، فشعرتُ أحيانًا بأنّني فقدت السيطرة على تفاصيل حياتي. وآنذاك بدأت الأسود والفهود تتربّص بنا.

كانت ثمّة أمور كثيرة لا يمكن التخطيط لها، واضطرابات وأخطار هائلة تحدق بنا كلّ يوم. سرعان ما تدرك زوجة الرئيس الأميركيّ أنّ العالم تعمّه الفوضى، وأنّ الكوارث تنزل فجأة، وأنّ قوى مرئيّة وغير مرئيّة تتربّص بنا للانقضاض على أيّ سكينة قد نشعر بها. لم يكن ممكنًا تجاهل الأخبار قطّ: فهاييتي قد ضربها زلزال؛ وانفجر صمّام على عمق خمسة آلاف قدم تحت منصّة لاستخراج النفط قبالة ساحل لويزيانا، فلوّث مياه خليج المكسيك بملايين البراميل من النفط الخام؛ وفي مصر اندلعت الثورة؛ وفي موقف سيّارات سوبرماركت في أريزونا فتح رجل مسلّح النار، فقتل ستة أشخاص وأصاب بالشلل امرأة عضوًا في الكونغرس الأميركي.

كانت كلّ الأحداث مهمّة وعلى صلة بالرئاسة. كنت أقرأ كلّ

صباح مقتطفات الأخبار التي يرسلها إليّ فريق عملي، وأعلم أنّ على باراك أن يستوعب كلّ تطوّر جديد ويردّ عليه. كذلك كنت أعلم أنّ اللوم سيُلقى عليه في أمور لا يتحكّم بها، وأنّه سيُدفع إلى حلّ مشاكل مخيفة في بلدان نائية، وسيُتوقّع منه القيام بالمستحيلات. اقتضى عمله معالجة الفوضى بأسلوب القيادة الهادئة في كلّ يوم، وكلّ أسبوع.

بذلت قصارى جهدي لئلّا أدع الأحداث التي تعصف بالعالم تؤثّر في عملي اليوميّ كسيّدة أولى. إلّا أنّه كان من المستحيل التغاضي عنها أحيانًا، كما أن طريقتنا، باراك وأنا، في مواجهتها كانت ذات أهمية كبرى. أدركنا أنّنا نمثّل الأمّة وأنّ علينا أن نكون حاضرين حيثما تقع المآسي، وتبرز المصاعب، ويسود الشعور بالارتباك، وأنّ جزءًا من دورنا يقضي بأن نقدّم للآخرين مثالًا على التصرّف بصورة عقلانيّة وإبداء التعاطف والثبات. بعد احتواء تسرّب نفط شركة BP والذي كان الأسوأ في تاريخ الولايات المتّحدة، ظلّ القلق مسيطرًا على كثير من الأميركيّين، ورفضوا أن يصدّقوا أنّ خليج المكسيك لم يعد ملوّثًا وأنّ بإمكانهم العودة لتمضية الإجازات فيه، مما أدّى إلى إصابة المؤسسات التجارية المحلية بأزمة. فقمنا برحلة عائلية إلى فلوريدا، وذهب باراك للسباحة مع ساشا، وسمح للصحافة بنشر صورهما وهما يقفزان بين الأمواج. تلك الخطوة الصغيرة ساهمت في إيصال رسالة كبيرة: إذا كان الرئيس يثق بمياه فلوريدا، يمكنكم أنتم الوثوق بها أيضًا.

حين كان أحدنا أو كلانا يسافر إلى مكان إثر وقوع مأساة فيه، غالبًا ما كان ذلك لتذكير الأميركيّين بألّا يسارعوا إلى تناسي ألم الآخرين. وهكذا، لم أوفّر فرصة لتسليط الضوء على جهود عمّال الإغاثة، والمعلّمين، والمتطوّعين، وكلّ مَن كان مستعدًّا لبذل المزيد للتخفيف من وطأة المصائب. سافرت إلى هاييتي مع جيل بايدن بعد ثلاثة أشهر من وقوع الزلزال في العام 2010، وشعرت بقلبي ينقبض لرؤيتي ركام المنازل، ومواقع سقط فيها عشرات آلاف الضحايا، من الأمّهات والعجائز والأطفال الذين دُفنوا أحياء. زرنا عددًا من الحافلات التي حوّلها فنّانون محليّون إلى مراكز للعلاج

بالفنون لخدمة الأطفال المشرّدين. ووجدنا أنّ أولئك الأطفال، وبرغم الخسائر التي تكبّدوها، لم يفقدوا الأمل، وذلك بفضل جهود البالغين حولهم.

حين كنت سيّدة أولى للولايات المتّحدة تعلّمت أكثر من مرّة أنّ الشعور بالحزن تواكبه إرادة قويّة للتغلّب على المصائب.

كذلك قمت، كلّما أتيحت لي الفرصة، بزيارة المستشفيات العسكرية حيث يتماثل الجنود للشفاء من جروح الحرب. كانت زيارتي الأولى إلى مركز Walter Reed National العسكريّ الطبيّ في بيتيسيدا، ماريلاند، والذي يبعد عن البيت الأبيض خمسة عشر كيلومترًا تقريبًا. كانت المدّة المقرّرة للزيارة تسعين دقيقة، لكنني بقيت هناك أربع ساعات.

كان ذلك المركز المحطّة الثانية أو الثالثة للجنود المصابين الذين يتمّ إجلاؤهم من العراق أو أفغانستان. فبعد فرز حالات الإصابات في منطقة القتال، يُنقل كثير من المصابين للمعالجة في مستشفيات عسكريّة في لاندستول، ألمانيا، قبل نقلهم مجدّدًا إلى Walter Reed في الولايات المتّحدة، حيث يقضي بعضهم أيّامًا قليلة فقط، أمّا البعض الآخر فيبقون فيه شهورًا. كان أمهر الجرّاحين العسكريّين يعملون في ذلك المستشفى المجهّز بأفضل وسائل إعادة التأهيل، وأحدث المعدّات لمعالجة أسوأ إصابات المعارك. لا شكّ بأنّ تطوّر تقنيّات الدروع قد عزّز فرص نجاة الجنود من الانفجارات التي كانت في الماضي تتسبّب بمقتلهم، إلّا أنّ الأعوام العشرة التي خاض خلالها جنودنا صراعَين عسكريّين، وعانوا الهجمات المفاجئة والكمائن المفخّخة قد تركت في صفوفهم الكثير من الإصابات البالغة.

برغم كلّ محاولاتي للاستعداد لمواجهة كلّ شيء في الحياة، لم يكن ممكنًا أن أكون مستعدّة لما ينتظرني في زياراتي إلى المستشفيات العسكريّة و«مساكن Fisher»، وهي عبارة عن بيوت مجانية تقدّمها جمعيّة Fisher الخيريّة مجانًا لإقامة عائلات المصابين بالقرب من المستشفيات حيث يتلقّى أبناؤها العلاج. كما قلت من قبل، لم أعرف الكثير عن الجيش في نشأتي. كما

أنّ العامين اللذين قضاهما أبي جنديًّا قد سبقا ولادتي. وقبل أن يطلق باراك حملته الانتخابية، لم تكن جلبة القواعد العسكرية ولا البيوت المتواضعة التي يسكن فيها الجنود وعائلاتهم مألوفة بالنسبة إليّ. لطالما كانت الحرب بالنسبة إليّ أمرًا مرعبًا، ومفهومًا مجرّدًا يشتمل على مناطق لا يمكنني أن أتخيّلها وأناس لا أعرفهم. لكنّ تلك الصورة المجرّدة عن الحرب تظلّ ترفًا بالمقارنة مع ما بتّ أعرفه عنها الآن.

لدى وصولي إلى أيّ مستشفى، كنت أجد ممرّضة مسؤولة في انتظاري، فتسلّمني مبذلًا طبيًّا أرتديه، وتطلب منّي تعقيم يديّ قبل دخول أيّ غرفة. وقبل أن أفتح الباب، أستمع إلى تقرير موجز عن الجنديّ (أو الجنديّة) الراقد في الداخل ووضعه الصحيّ. كذلك كان المرضى يُسألون مسبقًا عمّا إذا كانوا يقبلون بأن أزورهم. كان البعض يرفضون، ربّما لأنّهم لا يشعرون بأنّهم بخير، أو ربّما لأسباب سياسيّة. في كلا الحالين، كنت أتفهّم، فآخر ما رغبت فيه هو أن يشكّل حضوري عبئًا على أحد.

كانت زيارتي إلى كلّ غرفة تطول أو تقصر بحسب رغبة الجنديّ الذي أزوره، والحديث الذي يدور بيننا يبقى خاصًّا وبعيدًا عن أيّة وسيلة إعلامية أو مسمع أيّ من أعضاء فريق عملي. تراوحت أجواء تلك اللقاءات بين الغمّ تارةً، والانشراح طورًا. كانت شعارات الفرق الرياضيّة أو الصور العائليّة المعلّقة على جدار الغرفة هي التي توجّه الحديث نحو الرياضة، أو الولاية التي يأتي منها كلّ منا، أو أولادنا، أو عن أفغانستان وعمّا حدث لهم هناك. كنّا نتناقش أحيانًا في ما يحتاجون إليه، وفي ما لا يحتاجون إليه أيضًا، وأعني بذلك شفقة الناس كما قالوا لي غالبًا.

في إحدى المرّات رأيت لافتة حمراء ملصقة على باب غرفة أحد المصابين، وقد كُتِبَت عليها رسالة بالحبر الأسود وجدت أنّها تختصر كلّ شيء.

تنبيه إلى كلّ مَن يدخلون هذه الغرفة:

إذا كنتم تدخلون وأنتم تشعرون بالأسى، أو لكي تشعروا بالشفقة على جروحي، ابحثوا عن مكان آخر تقصدونه. فقد

أصبت بهذه الجروح في مهنة أحبّها، ومن أجل أشخاص أحبّهم، ولدعم حريّة بلد أحبّه حبًّا عميقًا. أنا صلب جدًّا وسأشفى تمامًا.

كان ذلك ما أدعوه التغلّب على المصائب، وهو يعكس روح الاكتفاء الذاتيّ والفخر اللذين رأيتهما في كلّ المراكز العسكرية التي زرتها. في أحد الأيّام، جلست مع جنديّ كان شابًّا موفور الصحّة حين التحق بوحدته العسكريّة في الخارج، تاركًا وراءه زوجة حاملًا، ليعود مصابًا بالشلل التامّ وعاجزًا عن تحريك ذراعيه أو ساقيه. وفيما كنا نتحادث، رأيت طفلهما المولود حديثًا – وكان وجهه ورديًّا جميلًا – ينام ملفوفًا بغطاء في سريره. كذلك التقيت جنديًّا آخر مبتور الساق، طرح عليّ أسئلة كثيرة حول جهاز حماية الرئيس، وقال لي بمرح إنّه كان يأمل أن يصبح أحد أفراد الجهاز بعد تسريحه من الجيش. أمّا وقد أصيب، فهو يعدّ خطّة جديدة لحياته.

كذلك كنت ألتقي بجانب أسرّة المصابين أفراد عائلاتهم، وأتعرّف بالزوجات، والأزواج، والأمّهات، والآباء، والأنسباء، والأصدقاء، الذين جمّد معظمهم بقيّة حياتهم لأجل البقاء بجانب من يحبّون. وأحيانًا لم يكن بوسعي التحدّث إلّا إليهم، لأنّ أحبّاءهم عاجزون عن الكلام أو مخدّرون أو نائمون. كانوا يقومون بواجبهم على أكمل وجه. بعض المصابين كان جنديًّا أبًا عن جدّ، فيما أخريات كنّ مراهقات تزوّجن قبل إرسالهنّ إلى وحدات عسكريّة في الخارج، وقبل أن تسلك حياتهنّ انعطافة مفاجئة ومعقّدة. لا يمكنني أن أتذكّر عدد الأمّهات اللواتي شاركتُهنّ البكاء، لأنّ حزنهنّ كان عميقًا لدرجة أنّني لم أستطع سوى أن أشبك يديّ بأيديهنّ لنصلّي بصمت وسط الدموع.

ما رأيته من حياة الجنود جعلني أشعر بتواضع عميق. ولن أنسى حتّى آخر يوم من حياتي ما وجدته في داخل تلك الغرف من إخلاص وقدرة على التحمّل.

زرت في أحد الأيّام المستشفى العسكريّ في سان أنطونيو، تكساس، ولاحظت جلبة، ورأيت الممرّضات يدخلن ويخرجن

بسرعة من الغرفة التي أهمّ بدخولها. سمعتُ إحداهنّ تقول همسًا: «إنّه يرفض البقاء راقدًا في السرير». وفي داخل الغرفة رأيت أحد رجال الحرس الوطنيّ مصابًا بجروح بالغة وحروق شديدة. كان شابًّا طويل القامة من ريف تكساس، وبدا عليه الألم الشديد، لكنّه أصرّ على تمزيق أغطية السرير للترجّل منه.

بعد دقيقة فهمنا ما كان يفعله. فبرغم ألمه كان يحاول أن يقف ليؤدّي التحيّة العسكريّة لزوجة قائده الأعلى.

في أوائل العام 2011، ذكر باراك أسامة بن لادن. كنّا قد أنهينا عشاءنا ومضت ساشا وماليا لإتمام واجباتهما المدرسيّة، وتركتانا وحدنا في غرفة الطعام بمقرّ إقامتنا.

«نظنّ أنّنا نعرف مخبأه»، قال باراك، «قد نقتحم المكان ونحاول إخراجه، لكن لا شيء أكيد».

كان بن لادن المطلوب الأول في العالم، وقد نجح لسنوات في التخفّي. وحين تسلّم باراك السلطة جعل من القبض عليه أو اعتقاله أولوية قصوى. علمت أنّ النيل منه سيعني الكثير للأمّة، ولآلاف الجنود الذين أمضوا سنوات يحاولون حمايتنا من تنظيم القاعدة، وخصوصًا لأولئك الذين خسروا أحبّاء لهم في هجمات 11 أيلول/سبتمبر.

عرفت من نبرة باراك المحبطة أنّ ثمّة عقدًا كثيرة لا تزال تحتاج إلى حلّ. كان من الواضح أنّه يواجه تعقيدات كبيرة، مع أنّني أدركت أنّ عليّ ألّا أطرح عليه الكثير من الأسئلة، أو ألحّ عليه ليكشف لي التفاصيل. كان كلّ منّا بمثابة وسيلة ليختبر الآخر بواسطتها صحّة آرائه وفعاليتها من الناحية المهنية. لكنّني علمت أيضًا أنه بات يمضي أيّامه محاطًا بمستشارين ذوي خبرة، كما كان قادرًا على الوصول إلى كلّ المعلومات السرية، وخصوصًا في مسائل الأمن القوميّ، لذلك لم يكن بحاجة إلى رأيي. وبشكل عام، كنت أرجو أن يكون الوقت الذي يقضيه معي ومع ابنتينا بمثابة فسحة للراحة، برغم أنّ العمل كان قريبًا منّا دائمًا. ففي النهاية، كنّا نقيم «فوق مكان العمل» بالمعنى الحرفيّ للتعبير.

لطالما أجاد باراك أن يخصّص لكلّ شيء وقته، ولذلك نجح في

أن يجعل من حضوره معنا أمرًا ممتعًا لا يعيقه أيّ عائق خارجيّ. كان هذا شيئًا تعلّمناه معًا مع الوقت، بسبب تزايد الضغط في حياتنا المهنيّة: يجب أن نقيم حدودًا بيننا وبين هموم العمل، وندافع عن تلك الحدود. فأسامة بن لادن لم يكن مدعوًّا إلى مائدة عشائنا، ولا الأزمة الإنسانيّة في ليبيا، ولا الجمهوريّون المعارضون المعروفون بحركة «حفلة الشاي». لنا ابنتان، وهما بحاجة إلى فسحة لتتكلّما وتنموا. وقتنا العائليّ هو تلك الفترة التي تتضاءل فيها الهموم الكبرى والملحّة، لتحلّ محلّها الاهتمامات الصغيرة. كنت وباراك نجلس إلى مائدة العشاء، ونصغي إلى أخبار ساشا عمّا جرى في ملعب المدرسة أو إلى تفاصيل البحث الذي تجريه ماليا حول الحيوانات المهدّدة بالانقراض، وهما تشعران بأنّ تلك الأمور هي أهمّ ما في العالم. لأنّها كانت كذلك، ولأنّها تستحقّ أن تكون كذلك.

ومع ذلك كان العمل يتراكم حتّى ونحن نتناول طعامنا. فألمح خلف باراك الجالس قبالتي إلى المائدة، معاونينا يسيرون في الرواق المؤدّي إلى غرفة الطعام ليضعوا تقاريرنا الليلية على طاولة صغيرة، ونحن لا نزال في منتصف العشاء. كان هذا جزءًا من التقليد اليوميّ في البيت الأبيض، حيث يتمّ تسليم ملفّين كلّ مساء: ملفّ لي، وملفّ آخر لباراك غلافه جلديّ وأكثر سماكة بكثير. كان كلّ من الملفّين يحتوي أوراقًا من مكتبينا يُفترض بنا قراءتها خلال الليل.

بعد أن نرافق ابنتينا إلى سريرهما، كان باراك يتوارى عادة في غرفة المعاهدات حاملًا ملفّه، فيما أحمل أنا ملفّي إلى زاوية الجلوس في غرفة ملابسي، حيث أمضي نحو ساعة أو اثنتين كلّ مساء أو في الصباح الباكر، لقراءة مضمونه والذي يشتمل عادة على مذكّرات من فريق عملي، ومسوّدات لخطابات قادمة، وقرارات يجب اتّخاذها وتتعلّق بمبادراتي.

بعد عام من إطلاق مبادرة «فلنتحرك!»، بدأت النتائج تظهر. اتفقنا مع مؤسسات مختلفة وشركات لتزويد المدارس بالطعام على تركيب ستة آلاف طاولة لتقديم السلطة في المقاصف

المدرسية، وبدأنا بتوظيف طهاة محليين لمساعدة المدارس على توزيع وجبات الطعام الصحية واللذيذة. كما أنّ Walmart، وهي أضخم سلسلة متاجر بقالة في البلاد، انضمّت إلى جهودنا فتعهّدت بخفض كميات السكّر والملح والدهون في منتجاتها الغذائية، وتنزيل أسعار بضائعها من الخضر والفواكه. كما التزم خمسمئة عمدة من مختلف المدن والبلدات الأميركيّة بمحاربة بدانة الأطفال على المستوى المحلّي.

ولعلّ أهم ما حدث في العام 2010، هو أنّني عملت بجهد للدفع لإقرار قانون جديد يتعلّق بغذاء الأطفال في الكونغرس، يوفّر لهم مزيدًا من الطعام الصحيّ والعالي النوعية في المدارس الحكومية، ويزيد نسبة المساهمة الفدرالية في تغطية نفقات وجبات الطعام المدرسية، وذلك للمرّة الأولى منذ ثلاثين عامًا. فبالرغم من أنني كنت أفضّل البقاء بعيدة عن السياسة وعن قرارات البيت الأبيض، إلّا أنني اعتبرت أن هذه هي معركتي الكبرى، والقضيّة التي كنت مستعدّة لدخول الحلبة من أجلها. كنت أمضي ساعات في الاتّصال هاتفيًّا بأعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب، محاولة إقناعهم بأنّ أطفالنا يستحقّون أفضل ممّا ينالونه. وقد تحدّثت في الأمر طويلًا مع باراك ومستشاريه وكلّ مَن كان مستعدًّا للإصغاء إليّ. أضاف هذا القانون الجديد مزيدًا من الخضر والفاكهة الطازجة، والحبوب الكاملة، والألبان القليلة الدسم إلى نحو ثلاثة وأربعين مليون وجبة طعام تُقدَّم يوميًّا. كما وضع قيودًا قانونيّة على الأطعمة السريعة التي توزَّع في آلات البيع في المدارس، وأمّن تمويلًا للمدارس لإنشاء البساتين واستخدام الخضر والفواكه المنتجة محليًّا. ورأيت أنّ النتيجة كانت ممتازة، ومهّدت الطريق لمعالجة مشكلة بدانة الأطفال.

من جهتهم، بذل باراك ومستشاروه جهودًا كبيرة لإقرار القانون أيضًا. فبعد فوز الجمهوريّين بأغلبيّة مقاعد مجلس النوّاب في انتخابات منتصف الولاية، جعل من إقرار القانون أولويّة بالنسبة إليه في مناقشاته مع المشرّعين، مدركًا أنّ قدرته على تحقيق تغييرات تشريعيّة جذرية على وشك أن تزول. في بداية كانون

الأوّل/ديسمبر، وقبل بدء ولاية الكونغرس الجديد، نجح القانون في تخطّي العوائق الأخيرة. وبعد أحد عشر يومًا وقفت بفخر إلى جانب باراك وهو يوقّعه محاطًا بأطفال من إحدى المدارس الابتدائيّة المحليّة.

قال، ممازحًا الصحافيين: «لو لم أنجح بإقرار هذا القانون، لنمت على الأريكة».

كما هي الحال مع البستان، كنت أحاول أن أزرع شيئًا، وهو عبارة عن شبكة من المناصرين، والأصوات التي ترتفع دفاعًا عن الأطفال وصحّتهم. رأيت في عملي تكملة لنجاح باراك في إقرار قانون العناية الصحية غير الباهظة الكلفة في العام 2010، الذي زاد بقدر كبير من إمكانية حصول جميع الأميركيين على التأمين الصحيّ. كذلك ركّزت على إطلاق مشروع جديد يسمّى Joining Forces (توحيد القوى)، بالتعاون مع جيل بايدن التي عاد ابنها بو سالمًا من خدمته العسكريّة في العراق. ومن أهداف هذا المشروع كان دعم باراك بصفته قائدًا أعلى للجيش.

أدركت وجيل أنّنا مدينون لجنودنا وعائلاتهم بأكثر من عبارات الشكر التقليدية، فعملنا مع مجموعة من موظّفي البيت الأبيض لتحديد طرق ملموسة لدعم الجيش وإبراز حضوره في المجتمع على نحو أفضل. كان باراك قد أطلق في وقت سابق من ذلك العام مبادرة على مستوى حكوميّ واسع، وطلب من كلّ الإدارات العثور على وسائل جديدة لدعم عائلات الجنود. وبالتزامن مع ذلك، اتّصلت برؤساء أقوى الشركات في الولايات المتّحدة، وحصلت منهم على تعهّدات بتوظيف عدد كبير من قدامى المحاربين وزوجات الجنود. بدورها، نالت جيل تعهّدات من الجامعات بتدريب أساتذتها على فهم حاجات أبناء العسكريّين بشكل أفضل. كذلك أردنا أن نمحو من الأذهان صورة الجنود العائدين إلى الوطن مصابين باضطرابات عقليّة، فخططنا لتشجيع الكتّاب والمنتجين في هوليوود على تقديم قصص عن العسكريّين في أفلامهم وبرامجهم التلفزيونيّة.

لم تكن القضايا التي شغلتني بسيطة، لكنّها كانت أسهل بكثير

من القضايا التي تبقي زوجي ساهرًا في مكتبه. كعادته منذ التقيته، كان الليل فرصة باراك للتفكير من دون عوائق. ففي ساعات الصمت المطبق تلك، يستطيع أن يرى الأمور من منظور مختلف، أو يستوعب معلومات جديدة، أو يضيف معطيات إلى الخريطة الذهنية الكبيرة التي يمتلكها. غالبًا ما كان الخدم يأتون إلى غرفة المعاهدات خلال المساء لتسليمه ملفّات جديدة، تحتوي على مزيد من الأوراق كتبها موظّفون يعملون حتى ساعة متأخرة في مكاتبهم. وإذا شعر بالجوع، يحمل إليه أحد الخدم طبقًا صغيرًا من التين أو الجوز. كان قد أقلع عن التدخين، والحمد لله، لكنّه غالبًا ما استعاض عنه بمضغ علكة نيكوتين. وفي معظم ليالي الأسبوع، كان يجلس في مكتبه حتّى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل لقراءة المذكّرات، وإعادة صياغة الخطابات، والردّ على الرسائل الإلكترونيّة وهو يشغّل التلفزيون بصوت منخفض على قناة ESPN الرياضية. وقد اعتاد أن يأخذ استراحة دائمًا ليأتي ويقبّلنا، أنا وابنتيّ، متمنّيًا لنا ليلة سعيدة.

بات تفانيه في القيام بمهامّ الحكم التي لا تنتهي أمرًا معتادًا بالنسبة إليّ. أمضيت وابنتيّ سنوات نتشاطر خلالها باراك مع ناخبيه، الذين زاد عددهم عن الثلاثمئة مليون. وحين أدعه وحيدًا في غرفة المعاهدات ليلًا، كنت أتساءل أحيانًا عمّا إذا كانوا يدركون كم هم محظوظون.

آخر عمل كان يقوم به، أي بعد منتصف الليل عادة، هو قراءة رسائل المواطنين الأميركيين. فمنذ تسلّمه منصبه، طلب باراك من مسؤولي المراسلة في فريقه تضمين تقريره اليوميّ عشر رسائل من الناخبين، يتمّ اختيارها عشوائيًا من الرسائل العادية والإلكترونية الخمسة عشر ألفًا التي تتدفّق على البيت الأبيض كلّ يوم. كان يقرأ كلًّا منها بعناية، ويكتب تعليقاته في الهوامش لكي يعدّ أحد موظفيه ردًّا، أو لإطلاع أحد الوزراء على مشكلة نبّهته الرسالة إليها. كان يقرأ رسائل ترده من الجنود، ونزلاء السجون، ومرضى السرطان الذين يعانون صعوبات في دفع نفقاتهم الطبية، وأشخاص خسروا منازلهم المرهونة للبنوك،

والمثليين جنسيًّا الذين يأملون أن يستطيعوا الزواج بصورة قانونية، والجمهوريّين الذين يشعرون بأنّه يقود البلاد إلى الدمار، والأمّهات، والأجداد، والأطفال. كان يقرأ رسائل أشخاص يقدّرون ما يقوم به، وآخرين أرادوا أن يقولوا له إنّه أحمق.

كان يقرأ ذلك كلّه، معتبرًا أنّه جزء من المسؤولية التي قبِل بأخذها على عاتقه حين أقسم اليمين. كان يمارس عملًا صعبًا وموحشًا – غالبًا ما بدا لي أنّه الأصعب والأكثر وحشة في العالم – لكنّه أدرك أنّ عليه أن يتقبّل كلّ الآراء وألاّ يصمّ أذنيه عن أيّ نقد. وبينما كنّا نحن ننام، كان هو يزيل الحدود ويسمح لكلّ شيء بالوصول إليه.

مساء يومي الاثنين والأربعاء، كان على ساشا التي بلغت عامها العاشر أن تمارس تمارين السباحة في مركز اللياقة في الجامعة الأميركية، والواقع على مسافة كيلومترات قليلة من البيت الأبيض. كنت أذهب أحيانًا لأراها تتمرّن وأحاول الدخول خلسة إلى الغرفة الصغيرة بجانب حوض السباحة حيث يجلس الأهل لمشاهدة التمارين عبر نافذة.

كان الدخول إلى نادٍ رياضيّ مزدحم في ساعات الذروة تحدّيًا لأفراد جهاز الحماية لكنّهم تمكّنوا من تذليله. أمّا أنا فقد أصبحت خبيرة في السير بسرعة، خافضة بصري حين أجتاز الأماكن العامّة، ممّا ساعد جهاز الحماية في المحافظة على مستوى فعاليّته. كنت أمرّ بلمح البصر بين طلّاب (وطالبات) الجامعات المنهمكين برفع الأوزان أو بدروس رقص الزومبا، حتى بدا أحيانًا أنّ أحدًا لا يلاحظ وجودي. وأحيانًا أخرى كنت أشعر بالجلبة من حولي حتى من دون أن أرفع بصري، وأعي موجة الإثارة التي تسبّبت بها، حين أسمع الناس يتهامسون أو يصيحون أحيانًا: «هذه ميشيل أوباما!» لكنّ الأمر لم يعدُ كونه موجة عابرة قطّ، كظهور يحدث ويغيب قبل أن تستطيع العيون تسجيله.

في أمسيات التدريب، غالبًا ما كانت المقاعد القريبة من حوض السباحة تخلو من الجالسين، باستثناء بعض الأهالي الآخرين الذين يدردشون أو يتصفّحون هواتفهم في انتظار انتهاء أبنائهم

من التمارين. فكنت أجد مكانًا هادئًا أجلس فيه وأركّز على مشاهدة السباحة.

كنت أحبّ كلّ وقت أستطيع فيه أن أحدّق بابنتيّ في عالمهما الخاصّ، بعيدًا عن البيت الأبيض، وعن والديهما، وسط الأماكن والعلاقات التي نسجتاها لنفسيهما. برعت ساشا في السباحة، وأحبّت سباحة الصدر، كما صمّمت على أن تجيد سباحة الفراشة. فكانت تنزل إلى الماء بلباس سباحة من قطعة واحدة وغطاء رأس كحليّ اللون، وتثابر حتى إنجاز جولاتها في الماء، متوقّفة بين الحين والآخر للاستماع إلى نصائح مدرّبيها، أو مستغلّة الاستراحات لدردشة لاهية مع رفيقاتها.

كنت سعيدة جدًّا لوجودي بين المتفرّجين في تلك الأوقات، وجلوسي من دون أن يلاحظني أحد ممّن حولي تقريبًا، لأشهد على معجزة نموّ ابنتنا لتصبح فتاة مستقلّة وسليمة. لقد أقحمنا ابنتينا في حياة البيت الأبيض الغريبة والحافلة بالأحداث، من دون أن ندري كيف سيكون وقع ذلك عليهما، أو الأثر الذي ستتركه فيهما تلك التجربة. حاولت أن أجعل خروج ابنتينا إلى العالم إيجابيًّا إلى أقصى حدّ ممكن، مدركة أنّني وباراك نملك فرصة فريدة لجعلهما تزوران أهمّ المعالم التاريخية. فحين كانت رحلات باراك الخارجيّة تتزامن وفترات الإجازة المدرسيّة، كنّا نسافر كلّنا مدركين أنّنا مقبلون على تعلُّم الكثير. في صيف 2009، أخذناهما في رحلة شملت زيارة الكرملين في موسكو والفاتيكان في روما. وهكذا، وفي سبعة أيّام، التقتا الرئيس الروسيّ، وزارتا البانثيون والكوليزيوم في روما، ومرّتا عبر «باب اللاعودة» في غانا، أي نقطة انطلاق أعداد لا تحصى من الأفارقة الذين بيعوا عبيدًا.

لا شكّ بأنّ برنامج تلك الرحلة كان ضاغطًا بالنسبة إليهما، لكنّني تعلّمت أنّ كلًّا منهما كانت تستوعب ما يمكنها استيعابه، ومن وجهة نظرها الخاصّة. عادت ساشا بعد تلك الرحلات الصيفيّة لتدخل صفّ الثالث ابتدائي. ويوم دُعي الأهالي لزيارة مدرسة أولادهم في الخريف، تفرّجتُ على صفها، ورأيتُ على أحد جدرانه المواضيع الإنشائيّة التي كتبها الطلّاب بعنوان «ماذا فعلتُ في

إجازتي الصيفيّة؟» ومن بينها موضوع ساشا، حيث كتبت: «ذهبت إلى روما والتقيت البابا. كان جزء من إبهامه مقطوعًا».

لا يمكنني أن أصف البابا بنديكتوس السادس عشر، أو أن أجزم بأنّ جزءًا من إبهامه كان مقطوعًا. لكنّنا اصطحبنا معنا إلى روما وموسكو وأكرا فتاة في الثامنة من عمرها تتميّز بقوّة الملاحظة وعدم الانفعاليّة، وهذا هو الانطباع الذي عادت به. كانت رؤيتها للتاريخ آنذاك تتوقّف عند مستوى خصر البالغين.

برغم محاولاتنا النأي بساشا وماليا عن النواحي المقلقة في عمل باراك، إلّا أنّني كنت أعلم أنّهما تطّلعان على أمور كثيرة. فهما تُعاصران الأحداث العالمية بطريقة لا تألفها إلّا قلّة من الأولاد، وتعيشان مع حقيقة أنّ الأخبار العالميّة كانت وقائعها تجري أحيانًا تحت سقف منزلنا، ومع اضطرار والدهما إلى السفر أحيانًا في الحالات الوطنيّة الطارئة، ومع واقع أنّ قسمًا من الشعب سيشتمه علنًا، مهما فعل. كان ذلك جانبًا آخر من شعوري بأنّ الأسود والفهود الصيّادة على مسافة قريبة جدًّا منّي.

في شتاء العام 2011، بدأنا نسمع أخبارًا حول أنّ مقدّم برامج الواقع التلفزيونيّة والمستثمر العقاريّ النيويوركيّ دونالد ترامب بدأ يثير ضجيجًا حول احتمال سعيه للفوز بترشيح الحزب الجمهوريّ له في الانتخابات الرئاسيّة في وجه ترشّح باراك لولاية ثانية في العام 2012. بدا أنّ معظم ما يفعله لا يعدو كونه ضجيجًا، فكان يظهر في البرامج الحواريّة المتلفزة للثرثرة وتوجيه نقد واهٍ لقرارات باراك في السياسة الخارجيّة، ويثير الشكوك علنًا في ما إذا كان زوجي مواطنًا أميركيًّا. ففي الحملة الرئاسيّة الأخيرة، حاول المشكّكون بولادة باراك على أرض أميركيّة الترويج لنظريّة مؤامرة تزعم بأنّ وثيقة ولادة باراك الصادرة في هاواي مزوّرة، وأنّه في الحقيقة مولود في كينيا. نشط ترامب بقوّة لإعادة إحياء هذا النقاش، ولم يكفّ عن إطلاق مزاعم غريبة على شاشات التلفزة، مصرًّا على أنّ إعلان جريدة هونولولو في العام 1961 عن ولادة باراك كان مزيّفًا، وأنّ أحدًا من رفاقه في صفّ الروضة لا يتذكّره.

في هذا الوقت، كانت المواقع الإخباريّة المتعطّشة إلى القرّاء والتصنيفات، وخصوصًا المواقع الناطقة باسم المحافِظين، لا تتردّد في ضخّ الأكسجين في مزاعم ترامب التي تفتقر إلى أيّ أساس.

طبعًا، كانت تلك الحملة برمّتها جنونيّة ودنيئة، ولم تكلّف نفسها عناء إخفاء مشاعر التزمّت والكراهية تجاه الأجانب. ولكنّها كانت خطرة أيضًا، وتتعمّد إثارة المتطرّفين والمجانين، فخشيتُ ردود الفعل التي قد تولّدها. كنت أتلقّى بين الحين والآخر تقارير من جهاز الحماية حول التهديدات الجديّة التي تردنا، وأدركتُ أنّ هناك أشخاصًا يمكن تحريضهم. حاولت ألّا أقلق، لكنّ ذلك كان يتجاوز قدرتي أحيانًا. ماذا لو أتى مختلٌّ ما إلى واشنطن حاملًا سلاحًا محشوًّا؟ ماذا لو أنّه كان يسعى إلى ابنتينا؟ كانت تلميحات دونالد ترامب الصاخبة والمتهوّرة تهدّد سلامة عائلتي. ولأجل ذلك، لن أغفر له أبدًا.

لكن لم يكن بوسعنا إلّا أن نطرد مخاوفنا ونواصل الوثوق بجهاز الحماية، ونمضي في حياتنا قُدمًا. فالأشخاص الذين ينعتوننا بأنّنا مختلفون إنّما يفعلون ذلك منذ سنوات. وقد بذلنا كلّ ما بوسعنا لنتجاوز أكاذيبهم وتشويههم للحقائق، واثقَين في أنّ أسلوبي وباراك في عيش حياتنا سيكشف للناس حقيقة مَن نحن. لطالما أبدى الأشخاص المخلصون وذوو النيات الحسنة نحونا مخاوف على سلامتنا منذ أن قرّر باراك الترشّح للرئاسة. كان الناس يشدّون على يدي في خلال الحملة الانتخابية ويقولون لي: «نحن نصلّي لئلّا يتعرّض لكم أحد بالأذى». وقد كانوا أناسًا من كلّ الأعراق، وكلّ الخلفيّات الاجتماعيّة، وكلّ الأعمار، وذكّروني بالطيبة والسخاء المتجذّرين في بلدنا. «نصلّي من أجلك ومن أجل عائلتك كلّ يوم».

كنت أحفظ كلماتهم في قلبي. شعرت بأننا نتمتع بحماية الملايين من الأشخاص النزهاء الذين يصلّون من أجل سلامتنا. كذلك كنت وباراك نعتمد على إيماننا الشخصيّ. بات تردّدنا على الكنيسة نادرًا في الفترة الأخيرة، ليس لسبب إلّا لأنّه تحوّل إلى استعراض يتجمّع فيه الصحافيّون ويصيحون بأسئلتهم فيما نحن

ندخل لنمارس طقوس العبادة. ومنذ أن أثارت أقوال القس جيريميا رايت أزمة أثناء حملة باراك الانتخابيّة الأولى، ومحاولة خصومنا استخدام الإيمان سلاحًا ضدّنا بالتلميح إلى أنّ باراك «مسلم سرًّا»، اخترنا ممارسة إيماننا في منزلنا وبعيدًا عن الأعين، والصلاة كلّ ليلة قبل العشاء، وتنظيم بعض الدروس الدينيّة لابنتينا في البيت الأبيض. لم ننتسب إلى كنيسة في واشنطن لأنّنا لم نرد تعريض طائفة أخرى إلى الاتهام بزيف الإيمان، كما جرى مع كنيسة الثالوث التي انتسبنا إليها في شيكاغو. إلّا أنّ ذلك كان بمثابة تضحية صعبة، فقد افتقدتُ إلى دفء الجماعة الروحيّة. وغالبًا ما كنت أنظر إلى باراك ليلًا فأراه راقدًا على الطرف الآخر من السرير، مغمضًا عينيه، يتلو صلاته بصمت.

بعد أشهر من إعادة تأجيج الشائعات حول عدم كون باراك أميركيّ المولد، ركن رجل سيّارته ذات ليلة من شهر تشرين الثاني/نوفمبر في جزء من جادّة Constitution كان مقفلًا أمام حركة السيّارات، وبدأ يطلق الرصاص ببندقيّة نصف أوتوماتيكيّة من نافذة سيّارته على الطبقات العليا من البيت الأبيض. أصابت رصاصة إحدى نوافذ الغرفة البيضويّة الصفراء، حيث كنت أحبّ الجلوس وتناول الشاي أحيانًا. كما استقرّت رصاصة أخرى في إطار نافذة، وارتدّت رصاصات أخرى عن السطح. كنت وباراك خارج البيت الأبيض ليلتذاك، وكذلك ماليا. غير أنّ ساشا وأمّي كانتا في المنزل، إلّا أنّهما لم تدريا بما جرى ولم تتعرّضا لأيّ أذى. مضت أسابيع قبل تغيير الزجاج المقاوم للرصاص في نافذة الغرفة البيضويّة الصفراء، وغالبًا ما رأيتني أحملق في الدائرة السميكة التي خلّفتها الرصاصة، وأتذكّر كم أنّنا معرّضون للخطر.

أدركت أنّه من الأفضل لنا جميعًا ألّا نسلّم بوجود الكراهية أو نتوقّف طويلًا عند الخطر المحدق بنا، حتّى حين يضطرّ الآخرون إلى إثارة الموضوع. التحقت ماليا بفريق التنس المدرسيّ في سيدويل، وكانت التدريبات تُجرى في ملاعب المدرسة في جادّة ويسكونسن. وفي أحد الأيّام اقتربت منها والدة أحد الطلّاب وأشارت إلى الطريق المزدحم المحاذي للملاعب، وسألتها: «ألا

تشعرين بالخوف هنا؟».
كانت ابنتي تتعلّم يومًا بعد يومًا أن تعبّر عن آرائها بقوّة، وتكتشف طريقتها الخاصّة لترسيخ الحدود التي كانت بحاجة إلى رسمها. فأجابت تلك المرأة قائلة:
«إذا عنيتِ بسؤالك ما إذا كنت أفكّر في الموت كلّ يوم، فجوابي هو لا.»
بعد عامين، أتت إليّ الأمّ نفسها خلال إحدى المناسبات المدرسيّة، وسلّمتني رسالة اعتذار عاطفيّة، قالت فيها إنّها أدركت حالًا الخطأ الذي ارتكبته، بإيقاظها لدى طفلتي مشاعر قلق لا تستطيع شيئًا حيالها. قدّرتُ لها أنّها فكّرت في الأمر كثيرًا. لقد سمعتْ في إجابة ماليا صدى للضعف البشريّ وللقدرة على النهوض في آن واحد، أي صدى لكلّ ما كنّا نعيشه وكلّ ما نحاول السيطرة عليه. كما فهمتْ تلك المرأة أنّ الأمر الوحيد الذي تستطيع ابنتنا القيام به في ذلك اليوم وكلّ يوم بعده هو العودة إلى الملعب للعب التنس.

إنّ كلّ تحدٍّ هو مسألة نسبيّة طبعًا. كنت أعرف أنّ ابنتيّ تكبران ولهما من الامتيازات ويسر الحال أكثر ممّا قد تحلم به معظم العائلات. فقد كان لديهما منزل جميل، ومائدة ملأى بالطعام، وبالغون حولهما يتفانون في خدمتهما، وكثير من التشجيع والموارد الموضوعة بتصرّفهما لأجل تعليمهما. استثمرت كلّ ما لديّ في سبيل ساشا وماليا وتطوّر شخصيّتيهما. لكنّني، وكسيّدة أولى، كنت أعي أنّ لديّ أيضًا واجبًا أكبر. شعرت بأنّني أدين بالكثير للأطفال عمومًا، والفتيات خصوصًا. بعض ذلك كان سببه ردّة فعل الناس على قصّة حياتي، واستغرابهم لأنّ فتاة سوداء من المدينة شقّت طريقها عبر أرقى الجامعات وتولّت الوظائف الإدارية المرموقة ووصلت أخيرًا إلى البيت الأبيض. أدركت أنّني سلكت مسارًا غير مألوف ولكن لم أرَ سببًا وجيهًا لكي يبقى كذلك. مرّات كثيرة في خلال حياتي، وجدت نفسي المرأة الملوّنة الوحيدة – أو حتّى المرأة الوحيدة على الإطلاق – التي تجلس إلى طاولة مؤتمرات أو تحضر اجتماع مجلس إدارة شركة أو

تشارك في اجتماع للشخصيّات المهمّة. لعلّي كنت المرأة الأولى التي قامت بتلك الأمور، لكنّني أردت الحرص على ألّا أبقى الوحيدة، وأنّ أخريات سيلحقن بي. وكما تقول أمّي العدوّة اللدودة لكلّ أنواع المبالغة، كلّما أثنى أحدهم عليّ أو على كريغ وإنجازاتنا الكثيرة: «إنّهما ليسا مميّزين أبدًا. فالجانب الجنوبي لشيكاغو مليء بأمثالهما». كلّ ما كان علينا فعله هو مساعدة أولئك النساء الملوّنات على بلوغ المراتب العليا.

أدركت أنّ أهمّ ما في حكايتي الشخصيّة ليس في القيمة الظاهرة لإنجازاتي، بل في ما شكّل أساسًا متينًا لها، أي في أنواع الدعم الكثيرة والمختلفة التي تلقيتها على مرّ السنوات، والأشخاص الذين ساعدوني مع الوقت على بناء ثقتي بنفسي. كنت أتذكّر كلّ شخص دفعني إلى الأمام، وبذل جهده لتحصيني ضدّ الإهانات التي لا شكّ بأنّني كنت سأواجهها في الأمكنة التي أمضي إليها، أي تلك البيئات التي لم يبنِها سود ولا نساء، ولا هي وُجدت أساسًا من أجل السود أو النساء.

فكّرت في العمّة روبي التي فرضت عليّ معايير شديدة القسوة في دروس البيانو، وكيف علّمتني أن أرفع رأسي اعتزازًا وأعزف من كلّ قلبي على البيانوهات الفخمة، ولو أنّني لم أعرف طوال حياتي سوى بيانو عاديّ مفاتيحه مكسّرة. فكّرت في أبي الذي علّمني كيف أقبض على كرة فوتبول وأرميها، تمامًا مثل كريغ. كذلك فكّرت في السيّد مارتينز والسيّد بينيت، أستاذيّ في Bryn Mawr، اللذين لم يستخفّا بآرائي قطّ. وأيضًا فكّرت في أمّي، دعامتي الأقوى، التي أنقذتني يقظتها من السقوط في فخّ الخمول في صفّ الثاني ابتدائي الذي خيّم عليه جوّ من الكآبة الشديدة. وفي جامعة برنستون، رافقتني تشيرني برازويل، التي شجّعتني وغذّت تفكيري بطرائق جديدة. وحين دخلت عالم الأعمال، رافقتني سوزان شير وفاليري جاريت، اللتان بقيتا صديقتين عزيزتين وزميلتين حتى بعد سنوات كثيرة، وعلّمتاني كيف تكون الأمّ العاملة، وفتحتا لي الأبواب على الدوام لأنهما كانتا متأكّدتين من أنّ لديّ قدرات دفينة يمكنني إبرازها.

لم يكن معظم أولئك الأشخاص يعرفون بعضهم بعضًا، ولم تسنح لهم الفرصة للتلاقي أبدًا، حتّى أنّني فقدت الاتّصال بالكثيرين منهم. لكنّهم شكّلوا حولي حلقة مهمّة جدًّا، فهم مَن حفّزوني ووثقوا بقدرتي، وألّفوا جوقتي الخاصة التي رنّمت لي طوال طريقي: «نعم يا صغيرة، أنت قادرة!».

لم أنسَ ذلك قطّ، بل حاولت في بداية عهدي بالمحاماة أن أقدّم الدعم بدوري للآخرين، فكنت أشجّع الشبّان والشابّات الذين أكتشف لديهم فضولًا وطموحًا، وأدفعهم إلى خوض الأحاديث المهمّة. وحين كانت مساعِدة قانونيّة تطرح عليّ سؤالًا يتعلّق بمستقبلها، أفتح لها باب مكتبي وأروي لها قصة حياتي أو أسدي إليها نصيحة. وإذا طلب أحدهم إرشادًا أو مساعدة للتعرّف إلى شخص ما، كنت أبذل ما بوسعي لألبي طلبه. ولاحقًا، حين انتسبت إلى Public Allies، اكتشفت عن كثب فوائد الالتزام برعاية شخص شابّ وتدريبه. وعرفت من تجربتي الشخصيّة أنّه حين يُظهر شخص ما اهتمامًا حقيقيًّا بالتقدّم العلميّ الذي أحرزته وبتطوّري، ولو لعشر دقائق في يوم حافل بالمشاغل، فهو أمر بغاية الأهمّية، وخصوصًا بالنسبة إلى النساء والأقلّيات وكلّ مَن يعانون تهميش المجتمع لهم.

بهذه الذهنيّة، أطلقت برنامج قيادة وتدريب في البيت الأبيض، ودعوت عشرين طالبة من السنتين الثانويتين الأولى والثانية في مدارس تقع في محيط العاصمة واشنطن للانضمام إلينا في لقاءات شهرية تنوّعت ما بين الدردشة غير الرسميّة، والرحلات الميدانيّة، والندوات في مواضيع مختلفة كالثقافة الماليّة واختيار المهنة. لكننا أبقينا على جزء كبير من هذا البرنامج طيّ الكتمان، لئلّا ندفع بالفتيات إلى حلبة النقاش الإعلامي.

عهدنا بكلّ من تلك المراهقات إلى مدرّبة تبني معها علاقة شخصيّة، وتضع بتصرّفها ما تملك من موارد، وتطلعها على قصّة حياتها. من بين المدرّبات كانت فاليري، وكريس كومرفورد الطاهية الأنثى الأولى في البيت الأبيض، وأيضًا جيل بايدن، وعدد من السيدات في فريقَي العمل في الجناحين الشرقيّ والغربيّ

للبيت الأبيض. كانت مديرات المدارس أو مستشارات الإرشاد التربويّ يخترن الطالبات اللواتي يبقين معنا حتّى يتخرّجن. استقبلنا فتيات من عائلات العسكريّين، والمهاجرين، وأمًّا مراهقة، وفتاة عاشت في مأوى للمشرّدين. وكنّ كلّهنّ شابّات يتمتّعن بالذكاء والفضول، ولا يختلفن عنّي أو عن ابنتيّ. ومع الوقت رأيت كيف استطعن تكوين صداقات وعلاقات ناجحة، سواء بين بعضهنّ البعض أو مع البالغات حولهنّ. أمضيت ساعات في محادثتهنّ ونحن جالسات في حلقة كبيرة، نتناول الفوشار ونتبادل الأفكار حول الانتساب إلى الجامعات، وصورة الجسد، وحتى حول الفتيان. لم يكن أيّ موضوع خارج الحدود المسموح بها. كنّا نضحك كثيرًا. وكنت أرجو أن يكون هذا ما سيحملنه معهنّ إلى المستقبل، وأعني الشعور بالارتياح والانتماء إلى جماعة كبرى، والجرأة في التعبير عن أنفسهنّ وإيصال أصواتهنّ.

كنت أتمنّى لهنّ ما أتمنّاه لساشا وماليا، وهو أنّه من خلال تعزيز شعورهنّ بالارتياح في البيت الأبيض، سيستطعن الشعور بالارتياح والثقة في أيّ قاعة، وأيّ طاولة يجلسن إليها، ولن يتردّدن بالتعبير عن آرائهن ضمن أيّة مجموعة.

بعد مضيّ أكثر من عامين على العيش بداخل فقاعة الرئاسة، بحثت عن وسائل لتوسيع نطاقها إلى أبعد ما أستطيع. واصلت وباراك فتح أبواب البيت الأبيض أمام عدد أكبر من الأشخاص، وخصوصًا الأطفال، آملين بأن نضيف إلى عظمة المكان شعورًا بأنّه يتّسع للجميع، ونضفي بعض الحياة على طابعه الرسميّ وتقاليده. وكلّما وفدت إلينا شخصيّات أجنبيّة في زيارات دولة، كنّا ندعو طلّابًا من المدارس المحلية للمشاركة في الاستقبال الرسميّ وتذوّق الطعام الذي سيقدَّم في العشاء الرسميّ. وكلّما أتى موسيقيون لإحياء حفلة مسائيّة، كنّا نسألهم القدوم باكرًا لمساعدتنا في إحياء ورش الفنون الخاصّة بالصغار. أردنا أن نشدّد على أهمّية تعريف الأولاد بالفنون، وأن نُظهر لهم أنّها ليست ترفًا بل حاجة ضرورية في تجربتهم التعليمية. سررت لرؤية الطلّاب الثانويّين يختلطون بفنّانين معاصرين مثل جون ليجند،

وجاستن تيمبرلايك، وأليسون كراوس، كما بأساطير مثل سموكي روبنسون وباتي لابيل. كان ذلك يذكّرني بنشأتي، وموسيقى الجاز في منزلنا في شيكاغو، ومباريات العزف على البيانو وتمارين الأوبريت التي كانت تنظّمها روبي، ومشاويرنا العائلية إلى متاحف وسط شيكاغو. كنت أعلم كيف تساهم الفنون والثقافة في تطوّر الطفل. وجعلني هذا الأمر أشعر وكأنني في دياري. كنت وباراك نجلس في الصفّ الأمامي ونتمايل مع إيقاع الموسيقى في كلّ حفلة. حتّى أمّي التي تجنّبت الظهور العلنيّ، كانت تنزل دائمًا إلى قاعة الاحتفالات الرسميّة كلّما أقمنا فيها حفلة موسيقية.

كذلك أضفنا احتفالات راقصة وفنّية أخرى، كنّا ندعو إليها فنّانين ناشئين لتقديم أعمالهم الجديدة. وفي العام 2009، نظّمنا لقاء الشعر والخطابة الأوّل الذي يقام في البيت الأبيض، وأصغينا إلى مؤلّف شابّ يدعى لين مانويل ميراندا، أثار الإعجاب الكبير حين قدّم قطعة من مشروع فنّي بدأ بإعداده، واصفًا إيّاه بعبارة «ألبوم يدور حول حياة شخص أظنّه يجسّد موسيقى الهيب هوب... وهو وزير الخزانة ألكسندر هاملتون».

أتذكّر أنّني صافحته وقلت له: «أتمنّى لك حظًّا سعيدًا في مشروع هاملتون».

كنّا نواجه كلّ يوم شتّى أنواع المواقف والانفعالات، كالتألّق، والتفوّق، والأسى، والأمل... مواقف وانفعالات تتعايش معًا. وفي الوقت عينه كانت لنا ابنتان تحاولان النأي بحياتهما عمّا يجري في المنزل. بذلت جهدي لأبقي نفسي والفتاتين جزءًا من حياة العالم اليومية. فهدفي لم يتغيّر، وهو أن أبحث دائمًا عن ظروف طبيعيّة، وأجد لنفسي جوانب من الحياة العاديّة يمكنني العودة للتمتّع بها. وهكذا في مواسم كرة القدم واللاكروس، كنت أذهب إلى الكثير من المباريات التي تشارك بها ساشا وماليا، فأجلس بجانب الأهالي الآخرين في مقاعد المتفرّجين. ولطالما وجدت السعادة في الدردشة معهم، معتذرة بلباقة مِمّن يطلبون التقاط صورة لي. وبعدما بدأت ماليا بممارسة رياضة التنس، كنت أشاهد

مبارياتها في معظم الأحيان من نافذة عربة تابعة لجهاز الحماية مركونة بشكل لا يلفت الأنظار بقرب الملعب، رغبة منّي في عدم تشتيت الانتباه. ولم أكن أذهب لمعانقتها إلّا بعد انتهاء اللعب.

أمّا باراك فقد كان احتمال عيش الحياة بصورة طبيعية أو التنقّل بسهولة أمرًا متعذّرًا بالنسبة إليه. كان يشارك في المناسبات المدرسية ويحضر مباريات الفتاتين بالقدر الذي يسمح له عمله به، لكنّ فرصه في الاختلاط بالآخرين كانت محدودة، كما لم يكن حضور أفراد جهاز الحماية حوله خفيًّا قطّ. الواقع أنّه كان مقصودًا ألّا يكون خفيًّا، وذلك لتوجيه رسالة واضحة إلى العالم بأنّ أحدًا لا يستطيع إلحاق الأذى برئيس الولايات المتحدة. كان ذلك الأمر يسعدني لأسباب بديهية، ولكنّه لم يكن يتناسب كثيرًا ومعايير الحياة العائلية.

هذه الفكرة عينها راودت ماليا ذات يوم حين كنّا نحن الثلاثة، هي وباراك وأنا، نذهب إلى إحدى المناسبات المدرسية الخاصّة بساشا في سيدويل. عبرنا باحة خارجيّة ومررنا بعدد من طلّاب صفّ الحضانة وهم في الاستراحة، يلعبون بين مربّعات التأرجح ويركضون في ملعبهم المفروش بنشارة الخشب. لا أعلم إن كان الأطفال قد رأوا فرقة قنّاصي جهاز الحماية بملابسهم السوداء موزّعين على أسطح مباني المدرسة وبنادقهم ظاهرة للعيان، غير أنّ ماليا رأتهم.

نقّلت ابنتي بصرها بين القنّاصة والأطفال، ثمّ نظرت إلى والدها نظرة تقصد بها إغاظته. وقالت له: «حقًّا يا أبي؟ أهذا الأمر جدّيّ؟»

لم يكن بوسع باراك سوى أن يبتسم ويهزّ كتفيه. فالخطر الذي يحيط بعمله أمر جدّيّ ولا يمكن تجنّبه.

المؤكّد أنّ أحدًا منّا لم يغادر الفقاعة قط، فبمجرّد ما كان أيّ من أفراد عائلتي يتحرّك، ترافقه فقاعته. وبعد مفاوضاتنا الأولى مع جهاز الحماية، بات بوسع ساشا وماليا أن تذهبا إلى احتفالات أصدقائهما الدينية، أو أن تغسلا السيارات ضمن حملة جمع التبرّعات التي تقيمها المدرسة، حتّى أنّهما كانتا تقضيان الوقت في المراكز التجاريّة، دائمًا بمواكبة أفراد جهاز الحماية، وكانت

أمّي ترافقهما أحيانًا. لكنّهما باتتا قادرتين على الحركة شأنهما شأن رفاقهما. وأصبح العنصران المولجان بحماية ساشا، أي بث سيليستيني ولورنس تاكر – الذي يدعوه الجميع ل. ت. – شخصيّتين ثابتتين ومحبوبتين في المدرسة. فكان الأطفال يطلبون من ل. ت. أن يدفعهم على الأرجوحة أثناء الاستراحات. وغالبًا ما كان الأهالي يرسلون قطع حلوى إضافية لهما حين تقام بداخل الصف حفلة عيد ميلاد أحد الأطفال.

مع الوقت، نشأ تقارب حقيقي بيننا وبين أفراد جهاز الحماية المولجين بحمايتنا. آنذاك كان برستون فيرلامب قائد المجموعة الخاصة بي، تبعه في تلك المهمّة آلن تايلور، وكان مسؤولًا عن حمايتي خلال الحملة الانتخابية. كانا في العلن شخصين صامتين دائمًا وعلى يقظة تامّة. أمّا في الكواليس وخلال الرحلات بالطائرة، فكانا يعودان للاسترخاء ويرويان لنا الأخبار المتفرّقة ويمزحان. ولأغيظهما أطلقت عليهما لقب «الرقيقين صاحبَي الوجه الحجريّ». كما أنّ الساعات الكثيرة التي أمضيناها معًا والأميال الكثيرة التي سافرناها معًا، متّنت أواصر الصداقة بيننا، فأصبحت أشاركهما أحزانهما وأفرح معهما كلّما حقق أحد أولادهما إنجازًا. كنت أدرك جدّية مهامّهما وما كانا مستعدّين للتضحية به لأجل سلامتي، ولم أستخفّ بذلك قطّ.

كنت كابنتيّ أحاول أن أنسج لنفسي حياة خاصّة إلى جانب حياتي الرسميّة. اكتشفت أنّ ثمّة طرقًا لتجنّب الظهور للعيان عند الحاجة، وقد سهّلت عليّ الأمر المرونة التي تحلّى بها أفراد جهاز الحماية. فبدلًا من استخدام الموكب الرئاسيّ، سُمح لي أحيانًا بالتنقّل في سيارات عادية بمواكبة أمنية مخفّفة. نجحت في القيام بزيارات تسوّق خاطفة بين الحين والآخر. فكنت أدخل إلى متجر ما وأخرج منه قبل أن يلاحظ أحد وجودي. فمثلًا بعدما مزّق بو كلّ الألعاب التي اشتراها له فريق التسوّق العامل لدينا، اصطحبته شخصيًّا إلى PetSmart في ألكساندريا في أحد الأيام، واستمتعت لبعض الوقت بإخفاء هويّتي فيما كنت أبحث عن ألعاب أفضل لبو الذي سار بجانبي مربوطًا برسن، مسرورًا مثلي بهذه

النزهة الجديدة.
كلّما زرتُ مكانًا من دون إثارة جلبة، كنت أشعر وكأنّه انتصار صغير وتمرين على الإرادة الحرّة. فأنا امرأة مولعة بالتفاصيل، ولم أنسَ السرور الذي يشعر به المرء حين ينتهي من اختيار حاجاته واحدة تلوَ الأخرى. وبعد ستة أشهر على الذهاب إلى PetSmart، قصدت خلسة فرع Target المحلّي متنكّرة بقبّعة بايسبول ونظّارة شمسيّة. ارتدى أفراد جهاز الحماية سراويل قصيرة وانتعلوا أحذية خفيفة ولم يضعوا السمّاعات في آذانهم، باذلين جهدهم لئلّا يتعرّف إليهم أحد وهم يتبعوننا، أنا ومساعِدتي كريستن جونز، في المتجر. جلنا على الأجنحة كلّها، واخترت كريمًا للوجه من ماركة Oil of Olay وفراشي أسنان جديدة ووجدتُ لعبتين لساشا وماليا. كما اشترت كريستن فوطًا لنشّافة الملابس ومسحوق تنظيف. وللمرّة الأولى منذ سنوات، استطعتُ أن أنتقي بطاقة أقدّمها إلى باراك لمناسبة ذكرى زواجنا.
عدت إلى المنزل والبهجة تغمرني. فالأمور الصغيرة هذه بدت بالغة الأهمية بالنسبة لي.
مع الوقت، أضفتُ بعض المغامرات إلى روتيني. بدأت ألتقي أصدقاء على العشاء بين الحين والآخر في المطاعم أو في منازلهم. وكنت أحيانًا أذهب إلى الحديقة العامّة وأسير طويلًا على ضفة نهر بوتوماك. كان أفراد الحماية يسيرون أمامي وخلفي في هذه المشاوير، ولكن بعيدين منّي وبطريقة لا تلفت الأنظار. وفي الأعوام اللاحقة، بدأت أغادر البيت الأبيض إلى صفوف اللياقة البدنية، وأزور ناديَي SoulCycle و Solidcore في المدينة، فأدخل القاعة في الدقيقة الأخيرة، وأغادرها حالما تنتهي التمارين لتجنّب التسبّب بأي إزعاج. وقد تبيّن لي لاحقًا أنّ التزلّج هو أكثر الأنشطة التي تُشعرني بالحرية. كانت خبرتي بتلك الرياضة ضئيلة، لكنّها سرعان ما تحوّلت إلى شغف. استفدت من الشتاء القاسي الذي شهدته واشنطن في السنتين الأولى والثانية لإقامتنا، وذهبت مع ابنتيّ وبعض الأصدقاء إلى منطقة تزلّج صغيرة بالقرب من غيتيسبرغ يُطلق عليها اسم Liberty

Mountain، أو «جبل الحرّية» – كم كانت التسمية في محلّها – حيث اكتشفنا أنّ بوسعنا أن نضع خوذاتنا وشالاتنا ونظّاراتنا ونختلط بالحشود بارتياح. ممارسة رياضة التزلّج كانت تجمع بين الخروج من المنزل والحركة والبقاء مجهولة الهوية في آنٍ معًا. كان ذلك بمثابة التحليق بالنسبة إليّ.

كان الاختلاط بالآخرين أمرًا مهمًّا، بل كان الأمر الأهمّ على الإطلاق، ووسيلة لأشعر بنفسي، وأبقى وسط هذه المرحلة التاريخية التي أعيشها والحافلة بالأحداث، ميشيل روبنسون المولودة في الجانب الجنوبيّ لشيكاغو. صهرت حياتي القديمة بحياتي الجديدة، وهمومي الشخصيّة بعملي العامّ. وجدت لنفسي صديقات جديدات في واشنطن، وهنّ بعض أمّهات رفاق ساشا وماليا في المدرسة، إضافة إلى بعض النساء اللواتي تعرّفت بهنّ أثناء عملي في البيت الأبيض. أولئك النساء لم يهتممن بشهرتي أو بعنوان منزلي، بل بشخصي. طريف حقًّا أن يستطيع المرء التمييز بسرعة بين من يسعى إلى صداقته حقًّا ومَن يريد تحقيق الشهرة على حسابه. كنت وباراك نثير هذا الموضوع خلال العشاء مع ساشا وماليا أحيانًا، وكيف أنّ هناك أشخاصًا من الأطفال والبالغين على حدٍّ سواء، يحاولون التقرّب منّا، وتبدو عليهم الحماسة المفرطة. وكنّا نسمّيهم «المتعطّشين».

تعلّمت قبل سنوات كثيرة أن أبقي أصدقائي الحقيقيّين قريبين منّي. وحافظت على علاقة وثيقة بالنساء اللواتي كنت ألتقيهنّ قبل سنوات في شيكاغو حين نصطحب أطفالنا للّعب معًا أيّام الآحاد. آنذاك كان أولادنا صغارًا، يرمون طعامهم بمرح من كراسيهم العالية، وكنّا نرغب في البكاء من شدّة التعب. أولئك الصديقات هنّ اللواتي ساعدنني لأحافظ على رباطة جأشي، فكنّ يأتينني بالبقالة حين لم تسمح لي انشغالاتي بالتسوّق، ويصطحبن ابنتيّ إلى صفّ الباليه حين كنت أتأخّر في العمل أو أشعر بالحاجة إلى الراحة. سافر عدد منهنّ للانضمام إليّ في بعض المحطّات الصعبة خلال الحملة الانتخابية، وقدّمن إليّ

الدعم العاطفيّ حين كنت بأمسّ الحاجة إليه. كلّ امرأة تدرك جيدًا أنّ الصداقات بين النساء تُبنى على عدد لا يُحصى من المبادرات المتبادلة الصغيرة واللطيفة، كالتي ذكرُتها.

في العام 2011، بدأت أبذل جهدًا متعمّدًا لتوطيد أواصر صداقاتي وتوسيع نطاقها، من خلال الجمع بين صديقاتي القديمات والجديدات. فكنت أدعو عدّة مرات في العام نحو اثنتَي عشرة صديقة مقرّبة لموافاتي لتمضية إجازة أسبوع في كامب دايفيد، المنتجع الرئاسيّ الواقع بين غابات المنطقة الجبليّة شمال ماريلاند، على مسافة تبعد نحو مئة كيلومتر من واشنطن. بدأت أدعو تلك اللقاءات Bootcamp (مخيّمات التدريب)، وأعترف بأنّني كنت أرغم الجميع على ممارسة التمارين الرياضية معي مرّات عدّة يوميًّا. كما حاولت ذات مرّة أن أحظّر النبيذ والأكل بين الوجبات، غير أنّ هذه المحاولة سرعان ما باءت بالفشل. لكنّ السبب الأساسيّ لتلك التسمية هو أنّني كنت حازمة في تمسّكي بالصداقة.

كانت صديقاتي نساء ناجحات، التزاماتهنّ كثيرة، ولغالبيتهنّ حياة عائليّة حافلة ووظائف مرهقة. أدركت أنّه لم يكن سهلًا بالنسبة إليهنّ أن يتحرّرن من التزاماتهنّ، لكنّ ذلك كان جزءًا من دافعي لتنظيم تلك الإجازات. اعتدنا كلّنا التضحية من أجل أولادنا وأزواجنا وأعمالنا. غير أنّني تعلّمت خلال السنوات التي قضيتها وأنا أحاول التوصّل إلى توازن في حياتي، أنّه لا بأس من تغيير تلك الأولويّات والاهتمام بأنفسنا بين الحين والآخر. كان يسعدني كثيرًا أن أطالب بذلك نيابة عن صديقاتي، وأوجِد سببًا – يمكنه أن يتحوّل إلى تقليد – يسمح لمجموعة من النساء بأن يلتفتن إلى أولادهنّ وأزواجهنّ وزملائهنّ ويقلن لهم: «آسفة، أنا أقوم بذلك من أجل ذاتي».

باتت إجازات مخيّم التدريب وسيلتنا للهروب والتواصل وتجديد طاقتنا. كنّا نقيم في أكواخ مريحة، جدرانها مكسوّة بالخشب، تحيط بها الغابات، ونتنقّل في عربات الغولف، ونركب الدرّاجات الهوائية. كنّا نلعب بالكرة، ونمارس تمارين اللياقة البدنية. كما

دعوت أحيانًا بعض الشابّات من فريق عملي، فكان ممتعًا على مرّ السنوات أن أشاهد سوزان شير، وهي في نهاية عقدها السابع، تمارس تمارين اللياقة راقدة على الأرض بقرب ماكنزي سميث، المسؤولة عن تنظيم مواعيدي والتي لم تتجاوز عامها الثلاثين، وكانت لاعبة كرة قدم في الجامعة. كنّا نأكل وجبات طعام صحية يعدّها طهاة البيت الأبيض، ونمارس التمارين الرياضية بإشراف مدرّبي كورنيل، وعدد من جنود البحريّة الحديثي السنّ الذين ينادوننا كلّنا بلقب «Ma'am». مارسنا الكثير من التمارين، وتحادثنا كثيرًا. جمعنا أفكارنا وتجاربنا وقدّمنا النصائح والقصص الطريفة. أحيانًا كان يكفي أن نطمئن كلّ امرأة منّا تبذل جهدًا مضنيًا، إلى أنّها ليست الوحيدة التي لديها ابن أو ابنة يثيران المتاعب في سنّ المراهقة، أو ربّ عمل لا تتحمّله. كان الإصغاء وحده كافيًا أحيانًا لتهدّئ كلّ منّا من روع الأخرى. وعند الوداع في نهاية كلّ إجازة، كنّا نتعاهد على أن نلتقي من جديد قريبًا.

صديقاتي هنّ مصدر ارتياح نفسيّ بالنسبة إليّ، كما كنّ وكما سيكنّ دائمًا، ويرفعن من معنوياتي كلما شعرت بالإحباط أو لم أستطع الوصول إلى باراك. وهنّ اللواتي ساندنني حين كنت أشعر بضغوط الأحكام والانتقادات التي تناولت كلّ شيء يخصّني، من اختياري لطلاء أظافري وصولًا إلى حجم ردفيّ. وهنّ اللواتي عاونّني على النجاة من الأمواج العاتية التي كانت تداهمني أحيانًا.

يوم الأحد الأول من شهر أيار/مايو 2011، ذهبت مع صديقتين للعشاء في أحد المطاعم وسط المدينة، وأوكلت إلى باراك وأمي مسؤولية العناية بالفتاتين في المنزل. بدت إجازة الأسبوع تلك حافلة على نحو خاصّ. فقد تلقّى باراك عددًا كبيرًا من التقارير بعد ظهر ذلك اليوم، كما شاركنا مساء السبت في عشاء المراسلين الصحفيّين في البيت الأبيض، حيث ألقى باراك في خطابه بعض النكات المقصودة حول برنامج Celebrity Apprentice الذي كان دونالد ترامب يقدّمه، وحول نظريّاته في شأن ولادة زوجي. كان ترامب بين الحضور يومذاك، برغم أنّني لم أرَه من كرسيّي. صوّبت

الكاميرات عدساتها عليه خلال خطاب باراك فظهر منقبض الملامح يغلي غضبًا.

كانت أمسيات الأحد هادئة وخالية من الارتباطات. وكانت الفتاتان تشعران بالتعب بعد إجازة أسبوع من ممارسة الرياضة والعلاقات الاجتماعية. وإذا ما حالف الحظّ باراك خلال النهار، كان يستطيع أن يلعب الغولف في ملعب قاعدة أندروز العسكرية، وهو ما كان يُشعره بالاسترخاء.

بعد العشاء مع صديقتيّ مساء ذلك اليوم، وصلت إلى المنزل عند نحو العاشرة، واستقبلني أحد الخدم عند الباب كما هي الحال دائمًا. أدركت في الحال أنّ ثمّة ما يجري وشعرت بحركة غير اعتياديّة في الطابق السفليّ من البيت الأبيض. سألت الخادم عمّا إذا كان يعرف أين الرئيس، فأجابني:

«أعتقد أنّه في الطابق الأعلى يا سيّدتي، يستعدّ لتوجيه خطاب إلى الأمّة.»

هكذا أدركت أنّ الأمر حدث أخيرًا. كنت أعلم أنّه سيحدث، لكنّني لم أدرِ كيف سيكون ذلك. أمضيت اليومين الأخيرين في محاولة التصرّف بشكل طبيعيّ تمامًا، وتظاهرت بجهلي أنّ أمرًا بالغ الأهمّية وخطيرًا على وشك أن يحدث. بعد أشهر من جمع المعلومات الاستخباريّة الفائقة السرية، وأسابيع من الاستعداد الدقيق، وبعد التقارير الأمنية وتقديرات المخاطر، واتخاذ قرار عصيب أخير، وعلى مسافة آلاف الكيلومترات من البيت الأبيض وتحت جنح الظلام، قامت فرقة من نخبة قوات الكوماندوس التابعة لسلاح البحرية، أو SEALS، بالهجوم على مجمّع سري في أبوت أباد في باكستان، بحثًا عن أسامة بن لادن.

سرت في الرواق المؤدّي إلى غرفة نومنا فرأيت باراك يخرج منها، مرتديًا بزّة مع ربطة عنق حمراء والإثارة تبدو ظاهرة عليه. كان يحمل عبء هذا القرار منذ أسابيع.

«لقد نلنا منه، ولم يُصب أحد»، قال لي.

تعانقنا. لقد قُتل أسامة بن لادن، ولم يُقتل أيّ أميركيّ. قام باراك بمجازفة كبيرة، كان ممكنًا أن تكلّفه منصبه، ونجح فيها.

كان الخبر قد انتشر في أرجاء العالم. تدفّق الناس إلى الشوارع المحيطة بالبيت الأبيض، خارجين من المطاعم والفنادق والمباني السكنية، وتردّدت هتافات النصر في ذلك الليل. تصاعدت قوّة الأصوات لدرجة أنّها أيقظت ماليا في غرفة نومها، وسُمعت حتى عبر الزجاج المقاوم للرصاص الذي يحجب كلّ شيء.

تلك الليلة، فُتحت كلّ أبواب المنازل في مدن أميركا كافّة وخرج الناس إلى الشوارع، تجذبهم الحاجة إلى أن يكونوا متقاربين. لم تكن الوطنية وحدها هي التي تربط بينهم، بل الشعور بالحزن العامّ الذي وُلد في 11 أيلول/سبتمبر، وأعوام القلق من أن نتعرّض لهجوم ثانٍ. فكّرت في كلّ القواعد العسكريّة التي زرتها، وكلّ الجنود الذين يتعافون من إصاباتهم، وفي الكثيرين الذين أرسلوا أفرادًا من عائلاتهم إلى مكان ناءٍ من أجل الدفاع عن بلدنا، وفي آلاف الأطفال الذين فقدوا أبًا أو أمًّا في ذلك اليوم الرهيب والمشؤوم. كنت أعلم أنّه لا يمكن تعويض أيّ من تلك الخسائر. علمت أنّه لا يمكن لموت إنسان أن يعوّض حياة. ولست أكيدة من أنّ موت إنسان هو سبب للاحتفال. لكنّ أميركا شعرت في تلك الليلة بلحظة ارتياح، وبفرصة للشعور بقدرتها على التغلّب على المصائب.

23

بدا الوقت وكأنّه يطير، وشعرنا بأنّ من المستحيل أن نقيسه أو نتذكّر كيف أمضيناه. فكلّ يوم كان حافلًا، وكذلك كلّ الأسابيع والشهور والأعوام التي أمضيناها في البيت الأبيض. كنت أصل إلى يوم الجمعة وأنسى كيف مرّ يوما الاثنين والثلاثاء. وأحيانًا كنت أجلس إلى العشاء وأتساءل أين تناولت غدائي وكيف كان. لا أزال حتّى الآن عاجزة عن فهم كيف مرّت علينا تلك المرحلة. كان إيقاع حياتنا سريعًا جدًّا، والوقت المتاح للتفكير ضيّقًا جدًّا. ولم يكن نادرًا أن أشارك بعد ظهر يوم واحد، في عدد من المناسبات الرسميّة والاجتماعات وحتى في جلسة تصوير. كما لم يكن نادرًا أن أزور عدّة ولايات في يوم واحد، أو أتحدّث إلى اثنَي عشر ألف شخص، أو أستقبل أربعمئة طفل لنمارس معًا تمارين اللياقة البدنية في الحديقة الجنوبيّة، ثمّ أسارع إلى ارتداء فستان فخم لحضور حفل استقبال مسائي. كنت أستغلّ الأيّام التي تخلو من الانشغالات الرسميّة للاهتمام بساشا وماليا وحياتهما، قبل العودة إلى الانشغال: وأعني الانشغال بتصفيف الشعر والماكياج والملابس، أي العودة إلى دوّامة الحياة العامّة.

مع اقترابنا من ترشّح باراك لولاية ثانية في العام 2012، شعرت بأنّني لا أستطيع – ولا يجب عليّ – أن آخذ قسطًا من الراحة. فأنا لا أزال أسعى للفوز بمحبّة الناس. غالبًا ما فكّرت في ما أدين به والأشخاص الذين أدين لهم. كنت أحمل معي تاريخًا، وهو ليس

تاريخ رؤساء الولايات المتحدة أو زوجاتهم. شعرت بأنّني أقرب إلى قصّة حياة سوجورنر تروث، داعية إلغاء العبوديّة، منّي إلى جون كوينسي آدمز، الرئيس الأميركيّ السادس؛ ولم يؤثّر فيّ الرئيس وودرو ويلسون بقدر ما أثّرت فيّ الناشطة الاجتماعية هارييت تابمان. كما أنّ النضالات التي خاضتها الناشطتان في مجال الحقوق المدنية روزا باركس وكوريتا سكوت كينغ كانت مألوفة بالنسبة إليّ أكثر من نضالات إليانور روزفلت أو مامي أيزنهاور. كنت أحمل معي قصص أولئك النساء كما أحمل قصص أمّي وجدّاتي، اللواتي ما كانت أيّ منهنّ لتتخيّل حياة كالتي أعيشها الآن، لكنّهنّ آمنّ بأنّ مثابرتهنّ ستؤدّي في النهاية إلى شيء أفضل لشخص مثلي. ورغبتُ في أن أظهر للعالم بصورةٍ تكون بمثابة تكريم لنضالهنّ وتاريخهنّ.

جعلت من ذلك الهدف تحدّيًا لذاتي، ودافعًا لئلّا أفشل. وبرغم الظنّ السائد بأنّني سيّدة أولى تتمتّع بالشعبيّة، لم يفارقني هاجس النقد الذي تعرّضتُ إليه، أو الأشخاص الذين بنوا افتراضاتهم بشأني على لون بشرتي. لهذه الغاية كنت أتمرّن مرارًا وتكرارًا على خطاباتي مستخدمة قارئًا إلكترونيًّا موضوعًا في إحدى زوايا مكتبي. وضغطت على مبرمجي مواعيدي ومنظّمي ظهوري الإعلاميّ للحرص على حسن سير كلّ مناسباتنا وإتمامها في الوقت المحدّد لها. كما ضغطت أكثر على مستشاريّ لمواصلة توسيع نطاق مبادرتَي «فلنتحرك!» و«توحيد القوى»، وركّزت على عدم تضييع أيّ من الفرص المتاحة لي، ولكن كان عليّ أحيانًا أن أذكّر نفسي بأن أتنفّس.

علمتُ وباراك أنّ أشهر الحملة الانتخابيّة المقبلة ستعني مزيدًا من السفر، والتخطيط الاستراتيجيّ، والقلق. كان من المستحيل ألّا تقلقنا مسألة الترشّح لولاية ثانية، فالكلفة باهظة، وعلى كلٍّ من باراك وميت رومني، حاكم ماساتشوستس السابق ومرشّح الحزب الجمهوريّ، أن يجمع أكثر من مليار دولار لإبقاء حملته على مستوى التنافس المطلوب. كما أنّ المسؤوليّة كانت ضخمة. تلك الانتخابات ستحسم كلّ شيء، بدءًا من مصير قانون الرعاية

الصحية الجديد وصولًا إلى مشاركة أميركا في المجهود العالميّ لمحاربة التغيّر المناخيّ. كان كلّ العاملين في البيت الأبيض يعيشون في المجهول، فلا أحد يعلم ما إذا كنّا سنفوز بولاية ثانية. حاولت ألّا أفكّر حتّى في احتمال خسارة باراك الانتخابات، لكنّ ذلك الاحتمال كان واردًا. كان كلانا، باراك وأنا، يحتفظ في داخله بشيء من الخوف، دون أن يجرؤ أيّ منا على البوح به.

كان صيف 2011 على وجه الخصوص مصدر متاعب كثيرة لباراك. فقد رفض عدد من أعضاء الكونغرس الجمهوريّين المتصلّبين السماح بإصدار سندات خزانة جديدة، وهي عمليّة روتينيّة تُعرف برفع سقف الدين، ما لم يبادر إلى تخفيض مؤلم لتمويل عدّة برامج حكوميّة مثل الضمان الاجتماعيّ، و Medicaid، و Medicare. لكنّ باراك اعترض على تلك التخفيضات لأنها ستُلحق ضررًا بالشريحة الأكثر فقرًا ومعاناة. في هذا الوقت، كانت تقارير الوظائف الشهريّة التي تنشرها وزارة العمل تُظهر نموًّا ثابتًا ولكن بطيئًا، ما يعني أنّ الأمّة لم تنهض تمامًا بعد من أزمة 2008. وكان الكثيرون يلقون باللوم على باراك. صحيح أنّ الشعور الوطنيّ بالارتياح إثر موت أسامة بن لادن أدّى إلى ارتفاع نسبة التأييد الشعبيّ له بشكل كبير لتبلغ أعلى مستوى لها منذ عامين، ولكن بعد أشهر قليلة، وإثر الخلاف السياسيّ حول رفع سقف الدين والقلق من تعرّض البلاد لركود اقتصاديّ جديد، تدهورت نسبة تأييده لتبلغ أدنى مستوياتها على الإطلاق.

في بداية ذلك الصيف الحافل بالمصاعب، سافرتُ إلى جنوب أفريقيا في زيارة ودّية كان مخطّطًا لها قبل أشهر. ولمّا كانت سنة ساشا وماليا المدرسيّة قد انتهت، فقد رافقتاني بتلك الزيارة مع أمّي وولدَي كريغ المراهقين لسلي وأيفري. كان هدف رحلتي أن ألقي خطابًا رئيسيًّا في منتدى يُقام برعاية الولايات المتّحدة ومخصّص للقياديّات الشابّات في القارّة الأفريقية. لكنّ البرنامج تضمّن كذلك محطّات مختلفة مرتبطة بالتعليم والسلامة الصحيّة والعقليّة، وزيارات أقوم بها مع الزعماء المحلّيين وموظّفي القنصليّة الأميركيّة، ثمّ نعرّج على بوتسوانا للقاء رئيسها ونتوقّف

في عيادة لمعالجة المصابين بفيروس الإيدز، وفي النهاية نذهب لنتمتّع برحلة سافاري سريعة قبل العودة إلى الوطن.

سرعان ما شعرنا بأنّ الطاقة التي تنبض بها دولة جنوب أفريقيا قد اجتاحتنا. ففي جوهانسبورغ قمنا بجولة على متحف التمييز العنصريّ، ورقصنا، وقرأنا كتبًا مع الأطفال في مركز بلديّ تابع لإحدى بلدات السود شمال المدينة. وفي ملعب لكرة القدم في كايب تاون، التقينا بمنظّمي مشاريع اجتماعيّة محليّة وعاملين في المجال الصحي يستخدمون برامج الرياضة الشبابيّة لتوعية الأولاد حول موضوع فيروس نقص المناعة والإيدز. كما تعرّفنا بالأسقف ديسموند توتو، اللاهوتيّ والناشط الشهير الذي ساهم في القضاء على نظام التمييز العنصريّ في جنوب أفريقيا. توتو الذي بلغ آنذاك عامه التاسع والسبعين، كان رجلًا عريض الصدر ذا عينين برّاقتين وضحكة مجلجلة. حين سمع أنّني ذهبت إلى الملعب للتشجيع على اللياقة البدنيّة، أصرّ على أن يقوم بنفسه ببعض الحركات الرياضية معي أمام حشد من الأطفال الذين كانوا يهتفون بفرح.

خلال تلك الأيّام القليلة في جنوب أفريقيا، شعرت بنفسي وكأنني أعوم. فهذه الزيارة اختلفت عن رحلتي الأولى إلى كينيا، في العام 1991، حين ركبت وباراك حافلات الماتاتو، وقمت بدفع سيّارة أوما المتعطّلة فوق طريق ترابيّ. لعلّي كنت أشعر بتأثير فارق الوقت الناتج عن السفر، لكنّ مشاعر أعمق وأكثر إثارة للبهجة كانت تملأ كياني. شعرتُ وكأنّنا وصلنا إلى حيث يتقاطع تيّارا الثقافة والتاريخ، وتذكّرت فجأة ضآلتنا قياسًا على الزمن الأكبر. وحين رأيت وجوه الشابّات الستّ والسبعين اللواتي تمّ اختيارهنّ للمشاركة في المنتدى بسبب الإنجازات الكبيرة التي حققنها في مجتمعاتهنّ، حبست دموعي. أولئك النساء منحنني الأمل، وجعلنني أشعر بأنّني عجوز بالمعنى الإيجابيّ للكلمة. كان 60% من سكّان أفريقيا آنذاك دون سنّ الخامسة والعشرين. أولئك النساء كنّ كلّهنّ دون الثلاثين من عمرهنّ – وبعضهنّ لم تتجاوز السادسة عشرة – وهنّ يؤسّسن جمعيّات مدنيّة لا

تتوخّى الربح، ويدرّبن النسوة الأخريات على إطلاق المشاريع، ومستعدّات للتبليغ عن الفساد الحكوميّ ولو كلّفهنّ ذلك السجن. وها هنّ الآن يحظين بفرصة التعرّف بشخصيّات مرموقة، وبالتشجيع والتدريب. رجوت أن يضاعف هذا الأمر من قوّتهنّ.

إلّا أنّ اللحظة الأكثر سورياليّة حلّت بسرعة، في اليوم الثاني من رحلتنا. ذهبتُ وعائلتي لزيارة مقرّ مؤسسة نلسون مانديلا في جوهانسبورغ، ورافقتنا غراسا ماشيل، زوجة مانديلا والناشطة الإنسانيّة المشهورة. ثمّ قيل لنا إنّ مانديلا نفسه سيسرّه أن يلتقينا في منزله القريب من هناك.

وفي الحال طبعًا مضينا لزيارته. كان نلسون مانديلا في الثانية والتسعين من عمره آنذاك، وقد عولج في المستشفى بوقت سابق من ذلك العام بسبب مشاكل في الرئتين. قيل لي إنّه نادرًا ما يستقبل زوّارًا. كان باراك عضوًا في مجلس الشيوخ حين التقى مانديلا قبل ستّ سنوات، أثناء زيارة هذا الأخير إلى واشنطن، ومنذ ذلك الحين لا يزال يحتفظ بصورتهما معًا على جدار مكتبه. حتّى ساشا ابنة العشر سنوات، وماليا ابنة الثلاثة عشر عامًا، أدركتا عظمة ذلك اللقاء. كما أنّ أمّي، المرأة المشهورة بعدم مبالاتها، بدا عليها بعض الذهول.

من بين من كانوا على قيد الحياة آنذاك، لم أعرف أحدًا ترك في العالم التأثير الذي تركه نلسون مانديلا، أقلّه بالنسبة إليّ. في أربعينيّات القرن الماضي، انضمّ مانديلا الشابّ إلى المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ، وتحدّى بجرأة حكومة جنوب أفريقيا المؤلّفة من البيض، وسياساتها العنصريّة الراسخة. وفي عامه الرابع والأربعين، اعتُقل وزُجّ به في السجن بسبب نشاطه السياسيّ، ولم يخرج منه إلّا حين بلغ عامه الحادي والسبعين، وذلك سنة 1990. تمكّن من البقاء حيًّا برغم سبعة وعشرين عامًا من الحرمان والعزلة بداخل السجن، والتعذيب والقتل الذي تعرّض له العديد من أصدقائه في ظلّ نظام التمييز العنصريّ. وقد نجح مانديلا في أن يفاوض – لا أن يحارب – القادة الحكوميّين، واستطاع تحقيق معجزة الانتقال السلميّ إلى ديمقراطيّة حقيقيّة في جنوب

أفريقيا، ليصبح في النهاية الرئيس الأوّل لتلك الدولة.
كان مانديلا يقيم في شارع تملأه الأشجار الوارفة بإحدى الضواحي في منزل مبنيّ بالأسلوب المتوسّطيّ ومحاط بجدران إسمنتيّة رملية اللون. قادتنا غراسا ماشيل إلى المنزل عبر باحة تظلّلها الأشجار، وهناك كان زوجها جالسًا في كرسيّ بداخل غرفة فسيحة تضيئها الشمس. كان شعره أشيب وخفيفًا، وارتدى قميصًا بنيًّا من قماش الباتيك، وقد وضع أحدهم فوق ساقيه غطاء أبيض. أحاط به أنسباء من أجيال عدّة، رحّبوا بنا بحماسة. كان في الضوء الذي غمر الغرفة، وفي طلاقة لسان أفراد العائلة، وابتسامة شيخ العائلة العجوز شيء ما ذكّرني بزياراتي إلى منزل جدّي في الجانب الجنوبيّ لشيكاغو حين كنت طفلة. وشعرت بالارتياح بعد التوتّر الذي انتابني قبل الزيارة.
الحقيقة أنّني لست متأكّدة ممّا إذا كان مانديلا قد أدرك تمامًا مَن نحن أو سبب قدومنا. فآنذاك كان طاعنًا جدًّا في السنّ، وبدا أنّ انتباهه مشتّت، وضعف سمعه. اقتربت غراسا ماشيل من أذنه وقالت له: «هذه ميشيل أوباما، زوجة الرئيس الأميركيّ».
«هذا جميل»، تمتم نلسون مانديلا، «جميل».
نظر إليّ باهتمام حقيقيّ، لكنّني لا أستطيع الجزم بأنّه عرف مَن أكون. بدا واضحًا أنّه يخصّص القدر عينه من الدفء لكلّ امرئ يمرّ به. كان تفاعلي مع مانديلا هادئًا وعميقًا. بل لعلّه كان أكثر عمقًا بسبب هدوئه. فهذا الرجل قد قال معظم ما لديه خلال حياة النضال التي عاشها، كما انطبعت خطاباته ورسائله وكتبه وشعاراته الاحتجاجيّة في قصّة حياته، لا بل في الإنسانيّة بأكملها. شعرت بذلك كلّه في الوقت الوجيز الذي أمضيته معه، كما شعرت بوقار الرجل وقوّة فكره الذي نجح في انتزاع الحق بالمساواة من مكان كانت المساواة غريبة عنه تمامًا.
لم يفارق مانديلا تفكيري حتّى بعد خمسة أيّام من عودتنا إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة برحلة حلّقت فيها الطائرة شمالًا ثمّ غربًا فوق أفريقيا، لتعبر بعد ذلك سماء المحيط الأطلسيّ في ليلة مظلمة. رقدت ساشا وماليا بقرب أنسبائهما تحت الأغطية،

وغفت أمّي في مقعد قريب. وفي مؤخر الطائرة، وسط هدير المحرّكات، كان الموظفون وأفراد جهاز الحماية يشاهدون أفلامًا أو يعوّضون عمّا فاتهم من نوم. أمّا أنا فقد شعرت بأنّني وحيدة وغير وحيدة في الوقت عينه. كنّا نعود إلى ديارنا، وأعني بديارنا واشنطن، تلك المدينة الغريبة-المألوفة، برخام مبانيها الأبيض وإيديولوجياتها المتصادمة، حيث تنتظرنا معارك لنخوضها وننتصر بها. فكّرت في النساء الأفريقيات الشابّات اللواتي التقيتهنّ في منتدى القياديّات، واللواتي كنّ بتلك اللحظة في طريق العودة إلى ديارهنّ لاستئناف أعمالهنّ، والمثابرة برغم كلّ العواصف التي يجابهنها.

دخل مانديلا السجن من أجل مبادئه، ولم يسعه أن يرى أبناءه يكبرون، ولاحقًا لم يستطع أيضًا أن يرى العديد من أحفاده يكبرون. برغم ذلك كلّه لم يشعر بالمرارة، وظلّ على إيمانه الراسخ بأنّ طيبة بلده لا بدّ من أن تنتصر يومًا ما. فقد عمل وانتظر بصبر تحقيق ذلك، متسلّحًا بالتسامح وبعزيمة لا تعرف الوهن.

عدت إلى دياري مدفوعة بتلك الروح. كانت الحياة تعلّمني أنّ التطوّر والتغيير يحدثان ببطء، لا في عامين أو أربعة أو حياة بكاملها. كنّا نزرع بزور التغيير، وقد لا نرى ثمارها أبدًا. كان علينا أن نتحلّى بالصبر.

خلال خريف العام 2011، قدّم باراك ثلاثة اقتراحات قوانين تؤدّي في حال إقرارها إلى خلق آلاف الوظائف للأميركيين، وتقوم على تقديم الأموال إلى الولايات لتوظيف مزيد من الأساتذة وأفراد فرق الاستجابة السريعة. لكنّ الجمهوريّين وقفوا في وجه تلك الاقتراحات ثلاث مرّات وحالوا حتّى دون طرحها على التصويت.

قبل عام من ذلك التاريخ أدلى ميتش ماك كونيل، زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ، بتصريح لأحد المراسلين، عارضًا فيه أهداف حزبه، فقال: «الأمر الوحيد والأهمّ الذي نريد تحقيقه هو ألّا يتمكّن الرئيس أوباما من الفوز بولاية ثانية». كان الأمر بسيطًا وواضحًا جدًّا. فقد كرّس الكونغرس الجمهوري جهوده كلّها لإفشال باراك. وبدا واضحًا أنّهم لا يولون مصلحة بلدنا ولا حاجة الناس إلى

الوظائف الأولوية المطلوبة. فقد كانوا أكثر اهتمامًا بسلطتهم.
وجدت ذلك الأمر محبطًا ومثيرًا للسخط، بل لليأس أحيانًا. إنّها السياسة، نعم، ولكن في وجهها الأشدّ نكدًا واستهتارًا، والبعيد كلّ البعد عن أيّ هدف سامٍ. شعرت بانفعالات ربّما لم يكن باراك يستطيع السماح لنفسه بالشعور بها. فهو أبقى على نفسه أسير عمله، ولم يدع الخوف يتسلّل إليه، وتجاوز المطبّات وقام بالمساومات حيث يستطيع، متشبّثًا بصفاء ذهنه وباقتناعه بأنّه لا بدّ من القيام بما يقوم به، وبالتفاؤل الذي لطالما ألهمه. حتى بعد خمسة عشر عامًا أمضاها في خوض غمار السياسة، ظللتُ أشبّهه بالقدر النحاسية القديمة التي لا تفقد بريقها برغم النار التي تلهبها كلّ يوم والضربات التي تتعرّض لها.
كانت عودتي وباراك إلى الحملة الانتخابية في خريف العام 20 بمثابة فرصة نجاة لنا. فقد خرجنا من واشنطن إلى مدن الوطن وبلداته، إلى أماكن مثل ريتشموند ورينو، حيث يمكننا أن نعانق مناصرينا ونصافحهم، ونصغي إلى أفكارهم ومشاغلهم. كانت تلك فرصة للشعور بالطاقة الكامنة لدى قواعدنا والتي كانت محورية دائمًا في رؤية باراك للديمقراطية، ولنتذكّر أنّ معظم المواطنين الأميركيّين أقلّ استهتارًا بكثير من قادتهم المنتخبين. كنّا نريد منهم أن يخرجوا من منازلهم ويصوّتوا. شعرت بخيبة أمل في الانتخابات النصفية للعام 2010 لأنّ الملايين تقاعسوا عن التصويت، فتركوا باراك يواجه كونغرس مقسومًا يكاد لا يستطيع إقرار قانون.
برغم التحدّيات، كان هناك الكثير ممّا يدعو للأمل. بنهاية العام 2، غادر آخر الجنود الأميركيين العراق، وبدأ انسحاب الجنود تدريجيًّا من أفغانستان. كما دخلت أحكام أساسية في قانون الرعاية الصحية حيّز التطبيق، كإطالة فترة استفادة الأبناء من عقود التأمين الخاصة بذويهم، ومنع شركات التأمين من وضع سقف إجماليّ لتغطية المريض في فترة حياته. ذكّرت نفسي بأنّنا نسير قُدُمًا على طريق تأمين رعاية صحّية حقيقيّة.
برغم تآمر حزب سياسيّ بكامله لإفشال باراك، لم نملك سوى

خيار البقاء على إيجابيّتنا ومتابعة الطريق. كان الأمر شبيهًا بسؤال تلك المرأة لماليا في المدرسة عمّا إذا كانت تخاف على حياتها في تمارين التنس. ماذا يمكننا عمله سوى الخروج ومواصلة اللعب؟

وهكذا ركّزنا على العمل، وانكببت على مبادراتي. وتحت شعار «فلنتحرك!»، واصلنا تحقيق النتائج الممتازة. فقد تمكّنت وفريقي من إقناع Darden Restaurants، الشركة الأمّ لعدّة سلاسل مطاعم مثل Olive Garden و Red Lobster، بإحداث تغييرات في أنواع الطعام الذي تقدّمه وفي كيفيّة إعداده. تعهّدت لنا الشركة بتغيير لوائح طعامها، وخفض عدد السعرات الحرارية، وتقليل الصوديوم، وتقديم خيارات صحّية أكثر في وجبات طعام الأطفال. كان خطابنا يتوجّه إلى ضمائر مديري الشركة كما إلى هاجس أرقام المبيعات الذي يسكنهم، فأقنعناهم بأنّ ثقافة الشراهة في أميركا تتغيّر، وبأنّ منطق الأعمال السليم يقضي بأن يستبقوا الهبوط في تلك الأرقام. كانت Darden تقدّم 400 مليون وجبة طعام إلى الأميركيين كلّ عام. وعلى هذا القياس فإنّ مجرد تغيير بسيط مثل إزالة الصور المغرية لأكواب الصودا المثلّجة من قوائم طعام الأطفال يمكنه أن يحدث فرقًا حقيقيًّا.

إنّ النفوذ الذي تتمتّع به السيدة الأولى لأمر غريب، وهو ناعم ومبهم مثل دورها، ومع ذلك كنت أتعلّم كيف أتحكّم به. لم تكن لديّ سلطة تنفيذية، ولا أقود جنودًا أو ألعب دورًا دبلوماسيًّا رسميًّا. كانت تقاليد دوري تقتضي منّي أن أكون ضوءًا لا يبهر الأنظار، وأن أحيط الرئيس بتفانٍ يعزّز موقعه، وأن أرفع من شأن الأمّة بعدم تحدّي مشاعرها. لكنّني بدأت أدرك أنّ لذلك الضوء قوّة أكبر إذا ما أحسنت استخدامه. كنت ذات نفوذ لمجرّد أنّني شكّلت حالة غريبة، فأنا سيّدة أولى سوداء، وامرأة عاملة، وأمًّا لطفلتين. بدا أنّ الناس يتعطّشون لمعرفة أخبار ملابسي وأحذيتي وتسريحات شعري. ولكن كان عليهم أيضًا أن يروني في السياق الذي أختاره لنفسي، وأن يعرفوا السبب. كنت أتعلّم كيف أربط بين صورتي والرسالة التي أريد أن أبعث بها، فأوجّه

أنظار الأميركيّين في الاتّجاه الذي أريد. كان بوسعي أن أرتدي لباسًا مثيرًا للاهتمام، أو ألقي دعابة، أو أتحدّث عن محتوى الصوديوم في طعام الأطفال من دون أن أثير الملل. كما كان بوسعي أن أثني علنًا على شركة توظّف الكثير من الجنود القدامى أو أفراد عائلاتهم، أو أنبطح لأتحدّى إيلين ديجينيريس في مباراة لياقة بدنية على الهواء (وأفوز بها، فأكسب حقًّا أبديًّا بأن أشمت بها) وذلك باسم مبادرة «فلنتحرك!».

كنت ابنة الجمهور، وتلك ميزة تُحسب لي. كان باراك يشير إليّ أحيانًا بلقب «الرأي العامّ»، ويسألني رأيي في شعارات الحملة الانتخابية واستراتيجياتها، علمًا أنّه كان يسرّني أن أبقى متجذّرة في الثقافة الشعبية. وبرغم مروري في مؤسسات راقية مثل برنستون و Sidley & Austin، وبرغم أنني بتّ أرتدي أحيانًا فساتين حفلات راقصة وأتحلّى بالماس، فلم أتوقّف قط عن قراءة مجلّة People، أو أتخلَّ عن حبّي لمشاهدة البرامج الكوميدية الجيّدة. كنت أشاهد برنامجَي Oprah و Ellen أكثر بكثير مما أشاهد برنامجَي Meet the Press أو Face the Nation. وحتى اليوم لا شيء يسعدني أكثر من النجاح الذي تحقّقه برامج ترميم المنازل وتجديد ديكورها.

أذكر هذا كلّه لأقول إنّني رأيت طرقًا للتواصل مع الأميركيين لم يقدّرها باراك ومستشاروه في الجناح الغربيّ تقديرًا كاملًا، أقلّه في المرحلة الأولى. وبدلًا من إجراء مقابلات مع الجرائد الكبرى أو محطّات الكابل التلفزيونية، بدأت أجتمع بالأمّهات صاحبات المدوّنات الإلكترونية، اللواتي كنّ يصلن إلى جمهور نسائي ضخم وشديد الاهتمام بكتاباتهنّ. لفتتني تفاعل مساعداتي الشابّات مع هواتفهنّ، وإقبال ماليا وساشا على تلقّي الأخبار والدردشة مع صديقاتهنّ في الثانوية عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، وأدركت أنّ ثمّة فرصة للاستفادة من ذلك. كتبت تغريدتي الأولى على تويتر في خريف العام 2011 للترويج لبرنامج «توحيد القوى»، ثمّ شاهدتها تنطلق عبر الأثير الغريب الذي لا حدود له حيث بات الناس يمضون وقتًا أطول فأطول.

كان ذلك بمثابة حقيقة أكتشفها. كلّ ذلك كان بمثابة حقيقة. من خلال قوّتي الناعمة كنت أكتشف أنّ بوسعي أن أكون قويّة.

ما دام المراسلون وكاميرات التلفزة يريدون اللحاق بي، فلأمضِ بهم إلى حيث أريد. كان بوسعهم القدوم لمشاهدتي وجيل بايدن ندهن جدارًا، مثلًا، في أحد المنازل العاديّة في الجزء الشماليّ الغربيّ من واشنطن. لم يكن في صورة سيّدتين تحملان عدّة الدهان أيّ أمر مثير للاهتمام، لكنّها كانت بمثابة طعم.

تلك الصورة قادت الجميع إلى منزل الرقيب جوني أغبي، الذي كان في عامه الخامس والعشرين ويعمل مسعفًا في أفغانستان حين تعرّضت المروحيّة التي تنقله إلى هجوم، فتحطّم عموده الفقريّ وتعرّض دماغه للإصابة، وكان بحاجة إلى فترة إعادة تأهيل طويلة في مركز Walter Reed. أُعيد تجهيز الطابق الأول في منزله للتكيّف مع كرسيّه المتحرّك، وتمّ توسيع باب المنزل وخفض مستوى حوض المطبخ. وكان ذلك جزءًا من جهد مشترك بين جمعية لا تتوخى الربح تدعى Rebuilding Together والشركة المالكة لـ Sears and Kmart. ذلك المنزل كان يحمل الرقم ألف بين المنازل التي تمّ تجديدها لأجل قدامى المحاربين الذين كانوا بحاجة إلى المساعدة. صوّرت الكاميرات كلّ شيء: الجنديّ ومنزله وإرادتنا الحسنة والجهود التي بُذلت. وأجرى المراسلون مقابلات معي كما مع جيل والرقيب أغبي والأشخاص الذين قاموا بالعمل الحقيقيّ. بالنسبة إليّ، هذا ما كان يجب أن يحدث. وإلى هناك يجب أن تتوجّه الأنظار.

في يوم الانتخاب، أي في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، لازمتني مخاوفي بصمت. كنت وباراك وابنتينا قد عدنا إلى منزلنا في شارع غرينوود في شيكاغو، نعاني عذاب انتظار قرار أمّة بكاملها بأن تقبلنا أو ترفضنا. كان هذا الانتخاب بالنسبة إليّ مشحونًا بالانفعالات أكثر من أيّ شيء آخر مررنا به. شعرت بأنّه استفتاء لا فقط على أداء باراك السياسيّ وحال البلاد، بل أيضًا على شخصيّته، وعلى حضورنا في البيت الأبيض. كانت ابنتانا قد أوجدتا لنفسهما محيطًا قويًّا من الأصدقاء، وشعورًا بأنّهما في

وضع طبيعيّ لم أكن مستعدّة آنذاك لإنهائه. آنذاك كنت قد انغمست كثيرًا، وتخلّيت عن أربعة أعوام من حياتنا العائلية لدرجة أنّه بات مستحيلًا ألّا أنظر إلى كلّ شيء نظرة شخصية.

كانت الحملة قد أنهكتنا، ربّما أكثر حتّى ممّا توقّعته. وفيما واصلت اهتمامي بمبادراتي وحضور لقاءات الأهالي بالأساتذة والإشراف على واجبات الفتاتين المنزلية، كنت أيضًا ألقي خطبًا في تجمّعات الحملة بمعدّل ثلاث مدن في اليوم الواحد، مدّة ثلاثة أيّام في الأسبوع. وكانت وتيرة عمل باراك أشدّ إنهاكًا. كانت استطلاعات الرأي تشير إلى تقدّمه على ميت رومني بفارق بسيط جدًّا. وما زاد الأمور سوءًا أنّه تعرّض لنقد لاذع في مناظرتهما الأولى في تشرين الأول/أكتوبر، ما أحدث موجة من القلق اجتاحت المتبرّعين والمستشارين في ربع الساعة الأخير. كان بوسعنا أن نقرأ علامات الإرهاق على وجوه أفراد فريق عملنا. وبرغم حرصهم على إخفاء مشاعرهم، إلّا أنّهم كانوا قلقين بلا شكّ من احتمال خسارة باراك ومغادرته البيت الأبيض خلال أشهر قليلة.

حافظ باراك على هدوئه طوال الحملة، لكنّ آثار الضغط النفسي بدت واضحة لي. ففي الأسابيع الأخيرة بدأ الشحوب يظهر على وجهه، حتّى أنّه بدا أكثر نحولًا من المألوف، وراح يمضغ علكة Nicorette بتوتر غير مألوف. راقبته بقلق الزوجة وهو يحاول القيام بكلّ شيء، فيهدّئ من روع المحاربين، ويصل بالحملة إلى خواتيمها، ويقود البلاد في الوقت عينه، بما في ذلك الردّ على هجوم إرهابيّ استهدف دبلوماسيّين أميركيّين في بنغازي، ليبيا، ويدير جهودًا فدراليّة جبّارة لمعالجة آثار إعصار ساندي الذي دمّر الساحل الشرقيّ للبلاد قبل أسبوع من موعد الانتخابات.

مع إقفال صناديق الاقتراع في الساحل الشرقيّ ذلك المساء، صعدتُ إلى الطابق الثالث من منزلنا، حيث كنّا قد أعددنا صالونًا لتصفيف الشعر والماكياج استعدادًا لظهورنا العلنيّ أمام الحشود ليلتذاك. كانت ميريديث قد انتهت من كيّ ملابس لي ولأمّي ولابنتينا وتجهيزها. واهتمّ جوني وكارل بشعري وماكياجي. من

جهته حافظ باراك على تقاليده وذهب في وقت سابق من اليوم للعب كرة السلّة، ثمّ عاد ليستقرّ في مكتبه وينهي وضع اللمسات الأخيرة على كلمته.

كان لدينا تلفزيون في الطابق الثالث، لكنّني تعمّدت إطفاءه. فقد أردت أن أسمع الأخبار سواء أكانت جيّدة أو سيّئة مباشرة من باراك أو من ميليسا، أو من شخص آخر مقرّب منّي. فجلبة معلّقي الأخبار وخرائطهم الانتخابية التفاعلية كانت تثير توتّري دائمًا. لم أرد معرفة التفاصيل، أردت فقط معرفة ما يجب أن أشعر به.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء بالتوقيت الشرقيّ، أي أن النتائج الأولى لا بدّ من أن تبدأ بالظهور. أخذت هاتفي وبعثت برسائل إلكترونية إلى فاليري وميليسا وتينا تشين، التي أصبحت، في العام 2011، الرئيسة الجديدة لفريق عملي، وسألتهنّ عمّا يعرفنه.

انتظرت خمس عشرة دقيقة، ثمّ ثلاثين، لكنّني لم أتلقّ أيّ إجابة. خيّم صمت غريب على الغرفة حولي. جلست والدتي في المطبخ في الأسفل تقرأ مجلّة، وكانت ميريديث تهيّئ ابنتيّ للمساء، وقام جوني بكيّ شعري. هل ساورني آنذاك شعور الارتياب أم أنّ البعض كانوا يتجنّبون النظر مباشرة في عينيّ؟ هل كانوا يعرفون شيئًا لا أعرفه؟

مع تقدّم الوقت، بدأ قلبي يخفق بقوّة. وشعرت بأنّني أفقد توازني الداخليّ. لم أجرؤ على تشغيل التلفزيون للاستماع إلى الأخبار، فقد افترضت فجأة بأنّها سيّئة. آنذاك كنت قد اعتدت مقاومة الأفكار السلبية، والتمسّك بالأفكار الجيّدة حتّى لا يعود أمامي مهرب من مواجهة الخبر السيئ. كنت أخبّئ ثقتي في قلعة صغيرة في أعلى هضبة بداخل قلبي. ولكن مع كلّ دقيقة ظلّ فيها هاتفي صامتًا، كنت أشعر بأنّ أسوار القلعة تسقط وبأنّ الشكوك تتسلّل إليها. لعلّنا لم نبذل الجهد الكافي. لعلّنا لا نستحقّ ولاية رئاسيّة ثانية. وبدأت يداي ترتعشان.

كنت على وشك أن أفقد الوعي قلقًا حين صعد باراك الدرج جريًا

وعلى وجهه تعبير الثقة المعهود لديه. كان واضحًا أنّه تخلّص من الشعور بالقلق. «نحن نتقدّم»، قال لي وهو يبدو مدهوشًا من أنّني لم أكن أعلم. وأضاف: «مبدئيًّا، لقد فزنا».

تبيّن لي أنّ الفرح كان سائدًا منذ البداية في الطابق الأسفل، حيث كان التلفزيون يواصل نقل الأخبار الجيّدة. كانت المشكلة أنّ خدمة هاتفي الـ BlackBerry قد تعطّلت، فلم تخرج رسائلي ولا تلقّيت رسائل من الآخرين. لقد سمحت لنفسي بأن أقع في شرك وساوسي. لكن لم يعلم أحد أنّني كنت فريسة القلق، ولا حتى من كانوا في الغرفة معي.

ليلتذاك انتصر باراك في كلّ الولايات التي دارت فيها معركة انتخابية، باستثناء ولاية واحدة. فاز في أوساط الشبّان والأقلّيات والنساء، كما في العام 2008. برغم كلّ ما فعله الجمهوريّون لإحباطه، برغم المحاولات العديدة لوضع العراقيل في طريق رئاسته، إلّا أنّ رؤيته انتصرت. لقد طلبنا إذنًا من الأميركيّين بمواصلة العمل – ولننهي مهمّتنا نهاية الأقوياء – فمنحونا الإذن. شعرت بالارتياح في الحال. هل نحن قادرون؟ نعم، قادرون.

في ساعة متأخّرة من ذلك المساء، اتّصل ميت رومني بنا للإقرار بالهزيمة. ومرّة جديدة، وقفنا بكامل أناقتنا على خشبة مسرح، نلوّح للحشود. أربعة أشخاص من عائلة أوباما، وسط الكثير من نثار الورق المتطاير وسط الهتافات، مسرورون بولاية رئاسية جديدة مدّتها أربع سنوات.

منحتني إعادة انتخاب باراك يقينًا مكّنني من الثبات. فقد بات لدينا مزيد من الوقت لتوسيع آفاق أهدافنا. ويمكننا أن نتحلّى بالصبر أكثر في اندفاعتنا لتحقيق التقدّم. بتنا نمتلك حسًّا بالمستقبل، وهو ما أسعدني. بوسعنا أن نبقي ساشا وماليا في مدرستهما، وبوسع موظّفي فريق عملنا أن يحافظوا على وظائفهم، ولا تزال أفكارنا موضع اهتمام. وحين تنقضي السنوات الأربع المقبلة نكون قد بلغنا النهاية الحقيقيّة، وهو ما غمرني بالسعادة المطلقة. فقد انتهينا من الحملات الانتخابيّة، والاجتماعات المضنية لوضع الاستراتيجيات، واستطلاعات الرأي،

والمناظرات، ونسب التأييد. كلّ ذلك قد مضى إلى غير رجعة، ولاحت أمام بصرنا نهاية حياتنا السياسيّة.

الحقيقة هي أنّ المستقبل سيأتي حاملًا معه مفاجآته الخاصّة، مفاجآت بعضها سارّ، وبعضها مأساويّ بدرجة لا توصف. أربع سنوات أخرى في البيت الأبيض كانت تعني أربع سنوات أخرى من ممارسة دورنا كرموز، واستيعاب كلّ ما يواجهه بلدنا والاستجابة له. بنينا، باراك وأنا، حملتنا على فكرة أنّنا لا نزال نملك الطاقة والانضباط اللازمين لهذا النوع من العمل، وأنّنا نتحلّى بالشجاعة للقيام به. وها هو المستقبل يسير الآن في اتّجاهنا، ربّما بسرعة أكبر ممّا عرفناه.

بعد خمسة أسابيع، دخل مسلّح إلى مدرسة Sandy Hook الابتدائية في نيوتاون، كونكتيكت، وبدأ بإطلاق النار على الأطفال. كنت قد انتهيت من إلقاء خطاب قصير في مبنى مقابل للبيت الأبيض، وأستعدّ لزيارة مستشفى للأطفال، حين انتحت بي تينا جانبًا لتخبرني ما حدث. في خلال إلقائي كلمتي بدأت عناوين الأخبار ترد إلى هاتفها وهواتف أفراد الفريق الآخرين، فمكثوا هناك يكتمون مشاعرهم في انتظار أن أنتهي.

كانت الأخبار التي نقلتها إليّ تينا مرعبة لدرجة أنّني عجزت عن فهم ما تقوله لي. ثمّ أخبرتني أنّها اتصلت بالجناح الغربيّ وأنّ باراك كان في المكتب البيضويّ، وأضافت: «هو يطلب منك أن تأتي في الحال».

كان زوجي بحاجة إليّ. للمرّة الأولى منذ ثماني سنوات يطلب قدومي في منتصف يوم عمل، فيعيد كلانا ترتيب برنامج أعماله ليختلي بالآخر لبرهة يستمدّ خلالها منه شيئًا من الشعور بالارتياح. في العادة، كان العمل يعني العمل والمنزل يعني المنزل. ولكن بالنسبة إلينا، كما بالنسبة إلى الكثيرين فإنّ المأساة التي وقعت في نيوتاون كانت زلزالًا مدمّرًا. حين دخلت المكتب البيضويّ، عانقت باراك بصمت. لم يكن هناك ما نقوله. لقد خانتنا الكلمات.

ما لا يعرفه الكثيرون هو أنّ الرئيس يرى كلّ شيء تقريبًا، أو

على الأقلّ يستطيع الوصول إلى أيّ معلومة متوفّرة تتعلق بسلامة البلد وأمنه. وكان باراك، الرجل المتلهّف للوقائع، يطالب دائمًا بمزيد من المعلومات، ويحاول الإحاطة بأيّ وضع يستجدّ من كلّ جوانبه، حتى السيّئ منها، لكي يكون ردّه مبنيًّا على معرفة دقيقة. كان يعتبر أنّ جزءًا من مسؤوليته، وما انتُخب لكي يقوم به، هو النظر إلى المشكلة لا النظر بعيدًا عنها، والمحافظة على رباطة جأشه حين نكون كلّنا على وشك الانهيار.

حين دخلت مكتبه كان قد تلقّى تقارير مفصّلة حول الجريمة البشعة التي وقعت في Sandy Hook، ووصلته المعلومات حول الدماء التي غطّت أرضيات الصفوف، وجثث طلّاب الأول ابتدائي العشرين والمدرّسات الستّ، التي مزّقتها رصاصات بندقية نصف أوتوماتيكيّة. كان شعوره العميق بالصدمة والحزن لا يقارَن بشعور أفراد فرق الاستجابة السريعة الذين هرعوا لتأمين المبنى وإجلاء الناجين من المجزرة، أو بعذاب الأهالي الذين انتظروا طويلًا في الصقيع خارج المبنى، ضارعين إلى الله لكي يروا وجه أبنائهم من جديد. ولا يُقاس طبعًا بالألم الهائل الذي كان يمزّق أحشاء أولئك الذين ذهب انتظارهم عبثًا.

ومع ذلك، فإنّ تلك الصور قد انطبعت بشكل نهائيّ في روحه. وشاهدتُ في عينيه كم حطّمتْه تلك الصور، وأيّ أثر تركتْه في إيمانه. كان قد بدأ يشرح لي ما حصل ثمّ توقّف، مدركًا أنّه من الأفضل أن يوفّر عليّ مزيدًا من الألم.

كان باراك مثلي يحب الأطفال حبًّا عميقًا وحقيقيًّا. فإلى جانب كونه والدًا حنونًا، كان يأتي بالأولاد إلى المكتب البيضويّ للزيارة دائمًا، ويطلب أن يحمل الأطفال، ويشرق وجهه كلّما أتيح له أن يزور معرضًا علميًّا مدرسيًّا أو مناسبة رياضيّة للصغار. وفي الشتاء السابق، تطوّع للعمل كمدرّبٍ مساعد لفريق كرة السلّة في مدرسة ساشا المتوسطة والمسمّى فريق Vipers، مضفيًا على حياته مصدرًا جديدًا للبهجة.

كان وجود باراك بقرب الأولاد يخفّف عن كاهله الكثير. وكان مثلنا جميعًا يعرف مقدار الوعود التي ضاعت بضياع تلك الأرواح الصغيرة

العشرين.

لعلّ المحافظة على تماسكه بعد حادثة نيوتاون كانت من أصعب ما قام به على الإطلاق. حين عادت ماليا وساشا إلى المنزل يومذاك، التقيتهما وباراك في مقرّ إقامتنا وعانقناهما بحرارة، محاولَين إخفاء حاجتنا الملحّة إلى مجرّد لمسهما. كان صعبًا أن نعرف ما نقوله أو ما لا نقوله لابنتينا حول حادثة إطلاق النار. وكنّا نعلم أنّ الآباء والأمّهات في كلّ أنحاء الوطن يواجهون المشكلة عينها.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عقد باراك مؤتمرًا صحفيًّا في البيت الأبيض، حاول فيه أن يجد كلمات تعزية يقولها. مسح الدموع عن عينيه في حين كانت الكاميرات مصوّبة كلّها عليه، وأدرك أنّ التعزية مستحيلة، وأنّ أفضل ما يمكنه عمله هو التعبير عن تصميمه – والذي يجب أن يشاركه فيه المواطنون والمشترعون في البلد كلّه كما كان يفترض – على الحؤول دون وقوع المزيد من المجازر وذلك من خلال إقرار قوانين صارمة في ما يتعلّق ببيع السلاح.

حين رأيته يتقدّم بشجاعة للقيام بما يمليه عليه الواجب، أدركت أنّي شخصيًّا لم أكن مستعدّة لذلك. غالبًا ما قدّمت العزاء للآخرين في السنوات الأربع التي قضيتها كسيّدة أولى. وصلّيت مع أشخاص دمّرت الأعاصير منازلهم في مدينة توسكالوسا، ألاباما، التي تحوّلت في لحظات إلى كومة من الركام. وطوّقت بذراعيّ رجالًا ونساء وأطفالًا خسروا أحبّاء لهم بسبب الحرب في أفغانستان، أو بسبب قيام أحد المتطرّفين بإطلاق النار على قاعدة عسكرية في تكساس، أو بسبب أعمال العنف في الشوارع القريبة من منازلهم. وفي الأشهر الأربعة السابقة، زرت ناجين من حادثَي إطلاق نار جماعي في قاعة سينما في كولورادو وبداخل معبد للسيخ في ويسكونسن. وفي كلّ مرّة كان الأمر يسبّب لي الكثير من الحزن. كنت أحاول دائمًا أن أتحلّى بالهدوء والتفهّم، وأجعل من اهتمامي وحضوري مصدر قوّة للآخرين، وأجلس بصمت بالقرب من الذين يتألمون. بعد يومين من

حادثة إطلاق النار في Sandy Hook، سافر باراك إلى نيوتاون ليتحدّث في لقاء صلاة أقيم لأجل الضحايا، لكنّني لم أستطع حمل نفسي على الانضمام إليه. فقد كان اضطرابي بسبب تلك الجريمة شديدًا لدرجة أنّني لم أجد في نفسي ما يستمدّ منه الآخرون قوّة. في السنوات الأربع التي انقضت منذ أن أصبحتُ السيّدة الأولى، وقع العديد من حوادث القتل، ومات الكثيرون ميتات عبثية كان يمكن تفاديها، فيما لم يتمّ عمل الكثير للحؤول دون ذلك. ولم أكن أعرف أيّ عزاء يمكنني تقديمه لامرأة قُتل ابنها البالغ من العمر ست سنوات في المدرسة.

عوضًا عن ذلك، تمسّكت بابنتيّ بمزيج من مشاعر الخوف والحبّ، شأني شأن الكثير من الأهالي. كنّا نقترب من عيد الميلاد، وكانت ساشا قد اختيرت وعددًا من أولاد واشنطن للانضمام إلى فرقة باليه موسكو والمشاركة بحفلتين من باليه «كسارة البندق»، تُعرضان في اليوم نفسه الذي يُقام فيه اللقاء من أجل ضحايا نيوتاون. نجح باراك في الجلوس في مقعد خلفيّ ومشاهدة التمرين الأخير قبل السفر إلى كونكتيكت. أمّا أنا فذهبت إلى الحفلة المسائية.

ككلّ مرّة تُقدَّم فيها «كسارة البندق» على خشبة، حملتنا تلك الحفلة إلى عالم من الخيال والجمال، إلى الغابة التي يضيئها القمر، والأمير الساحر، وجوقة الراقصات الجميلات. لعبت ساشا دور فأرة، مرتدية لباسًا أسود ضيّقًا أضيفت إليه أذنان زغبتان وذيل، وأدّت دورها فيما انسابت مزلجة مزيّنة فوق المسرح، تحت خيوط الثلج الاصطناعيّ المنهمر، على إيقاع موسيقى أوركسترالية خلّابة. لم تفارقها عيناي قطّ، وبكل كياني كنت أشعر بالامتنان لها. وقفتْ فوق المسرح بعينين تبرقان، وبدت في البداية وكأنّها لا تصدّق أين هي، أو كأنّها وجدت المشهد مذهلًا وغير حقيقيّ، وقد كان كذلك فعلًا. لكنّ صغر سنّها مكّنها من أن تستسلم بكلّيتها للدور، أقلّه في تلك اللحظات، فانسابت وسط تلك الجنّة حيث لا حوار يتبادله الممثلون، والجميع يرقصون، وحيث خيّم علينا الشعور بأنّ العيد يوشك على الوصول في كلّ

لحظة.

تحمّلني قليلًا أيّها القارئ، لأنّ ما سيأتي ليس بالضرورة أقلّ وطأة. كان الأمر ليختلف لو أنّ أميركا مكان بسيط وحكاياتها بسيطة، ولو أنّ بوسعي أن أتحدّث فقط عن الجوانب المستقرّة والجميلة فيها، وعن دوري في تحقيق ذلك، ولو أنّنا لم نضطرّ للعودة خطوات إلى الوراء مرّات عدّة، ولو أنّ كلّ الأحزان التي أصابتنا أدّت في نهاية المطاف إلى نتيجة إيجابيّة.

لكنّ أميركا ليست كذلك، وأنا لست كذلك. ولن أحاول تغيير الحقائق لأقدّم حكاية مثاليّة.

في نواح عدّة، كانت ولاية باراك الثانية أسهل بكثير من ولايته الأولى. فقد تعلّمنا الكثير في أربع سنوات، ووظّفنا للعمل معنا الشخص المناسب في المكان المناسب، ووضعنا أنظمة أثبتت نجاحها بشكل عامّ. فقد باتت لدينا الخبرة لتلافي التقصير والأخطاء الصغيرة التي وقعت في الولاية الأولى، وذلك بدءًا باحتفال التنصيب في كانون الثاني/يناير 2013، حين طلبت تزويد المنصة الرئاسية بنظام تدفئة لئلّا تتجمّد أقدامنا. وفي محاولة لتجنّب الإرهاق، لم نستضف إلّا حفلتين راقصتين فقط تلك الليلة، لا عشر حفلات كما فعلنا في العام 2009. كانت أمامنا أربعة أعوام، وقد تعلّمت الاسترخاء والعمل بوتيرة لا تصيبني بالإجهاد.

بعد تجديد العهد للأمّة، جلست بجانب باراك وشاهدت تدفّق العربات والفرق الموسيقيّة السائرة التي كانت تقدّم لوحات فنية بإيقاع سريع، وأنا أشعر بمتعة تفوق ما شعرت به في المرّة الأولى. بالكاد كان بوسعي أن أميّز من مقعدي وجوه المشاركين في العرض. كانوا آلافًا من الأشخاص ولكلّ منهم قصّته – أو قصّتها – الخاصّة. وكان آلاف الأشخاص الآخرين قد أتوا إلى العاصمة واشنطن ليؤدّوا فقرات فنية في مناسبات أقيمت خلال الأيام التي سبقت احتفال التنصيب، وتدفّق عشرات الآلاف لمشاهدتهم.

شعرتُ لاحقًا بأسف هائل لأنّني لم أستطع رؤية فتاة سوداء نحيلة كانت تضع حول رأسها عصبة ذهبيّة برّاقة، وترتدي لباسًا

أزرق، قدمت مع فرقة King College Prep الموسيقية من الجانب الجنوبي لشيكاغو للمشاركة في بعض الاحتفالات التي رافقت التنصيب. أردت أن أصدّق أنّ الفرصة كانت ستتاح لي لأراها وسط ذلك المدّ الكبير من البشر الذي تدفّق على المدينة في تلك الأيّام. إنّها هاديا بندلتون، فتاة يافعة في الخامسة عشرة من عمرها، تعيش لحظة عظيمة، وقد جاءت إلى واشنطن مع رفيقاتها في حافلة. كانت هاديا تعيش في شيكاغو مع والديها وشقيقها الصغير، في حيّ يبعد نحو ثلاثة كيلومترات من منزلنا في شارع غرينوود. كانت طالبة شرف في المدرسة، وتحبّ أن تقول للناس إنّها ترغب في ارتياد جامعة هارفرد ذات يوم. وبدأت تخطّط لحفلة عيدها السادس عشر، وكانت تحبّ الطعام الصينيّ والتشيزبرغر والذهاب مع أصدقائها لتناول المثلّجات.

عرفت ذلك كلّه عنها بعد عدّة أسابيع، في جنازتها. فبعد ثمانية أيّام من احتفال التنصيب، قُتلت هاديا بندلتون بالرصاص في حديقة عامّة في شيكاغو في مكان لا يبعد كثيرًا عن مدرستها. كانت تقف وعددًا من أصدقائها تحت خيمة معدنيّة بقرب أحد الملاعب في انتظار توقّف المطر، فأطلق عليهم أحد أفراد العصابات، ويبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وابلًا من الرصاص، ظنًّا منه أنهم أفراد عصابة أخرى. أصيبت هاديا في ظهرها وهي تفرّ محاولة الاحتماء. وأصيب اثنان من أصدقائها. حدث ذلك كلّه عند الساعة الثانية وعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم ثلاثاء.

تمنّيت لو أنني رأيتها حيّة، لو كانت لديّ ذكرى عنها أتشاطرها مع والدتها، بعدما انقطعت فجأة ذكريات ابنتها، الذكريات التي يجمعها المرء ويتعلّق بها.

ذهبت إلى جنازة هاديا لأنّني شعرت بأنّ هذا ما عليّ القيام بذلك. لم أرافق باراك إلى لقاء الصلاة من أجل ضحايا نيوتاون، لكنّ الوقت حان لكي أقوم بما يمليه عليّ الواجب. كنت أرجو من حضوري أن يلفت الأنظار إلى العدد الكبير من الضحايا الذين يسقطون بالرصاص في شوارع المدن كلّ يوم تقريبًا، وأن تدفع هذه الحادثة، ومعها مجزرة نيوتاون، الأميركيين إلى المطالبة

بإقرار قوانين صارمة لحمل الأسلحة. كانت هاديا بندلتون ابنة عائلة متماسكة من الطبقة العاملة تعيش في الجانب الجنوبيّ لشيكاغو، وتشبه عائلتي إلى حدّ بعيد. أي أنّه كان بوسعي معرفتها، أو حتّى أن أكون مكانها في الماضي. ولو أنّها سلكت يومذاك طريقًا آخر للعودة من المدرسة، لو أنّها ابتعدت خمسة عشر سنتمترًا إلى اليسار لا إلى اليمين حين بدأ إطلاق النار، لكان بوسعها أن تصبح ما أصبحتُ عليه أنا.

«فعلتُ كلّ ما كان يفترض بي أن أفعله»، قالت لي أمّها دامعة العينين حين التقينا قبل أن تبدأ مراسم الجنازة. كانت كليوباترا كاولي بندلتون امرأة ودودة ذات صوت رقيق وشعر قصير، وتعمل في قسم خدمة الزبائن في شركة لتصنيف الائتمان. يوم جنازة ابنتها وضعت على طيّة سترتها زهرة ضخمة ورديّة اللون. كانت وزوجها ناثاناييل قد أحاطا هاديا بكل عناية ممكنة، وشجّعاها على دخول ثانوية King الرسمية المتشدّدة في اختيار طلّابها، وحرصا على إبعادها عن الشوارع قدر الإمكان، فسجّلاها في صفوف الكرة الطائرة، ودروس مشجّعات الفرق الرياضية، والرقص الدينيّ في إحدى الكنائس. وكما فعل والداي من أجلي في الماضي، بذلا تضحيات كبيرة لكي تتعرّف إلى العالم خارج حيّها. كان مبرمجًا لها أن تسافر مع فرقتها الموسيقيّة إلى أوروبا في ربيع ذلك العام، وبدا أنّها أحبّت زيارتها إلى واشنطن.

«المكان هناك نظيف جدًّا»، قالت لوالدتها بعد عودتها، «أظنّني سأدخل عالم السياسة».

لكنّها وبدلًا من ذلك أصبحت واحدة من ثلاثة أشخاص ماتوا في حوادث عنف مسلّح متفرّقة في شيكاغو في يوم واحد من شهر كانون الثاني/يناير. وكانت الضحية السادسة والثلاثين التي تسقط منذ بداية العام في شيكاغو، ولم يكن قد انقضى على بدايته سوى تسعة وعشرين يومًا. لا حاجة إلى القول أنّ معظم أولئك الضحايا كانوا من السود. كانت هاديا صاحبة آمال كبيرة وبذلت جهودًا حقيقية، لكنّها تحوّلت إلى رمز للخلل الذي يعترض سير الأمور الطبيعيّ أحيانًا.

احتشد الناس في جنازتها، وامتلأت الكنيسة بأفراد مجتمع تعرّض لضربة مؤلمة، ووجد صعوبة في أن يتقبّل منظر مراهقة ترقد في نعش مبطّن بالحرير البنفسجيّ. وقفت كليوباترا وتحدّثت عن ابنتها. كذلك وقف أصدقاء هاديا ورووا عنها ذكرياتهم، يغمرهم شعور هائل بالاستهجان والعجز. إنّهم فتيان وفتيات في مقتبل العمر يتساءلون لا فقط «لماذا»، بل «لماذا هذه الوتيرة المرتفعة»؟ يومذاك شاركني الحضور في الكنيسة أشخاص بالغون ذوو نفوذ: عمدة المدينة، وحاكم الولاية، والقسّ جيسي جاكسون، وفاليري جاريت، وآخرين كثر. جلسنا في مقاعدنا وكلّ منّا يفكّر على انفراد، يخالجه حزنه وشعوره بالذنب، فيما كانت الجوقة ترنّم بقوّة اهتزّت معها أرض الكنيسة.

كان مهمًّا بالنسبة إليّ أن أكون أكثر من مجرّد امرأة تقدّم التعزية. سمعت خلال حياتي الكثير من الكلمات الفارغة التي تصدر عن أشخاص مهمّين، ومن المجاملات اللفظية التي تقال في الأزمات من دون أن يتلوها أيّ عمل. صمّمت على أن أكون امرأة تقول الحقيقة، وأن أستخدم صوتي لأرفع من معنويات الذين لا صوت لهم، وألّا أخذل مَن هم بحاجة إليّ. علمت أنّني حين أذهب إلى مكان ما، يكون لحضوري وقع دراماتيكيّ، كعاصفة مفاجئة وسريعة يزيد من قوة تأثيرها الموكب الرئاسيّ، وأفراد جهاز الحماية، والمساعدون، ووسائل الإعلام، ووجودي وسط كلّ ذلك. كنّا نقصد مكانًا ما ولا نلبث أن نغادره. لكنّني لم أحبّ وقع ذلك على تفاعلي مع البشر. فحضوري كان يحمل الناس أحيانًا على أن يتلعثموا أو يلوذوا بالصمت، ويصعب عليهم لشدّة ارتباكهم أن يكونوا على سجيّتهم. لهذا غالبًا ما كنت أبادر إلى معانقة الناس، وأحاول عدم الاستعجال، وأزيل قشور المظاهر ليكون اللقاء حقيقيًّا بين بشر من لحم ودم.

حاولت أن أبني علاقات مع الناس الذين التقيتهم، وخصوصًا أولئك الذين لا يمكنهم الوصول عادة إلى العالم الذي بتّ أعيش فيه. أردت أن أُشرك الآخرين في التألّق قدر استطاعتي. فدعوت والدَي هاديا بندلتون بعد أيّام من الجنازة للجلوس بجانبي وحضور

خطاب الاتحاد الذي سيلقيه باراك، ثمّ دعوت العائلة إلى البيت الأبيض لمناسبة تقليد Easter Egg Roll. أصبحتْ كليوباترا من أقوى الأصوات المطالبة بالحدّ من العنف، وعادت إلى البيت الأبيض بضع مرات لحضور اجتماعات مختلفة حول تلك المسألة. حرصتُ على كتابة رسائل إلى طالبات مدرسة Elizabeth Garrett Anderson في لندن، اللواتي تركن فيّ أثرًا عميقًا، وشجّعتهنّ على التحلّي بالأمل والمثابرة، برغم افتقارهنّ إلى الامتيازات الاجتماعية. وفي العام 2011، اصطحبتُ مجموعة من سبع وثلاثين فتاة لمرافقتي بزيارة إلى جامعة أكسفورد، ولم أختر صاحبات أعلى النتائج المدرسيّة، بل أولئك اللواتي ظنّ معلّموهنّ أنّهنّ لم يحقّقن كلّ ما في قدراتهنّ. أردت أن أقدّم إليهنّ لمحة عمّا هو ممكن، وأريهنّ المدى الذي يستطعن الوصول إليه. في العام 2012، استضفتُ طالبات مدرسيّات في البيت الأبيض خلال زيارة الدولة التي قام بها رئيس الوزراء البريطانيّ. شعرت أنّه من المهمّ أن أمدّ يدي إلى الأولاد مرارًا وبطرق عدّة لكي يشعروا أنّ ما يحدث كان حقيقيًّا.

كنت أعي تمامًا أنّ نجاحاتي الأولى في الحياة جاءت نتيجة للحبّ الدائم والتوقّعات الكبيرة التي أحاطت بي في طفولتي، في المنزل كما في المدرسة. شكّل ذلك الدافع الأساسيّ لبرنامج الإشراف الدراسيّ الذي شرعت به في البيت الأبيض، وحلّ في صلب مبادرة تربويّة جديدة كنت وفريقي نستعدّ لإطلاقها، وتدعى Reach Higher (الوصول إلى قمم أعلى). أردت تشجيع الأولاد على النضال للوصول إلى الجامعات، ومتابعة تعليمهم فيها حتّى النهاية. علمت أنّ هذا التعليم سيزداد أهمية في السنوات المقبلة بالنسبة إلى الشبّان والشابّات الذين سيدخلون سوقًا عالميًّا للوظائف. أردت من برنامج Reach Higher أن يساعدهم خلال تلك الرحلة، ويوفّر مزيدًا من الدعم لمستشاري المدارس، ويسهّل الوصول إلى المساعدة المالية الفدرالية.

حالفني الحظّ بأن يكون لديّ والدان، وأساتذة، ومشرفون نقلوا

إليّ وبشكل دائم رسالة بسيطة مفادها: «أنت ذات أهمية». وبعدما أصبحت امرأة بالغة، أردت أن أنقل تلك الرسالة بدوري إلى جيل جديد. وهو ما فعلتُه مع ابنتيّ اللتين حالفهما الحظّ بأن وجدتا في مدرستهما، وفي ظروفهما المميزة، ما يعزّز تلك الرسالة. كما صمّمت على التعبير عن فحوى تلك الرسالة بطريقة أو بأخرى لكلّ شابّ ألتقيه. أردت أن أكون نقيض مرشدتي في المدرسة الثانوية التي قالت لي من دون أيّ مراعاة إنّني لا أصلح لدخول جامعة برنستون.

«كلّنا نعتقد أنّ مكانكنّ هنا»، قلت لطالبات مدرسة Elizabeth Garrett Anderson حين جلسن وقد بدا عليهنّ بعض الذهول في قاعة الطعام القديمة ذات العمارة القوطية في جامعة أكسفورد، يحيط بهنّ أساتذة جامعيّون وطلّاب أتوا للإشراف عليهنّ يومذاك. كنت أقول عبارات مشابهة كلّما زارنا أولاد في البيت الأبيض، كالمراهقين الذين دعوناهم من محمية Standing Rock الخاصة بقبيلة السيو، وطلّاب المدارس المحلّية الذين أتوا للعمل في الحديقة، والطلّاب الثانويين الذين أتوا للمشاركة في أيّام المهن وورش العمل التي نظّمناها في ميادين تصميم الأزياء والموسيقى والشعر، وحتى للأولاد الذين يحتشدون للترحيب بي في المناطق الأميركية المختلفة والذين لا يتسنّى لي إلّا أن أعانقهم عناقًا سريعًا ولكن صادقًا. كانت الرسالة هي نفسها دائمًا: مكانكم هنا. أنتم مهمّون. أقدّركم كثيرًا.

لاحقًا نشر عالم اقتصاد في جامعة بريطانية دراسة حول نتائج الامتحانات التي قدّمتها طالبات مدرسة Elizabeth Garrett Anderson، وأكّدت تلك الدراسة أنّ نتائجهنّ تحسّنت بشكل كبير بعدما بدأتُ التواصل معهنّ، فارتفعت من درجة «مقبول» إلى درجة «جيّد جدًّا». لكنّ الفضل في هذا التحسّن يعود كلّه إلى الفتيات ومعلّميهنّ، والعمل اليوميّ الذي قمن به معًا. كما أكّد هذا النجاح على أنّ الأولاد يبذلون جهدًا أكبر حين يشعرون أنّ في المقابل أشخاصًا يبذلون جهدًا لأجلهم. وأدركت أنّ ثمّة قوّة في أن أُظهر للأولاد تقديري.

بعد مرور شهرين على جنازة هاديا بندلتون، عدت إلى شيكاغو. كنت قد أعطيت تعليماتي إلى تينا، رئيسة فريق عملي، والمحامية التي أمضت سنوات عدّة من حياتها في المدينة، لتبذل قصارى جهودها لحشد الدعم بهدف الحدّ من العنف فيها. كانت تينا مخططة استراتيجية بارعة ورقيقة القلب، وصاحبة ضحكة تنتقل بسهولة إلى مَن حولها، ونشاط لا يضاهيها فيه أحد ممّن أعرفهم. وكانت تدرك مَن يجب الاتّصال به بداخل الحكومة وخارجها لإحداث تأثير على المستوى الذي أريده. كما أنّ طبيعتها وخبرتها ما كانتا لتسمحا بأن يبقى صوتها غير مسموع، خصوصًا في الاجتماعات التي غالبًا ما وجدت نفسها مشاركة فيها، والتي يسيطر عليها الرجال. وفي خلال ولاية باراك الرئاسية الثانية، حاربت البنتاغون وعددًا من حكّام الولايات للتخلّص من الروتين الإداري المعقّد بما يسمح للمحاربين القدامى ولزوجات الجنود أن يبنوا مستقبلًا مهنيًّا لهم بفعالية أكبر، كما ساعدت في تصميم مجهود جديد ضخم بُذِل على مستوى الإدارة ككلّ، يهدف إلى تحسين تعليم الفتيات في العالم كلّه.

على أثر موت هاديا، رفعت تينا مستوى اتصالاتها المحلية، وشجّعت قادة الأعمال ومناهضي العنف في شيكاغو على العمل مع عمدة المدينة، راهم إيمانويل، لتوسيع نطاق البرامج الاجتماعيّة لتشمل الأحداث المعرّضين للخطر في كلّ أنحاء شيكاغو. ساهمت جهودها في الحصول على تعهّدات بلغت قيمتها 33 مليون دولار في أسابيع قليلة. وفي يوم بارد من نيسان/أبريل، سافرتُ وتينا لحضور اجتماع لقادة المجتمع في شيكاغو لمناقشة موضوع تمكين الأحداث، وأيضًا للقاء مجموعة جديدة من المراهقين.

في وقت سابق من شتاء ذلك العام، كرّس برنامج الإذاعة الرسمية This American Life ساعتين لرواية قصص طلّاب وموظّفين في ثانوية William R. Harper Senior في إنجلوود، وهو من أحياء الجانب الجنوبي لشيكاغو. ففي العام السابق، تعرّض تسعة وعشرون من طلّاب المدرسة الحاليين والسابقين إلى

إطلاق النار، ما تسبّب بمقتل ثمانية منهم. أثارت تلك الأرقام ذهولي وذهول مساعديّ، لكنّ الواقع المحزن هو أنّ مدارس المدن الأميركية كلّها كانت تعاني مستويات مرتفعة جدًّا من العنف المسلّح. ووسط الحديث الدائر حول تمكين الأحداث، بدا من المهمّ الجلوس لسماع قصص هؤلاء الأحداث وآرائهم.

في حداثتي، كانت منطقة إنجلوود تتميّز بالخشونة، ولكنّها لم تشهد مثل هذا العدد من حوادث القتل. في سنتي الثانوية الأولى كنت أقصد أسبوعيًّا إحدى المدارس الرسمية هناك لمتابعة حصّة في علوم الأحياء. وبعد سنوات، ولدى مرور موكبي أمام الأكواخ المهملة وواجهات المتاجر المحطّمة وقطع الأراضي الفارغة والمباني المحروقة، بدا لي أنّ التجارة المزدهرة الوحيدة في ذلك المكان هي تجارة المشروبات الروحيّة.

عادت بي الذاكرة إلى طفولتي وحيّي، وتذكّرت كيف كانت كلمة «غيتو» بمثابة تهديد. أدركت الآن أنّ مجرّد ذكرها كان يدفع بالأسر المستقرّة ماديًّا وعائليًّا، والتي تنتمي إلى الطبقة الوسطى، لمغادرة مكان إقامتها نحو الضواحي، تحسّبًا لاحتمال أن تنخفض قيمة منازلها. فكلمة «غيتو» كانت تعني أنّ الحيّ أسود وميئوس منه، بل وصمة عار تنذر بالفشل ثمّ تُعجّل في حدوثه. تلك الكلمة كانت تكفي لإقفال متاجر البقالة ومحطّات الوقود، وتنسف جهود المدارس والمعلّمين الذين يحاولون أن يزرعوا في نفوس أطفال الحيّ تقديرًا لذواتهم. كانت كلمةً حاول الجميع الهروب منها، لكنّها قد تقضي على مجتمع ما بسرعة.

كانت مدرسة Harper High School تقع في وسط الجانب الغربي لإنجلوود، وهي كناية عن مبنى كبير من الحجر الرمليّ له أجنحة عدّة. التقيت مديرة المدرسة، ليونيتا ساندرز، وهي امرأة أفريقية أميركية تتميز بسرعة الحركة، مضت على وجودها في المدرسة ستّ سنوات، وعاملتين اجتماعيتين انغمستا في حياة طلّاب المدرسة البالغ عددهم 510 ومعظمهم يأتي من عائلات ذات دخل متدنّ. دأبت إحدى العاملتين، وتدعى كريستال سميث، على السير في أروقة المدرسة بين الحصص، وتحفيز

الطلّاب بعبارات تشجيعية، والتعبير عن تقديرها لهم بالقول: «أنا فخورة جدًّا بك!» و«أرى أنّك تبذل جهدًا كبيرًا!» وكلّما توقّعت من أحد الطلّاب أن يحسن الاختيار في أمر ما، كانت تهتف به: «أنا أقدّرك مسبقًا!».

في مكتبة المدرسة ذلك اليوم، انضممت إلى حلقة من اثنين وعشرين طالبًا من Harper وكلّهم أفارقة أميركيّون، معظمهم في السنوات الثانويّة، جلسوا في الكراسي وعلى الأرائك، يرتدون سراويل كاكية اللون وقمصانًا رسمية. كان معظمهم شديد الحماسة ليتكلّم، وقد وصفوا شعورهم بالخوف من العصابات والعنف، الخوف الذي يلازمهم يوميًّا بل على مدار الساعة. شرح لي بعضهم أنّ والديه غائبان أو مدمنا مخدّرات، كما أنّ اثنين منهم أمضيا عقوبة في إصلاحيّات للأحداث. أحد الطلّاب في السنة الثانوية الأولى، ويدعى طوماس، قال لي إنّه شاهد صديقته، وكانت في السادسة عشرة من عمرها، تُقتل بالرصاص في الصيف الأسبق. كذلك رأى شقيقه يصاب في حادث آخر، وكان هذا الأخير يجلس خارج المنزل في كرسيّه النقّال، بعدما تسببت رصاصة في إصابته بشلل جزئيّ من قبل. يومذاك كان كلّ الموجودين تقريبًا قد خسروا شخصًا ما: صديقًا، أو نسيبًا، أو جارًا، بالرصاص، في حين أنّ قليلين منهم فقط تسنّى لهم أن يزوروا وسط المدينة ليتمتّعوا بالبحيرة أو يشاهدوا رصيف Navy Pier.

خلال اللقاء، تدخّلت إحدى العاملتين الاجتماعيّتين وقالت للمجموعة: «درجة الحرارة 18 والطقس مشمس!» بدأ جميع الحاضرين يهزّون رؤوسهم بحزن، ولم أكن أعرف السبب. وقالت لهم: «أخبروا السيّدة أوباما عمّا يدور بذهنكم حين تستيقظون في الصباح وتسمعون مذيع أخبار الطقس يقول: درجة الحرارة 18 والطقس مشمس».

لا شكّ بأنّها كانت تعرف الإجابة لكنّها أرادتني أن أسمعها.

اتفق كلّ الطلاب على أنّ يومًا مشمسًا وحرارته مقبولة ليس باليوم الجيّد، ففي مثل تلك الأيّام تنشط العصابات وتزداد حوادث إطلاق النار.

لقد تكيّف أولئك الشبّان مع اللامنطق الذي أملته عليهم بيئتهم، فكانوا يلازمون المنزل حين يكون الطقس صافيًا، ويغيّرون الطرق التي يسلكونها من المدرسة وإليها كلّ يوم بحسب تغيّر مناطق سيطرة نفوذ العصابات وتبدّل الولاءات. قالوا لي إنّ أكثر السبل أمانًا هو أحيانًا بالسير وسط الطريق فيما السيّارات تمرّ مسرعة عن جانبيهم. فبذلك يستطيعون أن يروا على نحو أفضل أيّ تصعيد في المعارك أو يلاحظوا وجود مطلقي نار محتملين. وهذا ما يمنحهم الوقت للهروب.

أميركا ليست مكانًا بسيطًا. كانت تناقضاتها تسبّب لي الدوار. كنت أقصد حفلات جمع التبرّعات التي تقام في المنازل الفخمة في مانهاتن، وأشرب الخمر مع النساء الثريّات اللواتي يزعمن أنّهنّ شديدات الاهتمام بالتعليم ومشاكل الأطفال، ثمّ يملن إليّ ليهمسن في أذني أنّ أزواجهنّ المضاربين في وال ستريت لن يصوّتوا أبدًا لمَن يفكّر حتّى في زيادة الضرائب عليهم.

لكنّني كنت حينذاك في Harper، أصغي إلى الأحداث يتكلّمون حول كيفية البقاء على قيد الحياة. كنت معجبة بقدرتهم على المقاومة، وتمنّيت من كلّ قلبي لو لم يكونوا بحاجة ماسّة إلى تلك القدرة.

نظر إليّ أحدهم نظرة صادقة وقال لي وهو يهزّ بكتفيه: «جميل أن تكوني هنا، ولكن ماذا ستفعلين بشأن ما أخبرناك إيّاه؟».

كنت أمثّل بالنسبة إليهم العاصمة واشنطن بقدر ما كنت أمثّل الجانب الجنوبي لشيكاغو. لذلك، وحين بات عليّ أن أجيب بالنيابة عن واشنطن، شعرت بأنّني أدين لهم بالحقيقة.

«بصراحة»، قلت، «أعرف أنّكم تعانون الكثير هنا، لكنّ أحدًا لن يستطيع إنقاذكم في المستقبل القريب. معظم الموجودين في واشنطن لا يحاولون ذلك حتّى. وكثيرون منهم لا يعرفون حتّى أنّكم موجودون».

شرحت لأولئك الطلّاب أن التقدّم يسير ببطء، وأنّهم لا يستطيعون البقاء مكتوفي الأيدي بانتظار حدوث التغيير. كان كثير من الأميركيين يرفضون زيادة ضرائبهم، وكان الكونغرس عاجزًا

حتّى عن إقرار قانون، ناهيك عن التخلّص من المناكفات التافهة بين الحزبين، لذلك لن تكون هناك استثمارات في القطاع التربوي بقيمة مليارات الدولارات، ولا تغييرات سحريّة في مجتمعاتهم. حتّى بعد المجزرة البشعة في نيوتاون، بدا الكونغرس مصمّمًا على الوقوف في وجه أيّ تدبير قد يساعد على إبعاد الأسلحة عن أيدي أفراد العصابات، فالمشترعون كانوا أكثر اهتمامًا بجمع تبرّعات للحملة الانتخابيّة من National Rifle Association (الجمعية الوطنية للبنادق)، لا بحماية الأطفال. قلت لهم إنّ الفوضى تعمّ السياسة. على هذا الصعيد، لم يكن لديّ أيّ كلمات مشجّعة أو تساهم في رفع المعنويّات.

ومع ذلك فقد لجأت إلى طريقة أخرى، تنبع مباشرة من انتمائيّ إلى الجانب الجنوبيّ لشيكاغو، فقلت لهم: «استخدموا المدرسة».

كان أولئك الأطفال قد أمضوا ساعة يقصّون عليّ فيها روايات مأساوية ومقلقة، لكنّني ذكّرتهم بأنّ تلك الروايات عينها قد أظهرت مثابرتهم، واعتمادهم على أنفسهم، وقدرتهم على تخطّي المصاعب. أكّدت لهم أنّهم يملكون الصفات المطلوبة للنجاح. فهم يجلسون في مدرسة تقدّم لهم تعليمًا مجانيًّا، وفيها الكثير من البالغين الملتزمين والذين يحيطونهم بالرعاية، ويرون فيهم أشخاصًا ذوي أهمية. وبعد نحو ستّة أسابيع، وبفضل تبرّعات من رجال (وسيّدات) أعمال محلّيين، أتت مجموعة من مدرسة Harper إلى البيت الأبيض لزيارتي وباراك شخصيًّا، وأيضًا لقضاء بعض الوقت في جامعة هاورد، ليتعرّفوا إلى البيئة الجامعيّة. وأملت أن يروا أنفسهم قادرين على الوصول إليها.

لن أزعم أبدًا أنّ كلمات سيّدة أولى أو معانقاتها تكفي وحدها لكي تقلب حياة إنسان رأسًا على عقب، أو أنّ ثمّة دربًا سهلة للطلّاب الذين يحاولون السير وسط ما يعانيه زملاؤهم في Harper. لا توجد أيّة قصة بهذه البساطة. طبعًا، كنّا كلّنا نحن الجالسين في المكتبة يومذاك ندرك ذلك. لكنّني كنت هناك لمحاربة وصمة العار القديمة التي كانت تطبع كلّ طفل أسود

يسكن في المدن الأميركية، الوصمة التي كانت تنذر بالفشل وتعجّل في حدوثه. فإذا استطعت الإشارة إلى نقاط القوة التي يتمتع بها أولئك الطلّاب، وجعلتهم يرون أنّ في وسعهم السير إلى الأمام، فسأفعل ذلك دائمًا. كان ذلك فارقًا بسيطًا بإمكاني أن أصنعه.

24

في ربيع العام 2015 أخبرتنا ماليا أنّ فتى يثير إعجابها دعاها إلى حفلة تخرّجه. كانت في السادسة عشرة من عمرها حينذاك، وعلى وشك إنهاء سنتها الثانية الثانوية في Sidwell، لكنّها ظلّت بالنسبة إلينا ابنتنا الطويلة الساقين، والشديدة الحماسة كعادتها، برغم أنّها تبدو أكثر بلوغًا يومًا بعد يوم. كادت آنذاك تضاهيني طولًا، كما بدأت تفكّر في تقديم طلب انتساب إلى الجامعة. كانت طالبة ناجحة، وفضولية، وواثقة في نفسها، وتهوى جمع التفاصيل تمامًا كأبيها. وقد جذبها عالم الأفلام وصناعتها. حين دعونا ستيفن سبيلبرغ إلى حفلة عشاء في البيت الأبيض، العام الفائت، أمطرته ماليا بالأسئلة، حتّى عرض عليها المخرج في النهاية أن تعمل كمتدرّبة في سلسلة تلفزيونيّة ينتجها. كانت ابنتنا تشقّ طريقها الخاصّ.

في العادة لم يُسمَح لماليا وساشا بركوب سيارة شخص آخر وذلك للدواعي الأمنية المعروفة. كانت ماليا قد نالت رخصة قيادة مؤقتة وبات بوسعها القيادة بمفردها في المدينة، مع أنّ أفراد جهاز الحماية كانوا يتبعونها دائمًا بعربتهم الخاصة. ومع ذلك، فمنذ انتقالها إلى واشنطن وهي في العاشرة من عمرها، لم تركب حافلة أو قطارًا قطّ، كما لم يقلّها أيّ شخص خارج جهاز الحماية. لكن في ليلة التخرّج هذه، سمحنا لها باستثناء.

مساء يوم الحفلة وصل صديقها بسيّارته، فسُمح له بالمرور عبر

البوّابة الجنوبيّة الشرقيّة للبيت الأبيض، وتقدّم عبر الطريق المحاذي للحديقة الجنوبيّة والذي يسلكه عادة رؤساء الدول والشخصيّات الأخرى حين يزورون البيت الأبيض، وبعد ذلك سار بشجاعة إلى القاعة الدبلوماسية مرتديًا بزّة سوداء.

«فقط كونا هادئين، لطفًا. اتّفقنا؟»، قالت ماليا لي ولباراك، وقد بدأ شعورها بالإحراج يتراجع تدريجيًّا خلال نزولنا بالمصعد إلى الطابق السفليّ. كنت حافية القدمين، وباراك ينتعل مشّايته. أمّا ماليا فارتدت تنورة سوداء طويلة ولباسًا أنيقًا مكشوف الكتفين. كانت جميلة وبدت وكأنّها في الثالثة والعشرين من العمر.

أظنّنا نجحنا في التظاهر بأنّنا هادئان، برغم أنّ ماليا لا تزال تضحك حتى اليوم، وتتحدّث عن الأمر كذكرى مؤلمة قليلًا. صافحتُ وباراك يد الشابّ، والتُقطت لنا بعض الصور، وعانقنا ابنتنا قبل أن نودّعهما. شعرنا بارتياح – ربّما كان غير منصف – لمعرفتنا بأنّ أفراد جهاز الحماية المسؤولين عن ماليا سيتبعون سيارة الفتى حتّى المطعم، حيث سيتناولان العشاء قبل الحفلة الراقصة، ويلازمونهما بصمت طوال الليل.

لعل الآباء والأمّهات يعتبرون أنّ تلك ليست بالطريقة السيئة لتربية المراهقين، خصوصًا حين يعلمون أنّ عددًا من البالغين الحريصين سيواكبونهم طوال الوقت، ومهمّتهم إنقاذهم في حال حدوث أي طارئ. ولكنّني أتفهّم أيضًا وجهة نظر المراهقين، الذين يرون في ذلك أمرًا مزعجًا تمامًا. كما في كثير من نواحي الحياة في البيت الأبيض، كان علينا أن نكتشف بأنفسنا ما قد يعنيه ذلك لعائلتنا، وأين وكيف نرسم الحدود، وكيف نقيم التوازن بين متطلّبات الرئاسة وحاجات فتاتين تتعلّمان أن تصبحا ناضجتين بمفردهما.

حين بلغت ابنتانا المرحلة الثانوية، حدّدنا لهما وقت العودة إلى المنزل، وذلك عند الحادية عشرة بدايةً، ثمّ عند منتصف الليل لاحقًا. وتقول ماليا وساشا إنّنا تشدّدنا في تطبيق تلك القاعدة أكثر ممّا فعل الكثير من أهالي أصدقائهما. كان بوسعي أن أتّصل بأفراد جهاز الحماية في أيّة لحظة بحال قلقت على سلامتهما أو

مكان وجودهما، لكنّني حاولت ألّا أفعل ذلك. فقد كان مهمًّا بالنسبة إليّ أن تثق الفتاتان بفريقيهما الأمنيين. مع ذلك فعلت ما يفعله الكثير من الأهالي كما أظنّ، وأعني الاعتماد على شبكة من ذوي الطلّاب، لتبادل ما نملكه من معلومات حول المكان الذي يقصده أولادنا واحتمال وجود شخص بالغ يكون مسؤولًا عنهم. لا شكّ بأنّ ابنتينا كانتا تحملان عبئًا إضافيًّا بسبب هوية والدهما، لأنّ أيّ هفوة ترتكبانها قد تتصدّر عناوين الأخبار. كنّا، باراك وأنا، نعي تمامًا كم أنّ ذلك غير منصف بحقّ الفتاتين. فكلانا تخطّينا الحدود قليلًا وارتكبنا بعض الحماقات في مراهقتنا، وقد حالفنا الحظّ بأنّنا فعلنا ذلك من دون أن تكون عيون الأمّة بكاملها شاخصة نحونا.

كانت ماليا في عامها الثامن حين جلس باراك على حافّة سريرها في شيكاغو وسألها ما رأيها في أن يترشّح للرئاسة. الآن أدرك أنّ ما كانت تعرفه آنذاك – أو ما كان أيّ منّا يعرفه – عن حياة الرئيس وعائلته قليل جدًّا. فأن يعيش طفلٌ في البيت الأبيض أمر يختلف كثيرًا عن أن يغادره شخصًا بالغًا. كيف كان لماليا أن تعرف أنّ رجالًا مسلّحين سيتبعونها إلى حفلة التخرّج يومًا ما؟ أو أنّ أشخاصًا سيلتقطون لها صورًا وهي تدخّن سرًّا ويبيعون الصور إلى المواقع الإلكترونية المتخصصة بالثرثرة؟

كانت ابنتانا تقتربان من سنّ البلوغ في زمن بدا فريدًا من نوعه. بدأت شركة Apple ببيع هواتف iPhone في حزيران/يونيو سنة 200، أي بعد نحو أربعة أشهر من إعلان باراك ترشّحه للرئاسة. بيع مليون هاتف منها في أقلّ من ثلاثة أشهر. وقبل أن تنتهي ولايته الثانية، بلغ عدد الهواتف التي بيعت مليارًا. رئاسة باراك كانت الأولى في حقبة جديدة شهدت الانهيار التامّ لكلّ المعايير المتعلّقة بالخصوصيّة، كما شهدت انتشار صور السيلفي وقرصنة المعلومات والسنابشات وعائلة كارداشيان. وقد انغمست ابنتانا في تفاصيل تلك المرحلة أكثر ممّا فعلنا نحن بكثير، من جهة لأنّ وسائل التواصل الاجتماعيّ تحكّمت بحياة المراهقين، ومن جهة أخرى لأنّ طبيعة حياتهما جعلتهما على اتّصال بالجمهور أكثر ممّا

كان متاحًا لنا. حين كانت ساشا وماليا تتنقّلان في واشنطن بعد المدرسة أو في إجازات الأسبوع، كانتا تريان الغرباء يوجّهون هواتفهم نحوهما، أو تقابلان رجالًا ونساءً من البالغين يسألونهما – بل يلحّون عليهما – لالتقاط صورة سيلفي معهما. وأحيانًا كانت ماليا تقول لتبرّر رفضها التقاط صورة معها: «أنت تعرف أنّني لا أزال طفلة، أليس كذلك؟».

بذلنا، باراك وأنا، كلّ ما بوسعنا لحماية ابنتينا من المبالغة في الظهور، فرفضنا كلّ طلبات وسائل الإعلام للقائهما، وحرصنا على إبقاء حياتهما اليوميّة بعيدة عن الأنظار. وقد ساعدَنا أفراد جهاز الحماية بحرصهم على عدم لفت الانتباه إليهم وهم يتبعون ابنتينا في الأماكن العامّة، فكانوا يرتدون السراويل القصيرة وقمصان تي شيرت بدلًا من البزّات، واعتمدوا السمّاعات الخفيّة في الأذنين بدلًا من السمّاعات ذات الأسلاك وميكروفونات المعصم، وذلك لكي يندمجوا أكثر في أماكن اللهو الخاصة بالمراهقين، والتي باتوا – وأعني أفراد الحماية – يتردّدون إليها. كنّا نعارض بشدّة نشر أيّ صور لابنتينا خارج إطار المناسبات الرسمية، وقد أوضح المكتب الإعلامي في البيت الأبيض ذلك لوسائل الإعلام المختلفة. وكلّما ظهرت صورة لإحدى الفتاتين على المواقع الإلكترونية المتخصصة بالثرثرات، كانت ميليسا وأفراد فريقي الآخرون يجرون اتصالات ملحّة ويضغطون بهدف إزالتها.

كانت حماية خصوصية ابنتينا تعني العثور على وسائل أخرى لإشباع فضول الجمهور بشأن عائلتنا. في بداية ولاية باراك الثانية، أضفنا إلى عائلتنا جروة جديدة، اسمها ساني، وهي كلبة رامبلر مستقلّة بطبعها، بدا أنّه لا فائدة من تدريبها على أن تكون كلبة منزلية، لأنّ منزلها الجديد كبير جدًّا. أضاف الكلبان شعورًا بالخفّة والمرح على كلّ شيء، فقد كانا خير دليل على أنّ البيت الأبيض منزل عائليّ. وبما أنّه كان من غير المسموح تغطية أخبار ساشا وماليا، فقد بدأت فرق وسائل الإعلام العاملة في البيت الأبيض تطالب بظهور الكلبين في الصور الرسمية. باتت تقاريري المسائية تتضمّن طلبات موافقة على السماح بإحضار بو وساني

للاختلاط بالإعلاميين أو بالأولاد الذين يأتون لزيارة البيت الأبيض. كنّا نسمح بظهور الكلبين حين يأتي المراسلون لتغطية أخبار التجارة والصادرات الأميركية، أو لاحقًا لسماع باراك يشيد بالقاضي ميريك غارلاند، الذي اختاره ليكون عضوًا في المحكمة العليا. وظهر بو في فيديو ترويجيّ لمناسبة Easter Egg Roll، كما ظهر وساني معي في صور التقطت لحملة أُطلقت عبر الإنترنت لتشجيع الناس على الاشتراك في مبادرة الرعاية الصحية. كانا سفيرين ممتازين، ومحصّنين في وجه النقد، ويجهلان الشهرة المحيطة بهما.

ككلّ الأولاد، كانت أهواء ساشا وماليا واهتماماتهما تتغيّر مع الوقت. فمنذ العام الأول لرئاسة باراك، دأبتا على الوقوف معه أمام عدسات الصحافيين في خريف كل عام أثناء قيامه بأسخف تقليد يمارسه رئيس الولايات المتحدة، وهو العفو عن ديك روميّ قبيل عطلة عيد الشكر. في الأعوام الخمسة الأولى، كانتا تبتسمان وتضحكان للنكات التافهة التي يطلقها والدهما، ولكن في العام السادس، أي حين باتت ساشا في عامها الثالث عشر وماليا في السادس عشر، لم يعد بوسعهما حتى أن تتظاهرا بأنّ الأمر طريف. فبعد ساعات من احتفال ذلك العام، انتشرت على الإنترنت صور استيائهما، فبدت ساشا بملامحها الجامدة وماليا بذراعيها المكتوفتين، تقفان إلى جانب الرئيس ومنبره والديك الرومي الغافل عمّا حوله. وقد أوجز أحد عناوين USA Today هذا الموقف بشكل وافٍ: «ماليا وساشا ملّتا عادة أبيهما في العفو عن الديك الروميّ».

بعد ذلك، أصبح قرار حضورهما حفلة العفو تلك، كما كلّ مناسبات البيت الأبيض، يعود إليهما وحدهما. لقد أصبحتا مراهقتين سعيدتين ومستقرّتين عاطفيًّا، وحفلت حياتهما بالأنشطة والعلاقات الاجتماعية التي لا شأن لوالديهما بها. وبأيّة حال فإنّ صورة الوالدين بالنسبة إلى المراهقين هي مجرّد صورة للسلطة. فقد باتت لابنتينا أجندتاهما الخاصتان بهما، وهذا ما جعلهما لا تهتمّان حتّى بالنواحي الأكثر مرحًا في أجندتنا الخاصة.

«ألا تريدين القدوم هذا المساء لسماع بول ماكارتني يعزف؟»
«أرجوك يا أمّي، لا.»
غالبًا ما كنّا نسمع صوت الموسيقى تصدح من غرفة ماليا. أمّا ساشا وصديقاتها فقد أحببن برامج الطهو على قنوات الكابل، وكانت تطلب أحيانًا من مطبخنا تزيين البسكويت أو إعداد أنواع جديدة من الوجبات الصعبة والغنيّة لهنّ. كانت كلتا ابنتينا تقدّران بقاءهما في الظلّ نسبيًّا حين تذهبان في الرحلات المدرسية أو ترافقان عائلات أصدقائهما في الإجازات (من دون أن تغيبا عن أنظار أفراد جهاز الحماية). أحبّت ساشا كثيرًا أن تختار بنفسها وجباتها الخفيفة في مطار دولس الدولي، وتسافر في الرحلات العادية بطائرات ملأى بالركّاب، لمجرّد أنّ تلك الرحلات تختلف كثيرًا عن الإجراءات المعقدّة الخاصة بسفر عائلة الرئيس في قاعدة أندروز الجوية، والتي باتت قاعدة في حياتنا العائلية.
ومع ذلك، كانت للسفر معنا حسناته طبعًا. فقبل انتهاء ولاية باراك، أتيح لابنتينا أن تستمتعا بمشاهدة مباراة بايسبول في هافانا، وتسيرا بمحاذاة سور الصين العظيم، وتزورا تمثال المسيح المخلّص في ريو دي جانيرو ذات مساء، وسط الظلمة الساحرة الغارقة في الضباب. ولكنّ ذلك قد يكون مصدر إزعاج أيضًا، خصوصًا عندما كنّا نحاول القيام بأمور ليست على صلة بالرئاسة. ففي وقت سابق، وعندما كانت ماليا في سنتها الثانوية الثانية، ذهبنا لقضاء يوم في زيارة جامعتَي نيويورك وكولومبيا. سار الأمر جيدًا لبعض الوقت، وأتممنا جولتنا في أقسام جامعة نيويورك بسرعة، مستفيدتَين من حضورنا المبكر قبل أن يبدأ غالبيّة الطلّاب يومهم الدراسي. زرنا الصفوف، وتحققنا من إحدى غرف مسكن الطالبات، وتحادثنا مع أحد العمداء قبل أن نذهب إلى ضواحي المدينة لنتناول غداء مبكرًا ونبدأ جولتنا الثانية.
المشكلة هي أنّ موكب سيّارات السيّدة الأولى لا يمكن إخفاؤه عن الأنظار، خصوصًا في جزيرة مانهاتن، وفي منتصف أحد أيّام الأسبوع. حين أنهينا غداءنا كان نحو مئة شخص قد تجمّعوا على الرصيف خارج المطعم، وأثاروا جلبة استقطبت أشخاصًا

آخرين. خرجنا لنرى عشرات الهواتف النقّالة مصوّبة نحونا ونسمع سيلًا من الهتافات. لا شكّ بأنّ ذلك الاهتمام كان يعبّر عن حُسن نيّة، فالناس كانوا يصيحون: «تعالي إلى جامعة كولومبيا يا ماليا!» لكنّه لم يكن مفيدًا لفتاة تحاول أن ترسم مستقبلها بصمت.

عرفت في الحال ما عليّ أن أفعله، فتنحّيتُ جانبًا وتركت ماليا تذهب لزيارة جامعة كولومبيا من دوني، وأرسلت لمواكبتها كريستن جونز مساعدتي الشخصية. كان غيابي يقلّص بدرجة كبيرة احتمال أن يتعرّف الناس إلى ابنتي، ما يتيح لها سرعة أكبر في الحركة بوجود عدد أقلّ من أفراد جهاز الحماية. نعم، ربّما كان ممكنًا أن تبدو من دوني كأيّة فتاة أخرى تسير في باحة الجامعة. على الأقلّ كنت أدين لها بأن أمنحها تلك الفرصة.

بأيّة حال فإنّ كريستن، الفتاة التي تقارب الثلاثين عامًا والمولودة في كاليفورنيا، كانت بمثابة أخت كبرى لكلتا ابنتيّ. أتت للعمل في مكتبي كمتدرّبة شابّة، ولعبت هي وكريستن جارفيس، التي ظلّت حتى وقت قريب مديرة لرحلاتي، دورًا أساسيًّا في حياتنا العائلية، فملأتا بعض الفجوات الغريبة التي سبّبتها كثافة برامجنا وطبيعة الشهرة التي تعيق حركتنا. وغالبًا ما حلّت محلّنا «الكريستنان» كما كنّا ندعوهما، فكانتا بمثابة صلة الوصل بين عائلتنا والمدرسة، وأعدّتا المواعيد ورتّبتا للتواصل مع الأساتذة والمدرّبين الرياضيين والأهالي الآخرين حين نعجز، باراك وأنا، عن ذلك. كانتا في نظر الفتاتين مصدرًا للحماية والحبّ والمتعة، أكثر منّي بكثير. وضعت ماليا وساشا ثقتهما بهما ضمنًا، فكانتا تستشيرانهما في كلّ شيء، بدءًا من ملابسهما ووسائل التواصل الاجتماعيّ، وصولًا إلى حضور الفتيان المتزايد حولهما.

حين قامت ماليا بجولتها في جامعة كولومبيا خلال فترة بعد الظهر تلك، بقيتُ في منطقة آمنة اختارها جهاز الحماية، تبيّن أنّها في الطابق السفليّ لأحد مباني التعليم في الجامعة. جلست هناك بمفردي من دون أن يلاحظ أحد وجودي إلى أن حانت ساعة الانصراف، وتمّنيت لو أنّني على الأقلّ أحضرت معي كتابًا لأقرأه. أعترف أنّ تلك اللحظات كانت مؤلمة قليلًا. شعرت

بالوحدة التي لم يسبّبها فقط بقائي بمفردي أنتظر في غرفة لا نوافذ لها، بل إدراكي بأنّ المستقبل قادم شئتُ أم أبيتُ، وأنّ طفلتنا الأولى ستكبر وتغادر المنزل.

لم نكن قد بلغنا نهاية الولاية بعد، لكنّني بدأت أجري تقييمًا. وجدت نفسي أحصي الأرباح والخسائر، وما تمّت التضحية به، وما يمكننا اعتباره تقدّمًا أحرزناه، في بلدنا كما في عائلتنا. هل قمنا بكلّ ما نستطيع القيام به؟ هل كنّا سنخرج من هذه التجربة من دون أذى؟

حاولت أن أتذكّر كيف ابتعدت حياتي كلّيًا عن المستقبل الذي تخيّلته لنفسي، أي دور المرأة المهووسة بالسيطرة وذات السلوك الممكن توقّعه بسهولة، المرأة التي تتقاضى راتبًا ثابتًا وتقيم إلى الأبد في منزل واحد وتمضي أيّامها بوتيرة روتينيّة. متى اخترت الابتعاد عن ذلك؟ متى سمحت للفوضى بأن تدخل حياتي؟ هل حدث الأمر في تلك الليلة الصيفية حين خفضتُ قطعة المثلّجات وملت لأقبّل باراك للمرّة الأولى؟ أم حين ابتعدت نهائيًّا عن أكوام المستندات وتركت عملي في شركة المحاماة، مقتنعة بأنّني سأجد ما يسمح لي بتحقيق ذاتي على نحو أشمل؟

كانت ذاكرتي تعود بي أحيانًا إلى قاعة الكنيسة في روزلاند في الجانب الجنوبيّ البعيد لشيكاغو، حيث ذهبت قبل خمسة وعشرين عامًا، لأوافي باراك. كان يحادث مجموعة من أهالي المنطقة تناضل لمقاومة الشعور باليأس واللامبالاة. ما سمعته منه ذلك المساء كان كلامًا مألوفًا ولكن بصياغة جديدة. كنت أعي تمامًا أنّه باستطاعتنا العيش على مستويين في الوقت عينه، أي أن تكون قدما المرء في الواقع، ولكن متّجهتين نحو التقدّم. ذلك كان ما فعلتُه في طفولتي في جادّة يوكليد، وما فعله دائمًا أفراد عائلتي والأشخاص المهمّشون عمومًا. فالمرء قادر على تحقيق شيء ما إذا بنى لنفسه حقيقة أفضل، ولو كان ذلك في ذهنه أوّلًا. أو كما قال باراك تلك الليلة، يستطيع المرء العيش في العالم كما هو، لكنّه يظلّ قادرًا على العمل ليصنع العالم كما يجب أن

يكون.
كان شهران فقط قد انقضيا على معرفتي بباراك آنذاك. لكنّني أدرك الآن أنّ تلك كانت انعطافتي. فآنذاك، ومن دون أن أنبس ببنت شفة، قررت أن أكرّس حياتي لأكون إلى جانبه، ولأدافع عن هذه القضية.
بعد كلّ تلك السنوات، شعرت بالامتنان للتقدّم الذي رأيته. لم تتوقّف زياراتي إلى مركز Walter Reed في العام 2015، لكن بدا في كلّ مرة أنّ عدد العسكريين المصابين يتناقص. بات جنود الولايات المتحدة المعرّضون للخطر في الخارج أقلّ عددًا، وتراجعت الإصابات التي تحتاج إلى العناية المكثّفة، كذلك تدنّت أعداد النساء اللواتي تحطّمت قلوبهنّ. كان ذلك تقدّمًا بالنسبة إليّ.
التقدّم كان في ورود تقارير من مراكز السيطرة على الأمراض تفيد بأنّ معدّلات بدانة الأولاد تتراجع، وخصوصًا بين الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السنتين والخمس سنوات. كما كان في حضور ألفا طالب مدرسيّ من ديترويت لمساعدتي على الاحتفال بـ College Signing Day(يوم الالتزام الجامعيّ)، وهو عيد عمِلنا على توسيع نطاقه في إطار برنامج Reach Higher، للاحتفال باليوم الذي يلتزم فيه الشبّان والشابّات بجامعاتهم. التقدّم كان أيضًا حين حكمت المحكمة العليا بردّ الطعن بجزء أساسيّ من قانون الرعاية الصحية الجديد في بلادنا، ما ضمن أن إنجاز باراك الداخليّ الأهم، وأعني به توفير الضمان الصحي لكلّ أميركيّ، سيبقى قويًّا وساري المفعول بعد انتهاء ولايته. كذلك شهدنا تقدّمًا في الاقتصاد الذي كان ينزف بمعدّل 800 ألف وظيفة شهريًّا حين دخل باراك البيت الأبيض، لتبدأ بعد ذلك خمس سنوات متتالية من النموّ المتواصل للوظائف.
إعتبرت ذلك كلّه خير دليل على أنّ بلدنا قادر على بناء واقع أفضل. ومع ذلك كنّا نعيش في العالم كما هو.
بعد عام ونصف على جريمة نيوتاون، لم يكن الكونغرس قد أقرّ قانونًا جديدًا واحدًا للحدّ من تفلّت الأسلحة. مات بن لادن، لكنّ تنظيم داعش أبصر النور. وفي شيكاغو، ارتفع معدّل الجرائم بدلًا

من أن ينخفض. وفي فرغسون، ميسوري، أطلق شرطيّ النار على مراهق أسود يدعى مايكل براون، وبقيت جثّته في الشارع لساعات. كذلك أصيب مراهق أسود آخر يدعى لاكان ماكدونالد بستّ عشرة رصاصة أطلقها عليه أفراد الشرطة في شيكاغو، منها تسع رصاصات في ظهره. وفي كليفلاند، قتل أفراد الشرطة فتى أسود يدعى تامير رايس فيما كان يلعب بدمية على هيئة مسدّس. ومات رجل أسود يدعى فريدي غراي نتيجة الإهمال بينما كان تحت حراسة الشرطة في بالتيمور. كما قتلت الشرطة رجلًا أسود يدعى إريك غارنر بعدما شدّ أحد أفرادها الخناق حول عنقه أثناء اعتقاله في ستايتن آيلاند. ذلك كلّه كان دليلًا إلى أنّ في أميركا أمرًا خبيثًا لا يتغيّر. عند انتخاب باراك للولاية الأولى، أعلن عدد من المعلّقين بسذاجة أنّ بلدنا يدخل حقبة «ما بعد العنصرية»، حيث لم يعد لون البشرة مهمًّا. لكنّ ما جرى كان دليلًا إلى حجم الخطأ الذي وقعوا فيه. لشدّة ما استبدّ بالأميركيّين خطر الإرهاب، أغفل الكثيرون منهم العرقيّة والتعصّب اللذين كانا يمزّقان أمّتنا. في أواخر حزيران/يونيو سنة 2015، سافرنا، باراك وأنا، إلى تشارلستون في كارولاينا الجنوبية، لتعزية مجتمع آخر أصابه الحزن، والمشاركة في جنازة قسيس يدعى كليمنتا بينكني. كان بينكني واحدًا من تسعة أشخاص قتلوا في عملية إطلاق نار بدوافع عرقية وقعت في وقت سابق من ذلك الشهر في كنيسة ميثودية أسقفية تعرف باسم كنيسة «الأمّ إيمانويل». كان الضحايا، وكلّهم من الأفريقيّين الأميركيين، قد رحّبوا بشابّ أبيض في الحادية والعشرين من عمره، عاطل عن العمل، لا يعرفه أيّ منهم، لينضمّ إلى مجموعتهم لدراسة الكتاب المقدّس. جلس معهم لبعض الوقت، وحين أحنى أفراد المجموعة رؤوسهم للصلاة، وقف وبدأ بإطلاق النار. ونُقل عنه قوله أثناء ذلك: «يجب أن أفعل هذا، لأنّكم تغتصبون نساءنا وتسيطرون على بلدنا».

ألقى باراك كلمة تأبينية مؤثّرة، اعترف فيها بالعمق التراجيديّ لتلك اللحظة، ثمّ فاجأ الحاضرين حين بدأ يرنّم بصوت هادئ ومفعم بالعواطف ترنيمة «النعمة المدهشة». كانت تلك الخطوة

بمثابة دعوة بسيطة إلى الأمل والمثابرة. بدا أنّ كلّ الموجودين شاركوا في الترنيم. على مدى أكثر من ست سنوات، كنت وباراك نعي تمامًا بأننا نشكّل استفزازًا للبعض. فقد بدأت الأقليّات في بلدنا تتولى شيئًا فشيئًا أدوارًا أكثر أهمية في عالم السياسة والأعمال والترفيه، وكانت عائلتنا المثال الأبرز على ذلك. احتفى ملايين الأميركيين بوجودنا في البيت الأبيض، لكنّ الأمر ولّد في المقابل شعورًا بالخوف والامتعاض لدى آخرين. بدت الكراهية قديمة العهد ومتجذّرة وخطرة كما كانت حالها دومًا.

تعايشنا مع الأمر كعائلة وكأمّة، فواصلنا عيش حياتنا بأفضل ما يمكننا أن نعيشها.

في اليوم نفسه الذي أقيمت فيه الجنازة في تشارلستون، أي في 26 حزيران/يونيو سنة 2015، أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأميركية قرارًا تاريخيًّا أكّدت فيه على حقّ المثليين جنسيًّا بالزواج في الولايات الخمسين بأكملها. كانت تلك لحظة الذروة في معركة قانونية دارت رحاها على مرّ العقود في الولاية تلو الولاية، والمحكمة تلو المحكمة. وكأيّ نضال للحقوق المدنيّة، تطلّب الأمر مثابرة الكثيرين وشجاعتهم. خلال ذلك اليوم، تواترت إليّ التقارير حول بهجة الأميركيين العارمة بهذا الخبر. كان حشد فرح يهتف «الحبّ انتصر!» على درج المحكمة العليا، وكان المثليون يتدفقون أزواجًا أزواجًا إلى مجالس المدن ومحاكم الولايات لممارسة ما بات حقًّا دستوريًّا لهم. بدأت حاناتهم تفتح أبوابها في ساعة مبكرة، وخفقت أعلام قوس قزح في كل شوارع بلدنا.

ساعدتنا تلك الخطوة على تجاوز يوم حزين في كارولاينا الجنوبية. وحين عدنا إلى البيت الأبيض، نزعنا عنّا ملابس الجنازة، وتناولنا عشاء سريعًا مع ابنتينا، ثمّ دخل باراك غرفة المعاهدات ليتابع أخبار محطة ESPN ويستلحق ما فاته من العمل. كنت في طريقي إلى غرفة ملابسي حين رأيت من خلال إحدى النوافذ الشمالية لمقرّ إقامتنا وهجًا يميل إلى اللون البنفسجيّ، فتذكّرت أنّ فريقنا خطّط لإضاءة البيت الأبيض بألوان قوس قزح الخاصة بعلم

المثليين.

نظرت من النافذة فرأيت في جادّة بنسلفانيا، خلف بوابات البيت الأبيض، حشدًا كبيرًا من الأشخاص تجمّعوا في ذلك الغسق الصيفي لرؤية الأضواء. كان طريق السيارات الشمالي مليئًا بموظّفي الرئاسة الذين قرّروا أن يتأخّروا ليشاهدوا تغيّر ألوان البيت الأبيض احتفالًا بالمساواة في الزواج، فهذا القرار أثّر في أشخاص كثيرين. وقفت خلف النافذة أشاهد الفرح العارم ولكن من دون أن أسمع شيئًا. كان ذلك جزءًا غريبًا من واقعنا، فالبيت الأبيض قلعة صامتة ومحصّنة، يكاد الصوت لا يخترق نوافذها وجدرانها السميكة. يمكن لمروحيّة الرئيس أن تحطّ في أحد جوانب البيت الأبيض، وتدور شفراتها وسط الرياح الشديدة وترتطم بأغصان الأشجار من دون أن نسمع شيئًا بداخل مقرّ إقامتنا. لم أكن أدرك أنّ باراك عاد إلى المنزل من صوت المروحيّة، بل من رائحة الوقود التي كانت تجد دائمًا طريقة للنفاذ.

غالبًا ما كنت أشعر بالسرور للّجوء إلى صمت مقرّ إقامتنا في نهاية يوم طويل. لكنّ مشاعري اختلفت في تلك الليلة، وكانت لا تقلّ تناقضًا عمّا هي عليه حال بلدنا. بعد يوم من الحزن أمضيناه في تشارلستون، هأنذا أشاهد حفلة عملاقة تبدأ خارج نافذتي. كان مئات الأشخاص ينظرون إلى منزلنا، فرغبت في أن أراه كما يرونه، ووجدتني فجأة توّاقة للانضمام إلى الاحتفال.

مددت رأسي عبر باب غرفة المعاهدات وسألت باراك:

«أتريد الخروج للنظر إلى الأنوار؟ في الخارج حشود من الناس.»

«تعرفين أنّني لا أستطيع الخروج إلى حيث الحشود»، أجابني ضاحكًا.

كانت ساشا في غرفتها غارقة في جهازها الـ iPad، فسألتها:

«أتريدين مرافقتي لرؤية أضواء قوس قزح؟»

«لا.»

بقيت ماليا التي فاجأتني بالموافقة فورًا. لقد وجدت رفيقة لي! وها نحن نخرج إلى مغامرة في الخارج حيث الناس يتجمّعون، ولم نكن سنستأذن أحدًا.

كان البروتوكول الاعتيادي يقضي بأن نبلّغ أفراد جهاز الحماية الواقفين بجانب المصعد كلّما أردنا مغادرة مقرّ إقامتنا، سواء أكنّا نريد النزول لمشاهدة فيلم أو لاصطحاب الكلبين في نزهة إلى الخارج. لكنّنا في تلك الليلة قررنا ألّا نفعل ذلك، بل تجاوزنا أفراد جهاز الحماية المنتشرين في المقرّ، من دون أن تنظر أيّ منّا في أعينهم. كما تجاهلنا المصعد ونزلنا بسرعة عبر درج ضيّق. سمعت وقع خطوات أفراد الحماية ينزلون الدرج خلفنا محاولين البقاء قريبين منّا. ابتسمت ماليا لي ابتسامة شيطانية. فهي لم تكن معتادة أن أخالف القوانين.

وصلنا إلى الطابق الأرضيّ، وسرنا نحو سلسلة الأبواب العالية المؤدّية إلى الرواق الشمالي حين سمعنا صوتًا.

«مرحبًا، سيدتي! هل يمكنني مساعدتك؟» سألتني كلير فولكنر، الحاجبة العاملة في الدوام الليلي. كانت امرأة سمراء ودودة ورقيقة تمّ إبلاغها بوجودنا من قبل عناصر الأمن الذين يهمسون بميكروفونات معاصمهم خلفنا.

التفتُّ إلى الوراء من دون أن أبطئ سرعتي وأجبتها:

«نريد الخروج لرؤية الأضواء.»

ارتفع حاجبا كلير، لكنّنا لم نعرها اهتمامًا. حين وصلنا إلى الباب، أمسكت بمقبضه السميك والذهبي وسحبته، إلّا أنّه لم يتحرّك. قبل تسعة أشهر تمكّن رجل يحمل سكينًا من القفز عبر أحد السياجات والدخول عبر هذا الباب، وركض في أرجاء الطابق الأرضي قبل أن يوقفه أحد أفراد جهاز الحماية. وإثر ذلك بدأ أفراد الجهاز بإقفال الباب.

التفتّ إلى المجموعة خلفي، وقد باتت تضمّ أحد أفراد جهاز الحماية الذي كان بالهندام الرسميّ والقميص الأبيض وربطة العنق السوداء، وسألتهم، من دون أن أتوجّه إلى أحد معيّن:

«كيف تفتحون هذا الباب؟ لا بدّ من وجود مفتاح له.»

«سيّدتي»، أجابت كلير، «لا أظنّ أنّك تريدين الخروج عبر هذا الباب. كلّ كاميرات الأخبار مصوّبة إلى الجهة الشمالية من البيت الأبيض حاليًّا.»

كانت على حقّ. فشعري كان غير مصفف، وكنت أنتعل مشّاية وسروالًا قصيرًا وقميص تي شيرت. ولم يكن ذلك لائقًا للظهور أمام الجمهور.

«حسنًا»، قلت لها، «ألا يمكننا الخروج من دون أن يشاهدنا أحد؟».

في تلك اللحظة باتت لي ولماليا قضيّة، ولم نكن مستعدّتين للتخلّي عن هدفنا، فقرّرنا الخروج.

اقترح أحدهم تجربة أحد الأبواب البعيدة عن الأنظار في الطابق الأرضي والمخصّصة لتفريغ البضائع، حيث تصل الشاحنات لتسليم الطعام والمستلزمات المكتبية. بدأنا نسير في ذلك الاتجاه. شبكت ماليا ذراعها بذراعي، وقد زادت حماستنا جدًّا.

«سنخرج!»، قلت لها.

«نعم، سنخرج!»، أجابتني.

نزلنا عبر درج رخاميّ وسرنا فوق سجّاد أحمر، ومررنا بتمثالين نصفيين لجورج واشنطن وبنجامن فرانكلن، ثمّ تجاوزنا المطبخ لنرى نفسينا فجأة وقد بتنا في الخارج. أحسسنا بهواء الصيف الرطب يلفح وجوهنا، ورأيت الحشرات المضيئة تلتمع فوق عشب الحديقة. ثمّ سمعنا جلبة الحشود وهتافات احتفالهم خارج البوابات الحديدية. تطلّب خروجنا من منزلنا عشر دقائق، لكنّنا نجحنا في ذلك. خرجنا، ووقفنا فوق رقعة من العشب بعيدًا عن أنظار الجمهور، واستطعنا أن نرى عن كثب مشهدًا جميلًا للبيت الأبيض مضاءً بألوان قوس قزح.

مالت كلّ منّا نحو الأخرى، سعيدة بأنّنا استطعنا شقّ طريقنا إلى هنا.

كما هي حال السياسة دائمًا، كانت رياح جديدة تتجمّع وتوشك على الهبوب. بحلول خريف سنة 2015، كانت الحملة الرئاسية المقبلة على أشدّها. فمن جهة الجمهوريين كان الازدحام شديدًا بوجود حكّام ولايات مثل جون كاسيش وكريس كريستي، وسناتورات مثل تيد كروز وماركو روبيو، إضافة إلى اثني عشر طامحًا آخرين. في هذا الوقت، كان الديمقراطيون يضيّقون بسرعة

من دائرة خياراتهم، لتنحصر بين هيلاري كلينتون وبرني ساندرز الليبرالي، الذي بقي لمدة طويلة سناتورًا مستقلًّا عن فرمونت.

كان دونالد ترامب قد أعلن ترشّحه في بداية الصيف من برج Trump Tower في مانهاتن، وشنّ هجومًا صاعقًا على المهاجرين المكسيكيين الذين نعتهم بـ«المغتصبين»، كما على «الفاشلين الذين يديرون البلاد»، كما قال. خُيّل إليّ أنّه يلجأ إلى موقف استعراضيّ، ويستقطب اهتمام وسائل الإعلام لأنّ في مقدوره أن يفعل ذلك. لا شيء في سلوكه كان يشير إلى جدّيّة رغبته في الحكم.

كنت أتابع الحملة ولكن ليس بالاهتمام عينه كما في السنوات السابقة. بدلًا من ذلك، انهمكت بالعمل على مبادرتي الرابعة كسيّدة أولى، والمسمّاة Let Girls Learn (دعوا الفتيات يتعلّمن) والتي أطلقناها، باراك وأنا معًا، في الربيع المنصرم. كان ذلك مجهودًا طموحًا على مستوى الإدارات الحكومية كافة، ويركّز على مساعدة المراهقات حول العالم لتسهيل وصولهنّ إلى التعليم. خلال السنوات السبع ونيّف التي قضيتها كسيّدة أولى، لطالما فوجئت بما تمثّله الشابّات في عالمنا من وعود، وفي الوقت عينه بقابليّتهنّ للتعرّض للأذى. وأعني بذلك الكثيرات، من الفتيات المهاجرات اللواتي التقيتهنّ في مدرسة Elizabeth Garrett Anderson، وصولًا إلى مالالا يوسفزاي، المراهقة الباكستانية التي تعرّضت لهجوم وحشيّ من قبل أفراد في تنظيم طالبان، والتي قدمت إلى البيت الأبيض لتكلّمنا، باراك وماليا وأنا، حول مناصرتها لتعليم الفتيات. كما شعرت بالرعب حين قامت جماعة بوكو حرام المتطرّفة بعد نحو ستة أشهر من زيارة مالالا باختطاف 276 طالبة نيجيرية، لترهيب العائلات النيجيرية الأخرى وثنيها عن إرسال بناتها إلى المدرسة. دفعني ذلك، للمرّة الأولى والوحيدة في خلال فترة الرئاسة، للحلول محلّ باراك في كلمته الأسبوعية إلى الأمّة، فتحدّثت بكثير من المشاعر العاطفية عن حاجتنا إلى بذل جهد أكبر لحماية الفتيات وتشجيعهنّ حول العالم.

شعرت بأنّ الأمر شخصيّ تمامًا. فالتعليم كان أداة التغيير

الأساسية في حياتي، ورافعتي في الدنيا. انتابني الجزع حين علمت أنّ أكثر من 98 مليون فتاة حول العالم عاجزات عن الوصول إلى التعليم وفقًا لإحصاءات اليونسكو. بعض الفتيات كنّ عاجزات عن ارتياد المدرسة لأنّ عائلاتهنّ بحاجة إليهنّ للعمل. وأحيانًا كانت أقرب مدرسة بعيدة جدًّا أو باهظة الكلفة، أو كان خطر التعرّض لاعتداء في الطريق إليها كبيرًا جدًّا. وفي حالات كثيرة اجتمعت الضوابط الجندرية الخانقة والظروف الاقتصادية للحؤول دون توفير التعليم للفتيات، ما أقفل في وجوههنّ أبواب الفرص المستقبلية. فوجئت بمعرفة أنّ ثمّة فكرة سائدة في بعض مناطق العالم مفادها أن إرسال الفتيات إلى المدرسة أمر لا يستحقّ العناء، برغم أنّ الدراسات تظهر باستمرار أنّ تعليم الفتيات والنساء وإتاحة السبيل لهنّ للعمل يؤدّيان إلى تحسين إجمالي الدخل الوطني.

كنّا، باراك وأنا، ملتزمين بتغيير المفاهيم حول ما يجعل الفتاة ذات قيمة بالنسبة إلى المجتمع. وقد نجح في تأمين موارد بمئات ملايين الدولارات من إدارته عبر USAID و Peace Corps، كما عبر وزارات الخارجيّة والعمل والزراعة. شجّعنا حكومات دول أخرى للمساعدة على تمويل برامج لتعليم الفتيات، وفي الوقت عينه حثّينا الشركات الخاصّة ومراكز الأبحاث على الالتزام بهذه القضيّة.

كنت أدرك آنذاك كيف أثير الضجيج من أجل قضيّة، وأتفهّم أنّه من الطبيعيّ ألّا يشعر الأميركيّون بأنّهم معنيّون بنضالات الشعوب في البلدان البعيدة، فحاولت حمل القضية إلى داخل أميركا، ودعوت مشاهير مثل ستيفن كولبرت لاستثمار نجوميّتهم في المناسبات وعبر وسائل التواصل الاجتماعيّ. كما وافقت على مساعدتي كلّ من جانيل موناي، وزندايا، وكيلي كلاركسون، وفنّانين آخرين، لإطلاق أغنية بوب لافتة للاهتمام من تأليف دايان وارن بعنوان This Is for My Girls، (هذا من أجل بناتي)، والتي سيعود ريعها إلى برامج تمويل تعليم الفتيات حول العالم.

وأخيرًا، كنت مستعدّة للقيام بأمر بدا مخيفًا قليلًا بالنسبة إليّ، وهو الغناء، وذلك بالظهور في سلسلة Carpool Karaoke

الكوميدية التي يستضيفها جايمس كوردن وتُعرض في ساعة متأخّرة من المساء، فندور في حديقة البيت الأبيض الجنوبية بسيّارة سوداء رباعيّة الدفع. غنّينا أغاني Signed, Sealed, Delivered I’m Yours، و Single Ladies، وأخيرًا – وهذا سبب موافقتي على المشروع أساسًا – أغنية This Is for My Girls. كانت ضيفتي النجمة ميسي إيليوت التي جلست في المقعد الخلفيّ وغنّت الراب معنا. عملت بجهد طوال أسابيع على أغاني الكاراوكي التي سأؤدّيها، وحفظت غيبًا إيقاعها جميعها. كان الهدف أن أجعل الأمر يبدو مسلّيًا وخفيفًا، ولكنّ وراء ذلك كلّه كان كالعادة يكمن عمل وهدف أكبر، وهو حثّ الناس على ألّا ينسوا القضيّة. حظيت أغنيتي مع جايمس بخمسة وأربعين مليون مشاهدة على يوتيوب في الأشهر الثلاثة الأولى، ما جعل كلّ جهد بذلناه أمرًا استحقّ العناء.

نحو نهاية العام 2015، سافرنا، باراك وأنا وابنتينا، إلى هاواي لقضاء عيد الميلاد كما نفعل دائمًا، فاستأجرنا منزلًا كبيرًا له نوافذ عريضة مطلّة على الشاطئ، وانضمّت إلينا المجموعة المعتادة من أصدقاء العائلة. وكعادتنا في السنوات الستّ الأخيرة، ذهبنا يوم عيد الميلاد لزيارة الجنود وعائلاتهم في قاعدة بحرية قريبة لجنود المارينز. وككلّ عام، لم تكن الإجازة بالنسبة إلى باراك إلّا إجازة جزئيّة – بالكاد تكون إجازة، حقًّا. فقد واظب على تلقّي الاتصالات الهاتفية، والاستماع إلى التقارير اليوميّة، والتشاور مع فريق مصغّر من المستشارين والمساعدين وكتبة الخطابات الذين يقيمون في فندق قريب. حدا بي ذلك إلى التساؤل عمّا إذا كان سيتذكّر كيف يستريح بالكامل حين يحين الوقت لذلك، وعمّا إذا كان أحدنا سيجد سبيلًا للاسترخاء حقًّا عندما ينتهي كلّ هذا. كما تساءلت عمّا سيكون شعورنا حين سنتمكّن من الذهاب أخيرًا إلى مكان ما من دون أن يرافقنا الرجل الذي يحمل الفوتبول النووي.

برغم أنّني كنت أسمح لنفسي بأن أحلم قليلًا، فقد بقيت عاجزة عن تخيّل كيف سينتهي كلّ هذا.

حين عدنا إلى واشنطن لنقضي سنتنا الأخيرة في البيت الأبيض، كنّا نعرف أنّ الوقت يمرّ بسرعة كبيرة. بدأت أشارك بسلسلة طويلة من المناسبات «الأخيرة» كالحفلة الراقصة الأخيرة الخاصة بحكّام الولايات، وتقليد Easter Egg Roll الأخير، وعشاء المراسلين الأخير في البيت الأبيض. كذلك قمنا، باراك وأنا، بزيارة الدولة الأخيرة إلى المملكة المتّحدة، والتي تضمّنت رحلة سريعة لرؤية صديقتنا الملكة.

لطالما شعر باراك بتقدير خاصّ نحو الملكة إليزابيث، قائلًا إنّها تذكّره بجدّته الحكيمة، توت. أمّا أنا شخصيًّا فكنت أشعر بالرهبة أمام كفاءتها، وهي مهارة لا شكّ أن الضرورة قد نحتتها طوال حياة قضتها بكاملها أمام عيون العامّة. ذات يوم قبل سنوات قليلة، وقفنا، باراك وأنا، إلى جانبها وجانب الأمير فيليب لاستقبال صفّ من الزوّار الرسميّين. نظرتُ بذهول إلى الملكة التي نجحت بجعل الناس يمرّون بسرعة، وذلك بمخاطبتهم بكلمات ترحيب مقتضبة وودّية لا تدع مجالًا لمواصلة الحديث، في حين كان باراك يوحي بالليونة والودّ، وكأنّما يدعو الآخرين إلى الدردشة، ثمّ يأخذ وقته للإجابة عن أسئلتهم فيعرقل توالي مرور الزوّار. بعد السنوات الكثيرة التي انقضت على لقائي به، وجدتني لا أزال عاجزة عن حمله على القيام بعمله بسرعة.

بعد ظهر أحد أيّام نيسان/أبريل سنة 2016، ركبنا مروحيّة من منزل السفير الأميركيّ في لندن إلى قصر وندسور في الريف غرب المدينة. أبلغَنا الفريق الاستباقيّ بأنّ الملكة والأمير فيليب سيستقبلاننا حين تحطّ مروحيّتنا، وأنّهما سيقوداننا شخصيًّا بسيّارتهما إلى القصر لتناول الغداء. وكما هي الحال دائمًا، تمّ تبليغنا مسبقًا بأصول البروتوكول: إلقاء التحيّة بصورة رسميّة على الملكة وزوجها قبل أن نستقلّ سيّارتهما لمرافقتهما في رحلة قصيرة، فأجلس في المقدّمة بجانب الأمير فيليب البالغ من العمر أربعة وتسعين عامًا، والذي سيتولّى القيادة، في حين يجلس باراك بجانب الملكة في المقعد الخلفيّ.

كانت تلك المرّة الأولى، منذ أكثر من ثماني سنوات، التي يقود

سيّارتنا خلالها شخص من خارج جهاز الحماية، أو نركب معًا في سيّارة من دون أن يرافقنا أفراد من الجهاز. بدا أنّ هذه المسألة مهمّة للفرق المولجة بحمايتنا بقدر ما كان البروتوكول مهمًّا للفرق الاستباقيّة التي تظهر حرصًا شديدًا على تحرّكاتنا ولقاءاتنا، وتبذل جهدًا لكي يبدو أدنى التفاصيل صحيحًا وتجري الأمور من دون وقوع أيّ خطأ.

بعد أن هبطت المروحيّة في أحد حقول القصر، وتبادَلنا التحيّة، أطاحت الملكة بكلّ الترتيبات حين أومأت إليّ لأجلس بجانبها في المقعد الخلفيّ لسيّارة الرانج روفر. تجمّدتُ في مكاني وحاولتُ أن أتذكّر ما إذا كان أحدهم قد أطلعني على هذا السيناريو، وما إذا كان الأدب يقضي بأن أجاريها أو بأن أصرّ على جلوس باراك بجانبها.

أدركت الملكة بسرعة سبب تردّدي الذي لم تشاركني إيّاه البتة.

«هل قالوا لك أين يجب أن تجلسي؟»، سألتني بحركة من يدها لتزيل عنّي كلّ شعور بالإرباك، ثمّ أضافت: «هراء. اجلسي حيثما تريدين».

كانت كلماتي في احتفالات تخريج الطلّاب في الربيع تقليدًا مهمًّا بالنسبة إليّ يكاد يرتقي إلى مرتبة القداسة. وكلّ عام كنت ألقي الكثير منها، فأختار عددًا من احتفالات المدارس الثانوية والجامعات، مركّزة في اختياري على المؤسسات التعليمية التي لا تستضيف عادة شخصيّات مهمّة للتحدّث فيها. (آسفة يا جامعتَي برنستون وهارفرد، لكنّكما تبليان حسنًا من دوني.) في العام 2015، عدت إلى الجانب الجنوبيّ لشيكاغو لألقي كلمة في احتفال التخرّج في King College Prep، وهي الثانوية التي كانت هاديا بندلتون ستتخرّج فيها لو بقيت حيّة. جرى تكريمها بوضع كرسيّ فارغ لها في الاحتفال، زيّنه رفاقها بقماش بنفسجيّ وبزهور دوّار الشمس.

في الجولة الأخيرة من كلماتي التي ألقيتها بصفتي السيّدة الأولى، تحدّثت في جامعة Jackson State في ولاية ميسيسيبي،

وهي تاريخيًّا جامعة أخرى للسود، فاغتنمت تلك الفرصة للحديث عن النضال في سبيل التفوّق. كذلك تحدّثت في City College بمدينة نيويورك، حيث ركّزت على قيمة التنوّع والهجرة. وفي 26 أيار/مايو، أي اليوم الذي انتزع فيه دونالد ترامب ترشيح الحزب الجمهوريّ له للرئاسة، كنت في نيومكسيكو، ألقي كلمة أمام صفّ من الطلّاب الأميركيّين الأصليّين الذين تخرّجوا في ثانوية داخلية صغيرة، وكانوا كلُّهم تقريبًا ينوون دخول الجامعة. بمقدار ما كانت تجربتي كسيّدة أولى تزداد عمقًا، كنت أشعر بجرأة أكبر لأتحدّث بكلمات صريحة ومباشرة حول معنى التهميش العرقيّ والجندريّ. أردت أن أشرح للأحداث حقيقة الكراهية التي تظهر في الأخبار والخطاب السياسيّ، وأمنحهم دافعًا للأمل.

حاولت أن أنقل لأولئك الأحداث رسالة تتعلّق بي وبموقعي في العالم، رسالة شعرت بأنّها قد تكون مهمّة. فحواها أنّني عرفت ما معنى أن يكون المرء مغمورًا، وعشت مغمورة، وآتي من سلالة مغمورين. كنت أحبّ أن أذكر أنّني إحدى حفيدات عبد اسمه جيم روبنسون، ربّما كان مدفونًا في قبر مجهول بإحدى مزارع كارولاينا الجنوبيّة. وحين أقف لأتحدّث أمام طلّاب يفكّرون في مستقبلهم، كنت أقدّم شهادة حول أنّه يمكن للمرء أن يتغلّب على واقعه المغمور، أقلّه في بعض النواحي.

كان لاحتفال التخرّج الأخير الذي حضرته في ربيع ذلك العام طابع شخصيّ: فهو احتفال تخرّج ماليا في مدرسة Sidwell Friends، وقد أقيم في يوم دافئ من حزيران/يونيو. تولّت صديقتنا العزيزة إليزابيث ألكسندر، الشاعرة التي ألّفت قصيدة لمناسبة احتفال تنصيب باراك للمرّة الأولى، إلقاء كلمة أمام الصفّ، ما يعني أنّنا، باراك وأنا، قد اكتفينا بالجلوس في مقعدينا والشعور بما يشعر به الآباء والأمّهات. كنت فخورة بماليا التي توشك على السفر لقضاء بضعة أسابيع في أوروبا، وبعد أن تستريح عامًا، تعود لتنتسب إلى هارفرد. كذلك كنت فخورة بساشا التي بلغت عامها الخامس عشر في اليوم نفسه، ومكثت تعدّ الساعات استعدادًا للذهاب إلى حفلة بيونسيه الموسيقية والتي ارتضتها بدلًا من

حفلة عيد ميلادها. كما كانت تنوي قضاء معظم الصيف في Martha’s Vineyard، فتقيم مع أصدقاء العائلة حتّى أصل وباراك إلى هناك لقضاء إجازة. وهناك ستتعرف إلى أصدقاء جدد وتمارس وظيفتها الأولى وهي العمل في مطعم للوجبات السريعة. كذلك كنت فخورة بأمّي التي جلست تحت أشعّة الشمس، على مقربة منّا، مرتدية فستانًا وحذاء أسودين. لقد نجحت تلك المرأة بالإقامة في البيت الأبيض والسفر حول العالم معنا من دون أن يغيّر ذلك في شخصيّتها شيئًا.

كنت فخورة بنا جميعًا، لأنّ مهمّتنا تكاد تنتهي.

جلس باراك بقربي في كرسيّ قابل للطيّ. رأيت عينيه تدمعان خلف نظّارته الشمسيّة وهو يشاهد ماليا تسير على المسرح لاستلام شهادتها. كنت أعلم أنّه متعب، فقبل ثلاثة أيّام ألقى كلمة تأبين في جنازة صديق له من كليّة الحقوق عمل لحسابه في البيت الأبيض. وبعد يومين، فتح أحد المتطرّفين النار في ملهى ليليّ للمثليين جنسيًّا في أورلاندو، فلوريدا، فقتل تسعة وأربعين شخصًا وجرح ثلاثة وخمسين آخرين. كانت المهمّة الملقاة على عاتق زوجي تقدّم كلّ يوم دليلًا جديدًا على جسامتها.

كان باراك والدًا صالحًا وملتزمًا بدوره الأبويّ أكثر بكثير ممّا كان عليه أبوه، ومع ذلك اضطرّ إلى القيام ببعض التضحيات. فقد كان سياسيًّا حين أصبح أبًا، وبات ناخبوه وحاجاتهم جزءًا لا يتجزّأ من حياتنا.

لا شكّ بأنّه شعر بالألم قليلًا حين أدرك أنّه على وشك أن يتمتّع بمزيد من الحرية وينعم بمزيد من الوقت بينما تستعدّ ابنتانا لمغادرة المنزل.

ولكن، كان علينا أن ندعهما تذهبان، فالمستقبل لهما، تمامًا كما ينبغي أن يكون.

في أواخر شهر تموز/يوليو، سافرت وسط عاصفة رعديّة عاتية إلى فيلادلفيا، تعرّضت خلالها الطائرة لمطبّات جوّية عنيفة، لألقي خطابًا للمرّة الأخيرة في مؤتمر للحزب الديمقراطيّ. لعلّها

كانت الرحلة الجوية الأصعب في حياتي. كانت كارولين أدلر مورالس، مديرة التواصل في فريق عملي والتي تعيش أسابيع حملها الأخيرة، قلقة من أن يؤدّي التوتّر الذي سبّبته الرحلة إلى بدء مخاضها. كما جلست ميليسا، وهي التي يثير السفر بالطائرة خوفها حتى في الظروف العادية، متقوقعة في مقعدها. أمّا أنا فلم أكن أفكّر إلّا في الوصول في الوقت المناسب لأستطيع التمرّن على إلقاء خطابي. وبرغم أنني لم أعد أخشى إلقاء الكلمات أمام الحشود الكبيرة، إلّا أنّني كنت أجد ارتياحًا في الاستعداد لخطبي.

في العام 2008، وخلال ترشّح باراك للرئاسة في المرّة الأولى، تمرّنت مرارًا على خطابي أمام المؤتمر الديمقراطيّ حتى حفظته غيبًا بكلّ تفاصيله، من جهة لأنّه لم يكن قد سبق لي آنذاك أن ألقيت خطابًا كهذا في نقل حيّ عبر التلفزيون، ومن جهة أخرى لأنّ الرهان كان كبيرًا. آنذاك كنت أعتلي المسرح بعدما جرت شيطنتي وتصويري على أنّني امرأة سوداء غاضبة لا تحبّ بلدها. منحني خطابي في تلك الليلة الفرصة لأؤنسن نفسي، وأشرح بصوتي مَن أنا، وأمحو بكلماتي الصور الكاريكاتورية والتعابير النمطية التي تناولتني. بعد أربعة أعوام وفي المؤتمر الديمقراطيّ الذي أقيم في شارلوت، كارولاينا الشمالية، تكلّمت بحماسة عمّا رأيته لدى باراك في خلال ولايته الأولى، وكيف أنّه لا يزال رجل المبادئ عينه الذي تزوّجته، وكيف أدركت أنّ «الرئاسة لا تغيّر الإنسان بل تكشف حقيقته».

هذه المرّة، كنت أساند هيلاري كلينتون، المنافسة السابقة لباراك في الانتخابات التمهيدية الشرسة التي خيضت في العام 2، قبل أن تصبح وزيرة خارجيّته المخلصة والفعّالة. لم أشعر نحو أي مرشح بالشغف الذي شعرت به تجاه زوجي، وهو ما جعل خوض الحملات من أجل الآخرين صعبًا بالنسبة إليّ أحيانًا. لكنّني ألزمت نفسي بقاعدة عند إلقائي خطابًا حول أيّ شخص أو أيّ موضوع يدوران في فلك السياسة، وهي ألّا أقول إلّا ما أؤمن به بقوّة وما أشعر به بقوّة.

حطّت بنا الطائرة في فيلادلفيا، وأسرعتُ إلى مركز المؤتمر. لم يتسنّ لي الوقت إلّا لأبدّل ملابسي وأراجع خطابي مرّتين. بعد ذلك خرجت إلى المنبر وقلت حقيقتي. تكلّمت عن المخاوف التي اعترتني في البداية حول تربية ابنتينا في البيت الأبيض، وكم بتّ اليوم فخورة بهما كشابّتين ذكيّتين. قلت إنّني أثق في هيلاري لأنّها تتفهّم متطلّبات الرئاسة، وتتحلّى بالطباع المطلوبة التي تخوّلها تولّي القيادة، ولأنّها لا تقلّ كفاءة عن أيّ مرشّح آخر في التاريخ. كما اعترفتُ بالخيار الصعب الذي على بلدنا أن يواجهه.

آمنت منذ طفولتي بأنّه من المهمّ أن يرفع المرء صوته ليفضح المتنمّرين من دون أن ينحدر إلى مستواهم. وبصراحة، كنّا آنذاك نواجه رجلًا متنمّرًا، من بين آثامه أنّه يزدري الأقليّات، ويعبّر عن احتقاره لأسرى الحرب، ويتحدّى وقار بلدنا بأعلى صوته. أردت أن يفهم الأميركيّون أنّ للكلمات أهميتها، وأنّ لغة الكراهية التي يسمعونها عبر شاشات تلفزيوناتهم لا تعكس الروح الحقيقية لبلدنا، وأنّ بوسعنا التصويت ضدّها. أردت أن أناشد شعور الأميركيّين بالوقار، أي بفكرة أنّنا، وكأمّة، يمكننا أن نتمسّك بالنواة الصلبة التي أتاحت لعائلتي البقاء منذ أجيال. لطالما مكّننا وقارنا من تجاوز الصعاب. كان ذلك خيارًا، ولم يكن هو الأسهل دائمًا، لكنّ الأشخاص الذين أكنّ لهم أكبر قدر من الاحترام كانوا يقومون به كلّ يوم. ثمّة شعار حاولنا، باراك وأنا، العيش على أساسه، وقد أعلنته في تلك الليلة من على المنبر: حين ينحدرون بمستواهم، نرتفع بمستوانا.

بعد شهرين، وقبل أسابيع فقط من يوم الانتخاب، ظهر شريط فيديو لدونالد ترامب صُوِّر العام 2005 في غفلة منه، تباهى فيه أمام مقدّم برامج تلفزيونية بالاعتداء جنسيًّا على نساء، مستخدمًا لغة دنيئة وسوقية لدرجة أنّها وضعت وسائل الإعلام أمام معضلة اقتباسها من دون أن تخالف قواعد الحشمة المعمول بها. ولكن في النهاية تمّ تجاهل تلك القواعد من أجل إسماع الأميركيّين صوت المرشّح.

كدت لا أصدّق أذنيّ حين سمعت ذلك الكلام. ولكن كان هناك

أمر مألوف على نحو مؤلم في التهديد والمزاح الذكوريّ اللذين ظهرا في ذلك الشريط. أستطيع أن ألحق الأذى بك وأنجو بفعلتي. كان ذلك تعبير كراهية أبقته آداب المعشر بعيدًا عن التداول، لكنّه ظلّ كامنًا في صميم مجتمعنا الذي يُفترض به أن يكون متنوّرًا. ذلك التعبير ظلّ حيًّا ومقبولًا بدرجة تكفي للسماح لشخص مثل دونالد ترامب بالتباهي به. كلّ النساء اللواتي أعرفهنّ كنّ يدركن ذلك، وكلّ شخص أُرغم على أن يشعر بأنّه «مختلف» كان يدرك ذلك. ذلك الكلام هو تحديدًا ما كان كثيرون منّا يأملون ألّا يسمعه أبناؤنا أبدًا، ومع ذلك، فمن المحتمل أنّهم سيسمعونه. السيطرة، أو حتّى التهديد بها، كانت نوعًا من تجريد الإنسان من إنسانيّته. إنّها أبشع أنواع السلطة.

ارتجف جسدي غضبًا بعد سماعي ذلك الشريط. كان عليّ أن ألقي كلمة في مهرجان انتخابيّ دعمًا لهيلاري في الأسبوع التالي. وبدلًا من أن أدافع عن قدراتها، وجدتني مضطرّة إلى محاولة الردّ على كلمات ترامب مباشرة، وإلى رفع صوتي أمام صوته.

كتبت كلمتي أثناء جلوسي في غرفة بمركز Walter Reed الاستشفائي، حيث خضعت أمّي لجراحة في الظهر. راحت الأفكار تتدفّق بسرعة. كنت آنذاك قد جوبهت بالكثير من السخرية والتهديد والانتقاد لكوني سوداء، وامرأة، وصاحبة صوت مرتفع. شعرت بالهزء موجّهًا إلى جسدي، أي إلى المكان الفعلي الذي أحتلّه في العالم. شاهدت دونالد ترامب يلاحق هيلاري كلينتون في إحدى المناظرات، ويتبعها وهي تتكلّم، ويقف على مسافة قريبة جدًّا منها، محاولًا تقزيم حضورها. أستطيع ان ألحق الأذى بك وأنجو بفعلتي. تعاني النساء أحيانًا هذه الإهانات طيلة حياة بكاملها، على هيئة صيحات استهجان، وتحرّشات جسديّة، واعتداءات، وقمع. تلك الأمور تجرح مشاعرنا، وتستنزف قوّتنا. بعض الجروح قد تكون صغيرة لدرجة أنّها لا تُرى، وبعضها الآخر كبير ومفتوح، ويترك ندوبًا لا تشفى أبدًا. وفي كلتا الحالين تتراكم تلك الجروح، ونحملها في كلّ مكان، من المدرسة والعمل وإليهما،

وفي المنزل حيث نربّي أولادنا، وفي أماكن عبادتنا، وكلّما حاولنا أن نتقدّم.

كانت تعليقات ترامب صفعة أخرى بالنسبة إليّ. لم يكن بوسعي ترك رسالته من دون ردّ. عملت مع ساره هورفيتز، كاتبة الخطابات البارعة التي ترافقني منذ العام 2008، وحوّلت سخطي إلى كلمات. وبعد أن تعافت أمّي، ألقيتها ذات يوم من تشرين الأول/أكتوبر في مانشستر، نيوهامبشير. عبّرتُ عن مشاعري أمام جمهور مفعم بالطاقة. قلت لهم: «هذا ليس طبيعيًّا. هذه ليست سياسة بالمعنى المألوف. هذا أمر مشين ولا يمكن القبول به». عبّرت عن غضبي وخوفي، كما عن ثقتي بأنّ الأميركيّين يعون تمامًا طبيعة الخيار الذين يقومون به. ألقيت كلمات هذا الخطاب من أعماق قلبي.

ثمّ سافرت عائدة إلى واشنطن، راجية أن تكون كلماتي قد لقيت آذانًا صاغية.

في فصل الخريف، بدأنا، باراك وأنا، نخطّط للانتقال إلى منزل جديد في كانون الثاني/يناير، بعدما قرّرنا البقاء في واشنطن لكي تستطيع ساشا أن تنهي دراستها الثانوية في Sidwell. في هذا الوقت، كانت ماليا في جنوب أميركا تعيش استراحة عام قبل الجامعة، متذوّقة حرّية البقاء بعيدة قدر الإمكان عن صخب عالم السياسة. ناشدت فريق عملي في الجناح الشرقيّ لكي ينهوا مهمّتهم على مستوى راقٍ، حتى ولو كان عليهم التفكير في العثور على وظائف جديدة، وحتى ولو اشتدّت حدّة المعركة بين هيلاري كلينتون ودونالد ترامب يومًا بعد يوم، لدرجة أنّها باتت تستقطب كلّ انتباههم.

في 7 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2016، أي ليلة الانتخاب، قمنا، باراك وأنا، برحلة سريعة إلى فيلادلفيا للانضمام إلى هيلاري وعائلتها في المهرجان الانتخابيّ الأخير الذي أقيم أمام حشد ضخم في Independence Mall. كان المزاج العامّ إيجابيًّا والفوز متوقَّعًا. شجّعني التفاؤل الذي عكسته هيلاري في تلك الليلة، واستطلاعات الرأي التي أظهرت تقدّمها بفارق كبير. كذلك

شجّعني ما ظننتني أدركه حول الصفات التي يقبلها الأميركيّون أو لا يقبلونها عند قائدهم. لم أفترض شيئًا، لكنّني شعرت أنّ الاحتمالات هي في مصلحتنا.

للمرّة الأولى منذ سنوات، لم يكن لباراك أو لي دور نلعبه ليلة الانتخاب. لم نكن قد حجزنا جناحًا في أحد الفنادق لننتظر النتائج، ولم تُمدّ صواني المقبّلات، ولم يُسمع صخب تلفزيون من أيّ زاوية. لم يكن عليّ تصفيف شعري أو الاهتمام بماكياجي أو بملابسي، ولم يكن علينا تهيئة ابنتينا للمناسبة القادمة، أو إعداد خطاب لإلقائه في وقت متأخّر من الليل. لم يكن علينا القيام بشيء، وهذا ما أبهجنا. تلك كانت بداية انسحابنا، والمذاق الأوّل لما قد يكون عليه المستقبل. لا شكّ بأنّنا لا نزال في موقعنا الدستوريّ، لكنّ اللحظة القادمة لم تكن لنا. كنّا فقط شهودًا عليها.

علمنا أنّ النتائج لن تظهر قبل بعض الوقت، فدعونا فاليري لمشاهدة فيلم في قاعة السينما في البيت الأبيض.

لا أتذكّر شيئًا عن الفيلم الذي شاهدناه تلك الليلة، لا عنوانه، ولا حتى نوعه. كنّا فعليًّا نقضي الوقت في الظلام. لم أستطع أن أطرد من ذهني أنّ ولاية باراك الرئاسيّة تكاد تنتهي. ما كان ينتظرنا في وقت قريب جدًّا هو كلمات الوداع، عشرات كلمات الوداع العاطفية، فيما يبدأ أفراد فريق العمل الذين أحببناهم وقدّرناهم كثيرًا بمغادرة البيت الأبيض. كان هدفنا أن نقوم بما قام به جورج ولورا بوش من أجلنا، وجعل انتقال السلطة على أكبر قدر من السلاسة. كان فريقا عملنا، باراك وأنا، قد بدآ بإعداد التقارير ولوائح العناوين والأرقام الهاتفية لمن سيخلفنا في البيت الأبيض. كما أنّ الكثير من موظّفي الجناح الشرقيّ تركوا على مكاتبهم كلمات ودّ كثيرة مكتوبة بخطّ اليد، أعربوا فيها عن كامل استعدادهم لمساعدة مَن سيحلّون محلّهم في مهمّتهم الجديدة.

لم تغب عنّا مشاغلنا اليوميّة الكثيرة، لكنّنا بدأنا أيضًا بالاستعداد بشوق لما ينتظرنا. كنت وباراك متحمّسين للبقاء في واشنطن،

لكنّنا قررنا أن نؤسّس لنا إرثًا في الجانب الجنوبي لشيكاغو، حيث سنقيم «مركز أوباما الرئاسي». كذلك قرّرنا أن نطلق مؤسّسة، مهمّتها تقديم التشجيع لجيل جديد من القادة، وتعزيز الجرأة لديهم. كان لكلينا أهداف كثيرة في المستقبل، لكنّ أهمّها كان توفير مزيد من المساحة والدعم للشبّان وأفكارهم. علمت أيضًا أنّنا بحاجة إلى إجازة، وبدأت البحث عن مكان خاصّ يمكننا أن نستريح فيه أيّامًا قليلة، في كانون الثاني/يناير، بعد أن يقسم الرئيس الجديد اليمين.

لم نكن بحاجة إلّا إلى الرئيس الجديد.

حين انتهى الفيلم وعادت الأضواء، أزّ هاتف باراك الخلويّ. رأيته يلقي إليه نظرة خاطفة، ثمّ يعيد النظر، وقد انعقد حاجباه قليلًا.

«هه»، قال. «نتائج فلوريدا تبدو غريبة.»

لم يكن في صوته أي نبرة تنذر بالخطر، بل شيء من اليقظة، كجمرة تأجّجت فجأة وسط العشب اليابس. أزّ الهاتف مجدّدًا. وبدأ قلبي يخفق. عرفت أنّ المعلومات ترد من دايفيد سيماس، مستشار باراك السياسي، الذي يراقب الأخبار الواردة وهو في الجناح الغربي، ويفهم بدقّة الحسابات الانتخابية الخاصة بكل مقاطعة. إذا كانت ثمّة كارثة على وشك الوقوع، فسيلاحظها سيماس باكرًا.

تفرّست في وجه زوجي، غير واثقة من أنّني مستعدة لسماع ما سيقوله. وأيًّا كان ذلك، فهو لم يبدُ أنّه خبر سارّ. في تلك اللحظة شعرت بانقباض في معدتي، وبقلقي يتحوّل إلى خوف. وفيما بدأ باراك وفاليري يتناقشان في النتائج الأولى، قلت لهما إنني سأصعد إلى مقرّ الإقامة. سرت إلى المصعد، وأنا أرجو أمرًا واحدًا، وهو أن أحجب عن نفسي كلّ شيء وأخلد للنوم. ربّما فهمت ما كان يجري، لكنّني لم أكن مستعدّة لمواجهته.

أثناء نومي، تأكّدت الأخبار: اختار الناخبون الأميركيّون دونالد ترامب ليكون الرئيس المقبل للولايات المتّحدة الأميركية.

أردت أن أؤجّل معرفتي ذلك الخبر إلى أبعد ما يمكنني تأجيله.

حين استيقظت، كان الصباح ماطرًا وكئيبًا، وسماء واشنطن

ملبّدة بالغيوم الرمادية. لم يسعني سوى تفسير ذلك على أنّه جنازة. كان الوقت يتقدّم ببطء شديد. مضت ساشا إلى المدرسة وهي تحاول استيعاب هذا الأمر الذي لا يمكن تصديقه. اتّصلت بنا ماليا من بوليفيا، والاضطراب العميق يبدو في صوتها. قلت لكلتا الفتاتين إنّني أحبّهما وإنّ الأمور ستسير على ما يرام. ولم أكفّ عن محاولة إقناع نفسي بالأمر عينه.

في المحصّلة النهائية، حازت هيلاري كلينتون على نحو ثلاثة ملايين صوت أكثر من خصمها، لكنّ ترامب سيطر على أصوات المجمع الانتخابي بفضل أقلّ من ثمانين ألف صوت مبعثرة بين بنسلفانيا وويسكونسن وميشيغن. لستُ سياسية ولن أحاول أن أقدّم تحليلًا للنتائج، أو أتكهّن مَن كان مسؤولًا أو ما كان غير منصف. تمنّيت فقط لو أنّ عددًا أكبر من الأشخاص ذهبوا للتصويت. وسأتساءل دائمًا عمّا حدا بهذا العدد من النساء، على وجه الخصوص، إلى رفض مرشّحة ذات كفاءات استثنائية، واختيار رجل يكره النساء رئيسًا لهنّ. لكنّ النتيجة ظهرت وبات علينا التعايش معها.

ظلّ باراك ساهرًا طوال الليل تقريبًا لمتابعة ورود المعلومات، وكما درجت العادة، فقد طُلب منه أن يخرج إلى الأمّة، بصفته رمزًا للثبات، لمساعدتها على تقبّل الشعور بالصدمة. لم أحسده على تلك المهمّة. في الصباح، ألقى كلمة تشجيعية على أفراد فريقه في المكتب البيضويّ، وعند الظهر تقريبًا ألقى كلمة رصينة ومطمئنة من Rose Garden داعيًا الأمّة كعادته إلى الوحدة والتحلّي بالوقار، سائلًا الأميركيين أن يحترموا بعضهم بعضًا ويحترموا المؤسّسات التي وضعتها ديمقراطيّتنا.

جلست بعد ظهر ذلك اليوم في مكتبي في الجناح الشرقيّ مع كلّ أفراد فريق عملي، الذين تجمعوا كلّهم في الغرفة على الأرائك وكراسي المكاتب التي جيء بها من الغرف الأخرى. كان معظم أفراد فريقي من النساء وأبناء الأقلّيات، وبينهم كثيرون أتوا من عائلات مهاجرة. بكى الكثيرون وشعروا بأنّ كلّ نقاط ضعفهم قد انكشفت. أولئك الأشخاص بذلوا قصارى جهودهم في

وظائفهم لأنّهم كانوا يؤمنون بالقضايا التي يدعمونها. حاولت أن أقول لهم عند كل منعطف إنّ عليهم أن يشعروا بالفخر بأنفسهم وبأنّ عملهم مهمّ، وبأنّ انتخابًا واحدًا لا يمكنه أن يمحو ثمانية أعوام من التغيير.

لم نخسر كلّ شيء. تلك كانت الرسالة التي علينا نقلها. وهو ما كنت أؤمن به حقًّا. لم يكن الأمر مثاليًّا، لكنّه واقعنا. إنّه العالم كما هو. وعلينا الآن أن نبقى حازمين وأن نوجّه مسيرتنا نحو التقدّم.

آنذاك كنّا قد بلغنا النهاية حقًّا. وجدتني عالقة بين النظر إلى الوراء والنظر إلى الأمام، أطرح على نفسي مرارًا وتكرارًا سؤالًا محدّدًا واحدًا: أيّ شيء يدوم؟

كنّا عائلة الرئيس الأميركيّ الرابعة والأربعين، والعائلة الحادية عشرة فقط التي تقضي ولايتين كاملتين في البيت الأبيض. كذلك كنّا وسنبقى دائمًا العائلة السوداء الأولى. أملت أنّه وحين يصطحب الأهالي أولادهم لزيارة البيت الأبيض في المستقبل، كما اصطحبتُ ماليا وساشا حين كان والدهما سناتورًا، سيجدون ما يذكّر بالوقت الذي قضته عائلتنا هنا. فكّرت أنّ من المهمّ تسجيل حضورنا في إطار التاريخ الكبير لهذا المكان.

مثلًا، لم يطلب كلّ الرؤساء الأميركيين طقمًا رسميًّا من الأواني، لكنّني حرصت على أن نفعل ذلك. وفي خلال ولاية باراك الثانية اخترنا أن نغيّر ديكور غرفة الطعام العائلية القديمة، القريبة من غرفة الطعام الرسمية، فأضفينا عليها مظهرًا حديثًا وفتحناها أمام الجمهور للمرّة الأولى. كما علّقنا على جدارها الشماليّ لوحة تجريدية مذهلة بالألوان الصفراء والحمراء والزرقاء للرسامة ألما توماس واسمها «القيامة»، والتي أصبحت أوّل عمل فنيّ يحمل توقيع امرأة سوداء يُضاف إلى المجموعة الفنّية الدائمة في البيت الأبيض.

إلّا أنّ الأثر الأطول عمرًا بقي خارج جدران البيت الأبيض، في البستان الذي مرّت على إنشائه سبعة أعوام ونصف، وهو ينتج نحو طنًّا من الطعام سنويًّا. وظلّ صامدًا برغم الثلوج والأمطار والبرَد

الشديد، وحتى حين أسقطت الرياح العاصفة شجرة عيد الميلاد الوطنية البالغ طولها ثلاثة عشر مترًا قبل أعوام قليلة. أردت قبل مغادرتي البيت الأبيض أن أضمن استمراريّته، فوسّعنا مساحته لتبلغ 260 مترًا مربّعًا، أي أكثر من ضعفَي المساحة الأولى. أضفنا إليه ممرّات من الحجارة ومقاعد خشبية، وسقيفة للترحيب جئنا بأخشابها من أراضي الرؤساء جفرسون وماديسون ومونرو، ومن المنزل حيث عاش الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن طفولته، وبعد ظهر أحد أيّام فصل الخريف، سرت في الحديقة الجنوبية لأكرّس البستان للخلود.

انضم إليّ في ذلك اليوم مناصرون آزرونا في جهودنا من أجل التغذية وصحّة الأطفال على مرّ السنوات، إضافة إلى طالبَين ممّن ساعدونا حين كانوا في الصف الخامس ابتدائي في مدرسة Bankroft، والذين يكادون يصبحون اليوم أشخاصًا بالغين. كذلك حضر معظم أفراد فريق عملي، ومن بينهم سام كاس، الذي غادر البيت الأبيض في العام 2014، لكنّه عاد لأجل تلك المناسبة.

شعرت بالعواطف تغمرني وأنا أنظر إلى الحشد الذي امتلأ به البستان. كذلك شعرت بالامتنان لكلّ أفراد فريق عملي الذين بذلوا جهدًا كبيرًا في العمل، سواء في فرز الرسائل المكتوبة بخطّ اليد، أو مراجعة خطاباتي بسرعة، أو السفر من ولاية إلى أخرى للإعداد لمناسباتنا. وقد رأيت الكثيرين منهم يتولّون مسؤوليّات أكبر، ويحقّقون النجاح على المستويين المهنيّ والشخصيّ، حتى حين كانت كلّ تحرّكاتهم تحت المجهر. عبء صفة «الأولى» لم يقع على كاهل عائلتي وحدها. فطوال ثماني سنوات كان هؤلاء الشبّان (والشابّات) المتفائلون، إضافة إلى بعض المحترفين المخضرمين، سندًا حقيقيًّا لنا. كانت ميليسا منذ نحو عشر سنوات أوّل مَن وظّفتُهنّ في الحملة الانتخابية، وستبقى صديقة مقرّبة أعتمد عليها لبقية حياتي، وقد لازمتني في الجناح الشرقيّ حتى نهاية ولاية باراك الرئاسية. وكذلك فعلت تينا، رئيسة فريق موظفيّ المميّزة. ومكان كريستن جارفيس حلّت تشينا كلايتون، وهي شابّة مجتهدة في العمل من ميامي،

سرعان ما أصبحت بمثابة أخت كبرى لابنتينا، وركنًا أساسيًا في تسيير أمور حياتي.

كنت أعتبر كلّ أولئك الأشخاص، أي أفراد فريق عملي الحاليّين والسابقين، من أفراد عائلتي. كما شعرت بفخر كبير بما حقّقناه.

أمّا أفلام الفيديو التي انتشرت بسرعة عبر الإنترنت، والتي ظهرتُ فيها أرقص مع جيمي فالون، وأسجّل سلّة فوق رأس لوبرون جايمس، وأغنّي الراب مع جاي فاروا، فقد ركّزنا جهودنا على ألّا تكون مجرّد موجة عابرة تجتاح موقع تويتر لساعات قليلة قبل أن يختفي كلّ أثر لها. وقد حققنا نتائج مشجّعة. فقد بدأ خمسة وأربعون مليون طفل يتناولون وجبات فطور وغداء صحّية، وبات أحد عشر مليون طالب يمارسون نشاطًا جسديًّا لستّين دقيقة يوميًّا عبر برنامج Let’s Move! Active Schools الذي أطلقناه. وعمومًا بات الأطفال يأكلون كمّيات أكبر من الحبوب والخضر والفواكه، وشارفَت حقبة الوجبات السريعة الكبيرة الحجم على نهايتها.

وفي عملي مع جيل بايدن في «توحيد القوى»، أقنعنا مؤسّسات الأعمال بتوظيف أو تدريب أكثر من مليون ونصف من الجنود القدامى وزوجات العسكريّين. ولمعالجة أحد الهواجس الأولى التي تناهى أمرها إليّ خلال الحملة الانتخابية، نجحنا في حمل الولايات الخمسين على التعاون في موضوع اتفاقيات الرخص المهنيّة، والتي تحول دون عرقلة المسيرة المهنيّة لزوجات الجنود (وأزواج الجنديّات) كلّما اضطرّ هؤلاء إلى تغيير مكان الإقامة.

وفي موضوع التعليم، استطعت وباراك جمع مليارات الدولارات لمساعدة الفتيات حول العالم للحصول على التعليم المدرسي الذي يستحققنه. وتلقّى أكثر من 2800 متطوع في Peace Corps التدريب لوضع برامج تعليمية للفتيات موضع التطبيق حول العالم. وفي الولايات المتحدة، ساعدت وفريقي عددًا أكبر من الشبّان على تسجيل أسمائهم في برنامج مساعدات الطلّاب الفدرالي، وأمّنّا الدعم للمرشدين التربويين، وارتقينا بيوم الالتزام الجامعيّ

College Signing Day إلى مستوى وطني.

في هذا الوقت، نجح باراك في وضع حدّ لأسوأ أزمة اقتصادية واجهناها منذ الانهيار الاقتصادي الكبير في الثلاثينيات. كما ساعد في التوصل إلى اتفاقية باريس حول التغيّر المناخيّ، وأعاد عشرات آلاف الجنود من العراق وأفغانستان إلى الوطن، وقاد الجهود التي أدّت إلى الإيقاف الفعلي لبرنامج إيران النوويّ. كما تمّت تغطية عشرين مليون شخص جديد ببرنامج الضمان الصحّي، ونجحنا في قضاء ولايتين رئاسيّتين من دون حدوث فضيحة كبرى. حافظنا والأشخاص الذين عملوا معنا على أعلى معايير الأخلاقيّات والحشمة، وبقينا حتى النهاية.

بعض التغييرات كان قياسها أصعب بالنسبة إلينا، لكنّنا شعرنا بأنّها لا تقلّ أهمّية عن غيرها. قبل ستة أشهر من احتفال البستان، عاد إلى البيت الأبيض لين مانويل ميراندا، المؤلّف الشاب الذي التقيته في إحدى أولى مناسباتنا الفنّية. لقي عمله حول ألكسندر هاملتون النجاح الكبير وتحوّل إلى عرض موسيقيّ ناجح جدًّا في برودواي، وجعل منه نجمًا عالميًّا كبيرًا. كان عرض Hamilton احتفالًا موسيقيًّا بتاريخ أميركا وتعدّديتها، يعيد صياغة فهمنا للدور الذي تلعبه الأقليّات في قصّتنا الوطنية، ويسلّط الضوء على أهمّية النساء اللواتي بقين طويلًا في ظلّ الرجال ذوي النفوذ. شاهدت العرض خارج برودواي، وأحببته كثيرًا لدرجة أنّني ذهبت لمشاهدته مرة جديدة حين وصل إلى خشبات برودواي الشهيرة. كان عملًا أخّاذًا وطريفًا وباعثًا على الفخر كما على الشعور بالألم. باختصار، كان ذلك العمل أهمّ تحفة فنّية عرفتها في حياتي.

أتى لين مانويل بمعظم أفراد فريقه معه إلى واشنطن، وكانوا خليطًا متعدّد الأعراق من الممثّلين الموهوبين. أمضى هؤلاء فترة بعد الظهر مع فتيان وفتيات أتوا من ثانويّات محلّية، وهم مجموعة من كتّاب المسرحيّات والراقصين ومغنّي الراب الناشئين الذين حضروا إلى البيت الأبيض، وكتبوا الأغاني وألّفوا ألحانًا موسيقيّة مع أبطالهم. وفي المساء، اجتمعنا لمشاهدة العرض في الصالون

الشرقي. جلسنا، باراك وأنا، في الصفّ الأمامي، يحيط بنا شبّان وشابّات من كلّ الأعراق والمشارب. غلبَنا التأثّر حين غنّى كريستوفر جاكسون ولين مانويل أغنية « One Last Time» في الوصلة الأخيرة من العرض. كانا فنّانين، أحدهما أسود والآخر بورتوريكي، يقفان تحت ثريّا عمرها 115 عامًا، وبين لوحتين قديمتين عملاقتين لجورج ومارثا واشنطن، يغنّيان شعورهما «بأننا في ديارنا في هذه الأمّة التي بنيناها». وحتى اليوم لم يفارقني شعوري بقوّة تلك اللحظة وحقيقتها.

أثّر فيّ عرض Hamilton لأنّه عكس التاريخ الذي عشته. كان يروي قصّة عن أميركا كبلد يسمح بوجود التعدّدية فيه. لاحقًا فكّرت في هذا: الكثيرون منّا يعيشون حياتهم وهم يخفون قصصهم، ونحن نشعر بالعار أو الخوف حين لا تكون حقيقتنا على قدر الهدف الذي رسمناه لأنفسنا. نكبر ونحن نتلقّى رسائل تقول لنا إنّ ثمّة طريقة واحدة ليكون الفرد أميركيًّا، وإنّنا لا ننتمي إلى أميركا إذا كانت بشرتنا سوداء، أو أردافنا عريضة، أو لم نعش الحبّ بطريقة معيّنة، أو كنّا نتكلّم لغة أخرى، أو نأتي من بلد آخر. وذلك حتى يتجرّأ شخص ما على رواية تلك القصة بطريقة مختلفة.

كبرت مع والد معوّق في منزل صغير جدًّا، وسط عائلة فقيرة، في حيّ بدأ ينهار. ولكنّني كبرت أيضًا محاطة بالحبّ والموسيقى في مدينة تعدّدية، في بلد حيث يستطيع التعليم أن يحلّق بالمرء بعيدًا. كنت فتاة لا تملك شيئًا، أو فتاة تملك كلّ شيء. ذلك رهن بالطريقة التي يرغب المرء في أن يروي قصّته بها.

مع اقترابنا من نهاية ولاية باراك الرئاسية، فكّرت في أميركا بالطريقة ذاتها. أحببت بلدي لأجل الطرق الكثيرة التي يمكننا أن نروي قصّتها بها. كانت لي طوال نحو عقد من الزمن حظوة أن أتنقّل في أرجائه، وأعيش تناقضاته المتشابكة ونزاعاته المريرة، وألمه ومثاليّته الراسخة، والأهمّ من ذلك كلّه قدرته على النهوض من السقطات. لعلّ نظرتي كانت غير مألوفة، لكن أظنّني عشت خلال تلك السنوات ما عاشه الكثيرون، وأعني الإحساس بالتقدّم، والارتياح الذي يبعثه التعاطف، وفرحة رؤية المغمورين

والمهمّشين يجدون بعض الضوء. عشت لمحة متألّقة عن العالم كما يمكنه أن يكون. إنّ ما قدّمناه لإحراز نتائج حقيقيّة والمحافظة عليها كان التالي: التأسيس لجيل صاعد يدرك ما كان ممكنًا، ويدرك أيضًا أنّ بوسعه أن يحقّق المزيد حتّى. فالمستقبل هو شيء يمكننا نحن أن نصنعه بأيدينا.

الخاتمة

في 20 كانون الثاني/يناير 2017، خرجنا، باراك وأنا، للمرّة الأخيرة من البيت الأبيض لمرافقة دونالد وميلانيا ترامب إلى احتفال التنصيب. يومذاك ساورني خليط من المشاعر: التعب، والفخر، والاضطراب، والتوق. لكنّني حرصت على أن أتمالك نفسي، مدركة أنّ كاميرات التلفزة تتعقّب كلّ خطوة نقوم بها. صمّمتُ وباراك على أن نُتِمّ انتقال السلطة بكلّ لياقة ووقار، ونختم أعوامنا الثمانية من دون أن نمسّ بمُثُلنا ولا برصانتنا. وها هي الساعة الأخيرة قد حانت.

صباح ذلك اليوم، زار باراك المكتب البيضوي للمرّة الأخيرة، وترك فيه رسالة كتبها بخطّ يده لخلفه. كذلك اجتمعنا في الطابق الأرضيّ لوداع الموظّفين الدائمين في البيت الأبيض من الخدم، والحجّاب، والطهاة، والمدبّرين، ومنسّقي الأزهار، وكلّ الذين اعتنوا بنا بكثير من الودّ والاحترافية، وكانوا على وشك أن يضعوا تينك الميزتين في تصرّف العائلة الجديدة التي ستأتي لتسكن البيت الأبيض بعد ظهر ذلك اليوم. كان الوداع قاسيًا جدًّا بالنسبة إلى ساشا وماليا، لأنّهما دأبتا على مقابلة كثيرين ممّن نودّعهم كلّ يوم تقريبًا، طوال نصف حياتهما. عانقت الجميع وحاولت ألّا أبكي حين قدّموا إلينا هديّة وداعٍ هي عبارة عن علمَين للولايات المتّحدة: العلم الذي رفرف في اليوم الأول لتولّي باراك الرئاسة، والعلم الذي رفرف في اليوم الأخير، فكانا بمثابة تعبير رمزي عن

بداية التجربة التي عاشتها عائلتنا ونهايتها.

جلست على منصة احتفال التنصيب أمام مبنى الكابيتول للمرّة الثالثة، وبذلت جهدًا لاحتواء انفعالاتي. فالتعدّدية النابضة بالحياة التي تميّز بها احتفالا التنصيب السابقان قد زالت، ليحلّ محلّها أناس يتشابهون بصورة مثيرة للاكتئاب. إنّها مجدّدًا اللوحة التي يطغى عليها العنصران الأبيض والذكوريّ والتي رأيتها مرارًا في حياتي، وخصوصًا في الدوائر العليا، أي الأروقة المختلفة للسلطة التي تمكّنتُ من بلوغها منذ أن غادرت منزل طفولتي. ما تعلّمته من عملي في البيئات الاحترافية – من توظيف محامين جدد لشركة Sidley & Austin وصولًا إلى توظيف أفراد فريق العمل في البيت الأبيض – هو أنّ التشابه يولّد مزيدًا من التشابه، حتى يقرر المرء أن يبذل جهدًا نابعًا من عمق إنسانيّته لإحداث تغيير.

نظرت حولي إلى الثلاثمئة شخص – تقريبًا – الجالسين على المنصّة صباح ذلك اليوم، وهم الضيوف الكرام للرئيس الجديد، فبدا واضحًا لي أنّ ذلك الجهد لن يُبذل في البيت الأبيض الجديد. لعلّ أحد أفراد إدارة باراك قال أنّ الصورة التي ظهرت أمام الرأي العامّ في ذلك الاحتفال كانت سيّئة، وأنّها لا تعكس حقيقة الرئيس أو مُثُله. لكنّ الواقع أنّها ربّما كانت تعكسها فعلًا. وحين أدركتُ ذلك قرّرت أن أغيّر الصورة التي سأقدّمها إلى الرأي العامّ، وتوقّفت حتّى عن محاولة الابتسام.

إنّ انتقال السلطة هو عمليّة انتقال إلى شيء جديد بالمعنى الحرفيّ للتعبير. فالرئيس الجديد يضع يده على الكتاب المقدّس ويقسم يمينًا. ويُشحن أثاث الرئيس القديم إلى خارج البيت الأبيض ليدخله أثاث الرئيس الجديد. ويتمّ إفراغ الخزائن ثمّ ملؤها من جديد. هكذا، وبكلّ بساطة، سترقد رؤوس جديدة على وسائد جديدة، وتظهر أطباع جديدة وأحلام جديدة. حين تأتي اللحظة، ويغادر المرء البيت الأبيض في ذلك اليوم الأخير، يُترك في نواحٍ كثيرة ليجد نفسه من جديد.

أعيش الآن بداية جديدة، ومرحلة جديدة من حياتي. وللمرّة الأولى منذ سنوات عدّة، أتحرّرُ من واجباتي كزوجة رجل

سياسيّ، ولم تعد توقّعات الآخرين تشغلني. لي ابنتان تقتربان من سنّ البلوغ ولا تحتاجان إليّ كما في الماضي، وزوج لم يعد يحمل على كاهله عبء أمّة بكاملها. المسؤوليّات التي شعرتُ بها في الماضي تجاه ساشا وماليا وباراك ومسيرتي المهنيّة وبلدي، تغيّرت بطرق تسمح لي بالتفكير بطريقة مختلفة في ما سيأتي. بات لديّ وقت أطول للتأمّل، وببساطة لأكون نفسي. لي من العمر أربعة وخمسون عامًا، ولا أزال أتقدّم، وأرجو أن أبقى كذلك دائمًا.

بالنسبة إليّ، لا تعني عبارة «وأصبحت» بلوغ نقطة ما أو تحقيق هدف ما. بل أرى فيها حركة إلى الأمام، ووسيلة للتطوّر، وسعيًا دؤوبًا إلى تحسين الذات. الرحلة لا تنتهي أبدًا. أصبحت أمًّا، ولكن بقي لي الكثير لأتعلّمه من ابنتيّ وأقدّمه لهما. أصبحت زوجة، لكنّني أستمرّ بالتكيّف وبالشعور بتواضعي أمام عظمة أن يحبّ الإنسان شخصًا آخر ويبني معه حياة. كما أصبحت امرأة تتمتّع بالسلطة في نواحٍ معيّنة، ومع ذلك ثمّة أوقات لا أزال أشعر خلالها بعدم الأمان أو بأنّ كلمتي غير مسموعة.

إنّها سيرورة، وخطوات نمشيها على درب. فلكي «نصبح»، علينا تحقيق التوازن بين الصبر والحزم، لكي «نصبح»، علينا ألّا نتخلّى أبدًا عن فكرة أنّ هناك مزيدًا من النموّ يجب تحقيقه.

ولأنّ الناس يطرحون هذا السؤال غالبًا، سأجيب هنا وبصراحة: لا نيّة لي في الترشّح للرئاسة على الإطلاق. لم أكن من هواة السياسة قطّ، كما أنّ تجربتي خلال السنوات العشر الأخيرة لم تغيّر الكثير في ذلك. ما زلت آنف من التمييز القذر والحادّ بين الجمهوريين والديمقراطيين، والفكرة التي تقول إنّ علينا اختيار أحد الجانبين والولاء له، من دون أن تكون لنا القدرة على الإصغاء أو المساومة، أو حتى على أن نكون متمدّنين أحيانًا. أعتقد أنّ السياسة في أفضل حالاتها قادرة على أن تكون وسيلة للتغيير الإيجابيّ. لكنّ حلبتها ليست لي.

هذا لا يعني أنّني لا أشعر بالاهتمام العميق بمستقبل بلدنا. منذ أن انتهت ولاية باراك، قرأت أخبارًا أثارت غثياني. وأصابني

الأرق ليلًا، وأنا أشعر بالغضب ممّا يجري. كان مثيرًا للكآبة أن أرى كيف أنّ سلوك الرئيس الحالي وأجندته السياسيّة قد جعلا الكثير من الأميركيّين يشكّكون بأنفسهم، وببعضهم بعضًا، ويخافون بعضهم بعضًا. كما صعُب عليَّ أن أشهد على سقوط سياسات التقرّب من الآخرين والتي بنيناها بعناية، وذلك حين استبعدنا بعض أقرب حلفائنا، وتركنا الأفراد الضعفاء في مجتمعنا معرّضين للخطر ومجرّدين من إنسانيّتهم. وأتساءل أحيانًا إلى أي درك سيصل ذلك.

ولكنّني لن أسمح لنفسي بالانجرار إلى الاستهتار. ففي اللحظات التي تنتابني فيها أشدّ مشاعر القلق، آخذ نفسًا عميقًا وأذكّر نفسي بالحشمة والوقار اللذين رأيتهما في البشر طوال حياتي، وبالعقبات الكثيرة التي تمّ تجاوزها. أرجو أن يحذو الآخرون حذوي. لكلّ منّا دوره في هذه الديمقراطية. ويجب أن نتذكّر قوّة كلّ صوت انتخابيّ. كذلك أتشبّث بقدرة أكبر وأقوى من أيّ انتخاب أو أيّ زعيم أو أيّ خبر إعلاميّ، وهي القدرة على التفاؤل. التفاؤل بالنسبة إليّ هو نوع من الإيمان، وترياق ضدّ الخوف. هذا التفاؤل كان سائدًا في الشقّة الصغيرة التي قطنتها عائلتي في جادّة يوكليد. فقد رأيته لدى والدي، وفي طريقته في التحرّك، وكأنّ جسده سليم، وكأنّ المرض الذي سيقضي في أحد الأيّام على حياته لا وجود له. كما رأيته في إيمان والدتي الراسخ بحيّنا، وقرارها عدم الانفصال عن جذورها، حتى حين أدّى الخوف بكثير من جيرانها إلى توضيب أمتعتهم والرحيل. إنّه الأمر الأوّل الذي جذبني إلى باراك حين أتى إلى مكتبي في Sidley، وعلى وجهه ابتسامة أمل. وقد ساعدني ذلك لاحقًا على أن أتغلّب على شكوكي ونقاط ضعفي وأقتنع بأنّني، إذا ما سمحتُ لعائلتي بعيش الحياة العامّة الأبرز على الإطلاق – وأعني أن نصبح العائلة الأميركية الأولى –، فسنظلّ قادرين على البقاء بأمان وعلى أن نكون سعداء أيضًا.

وهذا التفاؤل يساعدني اليوم. كسيّدة أولى، رأيت التفاؤل في أماكن لم أكن لأتوقّعها. رأيته لدى الجنديّ المصاب في Walter

Reed الذي رفض الإشفاق عليه، فعلّق ورقة على بابه ليذكّر الجميع بأنّه لم يفقد القوّة ولا الأمل. ورأيته لدى كليوباترا كاولي بندلتون، التي حوّلت جزءًا من حزنها على خسارة ابنتها إلى نضال لتطوير قوانين الحدّ من تفلّت الأسلحة. كما رأيته لدى العاملة الاجتماعية في ثانوية Harper التي أصرّت على التعبير بصوت مرتفع عن حبّها وتقديرها للطلّاب كلّما التقت بهم في أروقة المدرسة. التفاؤل متجذّر دائمًا في قلوب الأطفال، لأنّهم يستيقظون كلّ يوم وهم يؤمنون بالخير، وبسحر ما يمكن أن يحدث. الأطفال في أعماقهم أشخاص مؤمنون وغير مستهترين. ونحن مدينون لهم بالبقاء أقوياء، ومواصلة العمل على جعل العالم أكثر عدلًا وإنسانية. من أجلهم علينا أن نبقى أقوياء ونتحلّى بالرجاء، ونعترف بأنّه لا يزال علينا تحقيق المزيد من النمو.

عُلّقت لوحتان لي ولباراك في متحف National Portrait Gallery في واشنطن. لفتةٌ غمرتنا. أشكّ في أنّ مَن ينظر إلى طفولتينا وظروفنا قد يتوقّع أن ينتهي الأمر بشخصين مثلنا إلى أن تُعلَّق لوحتاهما في هذا المتحف. اللوحتان جميلتان، لكنّ الأهمّ هو أنّهما معروضتان ليراهما الأحداث، وأنّ وجهينا سيساعدان على محو المفهوم القائل إنّ على المرء أن يكون له مظهر معيّن ليستطيع أن يدخل التاريخ. إذا كان كلانا ينتمي إلى القمّة، فكثيرون يستطيعون أن ينتموا إليها أيضًا.

أنا امرأة عاديّة وجدت نفسها في رحلة استثنائيّة. أرجو من خلال قصّتي الخاصة التي أشارك العالم بها أن أفسح مجالًا لظهور قصص أخرى وسماع أصوات أخرى، وأن أعبّد الطريق أمام من يشعر بالانتماء إلى القمّة، وأسهّل عليه سبل بلوغها. بمجرّد أنّني حاولت أن أكون على سجيّتي، وأن أتواصل مع الآخرين، حالفني الحظّ بدخول قلاع حجريّة، وصفوفٍ مدرسيّة في المدن، ومطابخ في آيوا. وكما فُتحت أمامي الأبواب، حاولت فتح بابي أمام الآخرين. وهذا ما أريد في النهاية قوله: ليدْعُ كلٌّ منّا الآخر للدخول. وآنذاك قد يتضاءل شعورنا بالخوف، وتقلّ افتراضاتنا الخاطئة، ونتخلّص من الاصطفافات والأفكار المقولبة التي تزرع

بيننا انقسامًا من السهل أن نتجنّبه. وآنذاك قد نتقبّل على نحو أفضل أوجه التشابه بيننا. المسألة ليست في أن نكون كاملين، ولا في المكان الذي نبلغه في النهاية. هناك قوّة في أن ينجح المرء بأن يصبح معروفًا ومسموعًا، وأن يصنع بنفسه قصّته الفريدة، وأن يعبّر عن ذاته بصوته الحقيقيّ. وهناك رُقيّ في أن يكون مستعدًّا ليعرف الآخرين ويسمع صوتهم. بالنسبة إليّ، إنّها الطريقة التي تسمح للإنسان بأن يقول عن نفسه: «وأصبحت».

شكر

كما في كلّ شيء آخر قمت به في حياتي، ما كانت هذه المذكّرات لتبصر النور لولا الحبّ والدعم اللذين أحاطني بهما أشخاص كثيرون.

ما كنت لأكون ما أنا عليه اليوم لولا الدعم الثابت والحبّ المطلق اللذان وفّرتهما لي أمّي، ماريان شيلدز روبنسون. فهي كانت دائمًا صخرتي، وأتاحت لي أن أكون على سجيّتي، من دون أن أبتعد كثيرًا عن الواقع. كما أنّ حبّها غير المحدود لابنتيّ، واستعدادها لتقديم احتياجاتنا على احتياجاتها الخاصّة حتى، وفّرا لي الارتياح والثقة لأغامر بالخروج إلى العالم وأنا مطمئنّة إلى أنّهما محاطتان بالأمان والحبّ في المنزل.

أمّا زوجي باراك، حبيبي، وشريكي منذ خمسة وعشرين عامًا، ووالد ابنتينا المتفاني حبًّا والتزامًا، فقد كان شريك الحياة الذي لا يمكن تخيّله إلّا في الأحلام. وقصّتنا لم تنتهِ فصولها بعد، وأنا أتوق إلى المغامرات الكثيرة التي لا تزال في انتظارنا. شكرًا على ما قدّمته لي من مساعدة وإرشاد في سبيل إنجاز هذا الكتاب... وعلى قراءة فصوله بتأنٍّ وصبر، كما على معرفتك بالضبط متى يجب توجيهي بلطف.

وشقيقي الكبير، كريغ، من أين أبدأ؟ لقد كنتَ حاميَّ منذ وُلدت. وجعلتني أضحك أكثر من أيّ شخص آخر في هذا العالم. أنت أفضل شقيق قد تتمنّاه شقيقة. كما أنّك ابن، وزوج، ووالد يحيط

مَن حوله بالحبّ والعناية. شكرًا على كلّ الساعات التي أمضيتَها مع فريق عملي لاسترجاع أحداث طفولتنا. لعلّ من أفضل الذكريات التي سأحتفظ بها عن فترة تأليف هذا الكتاب، الوقت الذي أمضيناه معًا، ومع أمّي، جالسين في المطبخ نسترجع الكثير من قصص الماضي.

كذلك كان مستحيلًا أن أنجز هذا الكتاب، ولو قضيت عمري كلّه، لولا فريق المعاونين الموهوبين الذين أحبّهم حبًّا عظيمًا. حين التقيت ساره كوربيت للمرّة الأولى منذ عام ونيف، لم أعرف عنها إلّا أنّها كانت محلّ احترام كبير من قبل محرّرة كتابي، وقليلة الإلمام بالسياسة. أمّا اليوم فأنا أأتمنها على حياتي، ليس فقط لأنّها تتحلّى بعقل مدهش وفضوليّ، بل لأنّها إنسانة في غاية اللطف والسخاء. أرجو أن تكون هذه بداية صداقة تدوم طويلًا بيننا.

منذ أكثر من عشرة أعوام بات تايلر لشتنبرغ قيمة كبيرة في عالم عائلة أوباما. حين دخل حياتنا كان واحدًا من مئات مديري الأنشطة الشبّان الطامحين، الآتين من آيوا، وهو يلازمنا منذ ذلك الحين بصفته مستشارًا موثوقًا. وقد شاهدته يتحوّل إلى كاتب مرموق له مستقبل لامع جدًّا.

أمّا محرّرة كتابي مولي ستيرن، فقد جذبني إليها فورًا ما تتمتّع به من الحماسة والطاقة والشغف. كما حالَ إيمانها الراسخ بالرؤية التي كوّنتُها لهذا الكتاب دون استسلامي للقنوط. أشعر بالامتنان العظيم لها ولكامل أفراد فريق Crown، ويضمّ مايا مافجي، وتينا كونستابل، ودايفيد درايك، وإيما بيري، وكريس براند، الذين دعموا هذا المجهود منذ البداية. كما أنّ كلًّا من أماندا داسيبرنو، ولانس فيتزجيرالد، وسالي فرانكلن، وكاريسا هايز، ولينيا كنولميولر، وماثيو مارتن، ودنا باسانانتي، وإليزابت رندفلايش، وأنكي شتاينيكيه، وكريستن تانيغاوا، ودان زيت، قد ساعدوا على إنجاز كتاب «وأصبحت».

أريد أن أشكر أيضًا ماركوس دوله على تسخير كلّ موارد Penguin Random House لإنجاز هذا العمل، الذي كان شعوري بالرّضا الذاتيّ دافعه الأوّل والأخير.

ولولا فريق عملي ما كنت لأنجح في هذا العالم كأمّ، وزوجة، وصديقة وإداريّة محترفة. وكلّ مَن يعرفني جيّدًا يدرك أنّ ميليسا وينتر هي النصف الآخر من عقلي. مِل، شكرًا على مواكبتك لي في كلّ خطوة من هذا المشروع. والأهمّ، شكرًا على حبّك الكبير لي ولابنتيّ. من دونك لا وجود لي.

ميليسا هي قائدة فريق عملي الشخصيّ. هذه المجموعة الصغيرة – ولكن القوية – من النساء الذكيّات والمجدّات في عملهنّ، هي التي تحرص دائمًا على عدم وقوعي في أيّ خطأ، وهنّ كارولين أدلر مورالس، وتشينا كلايتون، وماكنزي سميث، وسامنتا تابمان، وألكس ماي سيلي.

كما قدّم إليّ بوب بارنت ودينين هاول من Williams and Connolly إرشادًا لا يثمّن في عمليّة النشر، وأنا أشعر بكثير من الامتنان لنصائحهما ودعمهما.

وأخصّ بالشكر كلّ الذين ساعدوا على أن يبصر هذا الكتاب النور بشتّى الطرق: بيت سوزا، وتشاك كينيدي، ولورنس جاكسون، وأماندا لوسيدون، وسامنتا أبلتون، وكريستن جونز، وكريس هو، وأرييل فافاسور، وميشيل نوريس، وإليزابت ألكسندر.

إضافة إلى ذلك، أودّ أن أشكر أشلي وولهيتر، المرأة البارعة، على ما قامت به من أبحاث معمّقة، وكذلك جيليان براسيل على تدقيقها في صحّة الوقائع. كذلك أسهم عدد من أفراد فريق عملي القدامى، خلال إعداد هذا الكتاب، في تأكيد صحّة عدد من التفاصيل والأطر الزمنية البالغة الأهمّية. ولا مجال هنا لتسميتهم، لكنّني أشعر بالامتنان لكلّ منهم.

الشكر كلّ الشكر لكلّ النساء الرائعات في حياتي، اللواتي ثبّتن قدميّ. أنتنّ تعرفن مَن أنتنّ وما تعنين لي... صديقاتي، ومدرّباتي، و«بناتي الأخريات»... كما أوجّه شكرًا خاصًّا جدًّا إلى ماما كاي. لقد قدّمتنّ إليّ كلكنّ الدعم خلال عمليّة التأليف، وساعدتنّني على أن أصبح امرأة أفضل.

لم تسمح لي الوتيرة السريعة لحياتي كسيّدة أولى بكثير من الوقت لكتابة المذكّرات الشخصيّة بالطريقة التقليدية. لهذا أشعر

بالامتنان الكبير لصديقتي العزيزة فرنا ويليامس، وهي اليوم عميدة بالوكالة وأستاذ قانون في كليّة الحقوق التابعة لجامعة سينسيناتي. اعتمدتُ كثيرًا على تسجيلات المحادثات التي كنّا نجريها مرّتين سنويًّا خلال الأعوام التي قضيناها في البيت الأبيض، وقد بلغ محتوى تلك التسجيلات نحو ألف ومئة صفحة.

أنا فخورة جدًّا بكلّ ما حقّقناه في الجناح الشرقيّ. أريد أن أشكر الرجال والنساء الكثيرين الذين كرّسوا حياتهم لمساعدة أمّتنا، وأعني بهم أعضاء مكتب السيّدة الأولى المسؤولين عن مختلف الأنشطة، كوضع السياسات، وجدولة المواعيد، والإدارة، والتواصل، وكتابة الخطابات، والمكتب الاجتماعيّ، والمراسلة. شكرًا لفرق العمل، ولمجموعة White House Fellows، وللموظفين الحكوميين في البيت الأبيض، والمسؤولين عن إعداد كلّ من مبادراتي: Let’s Move!، و Reach Higher، و Let Girls Learn، وطبعًا Joining Forces.

ستحتلّ Joining Forces مكانة خاصة في قلبي دائمًا لأنّها أتاحت لي فرصة نادرة لاكتشاف ما يتمتّع به جيشنا المتميّز وعائلات أفراده من قوّة وقدرة على النهوض برغم المصائب. إلى كلّ الجنود، والمحاربين القدامى، وعائلات العسكريين، شكرًا على خدماتكم وتضحياتكم التي تبذلونها بالنيابة عن هذا البلد الذي نحبّه كلنا. إلى الدكتورة جيل بايدن وكلّ أفراد فريقها، لقد كان العمل إلى جانبكم في هذه المبادرة المهمّة نعمة ومتعة حقيقيّتين.

إلى كلّ القادة في مجالَي التغذية والتعليم، وكلّ المناصرين، شكرًا على جهودكم اليومية الشاقّة وغير المعروفة، للحرص على حصول كلّ أولادنا على الحبّ والدعم والموارد التي يحتاجون إليها لتحقيق أحلامهم.

شكرًا لكلّ أفراد جهاز حماية الرئيس الأميركيّ، ولكلّ أفراد عائلاتهم، والذين يبذلون كلّ يوم تضحيات كبيرة تسمح لهم بأن يقوموا بعملهم على أكمل وجه. وخصوصًا أولئك الذين خدموا عائلتي ويستمرّون بخدمتها. أشعر بالامتنان العظيم لتفانيهم

واحترافيّتهم.
شكرًا لمئات النساء والرجال العاملين بجهد كلّ يوم لجعل البيت الأبيض منزلًا حقيقيًّا للعائلات التي تملك حظوة العيش في أحد أعظم صروحنا الوطنية. وأعني بهم الحجّاب، والطهاة، والخدم، ومنسّقي الزهور، وعمّال صيانة أراضي البيت الأبيض، والمدبّرين، وفرق الهندسة. سيكون هؤلاء دائمًا جزءًا مهمًّا من عائلتي.
وأخيرًا، أريد أن أشكر كلّ شابّ وشابّة التقيته(ا) حين كنت سيّدة أولى. إلى كلّ الأرواح الشابّة الواعدة التي لامست قلبي خلال تلك السنوات، إلى الذين ساهموا في أن ينمو بستاني، والذين رقصوا وغنّوا وطهوا وكسروا الخبز معي، والذين تقبّلوا حبّي وإرشادي بعقل منفتح، والذين عانقوني آلاف المرّات عناقًا دافئًا ولذيذًا، رفع من معنوياتي في أحلك الظروف. شكرًا لكم لأنّكم منحتموني دائمًا سببًا للأمل.